

- * بين جان ولشفا خلق ديلونيه شالوا
- * بالقيده بولشا شفال
- * 1981 بولشا لولا ديلونيه شالوا
- * ديلونيه بولشا شفال
- * بولشا لولا ديلونيه شالوا

إيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف

إيلاف قريش

رحلة الشتاء والصيف

الإهداء

إلى برهان شبيب
مؤسس مجلة واشنطن

فكتور سحاب

دكتور دولة في التاريخ - الجامعة اللبنانية
باحث زائر في جامعة جورجنتاون - واشنطن
حائز على منحة فولبرايت للأبحاث



المركز الثقافي العربي



كومبيو نشر
لدراسات والأعلام والنشر والتوثيق

24/92/560

* إيلاف قريش، رحلة الشتاء والصيف

* تأليف فكتور سحاب

* الطبعة الأولى، أيار/مايو 1992

* جميع الحقوق محفوظة

* الناشر: كومبيونشر والمركز الثقافي العربي

■ كومبيونشر: بيروت - فندق البوريفاج - ص.ب. ١١٣/٥٢٨٣ - ت: ٨٣٢٢٦٣ - فاكس: LE٨٧١٨٦٢

■ المركز الثقافي العربي ● بيروت - ص.ب. 113/5158 - ت: 352826 - توكس NIZAR 23297LE
● الدار البيضاء - ص.ب. 4006 (الاحباس) - فاكس - 305726 - ت: 271753

شبيقة نغاليا

نفيصاام، لتشاا قلاء

بالشعبه، رمتك

كيتللا، قعدلنلا - رمتك، رمتك، رمتك
رمتك، رمتك، رمتك، رمتك، رمتك
رمتك، رمتك، رمتك، رمتك، رمتك

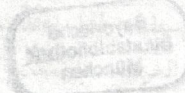


کتابخانه ملی و اسنادخانه جمهوری اسلامی ایران
کتاب: شبيقة نغاليا / نویسنده: نفيصاام، لتشاا قلاء
شماره ثبت کتاب: 113/59/56 - شماره ثبت اسناد: 352626
تاریخ ثبت کتاب: 1375/05/27 - تاریخ ثبت اسناد: 1375/05/27

مقدمة

الإهداء

الى عرفان شهيد
عربون محبة وامتنان



Hussein, Paul P.A. The Early Arabian Trade and Settlement, Beirut, Dar al-Farab, vol. 20 (1)
SANTAVILLE, Paul Les Arabes au Maroc du Moyen Age, Paris, 1974, p. 107
Rogge, Alfred Arabische Geschichte, Bonn, 1874, p. 107
de Jussieu, Jules, Les Arabes au Maroc, Paris, 1874, p. 107

مقدمة

أ- توسلاً إلى تحقيق بعض أغراض هذا المبحث، يلاحظ ما يلي:

١- تتوسط الجزيرة العربية بحرين عظيمين هما المحيط الهندي من الجنوب والشرق، والبحر الأبيض المتوسط من الشمال والغرب. كذلك تتوسط ثلاث قارات كانت مهد الحضارات منذ القدم ولا تزال محط نشاط إنساني حضاري وسياسي وتجاري كبير، هي آسية شرقاً وإفريقية غرباً وجنوباً وأوروبة غرباً وشمالاً. ويرى باحثون أنه كانت «الجزيرة العرب على الدوام مكانة لدى بقية العالم، يَضمُّنها وضعُها الجغرافي [هذا]، كفاصل بين بحرين. إذ يختلف مناخ البلاد المطلة على المحيط الهندي وما والاها شرقاً حتى الصين، اختلافاً كاملاً عما في حوض البحر المتوسط. ولذا اعتُدت منتجات شرق إفريقية والهند واندونيسية والصين نادرة في الغرب، فارتفعت أسعارها... وألفت بلاد العرب وسكانها اليونان والرومان، وكذلك وقعت جزيرة العرب [في الوقت ذاته] عند عتبة الهند والصين، وأنتجت بضائع غلا ثمنها في أسواق الغرب... وكان الاقبال على اللبان والمر والأفاويه هو الأشد»^(١) ولم تكن تلك حالة معزولة في التاريخ. فكلما كانت البلاد الواقعة إلى الجنوب والشرق من البحر الأحمر تنتج منتجات تحتاج إليها البلاد الواقعة إلى الشمال والغرب من البحر الأحمر حاجة ماسة، كانت منطقة الجزيرة العربية وما صاقبها من خطوط بحرية عبر البحر

Husein, Raef T.A.: The Early Arabian Trade and Marketing, *Islamic Quarterly*, vol. 30 (١)

SANLAVILLE, Paul: Des Mers au Milieu du Désert, Mer : وانظر أيضاً: (1986), p.109.

Rouge et Golfe Arabo-Persique, dans *L'Arabie et ses Mers Bordières, I*, sous la direction

de Jean-François Salles, GS Maison de l'Orient, Lyon 1988; p.10



الأحمر أو عبر الخليج ونهر الفرات والصحراء السورية، تتحول إلى موضوع صراع دولي بين الدول الكبرى ذات المصلحة في تجارة هذه المنتجات. ذلك كان الحال عندما كانت الأفافيه والبخور والفضة والحريز وما عداها، مواد «استراتيجية» بمقاييس عصرها. وذلك هو الحال اليوم بعد ظهور النفط شرق البحر الأحمر. ومثلما تتأثر أسعار النفط في عالمنا اليوم بالأحداث، صغیرها وكبیرها، كانت تجارة منتجات الشرق تتأثر في الزمان الغابر. حتى قيل إنه لو: «جاءت الأنبياء تخبر عن عاصفة هوجاء في المحيط الهندي، لارتفعت الأسعار ارتفاعاً مذهلاً»^(١)، في أسواق الغرب القديم.

٢- في وقت ما، قبل ظهور الاسلام، تسلمت قريش ومدينتها مكة المكرمة، أزمة تنظيم التجارة الدولية بين الجنوب والشرق وبين الشمال والغرب. وكانت تحتاج من أجل بلوغ غايتها هذه إلى جمع جهد القبائل العربية الراغبة في استثمار أموالها في هذه التجارة، وإلى تحييد القبائل التي قد ترغب في غزو القوافل التجارية. كذلك كانت تحتاج إلى دعم زعامتها السياسية والاقتصادية بالوسائل المتاحة، ومنها ضمان نوع من الولاء الديني والعقدي لقريش ول مكة، ومنها أيضاً إشراك ما أمكن من قبائل العرب في المواسم والأسواق المتنقلة، حيث يجتمع عامة عرب الجزيرة على مكاسب هذه التجارة، ويتبادلون العلاقات الاجتماعية ويتبارون في محافل الأدب والشعر. فكان جرء هذا المشروع الجماعي الخطير، أن أخذت تتجمع من حول هذا المشروع ملامح نزوع وحدوي في مختلف وجوه الحياة.

إذا انطلقنا من هذا التصور المبدئي فسيكون في مكنتنا أن نلج موضوع «إيلاف قريش»، وفي ذهننا أن الإيلاف كان تطوراً بالغ الخطورة على صعيدين: أولهما، صعيد خارجي يختص بتسلم العرب أزمة الخطوط التجارية الدولية المارة عبر ديارهم، بين حوضي البحرين العظيمين واستعادة العرب لدور الوساطة التجارية، وهو دور تؤهلهم له مكانة بلادهم في الجغرافية السياسية للعالم

(١) Husein, ibid, p 114

«القديم»، وثانيهما، صعيد داخلي يختص بالذور التوحيدية التي تنشأ من مثل هذا الالتفاف حول المشروع العربي الواحد واحتمالات تطوير أثره الفاعل في كل الميادين السياسية والثقافية والفكرية والاجتماعية. وهما أمران يجعلان للإيلاف وفهمه مكانة عظيمة في وعي العرب لتاريخهم الغابر، وفي فهم كثير من حقائق الجغرافية السياسية العربية، التي بقيت لنا منها اليوم عناصر مما سلف من أوضاع، وفي الإيعاء بالسلوك المحتمل الذي يستطيع العرب اليوم أن يسلكوه، لا في استعادة أزمة دورهم في منطقتهم حيال قوى الخارج فقط، بل في الاهتمام إلى مشروع يجمعهم على مصلحة مشتركة ذات أثر توحيدي متعاظم يؤدي إلى التفاهم حول هذا المشروع، ويدعم في الوقت نفسه قدرتهم على المبادرة في ديارهم.

يقول الهمداني: «لولا أن الله عز وجل خص بلطفه كل بلد من البلدان وأعطى كل إقليم من الأقاليم بشيء منعه غيرهم لبطلت التجارات وذهبت الصناعات ولما تغرب أحد ولا سافر رجل وتركوا التهادي، وذهب الشراء والبيع والأخذ والعطاء. إلا أن الله أعطى كل صقع في كل حين نوعاً من الخيرات، ومنع عن الآخرين، ليسافر هذا إلى بلد هذا، ويستمتع قوم بأمتعة قوم»^(١). ولعل أعظم «نوع من الخيرات» اختص به العرب هو توسطهم هذا بين البحار والقارات، فتوسطوا في التجارة والثقافة والحضارات، وكانوا وسيلة اتصال بين مختلف الأمم، فبلغوا في هذا ما لم يبلغه كثير من الأمم غيرهم. ولذا يصبح فهم العرب للإيلاف فهماً للذات وللمكانة في العالم وللعلاقة بمن عداهم من أمم.

* * *

ب- ثمة من يعتقد أن ظهور الاسلام قبل أربعة عشر قرناً ونيف، جاء من فراغ سياسي واقتصادي وثقافي واجتماعي كامل. إلا أن عدداً من الباحثين في

(١) الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب: كتاب البلدان، ليدن، ١٣٠٢ هـ، ص ٢٥١. وانظر حمور، عرفان محمد: أسواق العرب، دار الشورى، بيروت، ١٩٧٩، ص ١٥.

دراسات مختلفة، أثبتوا بجهود دؤوبة، ولو انها موزعة مبعثرة، أن القرن الذي سبق ظهور الاسلام، كان، على الأقل، حافلاً بأحداث غاية في الخطورة في منطقة الحجاز وأطرافها. وهذه الجهود، على كونها تستحق الثناء والتقدير، افتقرت عموماً إلى الرؤيا التاريخية الشاملة والنظرة العامة إلى المسار الذي درجت فيه هذه الأحداث الجسام، في الاتجاه الذي تَوَجَّهَ ظهور الاسلام فيما بعد. فجاءت وفرة التفصيل والوغل في الجزء راجحةً على مساعي البحث في استنباط الرؤيا الشاملة ضمن المسار التاريخي العام.

ولقد تعددت تعريفات العلماء «للإيلاف». ورأى عرفان شهيد أن الكلمة اكتسبت معناها المخصوص بعد الاسلام، فقال محمد بن حبيب في «المحبر» إن الإيلاف العهود. أما الطبري فقال إنه العَصَم أي المعاهدات التي ضمنت في جانبها العملي تسيير رحلتي الشتاء والصيف. وفيما تناول محمد حميد الله في مقالته «الإيلاف» سنة ١٩٥٧، على مدى ثماني عشرة صفحة مسألة نشوء مكة ومحاولة معرفة الملوك الذين عَقَدَت قريش معهم المعاهدات لتجارتها، انصرف اهتمام ابراهيم بيضون في أربع عشرة صفحة إلى دراسة السلطة السياسية التي أدارت «الإيلاف»، عبر دار الندوة، وما اعترى هذه السلطة السياسية في مكة من وهنٍ وواجهها من عقبات واضطرابات. أما ر.سيمون فصرف جل اهتمامه إلى الناحية التجارية والأشهر الحرم. وكتب صالح دراذكة في مقالته «إيلاف قريش» سنة ١٩٨٤ رؤياه في النظر إلى «الإيلاف». وخصَّص سعيد الأفغاني فصلاً من كتابه «أسواق العرب» بالإيلاف. إلا أن هذا المشروع، الاقتصادي في الأصل، يظل في حاجة إلى دراسة شاملة تتناول جميع تفرعاته وآثاره الخطيرة في تطور المسار الوحدوي في الحجاز، وفي تسيير التجارة الدولية عبر الجزيرة العربية وأطرافها قبيل الاسلام.

إن الإيلاف كان في الأصل مجموعة من العهود السياسية التجارية، غرضها، فيما تكاد تجمع عليه المصادر، ضمان قيام قريش بالتجارة عبر جزيرة العرب، من الشمال إلى الجنوب، ومن الجنوب إلى الشمال، وهو ما سنصطلح على تسميته: تجارة الشرق أو التجارة الشرقية، تيسيراً للعبارة. لكن الإيلاف

كان، في سياقه التاريخي، العمود الفقري الذي قامت عليه حركة تاريخية تعدت النطاق التجاري. فإذا كان الإيلاف أولاً هو البديل الذي وفّره القبائل العربية البدوية، للحلول محل الخطوط التجارية المضطربة بين الشرق والغرب وبين الجنوب والشمال، عبر البحر الأحمر والخليج وامتداداتهما الصحراوية البرية، فإن الإيلاف أيضاً أنشأ من حول المشروع التجاري نَوَى علاقات دينية وسياسية ولغوية واجتماعية بين هذه القبائل العربية، مهّدت لتوحيدها شبه التام لدى ظهور الاسلام.

إن هذه الحركة التاريخية، بمظاهرها المختلفة، وبتحركاتها في سياق الصراع الدولي بين القوى الكبرى في ذلك الوقت، وبخاصة دولة الساسانيين الفارسية، ودولة بيزنطة الرومانية، هو موضوع الدراسة في هذه الأطروحة: «إيلاف قريش». وهي أطروحة أمل أن تُسَدَّ فراغاً في هذا المجال المهم من مجالات التاريخ العربي غير المستقصاة، وأن تلقي ضوءاً على أهم الأحداث التي كان شأنها إعداد القبائل العربية والساحة السياسية للمآل التوحيدي لدى ظهور الاسلام.

يقول شبرنغر إن التجارة الدولية ظهرت لدى العرب قبل الميلاد. وأهلهم لهذه المهمة موقع بلاد العرب الوسيط والبحر الأحمر والخليج، وخصائص الجمل ونوع السلع التي كان يحتاج إليها عالم البحر المتوسط (العالم القديم)، من منتجات شواطئ الهند والصين وإفريقية، ومن منتجات العرب أنفسهم. ولذا كان موقع بلاد العرب الوسيط هذا مجلبة لأطماع القوى الكبرى. وأول ما ظهر من الاهتمام الأوروبي بطرق التجارة الغربية على الأقل، ما بدا من الاسكندر المقدوني الذي أطلَّ على المحيط الهندي في فتوحاته. لكن سقوط السيلوقيين وانحسار الحكم الاغريقي أعاد الطموح الهليني ثم الروماني إلى حدود الاكتفاء بالبحر الأحمر منفذاً إلى الشرق، حتى كانت محاولة الامبراطور تريانوس (Trajanus) الفاشلة في الخليج، أوائل القرن الميلادي الثاني. وقد دارت حروب الاغريق مع الفرس، ثم رومة مع الفرس، ثم بيزنطة مع الفرس قروناً طويلة حول محاولة السيطرة على الطرق التجارية عبر بلاد العرب. ويبدو هذا جلياً من

التنظيمات السياسية والاقتصادية والعسكرية التي وضعها كل من الامبراطوريتين الرومانية والبيزنطية لتنظيم طرق الصحراء وحمايتها، بإقامة سلسلة من الحصون على مشارفها، وعقد مُحالفات مع زعماء القبائل العربية فيحمون القوافل التجارية لقاء مزايا مالية وسياسية أو لقاء حصة في التجارة الدولية. وكان لهذا الدور فضل عظيم في ازدهار ممالك الأنباط وتدمير ودورا والحضر والحيرة وغيرها.

وبعد مضي زمان على استقرار الحدود البيزنطية الساسانية عند نهر الفرات عموماً، أخذت بيزنطة تعزز محاولتها لتأمين الطريق التجارية عبر البحر الأحمر والسيطرة على ضفتي البحر الآسيوية والافريقية. وكان الاستيلاء الحبشي على اليمن في القرن الميلادي السادس هدفاً مهماً من أهداف السياسة البيزنطية لضمان الخروج الآمن إلى المحيط الهندي، بعد اضطراب الحال في بادية الشام وعلى طول الخطوط إلى الخليج، من جرّاء الحرب المزمنة مع الفرس. غير أن القرصنة في البحر الأحمر ربما، دفعت البيزنطيين وحلفاءهم أحباش اليمن، إلى محاولة احتلال الشريط الغربي من جزيرة العرب، المطل على البحر الأحمر، إحصاءاً للسيطرة البيزنطية على خط تجاري مهم أخذت تتعاظم مكانته في التجارة الدولية، وهو خط القوافل العربية المارّ عبر مكة، لتتصل تجارة البيزنطيين براً، من الشام إلى اليمن. وكان هذا الخط التجاري هو بالتحديد عصب الخط الذي تنظمه وتقوده مكة بموجب عهود «الايلاف». ولذا يصعب القول إن غزوة أبرهة صاحب الفيل وحليف بيزنطة لمكة، جاءت بالمصادفة فقط، قريبة عهد بغزوة الغساسنة لخيب من الشمال. لا ولم تكن مصادفة على الأرجح، أن اليهود في اليمن أيضاً كانوا خصوم الاحتلال الحبشي. ويمكن الركون إلى التفسير الذي يضع هذه المظاهر جميعاً ضمن سياق محاولة بيزنطة للسيطرة على الطريق البري إلى اليمن. بل إن مسعى عثمان بن الحويرث إلى اصطناع المُلْك على مكة باسم بيزنطة يدرج أيضاً في هذا السياق.

وأياً كان الاختلاف اللغوي في تفسير الايلاف، إلا أن المصادر العربية تتفق على أنه كان المستند القانوني الذي أتاح تنظيم القوافل العربية عبر مكة في

خط يصل اليمن بالشّام والحيرة. وسواء أكان الايلاف من مآثر هاشم بن عبد مناف، والد جد الرسول، أم لا، فإنه كان قائماً فعلاً، ومعمولاً به في القرن الميلادي السادس. وكانت ثمة حاجة دولية ماسة إلى استمرار قيامه بسبب الحروب الساسانية البيزنطية، وإخفاق الفريقين في إنشاء نظام مستقر يضمن استمرار التجارة وتدفعها (فشل يوسف أسار ذي نواس ثم فشل أبرهة في اليمن، وفشل ابن الحويرث في مكة مثلاً). وقد سمح الايلاف للقبائل العربية التي كانت تتبادل الغزوات، بالاتفاق على مشروع استغلال مشترك للطريق التجارية، فحظيت القوافل بالمرور الآمن في منازل القبائل العربية التي سارت إبلها في القافلة، أو تقاضت مكوساً لقاء حق المرور. وقام بفعل هذا نظام من التحالفات القبلية عظيم الاتساع، أدّى إلى إنشاء عيش مشترك بين القبائل المستقلة، تطوّر مع الزمن في ميادين مختلفة، فظهرت معه بذور وحدة اقتصادية ودينية وسياسية ولغوية واجتماعية ناشئة.

ولم يكن الايلاف أول محاولة لإنشاء عمل مركزي عربي لاستثمار الطرق التجارية. فلعل تدمير وبُصرى وغيرها حاولت ذلك من قبل. لكن إيلاف قريش ربما كان أوضح المحاولات وأكملها وأنجحها وأعظمها أثراً. إذ لم تقتصر آثار اجتماع القبائل حول الايلاف على الجانب الاقتصادي، بل تعدّتها إلى الأسواق الشعرية والعلاقات الاجتماعية والعقائد الدينية والرابطة السياسية، فكانت المعتقدات والمبارزات الشعرية في المواسم بذرةً ظهرت من حولها النوازع إلى تقارب اللهجات القبلية، فاتمّ الاسلام ذلك بالقرآن الكريم. وتحوّل المكيون في رابطة الحُمس، إلى قيادة «أرستقراطية» ذات حرمة بين العرب، فتزعّموا مسائل الدين والتجارة غير منازعين. وجاءت القبائل إلى البيت الحرام، كل يلبي لصنمه في طواف موحد. ولم تكن مصاهرات القرشيين في قبائل العرب قليلة الشأن في هذا المسار التوحيدي، على الصعيد الاجتماعي.

إن ما سلف من دراسات لايلاف قريش وللنزاع الساساني البيزنطي حول طرق التجارة الدولية، على جلال الكثير من هذه الدراسات، تناول هذين الأمرين كلاً على حدة، فلم يجمعهما في دراسة شاملة، على رغم ما بين الأمرين من

علاقة وثيقة واضحة. وليس من شك في أن جمعهما في هذه الأطروحة يعمق أبعاد فهمنا لايلاف قریش في السياق الدولي لأحداث المشرق العربي، ولاسهام الايلاف في مواجهة مشكلات العرب وتحديات موقعهم بين القوى الكبرى.

وتحقيقاً لهذا الأمر كان لا بد من جمع المصادر العربية الاسلامية التي تناولت تجارة قریش وعصور الجاهلية وأحوال القبائل في الجزيرة قبل الاسلام، والمراجع «الغربية» الحديثة التي استندت إلى المصادر الرومانية والبيزنطية، حتى أمكن النظر إلى أمرين متوازيين في آن: تطور السياسة البيزنطية حيال تجارة الشرق، وتطور رد الفعل العربي على الأوضاع الدولية المحيطة بالتجارة الشرقية.

وإن الحاجة العربية إلى الوحدة اليوم، وأوضاع الطرق التجارية الاستراتيجية الآن حول الجزيرة العربية وعبرها، واضطراب التجارة الدولية على هذه الطرق، واحتمال قيام العرب بدور أساسي في هذا الشأن ضمن أوضاع دولية يتنافس فيها الشرق والغرب على المنطقة العربية لأسباب شبيهة، كل هذا قد يضيف حاجة أخرى، إلى الحاجة العلمية المجردة، لدراسة الايلاف وعصره، ويجعل منها دراسة مفيدة لعصرنا، علاوة على فائدتها في دراسة الجذور التي سبقت مباشرة ظهور الاسلام.

* * *

ج- تضمّنت المصادر العربية الاسلامية أهم ما جاء فيه ذكر إيلاف قریش، في شكل أو في آخر. ومن هذه المصادر القرآن الكريم أولاً، وفيه سورة قریش التي تبدأ بقوله تعالى: ﴿لَا إِلَافَ قُرَيْشٍ﴾... الآية. وهو المصدر الأول في هذا الأمر. ويحفز الباحثين على اتخاذ القرآن مصدراً في هذا الصدد أن الرسول العربي كان من قادة قوافل التجارة المكية قبل الاسلام وأنه عرف معنى السورة معرفة مباشرة لا ريب فيها من الناحية التاريخية. فالقرآن إذن مصدر أول، يليه استنتاجاً تفسير الطبري الموسوم «بجامع البيان في تفسير القرآن»^(١). وهو

(١) راجع ثبت المصادر والمراجع في آخر الكتاب، لمعرفة الناشر والمصدر وتاريخ الصدور.

مستودع ما تجمع لدى المسلمين في العصور الأولى من تفسيرات تاريخية ومن أسباب لنزول الآيات. وقل كذا في «سيرة النبي» لابن هشام. وفيما عدا ذلك تتفاوت قيمة المصادر العربية الاسلامية، ويتصدرها قطعاً كتاباً محمد بن حبيب البغدادي: «المحبر» و«المنمق»، ثم كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني، وكتاب «الأصنام» لابن الكلبي، وكتاب «الأوائل» لأبي هلال العسكري، و«أنساب الأشراف» للبلاذري، و«نسب قریش» للزبير، و«نشوة الطرب» لابن سعيد الأندلسي، و«أخبار مكة» للأزرقي، وغيرها. لقد استخفّ بعض الباحثين هذه المصادر لما وجدوا في روايات الاخباريين الاسلاميين من تناقضات واضطراب في التواريخ، فجنح بعضهم إلى لفظ كل ما جاءت به المصادر العربية الاسلامية، وكأنها جميعاً غير ذات قيمة. إلا أن جهوداً مفعلة في مسار الأبحاث، أثبتت بعد طول عناء، أن المصادر العربية، مثل غيرها، متفاوتة القيمة والدقة. فمنها ما يستحق أن يؤخذ به، ومنها ما يستوجب الحذر. وقد أمكن لعدد من ذوي العلم والانصاف والجلد أن يصلوا إلى نتائج مفيدة جداً، من خلال نقد المصادر الاسلامية واصطفاء الجيد منها، وهو وافر، ومقارنته بالمصادر الأخرى الجديرة بالثقة، مثل بعض المصادر البيزنطية أو السريانية أو غيرها. وقد أمكن بذلك استكمال ملامح الكثير من الحوادث التاريخية، على نحو لم يكن ممكناً لو اكتفى بقطاع وأهمل قطاع.

أما المراجع الحديثة فعلى رأسها أولاً المقالات المتخصصة في موضوع الايلاف، ومنها ما سلف ذكره لحמיד الله ويضون والدرادكة والأفغاني وسيمون. وقد كتب حميد الله ثلاث مقالات قيمة في أمر النسيء، وهو موضوع سنين علاقته بالايلاف في متن الدراسة. واقترح حميد الله في مقالاته هذه مقترحات مهمة تهدي الباحثين إلى مسالك لا بد من سلوكها من أجل بلوغ مزيد من الدقة في ضبط تاريخ الاسلام الباكر وما سبقه مباشرة. وشكّلت موسوعة جواد علي: «المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام» منهلاً لمقدار كبير من المعلومات الضرورية للبحث، فأرشدت إلى عدد كبير من المقالات والأبحاث التي أوعبها الكاتب في موسوعته المذكورة.

أما المراجع «الغربية»^(١) فتضمنت على الخصوص ثلاث فئات من الكتب أو المقالات أولها مقالات في تاريخ الامبراطورية الرومانية لباروسوك وغراف وويل وغيرهم، تناولت بعض ملامح السياسة الرومانية حيال الحدود الشرقية وخطوط التجارة وأسلوب التعاطي مع القبائل العربية وتنظيم القوافل عبر الصحراء. وتناولت الفئة الثانية المرحلة البيزنطية على الخصوص، وأهمها مقالات عرفان شهيد وم. كستر. وقد أوضحت مقالات شهيد الكثير من العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والعرب في بلاد الشام وفي شبه الجزيرة العربية، فيما تخصص بحث كستر برصد أحداث شبه الجزيرة. وتناول سيمون وجاك ريكمنز إحدى حملات أبرهة الحبشي، وهي حملة تناولها كستر أيضاً في بعض ما كتب. أما الفئة الثالثة من هذه المراجع فهي مقالات وكتب تختص بالناحية الفنية في ملاحه العرب في المحيط الهندي والرياح الموسمية واتجاهاتها وأوقات هبوبها، لرغبة في محاولة فهم رحلة الشتاء إلى اليمن فهماً أوضح. ومن هذه: «العرب الملاحون» لعبد العلي، و«تجارة العرب القديمة» لرائف حسين، وكتاب: «بحار الرياح الموسمية» لآلان فيليب، وكتاب مهم آخر هو: «البحار من لامو» لبرينز.

* * *

إن مخطط البحث يتضمّن ما يلي:

المقدمة: شرح غرض البحث وموضوعه وفائدته

الجزء الأول:

الفصل الأول: سورة قريش

(المعنى اللغوي، المعنى التاريخي، الفيل وقريش، فائدة وحدة

السورتين، سورة الفيل).

(١) استخدم هذا التعبير لأن هذه المراجع تضمنت الزاوية الثانية للنظر إلى موضوع الأيلاف، وهي زاوية الصراع البيزنطي أو الروماني مع الفرس من أجل السيطرة على طرق التجارة. وجميع هذه المراجع مكتوبة باللغات الفرنسية أو الانجليزية أو الألمانية. إلا أن بعض الكتاب ليسوا «غربيين».

الفصل الثاني: الغرب وتجارة الشرق

أولاً: العرب بين الشرق والغرب

(الصراع المستمر، فوائد البدو وخطرهم، ضرورة التجارة الشرقية، طرق التجارة البرية).

ثانياً: رومة وتجارة الشرق

(الثمن الاقتصادي والسياسي، الاسكندر و«المياه الدافئة»، سياسة رومة قبل الميلاد، سياسة رومة في القرن الأول، الحدود الشرقية أيام السلم، نموذجان: تدمير والأنباط، تراجانوس يضم مملكة الأنباط، ما بعد تراجانوس).

ثالثاً: عصر تدمير

(الصعود إلى القوة، تنظيم القوافل التدمرية، العقيدة الدينيّة «المستقلة»، السلوك السياسي الاستقلالي).

رابعاً: ما بعد تدمير

(البحث عن سياسة حدود، سياسة القرن الرابع، القرن الرابع على جانبي الفرات، القرن الرابع في اليمن، القرن الخامس في اليمن، القرن الخامس في فلسطين).

الفصل الثالث: الأحوال الدولية في القرن السادس

أولاً: الحرب في صحراء الشام وجوارها

(سياسة الحدود في القرن السادس، ظهور بني غسان، حروب الوكلاء العرب، عصر المنذر بن النعمان، معاهدة السلام «الأبدي»، أزمة الوكلاء العرب، حروب نهاية القرن).

ثانياً: الصراع في جنوب الجزيرة العربية

(الحبشة واليمن في التاريخ، مسيحيو بيزنطة ويهود فارس، دخول النصرانية اليمن، بداية الصراع في القرن السادس، الغزو الحبشي الأول لليمن، عزل ذي نواس، الغزو الحبشي الثاني لليمن، استيلاء أبرهة على الحكم، ولاء أبرهة لبيزنطة، ثورة سيف بن ذي يزن،

حكم الفرس لليمن).

ثالثاً: الصراع داخل الجزيرة العربية

(النصرانية في الجزيرة العربية، اليهود على طريق القوافل، نفوذ الفرس في جزيرة العرب، ذرائع حملة أبرهة على مكة، أسباب الحملة الحقيقية، عام الفيل، مَنْ قاتل أبرهة ومن ناصره، مكة وبيزنطة، عثمان بن الحويرث).

الجزء الثاني: مقدمة الجزء الثاني

الفصل الرابع: تجارة الايلاف وطرقه وتنظيمه

أولاً: عوامل ظهور مكة

(وإد غير ذي زرع، مكة والتجارة، أسباب التحول إلى غرب الجزيرة، انهيار التجارة اليمنية، أسباب تفوق مكة).

ثانياً: إيلاف قريش

(من التجارة المحلية...، الرواية الاسلامية والشكوك... إلى التجارة الدولية، متى قام الايلاف؟، أطراف الايلاف الأربعة، أحلاف قريش القبليّة، إيلاف القبائل العربية، الرفادة والسقاية، تجارة وتدّين).

ثالثاً: التجارة والطرق

(البضائع ومصادرها، الحرير والذهب والفضّة، اللّبان والفرصة التاريخية، الطيوب والتوابل، رحلة الشتاء والصيف، مكة تتاجر، المال والصيرفة، الابل وطرق الصحراء، هل سافر العرب بحراً؟ متى الابحار إلى الهند؟ سرعة الرحلة إلى الهند).

الفصل الخامس: الايلاف ومؤسساته

أولاً: الوظائف المكية

(قصيّ المؤسس، علاقة قصيّ بالتجارة، السياسة والحرب، لغز الأحابيش، إطعام الحجاج والتجار).

ثانياً: العقائد السياسية والدينية

(الحمس وحرمة مكة، أهل الجِلّة والطلّس، الأشهر الحرم، حروب الفجار، انتصار مكّة على الحيرة، الحلف الشخصي والقبلي، المطيّون والأحلاف، حلف الفضول).

ثالثاً: النسيء

(التقويم القمري والسنة الشمسية، منشأ النسيء عند العرب، نظام النسيء، مطابقة الشهور، تحريم الاسلام النسيء، النسيء والتجارة الدولية، مشكلة رحلة الصيف).

الفصل السادس: المواسم والأسواق

أولاً: ملتقى الأصنام والقبائل

(ارتباط الحج بالأسواق، عمرو بن لُحيّ، أصنام وتلبينات، مكة والتوحيد الديني، التوحيد قبل الاسلام، الحنفاء، إسم الجلالة: الله).

ثانياً: أسواق العرب

(تجارة محلية ومرفأء، مواعيد الأسواق ومواقعها، سوق عكاظ، الأسواق وتوحيد اللهجات، آثار الايلاف الاجتماعية، آثار الايلاف السياسية).

الخاتمة:

(النبى وقوافل قريش، من أبلة إلى الحبشة، الايلاف والاسلام والوحدة).

في ختام هذه المقدمة أسجّل شكري وامتناني الصادقين لجميع من عاونوني معونة مخلصة في إخراج هذا الكتاب بعد سنوات طويلة من التفكير والتحضير والعمل، وأخصّ منهم بالذكر:

١- الدكتور رضوان السيّد، أستاذ الفلسفة الاسلامية في الجامعة اللبنانية، الذي كان أول من فكّر في اختيار هذا الموضوع، وعمل بجِدّ من باب الصداقة، في اختيار المصادر الاسلامية وهدايتي إلى طرف خيط في المراجع الأجنبية. وقد

تضمّن العمل في هذه الأطروحة في أثناء التعاون مع الدكتور السيّد من أجل رسالة الماجستير، فارتؤي تأجيل العمل فيها لمرحلة الدكتوراه. غير أن إسهامه ظل بمثابة عمل تأسيسي لكل ما أنجز فيما بعد.

٢ - الدكتور طريف الخالدي، أستاذ التاريخ في الجامعة الأميركية في بيروت، وقد أشرف وقتاً قصيراً على مرحلة مبكرة من مراحل هذه الدراسة، لكن ملاحظاته القيّمة المتعلقة بدقة اختيار العبارة العلمية والتحفّظ من العموميات غير المأمونة، كانت مفيدة جداً في كل المراحل اللاحقة. كذلك كانت التوصية التي تكرم الدكتور الخالدي بها دعماً لترشيح كاتب الأطروحة لنيل منحة فولبرايت الدراسية الأميركية سنة ١٩٨٨، العامل الأول الذي مكّن الكاتب من التفرّغ أشهراً للكتابة في مكتبة جامعة جورجتاون في واشنطن، فيما كانت الحرب في لبنان تشتت اشتداداً لا قبل لكاتب أن يكتب تحت وطأته ما يستطيع أن يكتبه في زمن السلام.

٣ - الدكتور إبراهيم بيضون، أستاذ التاريخ الاسلامي في الجامعة اللبنانية، المشرف على هذه الأطروحة، الذي فتح بيته لمناقشة موضوع الأطروحة، وأبدى ملاحظات مفيدة لوضع الملامح النهائية في المراحل التمهيديّة التي سبقت بدء الكتابة، ثم أبدى ملاحظات أخرى منهجية بعد قراءة النص المكتوب، كانت ضرورية لضبط المنهج العلمي ضبطاً حاسماً.

٤ - الدكتور عرفان شهيد، الأستاذ في جامعة جورجتاون في واشنطن الذي تبرّع بملاحظات مفيدة، لا سيّما في إطار علاقة العرب مع بيزنطة وهو الذي أشرف على مرحلة كتابة الأطروحة.

٥ - مجلس التبادل الدولي للباحثين والوكالة الأميركية للاستعلام وبرنامج فولبرايت للمنح الدراسية وجامعة جورجتاون المرموقة، لقبولهم جميعاً رعاية الكاتب في شهور تفرّغه للبحث والكتابة في واشنطن، والمعاملة الكريمة التي اتسمت بها هذه الرعاية، والمستوى اللائق الذي وفّره الجامعة ومكتبها الزاخرة لايخراج هذا الكتاب في أفضل صورة وأكمل وجه مستطاع.

٦ - زوجتي سميرة التي تحمّلت عناء رعاية عائلتي وحدها طوال شهور غيابي في العاصمة الأميركية، بدءاً من أول آذار/مارس ١٩٨٩، أي في المرحلة ذاتها التي استعادت فيها حرب لبنان زخمها القاتل على أشده، فأضيف فضلها هذا، إلى فضلها السابق، وتحملها عناء رعايتي سنوات طويلة لتوفير أسباب الراحة الضرورية للبحث والعمل.

إلى هؤلاء جميعاً وإلى والديّ الحبيبين شكري وامتناني، والحمد لله.

فكتور سحاب

جامعة جورجتاون - واشنطن

١٦ أيار/مايو ١٩٨٩

آلفهم هاتين الرحلتين. ولما كان إيلاف الله لهم هو النعمة التي يدعوهم من أجلها إلى أن يعبدوا رب هذا البيت، فإن فصاحة العبارة وبلاغة البيان يقتضيان أن يكون التلميح إلى صاحب الفضل واضحاً. ولعل هذا السبب ذاته يُسقط القراءة الثانية أيضاً، لأنها تضع قريشاً في مثابة فاعل الإيلاف، فلا تبقى لنا والحال هذه سوى قراءة: لا إيلاف قريش، حيث قريش مضاف إليه في مكانة المفعول به الأول، وحيث اسم الله مُضمَر في مكانة فاعل الإيلاف، وكأنه يقول: لا إيلاف لله قريشاً رحلة الشتاء والصيف، فليعبدوا رب هذا البيت.

غير أن المصادر العربية الإسلامية لم تكتف بهذا التفسير لكلمة الإيلاف، بل جعلتها في كثير من الحالات في مصاف اسم عَلَمٍ، يشير إلى معاهدات بعينها دون غيرها. فقال البلاذري في «أنساب الأشراف» إن الإيلاف هو العَصْمُ التي أخذها هاشم بن عبد مناف وإخوته عبد شمس والمطلب ونوفل من ملوك الشام والحبشة واليمن والعراق لتأليف الرحلتين^(١). ويسمى الطبري في تاريخه هذه العهود حبالاً، والجل: العهد والذمة والأمان، كما جاء في «لسان العرب». وبعض المصادر يسمي هذه العهود جلفاً أو ميثاقاً. وقد دُعي أبناء عبد مناف بالموافقين^(٢). ويقول محمد بن حبيب: «والإيلاف اليهود»^(٣)، ويتفق معه في ذلك السهيلي ويستند إلى كثير من الأسانيد. ويؤيد محمد حميد الله القول إن للإيلاف معنى أصلياً أدرجته المعاجم الكبرى، «لسان العرب» و«تاج العروس» وغيرها، ومعنى مخصوصاً لا ينطبق إلا على العهود التي عقدها الزعماء المكيون مع ملوك الأطراف لضمان سير تجارتهم^(٤). ولم يبتعد ر. سيمون عن هذا

(١) البلاذري: أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، الجزء الأول، دار المعارف بمصر، ١٩٥٩، ص ٥٩.

(٢) درادكة، صالح: إيلاف قريش، ملاحظات حول عوامل السيادة المكية قبل الإسلام، دراسات تاريخية، العددان ١٧ و١٨، لجنة كتابة تاريخ العرب، جامعة دمشق، آب/أغسطس - تشرين الثاني / نوفمبر، ١٩٨٤، ص ٥٦.

(٣) البغدادي، محمد بن حبيب: كتاب المحبر، تحقيق إيلزه ليختن شتير، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٤٣ (مصورة عن طبعة حيدر آباد - ١٩٤٢)، ص ١٦٢.

(٤) Hamidullah, Muhammad: Al-Ilāf, ou les rapports économique-diplomatiques de la Mècque pré-islamique, Mélanges Louis Massignon II (1957), pp. 298 - 299.

الرأي كثيراً حين قال: «إن الإيلاف كان حلفاً... وعقداً ثنائياً من صنف جديد تضمّن بموجبه القبائل القاطنة على طول الطريق التجارية حق مرور قوافل قريش مروراً حراً عبر ديارها، لقاء حمل قريش منتجات هذه القبائل على أن تُعيد لهم رأس مالهم المستثمر في هذه البضائع والريح المجتنى. فالإيلاف إذن كان غرضه إشراك القبائل وزعمائها في مكاسب تجارة قريش. وكانت تلك خير وسيلة لضمان مسالمة القبائل هذه»^(١).

ويحاول النيسابوري في تفسيره، أن يجد تعليلاً لبدء السورة بحرف اللام في قوله: «لا إيلاف». فينسب إلى الكسائي والأخفش والقراء أن اللام هي لام العجب، «أي أعجبوا... فإنهم [قريش] كل يوم يزدادون جهلاً وانغماساً في عبادة الأوثان، والله تعالى يؤلف شملهم ويدفع الآفات عنهم وينظم أسباب معاشهم»^(٢). وينسب إلى الخليل وسيبويه أن اللام هذه متعلقة بما بعدها فيقول: «والتقدير: فليعبدوا رب هذا البيت لا إيلاف قريش، أي فليجعلوا عبادتهم شكراً لهذه النعمة واعترافاً بها، وفي الكلام معنى الشرط، وفائدة الفاء [في فليعبدوا] وتقدير الجار أن نعم الله تعالى لا تحصى، فكأنه قيل: إن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه الواحدة التي هي نعمة ظاهرة»^(٣).

ب - المعنى التاريخي

إلا أن النيسابوري أضاف تفسيراً ثالثاً لهذه اللام، وهو تفسير يرجح، إذا صح، ارتباط سورة قريش بسورة الفيل التي تسبقها، ويفتح باباً عريضاً إلى التفسير التاريخي لهاتين السورتين. يقول: «والقول الثالث أنها متعلقة بالسورة المتقدمة أي «جعلهم كعصف مأكول» لأجل إيلاف قريش». وبذا يحاول أن

(١) Simon, R.: Hums et Ilāf, ou Commerce sans Guerre, (Sur la Genèse et le Caractère du Commerce de la Mècque), Acta Orientalia Academiae Scientiarum Hungaricae, XXIII (2)

(1970), p 231.

(٢) النيسابوري: غرائب القرآن و رغائب الفرقان، بولاق، القاهرة، ١٣٢٩ هـ. ج ٣٠، ص ١٦٧.

(٣) المصدر ذاته، ص ١٦٧، ١٦٨.

يربط حادثتين تاريخيتين ربط السبب بالنتيجة. فسورة الفيل، على إجماع من المفسرين، تروي هزيمة أبرهة الحبشي الذي حاول هدم الكعبة. فإذا صح تفسير النيسابوري هذا فإن القرآن الكريم إذن يدعو مشركي قريش إلى عبادة الله لأنه هزم لهم الغزو الحبشي ومنعه من هدم الكعبة. قال: «وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَتَعَلَّقَ اللام بقوله ﴿فَعَلَ رَبُّكَ﴾ كأنه قال: كل ما فعلنا بهم من تضليل كيدهم وإرسال الطير عليهم حتى تلاشوا، إنما كان لأجل إيلاف قريش...»^(١).

ثم أدرج النيسابوري استنتاجاً منطقياً لهذا التفسير، هو أن سورتي الفيل وقريش كانتا في رأي بعض الصحابة سورة واحدة، فينسب إلى الفراء قوله: «ومما يؤيد هذا القول الثالث ما روي أن أبي بن كعب جعلهما في مصحفه في سورة واحدة بلا فصل. وعن عُمَرُ [بن الخطاب] أنه قرأهما... من غير فصل بينهما بالبسملة [فيصبح معنى السورتين مجموعتين] أن العبادة مأمور بها شكراً لما فعل بأعدائهم [أحباش اليمن] ولما حصل لهم من إيلافهم الذي صار سبباً لطعامهم ولأمنهم»^(٢). وتأسيساً على هذا الاحتمال، يعتقد عرفان شهيد أن السورتين تشهدان على «امتداد نفوذ الحبشة في غرب الجزيرة واحتمال سيطرتهم على خطوط التجارة. فإذا كانت أخبار الرحلتين إلى الشام واليمن مقبولة في المصادر العربية، وليس ثمة ما يوحي أنها غير صحيحة، فإن نفوذ الأحباش لا بد وأنه امتد امتداداً عظيماً من اليمن إلى شمال الحجاز... ولعل سبب امتداد هذا النفوذ أن شمال الحجاز كان منطقة نفوذ للغساسنة، وكلا الفريقين، الأحباش والغساسنة، كان في معسكر بيزنطة السياسي. ولعل نفوذ الأحباش لم يتعد النصف الجنوبي لغرب الجزيرة، ولو صح هذا، لتضمن قوله ﴿لَا لَاف﴾، وليس لإيلاف، أن المكين كانوا يُسيرون رحلتهم إلى الشمال فقط، لا الجنوب، حتى

(١) المصدر ذاته، ص ١٦٨.

(٢) المصدر ذاته، ص ١٦٨، ١٧٠. انظر أيضاً «اللسان»: ألف، وكذلك «تفسير النسفي»، دار إحياء الكتب العربية بمصر، بلا محقق ولا تاريخ، ج ٤، ص ٣٧٨. و«تفسير النسفي»، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، بلا تاريخ، ج ٣، ص ٧٢٧.

إذا انهزمت الأحباش، أمكنهم المسير شمالاً وجنوباً، جامعين بذلك الرحلتين معاً»^(٣).

إن في إمكان مَنْ يربط السورتين أن يستنتج من هذا الربط فهماً مختلفاً لتاريخ كلمة الإيلاف^(٤)، فيقول شهيد مثلاً في شأن ما كُتب في هذه الكلمة في المصادر الإسلامية والمراجع الحديثة: «إن ما كُتب افترض أن الإيلاف هو عبارة فنية استخدمت قبل الإسلام في تسمية العهود التي عقدها زعماء قريش مع القبائل العربية ومع ملوك القوى المجاورة في الشرق الأدنى. وليس من شك في أن قريشاً عقدت عهوداً مع القبائل العربية، ومثلها مع سلطات الدول المجاورة، لكن استخدام كلمة الإيلاف لوصف هذه المعاهدات قبل الإسلام مشكوك فيه، والنصوص التي ظهرت فيها كلمة الإيلاف على أنها استخدمت قبل ظهور الإسلام، غير موثوق فيها. وعبرة «الإيلاف» القرآنية هي أول ظهور غير مشكوك فيه لهذه الكلمة، وهي عبارة غير فنية»، أي أنها ليست اسم علم للعهود المذكورة، ولذا أضاف قوله: «ولعل ما أنشأ الاعتقاد أن الكلمة هي عبارة فنية، هو فصل سورة قريش عن سورة الفيل، مما أدى إلى عزل الكلمة»^(٥).

ولا شك في أن صعوبات الاعراب ليست السبب الوحيد في ترجيح وحدة السورتين وهي وحدة قال بها الفراء وسفيان بن عيينة، بل إن قوله: ﴿وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ لا يتصل بأي شيء مفهوم في الرحلتين، وأن ذلك الخوف إنما مصدره مفهوم في سورة الفيل، وهو الغزو الحبشي الذي هزمه الله فأمن قريشاً من خوف^(٦). فإذا أردنا إبطال هذه الحجة بقول الطبري إن الخوف إنما كان خوفاً

Shahid, Irfan: Two Qur'anic Sūras: Al Fil and Quraysh, *Studia Arabica et Islamica, Festschrift* (١) for Ihsān 'Abbās, edited by Wadād al Qādī, American University of Beirut, 1981, p.435.

(٢) لا يُبدي شهيد في مقاله Two Qur'anic Sūras، إصراراً على التمسك بلفظة إيلاف.

(٣) Shahid: op. cit., p.432.

(٤) ابن خالويه: إعراب...، ص ١٩٦. والنيسابوري: غرائب...، ص ١٦٧ وما بعد. وكذلك

Shahid: op.cit., p.431.

من الجُذام^(١)، فليس من علاقة مفهومية بين الجُذام والرحلتين، إذا لم تؤخذ السورتان معاً. وقد أكد الطبري احتمال ارتباط السورتين فيما أراد تأكيد عكسه، حين قال في تفسيره ﴿لَا يَلْفَ قُرَيْشٌ﴾: «وأما القول الذي قاله مَنْ حَكَيْنَا قَوْلَهُ إِنَّهُ مِنْ صَلَةِ قَوْلِهِ ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾، فَإِنْ ذَلِكَ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَوَجِبَ أَنْ يَكُونَ ﴿لَا يَلْفَ﴾ بَعْضُ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾»، أي أن تكون سورة قريش جزءاً من سورة الفيل. واستنتاج الطبري صحيح لكنه يفترض أن السورتين منفصلتان لا وراء، وهذا ما يخالفه جمهرة من المفسرين الذين جمعوا السورتين بالمعنى إن لم يجمعوهما بالنص، ومنهم مَنْ ذكرنا، ومنهم أيضاً ابن كثير وابن إسحاق وابن زيد بن أسلم^(٢).

ج- الفيل وقريش

ولكن كيف أمكن للسورتين أن تنفصلا لو كانتا موحدتين في الأصل؟ لقد لاحظ ابن كثير، وهو من المفسرين الذين يؤيدون وحدة السورتين، أن فصلهما ربما نجم من خطأ في النسخ أدرج البسملة بين جُزْءَي السورة. أو لعل الناسخ تعمد إدراج البسملة ليفصل الجزئين تعظيماً لقريش، فتكون لها سورة على حدة دون ذكر لأصحاب الفيل. وقد تكون للمنافسة السياسية بين المهاجرين والأنصار يد في هذا الأمر، وهي منافسة كانت شديدة يوم جمع صحائف القرآن الكريم في عهد الخليفة عثمان بن عفان. أو ربما اصطنع فصل السورتين ناسخ أموي أراد تعظيم آل عشيرته الذين كانت الخلافة فيهم عندما أمر عثمان باعتماد النص في صورته العثمانية^(٣).

فما إن ظهرت السورتان منفصلتين حتى أصبح احتمال جمعهما من جديد متعذراً لأسباب يمكن تخيل بعضها فيما يلي:

(١) الطبري: جامع البيان في تفسير القرآن، بولاق، القاهرة، ١٣٢٩ هـ، ج ٣٠، ص ٢٠٠.
(٢) المصدر ذاته، ص ١٩٨. وانظر تفسير ابن كثير، دار الأندلس، بيروت، ١٩٦٦، ج ٧، ص ٣٧٧ - ٣٧٨.

(٣) ابن كثير: التفسير. وانظر أيضاً Shahid, op. cit., pp. 434, 435.

١- أن صفة المصدر المعتمد، التي اتخذتها المصاحف في الصورة العثمانية، وجاءت فيها السورتان منفصلتين، ردعت المفسرين ولا شك، عن محاولة إعادة توحيدهما.

٢- أن سمعة الطبري ومكانته بين المفسرين رجحتا كفة انفصال السورتين، فتأثر بموقفه هذا معظم المفسرين الآخرين.

٣- اتخذ معظم المفسرين القدامى القرآن الكريم كتاباً مقدساً، ولم يتخذوه مصدراً للتاريخ العربي قبل الاسلام. وما كان من أمر الرغبة في تعظيم قريش، قبيلة النبي العربي والخلفاء من بعده، أن تحفزهم على جمع السورتين. ولم تكن معرفتهم القليلة للتاريخ اليمني الذي كشفت عنه الكتابات السبئية حديثاً، مما يسعفهم في تعزيز التفسير بالمعرفة التاريخية الوافية، ولذا انفردت قلة منهم فقط، تستند إلى مبادئ الاعراب، فأيدت وحدة السورتين، وخالفتهم الكثرة^(١).

وفي الامكان ان نتخيل أنصار وحدة السورتين يقولون: إن الله دمر أصحاب الفيل حتى يُمكن قريشاً من تسيير الرحلتين بيسر. ولذا فليعبدوا رب هذا البيت. ومثلما تصبح سورة قريش أيسر فهماً بكثير حين تُدمج بسورة الفيل، كذلك تكتسب سورة الفيل قوة وعظيمة لدى دمج السورتين. فسورة الفيل وحدها لا تزيد على وصف لقدرة الله التدميرية، ولا تُستنتج أي أمثلة أخلاقية من تدمير الدخيل الحبشي في كتاب هو نص مقدس، وليس كتاباً لرواية أحداث، وبخاصة في السور التي أنزلت في تلك المرحلة، حين كان تيشير غير المؤمنين بالله يستند إلى حجج النعم الناجمة من العناية الالهية. إن سورة قريش، بدعوتها هذه إلى عبادة الله الواحد توفر تلك الحلقة الوعظية المفقودة، فيما توفر سورة الفيل الأساس التاريخي لما جاء في آخر سورة قريش: ﴿وَأَمْنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾، وهو ما لا يمكن تفسيره بالعودة إلى الرحلتين المذكورتين في سورة قريش وحدهما، بل لا بد من العودة إلى السورة السابقة، والدخيل الحبشي الغازي، الذي دمره الله

(١) ابن خالويه: إعراب...، ص ١٩٥، ١٩٦. وكذلك Shahid: op. cit., p 434.

وبذا آمنَ قريشاً من خوف^(١).

ثم إن وحدة السورتين تُضيف قوة عظيمة إلى معنى مخاطبة الله لنبيه في أول سورة الفيل إذ قال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾. ذلك أن النبي سبّر تجارةً على طول طريق التوابل زمنًا قبل البعثة النبوية، ولذا فالسورة تخصّه مباشرةً لأنه استمتع بنعمة الله وكان من الشاكرين وعبد الإله الواحد، فيما جحدت قريش هذه النعمة فلم يعبدوه. وبهذا تصبح السورة واحدةً من تلك السور التي يخاطب فيها الله نبيه في أمرٍ مهم من أمور ماضيه... وإن بلاغ محمد إلى قومه قريش، وهو أن يشرهم بالله الأحد، يصبح أوضح معنى، حين يتصل هذا التبشير بانتماء النبي إلى قريش، الذين نعموا بنعمة الهزيمة التي أنزلها الله بالأحباش. وبذا كان النبي في وضعٍ ملائمٍ ليدعو أبناء قومه إلى عبادة الله الواحد^(٢). ولا يستقيم كل هذا إلا إذا افترضنا وحدة السورتين.

- د - فائدة وحدة السورتين

فإذا أخذنا السورتين على أنهما سورة واحدة، أو على أنهما على الأقل متصلتان في السياق التاريخي، فلا شك في أن الفائدة التي يجنيها المؤرخ عظيمة، لأنهما تتناولان أبرهة والأحباش ومكة والكعبة وزوال السيادة الحبشية في جنوب الجزيرة، وارتقاء مكة إلى مكانة السيادة من جرّاء سيطرتها على طرق التجارة في غرب الجزيرة^(٣).

إن التفسير التاريخي للسورتين، إذا قرئنا معاً، يعني أن النفوذ الحبشي في اليمن وأجزاء أخرى من جزيرة العرب، كان يحول دون قيام قريش برحلتها على طول خط تجارة التوابل، وأن هزيمة الأحباش كانت بشيراً لبدا زوال هذه العقبة من أمام مكة. كذلك يعني هذا أن زوال السلطان الحبشي من اليمن لم يتأخّر

(١) النيسابوري: غرائب...، ص ١٦٨. الطبري: التفسير، ص ١٩٧، ١٩٨. وابن كثير: التفسير، ص ٣٧٧، ٣٧٨. وانظر أيضاً Shahid: op. cit., p. 431.

(٢) الطبري: التفسير، ص ١٩١. ابن خالويه: إعراب...، ص ١٩٠. وهما يُجمعان على أن النبي هو المخاطب في سورة الفيل. أنظر أيضاً: Shahid: op. cit., p 436.

(٣) Shahid: ibid, p 429

طويلاً بعد هزيمة أبرهة عند أعتاب مكة. ولما كان متعارفاً على أن ملك الأحباش في اليمن قد زال سنة ٥٧٢ للميلاد، فإن وحدة السورتين تؤيد تاريخ عام الفيل على ما جاءت به المصادر العربية الإسلامية في معظمها، أي سنة ٥٧٠ للميلاد.

وإذا اتُخذت السورتان في إطار تفسيري تاريخي معاً، فإن حرف اللام الأول في قوله: ﴿لَا يَلْفَ﴾ يُصبح لام السببية، أي أن الله جعل أصحاب الفيل كعصفٍ مأكولٍ لِيُولَفَ قريشاً رحلة الشتاء والصيف. وحينئذ يوفّر هذا النص القرآني في رأي أنصار وحدة السورتين: «إثباتاً تاريخياً في إحدى المسائل التاريخية الكبرى في تاريخ الشرق الأدنى، أي في تحوّل التجارة شيئاً فشيئاً من الطريق الشرقية عبر وادي الرافدين، إلى طريق غرب الجزيرة في القرن السادس»^(١).

غير أن تمام الفائدة التاريخية قد يقتضي في التفسيرات الشتى لسورة الفيل، إيضاح العنصر العجائبي الذي نُسب إلى الحادثة التاريخية. جاء في القرآن: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ *﴾. (سورة الفيل).

ولكبار المفسرين الإسلاميين روايات تاريخية في تفسير هذه الآية. فالنيسابوري يقول: «رُوي أن أبرهة ملك اليمن من قبل أصحابه النجاشي بنى كنيسةً بصنعاء، وأراد أن يصرف إليها الحاج، فخرج رجلٌ من كنانة فتغوط فيها ليلاً، فأغضبه ذلك، وقيل أجبجت رفة من العرب ناراً فحملتها الريح فأحرقتها فحلف ليهلّ من الكعبة. فخرج بجيشه ومعه فيل له اسمه محمود وكان قوياً عظيماً... فلما بلغ قريباً من مكة خرج إليه عبد المطلب [جدّ الرسول] وعرض عليه ثلث أموال تهامة ليرجع فأبى... فأرسل الله تعالى عليهم طيراً... كالخطاطيف... مع كل طير حجر في منقاره وحجران في رجليه... فهلكوا في كل طريقٍ ومريض أبرهة فנסاقت أنامله وآرابه، وما مات حتى انصدع صدره عن

(١) ibid., pp. 435, 436

قلبه... وعن عائشة: رأيت قائد الفيل وسائسه أعميين مقعدين يستطعمان... وكان قد بقي بمكة جمع شاهدوا تلك الواقعة... وعن عكرمة: من أصابته [الحجارة] أصابه جُدري^(١).

أما الطبري فكان له تفسيران على الأقل في غزوة أبرهة إذ قال: «ثم إن أبرهة تَوَجَّ محمد بن خزاعي [الذكواني ثم السلمي] وأمره على مضر وأمره أن يسير في الناس يدعوهم إلى حج القليس كنيسته التي بناها، فسار محمد بن خزاعي حتى إذا نزل ببعض أرض بني كنانة وقد بلغ أهل تهامة أمره وما جاء له، بعثوا إليه رجلاً من هُذَيْل يقال له عروة بن حياض الملاصي فرماه بسهم فقتله. وكان مع محمد بن خزاعي أخوة قيس بن خزاعي فهرب حين قُتل أخوه فلحق بأبرهة، فأخبره بقتله، فزاد ذلك أبرهة غضباً وحنقاً وحلف ليغزون بني كنانة وليهدمن البيت. ثم إن أبرهة حين أجمع السير إلى البيت أمر الحشنان، فتهيات وتجهزت وخرج معه الفيل، وسمعت العرب بذلك فأعظموه وفضلوا به ورأوا جهاده حقاً عليهم حين سمعوا أنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام»^(٢). ثم روى الطبري واقعات المقاومة العربية لأبرهة وتخاذل بعض القبائل العربية، حتى وصل إلى واقعة الفيل. ففي تفسيره للسورة قال الطبري: «ألم تنظر يا محمد بعين قلبك كيف فعل ربك بأصحاب الفيل الذين قدموا من اليمن يريدون تخريب الكعبة، من الحبشة ورئيسهم أبرهة الحبشي الأشرم، ألم يجعل كيدهم في تضليل... يعني في تضليلهم عما أرادوا وحاولوا... قال... عن ابن عباس: في قوله طيراً أبابيل، قال: يتبع بعضها بعضاً... قال: متفرقة... قال: الأبابيل الكثيرة... قال: الأبابيل المختلفة تأتي من ههنا وتأتي من ههنا، أتتهم من كل مكان وذكر أنها كانت طيراً أخرجت من البحر... وقال آخرون: كانت خضراء لها خراطيم كخراطيم الطير وأكف كأكف الكلاب... قال: كانت طيراً خضراً خرجت من البحر لها رؤس كرؤس السباع... قال: هي طير سود بحرية في مناقرها وأظفارها الحجارة... قال: طير خضر لها مناقير صفراء... [قال ابن

(١) النيسابوري: غرائب... ج ٣٠، ص ١٦٣ - ١٦٤.

(٢) الطبري: التفسير... ج ٣٠، ص ١٩٣ - ١٩٤.

عباس]: حجارة من سجيل قال: طين في حجارة... عن عكرمة قال: كانت ترميهم بحجارة معها، قال: فإذا أصاب أحدهم خرج به الجدرى، قال: كان أول يوم روي فيه الجدرى... قال: كانت مع كل طير ثلاثة أحجار حجران في رجله وحجر في منقاره، فجعلت ترميهم بها... لا يصيب [الحجر] شيئاً إلا هشمه»^(١). وأدرج الطبري في تفسيره أيضاً أن سبب مسير أبرهة إلى مكة تغوط «رجل من النساء، أحد بني فقيم» في كنيسته التي بناها في صنعاء. لكن معظم روايات المفسرين نزعت في تفسيرها النص القرآني، إلى الإيحاء بعناصر عجائبية في حادثة هزيمة أبرهة الحبشي، وهي حادثة تاريخية، فأضعفت المصادر الإسلامية حتى شكك بعض الباحثين المؤرخين في الرواية كلها دون تمييز بين ما جاء في القرآن الكريم وما جاء في روايات دخلت فيما بعد على تفسير النص^(٢).

هـ سورة الفيل

إلا أن الطبري نفسه، وهو يروي التفسيرات المتواترة، المعقول منها وغير المعقول، أبدى تحفظاً مما لا يقبله عقله، إذ قال: «فخرجوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون على كل منهل، فأصيب أبرهة في جسده وخرجوا به معهم، فسقطت أنامله أنملة أنملة، كلما سقطت أنملة أتبعها مدة تمت قَيْحاً ودماً حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطير [الرواية مقبولة إلى هنا] فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه [الرواية هنا غير مقبولة، ولذا أضاف الطبري]: فيما يزعمون»^(٣). ولا بد إذن من أخذ كثير من كتب التفسير على أنها جمعت ما أمكن مما شاع بين الناس من تفسيرات جيدها وفاسدها، فلا يؤخذ الجيد بجزيرة الفاسد، ولا يساق ذلك دليلاً على بطلان الحادثة جملة وتفصيلاً.

وقد بين شهيد أن ما جاء في حرفية النص القرآني لا يتضمن العناصر

(١) المصدر ذاته، ج ٣٠، ص ١٩١ - ١٩٣. وبقي تفسير الآية حتى ص ١٩٧.

(٢) سنتناول هذه الشكوك في الفصل المختص بأوضاع الجزيرة العربية في القرن السادس فيما بعد. أنظر تفسير سورة الفيل في ابن كثير والنيسابوري وابن خالويه والطبري.

(٣) الطبري: التفسير... ج ٣٠، ص ١٩٦.

الغرائبية التي أدرجت على بعض التفاسير فيما بعد. وأكد أن حادثة الفيل وهزيمة أبرهة الحبشي في محاولته غزومكة وهدم كعبتها، لا مرأه فيهما فقال: «فالمسألة هي في أن هذه الواقعة حادثة من القرن الميلادي السادس تاريخها نحو سنة ٥٧٠، وذكرها لا بد أنها كانت لا تزال حية في أذهان بعض المكيين الذين يخاطبهم القرآن. فلو جاء الوحي القرآني بتفسير غرائبي لا يُصدّق لهزيمة الغزاة الأحباش، لما أدى العظة المقصودة»^(١). ولو لم تكن حادثة الفيل وهزيمة أبرهة صحيحتين، لكان غريباً حقاً ألا يستغلّ مشركو قريش ذلك الأمر في مجادلة المسلمين ومحاولة تسخيف رأيهم، وقد توسّلوا إلى ذلك كل السبل التي أتحت لهم، وكانوا قريبي عهد بعام الفيل، وكان منهم من كان بالغاً في ذلك العام. ولكن ما الذي يقوله القرآن في السورة حقاً، وما وجه الغرابة في إسهام الطير الأبايل في هزيمة أبرهة؟

عند التدقيق نلاحظ أن ليس في السورة على الإطلاق ما ينسب إلى الطير أنها دمرت الغزاة. إن التفاسير اللاحقة، بنزوعها إلى عنصر العجائب هي المسؤولة حسبما سلف عن نشر هذا التفسير العجائبي بين الناس. فالإشارة الصريحة إلى تدمير جيش أبرهة جاءت في الآية الثانية، مصوغة في شكل سؤال بياني يؤكد هزيمتهم بفعل الله، لا الطير: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾. أما الآيتان اللتان تُذكر فيهما الطير فتليان هذه، لكنهما ليستا معطوفتين إليها عطف تكافؤ، ولا عطف شرح أو تفسير، ولا هما في مثابة جملة في محل حال. إذ انهما معطوفتان بحرف الواو، وهذا يدل على أن مضمون السورتين المذكورتين: ﴿وَأَرْسَلْ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ﴾ هو عنصر جديد مزيد على ما سبق. ولا تتضمن السورتان أي شيء يؤكد صراحة أن الطير هي التي دمرت الجيش، فيما تُعاود الآية الأخيرة: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصِفٍ أَلْعُفٍ﴾ بوضوح شديد نسبة الفعل إلى الله، لا إلى الطير. ولذا فالطير ليست أداة العقاب بل هي عنصر مرافق، أو في أقصى الأحوال، سبب مُشارك.

(١) Shahid: op. cit., p. 433

لكن العنصر العجائبي المنسوب إلى الطير في بعض التفاسير، لا يني يشير رية من ارتاب، طالما أن الآية تنسب إلى الطير رمي الحجارة. فعلى هذا، في رأي شهيد، احتمالان للتفسير:

أولاً - «تُنسب إلى أبي حنيفة قراءة يَرْمِيهِمْ، بدلاً من تَرْمِيهِمْ، فالفاعل إذن لفعل الرماية هو الله لا الطير. ويؤيد هذا أن جميع أفعال التدمير برمي الحجارة منسوبة في القرآن الكريم إلى الله. فإذا صحت القراءة يَرْمِيهِمْ، فإن لهذا العقاب الالهي مثيلاً في غير موضع في التوراة أيضاً.

ثانياً - «التفسير الآخر يفترض أن القراءة تَرْمِيهِمْ هي الصحيحة، ويستند إلى بعض حقائق العلوم الطبيعية في [تفسير ما حدث و] إزالة العنصر العجائبي. فثمة نوعان من النسور، قد يكون أحدهما هو الطير المقصودة: الأول يقتل برمي العظام أو السلاحف، ويدعى كاسر العظام، والثاني الرّحام، يستخدم بيضة النعامة وفق ما يرويه علماء طيور التوراة، على النحو التالي: «البيضة أقوى من أن يكسرها بمنقاره الضعيف، وأثقل من أن يستطيع حملها. فبدلاً من الطيران بالبيضة ورميها على حجر [لكسرها] يطير بحجر ثم يرميه على البيضة». وكل من هذين التفسيرين يقطع شوطاً بعيداً في... إعادة الصفة التاريخية التي تتصف بها السورة، وتأييد الرأي بقبولها القبول الذي تستحق.

«فالطيور إذن لم تكن أدوات تدمير ألقت الحجارة أم لم تلقها، بل أنها طارت إلى الميدان كطير قمامة. أما إسهامها في العقاب فمحصور فعلاً، والإشارة إليها غرضه تعظيم الاذلال التام الذي ألحق بالدخيل المهزوم. وهذه صورة تفصيلية مألوفة في الشعر الجاهلي، إذ كان الساقطون في ميدان القتال يُحرمون من الدفن المشرف ويُتركون لتفترسهم كواسر الطير. ولعل في قوله ﴿مَأْكُولٍ﴾ في الآية الأخيرة من السورة تلميحاً إلى ذلك»^(١).

وعلى أية حال، ومهما كان الرأي البات في أمر إثبات وحدة السورتين أو

(١) حول قراءة: يَرْمِيهِمْ، أنظر ابن خالويه: إعراب... ص ١٩٣. وكذلك Shahid: op. cit.,

نفيها، فإن فهم سورتي الفيل وقريش فهماً تاريخياً موحداً ضمن إطار علمي مجرد من كل شوائب المعتقدات الشعبية التي لصقت بالتفاسير في زمن متأخر، يعزز بما لا شك فيه، احتمالات استفادة المؤرخ من هاتين السورتين.

إلا أن البحث، قبل أن يغوص مزيداً في استقصاء الحقيقة التاريخية في شأن إيلاف قريش وما أُلِّمَ به من حوادث، لا بد من أن ينصرف أولاً إلى محاولة رسم صورة واضحة للصراع الدولي القديم الذي شهد تقاتلاً مستمراً للسيطرة على خطوط التجارة الدولية المارة عبر بلاد العرب وفي جوارها، في البحر الأحمر والخليج. إن رسم صورة هذا الصراع القديم، لا غنى عنه في محاولة وضع إيلاف قريش في إطاره في السياسة الدولية لذلك العصر، ويوضح كثيراً من العناصر الدائمة غير المتبدلة ضمن الجغرافية السياسية للمنطقة العربية، ويبين مواقف الدول من المنطقة العربية وارتباط هذه المواقف بخطوط التجارة الشرقية ارتباطاً وثيقاً.

الفصل الثاني

الغرب وتجارة الشرق

أولاً: العرب بين الشرق والغرب

أ- الصراع المستمر

قال كيمون: «إن أعظم ما هيمن على كل تاريخ آسية القديمة في العصور الغابرة، هو المجابهة بين الحضارة الاغريقية - الرومانية وإيران، تلك المجابهة التي كانت موضوع الصراع الأكبر في هذه البلاد بين الشرق والغرب»^(١).

كانت الحروب التي نشبت بين الفرس وبيزنطة العامل الأول في السياسة الدولية في القرون الثلاثة التي سبقت الاسلام. غير أنها لم تكن سوى امتداد في حلقات جديدة، للصراع الذي نشب بلا هوادة بين الفرس والرومان. وفيما كان الغرض الأول للسياسة الرومانية في المشرق العربي هو محاولة الاستيلاء على منفذ من البحر المتوسط إلى المحيط الهندي، يُغني الامبراطورية الرومانية عن دفع المكوس لعدوها الشرقي إيران، وعن ضرورة الارتهان لرغبة هذا العدو في التجارة الشرقية، كان الغرض الأول للسياسة الفارسية في المواجهة مع الغرب الروماني، هو السيطرة على شواطئ البحر المتوسط الشرقية. كان احتلال طرق التجارة العربية وهي تنقل ثروات المحيط الهندي نحو الغرب عبر أسواق سورية ومصر، يلبس، كما يقول لامنس، لبوس الذرائع الدينية. ومن هذه الرغبة في الهيمنة السياسية والاقتصادية نشأ نظام «مناطق النفوذ» في شبه جزيرة العرب

(١) Cumont, Franz: Les Religions Orientales dans le Paganisme Romain, 1929, p. 125

استشهد إدمون رباط في كتابه: L'Orient Chrétien à la Veille de l'Islam, Publications de

l'Université Libanaise, Beyrouth, 1980, p 88

وضفتي البحر الأحمر الذي أضحي ميداناً للصراع بين القوتين، في اختلال مستمر لميزان القوى^(١). ذلك أن البحر الأحمر هو المنفذ الأقرب مثلاً نحو المحيط الهندي، من وجهة نظر قوى الغرب الاغريقية - الرومانية، فيما كان الفرس والساسانيون يرون أن الأصلح والأسهل لهم هو نقل ما يأتي به تجارهم من الصين والهند وسيلان إلى الخليج، حيث لا يلقون أية مزاحمة، فيدفعون بتجارهم في نهر الفرات نحو نصيبين أو إلى بلاد الشام عبر الصحراء السورية، لبيعها إلى البيزنطيين^(٢). ولم يكن الفرس يستسيغون قطعاً أن تستولي رومة أو بيزنطة على البحر الأحمر لأن ذلك كان يجردهم من مكاسب مرور تجارة الشرق عبر أرضهم وتقاضي مكوسهم.

وقد تداولت المنافذ الثلاثة إلى المحيط الهندي، وهي طريق الخليج والفرات إلى بادية الشام، وطريق البحر الأحمر إلى فلسطين ومصر، وطريق القوافل البرية عبر الحجاز إلى بلاد الشام، حالات مختلفة من الحرب والسلام، وفقاً لسياسة الدولتين الكبيرتين في حينه. ففي سعي القوى الاغريقية - الرومانية لفتح منافذ إلى المحيط الهندي، نجح الاسكندر المقدوني الكبير في الاستيلاء على طريق الخليج في أوائل الربع الأخير من القرن الرابع قبل الميلاد، ثم نجح الامبراطور الروماني ترايانوس Trajanus (٩٨ - ١١٧ م) في مطلع القرن الميلادي الثاني، في الوصول إلى شاطئ الخليج من ناحية العراق، لكن محاولته لم

(١) Rabboth: L'Orient Chrétien.... p. 98. وعن سعي «الغرب» الدائم إلى تخطيط الوساطة في التجارة مع المحيط الهندي، أنظر: SALLES, Jean-François: La Circumnavigation de l'Arabie dans l'Antiquité Classique, dans l'Arabie et ses Mers Bordières, I, sous la direction de Jean-François Salles, GS Maison de l'Orient, Lyon, 1988; p 98

(٢) يقول جونز إن الطريق التجارية من مرافئ الفرات إلى تدمر عبر بادية الشام كانت مزدهرة منذ القرن الأول قبل الميلاد على الأقل. أنظر Jones, A.H.M.: The Cities of the Eastern Roman Provinces, Oxford University Press, 1971, pp. 219, 227, 265. وكذلك جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت - دار النهضة، بغداد، ١٩٧٦، ج ٧، ص ٢٨١.

تُعمر. ثم نعمت طريق الخليج إجمالاً بالهدوء فيما بعد، بعدما أفلح الرومان عن هذا الطموح.

أما طريق القوافل البرية عبر الحجاز فكانت صعبة المنال على الجيوش الامبراطورية، علاوة على أن رومة وبيزنطة ما كانتا لترغبان في الاستيلاء على هذه الطريق لو تسنى لهما الاستيلاء على الطريق الثالثة: البحر الأحمر. ولهذا السبب كان الصراع بين الشرق والغرب للاستيلاء على هذا البحر والمناطق المطلة على ضفتيه أمراً جليلاً في رأي قادة الفريقين المتنازعين، فدار كثير من القتال بينهما لهذا السبب.

لقد وقع عرب الجزيرة بين القوتين العظميين^(١)، في خضم هذا الصراع، على طرق أحاطت بديارهم من كل صوب أو مرت عبرها. وقد استجاب العرب لمقتضيات جغرافيا بلادهم فوصفهم شبرنغر بأنهم: «مؤسسو التجارة العالمية في الأزمنة القديمة»^(٢). وكانت الصلات بين العرب والقارات المجاورة، وبخاصة الهند قد بدأت في زمن غير معلوم تماماً لشدة قدمه. ويُعتقد أن العرب احتكروا التجارة الشرقية ونقلوا منتجاتها إلى شواطئ الشام، حيث كان الفينيقيون يكملون نقلها إلى البحر المتوسط^(٣).

(١) القوتان العظميان ليستا دولتين هائلتين بل مجموعتان من الدول. فالقوة الغربية العظمى مثلها الاسكندر ثم رومة وبيزنطة، فيما حكم البارثيون دولة الشرق الايرانية، ثم حكمها الساسانيون إلى يوم زوالها بظهور الاسلام.

(٢) L'Orient Chrétien...., p. 128. وانظر أيضاً، Sprenger, A.: Alte Geographie Arabiens, Bern, 1875, s.299. Miller, J.Innes: The Spice Trade of the Roman Empire, Oxford University Press, 1969, pp. 147, 160.

(٣) ازدهرت جرش بتجارة الهند وجنوب الجزيرة العربية وهي تجارة جاءت عبر البتراء في عصر البطالسة والعصر الروماني. أنظر Jones, pp. 251, 290. وكانت القوافل المحملة بالبضاعة الشرقية تسلك الطرق شمالاً إلى بادية الشام منذ أيام مملكة سبأ، وكان مصدر اللبان والمر الأول هو حضرموت. انظر في هذا: Miller, pp.13, 147, 178. وانظر أيضاً Charlesworth, Cambridge Ancient History, Cambridge University Press, 1951, vol.X, p. 60. وكذلك، ويرى سال أن العرب لا الرومان أبحروا للتجارة في المحيط الهندي قبيل الميلاد وبعده.

ب - فوائد البدو وخطرهم

كان البدو عنصراً مهماً في اقتصاد مجتمعات الاستقرار الزراعي. فكانوا يقيمون المواصلات الاقتصادية عبر الصحارى ويؤقرون وسائل النقل والقوافل والأدلاء والمرشدين المسلحين. وكانوا يُمدّون المناطق الزراعية بدواب النقل والمواشي المنتجة واللحم والسّمد والجلد. وكان كثير من قبائل الشمال يعتمد اقتصاداً مزدوجاً يجعلهم في مرتبة متوسطة بين الرحّل والمستقرّين. لكن مصالحهم لم تتفق دوماً مع مصلحة المزارعين. إذ تضرّر هؤلاء من جرّاء الحروب بين الفرس وأعدائهم، فيما كان البدو يستثمرون هذه الحروب في أحيان كثيرة. وفي زمن القحط والجفاف كان البدو يغيرون على حقول المزارعين ومواشيتهم ومراعيهم. ولم يكن في إمكان المزارعين أو الدولة التي تحميهم أن يردعوا المغيّرين أو يحتاطوا لغاراتهم. وقد عجزت الدول في الاجمال عن استيعاب مخاطر البدو وحصر نزعاتهم أو تصنيف مواقفهم، فقال المؤرخ السوري أميانوس مارسليينوس (Ammianus Marcellinus: ٣٣٠ - ٤١٠ م تقريباً) في وصفه لحرب الملك الساساني شهبور الثاني على أعدائه سنة ٣٥٤ للميلاد: «إن العرب [البدو] الذين لا نرغب أبداً في صداقتهم ولا عداوتهم، ذرعوا البلاد يَمَنَةً وَيَسْرَةً في زمن قصير وأخربوا ما وجدوا إليه سبيلاً، مثل الحداة، ما إن تلمح فريسة من علٍ حتى تنحط عليها وتتزعجها في طرفه عين وترتفع. من هذه القبائل القاطنة أصلاً بين بلاد الأشوريين وشلالات نهر النيل وبلاد النوبة، محاربون متساوون في الرتبة أنصاف عراة، يلتفون باردية تغطيهم حتى المحاشم، فيتنقلون في مناطق شاسعة على صهوات جيادهم السريعة وجمالهم الخفيفة»^(١). ووصف القديس جيروم (Jerome: ٣٤٧ - ٤١٩ م تقريباً) في روايته لرحلة

(١) Trimingham, John Spencer: Christianity Among the Arabs in Pre-Islamic Times, Longman,

London and New York, Librairie du Liban, Beirut. 1979, p. 148 ومارسليينوس مصدر لكثير

من الروايات المعادية للعرب في تواريخ قدماء الغربيين ومحدثيهم. وقد حلّ دويلاتول بعمق

أسباب نوازع البدو إلى الغزو وفسرها تفسيراً سكانياً (ديمغرافياً). أنظر في هذا، De Planhol,

Xavier: Les Fondements Géographiques de l'Histoire de l'Islam, Cambridge University

Press, 1968, p. 15 sqq

الراهب مالخوس على طريق بين حلب والرّها كيف كان البدو يغيرون في غير زمن الحرب، على المسافرين. بل انه نُسب إلى العرب البدو، أنهم قتلوا الامبراطور يوليانيوس (Julianus: ٣٦١ - ٣٦٣ م) في الحملة التي شنتها على الفرس بمعونة بعض القبائل، سنة ٣٦٣ للميلاد، لأنه رفض أن يدفع لهم المال الذي تعوّدوا أن يتقاضوه من القادة الآخرين^(١). ومن غزوات البدو الرحّل على أراضي الدولتين البيزنطية والساسانية في أواخر القرن الميلادي الخامس، ما يدلّ على أن البدو كانوا يغيرون بسهولة، فلا تملك الدولتان الاقتصاد منهنّ إلا بحشد كبير من الجنود، يعاونهم عرب بدو آخرون^(٢).

لم يكن إرضاء البدو ضرورياً فقط لرد أذاهم عن أراضي الاستقرار الزراعي ومدن الدولتين اللتين تقاسمتا السلطة والنفوذ في بلاد الشام والرافدين، بل كان للبدو إسهام رغبت فيه هاتان الدولتان في كثير من الأحيان، منذ أن تعاظمت تربية الجمال فكثرت أعدادها، حتى توافر منها ما يكفل الاستثمار المجدي في القوافل التجارية المسافرة من صحراء الجزيرة حتى المناطق الزراعية في فلسطين^(٣). وقد تعززت سيطرة العرب على شبه جزيرتهم وطرق التجارة فيها مع ظهور الخيل وحلولها محل الجمال في مهام القتال في أواسط الجزيرة وجنوبيها، واستُخدمت في أطراف الجزيرة الجنوبية سروج جيدة لمطايا المقاتلين وحسّنت القبائل مع مرور الزمن أساليبها القتالية فأصبحت قادرة على الغزو المفاجيء والأدبار

(١) Trimingham, pp. 148-150. وعن علاقة البدو بالحضر، أنظر: Lammens, Henri: l'Arabie

Occidentale avant l'Hégire, Imprimerie Catholique, Beyrouth, 1928, pp. 70-71.

(٢) الواقع أن الحاجة إلى حماية خطوط التجارة في منطقة ما بين النهرين هي حاجة قديمة كانت قائمة على الأقل منذ أيام السليوقيين قبل الميلاد: Jones, p. 215. وانظر أيضاً، Shahid, Irfan:

Byzantium and the Arabs in the Fifth Century, Dumbarton Oaks, Washington, D.C., 1989, pp. 82, 83. وسنشير فيما يلي إلى هذا الكتاب على الشكل التالي: Shahid: Byzantium

(5C.)

(٣) Dostal, Walter: The Evolution of Beduin Life, Studi Semitici, II (1959), p. 22. وانظر

كذلك: Höfner, Maria: Die Beduinen in den Vorislamischen Inschriften, Studi Semitici, II (1959), p. 62. وانظر أيضاً، De Planhol,

De Planhol, p. 13

السريع، وأضحت صعبة المنال في الصحارى. ورأى جواد علي أن هذه العوامل أثرت أيما تأثير، فلم تَبَقِ القوة العسكرية محصورة في المناطق الزراعية في جنوب جزيرة العرب، بل انتقلت إلى بقية أنحائها في مواضع الأبار والرياض والعيون، وأصبحت مراكز التجارة، مثل مكة وغيرها قادرة على امتلاك القوة العسكرية^(١)، فلم تعد هذه القوة حكراً على الدول الزراعية أو المجتمعات المستقرة، بل أصبحت في متناول البدو أيضاً. وقُدِّر جاك ريكمنس أن زمن هذا التبدل كان أواخر القرن الثاني بعد الميلاد، ونُسب إليه حدوث اضطرابات سياسية وعسكرية مزمنة استمرت نحو قرن ونصف قرن في اليمن. ذلك أن استخدام البدو للخيول أدى إلى إمعانهم في الغزو وفي التدخل في شؤون الحكومات، فصار لهم نفوذهم في الأمور السياسية والعسكرية، واضطرت حكومات اليمن إلى أن تحسب لهم حساباً، وأن تستخدمهم في القتال مع الحكومات الأخرى أو في قمع ثورات الأقبال والأذواء الطامعين^(٢). أما في الشمال فلم تكن قدرة الحكومات أفضل حالاً في مواجهة البدو، إذ كان هؤلاء مؤهلين على أفضل وجه لخفارة الصحراء وطرقها. وكانت مهارتهم في استخدام القوس والنشاب من على ظهور جيادهم وجمالهم كفيلة بردع أي قوة تهاجم الصحراء. وكانت وحدات الجيش الروماني الاعتيادية عاجزة أمام قدرة البدو على الحركة ووسائل قتالهم الصحراوي غير المألوف. وقد ظهر السرج لدى بدو شمال الجزيرة وبلاد الشام في القرن الثاني للميلاد أيضاً، فاختارت رومة أن تشكل منهم وحدات عسكرية ضمن جيشها، لكف أذاهم ولاستخدامهم في محاربة البدو الآخرين^(٣).

لم تكن تلك وحدها الروادع التي جعلت جزيرة العرب وصحاريهم منبعا على الاغريق والرومان والبيزنطيين وغيرهم زمناً طويلاً، بل كانت الروايات

(١) جواد علي... ج ٢، ص ٤٥٤.

(٢) المرجع ذاته، ج ٢، ص ٥٢٣، ٥٢٤.

(٣) Graf, David F.: The Saracens and the Defense of the Arabian Frontier, *Bulletin of American Schools of Oriental Studies*, 229 (1978), pp. 16, 17.

المخيفة تضيف إلى رهبة فرسان البدو وجفاف الصحراء، رهبة أخرى، تُسهم في تعزيز مناعة خطوط التجارة العربية، وتحمي احتكار السير عليها لأصحابها. يقول هيرودوتس (Herodotus: ٤٨٤ - ٤٢٠ ق.م. تقريباً) مؤرخ الاغريق في القرن الخامس قبل الميلاد، على رغم زيارته لجزيرة العرب: «وبلاد العرب في نهاية المعمورة الجنوبية، وفيها وحدها يوجد اللبان والمر والدارصيني واللادن. ويكابد العرب الشدائد في جني هذه النباتات ما عدا المر، فهم لأجل جني اللبان يحرقون تحت أشجاره نوعاً من الصمغ... ليشردوا أسراباً كثيرة من الحيات الطائرة المختلفة الأنواع التي تحرس الأشجار... وتنبت القرفة في بحيرات قليلة العمق يعيش بالقرب منها حيوانات ذات أجنحة كالخفافيش، وهي تزجج العرب بصياحها وأصواتها المرعبة ولكنهم لا يعبأون بها ويدفعونها عنهم ويتقدمون لجني القرفة»^(١).

ج - ضرورة التجارة الشرقية

قفزت باتريسيا كرون قرناً ونصف قرن، من عصر هيرودوتس إلى عصر هيرونيموس الكاردي (Hieronymos de Cardia: ٣٧٠ - ٢٦٥ ق.م. تقريباً) أواخر القرن الرابع قبل الميلاد، لتجعل بداية تجارة العرب المعروفة مع شواطئ البحر المتوسط في أواخر عهد الاسكندر. وكان من تجاراتهم في ذلك العصر اللبان والمر وأعلى أنواع التوابل الآتية من اليمن. وقد نسبت إلى إراتوستينيس (Eratosthenes: ٢٧٦ - ١٩٤ ق.م. تقريباً) أن هذه البضائع كان ينقلها تجار من معين إلى أيلة في سبعين يوماً^(٢). وكانت هذه المواد، باستثناء التوابل، مما

(١) Herodotus: The Histories, Translated by Aubrey de Sélincourt, The Penguin Classics, Mid- (١) ٢١٩, ٢٢٠. dlesex, 1963, pp 219, 220.

وانظر أيضاً: لفسنون، إسرائيل: تاريخ اللغات السامية، مطبعة الاعتماد، القاهرة، ١٩٢٩، ص ٢٣٣ - ٢٣٤. وفي شرح البضاعة المذكورة أنظر باب البضائع ومصادرها في الفصل الرابع فيما بعد.

(٢) Crone, Patricia: Meccan Trade and the Rise of Islam, Princeton University Press, 1987, pp. 18, 19.

وكتاب كرون هذا يشكك في تجارة مكة الدولية وفي وجود موسم الحج إلى مكة قبل الاسلام. وقد خُصص في نقد هذا الكتاب ملحق بآخر هذه الأطروحة، عنوانه: هل كانت لمكة تجارة دولية؟

تنتج أشجار مخصوصة تنبت في جنوب جزيرة العرب^(١). وأما الحرير فمن الصين^(٢) وسيلان^(٣) واللؤلؤ من الخليج، والرقيق والقروء والعاج والذهب وريش النعام والوَجَّ والسُّنا من الحبشة وإفريقية الشرقية^(٤). وقَلَّما ذكرت المصادر والمراجع بضائع الشمال والغرب في التجارة مع الجنوب، مثل المنسوجات المصرية والزجاج والمصنوعات الحرفية السورية^(٥)، ذلك أن أقصى ما كانت تصل إليه هذه البضائع جنوباً في معظم الحالات هو جنوب جزيرة العرب، لاعتبارات قد تختص بالطلب في المجتمعات المطلة على المحيط الهندي من إفريقية وآسية على الأرجح.

وقد يتساءل باحثون: وهل تستحق هذه البضائع أن تتصارع لأجلها أقوى الدول؟ إن بلييني (Plinius: ٢٣ - ٧٩ م.) نفسه أعرب عن امتعاضه لاضطرار رومة إلى دفع مبالغ طائلة كل سنة في الاتجار مع العرب، فآلقى بتبعات هذا «الاذلال الاقتصادي» على عواقب النساء الرومانيات في نزواتهن ورغبتهن في التطيب^(٦).

(١) Diodorus Siculus, translated by C.H. Oldfather, the Loeb Classical Library, London and Rodinson, Maxime: Mohammed, Penguin أيضاً، Cambridge, vol. II, pp. 47, 225

Miller, pp. 101- 105 وكذلك Books, Suffolk, Great Britain, 1977, p. 20

(٢) جواد علي: ج ٧، ص ٢٨١. وكذلك: Husein: The Early..., op.cit., p 109

(٣) Smith, Sidney: Events in Arabia in the 6th Century A.D., Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, XVI (1954), p. 426

(٤) Smith: op.cit. p. 426. وانظر أيضاً: Rodinson: op.cit. p. 20. وانظر تفصيلاً أوفى لبضاعة التجارة الشرقية في الفصل الرابع فيما يلي.

(٥) Miller, pp. 221, 224, 229 وكذلك Charlesworth, pp. 27, 47. وانظر أيضاً Husein: op.cit. p. 109. وفي بضائع التجارة الشرقية ومصادرها أنظر فيما بعد ضمن الفصل الرابع، باب: البضائع ومصادرها.

(٦) Pliny: Natural History, XII: 84 وكذلك Diodorus: vol. II, p. 231. وانظر أيضاً: Lam-mens, Henri: Les Grosses Fortunes à la Mècque au Siècle de l'Hégire, Egypte Contemporaine, VIII, (1917), p. 19. وانظر Miller, pp. 221, 224, 229 وفي شأن فوائد والبضاعة

الشرقية والحروب الرومانية للحصول عليها من غير وساطة أنظر: Cambridge Anc. Hist. vol.X, pp. 248 - 250 وكذلك Miller, 5 - 8, 13, 14, 15, 143

أما رائف حسين فارتأى أن هذه البضائع لم تكن كمالية، مثلما قد نظن، فنسب إلى روستوفتسيف قوله: «قد نعجب كثيراً لأن هذه البضائع... هي من وجهة نظرنا منتجات كمالية، وليست من الضروريات: اللبان للآلهة، والمرامح والعمود ومستحضرات التجميل للرجال والنساء، وبعض الأصباغ (مثل النيلة)، والتوابل للذواقة، والحجارة الكريمة واللآلئ والحرير الثمين والأقمشة القطنية وما إلى ذلك. لكن لا شك في أن هذه المنتجات لم تكن في نظر قدامى الشرقيين واليونان كماليات صرفاً، بل ضرورات معاشية تقريباً لا بديل منها، على الرغم من كل الجهود التي بُذلت في العالم الهيليني لاستنباط بدائل». وأكد لوفه إقبال رومة وبيزنطة على شراء التوابل والحرير^(١). وكان اللبان ضرورياً في المراسم الدينية في كل أنحاء العالم، منذ أزمنة لا يعيها التاريخ. وقد حل محل الأصاخي عند اليونان منذ القرن السادس قبل الميلاد، لاسترضاء الآلهة وتطهير الأمكنة وإزالة روائح الحياة الحضرية البدائية في المدن. وكان الرومان يعدّون اللبان أفضل أنواع البخور، وكان سعره دليلاً على إقبال الناس على شرائه. أما العبريون فكان دخان البخور يخفي حضور إلههم في الهيكل. وكان المسيحيون يحرقونه في بيعةهم. وأصبح حرق البخور في البوذية جزءاً مهماً في المراسم الدينية.

وكان المرء ذا مكانة مرموقة في استحضار العطور ومستحضرات التجميل. والمرء الصرف من مركبات الزيت المقدّس عند اليهود، على ما جاء في سفر الخروج. أما المركبات الأخرى فهي السُّنا والقرفة والوَجَّ وزيت الزيتون. وكان اليونان والرومان وشعوب المشرق يستخدمون المرء بكثرة للأغراض الطبية.

وقد بدأ استخدام الأفاويه، القرنفل والمطيبات الأخرى مع الفلفل وما شابه من توابل وبهارات، منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد في شواطئ المتوسط الشمالية. وأضحت المواسم منذئذ ناقصة، إذا خلت من هذه الأفاويه. وارتفعت

(١) Husein: op.cit., p.112. وانظر أيضاً Loewe, Michael: Spices and Silk: Aspects of World Trade in the First Seven Centuries of the Christian Era, JRAS, 1971 (2), pp. 166-179

أسعار هذه البضائع تبعاً لاشتداد الطلب عليها. فكلما كان مستهلكو الغرب يسعون في طلب الملابس الشرقية أو العطور والتوابل، كان تجار العرب الجنوبيون يرفعون أسعارهم. وكانت تلك الأسعار تتضمن طبعاً بدل المخاطر والمكوس ومشاق السفر، وعواصف الرمل وأنواء البحار وعطش الصحراء وغزوات البدو وما عدا ذلك^(١).

د- طرق التجارة البرية

سلكت قوافل التجارة العربية في البر طريقتين كبيرتين إلى موانئ البحر الأبيض المتوسط: أولاهما تمتد من جنوبي غربي جزيرة العرب إلى الحجاز وشرق الأردن وفلسطين وسورية، والثانية، وكانت مخصصة ببضاعة الهند في معظم الحالات، تبدأ على شاطئ الخليج وتسلك نهر الفرات صعوداً إلى سوق دورة، وهي تدعى اليوم الصالحية، قرب أبو كمال في سورية. وكانت البضائع تُنقل منها في قوافل عبر الصحراء الشامية إلى تدمر أو إلى متاجر أخرى، فيصل منها ما يصل إلى موانئ المتوسط تمهيداً لشحنه إلى المستهلكين^(٢). وكان يمكن بالطبع سلوك طرق أخرى، إذ إن السفن الآتية من الهند كانت تستطيع أن ترفأ إلى عدد من الموانئ. لكن الأبلّة في شط العرب كانت توفر للساسانيين القدرة على مراقبة التجارة الشرقية، علاوة على اختصار الطريق البرية، باجتياز بعض المسافة في نهر الفرات. أما الطريق بين اليمن والشام عبر الحجاز، فكان يحفز التجار على اعتمادها أمران على الأقل فيما يبدو: أولهما أن عدن ربما كانت أول مرفأ بعيد بعض الشيء عن متناول النفوذ الفارسي، وإن كان الحال غير ثابت على هذا في بعض مراحل التاريخ. والثاني استعداد القوافل العربية

(١) Husein: op. cit., pp. 111-114.

(٢) انظر فيما يلي باب: البضائع ومصادرها، في الفصل الرابع. Diodorus, vol. II, pp. 211-213.

وانظر أيضاً، Gabrieli, Francesco: A Short History of the Arabs, Robert Hale, London, 1965, p. 15.

وأنظر فيما يلي باب: الأبل وطرق الصحراء، في الفصل الرابع. وكذلك Potts, Daniel T.: Trans-Arabian Routes of the Pre-Islamic Period, dans L'Arabie et ses

Mers Bordières, I, GS-Maison de l'Orient, Lyon, pp. 127-162. والعلي، صالح أحمد: محاضرات في تاريخ العرب، ص ٣٦-٣٨.

الجيد لنقل تجارة الشرق عبر الحجاز، منذ أيام مملكة سبأ^(١). وقد استثمرت سبأ توسطها التجاري بين الشرق والغرب منذ زمن غابر. وكانت تجارة الهند التي تصل إلى عُمان تُنقل بحراً إلى مصر، إلا أن مصاعب النقل البحري عدلت بالتجارة شيئاً فشيئاً إلى طريق البر، من شَبوت في حضرموت، إلى مأرب عاصمة السبئيين، ثم إلى مكة فالبثراء عاصمة النبط، ومنها إلى غزة على البحر المتوسط^(٢). ولدى زوال مُلك سبأ نحو سنة ١١٥ قبل الميلاد قامت مملكة الحميريين التي امتد سلطانها ليشمل قبائل كثيرة في الجزيرة العربية. فسيطرت على عرب الحجاز واستخدمتهم في نقل تجارتها وحراستها حتى القرن الميلادي الخامس، حين تمكن الحجازيون من الحميريين، وصاروا هم أصحاب التجارة في الجزيرة العربية^(٣).

في تلك الأثناء كان النبط في شمال الحجاز وجنوبي بلاد الشام يمدّون خطوط التجارة العربية حتى مشارف شواطئ البحر المتوسط، متبعمين مهام عرب الجزيرة واليمن. وقد عُثر في أوائل القرن الثالث قبل الميلاد على نقود نبطية على الطريق بين البثراء وغزة، فيما تدل الآثار النبطية بين العقبة وغزة من حصون وصهاريج وبقايا أدوات فخارية على ازدهار أعمالهم التجارية قروناً قبل الميلاد. كذلك اكتشفت آثار نبطية في الجوف، مما يدل على امتداد الخطوط النبطية شرقاً وجنوباً، عبر وادي سرحان في وسط الطرف الشمالي لجزيرة العرب، ويؤيد رأي بعض المؤرخين أن هذا الوادي كان ممرّاً مهماً لتجارة الأنباط من الجزيرة العربية إلى حوران. وامتد نفوذ النبط كذلك إلى مدين وإلى

(١) نشر ميلر صفحات وخريطة لتبيان طرق التجارة الشرقية. أنظر في هذا، Miller, pp. 146-151.

119 sqq. وانظر كذلك، Ahmad, Nafis: The Arabs' Knowledge of Ceylon, Islamic Culture, vol. 19 (1945), p. 224.

(٢) Cambridge Anc. Hist., vol. X, pp. 248, 249. وجواد علي: ج ٧، ص ٢٤١. وكذلك

حمّور، ص ٢٦. وقد أفاض الباحثون في الحديث على سيطرة العرب طويلاً في العصور

القديمة على طرق التجارة إلى الهند. أنظر في هذا: Miller, pp. 147, 178. وكذلك Charles-

worth, p. 60.

(٣) حمّور: ص ٢٧، وكذلك Simon: Hums et Ilāf..., p. 205.

مدائن صالح (الحجر في المملكة العربية السعودية)، وفق ما يُستخلص من المقابر والكتابات النبطية في هذه الأخيرة. ولعل الأنباط كانوا يتولون التجارة العربية الآتية من الجنوب، عند منطقة العُلا، بالقرب من مدائن صالح^(١).

ويبدو أن الثموديين كانوا على علاقة وثيقة بتجارة الأنباط، فكانوا زُرَاعاً وأصحاب ماشية في الوقت نفسه، فاشتغل بعضهم بالتجارة^(٢). وأكد فان دن براندن هذا الأمر وقال إنهم كانوا مهرة في تجارة القوافل، فخالفه جاك ريكمنس^(٣). غير أن بعثة وينت وريد سنة ١٩٧٠ أكدت حلول الثموديين والصفيين محل الأنباط في قيادة قوافل التجارة عبر وادي سرحان^(٤). أما المذنيون فأكد اكتشاف جرّة من آثارهم في عصيون جابر (في العقبة) أنهم نشطوا في الاتجار بين الجزيرة العربية وخليج العقبة^(٥).

ولا شك في أن الأعراب كانوا يتفوقون على غيرهم في حماية طرق التجارة الصحراوية. فهم سادة البوادي، ويعرفون موقع مخازن الماء والآبار والعيون^(٦). وكانت صهاريج المياه التي برع الأنباط في بنائها وهندستها، من العوامل التي امتازت بها البتراء^(٧)، إضافة إلى تربيتهم الإبل. وينسب الشريف إلى النشاط التجاري هذا، أنه سبب نشوء عدد من أهم مدن العرب في الأزمنة القديمة

(١) Diodorus: vol.II, p. 43. وانظر Bowersock, J. Cambridge Anc.Hist., vol.X, pp. 248, 249.

G.W.: A Report on Arabia Provincia, Journal of Roman Studies, 61 (1971), pp. 221,

222. وانظر كذلك: Husein: op.cit., p. 109.

(٢) جواد علي: ج ١ ص ٣٣٠.

(٣) Van Den Branden, Albert: Histoire de Thamoud, Publications de l'Université Libanaise, (٣)

2e éd., Beyrouth, 1966, pp 42, 43, 58. Höfner: op.cit. s.59

(٤) Graf: op.cit., p 8

(٥) Ryckmans, G.: Un fragment de jarre avec caractères minéens à Tell el-Kheleyfeh, Revue

Biblque, 48 (1939), p. 249

(٦) جواد علي: ج ٢ ص ٦٠٧.

(٧) Diodorus: vol.II, p. 43. وانظر حور، ص ٢٩.

وازدهارها، من تدمر إلى مكة^(١). ويضيف جواد علي إمارة الحَضْر وإمارة الرُّها فيما بين النهرين، والرُّسَن وجَمص وسنْجار إلى جملة ما نشأ عند العرب من مدن وإمارات وحكومات بفضل التجارة^(٢). بل يُنسب زوال مملكة الأنباط وظهور مدينة تدمر إلى الأسباب التجارية ذاتها^(٣).

غير أن المسارعة إلى القول إن العرب في الجزيرة وأطرافها احتكروا التجارة الدولية بلا انقطاع بين الجنوب والشمال، وبين الشرق والغرب، هو أمر مبالغ فيه. ذلك أن التجارة البرية عبر الجزيرة لم تحرم الفرس والرومان أو البيزنطيين القدرة في بعض العصور على استخدام الطرق البحرية مباشرة من الخليج والبحر الأحمر إلى المحيط الهندي، والعكس. وتقول كرون في هذا: «فمن القرن الأول للميلاد لم يكن سكان وادي الرافدين وحدهم، بل اليونان أيضاً والرومان، يبحرون مباشرة إلى الهند ثم إلى سيلان. وتدل بقايا النقود الأثرية على أن [تجارتهم هذه] كانت في أوجها في القرنين الأولين للميلاد، وأنها ركزت في أواخر القرن الثالث، ونشطت بعض الشيء في الرابع ثم انكفأت فيما بعد». وكانت لهذا الانكفاء أسباب جعلت دور التجارة العربية الدولية عبر قوافل الصحراء يتعاضل. وقد لاحظت كرون أن: «كوسماس (Cosmas) لم يكن اليوناني الوحيد الذي زار سيلان في القرن السادس [للميلاد]، لكن العلاقات المباشرة [بين بيزنطة والهند] أضحّت نادرة على نحو واضح»^(٤). وأيد جوزيف سوموغي في الاجمال هذا التبدّل إذ قال: «إن الطريق البرية على طول

(١) الشريف، أحمد إبراهيم: مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول، الطبعة الثانية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٥، ص ١٦ - ١٩.

(٢) جواد علي، ج ٢، ص ٦٠٥.

(٣) Trimmingham, op.cit., pp. 29-30, 86. وانظر أيضاً: Rabath: op.cit., p. 134

(٤) Crone: op.cit., p 40. وفيما أحسن كرون ملاحظة انكفاء تجارة بيزنطة المباشرة مع الهند، أخفقت في

إدراك النتيجة الطبيعية لهذا الانكفاء، وهي أن التجار العرب تولّوا عبر مكة، في القرن السادس،

حصّة كبيرة من التجارة الدولية. وهو أمر أنكرته كرون بلا سبب واضح. واقترب ميلر من القول إن

العرب احتكروا تجارة الشرق في القطاعات المهمة، لتصل عبرهم إلى أسواقها الرومانية والبيزنطية.

Miller, pp. 147, 160

الشواطئ العربية واليمن وحضرموت أقفرت منذ القرن الأول للميلاد، حين تمكن البحارة اليونان من اجتياز المحيط الهندي بفضل الرياح الموسمية التي اكتشفها [لهم] هيبالوس (Hippalos) الاسكندري^(١). لكنه أضاف قوله: «إن طريق القوافل على طول هذه الشواطئ بُعث من جديد في القرن السادس»^(٢). ومثلما ظلت أحوال التجارة الشرقية عرضة للتبدل، كانت سياسة رومة حيال هذه التجارة تحاول التكيف وفق الظروف.

ثانياً: رومة وتجارة الشرق

أ- الثمن الاقتصادي والسياسي

عندما حاصر ألياريك (Alaric) ملك القوط رومة الحصار الأول في مطلع القرن الخامس طلب من الرومان لقاء فكّه الحصار ذهباً وفضةً و... ثلاثة آلاف رطل من الفلفل^(٣). كان الفلفل من أغلى العناصر التي تدخل في الطهي الروماني. وكان أحسن الأنواع في قول غيبون (Gibbon) يباع «بخمسة عشر ديناراً، أو عشرة شلنات الرطل»^(٤). وكان البخور «رأس بضائع العالم الثمينة المطلوبة» في الامبراطورية الرومانية. كان سعره يساوي سعر الذهب في قول بعض المصادر. ولم يكن يشتريه لغلائه هذا إلا رجال الدين، لاستعماله في الشعائر الدينية التي تستنزف القسم الأكبر منه، والملوك الأثرياء، وذلك لحرقه في المناسبات الدينية وفي اجتماعاتهم. ونجد «المؤرخ الكاتب بلينيوس [أي بليني] يشتكي من تبذير نيرون (Nero) عاهل رومة (٥٤ - ٦٨ للميلاد) ومن إسرافه

في حرق البخور واللبان لاجراء شعائر جنازة زوجه المتوفاة»^(٥). كذلك اشتكى أوريليانس (Aurelianus) إمبراطور رومة (٢٧٠ - ٢٧٥ للميلاد) من أن رطل الحرير كان يباع في عاصمة إمبراطوريته باثنتي عشرة أوقية من الذهب. وكانت بعض الأحداث أو عوامل الاحتكار ترفع السعر أحياناً عن ذلك الذي ذكره أوريليانس، وكان العرض في أحيان أخرى يزداد بما يفوق ازدياد الطلب، فتهدد الأسعار، لكن احتكار تجارة الحرير ظل طويلاً في غير يد رومة ثم بيزنطة. إذ ان الجزء الأكبر من الحرير المستورد كان منشؤه التبت والصين وقال غيبون: «كانت القوافل تخترق قلب آسية من بحر الصين إلى شواطئ البحر في سورية في مائتين وثلاثة وأربعين يوماً، وكان الرومان يحصلون على الحرير من التجار الفرس الذين تردّدوا على أسواق أرمينية ونصيبين»^(٦). لقد كانت طريق البحر من الهند إلى الخليج أو إلى البحر الأحمر أسرع من طريق البر الآسيوية هذه، لكن تجارة الشرق عبر الطريق البحرية كانت هي الأخرى احتكاًراً فارسياً قبل القرن الأول للميلاد. وكان التجار يجتنبون الطريق الآسيوية في زمن الحروب بين الفرس ورومة. ولعلمهم كانوا عندئذ يستخدمون طريق البحر، فكانت قوافل تجار الحرير في الصين في قول غيبون: «ترتاد طريقاً أكثر اتجاهاً إلى الجنوب، فكانوا يقطعون جبال التبت ويجتازون نهر الكنج أو السند ويتظنون متلهّفين في ثغور جوزيرات وملبّار وصول السفن التي تفد... من الغرب»^(٧).

كانت مشكلة رومة مع تجارة الشرق إذن معقدة. فهي مضطرة إلى شراء هذه السلع الضرورية، لكن شراؤها كان يحقق الربح والقوة للعدو التقليدي: الفرس. لم يكن الأمر ليختلف لو كان الفرس قد أصبحوا عدو رومة التقليدي بسبب هذا الاحتكار التجاري، أو لو كان الاحتكار والصراع على طرق التجارة هما نتيجة للعداء التقليدي بين الدولتين، وإن كان الاحتمال الأول هو الأقرب إلى منطق صراع الدول على النفوذ. إذ كانت العُنق الرومانية في هذه التجارة

(١) Somogyi, Joseph: The Part of Islam in Oriental Trade, *Islamic Culture*, vol. 30 (1956), p. 179. في الفصل الثالث فيما يلي عرض للأسباب الدولية التي عززت دور القوافل العربية البرية في التجارة الدولية في القرن السادس.

(٢) Miller, p. 25. وغيبون، إدوارد: اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها، تعريب محمد علي أبو ريدة (وغيره)، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، بلا تاريخ، ج ٢، ص ٢٠١. وفي شأن حاجة رومة إلى التوابل والطيب أنظر: Miller, 1-3, 110.

(٣) يستخدم غيبون هنا أسعاراً تنفق والقوة الشرائية في إنجلترا إبان القرن الثامن عشر.

(١) جواد علي، ج ٢، ص ٦٦. وانظر أيضاً Miller, p. 20.

(٢) غيبون، ج ٢، ص ٤٢٣، ٤٢٤. وكذلك Cambridge Anc. Hist., vol. IX, p. 598.

(٣) المرجع ذاته، ج ٢، ص ٤٢٤، ٤٢٥.

الضرورية مع الشرق، في قبضة الفرس. ولم يكن في استطاعة هؤلاء أن يكسبوا أموال عدوهم فقط، أو يرفعوا السعر متى شاءوا، بل كانوا في زمن الحروب، وهي كثيرة في تاريخ هذا الصراع، يوقفون تدفق السلع إلى أسواق الغرب. وكان تجار العرب في وسط هذا الصراع يجنون أرباحاً متفاوتة مع تفاوت الحاجة إلى طريق الصحراء. ولم يكن في مَكْنَة رومة أن تجد حلاً إلا محاولة شق طريقها إلى المحيط الهندي عبر البحر الأحمر أو غرب جزيرة العرب، بعيداً عن نفوذ الفرس وقبضتهم. لكن هذا كان يضع العنق الرومانية في بعض الأحيان، في قبضة أسياة الصحراء: العرب. وقد اشتهر بليني المؤرخ الروماني، بشكواه من العرب وغناهم وامتناعهم عن الشراء إذ يقول: «ومن الغرابة أن نقول إن نصف هذه القبائل [العربية] التي تفوق الحصر يشتغل بالتجارة أو يعيش على النهب وقطع الطرق. والعرب أغنى أمم العالم طراً، لتدفع الثروة من رومة وبارثية [فارس] إليهم، وتكدسها بين أيديهم، فهم يبيعون ما يحصلون عليه من البحر ومن غاباتهم. ولا يشترتون شيئاً مقابل ذلك»^(١). وعلى الرغم من شبهة المبالغة القوية في هذه الشكوى، إلا أن المشكلة الاقتصادية والسياسية والعسكرية في معالجة الغرب لتجارته مع الشرق في هذه الأوضاع الجغرافية، لا تبدو عسيرة على الفهم. وقد حاولت قوى الغرب على التوالي: الاسكندر ثم رومة فيبزنطة، حل هذه المشكلة بطرق مختلفة.

ب- الاسكندر و«المياه الدافئة»

تبدو مشكلة التجارة الدولية والصراع على طرقها بين الدول في غرب آسية وفي أوروبا موعلة في القدم.

ومن أقدم الدول التي ظهرت في القارة الأوروبية وكانت لها أبعاد دولية معلومة دولة أثينة. وقد لا يكون غريباً أن أول حرب معروفة خاضتها أثينة مع دولة مشرقية هي الحرب التي خاضتها في القرن الخامس قبل الميلاد مع دولة الفرس

(١) Pliny: op.cit., p. 461. وانظر أيضاً جواد علي، ج ١، ص ٢٣٥. وكذلك: Seyrig, Henri: Antiquités Syriennes-Postes romains sur la route de Médine, Syria, 22 (1941c),

التي ظلت تمثل الشرق في حروبه مع الغرب أحد عشر قرناً قبل ظهور الاسلام. وعلى الرغم من أن التجارة الدولية كانت أحد عوامل هذه الحرب بين أثينة والفرس^(١)، إلا أن أثينة التي شنت هجوماً بحرياً فاشلاً على مصر في ذلك القرن، لم تكن بعد قد تطّعت إلى شرق البحر الأحمر، ولا يبدو أن حروبها مع الفرس كانت على أي علاقة بالتجارة الشرقية، بل بالتجارة في البحر الأبيض المتوسط^(٢).

وفي المقابل، فإن الفراعنة قد اتّجروا مع بلاد مطة على المحيط الهندي منذ زمن سحيق يمتد أكثر من سبعة وعشرين قرناً قبل المسيح، على ما يعتقد البعض. إلا أنه تعوزنا الأدلة على أن هذه التجارة الشرقية كانت موضع صراع دولي من أي نوع. أما سكان الجزيرة العربية فبدأوا نشاطاً تجارياً واسعاً منذ عهد الدولة المعينية في اليمن، التي امتد نفوذها حتى بلغ شمال الحجاز. وظل هذا النشاط مزدهراً من القرن الثامن حتى القرن الثالث قبل الميلاد على الخصوص. وقد عاصرت دولة المعينيين دولة سبأ بعض الزمن، ثم ورثت مكانتها التجارية^(٣).

لكن وجود عناصر الصراع الثلاثة: الشرق والغرب والتجارة الدولية، لم يُشعل شرارة النزاع المزمّن، إلا في أيام الاسكندر المقدوني، فافتتح المبادرة الأوروبية في هذا النزاع باعتماد الحل الأقصى الذي أقلعت عنه كل الدول الغربية اللاحقة زمناً طويلاً، باستثناء رومة في عهد ترايانوس، وهو غزو منطقة

(١) Amit M.: Athens and the Sea, a Study in Athenian Sea Power, Latomus, Bruxelles, 1965

(٢) Burn, A.R.: Persia and the Greeks, Stanford University Press, Stanford, California,

1984; cf.: Bradford, Ernle: The Year of Thermopylae, MacMillan London Limited, 1980;

also cf.: Grundy, G.B.: The Great Persian War and its Preliminaries, A.M.S. Press, New

York, 1969

(٣) في شأن سفر المصريين القدامى بحراً إلى بلاد البُنت والمحيط الهندي أنظر: Rougé, Jean:

La Navigation en Mer Erythrée dans l'Antiquité, dans l'Arabie et ses Mers Bordières, I,

SALLES, pp 75, المجلد ذاته، و. GS Maison de l'Orient, Lyon, 1988; p 61

. Gabrieli: op.cit., p. 13 وقارن

الخليج والتوغل شرقاً فيما وراء نهر الفرات، ووصف جواد علي الحل الذي اعتمده الاسكندر بقوله: «ووضع الاسكندر الأكبر مشروعاً خطيراً... للسيطرة على المياه الدافئة بالسيطرة على سواحل جزيرة العرب... وقد كلف قواده الالتفاف حول جزيرة العرب، وباشروا تنفيذ الأمر بالفعل. وقد رأينا قائده نيارخوس (Nearkhos) على رأس أسطول ضخم، لعله أعظم أسطول شاهده الخليج والبحر العربي حتى ذلك العهد... ولو قدر للاسكندر أن يعيش طويلاً لتحقق مشروعه الضخم، ولكن القدر قضى عليه مبكراً، فمات مشروعه معه، ولم يكن لخلفائه ما كان لسيدهم من عزم، فتركوا المشروع ولم يتحمسوا له»^(١).

وقد أكد المسعودي ضمناً في «مروج الذهب»، أن التجارة الشرقية كانت من أهم حوافز الاسكندر الكبير على غزواته التاريخية، إذ قال: «وفي هذا البحر مما يلي بلاد عدن جزيرة تُعرف بسقطرة، إليها يضاف الصبر السقطري، ولا يوجد إلا فيها، ولا يُحمل إلا منها. وقد كان أرسطاطاليس بن نقوماخس كتب إلى الاسكندر بن فيليس حين سار إلى الهند في أمر هذه الجزيرة بوصيه بها، وأن يبعث إليها جماعة من اليونانيين يسكنهم فيها من أجل الصبر السقطري... فسير الاسكندر إلى هذه الجزيرة خلقاً من اليونانيين أكثرهم من مدينة أرسطاطاليس بن نقوماخس... في المراكب بأهلهم في بحر القلزم [البحر الأحمر]. فغلبوا على من كان بها من الهند [لعلهم اليمن] وملكوا الجزيرة... ويُحمل من جزيرة سَقَطْرَة الصبر السقطري وغيره من العقاقير»^(٢).

أما خلفاء الاسكندر البطالسة (Ptolemies)، فحاولوا تخطي جزيرة العرب، فمدّوا نشاط أسطولهم في البحر الأحمر، واستتبوا بعض مستوردات تجارة الشرق في أرض مصر^(٣). ومدّوا نفوذهم إلى بلاد الحبشة، فأسسوا قواعد

(١) SALLÉS, pp. 86-88. وجواد علي: ج ٧، ص ٢٦٧، ٢٦٨. وفي شأن سياسة السلوقيين والبطالسة خلفاء الاسكندر حيال اليمن والتجارة أنظر صالح أحمد العلي، ص ٣٩، ٤٠.

(٢) المسعودي، أبو الحسن: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق شارل بلا، منشورات الجامعة اللبنانية بيروت، ١٩٦٦، ج ٢، ص ١٢٨، ١٢٩.

(٣) Rodinson: op.cit., p. 34.

تجارية على طول شواطئ البحر الأحمر. وأظهرت أعداد اليونانيين الوفيرة أنهم أقاموا علاقات وثيقة مع الأحباش في مملكة أكسوم. وقد ظل نفوذ اليونان مستمراً حتى منتصف القرن الأول بعد الميلاد على الأقل، إذ كتب صاحب «الطواف حول البحر الاريتري»، الذي زار أكسوم في ذلك الزمن، عن أُنْجار الأحباش مع اليونان المصريين، ولاحظ أن مَلِكْهم كان عارفاً لأدب الاغريق. وكان أثر اليونان ظاهراً في تنظيم التجارة والمرافئ والطرق التجارية والجيش والنظام الإداري^(١).

ج - سياسة رومة قبل الميلاد

ورثت رومة على ما يبدو المسألة ذاتها في سياستها حيال تجارة الشرق. ويُعتقد أن بومبيوس (Pompeius) القائد الروماني، بذل أول محاولة عسكرية رومانية لضم مملكة الأنباط إلى الامبراطورية في حملته على بلاد الشام وفلسطين سنتي ٦٤ و٦٣ قبل المسيح. وقد تمكن من ضم مقاطعة سورية ودخل القدس عنوة، رغم معارضة اليهود^(٢). واستمر تدخل رومة في شؤون المشرق بعد انتصار يوليوس (Julius) قيصر على بومبيوس سنة ٤٨ ق.م. فعين سيد رومة الجديد ملكاً عربياً إيدومياً متهوداً على مقاطعة اليهودية. وقد قُتل هذا الحاكم الايدومي وأحد أبنائه في أثناء الغزو الفارسي لفلسطين سنة ٤٠ ق.م.، لكن ابنه الآخر، هيرودوس (Herodes)، استطاع أن يهرب إلى رومة، حيث تولّى صديقه ماركوس أنطونيوس (Marcus Antonius) وأوكتافيانوس (Octavianus) إقناع مجلس الشيوخ بتعيينه ملكاً على اليهودية. وقد شنَّ هيرودوس بمعونة رومة حرباً على آخر الحكام الحشمونيين، واستطاع أن يقتله سنة ٣٧ ق.م. وسقط بذلك الحكم

(١) The Periplus of the Erythraean Sea, translated by Wilfred H. Schoff, Longmans, Green (١) Trimingham, John Spencer: Islam in Ethiopia, and Co, New York, 1912, p. 23.

وانظر أيضاً، Frank Cass, London, 1976, p. 35.

ويُعرف روجيه البحر الاريتري وفق المفاهيم المختلفة التي اعتمدها له الجغرافيون. Rougé, pp. 59, 60.

(٢) Bowersock: A Report..., p 223. وكذلك صالح أحمد العلي، ص ٤١ وما بعد.

الفارسي^(١). وكان ملك الأنباط في ذلك العصر يُدعى في المصادر الرومانية ماليخوس الأول. وكان خصماً لهيرودوس، لكنه كان في الوقت نفسه موالياً ليويليوس قيصر، ثم لأنطونيوس^(٢). ويتبين من هذا أن نفوذ رومة كان يمتد إلى شرق نهر الأردن، وأن الخصم في هذه المنطقة كان الفرس. وقد اعتمد أوكتافيانوس سياسة جديدة في مواجهتهم بعد اعتلائه سدة الحكم منفرداً سنة ٢٧ ق.م.، وتسميه باسم أغسطس قيصر (Augustus Caesar)، إذ لاحظ أن قوة الفرس كانت في دفاعهم، وأنه لن يخشى بأسهم طالما ظلوا في موقف دفاعي بسبب الأزمات التي طالتهم في ملكهم الشاسع واضطراب نظامهم السياسي الداخلي. واتفق أغسطس قيصر مع الفرس على تعيين الحدود بين الدولتين، وسعى كل منهما إلى ردّ مخاطر البدو الرحّل بإنشاء منطقة عازلة، فاعترفتا بسلطة بعض الزعماء القبليين^(٣). وعندما اطمأن الامبراطور الروماني إلى أن هذه الترتيبات أعفته من مواجهة الفرس في الشام، اتجه بصره إلى البحر الأحمر جنوباً، علّه يضمن في هذا الاتجاه، ما يعجز عن ضمانه شرق الفرات. لم يكن أغسطس قيصر أقل طموحاً إلى السيطرة على الطرق التجارية من معظم خلفائه، ولذا لم يكن أقل شكوى من «ثراء» التجار العرب. ولكن بدلاً من أن ينتظر التاجر الروماني أو اليوناني أن تأتيه البضائع الثمينة في أسواق مصر أو بلاد الشام محملة على سفن عربية أو على ظهور جمال القوافل وهي بأسعار عالية، كان أغسطس قيصر يرى أن يرتاد الرومان أنفسهم البحر الأحمر إلى المحيط الهندي حتى سواحل إفريقية أو جنوب الجزيرة العربية أو الهند وما وراءها، فيشتروا من موانئها وأسواقها ما يريدون بسعر رخيص، فيستفيدوا وتستفيد حكومتهم، ويخسر التجار العرب. وأكد سترابون (Strabo) أن الامبراطور كان يرى هذا كله^(٤)، حين

(١) وثمة دلائل على احتكاك بين رومة والفرس في بداية الشام منذ سنة ٤٦ ق.م. انظر في هذا

Trimingham: Christianity among..., p 38. وقارن: Cambridge Anc. Hist., vol. IX, p. 714.

Bowersock: A Report..., p. 223.

(٢) يُعتقد أن بومبيوس ثم أغسطس نظما الحدود الشرقية بين الامبراطورية الرومانية والفرس. أنظر

في هذا Jones, pp. 219, 220. وانظر أيضا Trimingham: Christianity among..., p. 26.

(٤) = Strabo: The Geography of Strabo, The Loeb Classical Library, London and New York.

قرّر في سنة ٢٥ قبل الميلاد أن يرسل حملةً إلى داخل شبه الجزيرة العربية لتستولي على التجارة البرية والموانئ اليمنية. وكلف إيلوس غالوس (Aelius Gallus) قيادة الحملة^(١) وطلب إليه أن يتوغّل في غرب جزيرة العرب انطلاقاً من العقبة. وكان ملك الأنباط في ذلك العهد يدعى في المصادر الرومانية أبوداس (Obodas) الثاني^(٢)، وكان وزيره يُدعى سيلايوس (Syllaeus)، فخذع القائد الروماني وساقه إلى عمق الصحراء حيث تاه جنده، حسبما روى سترابون فيما بعد^(٣). وقد برهنت حملة الرومان التي واكبها حملة حشوية على مملكة سبأ، أن صحراء العرب أمنع مما تبدو لوهلة، على رغم أن حكومة «سبأ وذي ريدان» لم تكن قوية، ولا كانت تملك جيوشاً منظمة ومدربة تدريباً جيداً. وزعم المؤرخون للحملة من الكتبة اليونان، أن الرومان لم يقاتلوا العرب ولم يلتحموا بهم تماماً، وأن الجنود السبئيين لم يكونوا يملكون شيئاً من أسلحة القتال المعروفة آنذاك، بل كانوا يحملون الفؤوس والحجارة والعصي والسيوف. ولكن الرومان لا قوا من الحر والجوع والعطش ما أهلك أكثرهم وأجبر الباقين على العودة أذراجهم^(٤).

ويبدو أن سياسة رومة بعد هذا الفشل التام قد تبدّلت أو تكيفت، دون أن يتغيّر الطموح إلى بلوغ المحيط الهندي، فلم يُعد أغسطس قيصر يفكر في غزو الجزيرة العربية غزواً برياً مباشراً، بل انكفأ إلى تقوية أسطوله في البحر الأحمر وتحسين علاقاته بسادة القبائل العربية للمحافظة على مصالح رومة الاقتصادية

= vol. VII, p. 355. وانظر أيضاً جواد علي: ج ٧، ص ٢٦٩، ٢٧٠.

(١) Strabo: ibid., pp. 353, 355. وانظر أيضاً: Pliny: op.cit., p. 459. وكذلك Trimingham: Christianity among..., p. 39.

Rougé, p. 69.

(٢) Bowersock: A Report..., p. 223.

(٣) Strabo: op.cit., p. 357.

(٤) Strabo: ibid., pp. 361-363. وانظر جواد علي: ج ٢، ص ٤٢٠، ٤٢١. ويبدو أن أغسطس

قيصر قد داول بين سياستين واحدة عسكرية تقضي محاولة السيطرة على الشاطئ الشرقي

الجنوبي من البحر الأحمر، والثانية تجارية تقضي تنشيط الابحار من شواطئ مصر المطلة

على البحر الأحمر، إلى الهند مباشرة لتجنّب الوساطة العربية. أنظر في هذا الشأن Miller,

pp. 14, 15, 143.

وقد رتها على بلوغ المحيط الهندي. ووجه أنظاره إلى سواحل إفريقية وحكومة الحبشة، فعقدت اتفاقات صداقة وتحالف مع حكام أكسوم الأحباش، وأخذت رومة من هناك تضغط على مملكة سبأ، وهو أسلوب استعيد مرات فيما بعد، وفي القرن السادس على الخصوص، في العصر البيزنطي. ويروي صاحب «الطواف حول البحر الاريتري» أن الرومان عقدوا معاهدة تحالف كذلك مع ملك ظفار الحميري^(١). ويُعتقد مع ذلك أن رومة لم تخرج صفر اليدين تماماً من مغامرة إيلْيوس غالُوس، بل استولت على ميناء لوكي كومي (Leucê Comê : حوارة)، على الشاطئ الشمالي للحجاز، حيث كان الموظفون يجنون المكوس. وكانت التجارة الآتية إلى الميناء تُنقل من هناك براً في القوافل إلى البتراء. لكن تاريخ الاستيلاء على هذا الميناء غير مؤكد^(٢). وكانت المهمة السياسية الأولى في الجزيرة العربية هي تنظيم حلفاء لرومة والحبشة لمقاومة مملكة سبأ التي كانت تسعى إلى إبقاء التجارة البرية في يدها ويد حلفائها. ولم يكن الحميريون وحدهم مناسين لهذه المهمة الملائمة لمصالح رومة، بل كانت قبيلة «نجرن» [لعلها نجران] ثائرة على ملك السبئيين بتحريض من الحبشة. كذلك ثارت على الملك السبئي مدينة «ظرين» [ظربان؟]، التي حظيت هي أيضاً بتأييد الأحباش. واشتبه جواد علي استناداً إلى هذه الحوادث، اشتباهاً قوياً، باحتمال اتفاق رومة مع الحبشة لدعم العصيان داخل مملكة سبأ، بعدما فشلت حملة إيلْيوس غالُوس^(٣)، فيما كانت سياسة سبأ تقضي السيطرة على الطرق التجارة المؤدية إلى بلاد الشام ما أمكنها ذلك، فأسست مواضع لحراسة القوافل من قطاع الطرق وتحرش القبائل. ولعل القبائل البثرية التي يرجع بها النسب إلى اليمن، هي من القبائل التي أسكنتها سبأ في هذا الموقع من أجل حماية القوافل الطاعة إلى الشام^(٤).

(١) Periplus, p. 30. وانظر أيضاً جواد علي: ج ٢، ص ٥٩، ٦٠.

(٢) Graf: The Saracens..., pp. 3, 4. وحوال موقع ميناء لوكي كومي أنظر l'Arabie et ses Mers Bordinières, pp. 186, 187.

(٣) جواد علي، ج ٢، ص ٤٣٨ - ٤٤١.

(٤) المرجع ذاته، ج ٧، ص ٢٤١.

د- سياسة رومة في القرن الأول

لم تنتهِ طموحات أغسطس قيصر عند حدوده الإدارية والعسكرية إذن، بل تطّلع إلى السيطرة بوسائل مختلفة على طريق البخور العربية فيما وراء تلك الحدود. ولم يكن لمصالحه التوسعية، بعد فشل إيلْيوس غالُوس، أن تشق طريقها إلى الجزيرة العربية، لولا معونة الأنباط له في مواجهة مملكة سبأ وحلفائها. وقد أكد باورسوك أن أغسطس قيصر اغتمس في شؤون مملكة الأنباط ومسائلها الداخلية بعد مكيدة سبأ، وأرسل حملة عسكرية ثانية يقودها غايوس (Gaius) قيصر في السنة الأولى للميلاد. ويُستدل من نصوص بليني أن مهمة غايوس وحملته بلغت ما سماه «الخليج العربي»، وهو ما يعني على الأرجح خليج العقبة. ولم يتعدّ غايوس منطقة الخليج، ولم يغل في داخل الجزيرة العربية، بل قاتل قبائل عربية في داخل مملكة الأنباط. واستبعد باورسوك أن تكون الحملة موجهة لقتال الأنباط على رغم صمت المصادر في شأن ذلك. ونسب إلى سترابو ويوسيفوس (Josephus) المؤرخين أن الأنباط لم يعادوا رومة في ذلك الزمن. ولذا رجّح أن الحملة قاتلت قبائل عربية كانت تندفع نحو الشمال إلى داخل الأراضي النبطية^(١). ويؤيد غراف هذا التفسير لحملة غايوس، ويضيف أن حملات القبائل الصفوية في حوران وجنوب سورية أخربت المواصلات الرومانية، وأدت غزوات بدوية أخرى في فلسطين إلى تدمير بعض القرى، فدفع ذلك رومة إلى شن الحملة. وأشار غراف إلى أن رومة تعمّدت في أواخر القرن الأول قبل الميلاد أن تنقل مرور طريق تجارة التوابل والبحور الشرقية من مرفأ لوكي كومي، على ضفة البحر الأحمر الشرقية، إلى الضفة المصرية ومنها عبر البر إلى ميناء الاسكندرية^(٢). ولذا يمكن الاشتباه في أمرين، دون أن تكون ثمة أدلة قاطعة عليهما، وهما أن هذه الغزوات القبلية على أراضي الأنباط، شنتها القبائل الحجازية الشمالية بإيعاز من سبأ، أو أن القبائل

(١) جعل ميلر حملة غايوس قيصر السنة الأولى قبل الميلاد لا بعده. أنظر Miller, p. 15. وكذلك Strabo: وكذلك: Pliny: op.cit., p. 459. وانظر أيضاً Bowersock: A Report..., p. 227.

op.cit., pp. 355, 356.

(٢) Graf: The Saracens..., p. 6.

التي تضررت من جراء نقل التجارة من أرضها إلى طريق أخرى ارتأت في تلك الغارات تعويضاً من خسارتها وانتقاماً من الرومان وحلفائهم الأنباط معاً. لكن هذه الغارات وحملة غايوس لردعها، ظلت إلى الآن غامضة، ولم تفصح المصادر المتوافرة عما يزيد لها وضوحاً، سوى ما جاء باختصار شديد عن إجهاض الحملة المذكورة^(١)، هي الأخرى.

وقد بقيت سياسة رومة على هذا إلى أن مات أغسطس قيصر سنة ١٤ للميلاد، ففُتت وصيته في مجلس الشيوخ علناً، فإذا به قد أوصى خلفاءه من بعده نُصحاً أن تبقى الامبراطورية الرومانية داخل تلك الحدود التي قال غيبون إن «الطبيعة نفسها قد جعلت منها حصوناً وحدوداً ثابتة دائمة للامبراطورية»، أي المحيط الأطلسي غرباً والراين والدانوب شمالاً والفرات شرقاً وصحراء العرب وصحراء إفريقية جنوباً^(٢).

ويبدو أن الرومان التزموا وصية أغسطس قيصر بعض الوقت، على الخصوص في شأن جزيرة العرب، إلا حادثة الاستيلاء على مرفأ عدن، وهي حادثة يختلف في تعيين زمنها المؤرخون، بل يختلفون كذلك في شأن اشتراك رومة فيها. ويحتمل أن تكون أحلاف رومة والحبشة في جنوب الجزيرة العربية قد سمحت للأسطول الروماني باحتلال عدن من البحر، حين كان الغزو برّاً قد فشل تماماً. وينسب جواد علي إلى صاحب «الطواف حول البحر الاريثري» أن «القيصر» استولى على عدن «منذ زمن غير بعيد» عن زمانه، وتصور باحثون أن ذلك وقع في عهد كلاوديوس (٤١ - ٥٤ للميلاد)، أو في سنة ٢٤ للميلاد، وتصور آخرون أن احتلال عدن حدث في أيام نيرون. واشتبّه بعض الباحثين في التاريخ الروماني في أن «القيصر» الذي نسب إليه استيلاؤه على عدن، ليس إلا

(١) Seyrig: Antiquités Syriennes.... p. 222.

(٢) يلاحظ أن أغسطس أنشأ الأسطول لرومة. انظر في هذا رستم، أسد: عصر أوغسطس وخلفائه، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٦٥. وفي شأن سياسة أغسطس الشرقية انظر المرجع نفسه ص ١٢١، وحملة إيلوس غالوس ص ١٦٤ - ١٦٦. وفي شأن وصية أغسطس انظر غيبون، المرجع السابق، ج ١، ص ٦٦.

كلمة محرّفة في النسخ، وأن الأشعريين هم الذين دمّروا المرفأ. لكن المعروف أن السفن الرومانية واليونانية أخذت ترتاد مياه المحيط الهندي ابتداء من القرن الميلادي الأول، بعدما اكتشف هيبالوس سرّ الرياح الموسمية وإمكان الذهاب إلى شواطئ الهند والعودة منها في زمن قصير. وقد أمكن للتجار الرومان بعد إنشاء حامية رومانية في عدن، الاستراحة فيها والاقلاع منها إلى الهند والسواحل الأفريقية والعودة إليها. وجّهز الرومان بعض سفنهم بالرماة لمقاومة القرصنة. وكان في عدن صهرج ماء ضخّم أمّد التجار بمياه الأمطار^(١). في مثل هذه الأوضاع كان الرومان يتولّون التجارة الشرقية بأنفسهم، من أجل تجنب احتكار الفرس لهذه التجارة، أفي زمن الحرب أم السلم.

- هـ - الحدود الشرقية أيام السلم

في هذه المرحلة من تاريخ رومة يبدو أن ملامح سياستها الحدودية في الحقاطعات الشرقية أيام السلم قد أخذت تظهر. وهي ملامح تبدّلت في بعض الأحيان، لكن مبادئها الكبرى ظلت أساس السلوك السياسي والعسكري لرومة ثم لبيزنطة في القرون التالية. وقد وصف سترابو، المؤرخ الذي توفي سنة ٢٤ للميلاد، هذه السياسة بقوله: «يشكّل الفرات والأرض التي خلفه حدود الامبراطورية البارثية. لكن الأرض المتاخمة للنهر في هذا الجانب يملكها الرومان وشيوخ العرب حتى بابل، وبعض هؤلاء الشيوخ يعيل إلى البارثيين والبعض الآخر إلى الرومان، الذين يجاورونهم». ووصف سترابو القبائل التي لا تلتزم أي ترتيبات مع الرومان أو الفرس بأنها قبائل من «الغزاة العصاة». وقد ظل العرب مستقلين عن الدولتين استقلالاً نسبياً بفضل قدرتهم على الحركة. وكانوا محايدين يخدمون مصالحهم الخاصة في كثير من الأحيان، فيعقدون الأحلاف ويساعدون الجيوش والحملة العسكرية. وكانت الدولتان البيزنطية والفارسية

(١) في شأن سبب الخلط بين «القيصر» و«الأشعر» انظر Periplus, pp. 32, 115. وانظر أيضاً Von Wissmann, Hermann: Himyar Ancient History, Le Muséon (1964) (3-4), pp. 480 - 481. وقد جعل هذا الغزو الروماني لعدن بين العامين ١٩٧ م و ١٩٩ م. انظر كذلك جواد علي، ج ٢، ص ٦٠، ٦١، ٦٢.

تفاوضان مع القبائل التي تمر في منازلها طرق التجارة، من أجل ضمان الأمن والمرور الحر للقوافل. ويقول سترابو: «إن طريق المسافرين من سورية [المقاطعة الرومانية المتاخمة لاسكندرونة اليوم] إلى سليقية [مدينة على نهر دجلة] وبابل تمر في بلاد قبائل «سكينية» [اسم لبعض العرب]... عبر صحرائهم... وتستغرق الطريق من وقت اجتياز النهر [الفرات] حتى [مدينة] «سكينية» خمسة وعشرين يوماً. وتجد على هذه الطريق جمالين يتوقفون في أماكن مجهزة أحياناً بمخازن الماء، وهي في العموم صهاريج، مع أن الجمالين يستخدمون في بعض الأحيان مياهاً يحضرونها من أماكن أخرى. والسكينية مسالمون ومعتدلون حيال المسافرين في تحصيل الضريبة، ولذا يتجنب التجار الأرض المتاخمة للنهر ويخاطرون بالسفر عبر الصحراء، مخلفين النهر عن يمينهم ثلاثة أيام تقريباً. ذلك أن الشيوخ المجاورين للنهر من الجانبين [أي المجاورين «للطريق الملكية» الفارسية]... يتقاضون ضريبة لا يستهان بها»^(١).

ويصف المؤرخ الروماني في نصّه هذا ترتيبات ظلت قائمة على هذا النحو أو ذاك قروناً، لا تتبدل إلّا في زمن الحرب، حين كانت التجارة عبر الحدود بين الفرس والرومان أو البيزنطيين تتوقف. وقد وصف ويل القوافل في الصحراء السورية حين كانت تدمر تتولى هذه التجارة في القرنين الثاني والثالث على الخصوص، وصفاً دقيقاً^(٢).

أما حماية الحدود فأمر آخر. لقد أدركت الحكومات أن عليها أن تدفع هباتٍ وعطايا سخية لسادة القبائل لقاء حراستهم الحدود، ولم يكن في استطاعة هذه الحكومات أن تقوم بالمهمة بنفسها، ولا سيما إذا احتاجت إلى تعقب الأعراب في البوادي. ولذا صارت لسادة القبائل جماعات سنوية وامتيازات لاسترضائهم واتخاذهم درعاً ترد القبائل الأخرى. وجعلت الحكومات لدى القبائل حاميات من جيوشها، يقودها سياسيون أو عسكريون، لمراقبة سادة القبائل

(١) Strabo: op.cit., pp. 233 237. وانظر أيضاً 27, 28 Trimingham: Christianity among....

وكذلك جواد علي، ج ٢، ص ٦٠٧، ٦٠٨.

(٢) Will, Ernst: Marchands et chefs de caravanes à Palmyre, Syria, 34 (1957), pp. 262 - 277

ومعاونتهم على القبائل الأخرى إذا لزم الأمر، وأقامت لهم مساح حصينة تُعسكر فيها قوات البادية وتُخزن المؤن والذخائر والأسلحة، وحفرت لهم آبار مياه. وكان قادة المساح عيون الدولة وأدواتها في استرضاء شيوخ القبائل وتوزيع الأرزاق عليهم أيام الشدة والقحط، من أجل كبح جماحهم واستخدامهم في كبح جماح الآخرين^(١).

ولم تكن سياسة رومة في شمال الحجاز تختلف كثيراً عن سياستها في بادية الشام. لكن الآثار الرومانية في عمق الجزيرة العربية أوجت لبعض الباحثين المحدثين أن الإدارة الرومانية والجيش الامبراطوري أوغلا جنوباً، فأكدت الدراسات الأحداث أن الحدود الجنوبية الرومانية لم تكن ثابتة، بل كانت مرهونة بقوة ملوك الأنباط. فالامتداد الروماني إذن كان امتداداً بالوكالة ولم يكن وجوداً رومانياً مباشراً ومستمرّاً. وفيما نزع بعض الباحثين إلى القول إن مدائن صالح كانت عند الطرف الجنوبي للحدود الرومانية، أثر هاموند فكرة «مناطق النفوذ» على فكرة الحدود الادارية الواضحة. فكانت مدائن صالح سوقاً مزدهرة للأنباط في القرن الميلادي الأول. أما العلّا فليس من دليل قاطع على أنها كانت ضمن أراضي مملكة الأنباط. ولم يُعثر في شمال الحجاز على نظام حصون دفاعية نبطية كالذي عُثر على آثاره في صحراء النقب وشرق الأردن. ولذا يُعتقد الآن أن الأنباط كانوا يراقبون الحجاز لحساب رومة، بواسطة علاقتهم بسادة القبائل، ولم يكن الدفاع عن هذه الحدود يعتمد أسلوب المواقع الحصينة التي اعتمدت في عهدي ترايانوس (Trajanus) وديوكلسيان (Diocletianus) فيما بعد إلى الشمال من الحجاز، في فلسطين وشرق الأردن والصحراء السورية حتى الفرات. ويقول موزيل إن رومة نظمت حلفاً للقبائل العربية شمال وادي القرى وأمدتها بالأموال لقاء حمايتها الحدود الجنوبية الشرقية. وفي هذه المنطقة إذن استخدم أسلوب المنطقة العازلة. وقد حاول بوادبار أن ينفي هذه النظرية بالقول إن الصحراء السورية كان يحميها نظام حصون حدودية، إلا أنه أقر أن هذا النظام في المناطق

(١) جواد علي: ج ١، ص ٥٤٩ - ٥٥١. ويرى تشارلزورث أن بادية الشام كانت أصعب

مشكلات الحدود في الامبراطورية الرومانية. Charlesworth, p. 36.

التدمرية كانت تقوم عليه القبائل العربية. وهذا يرجح نظرية موزيل أن الدفاع عن الحدود الرومانية الشرقية والجنوبية في أيام السلم، في مواجهة القبائل البدوية، لم يكن قائماً فقط على هذه الحصون المنيعة حيث يعسكر الجند الروماني، بل على نظام سياسي من المحالفات مع القبائل العربية أيضاً^(١)، أو على كليهما معاً، وفق الامكان.

- و- نموذجان: تدمير والأنباط

لا يبلغ المؤرخ الحقيقة التاريخية، إذا تصوّر أن هذه السياسة الرومانية حيال الحدود الشرقية كانت جامدة. ذلك أن العلاقة بين الرومان والفرس كانت تحتمل الحرب والسلام وبعض الحالات الوسيطة بينهما. كذلك لا بد من إدراج قدرة القبائل العربية في المناطق العازلة، على القيام بمهامها، أو إخفاؤها في ذلك، ضمن الاحتمالات القائمة، ولا بد من الاقلاع عن الظن أن الحروب الرومانية الفارسية كانت مستمرة لا تتوقف. ذلك أن السلام عمّ الحدود بينهما حقبة طويلة، فكانت الخطوط التجارية بينهما تعمل عندئذ على نحو طبيعي. وكانت تدمر في الصحراء السورية، والحضر فيما بين النهرين، وفولوغاسية (Vologasia: بابل)، أكبر مدن قوافل الصحراء، تقيم علاقات بالفرس أو الرومان أو كليهما. وفي عهد طيباريوس (Tiberius ١٤ - ٣٧ للميلاد) عقد ابنه بالتبني جيرمانيكوس (Germanicus) محادثات مع زعماء تدمر سنة ١٨ بعد الميلاد، أدت إلى تعيين معتمد روماني في المدينة، نظم بعثة تدمرية إلى ميسان (الكرخ، في شط العرب)، لإنشاء علاقات مع زعماء القبائل العربية الذين كانوا يقودون القوافل التجارية. وكانت لتدمر حاميات في فولوغاسية وفي دُورة أوروبوس (Dura Europos: الصالحية، قرب أبو كمال في سورية اليوم) وفي غيرها، حتى عندما كانت تدمر ضمن منطقة النفوذ الرومانية والمدن المذكورة ضمن منطقة نفوذ الفرس. فقد كان العرب يتصرفون بشيء من الحياد بين الدولتين في تنظيم القوافل التجارية، وكانت الدولتان تسعيان إلى استمرار تدفق التجارة

(١) Graf: op.cit., pp. 4,5

الشرقية بينهما^(١). وقد أخذت رومة تعين في أواخر القرن الميلادي الأول ضباطاً من جيشها، حكّاماً على الحصون الصحراوية وتعزز التنظيم والوجود العسكري على الحدود بينها وبين الفرس^(٢). ويُعتقد أن الامبراطور الروماني تريبانوس (٩٨-١١٧ م.) هو الذي أخذ يعزز الحدود الرومانية في الصحراء السورية استكمالاً لعمل والده، عندما كان الأخير لا يزال قائداً عسكرياً في أواخر القرن الأول، على نحو واسع، حتى فكّر في الاستيلاء على مدينة الحضر العربية فيما بين النهرين، وكانت ضمن منطقة نفوذ الفرس. وقد حوصرت الحضر مدة لكن الرومان ارفضوا عنها^(٣).

غير أن الخطوط التجارية نحو الجنوب كانت على ما يبدو تشغل بال الساسة والقادة الرومان، أكثر مما شغلتها الخطوط عبر الصحراء السورية. كانت مملكة النبط قد بلغت أوجها من الازدهار في عصر الملك الحارث الرابع (٨ ق.م. - ٤٠ ب.م.)، الذي ذكرت الكتابات الأثرية أنه «رحم عمه» أي أحب شعبه^(٤). ولكن الطريق بين البتراء وغزة اختفت من خريطة القوافل التجارية في القرن الأول للميلاد^(٥). وفي هذا القرن تحوّل الأنباط إلى الاستقرار الزراعي، حين تحوّلت الطريق التجارية إلى لوكو ليمن (Leuko Limen: مرفأ في مصر يقابل لوكي كومي في الحجاز) ومنه إلى كوتوس (مدينة في مصر العليا قرب النيل) ثم إلى الاسكندرية^(٦). وصادف بدء ضعف الأنباط بدء تعاظم قوة اللحيانيين في العُلا وجوارها شمال الحجاز^(٧). وقد أخذت قبائل عربية يُعتقد أنها ثمودية تشن غزوات من أطراف الجزيرة العربية على شرق الأردن وصحراء

(١) Bowersock, G.W.: Syria under Trimingham: Christianity among..., p. 30 وانظر كذلك

Vespasian, Journal of Roman Studies, 63 (1973), p. 136

(٢) Seyrig, Henry: Inscriptions grecques de l'Agora de Palmyre, Syria, 22 (1941 b), p. 240

(٣) جواد علي: ج ٢، ص ٦١٣، ٦١٤.

(٤) Bowersock: A Report..., p. 223

(٥) Ibid., p. 225

(٦) Ibid., p. 228

(٧) Gabrieli: op.cit., p.17

النقب في منتصف القرن الأول للميلاد^(١). ووصلت هجمات الصفويين إلى الحرّة شرق حوران والصفّا. بل يشير بعض الكتابات إلى تمرد قبيلة على سلطة رومة هناك، وإلى شَنّ قبيلة أخرى هجمةً على العسكر الروماني وإبادته. وفهم وِيت من نصوص بعض الكتابات النبطية والصفوية، أن ثورة نشبت في مدائن صالح على السلطة النبطية في سنة ٧١ م. وثمة أدلة على أن قائد إحدى الثورات القبليّة هذه كان من الطامحين إلى عرش الأنباط^(٢). وهذا يفسّر ثورته، ولكن لا يفسّر ثورة القبائل معه. ولا شك في أن تحويل الرومان خط التجارة الشرقية إلى مصر وانتزاعه من أيدي القبائل الثمودية واللحيانية والصفوية، لم يكن مما يساعد الأنباط على فرض سلطانهم على هذه القبائل. وقد لاحظ باورسوك أن صعود جرش صادم صعود تدمر في السياسة التجارية الرومانية، فيما كانت البتراء قد أخذت تفقد مكانتها، وذلك ابتداء من الربع الثاني من القرن الأول. كذلك لاحظ أن موضع الثقل النبطي انتقل من البتراء إلى بُصرى، مع تبدل خريطة طرق التجارة النبطية. وقد ربط هذا التبدل باكتشاف هيبالوس للرياح الموسمية وبدء الاستفادة البحّارة اليونان والرومان منها للتّجارة مباشرة مع الهند وسيلان. وفيما كان قسم كبير من الأنباط ينتقل إلى حياة الاستقرار الزراعي، بعد خمول الطريق التجارية عبر البتراء، ازدهرت طريق برية أخرى لا تنافسها الطريق المصرية التي اعتمدها الرومان. أما الطريق النبطية الصاعدة هذه فهي تسلك وادي سِرحان من دومة الجندل (الجوف في السعودية اليوم) إلى بُصرى الشام. وقد تعاظم نشاط المدن النبطية الشمالية في التجارة الرومانية في أثناء حكم آخر ملوك الأنباط بين ٧١ و١٠٦ م.^(٣)، بفضل هذه الطريق.

في هذه الأثناء كان الامبراطور فسبازيان يُعدّ المشرق لمرحلة جديدة في سياسة رومة حيال تجارة الشرق. وكان معتمده الأول في هذا الاعداد هو قائده العسكري ترايانوس (Trajanus)، والد الامبراطور ترايانوس. وقد اعتمد ترايانوس

(١) Graf: op. cit., p. 6.

(٢) Ibid.: pp. 5, 6.

(٣) Bowersock: A Report..., p. 222. وانظر كذلك: Bowersock: Syria..., pp. 137-139.

الأب سياسة حفر المدن العربية على المبادرة في الأعمال الدفاعية، فشيدت تدمر سورها، وأعيد تخطيط جرش وأحيطت هي أيضاً بسور، وأنشئت القناطر في بُصرى، وشُقّت طرقٌ عسكرية، في مساعٍ بدت متفرقة، إلا في ذهن مَنْ يُشتبه في أنه مُنسقها. وكان ترايانوس الأب نفسه، على ما يبدو، قد نظّم قبوقية (Cappadocia) من قبل، بعدما ضمت رومة بعض المناطق فيما بين النهرين. ودَرَج ضمن هذا المخطط بلا شك عزل الأسرة العربية المالكة في حمص بين سنتي ٧٢ و٧٨ م.، لازالة نفوذها من على منفذ الطريق التجارية المارة من تدمر إلى البحر المتوسط^(١).

وبعد هذه الاجراءات والتعديلات كانت خطة رومة العسكرية والسياسية جاهزة للخطوة التي سيفتح ترايانوس الامبراطور بها القرن الميلادي الثاني: ضمّ مملكة الأنباط إلى الممتلكات الرومانية.

ز- ترايانوس يضم مملكة الأنباط

في أواخر القرن الميلادي الأول أصبحت غارات البدو على بلاد الشام وفلسطين، تشكل خطراً على سياسة رومة حيال تجارة الشرق. ذلك أن هذه الهجمات جعلت تجارة الشرق الرومانية عُرضة للخطر لدى نشوب أي حرب مع الفرس في الصحراء السورية^(٢). وكان استيلاء رومة على مملكة الأنباط استيلاءً عسكرياً مباشراً يضع المدخل الشمالي إلى البحر الأحمر في يدها^(٣). وقد أصدر ترايانوس الامبراطور أمراً سُمي مملكة الأنباط «المقاطعة العربية»، سنة ١٠٥ م، وأرسل الموفد القنصلي كورنيليوس بالما (Cornelius Palma) سنة ١٠٦ م، ليستولي استيلاءً عسكرياً على المقاطعة، وقد جعل البتراء عاصمة لها^(٤). وتوفي الملك النبطي الذي تسميه المصادر الرومانية رَئِل (Rabbel) الثاني في السنة ذاتها بعدما

(١) Bowersock: Syria..., p. 140.

(٢) Graf: op.cit., p. 7.

(٣) Anani, Ahmad: Gulf Relations with the West: an Historical Survey (Part I), Islamic Cul-

ture, vol. 60 (1986), Oct., p. 54.

(٤) Gabrieli: op.cit., p. 16.

حكم مملكته ستة وثلاثين عاماً. واتفق غراف وباورسوك على أن استيلاء الرومان على بلاد النبط حدث من غير قتال^(١). وترك الرومان لخليفة الملك النبطي، واسمه مالخوس (Malchus) الثالث، إدارة منطقة إلى الجنوب والشرق من البحر الميت، فحكمها حتى سنة ١٢٦ م.، فلما مات اندثرت الأسرة الحاكمة.

وتدل أعمال ترايانوس اللاحقة على أنه استولى على بلاد النبط لأنه أراد أن يتخطى الفرات شرقاً لمحاولة بلوغ شاطئ الخليج، وشاء أولاً أن يدعم مواقعه الجنوبية حتى لا يأخذه الفرس أو القبائل العربية على حين غرة^(٢)، وقد شق لهذا الغرض ما يُسمى «طريق ترايانوس»، وهي طريق صحراوية حصينة تبدأ بالعقبة وتساير البتراء ويصري وتنتهي بنهر الفرات في الصحراء السورية مروراً بأم الجمال وخربة سمرا، وهي مواقع كانت مهمة على طريق القوافل، وقد وُجدت فيها آثار رومانية ونبطية وبيزنطية. ويظهر من الصهاريج والآبار في هذه المواقع أنها كانت مراكز لتجمع القوافل وتربية المواشي^(٣). وعثر برونوف ودوماشفسكي شرق هذه الطريق على خط آخر من التحصينات^(٤). كذلك اهتم ترايانوس بميناء أيلة فأصلحه وأقام فيه إدارة جمركية رومانية لجباية الضرائب، ثم أصلح القناة القديمة التي تصل النيل بالبحر الأحمر بعدما تراكمت فيها الأتربة حتى سدت مجراها، وحفر قسماً جديداً من طرفها الغربي أوصلها بالنيل عند بابليون، موضع القاهرة القديم. وبذلك نشط ميناء القُلْزُوم (السويس اليوم) حيث كانت القناة تلتقي البحر الأحمر^(٥).

لكن ترايانوس لم يكتفِ بحماية طريق رومة نحو المحيط الهندي، وقد بدا ذلك غرضه في إجراءاته الأولى، بل أخذ يخرج على مبادئ سياسة أغسطس قيصر في وصيته الشهيرة، خروجاً صريحاً، حين ضمَّ أرمينية سنة ١١٤ م. ثم

(١) Graf: op.cit., pp.6,7; Bowersock: A Report..., p 228.

(٢) Trimmingham: Christianity among..., p. 49.

(٣) جواد علي، ج ٢، ص ٦٥، ٦٦.

(٤) Graf: op.cit., p. 1.

(٥) جواد علي، ج ٧، ص ٢٧٨، وكذلك Crone: op.cit., p. 25.

حذيب (حذياب)، وأتبع نهر دجلة في زحفه نحو طيسفون عاصمة البارثيين، فدخلها، ثم واصل زحفه إلى ميسان (المحمرة أو كرخا، في شط العرب)، فحظي بشرف كونه أول قائد وآخر قائد روماني يصل إلى شاطئ الخليج. كانت المحمرة، وهي تقع عند التقاء نهري دجلة وقارون (الايرواني)، مرفأ السفن الآتية من الهند. وقد حظي ترايانوس بالأمجاد الرسمية التي طمح إليها، فاستقبله الملوك، وسرح بصره بمياه الخليج، مثلما فعل الاسكندر الكبير من قبله، فيما كان مركب شراعي يبحر نحو الهند. ولكن قيل إن ترايانوس تنهد متحسراً، فالتدريون كانوا هناك منذ حقبة طويلة ينظمون تجارة القوافل، ولم يكن في مكنه هو البقاء، لأن غزوته هذه كانت جهداً ضائعاً، إذ ثار عليه الأهليون، فاضطر إلى الانسحاب ومات في طريق عودته إلى رومة. وقد سارع خليفته هادريانوس (Hadrianus ١١٧ - ١٣٨ م.) إلى ترك كل مكاسب هذه الحملة الفاشلة باستثناء منطقة الرها شرق الفرات، وعاد إلى اتخاذ النهر في العموم حدوداً مع بلاد الفرس، الذين عقد معهم تسوية سلمية سنة ١٢٢ م. وقد ظل نهر الفرات حداً فاصلاً بين رومة والبارثيين حتى زالت دولتهم سنة ٢٢٦ م. باستيلاء الساسانيين على الحكم، باستثناء بعض الحملات المتبادلة التي لم تعمُر^(١). وأبقى هادريانوس الوضع في المقاطعة العربية (مملكة الأنباط السابقة) على ما ورثه من ترايانوس.

- ح - ما بعد ترايانوس

زالت دولة الأنباط، لكن سكانها ظلوا يمارسون التجارة وقيادة القوافل، على رغم انصراف الكثير منهم إلى الزراعة. وقد وُجدت كتابات نبطية على طرق التجارة، في طور سيناء ومصر وأماكن أخرى. ودلَّ وجودها على استمرار تجارة الأنباط بين مصر والجزيرة العربية بعد استيلاء رومة على بلادهم^(١). وسرعان ما اكتشف الرومان أن وجودهم العسكري المباشر ليس كافياً للدفاع عن المقاطعة

(١) غيبون: المرجع نفسه، ج ١، ص ٧١، ٧٢. وأنظر كذلك Trimmingham: Christianity among..., p. 27.

Seyrig: Inscriptions..., pp. 258, 259. وكذلك

(٢) جواد علي، ج ٣، ص ٤٩، ٥٠.

وطرق التجارة، فاضطروا إلى معاودة السياسة الأولى، وهي عقد أحلاف مع زعماء القبائل، واستخدام رجالهم في الجيش الامبراطوري. أما تدمير، التي فشلت حملة ترايانوس على الخليج في الاستغناء عن دورها فأخذت تتعزز مكانتها بصفتها منطقة عازلة ومستودعاً لمقاتلي الصحراء في الجيش الروماني. وقد ظلت تدمر مستقلة رغم تحالفها مع رومة، فيما كانت دُورة (الصالحية) في فلك الفرس، على رغم احتفاظ التدمريين بحامية عسكرية فيها، لخفارة قوافل التجارة^(١). بل ان التدمريين حملوا رتباً عسكرية مرموقة في جيش الرومان، وبخاصة في وحدات الرماة^(٢).

واختلفت أقوال الباحثين فيما إذا كان الرومان قد أقاموا قوات عسكرية دائمة في الجزيرة العربية، أم انهم وصلوا إلى هناك بفضل تحالفهم مع القبائل العربية. فقال لامنس إن حدود المقاطعة العربية وصلت إلى ديدن (العُلا) ومدائن صالح (الججر)^(٣). أما سايرينغ فأكد بحذر أن أحداً لم يستطع أن يثبت وجود الرومان وجوداً دائماً جنوب الخط المحصّن الممتد من بُصرى إلى العقبة مروراً بمعان. إلا أنه أثبت وجود وحدات عسكرية بين مدائن صالح والعُلا في النصف الثاني من القرن الثاني^(٤). وأما بار فأشار إلى وجود عسكري روماني بين مدورة وتبوك، وهما تقعان على جانبي حدود الأردن مع السعودية اليوم^(٥). وجعل باورسوك حدود المقاطعة العربية عند القرية، على ١٥٠ كيلومتراً إلى الجنوب الشرقي من أيلة. ودفع غراف هذه الحدود مائة كيلومتر أخرى نحو الجنوب، في عمق جزيرة العرب^(٦). وقد تكون جميع هذه الأقوال صحيحة معاً، من وجهة النظر التي يرى فيها الباحث مفهوم الحدود. فلا شك في أن رومة كانت تنشط

(١) Trimingham: Christianity among..., pp. 87, 88

(٢) Seyrig: Inscriptions..., pp. 229, 230

(٣) Lammens: L'Arabie..., pp. 310, 315. وانظر أيضاً Seyrig: Antiquités..., p. 223

(٤) Seyrig: op.cit., pp. 218-223

(٥) Parr, P.J.: Exploration archéologique du Hedjaz et de Madian, *Revue Biblique*, 76, (٥)

(٦) (1969), pp. 391, 392

Graf: op.cit., p. 3

نشاطاً سياسياً يتخطى حدود وجودها العسكري في المقاطعة. فالنص الذي اكتشفه موزيل في رِوافة، على نحو ثمانين كيلومتراً جنوب تبوك، يدل على أن رومة رعت بعد منتصف القرن الثاني بقليل^(١)، مصالحة وتحالفاً بين القبائل الشمودية. ومعلوم أن الجنود الرومان تركوا أثراً على وجودهم في مدائن صالح والعُلا، ولو ان امتداد المقاطعة العربية امتداداً إدارياً رسمياً إلى هناك ليس مؤكداً. ويُفترض أن حماية القوافل التجارية ومواكبتها كانت من مهام هؤلاء الجنود الرومان في القرن الثاني للميلاد.

أما النفوذ السياسي الروماني فقد تكون ثمة شبهة قوية على امتداده حتى إلى اليمن بواسطة حلفاء رومة الأحباش الذين اجتازوا باب المندب مرة أخرى ليحتلوا السواحل العربية فيما بين السنتين ١٥٠ و ٣٠٠ للميلاد^(٢). وليس من سبب يدعو إلى الظن أن رومة رغبت في محالفات سياسية في الحبشة واليمن، وأحجمت عن التطلع إلى محالفات شبيهة في الحجاز المتاخمة مباشرة لمقاطعتها العربية. وقد أدت مناطق النفوذ السياسي الممتدة إلى ما وراء الخطوط الدفاعية الحصينة دوراً مهماً في سياسة الحدود الرومانية، بخاصة لما تبين أن احتلال مملكة الأنباط لم يُجِد في ردع هجمات القبائل البدوية. ودلّت جهود رومة التي بُذلت في تعزيز خطوطها الحدودية الحصينة، على أن هذه القبائل ظلت قادرة على شنّ الغزوات الناجحة على خطوط التجارة، حتى الحقبة الرومانية المتأخرة في القرنين الثاني والثالث للميلاد. كذلك دلّت أعمال رومة العسكرية في الحجاز في أواخر القرن الثاني على أن الامبراطورية لم تفقد اهتمامها بطريق التجارة البرية عبر الجزيرة، على رغم تحوّل خط التجارة الشرقية الأساسي إلى مصر. وقد عاودت رومة اعتماد السياسة التقليدية وهي التودد إلى القبائل الكبرى والتحالف معها من أجل اصطناع مناطق عازلة تردّ غزوات القبائل الأخرى. وقد كان التعاهد الروماني مع حلف القبائل الشمودية عماد السياسة الحدودية في شمال

(١) Seyrig, Henry: Sur trois inscriptions du Hedjaz, *Syria*, 34 (1957), pp. 260 261

(٢) جواد علي، ج ٢، ص ٢٥٣. ويميل فون فيسمان إلى أن الاحتلال الحبشي هذا حدث سنة

١٠٠ م أو ١٥٠ م. أنظر Von Wissmann: op.cit., pp. 472, 473

الحجاز في المرحلة التي سبقت ولاية ديوكليسيان (٢٨٤ - ٣٠٥ م). وقد يكون استخدام فرسان الصحراء الثموديين في الكتابات الرومانية تفسيراً مقبولاً لعدم العثور على آثار من خطوط رومة الحصينة في هذه المنطقة، بخاصة في وادي زم والجسمى. فليس من أثر لوجود روماني هناك، بل كانت القبائل الثمودية هي التي تخفر المنطقة. وكانت القبائل الأخرى تتقاضى مكوساً لتدفع قوافل التجارة الرومانية تمر بسلام. ويعتقد غراف أن هذه السياسة ظلت قائمة في القرن الثالث^(١)، حتى جاء عصر تدمير فبذل الأحوال.

ثالثاً: عصر تدمير

أ- الصعود إلى القوة

كان القرن الثالث عصر العرب في الامبراطورية الرومانية. ويصف شهيد مطولاً في كتابه «رومة والعرب»، مظاهر الحيوية العربية في هذا القرن ابتداءً باستيلاء أسرة ساويروس (Severus) السورية نصف العربية على العرش الامبراطوري في أواخر القرن الثاني وسيطرة الأمهات العربيات على أبنائهن الأباطرة، ثم صعود فيليبوس (Philippus) العربي إلى سدة الامبراطورية (٢٤٤ - ٢٤٩ م)، وأخيراً تعاظم قوة تدمير في الربع الثالث من هذا القرن^(٢)، حتى تحدث رنيه غروسيه عن: «وَضَعِ الْعَرَبُ يَدَهُمْ عَلَى جَزْءٍ مِنَ الشَّرْقِ الْهَلِينِيِّ»^(٣)، خلال الحرب التدمرية الرومانية. غير أن تدمير لم تصعد إلى مركز القوة هذا بين ليلة وضحاها، لأن تجار المدينة كانوا منذ زمن طويل قد خبروا طرق التجارة الشرقية عبر الصحراء السورية ونهر الفرات. وقد شاهدتهم تراجانوس في أول القرن الثاني يتجرون في ميسان عند شاطئ الخليج^(٤). ولما فشل

(١) Graf: op.cit., pp. 8 - 12, 19, 20.

(٢) Shahid, Irfan: Rome and the Arabs, A Prolegomenon to the Study of Byzantium and the Arabs, Dumbarton Oaks, Washington, 1984.

(٣) Rabbath: L'Orient chrétien..., pp. 134, 135.

(٤) GAWLIKOWSKI, Michel: Le Commerce أيضاً. Seyrig: Inscriptions..., pp. 259, 260.

de Palmyre sur terre et sur eau, dans L'Arabie et ses Mers Bordières, I, GS-Maison de l'Orient, Lyon, 1988; pp 166, 167.

تراجانوس في حملته الشهيرة، بذل هادريانوس (Hadrianus) خليفته عناية كبيرة بتدمير، لحاجة الامبراطورية إلى الاتجار مع الفرس على أية حال. ولذا سعى هادريانوس في الوقت نفسه إلى تحسين علاقاته بالفرس والمحافظة على أمن البادية، وأوصل حامياته إلى ضفة الفرات الغربية، بل أنشأ في النهر، على ما يُقال أسطولاً تجارياً. وقد أحسنت تدمير الاستفادة من مسالمة هادريانوس وخليفته أنطونينوس بيوس (Antoninus Pius: ١٣٨ - ١٦١ م)، فأقامت معبداً في بابل ووسّعت تجارتها عبر الفرات^(١). وساعدها في هذا الأمر أن التدمريين، رغم انتمائهم المعلن للمعسكر الروماني، كانوا يقيمون علاقة وثيقة بقبائل العرب في منطقة النفوذ الفارسية، بل بالفرس أنفسهم. وكان يسهل هذا الأمر أن جميع الأطراف كانت بحاجة إلى تجارة الشرق، على هذا النحو أو ذاك. بل ان جرمانيكوس (Germanicus) القائد العسكري الروماني في أوائل القرن الأول للميلاد أوفد مبعوثاً تدمرياً في مهمة سياسية إلى بلاد ميسان (كرخا، عند شط العرب)^(٢). وكانت لتدمير مكانة في الشبكة التجارية منذ أيام السليوقيين، غير أنها لم تأخذ في الازدهار حقاً، إلا عندما أدمجت بالنظام التجاري النبطي، وفتح الفرات الأسفل للملاحة بين الامبراطوريتين البارثية والرومانية، اللتين اتفقتا على ضرورة هذه الوساطة التجارية عبر الحدود^(٣). وقد أبدت رومة اهتماماً سياسياً بالمدينة منذ النصف الأول للقرن الثاني بعد الميلاد^(٤)، خصوصاً بعدما أخذت البتراء تفقد مكانتها. لتحوّل التجارة عنها إلى مصر وإلى طريق الفرات^(٥). وكانت تدمير في زمن السلم بين الفرس والرومان تستقطب جزءاً مرموقاً من تجارة الشرق، لامتياز طريقها على الطرق الأخرى بالقصر وسرعة النقل. ويقول باورسوك إن صعود تدمير أفزع درعا وشل بصرى اللتين كانتا مصباً لطريق التجارة

(١) جواد علي، ج ٣، ص ٨٧، ٨٨.

(٢) Seyrig: Inscriptions..., pp. 252, 258.

(٣) Trimmingham: Christianity among..., p. 31.

(٤) Seyrig: Inscriptions..., pp. 243, 244.

(٥) Kirkbride, Diana: Le Temple Nabatéen de Ramm, son évolution architecturale, Revue

Bibl., 67 (1970), pp. 86, 87. وانظر كذلك: حمور، ص ٣٠.

الشرقية الآتية من جزيرة العرب عبر وادي السرحان^(١).

ويمكن الاشتباه بأن مظاهر الحيوية العربية في القرن الثالث داخل الامبراطورية الرومانية، لم تكن مظاهر منفصلة بعضها عن البعض. ذلك أن علاقة أسرة ساويروس، التي استولت على العرش الامبراطوري منذ سنة ١٩٣ للميلاد، بمدينة حمص، التي كانت تتحكم بالمنفذ الوحيد لطريق تدمير المباشرة إلى البحر المتوسط، واهتمام هذه الأسرة الحاكمة بتحسين مكانة الوحدات العربية في داخل الجيش الامبراطوري، مثل الرماة والهجانة، وكذلك اهتمام فيليبوس العربي بالمقاتلين البدو، قد لا تترك مجالاً لافتراض الصدفة وحدها في تعاظم الحيوية العربية. ففي سنة ٢٠٨ م، أي في عصر سبتيميوس (Septimius) ساويروس بالذات، ظهرت الوحدات التدمرية بقوة في نظام الحاميات الرومانية عند نهر الفرات^(٢). وقد يكون في هذا تفسير لبعض العوامل التي رافقت صعود تدمير إلى القوة.

وقد صادف هذا الصعود، على الجانب الآخر من نهر الفرات، الانقلاب في دولة الفرس، وهو انقلاب حدث سنة ٢٢٦ م. وانتقل فيه الحكم من البارثيين الذين أصابهم الوهن، إلى الساسانيين الذين أخذوا يبدلون الأوضاع ويعدون لحروب أفضت إلى نهاية القوة التدمرية^(٣). ويبدو أن ساويروس الكسندر (Severus Alexander)، الامبراطور الروماني (٢٢٢ - ٢٣٥ م.) هياً للأسرة الساسانية فرصة عاجلة لاختبار حكمهم الجديد في المجابهة مع رومة، إذ سعى الكسندر إلى بلوغ الخليج مرة أخرى، أسوة بسمي الأكبر المقدوني، ويسلفه ترايانوس، فزحفت قواته سنة ٢٣٢ م. عبر الفرات، وبلغت البطائح، لكن الساسانيين ردوها على أعقابها^(٤). وانتقم الساسانيون أولاً بإزالة مدينتين عربيتين

(١) Bowersock: A Report..., p. 234. وعن تدمير عموماً أنظر أحمد صالح العلي، ص ٤٦ وما بعد.

(٢) Graf: op.cit., p. 18; cf. Seyrig: Inscriptions..., pp. 232, 233, 238.

(٣) جواد علي، ج ٣، ص ٩٠.

(٤) المرجع ذاته، ج ٢، ص ٦٨.

من مدن تجارة الشرق المارة عبر الفرات وهما الحضر ودورة. فحاصروا الحضر أربع سنوات، ثم حوّلوا عنها طريق التجارة، فذبلت وسقطت في بضع سنين. أما دورة فقد دُمّرت واندثرت سنة ٢٦٠ م. وكانت الحضر ضمن ممتلكات الفرس، لكنها أقامت علاقات جيدة بالرومان قبيل الانقلاب الساساني، وكانت فيها حامية تدمرية، على ما سلف. أما دورة فكانت محطة قوافل بارثية، ثم تحوّلت إلى معسكر روماني. وقاومت تدمير بسهولة هجمات الساسانيين، غير أنه يُعتقد أن شبكتها التجارية تضررت من جرّاء هذه الحرب، وهي التي لا يناسبها سوى السلم بين الفرس والرومان^(١). وقد انتهز الأعراب هجمات الفرس في السنوات ٢٤٣ و ٢٥٦ و ٢٥٩ م. وأسّر الامبراطور الروماني فاليريانوس (Valerianus) سنة ٢٦٠ م.، فأخذوا يَغزون المدن ويهاجمون المواقع الرومانية، وازدادت بذلك حاجة رومة إلى تدمير وقوتها العسكرية وقدرتها على ردع قبائل الصحراء، فألفت كتائب عربية للقتال في البوادي^(٢).

ب - تنظيم القوافل التدمرية

إن جلّ ما يهمّنا من تاريخ تدمير وحربها مع رومة في إطار هذه الدراسة هو دور تدمير في تنظيم تجارة الشرق وأثر الحرب في هذه المسألة، واحتمال كون تدمير مثلاً احتذت عليه مكة فيما بعد في إيلافها. ولا بد إذن من التعرّيج على العوامل التي جعلت تدمير مؤهلة لتأدية هذا الدور، إضافة إلى موقعها الجغرافي الذي قيل فيه الكثير.

لقد تنبّه شلومبرغر إلى عامل أساسي من عوامل قوة تدمير التجارية، وهو قدرتها على تربية الخيول والجمال اللازمة لتنظيم القوافل وخفارتها معاً^(٣). ولذا درس المواقع المحيطة بالمدينة وبخاصة منطقة جبلية شمال غرب تدمير، فأخرج المدينة من «عزلتها» في الصحراء ووضعها وسط بيئة زراعية رعوية تمد سكانها

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب المصرية، ج ٢، ص ٦١ - ٦٣. وانظر أيضاً جواد علي... ج ٢، ص ٦١٤. وكذلك: pp. 30 - 31. Tringham: Christianity among...

(٢) جواد علي، ج ٢، ص ٦٩. وكذلك: Graf: op. cit., p. 13.

(٣) استشده ويل. Will: op. cit., p. 271.

بما يلزمهم من المطايا. ففي جانب مراعي للخيول، وفي جانب مملكة الابل في الصحراء. ولذا نعمت تدمر بموقع مثالي، ولم يهزمها الجمالون ولا المقاتلون، إذ كان سكانها مؤهلين للمهنتين معاً. فلم يكن التدمريون ذلك الصنف من أهل المدن الذين يفتلون أبواب مدينتهم لمنعها من العدو، بل كانوا أساقداً في الصحراء وفنونها وأسلوب عيشها، رغم تفرسهم في شيء من العيش الحضري. ولا شك في أن سمعة التدمريين العسكرية في الجيش الروماني تنبع بما كان لهم من مهابة في هذه البيئة الصحراوية^(١). ويقول إرنست ويل في مقالته الممتازة عن التجار وقادة القوافل في تدمر، إنه يجدر بنا ألا نعتقد أن شيوخ تدمر وتجارها، إنما كانوا أصحاب متاجر يعيشون في مدينة صحراوية في حماية الجيش الروماني، بل انهم كانوا شيوخاً قبلين أتوا المدينة وظلوا على صلة بمواشيهم ورجالهم في الصحراء. لقد كانوا تجاراً فعليين يحتنون معظم ثروتهم من تجارتهم، لكنهم كانوا صنفاً خاصاً من التجار، إذ كانوا قادة قوافل. وهو صنف مزيج يتكيف فيه البدوي التقليدي بمهته المدنية: فهو ينظم القافلة، وهو يقودها في الصحراء، ثم يتولى المفاوضات السياسية مع القبائل أو مع حكومة الفرس^(٢).

أما الطريق التي كانت تسلكها القوافل التدمرية إلى بلاد ما بين النهرين فهي ليست واضحة المعالم، إلا أنها تمتاز بالحدود عند نقطة ما بين تدمر وميت عند الفرات. وفيما بين أراضي الإمبراطوريتين كانت القوافل تمر في أرض محايدة. وأغلب الظن أن حراسة هذا الخط التجاري بواسطة حاميات تدمرية تسكر في حصون منتشرة على طول الطريق، لم تكن حراسة مجدية، لانتقال القافلة من دولة إلى دولة، ولأن هذه الحاميات لا حول لها ولا طول إلا في جوار حصونها، وبذا فإن أي هجمة بدوية على القوافل فيما بين الحصن والحصن تُبطل الحاجة إلى هذه الحاميات. ولم يكن يمكن إذن أن تحمي القوافل، إلا أن تواجها حماية مسلحة. ولما كانت تدمر تابعة للمعسكر الروماني، فإن هذه

(١) Ibid., pp. 271, 272. وانظر أيضاً GAWLIKOWSKI, pp. 163 sqq.

(٢) Will, pp. 264, 273, 274.

الحماية المسلحة لا يمكن أن تكون جيشاً تدمرياً رسمياً ويُسمح لها بدخول أرض الفرس. وتشير المصادر إلى أن هذه الحماية كان يتولاها مواطنون تدمريون، تستند قدرتهم في الأساس إلى مفاوضات يعقدونها، ثم يدعمونها بالمال. وفي هذه الحال يمكن أن ننصّر الحاجة إلى مواكبة عسكرية غير رسمية، تبيحها تقاليد الصحراء، ولا تخشاه الجيوش النظامية.

ويرى روستوفسيف أن مهمة قادة الحرس كانت حماية القوافل من مخاطر غزوات البدو. ويعتقد أن هذه المهمة كانت مهنة تخصص لها محترفون توارثوها كابراً عن كابر، ولم يكن التجار يختارون واحداً منهم لتولي القيادة، مثلما يظن البعض. كان قائد القافلة المحترف يجمع مئات الدواب اللازمة للقافلة وفق حاجة التجار، ويستخدم العمال للصيانة بهذه الدواب، والمقاتلين الذين سيواكبون القافلة. أما المال اللازم للاتفاق على الرحلة، فكان يدفعه من سُموا وحُمة القافلة. وقد حفظت لنا الآثار أسماء بعض حُمة القوافل من منتصف القرن الثالث للميلاد. وكان هؤلاء من أصحاب التجارة أو حتى من أصحاب المصارف. ولعل بعض قادة القوافل من أصحاب الثروات، كانوا يتولون بأنفسهم أيضاً الاتفاق عليها. وأظهرت الكتابة الأثرية الموسومة بكتابة أم القُعد أن أحد حُمة القوافل كان أولاً صاحب فندق للتدمريين في منطقة بابل^(٣).

وتؤيد الكتابات التي خلفتها لنا آثار تدمر أن الجيش الروماني لم يكن يساهم عل الأرجح في مهمة حماية القوافل، إلا بعد مغادرتها تدمر باتجاه البحر المتوسط^(٤). ويبدو أن هذا الاستقلال النسبي الرحب الذي نعمت به تدمر، كان أيضاً استقلالاً سياسياً وعقدياً، على نحو ما.

- ج - العقيدة الدينية المستقلة

إن ما نسّميه والحدود الشرقية للإمبراطورية الرومانية، بدهوه ميلر ومساللة (١) على ما ذكره ويل. Will, pp. 267-271. وانظر أيضاً GAWLIKOWSKI, p. 167. ومن جميع تدمر القبائل حولها انظر GAWLIKOWSKI, p. 165. وصالح أحمد العلمي، ص ٨٤. (٢) Seyrig: Inscriptions..., p. 242. وانظر كذلك: Will, op. cit., pp. 263, 264, 266. وتحدثت جونز عن استقلال تدمر النسبي ضمن إطار السيطرة الرومانية، Jones, p. 266.

خيالية تمثل حالة دبلوماسية ملائمة في زمن ما، وتغرضها توزيع بعض الجنود وموظفي المكوس في بعض الأماكن. لكن هذه الحدوده قلما كانت تؤثر في سلوك السكان أو تحركهم على الجانبين... وشهد لوقيانوس (Lucianus) بأن القرايين في أحد معابد منيج، شمال شرق حلب، على الجانب الروماني من سورية غرب الفرات، كانت تأتي من أماكن عديدة بينها منطقة بابل. وكانت حركة الأفراد تسلك الاتجاهين. ومهما أطلق من صفات على الأماكن، فلا شك في أن اللغات والسامية، وبخاصة الآرامية ولهجاتها المختلفة، ظلت مستخدمة من نهر دجلة حتى شاطئ المتوسط. وبقيت المنطقة وحدة ثقافية لا تتأثر بمناطق نفوذ رومة أو الفرس^(١).

استناداً إلى هذا والتجانس الثقافي النسبي، يبدو أن ملكة تدمر الزباء التي دعاها الرومان زنوبية، آهت عقيدة دينية مسيحية ودعمت رمزها الكسبي بطيريك إنطاكية بولس الشمشاطي. وإذا كان لهذا الأمر أن يثبت في هذا المقام، فلسبب: أولهما أن ثورة تدمر على الحكم الروماني لم تكن ثورة طموح رعناء ضحلة الأعماق، بل كانت تستند إلى عناصر ذات علاقة بالبيئة الفكرية والعقيدة التي تحدث عنها ميلر. ولذا فلا مفر من الاشتباه في أنها كانت على الأرجح تعبيراً سياسياً عن هذه البيئة ومحاولة لتحويل الوعي العقدي المستقل إلى كيان سياسي مستقل. والسبب الثاني، هو أن هذا الجانب الديني في المحاولة الاستقلالية التدمرية يبنى بنهوض شبيه استند هو الآخر فيما بعد إلى وحدة العقيدة الدينية، لتنظيم العقيدة السياسية، لدى ظهور الاسلام. وإذا ما قرنت هذه العقيدة الدينية «المستقلة»، بالسلوك السياسي الاستقلالي الذي سلكته تدمر حيال الفرس تارة ورومة طوراً، فقد تتضح في أعماق التاريخ العربي تلك التنازع التي جاء الاسلام ليتوحد، على رأس حركة الاطراف التاريخية، بعد ثلاثة قرون ونصف قرن، برفض الخضوع لكلا الامبراطوريتين الشرقية والغربية.

كان اسم زنوبية «بنت زبينة» أي بنت الناجر. وكانت على معرفة بالعقيدتين

(١) Millar, Fergus: Paul of Samosata, Zenobia and Aurelian: the Church, Local Culture and (١) Political Allegiance in Third Century Syria, *Journal of Roman Studies*, 61 (1971), p. 1.

اليهودية والمسيحية. وقد اتخذت المبادئ المسيحية من لونجينوس (Longinus) الفيلسوف الفينيقي، أحد تلاميذ أوريجينوس (Origenus)، ومن بولس الشمشاطي الذي تبرأ كرسي بطريركية إنطاكية بعد استيلاء أذينة ملك تدمر على الساحل السوري، إثر انتصار الفرس المهين على الرومان وأسرهم الامبراطور فاليريانوس (Valerianus). وكان بولس قد نشأ في مدرسة الرها اللاهوتية المرموقة، وعلم أن السيد المسيح مخلوق، وأن الالهة أتت إليه من الله بالتحاد المشيئة ووحدة المحبة. وقد عُقد مجمع في إنطاكية سنة ٢٦٤ م، وحته على تبديل إيمانه هذا، فلما رفض اجتمع ثمانون أسقفاً مرة أخرى وعزلوه من السنة البطريركية. غير أن زنوبية التي نسلت الحكم في تدمر باسم ابنها وهب اللات، بعد مقتل زوجها أذينة، امتنعت عن التدخل في قرارات المجمع، لكنها تركت بولس في منصبه، ثم عتته رئيساً روحياً ودينياً على الانطاكيين^(٢).

ورد أخصام بولس على آرائه باتهامه باليهودية. ولم تكن التهمة صعبة التصديق. فالعقائد المسيحية الأولى احتوت على الكثير من المبادئ التي تشبه اليهودية، خصوصاً تلك العقائد التي أنكرت الالهة المسيح. ويقول أحد متقدي بولس إن أنصاره ما كانوا يختلفون عن اليهود إلا في عدم لزومهم السبت واختنائهم. وثمة روايات أخرى عن نزوع زنوبية نفسها إلى اليهودية، وعن تهودها على يد بولس. غير أن تلمود اليهود يروي عن كبرائهم أنهم ناشدوا زنوبية في أحد شؤونهم فكان ردّها عداً. ويقول ميلر إن زنوبية لم تكن يهودية مطلقاً. ففي تدمر عاش يهودي اسمه زنوبوس، ونُقش اسمه سنة ٢١٢ م. غير أن هذا الاسم كان شائعاً في المدينة، وليس من سبب لادعاء أن في ذلك دليلاً كافياً على تهود الملكة التدمرية. بل إن ثمة دليلاً على الضد. فالمصادر اليهودية لا تشير إلى زنوبية على أنها يهودية. ولو كانت كذلك لكان إغفال الأمر في المصادر اليهودية المذكورة أمراً يدعو إلى العجب^(٣).

(١) Trimmingham: Christianity among..., pp. 61, 62. وأنظر كذلك، حوله على، ج ٣، ص ١٠٩.

١١٩، ١١٢، ١١٠.

(٢) Millar: op cit., pp. 12, 13.

وإغابة ما في الأمر أن تاريخ العداء الروماني اليهودي، ربما أوحى إلى أعداء زبونية في إنطاكية، أن اتهامها باليهودية يعزز أسباب نال الدولة الرومانية عليها. وقد كانت الخصومة بين تدمير وإنطاكية خصومة تقليدية ونموذجية، وكذلك الخصومة الرومانية اليهودية.

ويرى باحثون أن أهل تدمير كانوا خليطاً من تجار ومزارعين، أما أطرافها وحواليها فكانوا أحراراً ورعاة. وكانت مدينة يونانية، ولكنها لم تكن مثل المدن الأخرى المتأثرة بالهيلينية في الشرق، ولم تخضع لنظام المدن اليونانية، وكانت خاضعة للرومان وبها حامية رومانية، ولكن خضوعها كان في الواقع صورياً، كما أن الحامية لم تكن شيئاً تجاه أهل المدينة والقبائل المحيطة بها. كانت المدينة، بالرغم من الطابع الهليني - الروماني الذي يبدو عليها، مدينة شرقية، الحكم فيها في يد الأسر ذات السلطان في البلدة^(١).

أما إنطاكية فكانت فيها جالية يونانية كبيرة كانت تفضل حكم الرومان على حكم الشرقيين عليهم. وكان لهذه الجالية النفوذ والكلية في المدينة. وكان عزل الامبراطور الوثني أوريليانوس (Aurelianus)، لبولس الشمشاطي عن أسففته لدى سقوط المدينة في يد الرومان سنة ٢٧٢ م، تنفيذاً لرغبة هذه الجالية الموالية للرومان، في مواجهة أنصار لتدمير كانوا في المدينة أيضاً^(٢).

وقد بالغ البعض في التعبير عن هذه الحال بقولهم في بولس الشمشاطي: «إنه كان ذا ميول وطنية [كذا] وقد تحالف مع القوى الوطنية في زمانه ضد التسلط الأجنبي الممثل آنذاك بالحكم الروماني. من القوى الوطنية التي تحالف معها أسرة أذينة في تدمير وخاصة الملكة زينب التي طمحت إلى تكوين مملكة مستقلة عن الفرس ورومة، تضم سورية ومصر والعراق وآسية الصغرى. وجمعت هذه الملكة العظيمة حولها رجالاً صادقي الوطنية راجعي المثل مثل لونغينوس (Longinus) الفيلسوف الفينيقي وغيره. وعصدت بولس الشمشاطي^(٣) وأوصلته

(١) جواد علي، ج ٢، ص ٨٣.

(٢) المرجع ذاته، ج ٣، ص ١١٩، وكذلك: Miller: op.cit., p. 14.

(٣) بالسبن المهمة، كذا يكتبه البعض.

إلى كرسي البطريركية الانطاكية وشدت أزره وبادلها هو الدعم والتأييد، والتفت حوله العناصر الوطنية الأرامية السريانية والفينيقية. ونشأ ضده حزب مؤلف من اليونانيين والرومانيين وأتباعهم السوريين المتنهلين وكل من آيد رومة والحضارة اليونانية الرومانية. وكان معظم هؤلاء من سكان المدن وخاصة إنطاكية. رأى هؤلاء في بولس... عنصراً خطراً... فانعقد مجمع في إنطاكية لمحاكمته... وأيد بولس الوطنيين وجميع أعداء رومة والنفوذ الأجنبي أي الهليني الروماني^(١).

إن في هذا القول لغة عصرية في غير عصرها. إلا أنه لم يتعد كثيراً في الجوهر، عن رأي لونغينوس الذي قال بلغة عصره. في حكم الرومان: وقد تبقى أطراف الأطفال حبسة منكشة كل الانكماش، ومن ثم تقف عن النمو ويصبح الأطفال أقزاماً. وهذا هو حال عقولنا الغضة وهي مكبلة بقيود من حزازات الاستعباد وعاداته، فإنها تصبح عاجزة عن الفتح والانتعاش وعن بلوغ مستوى العظمة التي كنا نعجب بها في الأقدمين الذين عاشوا في ظل حكومة شعبية وتمتعوا بحرية القول والفعل معاً^(٢). لقد عززت عداوة عدد من الوثنيين البارزين ذوي الثقافة اليونانية لبولس الشمشاطي، الرأي القائل إن العقيدة الدينية لم تكن وحدها موضع الصراع، بل كانت الحوافز السياسية تذكي النار بين مؤيدي الثقافة والسياسة الرومانية - اليونانية، والثقافة الأرامية - العربية، وما يحتمله هذا الصراع من حمق سياسي وتشعبات دينية وتاريخية. وأما قرار الامبراطور الوثني أوريليانوس التدخل في نزاع بين مسيحيين، وعزل بولس بعد دخول القوات الرومانية إنطاكية سنة ٢٧٢ م. فلم يكن شأنه أن يزيل شبهة الطابع السياسي عن هذا النزاع العقائدي^(٣).

د - السلوك السياسي الاستقلالي

كانت الامبراطورية الرومانية أمام موقف محير كاد أن يطيح بجناحها

(١) ضو، الأب بطرس: تاريخ الموازنة، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٧٧، ج ٢، ص ٩٥.

(٢) نقل عن ليهون: المرجع السابق، ج ٢، ص ١١٥، ١١٦.

(٣) Miller: op.cit., p. 16.

الشرقي في الأزمة التدمرية. فحماية حدودها الشرقية كانت تحتاج إلى إشراك العرب في نظام دفاعي يمتلكون عناصره ويمسكون بأزمته. ولقد كانت هذه الحاجة مدخلهم إلى الجيش الروماني والادارة الرومانية، حتى بلغوا السدة الامبراطورية نفسها. ولو شاء العرب أن يسلكوا سلوكاً استقلالياً يُعرض عن خدمة الامبراطورية ويُشئ مشروعاً سياسياً عربياً منفصلاً، لأصبح حُماة الحدود الرومانية هم مشكلتها في الوقت عينه. كانت تلك على الأرجح هي مشكلة رومة حين بدا في سنة ٢٦٠ م. أن تدمر قد أخذت فعلاً تسلك هذا السلوك الاستقلالي. ففي تلك السنة هزم شهور الاول ملك الفرس إمبراطور رومة فاليريانوس وأسرته. وإذا ذاك سارع أذينة ملك تدمر إلى سد الفراغ الروماني. كان أذينة لدى اعتلائه العرش سنة ٢٤٢ م. قد فاتح إمبراطور الفرس الفتى شهور الاول في أمر التحالف، غير أنه لقي صدىً. كانت تدمر في حاجة إلى مصادقة شهور لرواج تجارتها. ثم حاول أذينة على ما يبدو عرضه الاول في هجوم شهور على سورية سنة ٢٥٨ م. بعدما دمر الفرس دورة وحاصروا الحضر واجتاحوا نصيبين وحران وإنطاكية. ويرى أنهم: «أرسلوا إليه عند استنواذه على سورية وفوداً وهدايا نفيسة راغبين في موالاته، فألقى سابور [شهور] الهدايا في النهر ومزق الرسالة التي دفعها الوفد إليه وقال إنه لا يريد موالة بل خضوعاً مطلقاً لسلطته... فاستشاط [أذينة] من معاملة سابور لوفده وبث بين قومه أن الحرب ضربة لازب لاصلاح شأنهم وإلحام ثلثة شرفهم. واستدعى شيوخ العرب وذكرهم بتخريب سابور عطرة [الحضر على الأرجح] مدينتهم، وأنصح لهم في بيان ضياع حربتهم وثروتهم، إن قوّي سابور على تقليص سلطة الرومانيين عن سورية... فمالأوه وتألبوا إليه وتضافروا على حرب الفرس، وكان في تدمر حامية رومانية فضتها أذينة إلى رجاله وإلى جيش العرب ولحق بهم كل من فر من سورية حتى كان لأذينة جيش عرمرم زحف به نحو معسكر الفرس من جهة الجنوب... فوجس سابور وسار بجيشه نحو الفرات تاركاً وراءه حاميات أبادها أذينة بجحافلهم... وكان أذينة مُجذّباً في لحاق الفرس، والرجال من بلدو وحضر يزدحمون إليه من كل فج... وسوّلت إليه نفسه أن يسترد ما بين النهرين، فلان

ما أمل وتتبع آثار تريبانوس وسبتيميوس ساويروس إلى طيسفون حيث كانت له وقعة مع الفرس استحوذ بها على جانب من خزائن سابور وسعى بعض حرمه على أنه لم يستطع أن ينقذ فاليريانوس من الأسره^(١).

ويتبين من هذا أن أذينة كان يستند إلى شيوخ العرب، وأن مدينتهم الحضر كانت محل ثار بين العرب والفرس. ولعل تدمر التي جعلت من مدن العرب فيما بين النهرين جزءاً من نظامها التجاري، كانت تريد استرداد دورها التجاري الذي يبدو أن الفرس دمّروا أدواته ومرافقه شرق الفرات. فإذا صحّ ذلك فإن مفتاح أذينة لشهور في احتمال عقد تحالف تدمري - فارسي، حفزتها رغبة تدمر في حماية هذا الدور التجاري وجعله في منأى عن النزاع بين رومة والفرس. وقد تمكّن أذينة فعلاً من تحرير الجزيرة الفراتية وفتح نصيبين وحران، واسترد إنطاكية ودخل عاصمة شهور: طيسفون. وبدا ازدادت حاجة رومة إلى تدمر وازدادت تدمر إدراكاً لقوتها ومكانتها.

ولعل ثقافة زنبوية اللغوية والفلسفية والتاريخية^(٢) زوّدت زعامة تدمر بالطموح السياسي الضروري لاكتمال مشروع الاستقلال. وكان هذا المشروع أعمق جذوراً وأبعد نظراً من مجرد الطموح إلى السيطرّة، الذي ذكره فلاوم^(٣). كانت ثقافة زنبوية عربية ومصرية فوق معرفتها اللاتينية واليونانية. وهذا الأمر يشجع على الاشتباه في أن النظرة التاريخية إلى الصراع مع رومة لم تكن ضحلة أو خالية من الحوافز السياسية العليا. ويبدو أن استيلاء زنبوية على المقاطعة العربية ودخول جيشها مدينة بصرى، ثم دخوله مصر، إنما كان دخولاً في

(١) الدبس، المطران يوسف: من تاريخ سورية الديني والديني، لا ناشر ولا مصدر ولا تاريخ، مقصود من الطبعة الأصلية. ج ٤، ص ٢٢، ٢٣. وانظر كذلك: حوله علي... ج ٢ ص ١٦٤، ١٦٥، و ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١١، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٦، ٣١٧، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٧٧، ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨٠، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٣، ٣٨٤، ٣٨٥، ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩٠، ٣٩١، ٣٩٢، ٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٥، ٣٩٦، ٣٩٧، ٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠١، ٤٠٢، ٤٠٣، ٤٠٤، ٤٠٥، ٤٠٦، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٠٩، ٤١٠، ٤١١، ٤١٢، ٤١٣، ٤١٤، ٤١٥، ٤١٦، ٤١٧، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢٠، ٤٢١، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٣٣، ٤٣٤، ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٣٨، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٥٩، ٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٢، ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٦٥، ٤٦٦، ٤٦٧، ٤٦٨، ٤٦٩، ٤٧٠، ٤٧١، ٤٧٢، ٤٧٣، ٤٧٤، ٤٧٥، ٤٧٦، ٤٧٧، ٤٧٨، ٤٧٩، ٤٨٠، ٤٨١، ٤٨٢، ٤٨٣، ٤٨٤، ٤٨٥، ٤٨٦، ٤٨٧، ٤٨٨، ٤٨٩، ٤٩٠، ٤٩١، ٤٩٢، ٤٩٣، ٤٩٤، ٤٩٥، ٤٩٦، ٤٩٧، ٤٩٨، ٤٩٩، ٥٠٠، ٥٠١، ٥٠٢، ٥٠٣، ٥٠٤، ٥٠٥، ٥٠٦، ٥٠٧، ٥٠٨، ٥٠٩، ٥١٠، ٥١١، ٥١٢، ٥١٣، ٥١٤، ٥١٥، ٥١٦، ٥١٧، ٥١٨، ٥١٩، ٥٢٠، ٥٢١، ٥٢٢، ٥٢٣، ٥٢٤، ٥٢٥، ٥٢٦، ٥٢٧، ٥٢٨، ٥٢٩، ٥٣٠، ٥٣١، ٥٣٢، ٥٣٣، ٥٣٤، ٥٣٥، ٥٣٦، ٥٣٧، ٥٣٨، ٥٣٩، ٥٤٠، ٥٤١، ٥٤٢، ٥٤٣، ٥٤٤، ٥٤٥، ٥٤٦، ٥٤٧، ٥٤٨، ٥٤٩، ٥٥٠، ٥٥١، ٥٥٢، ٥٥٣، ٥٥٤، ٥٥٥، ٥٥٦، ٥٥٧، ٥٥٨، ٥٥٩، ٥٦٠، ٥٦١، ٥٦٢، ٥٦٣، ٥٦٤، ٥٦٥، ٥٦٦، ٥٦٧، ٥٦٨، ٥٦٩، ٥٧٠، ٥٧١، ٥٧٢، ٥٧٣، ٥٧٤، ٥٧٥، ٥٧٦، ٥٧٧، ٥٧٨، ٥٧٩، ٥٨٠، ٥٨١، ٥٨٢، ٥٨٣، ٥٨٤، ٥٨٥، ٥٨٦، ٥٨٧، ٥٨٨، ٥٨٩، ٥٩٠، ٥٩١، ٥٩٢، ٥٩٣، ٥٩٤، ٥٩٥، ٥٩٦، ٥٩٧، ٥٩٨، ٥٩٩، ٦٠٠، ٦٠١، ٦٠٢، ٦٠٣، ٦٠٤، ٦٠٥، ٦٠٦، ٦٠٧، ٦٠٨، ٦٠٩، ٦١٠، ٦١١، ٦١٢، ٦١٣، ٦١٤، ٦١٥، ٦١٦، ٦١٧، ٦١٨، ٦١٩، ٦٢٠، ٦٢١، ٦٢٢، ٦٢٣، ٦٢٤، ٦٢٥، ٦٢٦، ٦٢٧، ٦٢٨، ٦٢٩، ٦٣٠، ٦٣١، ٦٣٢، ٦٣٣، ٦٣٤، ٦٣٥، ٦٣٦، ٦٣٧، ٦٣٨، ٦٣٩، ٦٤٠، ٦٤١، ٦٤٢، ٦٤٣، ٦٤٤، ٦٤٥، ٦٤٦، ٦٤٧، ٦٤٨، ٦٤٩، ٦٥٠، ٦٥١، ٦٥٢، ٦٥٣، ٦٥٤، ٦٥٥، ٦٥٦، ٦٥٧، ٦٥٨، ٦٥٩، ٦٦٠، ٦٦١، ٦٦٢، ٦٦٣، ٦٦٤، ٦٦٥، ٦٦٦، ٦٦٧، ٦٦٨، ٦٦٩، ٦٧٠، ٦٧١، ٦٧٢، ٦٧٣، ٦٧٤، ٦٧٥، ٦٧٦، ٦٧٧، ٦٧٨، ٦٧٩، ٦٨٠، ٦٨١، ٦٨٢، ٦٨٣، ٦٨٤، ٦٨٥، ٦٨٦، ٦٨٧، ٦٨٨، ٦٨٩، ٦٩٠، ٦٩١، ٦٩٢، ٦٩٣، ٦٩٤، ٦٩٥، ٦٩٦، ٦٩٧، ٦٩٨، ٦٩٩، ٧٠٠، ٧٠١، ٧٠٢، ٧٠٣، ٧٠٤، ٧٠٥، ٧٠٦، ٧٠٧، ٧٠٨، ٧٠٩، ٧١٠، ٧١١، ٧١٢، ٧١٣، ٧١٤، ٧١٥، ٧١٦، ٧١٧، ٧١٨، ٧١٩، ٧٢٠، ٧٢١، ٧٢٢، ٧٢٣، ٧٢٤، ٧٢٥، ٧٢٦، ٧٢٧، ٧٢٨، ٧٢٩، ٧٣٠، ٧٣١، ٧٣٢، ٧٣٣، ٧٣٤، ٧٣٥، ٧٣٦، ٧٣٧، ٧٣٨، ٧٣٩، ٧٤٠، ٧٤١، ٧٤٢، ٧٤٣، ٧٤٤، ٧٤٥، ٧٤٦، ٧٤٧، ٧٤٨، ٧٤٩، ٧٥٠، ٧٥١، ٧٥٢، ٧٥٣، ٧٥٤، ٧٥٥، ٧٥٦، ٧٥٧، ٧٥٨، ٧٥٩، ٧٦٠، ٧٦١، ٧٦٢، ٧٦٣، ٧٦٤، ٧٦٥، ٧٦٦، ٧٦٧، ٧٦٨، ٧٦٩، ٧٧٠، ٧٧١، ٧٧٢، ٧٧٣، ٧٧٤، ٧٧٥، ٧٧٦، ٧٧٧، ٧٧٨، ٧٧٩، ٧٨٠، ٧٨١، ٧٨٢، ٧٨٣، ٧٨٤، ٧٨٥، ٧٨٦، ٧٨٧، ٧٨٨، ٧٨٩، ٧٩٠، ٧٩١، ٧٩٢، ٧٩٣، ٧٩٤، ٧٩٥، ٧٩٦، ٧٩٧، ٧٩٨، ٧٩٩، ٨٠٠، ٨٠١، ٨٠٢، ٨٠٣، ٨٠٤، ٨٠٥، ٨٠٦، ٨٠٧، ٨٠٨، ٨٠٩، ٨١٠، ٨١١، ٨١٢، ٨١٣، ٨١٤، ٨١٥، ٨١٦، ٨١٧، ٨١٨، ٨١٩، ٨٢٠، ٨٢١، ٨٢٢، ٨٢٣، ٨٢٤، ٨٢٥، ٨٢٦، ٨٢٧، ٨٢٨، ٨٢٩، ٨٣٠، ٨٣١، ٨٣٢، ٨٣٣، ٨٣٤، ٨٣٥، ٨٣٦، ٨٣٧، ٨٣٨، ٨٣٩، ٨٤٠، ٨٤١، ٨٤٢، ٨٤٣، ٨٤٤، ٨٤٥، ٨٤٦، ٨٤٧، ٨٤٨، ٨٤٩، ٨٥٠، ٨٥١، ٨٥٢، ٨٥٣، ٨٥٤، ٨٥٥، ٨٥٦، ٨٥٧، ٨٥٨، ٨٥٩، ٨٦٠، ٨٦١، ٨٦٢، ٨٦٣، ٨٦٤، ٨٦٥، ٨٦٦، ٨٦٧، ٨٦٨، ٨٦٩، ٨٧٠، ٨٧١، ٨٧٢، ٨٧٣، ٨٧٤، ٨٧٥، ٨٧٦، ٨٧٧، ٨٧٨، ٨٧٩، ٨٨٠، ٨٨١، ٨٨٢، ٨٨٣، ٨٨٤، ٨٨٥، ٨٨٦، ٨٨٧، ٨٨٨، ٨٨٩، ٨٩٠، ٨٩١، ٨٩٢، ٨٩٣، ٨٩٤، ٨٩٥، ٨٩٦، ٨٩٧، ٨٩٨، ٨٩٩، ٩٠٠، ٩٠١، ٩٠٢، ٩٠٣، ٩٠٤، ٩٠٥، ٩٠٦، ٩٠٧، ٩٠٨، ٩٠٩، ٩١٠، ٩١١، ٩١٢، ٩١٣، ٩١٤، ٩١٥، ٩١٦، ٩١٧، ٩١٨، ٩١٩، ٩٢٠، ٩٢١، ٩٢٢، ٩٢٣، ٩٢٤، ٩٢٥، ٩٢٦، ٩٢٧، ٩٢٨، ٩٢٩، ٩٣٠، ٩٣١، ٩٣٢، ٩٣٣، ٩٣٤، ٩٣٥، ٩٣٦، ٩٣٧، ٩٣٨، ٩٣٩، ٩٤٠، ٩٤١، ٩٤٢، ٩٤٣، ٩٤٤، ٩٤٥، ٩٤٦، ٩٤٧، ٩٤٨، ٩٤٩، ٩٥٠، ٩٥١، ٩٥٢، ٩٥٣، ٩٥٤، ٩٥٥، ٩٥٦، ٩٥٧، ٩٥٨، ٩٥٩، ٩٦٠، ٩٦١، ٩٦٢، ٩٦٣، ٩٦٤، ٩٦٥، ٩٦٦، ٩٦٧، ٩٦٨، ٩٦٩، ٩٧٠، ٩٧١، ٩٧٢، ٩٧٣، ٩٧٤، ٩٧٥، ٩٧٦، ٩٧٧، ٩٧٨، ٩٧٩، ٩٨٠، ٩٨١، ٩٨٢، ٩٨٣، ٩٨٤، ٩٨٥، ٩٨٦، ٩٨٧، ٩٨٨، ٩٨٩، ٩٩٠، ٩٩١، ٩٩٢، ٩٩٣، ٩٩٤، ٩٩٥، ٩٩٦، ٩٩٧، ٩٩٨، ٩٩٩، ١٠٠٠، ١٠٠١، ١٠٠٢، ١٠٠٣، ١٠٠٤، ١٠٠٥، ١٠٠٦، ١٠٠٧، ١٠٠٨، ١٠٠٩، ١٠١٠، ١٠١١، ١٠١٢، ١٠١٣، ١٠١٤، ١٠١٥، ١٠١٦، ١٠١٧، ١٠١٨، ١٠١٩، ١٠٢٠، ١٠٢١، ١٠٢٢، ١٠٢٣، ١٠٢٤، ١٠٢٥، ١٠٢٦، ١٠٢٧، ١٠٢٨، ١٠٢٩، ١٠٣٠، ١٠٣١، ١٠٣٢، ١٠٣٣، ١٠٣٤، ١٠٣٥، ١٠٣٦، ١٠٣٧، ١٠٣٨، ١٠٣٩، ١٠٤٠، ١٠٤١، ١٠٤٢، ١٠٤٣، ١٠٤٤، ١٠٤٥، ١٠٤٦، ١٠٤٧، ١٠٤٨، ١٠٤٩، ١٠٥٠، ١٠٥١، ١٠٥٢، ١٠٥٣، ١٠٥٤، ١٠٥٥، ١٠٥٦، ١٠٥٧، ١٠٥٨، ١٠٥٩، ١٠٦٠، ١٠٦١، ١٠٦٢، ١٠٦٣، ١٠٦٤، ١٠٦٥، ١٠٦٦، ١٠٦٧، ١٠٦٨، ١٠٦٩، ١٠٧٠، ١٠٧١، ١٠٧٢، ١٠٧٣، ١٠٧٤، ١٠٧٥، ١٠٧٦، ١٠٧٧، ١٠٧٨، ١٠٧٩، ١٠٨٠، ١٠٨١، ١٠٨٢، ١٠٨٣، ١٠٨٤، ١٠٨٥، ١٠٨٦، ١٠٨٧، ١٠٨٨، ١٠٨٩، ١٠٩٠، ١٠٩١، ١٠٩٢، ١٠٩٣، ١٠٩٤، ١٠٩٥، ١٠٩٦، ١٠٩٧، ١٠٩٨، ١٠٩٩، ١١٠٠، ١١٠١، ١١٠٢، ١١٠٣، ١١٠٤، ١١٠٥، ١١٠٦، ١١٠٧، ١١٠٨، ١١٠٩، ١١١٠، ١١١١، ١١١٢، ١١١٣، ١١١٤، ١١١٥، ١١١٦، ١١١٧، ١١١٨، ١١١٩، ١١٢٠، ١١٢١، ١١٢٢، ١١٢٣، ١١٢٤، ١١٢٥، ١١٢٦، ١١٢٧، ١١٢٨، ١١٢٩، ١١٣٠، ١١٣١، ١١٣٢، ١١٣٣، ١١٣٤، ١١٣٥، ١١٣٦، ١١٣٧، ١١٣٨، ١١٣٩، ١١٤٠، ١١٤١، ١١٤٢، ١١٤٣، ١١٤٤، ١١٤٥، ١١٤٦، ١١٤٧، ١١٤٨، ١١٤٩، ١١٥٠، ١١٥١، ١١٥٢، ١١٥٣، ١١٥٤، ١١٥٥، ١١٥٦، ١١٥٧، ١١٥٨، ١١٥٩، ١١٦٠، ١١٦١، ١١٦٢، ١١٦٣، ١١٦٤، ١١٦٥، ١١٦٦، ١١٦٧، ١١٦٨، ١١٦٩، ١١٧٠، ١١٧١، ١١٧٢، ١١٧٣، ١١٧٤، ١١٧٥، ١١٧٦، ١١٧٧، ١١٧٨، ١١٧٩، ١١٨٠، ١١٨١، ١١٨٢، ١١٨٣، ١١٨٤، ١١٨٥، ١١٨٦، ١١٨٧، ١١٨٨، ١١٨٩، ١١٩٠، ١١٩١، ١١٩٢، ١١٩٣، ١١٩٤، ١١٩٥، ١١٩٦، ١١٩٧، ١١٩٨، ١١٩٩، ١٢٠٠، ١٢٠١، ١٢٠٢، ١٢٠٣، ١٢٠٤، ١٢٠٥، ١٢٠٦، ١٢٠٧، ١٢٠٨، ١٢٠٩، ١٢١٠، ١٢١١، ١٢١٢، ١٢١٣، ١٢١٤، ١٢١٥، ١٢١٦، ١٢١٧، ١٢١٨، ١٢١٩، ١٢٢٠، ١٢٢١، ١٢٢٢، ١٢٢٣، ١٢٢٤، ١٢٢٥، ١٢٢٦، ١٢٢٧، ١٢٢٨، ١٢٢٩، ١٢٣٠، ١٢٣١، ١٢٣٢، ١٢٣٣، ١٢٣٤، ١٢٣٥، ١٢٣٦، ١٢٣٧، ١٢٣٨، ١٢٣٩، ١٢٤٠، ١٢٤١، ١٢٤٢، ١٢٤٣، ١٢٤٤، ١٢٤٥، ١٢٤٦، ١٢٤٧، ١٢٤٨، ١٢٤٩، ١٢٥٠، ١٢٥١، ١٢٥٢، ١٢٥٣، ١٢٥٤، ١٢٥٥، ١٢٥٦، ١٢٥٧، ١٢٥٨، ١٢٥٩، ١٢٦٠، ١٢٦١، ١٢٦٢، ١٢٦٣، ١٢٦٤، ١٢٦٥، ١٢٦٦، ١٢٦٧، ١٢٦٨، ١٢٦٩، ١٢٧٠، ١٢٧١، ١٢٧٢، ١٢٧٣، ١٢٧٤، ١٢٧٥، ١٢٧٦، ١٢٧٧، ١٢٧٨، ١٢٧٩، ١٢٨٠، ١٢٨١، ١٢٨٢، ١٢٨٣، ١٢٨٤، ١٢٨٥، ١٢٨٦، ١٢٨٧، ١٢٨٨، ١٢٨٩، ١٢٩٠، ١٢٩١، ١٢٩٢، ١٢٩٣، ١٢٩٤، ١٢٩٥، ١٢٩٦، ١٢٩٧، ١٢٩٨، ١٢٩٩، ١٣٠٠، ١٣٠١، ١٣٠٢، ١٣٠٣، ١٣٠٤، ١٣٠٥، ١٣٠٦، ١٣٠٧، ١٣٠٨، ١٣٠٩، ١٣١٠، ١٣١١، ١٣١٢، ١٣١٣، ١٣١٤، ١٣١٥، ١٣١٦، ١٣١٧، ١٣١٨، ١٣١٩، ١٣٢٠، ١٣٢١، ١٣٢٢، ١٣٢٣، ١٣٢٤، ١٣٢٥، ١٣٢٦، ١٣٢٧، ١٣٢٨، ١٣٢٩، ١٣٣٠، ١٣٣١، ١٣٣٢، ١٣٣٣، ١٣٣٤، ١٣٣٥، ١٣٣٦، ١٣٣٧، ١٣٣٨، ١٣٣٩، ١٣٤٠، ١٣٤١، ١٣٤٢، ١٣٤٣، ١٣٤٤، ١٣٤٥، ١٣٤٦، ١٣٤٧، ١٣٤٨، ١٣٤٩، ١٣٥٠، ١٣٥١، ١٣٥٢، ١٣٥٣، ١٣٥٤، ١٣٥٥، ١٣٥٦، ١٣٥٧، ١٣٥٨، ١٣٥٩، ١٣٦٠، ١٣٦١، ١٣٦٢، ١٣٦٣، ١٣٦٤، ١٣٦٥، ١٣٦٦، ١٣٦٧، ١٣٦٨، ١٣٦٩، ١٣٧٠، ١٣٧١، ١٣٧٢، ١٣٧٣، ١٣٧٤، ١٣٧٥، ١٣٧٦، ١٣٧٧، ١٣٧٨، ١٣٧٩، ١٣٨٠، ١٣٨١، ١٣٨٢، ١٣٨٣، ١٣٨٤، ١٣٨٥، ١٣٨٦، ١٣٨٧، ١٣٨٨، ١٣٨٩، ١٣٩٠، ١٣٩١، ١٣٩٢، ١٣٩٣، ١٣٩٤، ١٣٩٥، ١٣٩٦، ١٣٩٧، ١٣٩٨، ١٣٩٩، ١٤٠٠، ١٤٠١، ١٤٠٢، ١٤٠٣، ١٤٠٤، ١٤٠٥، ١٤٠٦، ١٤٠٧، ١٤٠٨، ١٤٠٩، ١٤١٠، ١٤١١، ١٤١٢، ١٤١٣، ١٤١٤، ١٤١٥، ١٤١٦، ١٤١٧، ١٤١٨، ١٤١٩، ١٤٢٠، ١٤٢١، ١٤٢٢، ١٤٢٣، ١٤٢٤، ١٤٢٥، ١٤٢٦، ١٤٢٧، ١٤٢٨، ١٤٢٩، ١٤٣٠، ١٤٣١، ١٤٣٢، ١٤

المجال الطبيعي الذي يوافق هذا الطموح السياسي ويناسبه. فأعلنت زنوبية أنها مصرية من نسل كليوبتره، وساعدها حرب مصر مساعدة كبيرة، ولا سيما فيما جرى من قتال حول حصن بابلون الذي حُرف بالفسطاط فيما بعد. ويظن بعض الباحثين أن تيماجينس الذي كان من زعماء الحزب التدمري في مصر، كان عربياً واسمه تيم الجن، وكان مُبغضاً لرومة. وقد استندت زنوبية في تشكيل جيوشها إلى العرب أصلاً، حتى قال الامبراطور كلاوديوس (Claudius) في رسالته إلى مجلس الشيوخ ومدينة رومة، وهو في طريقه لمحاربة تدمر: «إن جيبني ليندى خجلاً كلما تذكرت أن جميع الرماة بالقيس هم في خدمة زنوبية». ولما حاصر الامبراطور أورليانوس زنوبية وطلب إليها الاستسلام عند أسوار تدمر ردت عليه بقولها: «ها أنا ذي منتظرة عضد الفرس والأرض والعرب... لكسر شوكتك»^(١). وقد أخفق فلاوم في فهم جذور النزاع حين قال: «إن سنوات السيطرة التدمرية لم تشهد مواصلة أعمال التحصين في المقاطعة العربية، وهي أعمال لم تُستأنف إلا في عهد أورليانوس وبروبوس (Probus) الامبراطورين الممتازين اللذين اهتمتا بحماية سكان المدن من هجمات الأعداء»^(٢). فلم يقل من هم سكان المدن ولم يقل من هم الأعداء، ولو دقق في هذين الأمرين لتبين أن زنوبية لم تكن تسعى إلى مشروع سياسي يجعل حصوناً عند المقاطعة العربية، لأن جانبي هذه الحدود كان يسكنهما العرب. ولم تكن تلك هي الرؤيا السياسية الرومانية بالطبع.

وعلى الرغم من أن اتصال زنوبية بالفرس طلباً للمساعدة^(٣) قد يوحي أن اعتمادها على العرب يُمكن أن يؤخذ في سياق الاستمانة بمن أمكن، إلا أن شبه الاجماع العربي هل إسنادها بكاد لا يترك شكاً في أن مشروعها السياسي كان

(١) جواد علي، ج ٣، ص ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦، وكذلك: Seyrig: Les Inscriptions de

Bostra, Syria, 22 (1941 a), pp. 46, 47

(٢) Pflaum: op.cit., p. 324. ويخالف خراف قول فلاوم إن التحصينات توقفت في عصر السيطرة

التدمرية. أنظر: Graf: op.cit., p. 13

(٣) جواد علي، ج ٢، ص ٦٣٥

يرمي إلى إنشاء دولة عربية مستقلة^(١). وفيما يعتقد غيرون وهو يذكر حفر الامبراطور أورليانوس عن سكان إنطاكية أن الذين ناصروا زنوبية، إنما ناصروها «كرهاً بحكم الضرورة، لا طواعية واختياراً»، فإن غيرون نفسه ينفي صفة الاضطراب في قوله إن العرب كثيراً ما أخذوا يزعمون أورليانوس في الصحراء بين حمص وتدمر، لدى توجهه من إنطاكية إلى تدمر، وإنه لم يكن يستطيع حماية جيشه^(٢). بل ينفي هذا الأمر أن ثورة حدثت في مصر على حكم الرومان، بعد وصول نبأ سقوط تدمر سنة ٢٧٣ م. وتُمكن زعيم هذه الثورة من تشكيل جيش واستولى على الاسكندرية. لم تكن تدمر حتماً في حالة تسمح لها بفرض حكم «الكراه والضرورة» آنذاك على المصريين، بل كانت تحمل على الأرجح راية مكسورة لمشروع استقلالي مهيب، لم يُكتب له أن يتصره في ذلك العصر.

وكان سقوط تدمر إلهاناً بيده رومة مرحلة جديدة في سياستها حيال حدودها مع الفرس وخطوط التجارة الشرقية. ولعل دراسة رد فعل السياسة الرومانية على المشكلات التي واجهتها في مسألة ضمان المنافذ الآمنة إلى خطوط التجارة الشرقية، واضطرابها إلى تبديل هذه السياسة وفقاً للظروف المتغيرة، ولعل دراسة هذا التوق العربي الغامض الساعي إلى الاستقلال بوسيلة أو بأخرى، والتردد بين الامتثال لرغبات القوتين الكبيرتين وبين الشعور أحياناً بالثقة والقوة إلى درجة الطموح إلى الاستقلال، لعل في هذه الدراسة كشفاً عن جذور مشروع كامن ظل يحتل في نفوس العرب في بادئة الشام والجزيرة العربية، فبدو حيناً وستر أحياناً، حتى استطاعت مكة أن تحد بالاهلاف صيغة يمكنها أن تجنب النكسات القاتلة.

إن أفضل ما يمكن لهذه العودة إلى عصور ما قبل الاهلاف أن تفعله، هو استكشاف المصير السالفة ومحاولة العثور على بذور ماضية لذلك الصراع الكبير بين بيزنطة والفرس، وعلى بذور أخرى للمشروع العربي المستقل لم يُقضى لها

(١) Gabriel: op.cit., p. 16, cf. Trimmingham: Christianity among..., p. 6 (١)

(٢) غيرون: ٢٦٨، ٢٧٠، ٢٧١

أن تنمو، فوئدت باكراً. ذلك أن مقارنة تلك البلور بالبلور التي زرعها الإبلان، قد تنطوي على تفسير لاختلاف نتاج كل منها.

رابعاً: ما بعد تدمير

أ- البحث عن سياسة حدود

يعتقد بعض الباحثين أن انهيار الدول المتاخمة للصحراء السورية، دولة الأنباط سنة ١٠٦ م، والدوليات التجارية فيما بين النهرين سنة ٢٢٧ م، وأخيراً دولة تدمر سنة ٢٧٣ م، قد أحدث نزوحاً إلى البداوة بين عدد من سكان المدن. ويرى كاسكل أن هؤلاء السكان الذين استقروا في المدن التجارية أصلاً ليشكلوا فريق العمل اللازم لتجارة القوافل، عادوا إلى التبدّي بعد تفكك طرق التجارة وانهيار الدولة التي قامت عليها، فانصرفوا إلى النهب والسلب لضمان عيشهم، فنشأ من هذا «بذوثة» المقاطعة العربية، أي إعادة دلع المزارعين إلى البداوة، بعدما حدث عكس هذا في القرن الأول، عندما حوّل الرومان التجارة، من الخط الحجازي - النبطي إلى الخط المصري. ويؤيد هذه النظرية أن الرومان باثروا بعد سقوط تدمر شنّ حملات على القبائل البدوية، ودعم نظام الحصون الحدودية^(١).

ولما كانت تدمر قد جندت وحدات جديدة من الرماة والفرسان، وشكّلت منطقة عازلة ترد هجمات الفرس أو تخفف اندفاعها، اضطر أورليانس في أولى مهامه العسكرية بعد سقوط تدمر، إلى تعزيز الدفاع عن الحدود الشرقية، التي أضعفها الصراع. فأمر بوضع وحدتي الخيالة العربيتين على الطريقتين المفضيتين من تدمر إلى كلٍّ من حمص ودمشق وضمن بذلك السيطرة على أهم الطرق السورية. ولا شك في أن وضعه الوحدة التمدودية في منطقة النقب في جنوب فلسطين كان يرمي أيضاً إلى إعادة الهيبة إلى السلطة الرومانية هناك بعد الأزمة التدمرية. ونُقل الخيالة التمدوديون الممسكون في مصر إلى حدودها لتعزيز الدفاع في مواجهة القبائل. ولعل نقل إحدى الكتائب من القدس إلى أيلة ووضع

Graf: op.cit., p. 15 (١)

كتيبة أخرى في اللجون (شمال شرق القدس) في المقاطعة العربية، كانا يدرجان ضمن هذه الخطة العسكرية أيضاً. ولم يستعد غراف أن يكون أورليانس قد فكّر، بعد انهيار نظام الشبكة التجارية التدمرية عبر الفرات، في إحياء طريق التجارة عبر الجزيرة العربية من جديد^(٢).

لم تكن هذه الإجراءات كافية بالطبع لطمأنة الغداة الرومان على حدود الإمبراطورية الشرقية. بل أخذت تشط أعمال تحصين المدن في المقاطعة العربية. ونسب بعض الباحثين هذه الأعمال إلى رغبة رومانية في مواجهة الهجمات الفارسية قبل سقوط تدمر. إلا أن اتحاه الحملات الفارسية صوب الجزيرة الفراتية وشمال سورية قبل السقوط، واستمرار أعمال التحصين بعد سقوط تدمر يرجحان الرأي أن هذه الأعمال كان غرضها حماية المواقع الرومانية من هجمات القبائل العربية^(٣).

وتابع الإمبراطور بروبوس (Probus: ٢٧٦ - ٢٨٢ م) سياسة سلفه أورليانس هذه، فعزّز تحصين درعا وبصرى^(٤)، لكن ديوكليسيانوس هو الذي ثبت نهائياً سياسة الحدود الشرقية فأنشأ خط التحصينات المعروف باسمه «ستراتا ديوكليسيانا» (Strata Diocletiana) بعدما قضى على حملات البدو في سنة ٢٩٠ م^(٥). ويعتقد غراف أن قوة رومة (ثم بيزنطة) ضَعُفت في شمال الجزيرة العربية، فيما ضعفت قوة الدول البحيّة في جنوبها، بين القرنين الثالث والسادس، بسبب هذه «البذوثة» التي أعادت كثيراً من العرب إلى الصحراء. ويرى أن هذا التطور ابتلع دولة لحيان في شمال الجزيرة العربية ونشر القبائل الرحل بكثافة على تخوم المدن في الصحراء السورية. ولذا كان على بيزنطة ودولة الفرس أن تعملتا بكل الوسائل المتاحة لهما من أجل استيعاب الوضع

(١) Ibid., p. 19. وفي شأن موقع اللجون التي يسميها حرف Beith-juron. انظر Beth-juron.

Muse's New School Atlas of Universal History, Liverpool, 1953.

Pflaum: op.cit., p. 322 (٢)

Ibid., p. 321 (٣)

Trimingham: Christianity among ..., pp. 88, 93 (٤)

الجديد ومحاولة احتوائه^(١). وسياسة الحصون الحدودية لم تجد كثيراً في الماضي، ولم يكن ممكناً أن تكون كافية بعد هذا التحول الخطير. لقد عادت رومة بعد انهيار تدمير إلى مواجهة المشكلة المحيرة: فإدانة ردع قبائل العرب لا يملكها ويحسن استخدامها إلا العرب أنفسهم، وأثبتت تدمير أنها قادرة على أن تحتوي القبائل الخطرة، وعلى أن تتحول هي نفسها إلى مصدر خطر على رومة، حالما تصبح قادرة على الدفاع عن رومة. كانت رومة تريد تشكيل القوة القادرة على الدفاع عن حدودها الشرقية دون أن تشكل هذه القوة خطراً على هذه الحدود. وكان هذا الحال المثالي مستحيلًا. فعادت رومة مضطرة، إلى اعتماد الحل الخطر: أي ردع البدو بواسطة «دولة» عربية تحت وصايتها. ويبدو أن الفرس أيضاً لم يجدوا حلاً أفضل. وكان ذلك الحل منشأ دولة المناذرة اللخمين في الحيرة تحت سيطرة الفرس ورعايتهم^(٢)، ومنشأ «دولة» امرئ القيس صاحب نقش النمارة الشهير في الصحراء السورية، الذي توفي سنة ٣٢٨ م.، بعدما مدَّ سلطانه على «جميع العرب» على ما أذهى في نفسه، فأخضع أسداً وتروخ وقبائل نزار واجتاح ديار مذحج، وانتصر في نجران وطوَّع مُعَدًّا^(٣)، فامتد ملكه في القبائل من الفرات إلى تخوم اليمن، إذا صحَّ ما أذهاه النقش الأثري.

إضافة إلى تعزيز الحصون الحدودية واعتماد سياسة الدول الوكيلية، التي يتولاها «ملوك» معتمدون، من العرب الرُّحَّل أو أشباه الرُّحَّل، اتخذ ديهوكلسيانوس سلسلة إجراءات إدارية لتعزيز رقابة الإدارة الرومانية على الحدود، فضم إلى مقاطعة «فلسطين» ما كان يشكل جنوبي غربي دولة الأنباط البائدة، وهذه منطقة لا يقطعها سوى العرب، ومنها مدن سواحل سيناء. أما المقاطعة العربية فعوضها من هذا الانتطاع بضم جزء من سهل دمشق إليها. ودعم هذه الإجراءات الإدارية

(١) Graf: op.cit., pp. 17, 18.

(٢) Rabath: L'Orient Chrétien..., p. 136.

(٣) Shahid, Irfan: Philological Observations on the Namara Inscription, Journal of Semitic Studies, vol 24, No.1, 1979, pp 33 - 42.

Trimingham: Christianity among...: وانظر أيضاً: op.cit., pp. 93, 94.

ويرى بعض الباحثين أن امرئ القيس هذا هو نفسه امرئ القيس البدي بن عمرو بن عدي بن ربيعة بن نصر مؤسس دولة الحيرة اللخمية.

بمناقلات عسكرية عززت الإشراف على جنوبي فلسطين، لتحسين مراقبة رأس الخط التجاري إلى البحر الأحمر، وكذلك مراقبة تحرك القبائل العربية، في شمال الحجاز^(١).

ب- سياسة القرن الرابع

كانت بداية القرن الرابع إيذاناً بمرحلة جديدة في سياسة الحدود الشرقية، الرومانية - البيزنطية، امتدت بشكل أو بآخر، حتى القرن السابع، قبيل ظهور الإسلام. ففيما عادت رومة في عهد ديهوكلسيانوس اعتماد سياسة «الدول» العربية الوسيطة، تميزت المرحلة الجديدة بتدخل رومة، ثم بيزنطة، تدخلاً أوثق بشؤون هذه «الدول» الوسيطة. كانت دولة الأنباط، ودولة تدمير «مناطق عازلة» بين رومة والفرس، وبين رومة والعرب البدو، وكانتا تتعمدان باستقلال واسع النطاق في كثير من الأحيان. لكن هذه المناطق العازلة أزيلت، وحلت محلها «الدولة الوكيلية»، الخاضعة لإشراف الإدارة الرومانية من كتب، ضمن حدودها الإدارية. لقد نعم امرئ القيس التنوخي صاحب نقش النمارة، الذي عاصر قسطنطين الأول، «بالاستقلال» الذي نعمت به «دولة» المناطق العازلة. لكن هذا الاستقلال لم يمازس إلا خارج حدود الامبراطورية، حيثما امتد سلطان امرئ القيس في حق جزيرة العرب. أما سلطته داخل حدود الدولة البيزنطية فظلّت محدودة جداً. ويبدو أن اعتناق امرئ القيس المسيحية يفسّر جانباً من حوافز هذا الملك العربي على خدمة الدولة الرومانية خارج حدودها، وكذلك يفسّر انتقاله إلى الجانب الروماني، وهو ملك الحيرة اللخمي^(٢). لكن ثمة أدلة على أن كلاً من الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية سعى إلى خدمات هذا الملك اللخمي. واستمر الفرس على هذا مع خلفائه بعد وفاته، أما الرومان فاتخذوا لأنفسهم ملوكاً آخرين توالوا على مهمة حكم «الدولة الوكيلية» حتى أوقف جستينوس (Justinus) الثاني في الصف الثاني من القرن السادس، العمل بهذه

(١) Trimingham: Christianity among...: وانظر أيضاً: Graf: op.cit., p. 19.

(٢) Shahid, Irfan: Byzantium and the Arabs in the Fourth Century, Dumbarton Oaks, Washington, 1984, pp. 31 - 33.

Graf: op.cit., p. 16. وانظر أيضاً: Graf: op.cit., p. 16.

السياسة^(١) بعض الوقت، بسبب خلافه مع الملوك الفساسة. وليس من شك في أن جميع «الدول» العربية الوسيطة التي اصطنعتها رومة، ثم بيزنطة، في مناطق الحدود بينهما وبين دولة الفرس، كانت تنعم بمقدار من الاستقلال، يراوح بين الاستقلال الكامل الذي بلغته تدمر في إحدى مراحل صراعها مع رومة، وبين الوكالة المقيّدة التي تميّز بها حال دولة الفساسة في أواخر القرن السادس. وكان مقدار الاستقلال مرهوناً بعدد من العوامل، منها سياسة الإمبراطور، وحال الحرب مع الفرس، وحيوية الأسرة العربية الحاكمة، وقدرة رومة أو بيزنطة على تقليص مجال تحرك هذه الأسرة، وحالة القبائل العربية في مناطق الحدود، وما إلى ذلك. لكنه لا ريب في أن الطابع العام الغالب على الدول العربية الوسيطة قبل سقوط تدمر، كان أشد ميلاً إلى الاستقلال الذاتي، فيما ازداد تدخل رومة وبيزنطة في شؤون هذه الدول العربية الوسيطة بعد سقوط تدمر. ولعل هذا هو الفارق الأول الذي حدث في سياسة الحدود الشرقية ابتداءً من القرن الرابع.

أما الفارق الثاني فهو أن اطمئنان رومة لفهام دولة مثل تدمر، ترد ضربات الفرس، وتنظم التجارة معهم، وتحول من حين لحين إلى مصدر خطر على الدولة الرومانية في الشرق، دفع بهذه الدولة إلى عدم الركون إلى هذا النمط من الدولة العربية الوسيطة وإلى البحث عن شبكة تجارية أخرى لتسيير تجارة الشرق إلى الأسواق الرومانية. وقد نشأ من هذا التبدل في السياسة الرومانية أن الاهتمام بالبحر الأحمر الذي شهد ركوداً في عصر تدمر تعاضل من جديد في القرنين الرابع والخامس. فتعزز دفاع الرومان ثم البيزنطيين عن الحدود الشرقية في شمالي الحجاز وشرق الأردن، من أجل توفير الحماية لمداخل البحر الأحمر من الشمال. كذلك ازداد اهتمام رومة ثم بيزنطة باليمن وبالتحالف مع الأحباش من أجل ضمان مداخل البحر الأحمر من الجنوب، وتجنب احتمال قيام دولة معادية، أو متحالفة مع الفرس، في هذه المنطقة. وقد تحول الصراع السياسي في هذا الشأن إلى صراع مسيحي - يهودي تولى فيه المسيحيون في اليمن إجمالاً الدفاع عن مصالح رومة وبيزنطة، ومال اليهود إلى مناوأة هذه المصالح دائماً، ومخالفة

(١) Rabbath: L'Orient Chrétien.... pp. 141, 142

الفرس أحياناً. وقد بدأ هذا الصراع السياسي بنخذ ملامحه هذه منذ مطلع القرن الرابع، ولكنه وصل إلى ذروته السياسية والدينية في القرن السادس، على ما سنرى لاحقاً.

ولا بد هنا، بعد هذا التحول نحو البحر الأحمر في سياسة رومة حيال تجارة الشرق، من أن نلاحظ أثر هذا التحول في طبيعة «الدول» العربية الوسيطة التي اصطنعتها رومة ثم بيزنطة في بلاد الشام، بعد سقوط تدمر. لقد كانت دولة الأنباط في عصر ازدهار البتراء، ثم في عصر ازدهار بُصرى، وكانت دولة تدمر، دولتين ذاتي طابع عسكري دفاعي وطابع تجاري في آن. وكانت لكل منهما شبكات تجارية تولّت في زمن من الأزمان تسيير تحارة الشرق إلى أسواق رومة، فأدت غرضين كبيرين على الأقل، هما الدفاع عن الحدود الشرقية ثم تنظيم وتسيير التجارة الشرقية. فلما تحولت أنظار رومة بعد سقوط تدمر، صوب طريق البحر الأحمر التجارية، وأقلعت إلى حد بعيد عن الاهتمام بطريق الفرات نحو الخليج، تقلّصت مهام «الدول» العربية الوسيطة في الصحراء السورية، من مهنتي تنظيم الدفاع والتجارة، إلى المهمة الدفاعية وحدها تقريباً، فقلبت عليها الصفة العسكرية. ولعل في هذا تفسيراً لازدهار العمارة ومظاهر الفنى في دولة الأنباط ودولة تدمر، مما لم يظهر في دولتي سلبح وبني غسان في القرنين الخامس والسادس، إذ رجحت في هاتين «المملكتين» صفة الغزو والقوة العسكرية، وضمير إسهامهما في التجارة إلى أدنى الحدود.

ج - القرن الرابع على جانبي الفرات

لم تكن سياسة مراقبة «دول» العرب من كتب إلهاناً يرضوخ البدو للفرس والرومان، وحل مشكلتهم، بل كانت بالأحرى دليلاً على تعاطف هذه المشكلة وخروج الأعراب على الطوق الذي كانت تدمر تحتوهم فيه. ولعل من أهم الظواهر العسكرية في مطلع عصر «البنوثة» الذي سلف ذكره، غزوة عربية كبيرة اجتاحت بلاد الفرس حين كان شهور ذو الأكتاف (٣٠٩ - ٣٧٩ م.) صيفاً في المهد. وقد روى الطبري هذه الغزوة بقوله: «وكانت بلاد العرب أدنى البلاد إلى فارس وكانوا من أخرج الأمم إلى تناول شيء من غنائمهم وبلادهم، لسوء

حالهم وشظف عيشهم، فسار جمع عظيم منهم في البحر من ناحية بلاد عبد القيس والبحرين وكاظمة حتى أناخوا على إيران شهر وسواحل أردشير خرة وأسياف فارس، وغلبوا أهلها على مواشيهم وحرروهم ومعايشهم وأكثروا الفساد في تلك البلاد فمكثوا على ذلك من أمرهم حيناً لا يفرحهم أحد من الفرس لعقدتهم تاج الملك على طفل من الأطفال وقلة هبة الناس له... حتى تمت له ست عشرة سنة وأطاق حمل السلاح وركوب الخيل واشتد عظمه... فأوقع بمن انتجع بلاد فارس من العرب وهم غارون، وقتل منهم أبرح القتل وأسر أعنف الأسر وهرب بقيتهم، ثم قطع البحر [الخليج] في أصحابه فورد الخط واستفري بلاد البحرين يقتل أهلها ولا يقبل فداء ولا يخرج على غنمة، ثم مضى على وجهه، فورد هجر وبها ناس من أعراب تميم وبكر بن وائل وعبد القيس، فافشى فيهم القتل وسفك فيهم من الدماء... ثم عطف إلى بلاد عبد القيس فأباد... ثم أتى اليمامة فقتل بها مثل تلك المقتلة... ثم أتى قرب المدينة فقتل من وجد هنالك من العرب وأسر ثم عطف نحو بلاد بكر وتغلب فيما بين مملكة الفرس ومناظر الروم بأرض الشام فقتل من وجد بها من العرب وسى^(١). وقد أكد غيبون هذه الواقعة إذ نسب الهجمة إلى ملك «بمني أو عربي يدعي ثير» وروى انتقام شهور^(٢).

غير أن العرب عاودوا الظهور في تاريخ الفرس والرومان بعد نحو من عشر سنوات أو ثيف، ضمن جيوش كل من الإمبراطوريتين، عندما شنَّ شهور هجمته على حدود الروم في الجزيرة الفراتية وما يليها، سنة ٣٣٧ م.^(٣) ولعل العرب الذين كلفهم شهور معاونته في حربه الطويلة مع الرومان كانوا من عرب الحيرة الذين استرضاهم لتجنيدهم في جيشه. كذلك اجتمع للرومان في جيشهم عديد غفير من المقاتلين العرب وللانتقام من شهور وما كان من قتله العرب، عل قول الطبري. وقد دخل الرومان عاصمة الفرس طيسفون بمعونة العرب، لكن يُقال إن

(١) الطبري: التاريخ، ج ٢، ص ٦٦، ٦٧.

(٢) غيبون: ج ١، ص ٥٥٣.

(٣) ابن العربي: ص ٨١.

رماة من العرب أيضاً قتلوا الإمبراطور الروماني يولياني (Jovianus) سنة ٣٦١ - ٣٦٣ م.) وهو في عز حملته هذه، فسارع الإمبراطور الحديدي يولياني (Jovianus: ٣٦٣ - ٣٦٤ م.) إلى مهادة شهور وتسليمه نصيبين. ونسب إلى العرب أنهم قتلوا يولياني لأنه أوقف دفع الأعطيات إلى زعماء قبائلهم، وقال مقاتله الشهيرة التي أودت به: «الإمبراطور الشجاع المقدم قوته في الحديد لا الذهب»^(١).

ويذكر المؤرخ أميانوس مارسلينوس أن يولياني لما بلغ الفرات ليلحق بالأسطول الذي بناه هناك ويسير لمحاربة الساسانيين وينقل جيشه إلى حيث يلاقي جيشهم، قَدِمَتْ له قبائل عربية فروض الطاعة، وأضاف قوله: «إلا أن هؤلاء أناس لم يكونوا يُعرفون هل هم أعداء أو أصدقاء، ولذا صر الروم على حلب شديد منهم، خشية الانقلاب عليهم عند الشدائد»^(٢).

ويستدل من هذه الروايات عن تلك الحرب التي استمرت من سنة ٣٣٧ إلى سنة ٣٦٣ م.، أن مشكلة الإمبراطوريتين مع القبائل العربية لم تسَل في القرن الرابع، وإن تبدلت سياستها حالها. فالقبائل العربية كانت تحارب إلى جانب كلا الفريقين، لكنها لم تكن معقوفة الولاء لأي منهما، إلا فيما تقتضيه مصلحتها. وقد درج المؤرخون في ذلك الزمن، وبخاصة الرومان والبيزنطيون وعلى رأسهم أميانوس المذكور، على وصف القبائل العربية بالخدر وما شابه، لأن الرومان ومن بعدهم البيزنطيون كثيراً ما كانوا يحجزون بوسائلهم عن حماية الحدود، فيضطرون إلى استنحاد قبائل العرب، ويتوقعون من هذه القبائل أن تهدبهم النصر، ثم تُقبل مختارة على الرضوخ والخضوع لتلك الدولة التي ما انتصرت إلا بفضلهم. ولذا راوحت سياسة رومة ثم بيزنطة، وسياسة الفرس

(١) الطبري: التاريخ، ج ٢، ص ٦٧ - ٧٠. وابن العربي: ص ٨١، ٨٢. وسب امر العربي

قتل يولياني إلى الفرس وحالهم الآخرون. وغيبون: ج ٢، ص ٨٨. وجواد علي: ج ٢،

ص ٦٤١ - ٦٤٣. وانظر أيضاً: Trimmigham, Christianity among... p. 94.

(٢) جواد علي: ج ٢، ص ٦٤٢، ٦٤٣.

كذلك، بين التردد للعرب واسترضاء قبائلهم تارة، والحق عليهم ومحاربتهم طوراً^(١).

ولم تكن النظرة إلى العرب في الجانب الغربي والجنوبي من الصحراء السورية مختلفة. وقد وظب الرومان طوال هذا القرن الرابع على محاولة تحسين دفاعهم في حوران وشرق الأردن وفلسطين من أجل ضمان خطهم التجاري عبر البحر الأحمر. وفي سنة ٣٥٨ م.، كان جنوب فلسطين كله قد اقتطع ليشكل منطقة إدارية على حدة وكان يسكنها العرب وحدهم ويقيم قائدها في الخُلصة، جنوب بئر السبع. كان معظم السكان في هذه المنطقة من البدو، لكن بعض مدنها كانت كبيرة نوعاً، ومنها الخُلصة نفسها وأهله والبتراء. وضمت المنطقة كذلك قرى زراعية عديدة^(٢).

وشهدت هذه المنطقة في النصف الثاني من هذا القرن، وعلى وجه الدقة بين ٣٧٥ و ٣٧٨ م. ^(٣)، حرباً كبيرة يشبها بعض المؤرخين بحرب تدمر على رومة. ذلك أن قائد هذه الحرب وهي امرأة تُدعى «ماوية» تولت زعامة القبائل العربية بعد وفاة زوجها، وجمعت من حولها عرب المنطقة، وشنت حرباً ظالمة على جيوش رومة، بعد ما يزيد قليلاً على مائة سنة، منذ الحرب التدمرية. وقد أفرد شهيد في كتابه: «بيزنطة والعرب في القرن الرابع» صفحات كثيرة لإمطة اللثام عن تاريخ هذه الملكة العظيمة. واشتبه في احتمال أن يكون زوجها أو تكون هي نفسها من أسرة امرئ القيس صاحب نقش النمار، لقيام سلطانها شرقي حوران في الأصل. لكنه لم يستبعد أن تكون ماوية هي أرملة الحواري، آخر الملوك التنوخيين المذكورين في المصادر العربية الإسلامية. وقدّر أن مُلكه كان قائماً سنة ٣٦٠ م. حتماً، وربما كان قبل ذلك^(٤). وقد بدأت ماوية ثورتها المسلحة على رومة بعد موت زوجها. لكن هذه الثورة التي امتدت إلى شرق

الأردن وفلسطين وفنطقة اللبنانية (أي الصحراء السورية غرب الفرات)، ومصر، وقطعت خطوط التجارة الرومانية إلى مداخل البحر الأحمر، لم تتخذ مع ذلك طابع حرب تجارية^(٥)، بل ظلت في كل مراحلها حرباً دنيئة الحوافز والأغراض على ما يبدو. فكانت ماوية من أنصار مجمع نيقية في شأن الإيمان المسيحي، فيما كان الإمبراطور فالنس (Valens) أريوسياً. فلما انتصرت على جيوش رومة فرضت شروطها للصلح، ومنها تعيين الراهب موسى أسقفاً على العرب. ولم تتضمن الشروط الأخرى ما يوحي أن المسائل التجارية أو الولوح إلى البحر الأحمر، موضع نزاع في هذه الحرب^(٦). هذا على المدخل الشمالي إلى البحر الأحمر. أما على المدخل الجنوبي فكان الوضع مختلفاً.

- د - القرن الرابع في اليمن

بدأ القرن الرابع في اليمن باجتياح حبشي. وتختلف تسميات المصادر للملك الحبشي الذي كان النزول في اليمن في أيامه. فمن قاتل إن اسمه خذبه^(٧)، ومن قاتل إنه شمر بهر عش^(٨). وقد يكون غذيب هو ملك الحبشة الذي استعان به شمر ذو ريدان بين سنتي ٣٠٠ و ٣٢٠ م.، حتى قهام ثورة يمنية ضد الأحباش، قادها ملك سبأ الشرح (بحضب، سنة ٣٢٠ م؟) وملك كندة، فاستدعت تدخّل امرئ القيس بن عمرو، وهو التدخّل الذي ذكره هذا الملك متفاخراً على شاهد قبره في النمار. وعلى رغم صعوبة الوصول إلى رأي قاطع في شأن التواريخ الدقيقة والأسماء، بما يتوافر إلى الآن من عناصر البحث التاريخي الذي يتناول هذه الحقبة من تاريخ اليمن، إلا أنه لا شك في أن الحبشة في ذلك العهد كانت على صلات حسنة بالرومان من ناحيتين السبئية والتجارية. ولذا لا يُستبعد أن يكون الإمبراطور قسطنطين الأول قد أوعز إلى

(١) Ibid., p. 149.

(٢) Ibid., pp. 142, 143. وانظر أيضاً جواد علي: ج ٣، ص ٣٩٥ - ٣٩٧.

(٣) جواد علي: ج ٣، ص ٤٥٥. وحمل ترجمته تاريخ المدخل الحبشي هذا في اليمن بين

٢٧٧ م. و ٢٩٠ م. أنظر: Trimingham, Christianity among ... p. 36.

(٤) Trimingham: ibid., p. 94.

(١) Shahid: Byzantium and the Arabs..., pp. 239 - 283.

(٢) Trimingham: Christianity among..., p. 89.

(٣) Shahid: Byzantium and the Arabs..., pp. 183, 184.

(٤) Ibid., pp. 141, 142.

حليفه العربي امرى القيس أن يهت إلى نصرة النفوذ الحبشي والبيزنطي في المحنة التي ألمت به^(١). وفي هذا الأمر تقدّر مخالف لرأي جواد علي الذي ارتأى احتمال اصطدام امرى القيس بشمر بهر عش^(٢)، وهو احتمال ضعيف، بل مستبعد، لأنه لا يأخذ في الحسبان المحالفة الثلاثة بين امرى القيس وبيزنطة والأحباش في ذلك العصر.

ويعتقد ريكمنس أن الأحباش عاودوا احتلال اليمن نحو سنة ٣٣٥ م. ودام احتلالهم حتى سنة ٣٧٠ م.^(٣) وفي أثناء هذه المرحلة من الحكم الحبشي تنصّر ملك الحبشة عيزانا، على يد المبشر فرومونتوس (Frumentius) الذي أوفده الإمبراطور قسطنطينوس (Constantius) الثاني (٣٣٧ - ٣٦١ م.)، في المقد السادس من ذلك القرن. وفرض الملك الحبشي النصرانية على الأحباش وأعلنها ديناً رسمياً لمملكته ولليمن. وقد نصّر ثيوفيلس (Theophilus) اليميني في سنة ٣٥٤ م. تقريباً، أي في زمن تنصّر الحبشة، وأنشأ كنيسة في ظفار. وصار رئيس أساقفة ظفار يشرف على الكنائس التي أنشئت في اليمن ومنها كنيسة في نجران وكنائس أخرى انتشرت حتى الخليج. وذكر فون فيسمان أن الملك اليمني ذمر علي يهر الذي حكم جُمَيْر بين سنة ٣٤٠ م. وسنة ٣٦٠ م.، دخل في النصرانية بتأثير من ثيوفيلس. ولكن حفيده ملكيكرب بها من ثار على الأحباش في أوائل الربع الأخير من ذلك القرن وطردهم من اليمن. وقد لوحظ أن معبداً لآلهة سبأ القديمة قد أهمل سنة ٣٧٨ م. تقريباً، فارتؤي أن الناس أخذوا منذئذ ينصرفون

(١) ذكر جواد علي تفسيراً مغفولاً لانقلاب امرى القيس من مملكته التي أنشأها في الحيرة، إلى الولاة الروماني - البيزنطي، فقال إن بعض الباحثين يرون أن امرأ القيس كان من حزب بهرام الثالث الفارسي فلما وقع الخلاف بين الفرس على العرش وانتصر نرسي خرج امرؤ القيس من العراق وقصد بلاد الشام ومال إلى الروم فأقرّوه على حرب بلاد الشام. أنظر جواد علي: ج ٣، ص ١٨٩.

(٢) Ryckmans, J: L'Institution Monarchique en Arabie Méridionale avant l'Islam (I) Louvain, 1951, p. 338.

(٣) Ryckmans: ibid وكذلك جواد علي: ج ٢، ص ٥٥٣، ٥٦٩. وصالح أحمد العلي، ص ٧٨.

إلى المسيحية أو اليهودية^(٤). ولم يُعرف الدين المحدد لأن اليمينيين أخذوا يتعبدون للإله «ذسموي»، وهو رب السماء. إلا أن المعروف أن أبا كرب أسعد ابن الملك ملكيكرب بينهم، دخل في اليهودية. وقد عُرف عند الإخباريين الإسلاميين باسم أسعد تُبَع، وقيل إنه نشر اليهودية بين اليمينيين^(٥).

ونميل إلى ترجيح صحة روايات الإخباريين الإسلاميين في هذا الشأن، لأن ثورة ملكيكرب بينهم على الأحباش ونهوض ابنه أسعد تُبَع، يتفقان مع سياق التاريخ اللاحق على ما سئرى في القرنين الخامس والسادس. ففي القرن الخامس أخذت تظهر بوضوح علاقة اعتناق المسيحية بالولاة الساسي للحبشة وبيزنطة، وعلاقة اليهودية بمناهضة هذا الولاة. وفي القرن السادس وصل الصراع بين المسيحية التي ساندتها الحبشة وبيزنطة، وبين اليهودية التي كانت تسعى إلى مساندة من الفرس، وصل هذا الصراع إلى ذروته للسيطرة على اليمن، المدخل الجنوبي للبحر الأحمر. وسنعرض لهذا في حبه.

هـ - القرن الخامس في اليمن:

يعتقد العرب أن جُمَيْر كانت تعبد الشمس إلى أن تغلب الملك سليمان على بلقيس، فتحوّل أهل اليمن^(٦). لكن ثمة معتقدات عربية أخرى تحظى بإسناد تاريخي أفضل، ومفادها أن اليهودية اعتنقت في اليمن في مطلع القرن الخامس، أيام أسعد تُبَع. ويقول الأندلسي إن الملك الحميري دعا اليمينيين إلى اتباع اليهودية، «فاتفقت حمير على اليهودية من ذلك الزمان وهدموا بينهم الذي كانوا يعبدونه»^(٧). ويروي ابن هشام في سيرة النبي قصة مرور تُبَع بمكة وطوافه

(١) Von Wasmann: op.cit., p. 498. وانظر أيضاً: جواد علي: ج ٢، ص ٥٦٥، ٥٦٦، ٥٥٣.

(٢) ١٥٦٩ و ج ٣، ص ٤٥٦.

(٣) Von Wasmann: op.cit., pp. 461, 492, 493. وكذلك جواد علي: ج ٢، ص ٥٦٦، ٥٦٧.

(٤) ٥٦٩.

(٥) ابن سعيد الأندلسي: نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، تحقيق صرحت عبد الرحمن.

(٦) مكتبة الأقيص، ص ١٩٨٢، ص ٧٥.

(٧) الأندلسي: نشوة... ص ١١٩.

بالبیت وأنه أول من كسا البيت وأوصى به ولأته من جرهم، وأمرهم بتطهيره... وجعل له باباً ومفتاحاً. وهي رواية شبيهة برواية الأندلسي في نشأة الطرب^(١). ومما لا شك فيه أن ما بينته الأبحاث التاريخية من علاقة لليمنيين بنجارة قريش في القرن السادس، يعزز أسباب تصديق هذه الرواية، وإن كان الإخباريون قد أضافوا لتجميلها ما لا يلزم قبوله بالتفصيل. وبينت الكتابات الأثرية أن تبع وابنه حسان يهاجم جرداً حملة على أرض مَعَد، ساهم فيها جمع من كندة، واستطاع تبع أن يُبَلِّغ ملكة البحر الأحمر والمحيط الهندي وجنوب نجد، وربما استولى أيضاً على جزء كبير من الحجاز^(٢). ولا تفصح المصادر الإسلامية عن مواقف خلفاء أسعد تبع من الصراع على اليمن. غير أن حسان بن تبع وأخاه حمراً لا يبدیان تبديلاً لسياسة والدهما الذي اعتنق اليهودية ولذا كان مناهضاً للحبشة. لكن عبد كلال بن ماثب الذي خلفهما كان، على قول الطبري^(٣)، «على دين النصرانية الأولى وكان يُبَسِّر ذلك من قومه». وكان الذي دعاه إليه رجل من حسان قدم عليه من الشام فوثبت حمير بالغساني فقتلته». ويوحى قول الطبري هذا، أن حمير كانت لا تزال على دين اليهودية الذي اعتنقته في عهد تبع، وأن محاولات سرية ربما بُذلت لتبديل دين الملك اليمني، بمعوة عربية نصرانية، وربما بإيعاز بيزنطي، دون جدوى. غير أن خليفة عبد كلال، تبع بن حسان أرسل، على ما يقول الطبري، جيشاً عظيماً إلى بلاد مَعَد والحيرة وما والاها، فسار إلى النعمان بن امرئ القيس فقاتله فقتله فقتل النعمان وهُزِم أصحابه^(٤). وبذلك تكون هذه الحوادث على مقربة من سنة ٤٣٠ م. وقد أبدى الطبري في جده سني مُلك المناذرة في هذا القرن دقة مذهشة توحي الثقة في روايته هذه. ويحفظنا على

(١) ابن هشام: سيرة النبي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٣٧، ج ١، ص ١٩ - ٢١.

(٢) جواد علي: ج ٢، ص ٥٧٤، ٥٧٥.

(٣) الطبري: التاريخ، ج ٢، ص ٨٦. ويشير هذا القول شكاً لأن زمن عبد كلال سبق عهد الغساسنة في الشام. لكن كون مُنصر عبد كلال غسانياً ليس مسألة خطيرة في هذا السياق، ولا يتبدل من الأمر كثير إذا كان الرجل المذكور من غير حسان.

الاشتباه بأن غزوة تبع بن حسان هذه للحيرة، إنما كانت صراعاً بين اليمن والحيرة، بالوكالة عن الحبشة (ومعها بيزنطة)، والفرس قول الطبري إن بهرام الخامس ملك الفرس (٤٢٠ - ٤٣٨ م)، «بعد فراغه من أمر... ملك الروم، مضى إلى بلاد السودان من ناحية اليمن، فأوقع بهم، فقتل منهم مقلنة عظيمة وسبى منهم خلقاً ثم انصرف إلى مملكته^(١)». ولا شك في أن تاريخ هذه الغزوة الفارسية لليمن يحتاج إلى تدقيق لمعرفة سنوات حكم الملوك وسنوات غزواتهم وخروجهم، وهي سنوات تشكو كثيراً من الاضطراب، ولا بد هنا من تناولها بالتحفظ الشديد. على أن الأمر الذي يمكن الركون إليه بعض الاطمئنان هو أن اليمن كان مداولة بين المسيحية واليهودية وبين الحبشة حلفاء بيزنطة وحمير تسانداها الفرس أحياناً^(٢). وفي بعض الحالات، بل ربما في كثير منها كان الأحباش يقسمون اليمن مع الحميريين، فلا يقدر أحد منهما على طرد الثاني من ملكه هناك. وكان ذاك الحال سنة ٤٦٠ م. إذ كان الأحباش يحتلون بقعة ضيقة من اليمن يحاربون منها حكومة حمير، وهي القبة الباقية من عهد الاحتلال السابق^(٣). وظلت اليمن مداولة بين حمير والحش حتى ظهور الإسلام. وكان القرن السادس فصلاً من أهم فصول هذا النزاع. وستأوله في حبه.

٥- القرن الخامس في فلسطين

أما في فلسطين، فقد ظلت تجارة بيزنطة تصل بلا عقلت تذكر عبر البحر الأحمر حتى حاود أحد سادات الفاتل واسمه امرؤ القيس (أو عمرو بن قيس)، سيرة سببها صاحب النقش الشهير في النمار، فانتقل من أرض دولة الفرس إلى المقاطعة العربية، حتى بلغ البحر الأحمر واستولى على جزيرة يوتابه (أي تيران عند مدخل خليج العقبة) وهي جزيرة مهمة كان الروم قد اتخذوها مركزاً لجمع الضرائب من السفن الآتية من المناطق الحارة الصحراوية إليها. وكانت تلك مجلبة أرباح عظيمة للخزينة البيزنطية. فلما استولى امرؤ القيس على يوتابه، طرد الحجة

(١) الطبري: التاريخ، ج ٢، ص ٨١.

(٢) الأندلسي: نشأة...، ص ١٥٣. وكذلك جواد علي: ج ٢، ص ٥٨٢، ٥٨٣.

(٣) جواد علي: ج ٢، ص ٥٨٥.

البيزنطيين، وصار يجبي المكوس لنفسه، وجمع ثروة عظيمة، حتى استطاع أن يوسع ملكه ويغزو أعالي الحجاز والمقاطعة العربية الرومانية، بل مناطق النفوذ الساسانية. ولما بلغ امرؤ القيس من القوة مبلغاً، أراد أن يفادى الروم ليعترفوا به ويتحالفوا معه. ويشير ملخوس (Malchus) الفيلادلفي إلى أن الإمبراطور الذي فادى امرؤ القيس هو الإمبراطور ليو (Leo: 457 - 474 م). ونجعل التقديرات الحديثة لتاريخ استيلاء امرؤ القيس على الجزيرة على مقربة من سنة 470 م. أما سمع إلى الإمبراطور ليو ففي سنة 473 م^(١). وقد أوفد امرؤ القيس رجلاً من رجال الدين اسمه بطرس إلى القسطنطينية ليعرض على الإمبراطور رغبته في التنصر واعتراف بيزنطة به عاملاً على العرب في المقاطعة العربية، ثم قابل ليو بنفسه فأكرمه الإمبراطور ومنحه لقب عامل (بلارخ) على الأرض التي استولى عليها. ويظهر من تاريخ ثيوفانس (Theophanes) أن يوتابه كانت في سنة 490 م. في أيدي الروم، استولى عليها حاكمهم في فلسطين بعد قتالٍ شديد. وبدل هذا على أن الروم استردوا الجزيرة من امرؤ القيس أو خلفائه بعد سنوات قليلة، وبذلك عاد مدخل البحر الأحمر الشمالي إلى حوزة بيزنطة.

وقد أثبت شهيد أن القبائل التي قاتلتها بيزنطة لاسترداد يوتابه هي قبائل الغساسنة التي كانت لتوها قد دخلت فلسطين من الحجاز، وأخلت تحاول فرض نفسها على الإدارة البيزنطية للحلول محل بني سليح الفجاعة في ترؤس العرب ضمن نطاق النفوذ البيزنطي. وجعل دخول الغساسنة أرض فلسطين ما بين

(١) لم تسن لدى كتابة هذا البحث مطالعة كتاب شهيد: Byzantium and the Arabs in the Fifth Century, Dumbarton Oaks, Washington, D.C., 1989. ويتضمن هذا الكتاب إشارات مفيدة جداً لبعض المسائل التي أشير إليها في هذا الباب. وقد حرصنا على ألا يتناقض ما في بحثنا مع ما جاء به كتاب شهيد هذا الذي اصطلاحنا على تسميته بحجارة Shahid: Byzantium (Sc.)، لتمييزه من كتابه الأول في هذه السلسلة الجليلية: Byzantium and the Arabs in the Fourth Century. وفي شأن استيلاء امرؤ القيس على يوتابه انظر جواد علي: ج ٢، ص ٦٥٣ - ٦٥٥. وكذلك Devroese, Robert: Arabes-Persees et Arabes-Romains Lakh, ١٩٥٥.

٤٨٤ م. و٤٩٤ م. وهو ما اصطُِّلح على اختصاره سنة ٤٩٠ م. تقريباً^(٢).

ولوحظ أن حقبة تولي بني سليح الجمالة البيزنطية في المقاطعة العربية وفلسطين لم تُحَظْ بدراسات كافية عند الباحثين. على الرغم من امتداد هذه الحقبة نحو قرنٍ إذ بدأت في سنة ٤٠٠ للميلاد تقريباً^(٣)، وانتهت سنة ٥٠٢ م^(٤).

ونلاحظ أيضاً أن ستة حوادث خطيرة حدثت منها اثنان في العقدين السابع والثامن من القرن الرابع، والأربعة الأخرى في أواخر القرن الخامس الميلادي، فحظيت باهتمام متفاوت لدى الباحثين. ولكن كلاً منها بُحِثَ على حدة، ولم يحاول الباحثون إدراجها معاً في سياقٍ موحدٍ من الأحداث، على الرغم من احتمال تقدّم كبير في تاريخ العرب قبل الإسلام، لو لحظت هذه الحوادث معاً، وهي:

- ١ - حرب ماوية على الروم، في حدود ٣٧٥ - ٣٧٨ م^(٥).
- ٢ - تولي بني سليح الجمالة البيزنطية على العرب سنة ٤٠٠ م. تقريباً.
- ٣ - استيلاء امرؤ القيس على جنوبي فلسطين بين ٤٧٠ و ٤٧٣ م.
- ٤ - دخول الغساسنة أرض فلسطين وبلاد الشام نحو سنة ٤٩٠ م.

مدرس et Ghannouchi, Revue Biblique, II (1942), pp. 269, 270. ولا يتوخى دهرس طوم

امرؤ القيس هذا ويصفه بأنه «غير نبيل». راجع للمطالعة: (Sc.) Shahid: Byzantium. وخصوصاً الصفحات ٥٩ - ٩١.

(١) الأندلسي: نشرة... ص ١٧٧. وكذلك، Arabica, X (1963), p. 5. before Islam, Arabica, X (1963), p. 5. V (mai, 1958, 2), pp. 150, 152. cf. Von Ornenbaum. GE: The Nature of the Arab Unity

(٢) رأى شهيد في: The Last Days of Saffi, أن بداية صلاة سليح كانت في عهد الإمبراطور المنس (٣٦٤ - ٣٧٨ م)، لكنه يميل الآن إلى حمل هذه البداية سنة ٤٠٠ م. تقريباً. انظر: Shahid, The Last..., op. cit., p. 147.

(٣) Shahid, Irfan: Ghannam and Byzantium. A New terminus a quo, Der Islam, XXXIII (1958), pp. 232 - 235.

(٤) Shahid: Byzantium and the Arabs..., p. 184.

٥ - عودة الإدارة البيزنطية إلى يوتابه وجنوب فلسطين نحو سنة ٥٠٠ م.

٦ - زوال إمالة بني سليح وانتقالها إلى الفساسة، سنة ٥٠٢ م.

ويزيد من الحاجة إلى إدراج هذه الحوادث ضمن سياقٍ معاً أنها حدثت في إطار جغرافي واحد هو فلسطين وشرق الأردن. فإذا جُمع الحدثان الأولان فإنهما يطرحان سؤالاً لم يُجِب عنه الباحثون بعد: إلى من كانت تنتمي ماوية؟ ويبحث الباحثون إلى نسبتها إلى اللخمين أو التنوخين، لكنهم لم يطرحوا احتمال كونها من بني سليح.

وإذا نُظِر في الأحداث الأربعة الأخيرة لأمكن طرح غير سؤال، قد يكون الجواب عنه مفيداً جداً في جلاء كثير من الغموض عن تاريخ بني سليح وبده عهد الفساسة، وعلاقة ذلك بخطوط التجارة والصراع عليها. فما كانت علاقة بني سليح بامريء القيس، وهل كان الفريقان على تنافس أم تحالف. وهل دخل الفساسة في الصراع من ضمن إطار زعامة امريء القيس، أو خلفائه الذين فقدوا يوتابه، وهل كانت غاراتهم على فلسطين وشرق الأردن، رداً على استعادة البيزنطيين للجزيرة، وهل كان إسناد بيزنطة لبني سليح في مواجهة الفساسة، ضمن خطة بيزنطة لمحاربة امريء القيس ومحاولة استرداد يوتابه؟

إن هذه جميعاً لا يسهل الرد عليها إذا لم يُنظر في المصادر، في محاولة لرؤية هذه الأحداث المذكورة آنفاً، ضمن سياق موحد، طالما أنها حدثت في المكان ذاته، والزمان ذاته تقريباً. وقد يؤدي هذا الأسلوب في إعادة بحث تاريخ هذه الفترة، إلى إثارة جزء مهم، لا يزال غامضاً من تاريخ خطوط التجارة الشرقية، ومن تاريخ بني سليح، ورد فعل القبائل العربية على السياسة الرومانية البيزنطية، التي أدت إلى زوال مملكة الأنباط في القرن الثاني للميلاد، ومملكة تدمر في القرن الثالث للميلاد.

الفصل الثالث

الأحوال الدولية في القرن السادس

أولاً: الحرب في صحراء الشام وجوارها

١ - سياسة الحدود في القرن السادس

لاحظ دارسو القرن السادس في بلاد الشام أن دولتي الساسانية والفرس اللتين حلّتا محل تدمر والحضر، مناطق عازلة بين بيزنطة والفرس، لم تؤد بها سوى المهمة العسكرية. ولم يكن لهما إسهام كبير في تنظيم قوافل التجارة الدولية بين الشرق والغرب^(١). كانت بيزنطة لا تزال ترى أن العدو الأكبر هو دولة الفرس، التي أحدثت على الدوام للبيزنطيين أحوالاً مقلقة على امتداد الحدود الطويلة بينهما. فكان لا بد من إضعاف هذا العدو، وتدمير تجارته الدولية باتخاذ طرق التجارة المارة في غرب جزيرة العرب^(٢). وقد تميّزت العلاقات بين الإمبراطوريتين في قرون، بالمراوحة بين الحرب الشاملة والسلام، فتوقفت التجارة بينهما واستعيد تدفقها مرات وفق الأحوال. لكن القرن السادس تميّز عما سبقه بحروب شبه مستمرة بينهما، فأدى هذا الأمر إلى ركود الخط التجاري من الخليج إلى صحراء الشام عبر الفرات، وفقدت المنطقة صفتها التجارية، وبقيت لها الصفة الحدودية العسكرية، فكان تحويل طريق تجارة الشرق إلى غرب الجزيرة العربية أو البحر الأحمر أمراً لا مفر منه. ولم يكن هذا التحويل مسألة سهلة، ولذا لم تنأس بيزنطة من احتمال تعزيز موقعها التجاري باستعادة منطقة ما

(١) Crone: op.cit., p. 45

(٢) Devroesse: op.cit., p. 274

بين النهرين. أما الفرس الذين كان تحويل التجارة الدولية إلى غرب الجزيرة العربية يُفقدتهم عنصراً مهماً من عناصر قوتهم، فكانوا يتطلعون على الدوام إلى سورية ومصر، لاستعادة أمجاد داريوس، ومعها السيطرة على المنفذ الآخر لخطوط التجارة الشرقية الآتية من الجنوب^(١). وكانت هذه هي حوافز الدولتين في حربهما طوال القرن السادس. لقد سعى كل منهما إلى تعزيز قبضته على طرق التجارة، وكانت سورية هي ملتقى جميع الطرق المتاحة، ولذا كانت مركز الصراع الأول بين القوتين^(٢). وقد كان لهذا النزاع في القرن السادس أثره في جميع المجتمعات العربية من أقصى شمال الصحراء السورية إلى أقصى جنوب جزيرة العرب^(٣). وكان الحرير في ذلك القرن قد أصبح واحداً من أهم عناصر التجارة الشرقية وأثمنها، حتى أخذ احتكار الفرس لتجارته يثير قلق بيزنطة ورغبتها في البحث عن حل، فيما كانت تجارة مصر عبر البحر الأحمر قد انحطت، وما كان في إمكانها أن تكون هي الحل^(٤). كانت بيزنطة تستورد الحرير بمال الخزينة لصناعتها، ولا تترك لصناعة النسيج الخاصة إلا ما ينقص عن حاجتها. وكانت معظم مكاسب الفرس من هذه التجارة تُنفق على الجيش الساساني. ولذا حاول جستنيانوس (Justinianus: ٥٢٧ - ٥٦٥ م.) أن يقلص هذه المكاسب، فجعل سعر الرطل من الحرير خمس عشرة قطعة من الذهب، وردّ عليه الفرس بتقليص المبيعات. وعاود جستنيانوس تخفيض السعر إلى ثمانين قطع ذهباً، فافلس النسيج وأضحت صناعة نسيج الحرير حكراً على الدولة البيزنطية. وعلى الرغم من أن شرنقة الحرير قُرِبت سراً إلى بيزنطة سنة

(١) Rodinson: op.cit., p. 26. وتحدث ميلر عن انقطاع طريق الفرات التجارية زمن الحروب

وتحوّلها إلى الشمال أو الجنوب. Miller, p. 32.

(٢) Charlesworth pp. 35 - 56. وكذلك Miller, p. 120. وكلاهما يصف الشام بأنها ملتقى طرق

التجارة بين الشرق والغرب. وفي هذا أيضاً انظر Chapot, Victor: le monde romain، ذكره:

Rabbath: L'Orient Chrétien..., op.cit., p. 68.

(٣) الدوري، عبد العزيز: مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، دار الطليعة، الطبعة الرابعة،

بيروت، ١٩٨٢، ص ٩.

(٤) غيبون: ج ٢، ص ٤٢٧.

٥٥٢ م. أو بعدها بقليل، إلا أن الإنتاج البيزنطي لم يأخذ مداه قبل القرن السابع، وظلت تجارة الحرير عظيمة الشأن طوال القرن السادس^(١)، وكذلك تجارة المواد الأخرى.

ولهذه الأسباب ظل جوهر الصراع بين الدولتين تجارياً في جانب أساسي منه، لكن الاستعانة بالوكلاء العرب على جانبي الحدود انحسر عن الوكالة التجارية وانحصر في الدور العسكري. فواصلت الدولتان اتخاذ حلفاء من البدو أو أشباه البدو رأس حربته في الصراع، فأسبغت على الحليف ألقاباً وأمدتاه بالسلح والمال وأحياناً بالحماية السياسية والوصاية العسكرية. وكانت الوضائع، على قول أبي البقاء^(٢)، وحدات عسكرية فارسية من الأساورة، تعدادها نحو من ألف مقاتل، يرسلها إمبراطور الفرس إلى الحيرة، فتمكث في الحيرة سنة، وتبدل بعدها بألف آخرين. وكان هؤلاء يعضدون ملك الحيرة على رعيته ويضمنون ولاءها له وولاءه لدولة الفرس. وكان الروم يعضدون كذلك، فيقالبون القبائل العربية القوية على حكم القبائل الأخرى لسيطرتهم على المناطق الحدودية، حيث لا يستطيعون أداء المهمة بقوتهم الذاتية. ولم تكن دولتنا المناذرة والفسانة مناطق هائلة فقط، ولا كانتا دولتي مقاومة ومحاربة عسكرية فحسب، بل كانتا مرحلة انتقالية بين حالي الحضارة والبداءة أيضاً، ومطبقاً لتسلل نفوذ الدولتين إلى داخل جزيرة العرب، عبر العقيدة الدينية والمذهبية التي استُخدمت على نطاق واسع للأغراض السياسية في هذا القرن السادس^(٣).

(١) Rabbath: L'Orient Chrétien..., pp. 68 - 69، و Smith op.cit., p. 426، وانظر كذلك:

الشرقي: مكة والمدينة... ص ١٥١ - ١٥٣، وحواد علي: ج ٤، ص ١٦٩ - ١٧١.

(٢) أبو البقاء، هبة الله الحلبي: الصائب الزيدية في أخبار الملوك الأسدية، تحقيق صالح موداعة

ومحمد خريسات، مكتبة الرسالة الحديثة، ص ١٩٨٤، ج ١، ص ١٠٦، ١٠٧. وانظر

أيضاً، Kuter, M J: Al-Jahsh, some notes on its relations with Arabia, Arabica XV (1968),

p. 167, cf. Lewis, Bernard The Middle East and the West, Harper and Row, New York,

Shahed Byzantium ص ١١ - ١٢، كذلك حواد علي: ج ٥، ص ٤٢١. وانظر أيضاً Shaded Byzantium

(Sc.), pp 82, 83.

(٣) Jahriell: op.cit., p. 18 (٢)

ب - ظهور بني غسان

كانت الأوضاع العسكرية في بلاد الشام أواخر القرن الخامس سائبة. إذ خلت بادية الشام بين حوران والفرات أي على امتداد خمسمائة كيلومتر، من أية جيوش بيزنطية، وتخلّى الروم عن الحزام الحصين الممتد بين دمشق وتدمر، وهو المعروف باسم سراط ديوكلسيانوس. لم تعد تدمر آنذاك سوى تجمع يتحصن خلف الأسوار، ويخشى فتح أبوابه تحسباً لهجمات البدو. وخلت المواقع التي كانت قبل قرن تحرس الحدود على طول نهر الفرات حتى قصر الحير، خلت تماماً من الجند. وتراجعت الحدود البيزنطية إلى مثلث الرقة وسورة والرصافة. أما خط الخابور فضُفّ عنه الدفاع وتخلّى البيزنطيون عنه مثلما تخلوا عن سراط ديوكلسيانوس الذي يشكل هذا الخط امتداداً له نحو نهر دجلة. وتراجعت خطوط الدفاع البيزنطية إلى الشمال الغربي فامتدت من قلعة المضيق شمال غرب حاة إلى باشان فسروج، ودعصها خط ثان يمر في الرها وعامد وشمشاط. ولم يكن الدفاع عن هذه المنطقة محكماً على الإطلاق. فعلى امتداد ثلاثمائة كيلومتر بين النهرين، لم يكن البيزنطيون ولا الفرس يعرفون الحدود تماماً. بل كانوا يقيمون هنا وهناك مباني يسكنها بعض البدو فيستونها خطأ دفاعاً^(١).

في هذه الظروف العسكرية، استطاع بنو غسان، وكانوا لتوهم قد دخلوا بلاد الشام آتين من شمال الحجاز، أن يفرضوا سلطانهم على بني سليح وكلاء الروم، ثم على الدولة البيزنطية نفسها، التي أوكلت إليهم مهمة الخفارة العسكرية لحوران وشرق الأردن وبعض فلسطين، بعدما كانت الخفارة في يد بني سليح الفصاعمة. وبيّنت دراسات حديثة أن ظهور الملوك الغساسنة، بعد دخولهم أرض الشام كان في نحو سنة ٤٩٠ م.، فيما عُقدت المحالفة بينهم وبين الدولة البيزنطية سنة ٥٠٢ م.^(٢) على ما أسلفنا آنفاً.

(١) Devreesse: op.cit., pp. 270, 272, 273.

(٢) Shahid: The Last Days...; and Ghassan and Byzantium... (١٩٥٥) و انظر أيضاً (١٩٥٥) Byzantium p. 284 sqq. ويعمل صالح أحمد على دخول الغساسنة فلسطين سنة ٤٩٧ م. انظر صالح أحمد علي، ص ٥٧.

وكانت سليح على ما تزويه المصادر العربية الإسلامية، يجيئون من نزل بساحتهم من مضر وغيرها للروم. ويقول ابن حبيب «إن غسان أقبلت في جمع عظيم يريدون الشام، حتى نزلوا بهم، فقالت لهم سليح: إن أقررتكم بالخرج وإلا قاتلتاكم. فأبوا عليهم فقاتلتهم سليح، فرضيت غسان بلداء المخرج، فكانوا يجيئونهم لكل رأس ديناراً وديناراً ونصفاً ودينارين في كل سنة على أقدارهم، فلبثوا بجيئونهم، حتى قتل جدع بن عمرو الغساني جاني سليح فتناذت سليح وغسان كل بشعاره فالتفوا بموضع يقال له «المحفف» فأبارتهم غسان. وخاف ملك الروم أن يميلوا مع فارس عليه، فأرسل إلى ثعلبة زعيم غسان فقال: أنتم قوم لكم بأس شديد وعدد كثير، وقد قتلتم هذا الحي، وكانوا أشد حياً في العرب وأكثرهم عدة، وإن جاعلكم مكانهم، وكاتب بيني وبينكم كتاباً: إن دهمكم دهم من العرب أمددتكم بأربعين ألف مقاتل من الروم يلداتهم، وإن دقمنا دهم من العرب فعليكم عشرون ألف مقاتل على أن لا تدخلوا بيتاً وبين فارس. فقبل ذلك ثعلبة وكتب الكتاب بينهم، فملك ثعلبة وتوجه^(١). وعلى الرغم من أن المصادر الإسلامية تختلف في بعض التفاصيل، فيحمل اليعقوبي القتل من الروم لا من سليح، وسميه البعض سيطاً والبعض الآخر سبطه، إلا أن المصادر متفقة على أن الحلف بين غسان وبيزنطة كان عسكري الطابع، ليس فيه ما يشبه منه أن غسان نظمت شبكة تجارية ما ضمن طرق تجارة بيزنطة الشرقية.

وقد جعلت الدراسات الحديثة ثورة غسان على حكم سليح، ومحملات القبائل العربية على فلسطين فيما يشبه الثورة العامة، سنة ٤٩٧، حين كان ملوك الحيرة يشتون عند منقلب القرنين هجمة على منطقة الفرات السورية. ولم يكن الغساسنة وحدهم يقودون القبائل في جنوب بلاد الشام، بل ظهر زعيم بدوي آخر اسمه الحارث بن عمرو الكندي، أرسل ولده حُمر بن الحارث، ومعه بكر بن

(١) المحبر، ص ٣٧٠ وما بعدها، الأندلسي: نشرة... ص ١٩٩، ١٢٠٠ المخطوطي: ح ٩٠ ص ٢٠٩ و ٢٠٧. وأيضاً ابن حلدون: كتاب المر، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٧، ح ٣، ص ٥٨٣. وحواد علي: ح ٣، ص ٣٩٧، ٣٩٨.

الحارث، على رأس قبائل عربية أخلت نعت في أملاك الروم ونشئ الغارات على جزيرة يوتابه وفلسطين، وفينيقية وسورية سنة ٥٠١ م. دون أن تملك بيزنطة وسيلة حاسمة للرد عليها. وكان لا مفر لإمبراطور بيزنطة أناستاسيوس (Anastasiu)، وقد أخذ الفرس يُعتون العدة لهجوم كبير فيما بين النهرين، من أن يُرضي سنة ٥٠٢ م. صاحبي السلطان الحقيقيين في جنوب بلاد الشام الحارث بن عمرو، وزعيم القبائل الغسانية^(١). فأقر الأول عاملاً لبيزنطة على جنوبي فلسطين ومناطق من سيناء، وعقد مع الثاني الحلف العسكري الذي ذكره الإخباريون، على ما سلف. وقد فهم أن أمن يوتابه والجبهة البيزنطيين فيها والمدخل التجاري إلى البحر الأحمر كان عاملاً مهماً من العوامل التي دفعت البيزنطيين إلى هذه الأحلاف الجديدة، تحسباً لتوقف التجارة الآتية من الفرات، لما كان يُعده الفرس لمنطقة ما بين النهرين. ففي أواخر صيف ٥٠٢ م. هاجم قباذ ملك الفرس (٤٨٧ - ٥٣١ م.) والنعمان الثاني بن أسود ملك الحيرة (٥٠٠ - ٥٠٣ م.)، شمال الصحراء السورية، فحاصر قباذ آمد (دهار بكر)، وتوغل النعمان إلى حرّان واتجه صوب الرها. واضطرت الجيوش البيزنطية إلى الانسحاب من أمام الجيوش الفارسية والعربية، وسقطت آمد في العاشر من كانون الثاني / يناير ٥٠٣ م. ثم اقتديت بالمال. وفي صيف تلك السنة بدأت أحكام الحلف البيزنطي مع الغسانية تُطبق، إذ ردّ المقاتلون الغسانيون حرب الحيرة عن منطقة الخابور وتابعوا هجومهم حتى وصلوا إلى الحيرة نفسها. ولما حاول النعمان من جديد مهاجمة الرها أصيب بجرح مات من جرائه، فعين قباذ أبا يعفر بن حلقة (٥٠٣ - ٥٠٦ م.) خليفة له من غير المناذرة اللخميّين. وبعد حصار الرها في أيلول / سبتمبر ٥٠٣ م. بدأ البيزنطيون هجوماً مضاداً أجبر قباذ على عرض السلم. وفيما كان البيزنطيون والفرس يتفقون على شروط هدنة جديدة، كان العرب المناذرة والغسانية يواصلون القتال. وفي سنة ٥٠٥ م. أنهى قباذ وأنستاسيوس الحرب. وكانت تلك أول حرب خاضها الغسانية في صف بيزنطة^(٢).

(١) Devreesse: op.cit., p. 274. وانظر كذلك: Smith: op.cit., p. 443.

(٢) Devreesse: ibid., pp. 275 - 276.

- ج - حروب الوكلاء العرب

وتُستدلّ من أنباء بعض المصاهرات بين كبراء الحيرة وكندة في أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس، أن الصراع الفارسي البيزنطي ربما أخذ يوغل في داخل الجزيرة العربية من طريق اتخاذ الزوجات، فتروي المصادر أن أسود بن المنذر ملك الحيرة تزوّج ابنة عمرو بن حُجر زعيم كندة، ثم عاود حفيده المنذر بن النعمان (٥٠٦ - ٥٥٣ م.) هذه المصاهرة باتخاذ ابنة الحارث بن عمرو بن حُجر زعيم كندة زوجة له، على الرغم من أن الحارث كان قد تعاهد على حلف مع بيزنطة في أوائل القرن السادس^(١).

وقد وُفق الفرس بملك على الحيرة، بدأ مُلكه سنة ٥٠٦ م. أي سنة بدء نفاذ الهدنة بين قباذ وأنستاسيوس، وهو المنذر الثالث بن النعمان، الذي ملك نحواً من خمسين سنة، وكان رأس الحربة التي شغلت بيزنطة وجيوشها عقوداً طويلة في هذا القرن السادس. وقد كُتب لبيزنطة أبشاً أن تحظى بقاتد عربي كبير على الجانب الفسائي، وهو الحارث بن جبلة الذي ملك أربعمائة سنة (٥٢٩ - ٥٦٩ م.). وقد جعلت صولات هذين الملكين حروب بيزنطة والفرس تبدو في المأثورات العربية حروباً خاصة لهما، لشدة ما احتدم القتال واستمرت حتى المنافسة الشخصية بينهما، بين ٥٢٧ و ٥٥٤ م.

وقد دامت الهدنة بين الإمبراطوريتين من سنة ٥٠٦ إلى سنة ٥٢٤ م. طالما ظلت بيزنطة تدفع أتاوة بالذهب للفرس لقاء حراستهم حدود القفقاز من هجمات الهياطلة^(٢). لكن هذه الهدنة لم تُلزم الغسانية والمناذرة، الذين ظلوا يتبادلون الغارات، إما بمبادرة كانت الدولتان تغضن الطرف عنها، أو بمبادرة كانتا توحيان بها إذا ارتأتا حاجة إلى ذلك. ومن هذا أن جستينوس (Justinus) الأول (٥١٨ - ٥٢٧ م.) حين تولى الحكم، تباطأ في دفع الأتاوة إلى الفرس، فأوعز قباذ إلى المنذر ليحرش ببيزنطة، فغزا أراضيها وأسر اثنين من قادتها^(٣).

(١) Trimingham: Christianity among ..., pp. 191 - 193.

(٢) الطبري: التاريخ، ج ٢، ص ٩٥ - ٩٨. وكذلك Devreesse: op.cit., p. 277.

(٣) Trimingham: Christianity among..., p. 195. وحراد علي: ج ٣، ص ٢١٩.

إلا أن الحرب بالوكالة لم تكن تخلو من خلافات بين الحلفاء، إذ قيل إن الفساسة انتموا عن الاشتراك في الغزو الحبشي لليمن، سنة ٥٢٥م. تقريباً. وقد أوعزت بيزنطة بهذا الغزو وأرسلت سفنها لنقل الجيش الحبشي الغازي. غير أن الفساسة الذين كانوا من أنصار الطبيعة الواحدة في المسيح وكانوا يرغبون ولا شك في نصرة يعاقبة نجران، أبناء عمهم ونظرانهم في المذهب لم يتمكنوا من ذلك لأسباب، منها ولا شك خوفهم من أن يطمعنهم الإمبراطور جستينوس في الظهور، وهو الذي بدأ عهده بطرد الأساقفة اليعاقبة من أبرشياتهم^(١). كذلك يفهم من مؤتمر الرملة الذي عُقد في مطلع سنة ٥٢٨م. على مقربة من الحيرة، أن المنذر بن النعمان كان قد تحول بفضل مؤهلاته العسكرية، إلى عامل ذي وزن في العلاقات الدولية ذلك العصر، إذ اجتمعت لديه وفود من بيزنطة واليمن والدولة الفارسية، لبحث أوضاع الحدود بين الإمبراطوريتين. فتاب عن بيزنطة أبراهام الذي كان والده قد اشترك في مفاوضات سنة ٥٠٢م. وأرسل قباز وفداً من يعاقبة مملكته وأسقفاً نسطورياً. وأرسل ذو نواس ملك اليمن اليهودي وفداً حاول إقناع المنذر بمساعدته في حربه ضد الأحباش ويطرد المسيحيين من مملكته^(٢).

وقد ظلت الإمبراطوريتان تستغلان الاستقلال النسبي الذي تمتع به حليفاهما، وتوعزان إليهما بالتحرش بالخصم حين نشاءان، وتذهيان البراءة. وفي الوقت نفسه أخذ الوكيلان العربيان، وقد تسنى لهما قائدان عسكريان محتكان هما المنذر بن النعمان والحارث بن جبلة، بكتسبان ثقة بالنفس عززتها حاجة الإمبراطوريتين إليهما، إلى أن بدا على كل من البيزنطيين والفرس التلذذ من هذه الثقة العربية بالنفس، بخاصة في معاهدة السلام التي عقدت سنة ٥٦١م. وقد خصصت مادة على حدة بإلزام الوكيلين العربيين الهدنة التي يلتزمها البيزنطيون والساسانيون بموجب المعاهدة^(٣). وبدأت العلاقات تسوء بعد هذه

(١) Shahid, Irfan: Byzantino-Arabica, the Conference of Ramla, A.D. 524, Journal of Near

Eastern Studies, XXXIII (1964), pp. 128, 130

(٢) Devroesse: op.cit., pp. 277, 278

(٣) Shahid, Irfan: The Arabs in the Peace Treaty of 561, Arabica, III (1956), pp. 181 - 213

المعاهدة بين الفرس وملوك الحيرة، وبين بيزنطة وملوك الفساسة، وهي علاقات لم يتسن لها أن تعود إلى ما كانت عليه حتى ظهور الإسلام.

٥-٥- عصر المنذر بن النعمان

يتوخى في رواية الوقائع العسكرية التي تميز بها القرن السادس فائدتان: الأولى هي تبيان الطابع العسكري الذي اتخذته دول المنطقة العازلة على الحدود بين بيزنطة والفرس، وتضالول الطابع التجاري الذي كان يلبداً على كيانات هذه المنطقة ذاتها في المصور السابقة، (على ما سلف في أوب أعلاه). أما الفائدة الثانية فهي أن غلبة الحروب على معظم سنوات هذا القرن السادس في منطقة بادية الشام وما بين النهرين دفعت بخطوط التجارة الشرقية إلى غربي جزيرة العرب، فانتقل دور البتراء ويصري وتدمر لتلقفه مكة بعيداً عن مناطق الحرب المباشرة، على نحو ما سنبين لاحقاً، في تفسير العوامل الملائمة التي أحاطت بالإللاف وعززت نماءه.

ولعل المنذر بن النعمان يصح أن يكون عنواناً لحروب هذا القرن في بادية الشام وما بين النهرين، على الجانب الفارسي، لمسامته الكبيرة في الجهد العسكري وظهور كفاءته في خوض الحروب. وعلى رغم أنه تنسب ملك الحيرة سنة ٥٠٦م.، إلا أنه أخذ يكتسب مهابة وشهرته بعد سنة ٥٢٥م. حين انهارت الهدنة بين الإمبراطوريتين، وعاود أوار الحرب استعاره بينهما. وقد اتخذ تلكؤ بيزنطة في دفع أتاوة حماية القفاز ذريعة لشن الحرب من جديد. أما السبب الحقيقي لحق الفرس، فلمله ترتيب البيزنطيين لغزو الحبشة اليمن سراً. وكان المنذر قد أحجم عن نجدة ذي نواس الملك الحبشي، حين استجده في مؤتمر الرملة، وآثر عروض البيزنطيين السلمية^(١). وقد يكون قباز، بعدما غزا الأحباش اليمن، قد أراد تعويض هذه الخسارة الفادحة بتقديم بحرزه في بادية الشام، فأطلق يد المنذر بين النهرين، ورد البيزنطيون بهجوم مضاد أدى إلى عقد هدنة

(١) Shahid: The Conference of Ramla...

قصيرة، عاود المنذر بعدما الهجوم على قلعة المضيق وحمص^(١).

ولما مات جستينوس سنة ٥٢٧ م.، واعتلى جستينانوس عرش الإمبراطورية البيزنطية، وقعت حوادث في جنوبي فلسطين، إذ اختصم الحارث الكندي، مع حاكم فلسطين العسكري، ثم هرب إلى خارج الحدود البيزنطية في الجزيرة العربية. وإذ انطلق المنذر في أثره وقتله. وقد تصبب نفي قتل المنذر، وهو حليف الفرس، الحارث الكندي والد زوجته، خصوصاً بعد خصومته مع قائد بيزنطي. لكن تفسير هذا ليس متعلداً تماماً. فقد روى الطبري كيف كان الحارث الكندي يستثمر إغارة الأعراب على أراضي الفرس، ليحصل من قباز على أتاوة، إذ قال: «وقلما رأى الحارث ما عليه قباز من الضعف طمع في السواد [المراق] فأمر أصحاب مساحه أن يقطعوا الفرات فيخبروا في السواد. فأتى قباز الصربخ وهو بالمداين ف... أرسل إلى الحارث بن عمرو أن لصوصاً من لصوص العرب قد أغاروا وأنه يحب لقاءه، فلقبه، فقال له قباز: لقد صنعت صنماً ما صنعه أحد قبلك، فقال له الحارث: ما فعلت ولا شعرت ولكنها لصوص من لصوص العرب ولا أستطيع ضبط العرب إلا بالمال والجنود. قال له قباز: فما الذي تريد، قال: أريد أن تطعمني من السواد ما آخذ به سلاحاً، فأمر له بما يلي جانب العرب من أسفل الفرات^(٢). وهذه الرواية تجعل الحارث منافساً للمنذر في جباية الأموال من عرب الحيرة ومناطق نفوذها، وقد توفّر لنا تفسيراً معقولاً لمقتل الكندي.

وبدأ جستينانوس عهده باسترداد تدمر ودفع حلفائه حتى دخلوا أرض الفرس وعاودوا بسبي وغنائم. وفي مطلع سنة ٥٢٨ م. فيما كان الجيش البيزنطي يجتاز الجفجفاغ ويتقدم في الصحراء لاختل مدينة نصيبين من الخلف، داهمه جيش الفرس وألحق به خسارة كبيرة. وعاود الفرس وهرب الحيرة بقودهم المنذر، مهاجمة الجيش البيزنطي في ربيع سنة ٥٢٩ م.، وهزمه مرة أخرى. وارتأى قباز أن يهاجم أرمينية، لكنه استمع إلى نصيح المنذر وتوجه بقواته إلى

(١) Devroesse: op.cit., p. 281. يلاحظ أن ديفريس يقل رواية طبع المنذر ٤٠٠ راحة على ملج الغزي في حمص، بلا نقاش.

(٢) الطبري: التاريخ، ج ٢، ص ٨٩، ٩٠.

إنطاكية ليلغها بلا مقاومة تذكر، وسى وغنم ثم تراجع دون أن يلقى الجيش البيزنطي. ويبدو أن تعاظم صوت المنذر وهيبته بين العرب، دفع الإمبراطور البيزنطي إلى محاولة اصطناع قطب يوازن به ملك الحيرة، فاختار لهذه المهمة الفسائي الحارث بن جبلة وجعله عاملاً على العرب سنة ٥٢٩ م.

وعرض قباز على البيزنطيين عقد هدنة، لكن الهدنة لم تعقد بعد خلاف. وفي ربيع سنة ٥٣١ م.، عاود الفرس والمنذر مهاجمة الأرض البيزنطية وبلغوا موقعاً يتوسط المسافة بين قنسرين ونهر الفرات. وهاجم البيزنطيون بوحدات ضمت نسبة كبيرة من العرب بقودهم الحارث بن جبلة. وعلى الرغم من مقتل النعمان بن المنذر في الموقعة إلا أن المنذر والفرس ألحقوا بالبيزنطيين هزيمة ماحقة، وهرب بلهزاربوس (Behsarius) قائد الروم إلى الرقة، فاجتاح الفرس منطقة الرها ودخلوا المدينة وهبوا في نيسان/أبريل ٥٣١ م. وخشي جستينانوس أن تنهار محافظات بيزنطة من فعل هذه الهزيمة، فسارع إلى حث مملكة أكسوم الحبشية على شن هجمات على مناطق النفوذ الفارسية من جنوب الجزيرة العربية، انطلاقاً من اليمن التي احتلها الأحباش قبل ست سنوات^(١). وفي الوقت نفسه عمد إلى مسالمة الفرس وإلى دعم جمالة الفساسة على العرب^(٢).

- معاهدة السلام والأبدية -

أرسل قباز عبر المنذر، مقترحات سلام جديدة في حزيران/يونيو ٥٣١ م. وفيما كان جستينانوس يخبين استقبال المبعوث الحيري، مات قباز، فخلفه كسرى أنو شروان، فتابع مفاوضات السلام على ثلاثة مبادئ: أن تدفع بيزنطة تعويض حرب للفرس، وأن تسحب قيادة قواتها فيما بين النهرين من دارة (التي تبعد عن نصيبين نحو ١٢ ميلاً) إلى كونسططينية، (على منتصف الطريق إلى الرها)، وأن تمول حماية الفرس لممرات الففاز. وقبل جستينانوس شروط

(١) سنن روض البين في هذا الفصل في باب لاحق.

(٢) Devroesse: op.cit., pp. 281 - 284, Montgomery - Watt, W: Muhammad at Mecca, Oxford

University Press, 1953, p. 12

كسرى ووقع في نيسان/ إبريل ٥٣٢م. على الهدنة التي سميت بمعاهدة السلام الأبدي^(١).

لكن هذا السلام «الأبدي» استمر سبع سنوات فقط. واستعادت الحرب في سنة ٥٣٩م. بسبب صراع بين المنذر والحارث على مراغ للغنم^(٢). ويؤكد ديفريس ذلك بقوله إن جفافاً عظيماً أصاب وادي الفرات الأسفل، فاضطر المنذر إلى إرسال قطعانه إلى ما وراء تدمر لترعى، فواجهه الحارث بن جبلة ليمتنعه، فتجادل الرجلان. وقال المنذر إن معاهدة السلام الأبدي لم تُعرض عليه ولم يكن العرب بين الموقعين عليها بل إن قانوناً قديماً كان يخوله جباية ضريبة ممن ترعى ماشيته في تلك المنطقة. ورد الحارث بقوله إن الأرض هذه رومانية، تدل على ذلك تسميتها باسم البساط، وهي لفظة لاتينية أصلاً (Strata). وما إن علم جستنيانوس بالتزاع حتى بعث برجلين من خاصته، فارتأى الأول في النزاع فحاً لا بد من فضحه، وارتأى الثاني أن الأرض المتنازع عليها لا تستحق خرق الهدنة. غير أن كسرى الذي لاحظ أن القوات البيزنطية منهمكة في قتال على الحدود الغربية، لم يشأ أن يفلت الفرصة، ولعله أراد أن يحسن شروط الاتفاق مع جستنيانوس، فاتهمه بخرق الهدنة ومحاولة إغراء المنذر بالمال، وبتحريض البرابرة على غزو مملكة الفرس. ونوقشت كذلك مساعي بيزنطة لتأليب بلاد شرقي البحر المتوسط والبحر الأحمر على الفرس. وأمضت الدولتان شتاء تلك السنة في هذا الجدل. وفي أوائل الربيع سنة ٥٤٠م. بدأ كسرى نزهة عسكرية اجتاحت خلالها بلاد ما بين النهرين ومقاطعات سورية والرُّها ووادي الرافدين دون أن يلقى مقاومة تذكر. واجتاز الفرات جنوب قرقسية ووصل إلى سورة (على نهر الفرات غرب الرقة)، ثم إلى إنطاكية^(٣). وقد سجّل الطبري هذه الغزوة بكثير من التفصيل والدقة فقال: «فاستعد كسرى فغزا بلاد يخطيانوس [جستنيانوس] في بضعة وتسعين ألف مقاتل فأخذ مدينة دارا ومدينة الرها ومدينة منبج ومدينة

(١) Devreesse: op.cit., p. 286.

(٢) Shahid: The Arabs in the Peace Treaty..., p. 199.

(٣) Devreesse: op.cit., pp. 286 - 288.

قُسرين ومدينة حلب ومدينة إنطاكية وكانت أفضل مدينة بالشام ومدينة فامية ومدينة حمص ومدناً كثيرة متاخمة لهذه المدائن واحتوى على ما كان فيها من الأموال والعروض وسبى أهل مدينة إنطاكية ونقلهم إلى أرض السواد، وأمر فُبئيت لهم مدينة إلى جنب مدينة طُيسبون على بناء مدينة إنطاكية... وهي التي تُسمى الرومية^(١). وأكدت المصادر الكلاسيكية كثيراً من ذلك، إذ ذكر فيها أن كسرى نهب سورة وأحرقها، وتجنبت منبج هذا المصير بدفع فدية، واستسلمت حلب بسرعة، أما إنطاكية فحاولت المقاومة ولكنها سرعان ما اضطرت إلى الاستسلام، فأحرقت وسبى أهلها إلى مكان قرب طيسفون. وطلب جستنيانوس شروط المهادنة، فطلب كسرى مبلغاً كبيراً من المال، ثم أتاة سنوية للفرس، وأجرة حراسة ممرات القفقاز من هجمات البرابرة^(٢).

وفيما كان جستنيانوس ينظر في هذه الشروط، كان كسرى يواصل جولاته، فأدرك البحر المتوسط مرة أخرى عند سلبوقية (السويدية، قرب إنطاكية) واجتاح قلعة المضيق (شمال غرب حماة) وقُسرين، وعادوا اجتياح منطقة الرُّها فاجتاز نهر الفرات تكراراً وهدد مدينة الرُّها بالحصار، فدفع له فدية، فاستدار إلى حرّان وكونسطنطينة، ولم يتمكّن من دارا. إذّاك أبلغه جستنيانوس قبول شروطه. لكن الإمبراطور البيزنطي ظن في ربيع ٥٤١م. أن الوقت حان ليثأر، بعدما انتهى قائده بليزارايوس من حربه في إيطالية، فحشد جيوشه وفي مقدمها فرسان العرب يقودهم الحارث بن جبلة، ووضع خطط اجتياح بادية الشام لاسترداد ما انتزعه كسرى. وبعد مداولات أعرب فيها بعض القادة البيزنطيين عن خشيتهم من احتمال أخذ المنذر فلسطين وسورية على حين غرة، وهم منشغلون في ملاحقة كسرى، اتفق على بدء الهجوم المضاد، فتقدم الحارث بن جبلة حتى وصل إلى نهر دجلة، وتحالفت القوات البيزنطية عنه، فعاد إلى حوران محملاً بالغنائم، فيما كان البيزنطيون يظنون المظان به ويتهمونه بالتخلي عنهم من أجل الاستئثار بالغنم. وفي ربيع ٥٤٢م. عاد كسرى من جبهة أرمينية واجتاز الفرات وضرب

(١) الطبري: التاريخ، ج ٢، ص ١٢١. وانظر كذلك ابن العبري: ص ٨٧ - ٩١.

(٢) Devreesse: op.cit., p. 288.

حصاراً حول الرصافة، لكنه طلب في الوقت نفسه مفاوضات بين بيزنطيين ولوضع شروط السلام، ثم انسحب بعدما هاجم الرقة وسبى جمعاً من سكانها. وفي سنة ٥٤٣م. تجدد القتال على جبهة أرمينية، وفي السنة التالية رجع كسرى إلى اجتياز الفرات، وضرب حصاراً غير مُجْدٍ حول مدينة الرها، فانسحب وتبادل السفراء مع جستنيانوس حتى اتفق في سنة ٥٤٥م. على شروط هدنة خمس سنوات^(١). وقد ذكر الطبري تلك الشروط بقوله: «أما سائر مدن الشام ومصر فإن يخطيانوس ابتاعها من كسرى بأموال عظيمة حملها إليه وضمن له فدية يحملها إليه في كل سنة على أن لا يغزو بلاده. وكتب لكسرى بذلك كتاباً وختم هو وعظماء الروم عليه، فكانوا يحملونها إليه في كل عام^(٢)».

- و. أزمة الوكلاء العرب

ظلت علاقات الفرس والبيزنطيين بوكلائهم العرب في القرن السادس جيدة، طالما كانوا يحتاجون إلى أداة عسكرية يستخدمونها في الصحراء، أو يختبئون خلفها حين يبتغون عملاً عسكرياً لا يلزمهم ولا يورطهم سياسياً. لكن هذه العلاقة أخذت تتبدل، وبدأت الدولتان الكيريات تديان مظاهر الامتعاض من الحليفين اللخمي والغساني، خصوصاً في معاهدة السلام التي عقدها سنة ٥٦١م. ويبدو أن الطابع العسكري شبه الصرف الذي طبع دولتي المناذرة والغساسنة فيما يزيد على نصف قرن من المواجهة بينهما، والإنهاك الاقتصادي الذي أصاب بيزنطة والفرس من طول الحرب بينهما بلا توقف منذ بداية القرن السادس، وحاجتهما إلى تنشيط خط التجارة التي توقف دفعها، فتوقف ريعها بينهما، وعجز الدولتين العربيتين الوكيلتين عن تولي شؤون الخط التجاري المنشود، لافتقارهما إلى الشبكة اللازمة لتسيير هذا الخط، قد جعلت الدولتين الكبيرتين تتفقان، ولو على نحو مؤقت، على محاولة لجم الوكلاء العرب. وقد تطورت العلاقة بين بيزنطة والغساسنة فمحض الروم حليفهم أولاً الدعم والثقة، وتطلّعوا بعطف إلى نمائه وتعاظم قوته. وبدأت المرحلة الثانية حين أخذ الروم

(١) Devreesse: op.cit., pp. 288 - 291

(٢) الطبري: التاريخ، ج ٢، ص ١٢٢.

يشعرون أن حليفهم يقلقهم في علاقتهم بالفرس، من جرّاء حربه مع نظيره اللخمي وكييل الفرس، ويقيدهم ويحصر حرية عملهم^(١). وقد بدأت مظاهر هذا التذمر تبدو على الفريقين البيزنطي والفارسي معاً، على نحو رسمي واضح، في معاهدة السلم التي عقدها سنة ٥٦١م. بعدما سار كل من المنذر والحارث أشواطاً بعيدة في مغامراتهما العسكرية، أحدهما ضد الآخر، وتحولت هذه المغامرات إلى سجال شخصي خارج على نطاق حاجات الدولتين ومصالحهما. فبعد هدنة ٥٤٥م. استعرت نار الحرب بين الرجلين سنة ٥٤٦م.، فالتقيا فيما يقال إنه يوم حليلة الشهر في أيام العرب، وقُتل المنذر ابن الحارث، لكن الملك الغساني انتصر في ذلك اليوم انتصاراً عظيماً، كاد فيه أن يأسر اثنين من أبناء المنذر. وقد امتنع كل من جستنيانوس وكسرى عن التدخل في هذه الحرب. وعاود الخصمان اللدودان القتال سنة ٥٥٤م. حين أغار المنذر على جوار قنشرين، فلقية الحارث وقتله، فيما يُقال إنه عين أباغ^(٢). ويُستدل من المواد العسكرية في معاهدة ٥٦١م. أن الفريقين البيزنطي والفارسي سعيًا، وهما يضعان نص المعاهدة، إلى تجنب استخدام المناذرة أو الغساسنة الحجة التي استخدمها المنذر سنة ٥٣٩م. حين أغار على جوار تدمر، وتذرع بأن معاهدة سنة ٥٣٢م.، لم تأت على ذكر العرب. فجاء في المعاهدة الجديدة أن على العرب حلفاء كل من الدولتين، أن يلزموا هم أيضاً أحكام المعاهدة، فيمتنع العرب حلفاء الفرس عن حمل السلاح ضد الروم، ويمتنع العرب حلفاء الروم عن حمل السلاح ضد الفرس^(٣)، وقد تطورت هذه المرحلة من العلاقات بين الروم والغساسنة (والفرس والمناذرة) في أواخر القرن السادس إلى قرار بيزنطي لإلغاء الجمالة الغسانية بعض الوقت، على الرغم من أن الحرب مع الفرس لم تتوقف، وعلى الرغم من أن التجارة الشرقية لم تستعد نشاطها عبر

(١) Shahid: the Arabs in the Peace Treaty...., p. 212

(٢) الأندلسي: نشوة...، ص ٢٧٧. وانظر أيضاً Devreesse: op.cit., p. 294. وكذلك جواد علي:

ج ٣، ص ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٢٧.

(٣) Shahid: The Arabs in the Peace Treaty...., p. 197.

الفرات، مثلما كان يؤمل. ولعل استعراض المادة الخامسة في معاهدة ٥٦١ م.، وهي تتناول تنظيم التبادل التجاري، يمهد السبيل إلى فهم بعض أسباب فشل محاولة الدولتين في هذا الشأن، ويسهل بالتالي فهم بعض جوانب الحالة الدولية التي ساهمت في انتقال دفق التجارة إلى طريق القوافل المكية.

لقد نصت المادة الخامسة على أن يُحضّر العرب تجارتهم إلى دارا على الجانب الفارسي، ونصّيين على الجانب البيزنطي من الحدود، وألا يهزّبوها، لثلا يُعاقَب المهربون وتصادَر بضاعتهم. وقد ذكرت المعاهدة العرب بالاسم في هذه المادة، فأكدت مكانتهم في الوساطة التجارية. ويتفق غرض المادة الخامسة هذه مع غرض المادة الثالثة التي دعت إلى إحكام عمل الأجهزة الجمركية بين الإمبراطوريتين لتحسين دخل خزيتيهما. وقد أظهر كسرى في شروط السلم التي كان يعرضها في حروبه، إصراراً على جباية أتاوات من البيزنطيين، لملء خزيتته، فيما كانت بيزنطة راغبة في تحسين دخلها للاتفاق على المباني والحروب التي خصّص جستنيانوس معظم موازنته بها. ولم يكن تهريب البضائع مفيداً لأي من الدولتين، لأن الفرس كانوا على الخصوص يرغبون في إحكام احتكارهم لتجارة الحرير الشرقية، أما بيزنطة فكانت تجارتها الشرقية تجارة استيراد فقط، وكانت الجمارك هي الكسب الوحيد المتاح لها من هذه التجارة، ولذا احتلت جزيرة يوتابه (تيران، على مدخل خليج العقبة) مكانة رفيعة في السياسة البيزنطية التجارية والعسكرية. ضمن هذا الإطار يصبح فهم موقف الدولتين متاحاً. لكن أثر هذه المادة على المدى الطويل، لم يكن محسوباً تماماً. وقد دفعت أحكام المادة الخامسة بتجارة الشرق إلى اتخاذ طريق القوافل عبر الجانب الغربي من جزيرة العرب في الإجمال^(١). ذلك أن هروب التجار العرب من الأسواق الرسمية التي عيّنتها معاهدة ٥٦١ م.، وأتباعهم طريقاً أخرى كان يُفترض ألا يفيدهم كثيراً، لأنهم في نهاية الأمر لا بد من أن يحملوا هذه التجارة إلى سوقهم

(١) Devreesse: op.cit., : وانظر كذلك: Shahid: The Arabs in the Peace Treaty..., pp. 192 - 196. p. 295

الكبرى: السوق البيزنطية، حيث سيدفعون المكوس على أية حال. ولا مفرّ إذن من هذه السوق، وإلا اكتفوا بتجارة محلية في جزيرة العرب، وبطلت تجارتهم الدولية. لكن بيزنطة كانت تستفيد من تحويل هذه التجارة العربية إلى طريق مكة، لسبب بسيط، هو أن البضاعة الآتية عبر الفرات كانت تُدفع مكوسها مرتين: مرة للخزينة الفارسية ومرة للخزينة البيزنطية. ولذا أبدت بيزنطة تشجيعاً واضحاً لتجارة القوافل المكية غير مرة، على نحو ما سنبينه لاحقاً، في هذا الفصل. وكان هذا يناسب التجار العرب لأنه جعلهم يدفعون المكوس مرة واحدة بدل مرتين.

فلذا أخذ في الحسابان مضمون المادة السادسة من معاهدة ٥٦١ م.، وهي مادة تحظر على القبائل العربية اجتياز الحدود من أراضي دولة إلى أراضي أخرى^(١)، يتضح في نهاية الأمر أن بيزنطة والفرس إنما سعيًا في هذه المعاهدة إلى إحكام سيطرتهم مباشرة على العرب، في بادية الشام وجوارها، وإلى تقليص الدور العسكري المستقل الذي اضطلعت به دولتا الوكلاء المناذرة والغساسنة. وفيما كان يؤمل أن تؤدي المعاهدة إلى تشييط الخط التجاري عبر الفرات، أضيفت أحكام المادة الخامسة في الواقع إلى الحروب المستمرة معظم سنوات القرن السادس، لتدفع بتجارة الشرق إلى غرب جزيرة العرب. وهكذا أخفقت دولتا العمالة العربية في أداء الدور التجاري المطلوب، وفي الاحتفاظ بقوة دورهما العسكري الذي كان مسوغاً لوجودهما أصلاً، وكان حتماً أن تبدأ أزمة وجودهما التي انتهت بقلوصهما والاستغناء عن دولة المناذرة عند مطلع القرن السابع، فيما كان الخط التجاري يُحدث في مكة الازدهار الذي أحدثه من قبل في البتراء وتدمر وغيرهما، بعيداً عن متناول القوتين الكبيرين اللتين حاولتا عبثاً ضبط الخط التجاري المكي وترويضه ضمن إطار نفوذهما.

ز- حروب نهاية القرن

لم تتردّد العلاقات البيزنطية مع غسان، والفارسية مع الحيرة فجأة، ولا

(١) Shahid: The Arabs..., pp. 196, 197. وانظر كذلك: Devreesse: op.cit., p. 295. وجواد علي:

تردّت في الوقت ذاته. بل كان التردّي تدريجياً، وساءت علاقة الروم بحلفائهم قبل حدوث مثل هذا الأمر بين الفرس وحكّام الحيرة بما يزيد على عشرين سنة. ففيمّا بدأ البيزنطيون تقييد المُلك الغساني بعد أسر المنذر بن الحارث سنة ٥٨١ م.، ثم ابنه النعمان بن المنذر سنة ٥٨٢ م.، لم يبدأ حكم الفرس المباشر لعرب الحيرة قبل سنة ٦٠٤ م.، عندما أخذ كسرى يعيّن حكاماً من غير أسرة المناذرة اللخمين. وقد بدأ اضطراب العلاقة يظهر منذ سنة ٥٨٠ م.، حين عيّن كسرى سهراب حاكماً للحيرة. لكن حكم سهراب لم يُعمر سوى أشهر، عاد الحكم بعدها للمنذر الرابع بن المنذر (٥٨٠ - ٥٨٣ م.).

لم يكن لجم الفرس والبيزنطيين للعرب في معاهدة ٥٦١ م.، دليلاً على رغبة صادقة في السلام، مقدار ما كان دليلاً على رغبة في استخدام الوكيلين العربيين في الحرب والسلام، وفقاً لمصالح الدولتين الكبيرين، لا مصالح الوكيلين وحدهما. وقد أثبت كسرى، فيما لا يتعدّى الأربع السنوات بعد المعاهدة، أنه لا يزال يوعز إلى حليفه لمهاجمة أراضي الروم، ويتظاهر هو بعدم خرق شروط السلام. ففي سنة ٥٦٦ م.، أرسل عمرو بن المنذر (٥٥٤ - ٥٦٩ م.) الذي تولّى الملك في الحيرة بعد مقتل والده، أخاه قابوساً ليهاجم بلاد الشام. وكانت حجة عمرو في ذلك أن جستنيانوس الإمبراطور البيزنطي كان يدفع له كل سنة مائة رطل ذهباً منذ عقد المعاهدة، فلما مات جستنيانوس وتولّى العرش جستنيوس الثاني (٥٦٥ - ٥٧٨ م.) أوقف دفع هذه الأتاوة، ثم فشلت المفاوضات لاستئناف دفعها. أما الذي جعل كسرى يفضّ بصره عن هجمات المناذرة، فهو أن جستنيوس كان يحاول كسر احتكار الفرس لتجارة الحرير، بعقد عهدة تجارية مع خان التتر. كذلك أوقف الإمبراطور البيزنطي دفع ثلاثين ألف دينار كان سلفه يدفعها كل سنة لكسرى^(١). ويبدو أن جستنيوس لم يكن حريصاً في دفع ماله للفرس والمناذرة وحدهم، بل لحلفائه الغسانية أيضاً، إذ يرى ابن العبري أن سبب القطيعة التي كانت بين المنذر الغساني وجستنيوس هو مطالبة

(١) Devreesse: op.cit., p. 295. والدبس: ج ٤، ص ٤٤٦. وجواد علي: ج ٣، ص ٢٥٤.

و Trimmingham: Christianity among..., p. 198.

المنذر بالمال ليتمكن من إعداد جيش قوي منظم يستطيع الوقوف به في وجه الفرس^(١). وهذا يؤكد ما سلف، أن بيزنطة كانت منهكة بفعل استمرار الحرب، وكانت تسعى إلى تعزيز موارد موازنتها، فلا تستطيع ذلك بمواصلة الدفع للأعداء والحلفاء، ولا بوقف الدفع والمخاطرة بخوض حرب أعظم كلفة من السلام الذي يُشترى بالمال. وعلى الرغم من أن قابوس بن المنذر اللخمي كان قد بدأ الحرب في عهد أخيه عمرو سنة ٥٦٦ م.، إلا أن الفرس لم يشتركوا علناً بالحرب إلا في سنة ٥٧٢ م.، وقد استمرت عشرين عاماً. كان البيزنطيون يتنمرون من دفع الاتاوات ومن غزو الفرس اليمن وهو منطقة كانت بيزنطة تُدخلها في عداد مناطق نفوذها منذ أن غزاها الأحباش قبل نحو من نصف قرن^(٢).

بدأت الحرب بهجمة بيزنطية عبر الحدود الفارسية عند الجفجاف في خريف سنة ٥٧٢ م. وردّ كسرى باجتياز الفرات في الاتجاه الآخر، مستفيداً من ضعف الدفاع البيزنطي والخلاف مع الغسانية، فوصل إلى أفيامية (شمال غرب حماة) فأحرقها وعاد أدراجه، دون أن يلقي مقاومة، فيما كان الجيش البيزنطي يحاول عبثاً محاصرة نصيبين، ثم ينسحب إلى ماردين متخلياً عن دارا. وعُقدت هدنة قصيرة ومفاوضات للسلام، لكن الفرس اجتاحت وادي الخابور الأعلى وساروا إلى أرمينية وقبدوقية، ثم انسحبوا^(٣).

وفيما كان المناذرة ينشطون مع الفرس، حدثت القطيعة بين المنذر الغساني وبيزنطة. ويعتقد روتشتاين أن هذه القطيعة التي توسّطت الحرب ودامت ثلاث سنوات، انتهت سنة ٥٧٨ م.^(٢) واغتنمها قابوس ليشن هجمات على بلاد الشام. وعاود الفريقان التفاوض في سنة ٥٧٦ وسنة ٥٧٧ م.، لكن الحرب استمرت. وهجمت قوات بيزنطية يقودها موريقيوس (Mauricus) الذي أصبح إمبراطوراً فيما بعد (٥٨٢ - ٦٠٢ م.) على الفرس فيما بين النهرين، وردتهم حتى سنجار، واستؤنفت مرة أخرى مفاوضات السلام. وفيما كانت معاهدة

(١) ابن العبري: ص ٨٧. وانظر أيضاً جواد علي: ج ٣، ص ٢٥٩.

(٢) Devreesse: op.cit., pp. 295 - 297.

جديدة قيد الإعداد مات جستينوس الثاني (في تشرين الأول/ أكتوبر ٥٧٨ م). ثم مات بعده كسرى (آذار/ مارس ٥٧٩ م). وحل طياريوس (Tibarius: ٥٧٨ - ٥٨٢ م). وهُزمُزدا الرابع (٥٧٩ - ٥٩٠ م). محلهم، فلم يُفلح في الاتفاق. وفي هذه الأثناء كان المنذر الغساني قد عاود القتال إلى جانب الروم بعدما صالحه طياريوس. لكن التبعات بفشل الحملة التي قادها موريقيوس لاجتياز الفرات بمعونة العرب الغساسنة، أُلقيت على عاتق المنذر الذي اتهمه القائد البيزنطي بالخيانة. وكان اعتقال المنذر سنة ٥٨١ م، وسوقه مخفوراً إلى جزيرة صقلية أيداناً لبدء ثورة عربية على بيزنطة يقودها النعمان بن المنذر الغساني. وفي سنة ٥٨٢ م. أحرق الفرس الرها، ثم أخذ ميدان القتال ينتقل إلى الشمال، حتى تطورت الأمور على نحو غير مرتقب في سنة ٥٩٠ م، حين حدث تمرد فارسي على كسرى، إمبراطور الفرس الجديد، فلجأ هذا إلى عدوه موريقيوس طالباً بمعونته. فلما عاد كسرى إلى عرشه كافأ الإمبراطور البيزنطي سنة ٥٩١ م، بمعاملة حسنة الشروط، وكان لا شك مسروراً بنقضها حين قُتل موريقيوس سنة ٦٠٢ م، فاتخذ الفرس مقتله ذريعة لشن الحرب من جديد. لكن هذه الحرب كانت حرباً بلا وكلاء عرب في الجانب الفارسي، فيما عاد الغساسنة إلى الصف البيزنطي. وقد بدأت حينئذٍ تظهر في الأفق نذائر حرب شاملة^(١)، فسقطت بيد الفرس دمشق (٦١٣ م). ثم القدس (٦١٤ م). ثم مصر (٦١٩ م)، وشنَّ هرقل (Heraclius) إمبراطور الروم الجديد (٦١٠ - ٦٤١ م) هجومه المضاد، فيما كان العرب يدركون ذروة جديدة في أزمة الولاء، بينما كان مشروعاتهم المستقل في داخل جزيرة العرب، يشق طريقه شيئاً فشيئاً إلى البزوغ.

ثانياً: الصراع في جنوب الجزيرة العربية

أ- الحبشة واليمن في التاريخ

إذا لاحظنا أن أهم طرق التجارة الشرقية الآتية من المحيط الهندي وسواحله إلى

(١) الطبري: التاريخ، ج ٢، ص ١٣٦ - ١٤٠. وابن العبري: ص ٩٠. والديس: ج ٤،

ص ٤٥١، ٤٥٢. وكذلك Devreesse: op.cit., 297, 298, 299, 305, 306. وجواد علي: ج ٣،

ص ٤١٢ - ٤١٩.

البحر المتوسط، هي طريق الخليج إلى الفرات فبادية الشام، وطريق البحر الأحمر إلى جنوب فلسطين ومصر، وطريق القوافل البرية في الجزيرة العربية، فإن اليمن يتحكم باثنتين من هذه الطرق. ولذا كانت السيطرة على اليمن عاملاً من أهم عوامل السياسة الدولية حيال تجارة الشرق منذ أن بدأ الصراع الدولي في هذا المجال. ومثلما ارتبط تاريخ الشام ارتباطاً وثيقاً بتاريخ اليمن، لوقوعهما على الطرفين الشمالي والجنوبي لبعض هذه الطرق، ارتبط تاريخ اليمن أيضاً بتاريخ الحبشة لتقاسمهما الإطلال من الضفتين على المدخل الجنوبي إلى البحر الأحمر. وقد زاد من وثوق العلاقة بين اليمن والحبشة أن شعوب المرتفعات اليمنية عبر العصور الغابرة وظبت على الهجرة إلى شمال الحبشة فنقلت معها ثقافتها وحضارتها السامية، وامتزجت بالقبائل الكوشية وتوحدت معها، لكنها ظلت على ما يبدو تتطلع إلى موطنها الأصلي. وكانت المصالح السياسية والتجارية تميل ميلاً شديداً إلى استثمار هذا التوق كلما بدت فرصة وظهرت حاجة إلى ذلك. وقد التفت رومة منذ القرن الأول للميلاد على الأقل، صوب مملكة سبأ ومدنها التجارية، وتحالفت مع الأحباش لتحقيق مصالحها في اليمن، بعدما اعترض اليمانيون السفن الرومانية. واستولى الأحباش على اليمن، ثم استولى الرومان أنفسهم على بعض المواضع في اليمن أيام الإمبراطور كلاوديوس (Claudius: ٤١ - ٥٤ م). على الأرجح^(١). وكان الغرض الذي سعى إليه الرومان، ثم البيزنطيون والأحباش بسياستهم الاقتصادية والتجارية هو إنشاء اتصال تجاري مع الهند من غير وساطة العرب الجنوبيين أو الفرس^(٢). ولم يكن بلوغ هذا الغرض ممكناً في جميع الظروف.

فقد تبين من استعراض تاريخ بلاد الشام، منطقة للصراع السياسي والعسكري بين بلاد الفرس وكل من رومة وبيزنطة، على تجارة الشرق، فيما مضى من هذا الفصل، أن «الغرب» كان في كثير من الأحيان يضطر إلى مسالمة الفرس والاتجار معهم عبر خط الفرات والصحراء السورية. لكن سقوط تدمر في

(١) Devreesse: op.cit., p. 278.

(٢) Shahid: The Conference..., p. 127.

أواخر القرن الثالث للميلاد، واتصال الحروب الفارسية البيزنطية طول القرن السادس تقريباً، جعلاً استمرار تدفق التجارة عبر الطريق الفراتية أمراً صعباً إن لم يكن متعذراً. وكان منطقياً أن تتطلع رومة ثم بيزنطة إلى الطرق الأخرى، وبخاصة البحر الأحمر.

لقد غزا الأحباش اليمنَ غزوتين كبيرين، ولم يكن صدفة أن الأولى حدثت في أواخر القرن الثالث، أي بعد سقوط تدمر، وأن الثانية حدثت في الربع الأول من القرن السادس، أي في زمن توقف خطوط التجارة الآتية من الفرات واشتداد الحاجة إلى خطوط البحر الأحمر والحجاز. فلقد حفظ لنا نقش أدوليس (إحدى مدن مملكة أكسوم الحبشية)، وهو نقش يُقدّر زمنه بما بين سنتي ٢٧٧ و ٢٩٠ للميلاد^(١)، ذكر غزوة شنها الملك الحبشي آنذاك من «لوكي كومي» (الحوراء، على شاطئ البحر الحجاز)، لاحتلال اليمن. ولم تعرف بالضبط بعد سنة هذه الغزوة، لكنها حدثت حتماً بعد سقوط تدمر، وبقيت آثارها طويلاً، ولم تكن قتالاً عابراً مثل كثير من المجابهات اليمنية الحبشية، بل استمرت نحواً من قرن. وفي هذه المرحلة نُقِبَ النجاشي الحبشي أفيلاس بملك أكسوم وحمير وريدان والحبشة وسبأ وسلحين وتهامة والبعاء. وبلغت المملكة الحبشية ذروة مجدها واتساعها في عهد الملك عيزانا (٣٢٠ - ٣٤٢ م. تقريباً)، وكان أول ملك حبشي يعتنق المسيحية. وبعده أخذت قبضة الأحباش على اليمن تهنّ، بسبب ثورة نشبت في جنوب الحبشة. وقد حاول الإمبراطور البيزنطي قسطنطينوس الثاني أن يُنجد الاحتلال الحبشي والنفوذ البيزنطي في اليمن، فأرسل سنة ٣٥٤ م. تقريباً تيوفيلوس الهندي (Theophilus Indus) من جزيرة سُقَطرى للتفاوض مع الأمراء الحميريين، في مهمة ظاهرها ضمان حرية العبادة للنصارى الروم القاطنين في اليمن. ويُعتقد أن جوهر المهمة هو ضمان حسن معاملة اليمنيين للتجار الروم، واتخاذ موقف محايد بين الفرس وبيزنطة. غير أن المهمة فشلت

(١) Devreesse: op.cit., pp. 278, 279 وكذلك Trimingham: Islam in Ethiopia..., pp. 36, 37.

وانظر أيضاً: Trimingham: Christianity among..., p. 288. والصلوي، إبراهيم محمد: قصة

أصحاب الأخدود، الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٧٩، ص ١٣ - ١٥، ٣٦ - ٣٨.

لأن الأقبال الجُمَيْريين كانوا يرون أن بيزنطة كانت تساند الحبشة، عدو حمير التقليدي. وفي سنة ٣٧٥ م.، ثار الملك الحميري ملكيكرب يهأمن على الاحتلال الحبشي، وطرده الأحباش في غضون ثلاث سنوات^(١).

أما الغزوة الحبشية الكبرى الثانية لليمن فحدثت في الربع الأول للقرن السادس، في الزمن الذي شهد بدء الحروب البيزنطية الفارسية الطويلة. وهي حروب لم تتوقف إلا بظهور الإسلام (سُفِرَد لهذه الغزوة باب خاص في هذا الفصل)، ولا شك أن النزاع بين الأحباش واليمنيين لم يقتصر على هاتين الغزوتين الكبيرتين^(٢)، وأن غزوة القرن السادس كانت بليعايز بيزنطة وتعريضها على ما سنبيّن، فيما يوحي انطلاق الغزوة الأولى من مرفأ لوكي كومي، الذي كان بعد سقوط تدمر ضمن مدى النفوذ الروماني، بأن رومة لم تكن معارضة لهذه الغزوة، بل ربما كانت هي الموحية بها.

ب - مسيحيو بيزنطة ويهود فارس

يتفق المؤرخون على القول إن بيزنطة استخدمت العقيدة المسيحية في اليمن لخدمة أغراضها التجارية، فيما كانت اليهودية معقلاً للنفوذ السياسي الفارسي هناك. ويقول سميث: «ليس من سبب للاعتقاد أن هذه العقائد الدينية لم يكن اعتناقها مخلصاً. ذلك أن فكرة حصر الحوافز في تلك الحقبة بواحد فقط من أصل الحوافز الدينية والسياسية والاقتصادية، هي فكرة ساذجة، قد تؤدي بنا إلى عدم فهم الدوافع الاقتصادية لدى الدول المتورطة في الصراع. فالحبشة مثلاً «لم تكن مهتمة بالتجارة الهندية، على ما يبيّن بروكوبيوس»^(٣) ولو لم تكن الحبشة حليفة لبيزنطة، لأسباب أخرى، بعضها ديني وبعضها سياسي، بل واقتصادي، لما استقام لهما أن يبادرا إلى مشروع مشترك لغزو اليمن غير مرة.

(١) يمدد جواد علي مختلف أعمال الأحباش في اليمن منذ قيام النصرانية. أنظر جواد علي:

ج ٣، ص ٤٥٢ وما بعدها.

(٢) Smith: op.cit., p. 463. وأيد بيضون فكرة الحوافز السياسية لدى المبشرين. أنظر بيضون:

الحجاز والدولة الإسلامية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٣،

ص ٥٨، ٥٩.

لم تكن الحدود البيزنطية الجنوبية قد تبدلت كثيراً منذ العصر الروماني، فبقيت عند تخوم المقاطعة العربية على مشارف الحجاز الشمالية. وكان للبيزنطيين الجزر في خليج القلزم وخليج العقبة، حيث اتخذوا مراكز لجباية الضرائب من أصحاب السفن ولحماية البحر من قراصنته. وكان ميناء القلزم (قرب السويس في مصر اليوم) بحوزتهم، وفيه كان يقيم وكيلهم التجاري لمراقبة السفن والتجارة وإصدار التعليمات. لكن تجار بيزنطة وغلوا جنوباً حتى وصلوا إلى أدوليس (قرب ميناء مَصُوع) ولم يُبحروا أبعد من ذلك في معظم الأوقات، بل كانوا يتنازعون حاجتهم هناك من التجار الهنود أو العرب أو الإفريقيين^(١).

كانت للبيزنطيين مصالح تجارية وسياسية ودينية في الحبشة. وكانت هذه المصالح كثيراً ما تلتقي ببعض المصالح الحبشية، أو بجمعها. بل كثيراً ما كانت المصالح السياسية والاقتصادية والدينية منسجمة تمام الانسجام، إذ «كان نشر الديانة المسيحية عند ملوك الروم وسيلة لنشر استعمارهم وترسيخ أقدامهم في بلاد أعدائهم» على ما يراه ولفنسون الذي يضيف: «وكان الروم يحسبون حساباً كبيراً للحبشة، إذ كانت على طريق تجار الهند من ناحية، كما كانت على تخوم بلاد مصر من ناحية أخرى». ولا يبدى ولفنسون، وهو يهودي، شغفاً بما حاولت بيزنطة أن تفعله في اليمن إذ يقول: «وقد اجتهد الروم في نشر المسيحية في بلاد حمير، فأرسل قسطنطين هدايا إلى ملوك حمير فوفق إلى تعمير ثلاث كنائس لتجار الروم في اليمن. على أن الغرض الحقيقي من هذه الكنائس كان ترسيخ قدم الاستعمار الرومي في تلك البلاد»^(٢). غير أن اليهودية أيضاً سعت إلى أن تفعل ما سعت إليه بيزنطة والحبشة، فقال الدوري: «حاولت المسيحية واليهودية أن تتغلغلا في الجزيرة العربية وكانتا متصلتين بالصراع السياسي، إذ بدت كل منهما حليفة لإحدى الدولتين الطامعتين»^(٣). ولم يكن اليهود وحدهم متحالفين مع الفرس في تطلمعهم إلى اليمن والشواطئ المطلة على المحيط الهندي، بل

انتشر النفوذ الفارسي على شواطئ الخليج، مع انتشار الكنائس المسيحية النسطورية^(١). وكان انتشار اليهود جيداً على شواطئ البحر الأحمر حتى النيل، من مصر إلى الحبشة، فيما امتد وجود اليهود في الجزيرة العربية من خيبر ويثرب جنوباً حتى اليمن. وكان هذا الانتشار على جانبي البحر الأحمر وعلى طول طريق القوافل البرية حتى فلسطين ملائماً جداً لجعلهم يضطلعون بمهام خطيرة في الصراع السياسي على طرق التجارة الشرقية، بخاصة لعدم افتقارهم إلى الخبرة التجارية ورأس المال اللازم والحوافز السياسية المناهضة لرومة ثم بيزنطة^(٢). وقد يكون امتداد اليهود على طول الطريق من فلسطين إلى اليمن قديماً جداً، إذ إن إحدى كتابات القبور في جنوب شرق حيفا ذكرت عن «منحمة قولن حميرن»، أي مناحيم قبل حمير، أنه جاء إلى فلسطين لزيارة العلماء اليهود، فمريض ومات هناك. ورجح أن يكون تاريخ الكتابة قريباً من سنة ٢٠٠ م^(٣). وهذا قد يدل على أن اليهودية دخلت اليمن قبل عهد الملك أسعد أبي كرب في أوائل القرن الخامس^(٤). إلا أن النقوش التي ذكرت التحول الديني عن الوثنية في أواخر القرن الرابع، إلى دين يقول الإخباريون إنه اليهودية، هي أول دليل أثري على أن اليهودية ربما أصبحت ديناً «رسمياً» في اليمن. وقد نسب ولفنسون هذا التحول إلى حوافز سياسية حين قال إن «سبباً اتحدت مع جميع العناصر القومية في اليمن وطردت الأحباش من ديارها تحت قيادة الملك كرب، وكان قد تهودت ذريته حوالي ٤٠٠ بعد المسيح واستمر حكم هذه الأسرة الحميرية المتهودة إلى عهد ذي نواس الذي انهزم أمام الحبشة سنة ٥٢٥ بعد الميلاد»^(٥).

ج - دخول النصرانية اليمن

أما النصرانية فدخلت اليمن في أعصر مختلفة ومن مصادر مختلفة، ولذا

(١) Rodinson: op.cit., pp. 7, 8.

(٢) Trimmingham: Islam in Ethiopia, pp. 35, 41. وبيضون: الحجاز... ص ٧٥.

(٣) جواد علي: ج ٦، ص ٥٣٩.

(٤) Von Wissmann: Himyar Ancient Hist., pp. 492, 493. وانظر أيضاً الصلوي: ص ١٨.

(٥) Von Wissmann: ibid. وكذلك ولفنسون: ص ٢٤٠.

(١) Rodinson: op.cit., p. 29. وجواد علي: ج ٢، ص ٦٥٧.

(٢) ولفنسون: ص ٢٦٠.

(٣) الدوري: مقدمة في التاريخ الاقتصادي... ص ٩، ١٠.

تباين الروايات العربية والسريانية والحبشية والبيزنطية في هذا الشأن. والثابت أن النصرانية دخلت اليمن من الشام والعراق من طريق القوافل التجارية، ومن الحبشة في ظل المبشرين والتجار والجنود^(١). وطبيعة البلاد المفتوحة وإقبال أصحاب المصالح عليها من أجل التجارة، جعلها مرفأً قاناً، بين عدن وحضرموت، مركزاً مبكراً للمسيحية إذ جاءه المبشرون والتجار من بيزنطة والحبشة والخليج^(٢). والشائع لدى كثير من المؤرخين السريان، أن أول من دعا إلى النصرانية في اليمن والحجاز، هو الرسول برتلمائوس، وأنه نصر خلقاً كثيراً من اليمنيين، وبخاصة اليهود منهم، وترك لديهم نسخة من إنجيل متى باللغة الآرامية، فوجدها لديهم الفيلسوف الإسكندري بنتينوس (Pantaenus) أستاذ المدرسة الإسكندرية اللاهوتية الذي أوغل في تلك البلاد مبشراً في أواخر القرن الثاني. وقد اشتد الصراع بين الروم والفرس على اليمن في أواخر عهد الاحتلال الحبشي بُعيد منتصف القرن الرابع في عهد الإمبراطور قسطنطينوس الثاني الأريوسي، الذي حاول تعزيز التحالف اليمني مع الحبشة وبيزنطة وأرسل ثيوفيلوس الهندي على ما سلف، إلى بلاط حمير ليتوسط من أجل بناء ثلاث كنائس للتجار الروم، واحدة في عدن وثانية في ظفار وثالثة في هُرمُز على الأرجح. لكن المهمة التي نجحت في ذلك بعض الوقت فشلت في تثبيت التحالف السياسي طويلاً، فثار اليمنيون على الأحباش وطردهم^(٣) لتحل اليهودية محل المسيحية في موقع عقيدة الدولة. إذ كان اليمنيون يرون على ما يبدو أن النصرانية هي دين أجنبي أحضره أغراب. ولا غرو لو نظر اليمنيون إلى معتنقي هذا الدين، ضمن تلك الظروف التاريخية، نظرتهم إلى مَنْ انحاز إلى المحتل الحبشي^(٤). وقد سلفت الإشارة إلى ما ذكرته بعض الكتب المسيحية عن وجل، قالت إنه من غسان، وقد إلى اليمن في النصف الثاني من القرن

(١) Von Wissmann, p. 492. وانظر الصلوي: ص ٢٤.

(٢) Shahid, Irfan: Byzantium in South Arabia, Dumbarton Oaks Papers XXXIII, 1979, Dum-

barton Oaks Center for Byzantine Studies, Washington, p 49

(٣) Von Wissmann, p.493. وانظر الصلوي: ص ٣٦.

(٤) Devreesse: op.cit., p. 279

الخامس، وتمكّن من تنصير ملكها عبد كلال بن مثوب، وكيف وأن حمير وثبت عليه وقتلته^(١). كذلك، روت بعض التواريخ الدينية عن كاهن نصراني يدعى أزقير كان يقيم في نجران، فدعا أهل تلك المدينة إلى النصرانية، فأمر ملك حمير شرحبيل ينكف بحبسه، فأفلت من السجن وعمد جمعاً كثيراً ثم قُتل مع ثمانية وثلاثين من أتباعه. وقد أصبحت نجران كرسياً أسقفياً لأنصار الطبيعة الواحدة في العقد الثاني من القرن السادس، أي في عز اشتداد الصراع الحميري الحبشي. وكان طبيعياً أن يلقي انتشار النصرانية مقاومة شديدة، لارتباط الدين ارتباطاً وثيقاً بالمصالح السياسية والاقتصادية، ولأن بيزنطة أيدت نشر النصرانية على افتراض أن نشرها يمهد السبيل إلى بسط النفوذ السياسي والاقتصادي^(٢). بل إن مجرد مجيء المسيحية مع التجار والمبشرين من الحبشة، كان يصبغ هذا الدين بالصبغة التي تثير شبهة الحميريين ومقاومتهم، بخاصة بعدما أصبحت المسيحية عقيدة رسمية للحبشة في منتصف القرن الرابع بفعل التغلغل البيزنطي التجاري والسياسي والديني، وبفعل جهود المبشرين السورتيين فرومنتيوس الصوري وإديسيوس (Aedesius)، اللذين بشرًا الملك الحبشي^(٣). وقد تطوّرت المقاومة اليمنية للمسيحية إلى صراع يهودي - مسيحي شامل في القرن السادس، على ما سنرى.

وأما اختلاف روايات دخول النصرانية في اليمن فسببه على الأرجح أن كلاً من بيزنطة والنساطرة والعرب والأحباش أنصار الطبيعة الواحدة (الذين سُمّوا فيما بعد اليعاقبة)، أراد أن ينسب إلى ذاته شرف هذا الأمر. وتروي المصادر العربية عن رجل اسمه فيميون دعا الله أن يرسل على نخلة كانوا يعبدونها ريحاً صرصراً،

(١) الطبري: التاريخ، ج ٢، ص ٨٦.

(٢) في شأن بيزنطة ونجران وبيزنطة وحمير انظر Shahid: Byzantium (5c), pp. 360 sqq, 376 sqq. وكذلك الصلوي، ص ١٦، ٣٦ - ٣٨. والصلوي يستشهد والكتب النصرانية التي تحدثت

عن أزقير ونصاري نجران.

(٣) Trimingham: Christianity وكذلك Trimingham: Islam in Ethiopia..., pp. 22, 38

. among..., pp. 288 - 293

فأتت الريح عليها واهتدى الناس وآمنوا بدين فيميون. ونسب إخباريون دخول المسيحية اليمن إلى العربي الذي قالوا إنه نصر الملك عبد كلال في النصف الثاني من القرن الخامس. والقول إن هذا الرجل كان من غسان قد يعني أنه كان من أنصار الطبيعة الواحدة. ومن روايات العرب في تنصير اليمنيين قصة عبد الله بن الثامر في نجران^(١) وكانت النصارى في نجران على مذهب الطبيعة الواحدة أيضاً. وتجعل المصادر النسطورية دخول المسيحية إلى اليمن في مطلع القرن الخامس، في عهدي أسعد أبي كرب ملك اليمن الذي تهوّد، ويزدجرد الأول إمبراطور الفرس. وتنسب هذه المصادر الفضل في ذلك إلى تاجر من أهل نجران اسمه حيّان أو حنان سافر إلى القسطنطينية ثم إلى الحيرة ونشر النصرانية في حمير. وهذه رواية معقولة، إذ إن النفوذ الفارسي في هذه المرحلة من تاريخ اليمن كان في تعاظم^(٢).

وروى البيزنطيون بالطبع رواية مختلفة، تنسب الفضل في تنصير اليمنيين إلى قسطنطيوس الثاني، الذي أرسل ثيوفيلوس الهندي إلى ملوك حمير في أوائل النصف الثاني من القرن الرابع للميلاد، ونسب الأحباش سبق التنصير إلى حلفائهم في نجران^(٣). وتؤكد الأبحاث التي تناولت النصرانية في اليمن ومنها «شهداء نجران»^(٤)، أن نصارى اليمن كانوا في معظمهم من أنصار الطبيعة الواحدة قبيل غزوة الأحباش سنة ٥٢٥ م. وهذا يوحي بقيام علاقة وثيقة بينهم وبين الأحباش الذين كانوا على هذا المذهب أيضاً، وبينهم وبين بلاد الشام والقساوسة ربما. لكن المذاهب الأخرى كانت قائمة أيضاً، إذ إن النسطورية انتشرت في شرق جزيرة العرب على الخصوص، ويُفترض أنها تعززت بعد

(١) الطبري: التاريخ، ج ٢، ص ١٠٣. وكذلك سيرة ابن هشام: ج ١، ص ٣٤.

(٢) جواد علي: ج ٦، ص ٦١٤.

(٣) جواد علي: ج ٦، ص ٦٠٨ - ٦٢٢. ويلاحظ أن المصادر اليونانية تسمي اليمنيين والأحباش هنوداً. وتدعو هذه التسمية إلى الحذر بسبب احتمال الخلط.

(٤) Shahid, Irfan: The Martyrs of Najran, New Documents, Société des Bollandistes, (٤)

Bruxelles, 1971. وفي هذا الكتاب انظر ص ٢٥٢ - ٢٦٠، في شأن ارتداد ملوك الحبشة عن

المسيحية وعودتهم إليها أوائل القرن السادس.

إجلاء الأحباش عن البلاد في سنة ٥٧٢ م. كذلك يعتقد كل من شهيد وسميث أن أبرهة الحبشي الذي حكم اليمن نحواً من أربعين سنة كان خليفدياً، على الأرجح ولم يكن يعقوبياً على مذهب قومه، لارتباطه السياسي ببيزنطة^(١). ولذا تحوّل كثير من نصارى اليمن على ما يُفترض إلى المذهب البيزنطي الرسمي في أيامه، قبل الثورة اليمنية التي أعادت النفوذ في البلاد إلى الفرس.

د- بداية الصراع في القرن السادس

كانت أرض اليمن في بداية القرن السادس مهيدة تماماً لامتداد الصراع البيزنطي الفارسي إليها. فقيما كانت بيزنطة تعزّز تحالفها مع الأحباش وتساند نفوذها ونفوذ المسيحيين في اليمن، كان الفرس يفضلون التعامل مع اليهود والمذاهب المسيحية المناهضة للروم، مثل النسطورية. وقد استطاع اليهود أن يحكموا اليمن، من أول القرن الخامس إلى أواخره تقريباً، وتمكنوا، على قول هارتمان، من تولّي الوظائف المالية في حكومة حمير ومن تنظيم موازنتها، فسيطروا على المراكز الحساسة. ويرى سميث أن سلطة اليهود استمرت في اليمن قوية خلال حكم السلالة الحميرية، منذ عهد تَبَّان أسعد أبي كرب في أول القرن الخامس، حتى عهد الملك مرثد ألن في أواخره. وكان جميع الملوك متهودين (باستثناء عبد كلال بن مثوب بُعيد أواسط القرن)، ويتصلون اتصالاً وثيقاً ببشر، مركز اليهود الأقوى في جزيرة العرب. ولكن نفوذ اليهود أخذ ينحسر ونفوذ النصارى يتعاظم بدعم الأحباش، حتى أصبح النصارى هم الحكام الحقيقيون في عهد الملك معديكرب يعفر الذي أوصله نصارى نجران إلى العرش في أوائل القرن السادس. وعاد وجود النصرانية في اليمن إلى الاقتران بالنفوذ الحبشي وصار يرمز إلى الخضوع له وللنفوذ البيزنطي^(٢). وانتشرت الكنائس، لا سيّما في نجران وظفار ومأرب وحضرموت وهجرين^(٣). ولم تكن الخلافات بين الأسر الحاكمة سوى عامل من عوامل تشجيع القوى الخارجية

(١) Shahid: Ibid, p. 205. وكذلك: Smith: op.cit., p. 462.

(٢) Smith: ibid. وانظر الصلوي: ص ١٩، ٢٠.

(٣) الصلوي، ص ١٧، ٥٥.

على محاولة استغلال الصراع الديني لأغراض تتعلق بالمصالح التجارية والأحزاب السياسية^(١). وكانت نجران مناسبة لهذا الاستغلال لأسباب عديدة، منها التجاري، ومنها الديني. فنجران هي ملتقى الطريقين إلى الشمال، فمنها تمر الطريق الممتدة من صنعاء ومارب ومعين إلى الشام عبر الحجاز، والطريق الأخرى إلى وادي الدواسر واليمامة فالبحرين والحيرة^(٢). وكانت في نجران جاليات دينية مختلفة، تستطيع أن توفر أي ذريعة لأي تدخل خارجي. ففيها أكبر تجمع مسيحي في اليمن، حول بيت العبادة الذي سمي بكعبة نجران، وكان بنو عبد المذان بن الديان الحارثي قد أقاموها مضاهاة للكعبة^(٣)، وارتأى فيها بعض الدارسين ما يوحي منافستها لمكة، إلا أنها كانت لرؤساء النصارى^(٤). لكن محمد بن حبيب روى أيضاً أن عبدة الأوثان كان لهم صنم في نجران، إذ جاء في «المحبر»: «روي أن الصنم يغوث كان لمذبح كلها، وكان في أنعم، فقاتلهم عليه غطيف من مراد، حتى هربوا به إلى نجران، فأقروه عند بني النار من الضباب، من بني كعب واجتمعوا عليه جميعاً»^(٥). بل إن نجران كانت كذلك من المستوطنات التي نزل بها اليهود في اليمن، فعاشوا فيها مع غيرهم من نصارى وعبدة أوثان.

وكانت شرارة الصراع أن الملك الحميري معديكرب يعفر اعتنق المسيحية، في بلاد كانت السلالة الملكية قد نشرت فيها اليهودية نحو قرن من الزمان. ولم تحجم بيزنطة عن إبداء رغبتها في انتهاز الفرصة للتدخل، فأرسل الإمبراطور أناستاسيوس (Anastasius) سنة ٥١٣ م. أسقفاً لنجران. ولم تكن تلك حادثة منفردة، إذ درج الروم على تعيين رجال الدين النصارى وإرسالهم إلى

(١) Smith: op.cit., p. 462.

(٢) Trimingham: Christianity among..., p. 294. وكذلك جواد علي: ج ٢، ص ٥٠٧، ٥٠٨.

(٣) جواد علي: ج ٦، ص ٤١٧.

(٤) Fahd, Toufic: Le Panthéon de l'Arabie Centrale à la veille de l'Hégire, Librairie Orientale-

liste Paul Geuthner, Paris, 1968, p. 121.

(٥) المحبر، ص ٣١٧.

نجران، حتى أخذ النجرائيون ببعض من الثقافة الرومية. وروى أن الأعشى استمع في نجران إلى الغناء الرومي، مما يدل على وثوق اتصال هذه المدينة اليمنية وجوارها بالإمبراطورية البيزنطية^(١). وقد صادف تنصر الملك الحميري أن نشبت الحرب بين بيزنطة والفرس في أوائل القرن السادس، وأخذت حاجة بيزنطة إلى طريق البحر الأحمر وطريق القوافل البرية عبر الحجاز تشتد. وعلى الرغم من أن المصادر العربية تروي عن الملك اليهودي زرعة ذي نواس (يوسف أسار يثار)^(٢)، أنه استولى على الحكم بعد قتله الملك الفاسق ذي شناتر، إلا أن النقوش الحميرية تؤكد أن ذا نواس كان من أسرة الملك النصراني معديكرب يعفر، وأنه خلفه بعدما مات، وتهود بعد توليه الحكم وكان مسيحياً قبل ذلك^(٣). ويؤيد «المحبر» النقوش الحميرية في أن ذا نواس كان مسيحياً، إذ يقول محمد بن حبيب: «وملك بعده، ثم تهود ودان باليهودية ودعا الناس إليها»^(٤). فقله: ثم تهود، يعني أنه اعتلى العرش الحميري وهو يدين بالمسيحية. وليس من سبيل الآن إلى التيقن من الترتيب الزمني الدقيق لتسلسل بعض الحوادث، فقد اعتلى ذو نواس العرش وتهود. وشن الأحباش على اليمن غزوتين. وحدثت حادثة الأخدود التي قتل فيها الملك الحميري جمعاً من المسيحيين. وتروي المأثورات المسيحية أن سبب الغزوة الحبشية هو قتل ذي نواس نجران. لكن حادثة الأخدود الشهيرة، التي يُفترض أنها حدثت في الخامس والعشرين من تشرين الثاني / نوفمبر سنة ٥٢٠ م^(٥)، وقعت حتماً بعد الغزوة الحبشية الأولى. وفي مقابل ما ترويه المصادر المسيحية عن سبب الصراع والغزوة، تروي مصادر عربية أن سبب الصراع أو شرارته الأولى كان قتل نصارى نجران جماعة من

(١) جواد علي: ج ٦، ص ٥٤١، و ج ٩، ص ٩٣. وانظر كذلك Trimingham: Christianity

among..., p. 296.

(٢) عن أسماء الملك ذي نواس أنظر: 266 - 260 pp. Shahid: The Martyrs....

(٣) Ibid., pp. 266 - 268.

(٤) المحبر، ص ٣٦٨.

(٥) Shahid: The Martyrs..., pp. 235 - 242.

اليهود هم أبناء رجل يهودي من المدينة يدعى دُوساً^(١). وفي أية حال فإن الصراع كان سوف يقع، لأن بيزنطة كانت تسعى إلى ضمان طريق التجارة الشرقية عبر البحر الأحمر. ولو لم يجد الطرفان ذريعة لما أعوزتهما الحيلة للقتال. وقد رأى المؤرخ بروكوبيوس (Procopius) ذلك بوضوح إذ ذكر أن المسألة كانت مسألة منع طرق التجارة الشرقية من السقوط في أيدي الأعداء الذين ما إن يسيطروا على هذه الطرق حتى يطلبوا ذهباً مقابل بضاعتهم الثمينة النادرة^(٢). ويعبر ديفريس ببراءة عن هذا بقوله: «وجرت محاولة ثانية لتتصير البلاد في عهد أنستاسيوس فأرسل إلى الحميريين أسقف اسمه سيلفان (Sylvanus). وفي الوقت نفسه استعيد الاتجار مع جنوب الجزيرة العربية»^(٣).

هـ - الغزو الحبشي الأول لليمن

تُجمع المصادر والمراجع على أن الحبشة شنت غزوتين عسكريتين على اليمن في الربع الأول من القرن السادس. وتجمع المصادر المسيحية على أن نصارى اليمن قد اضطهدوا مرتين ولذا شنّ الأحباش هاتين الغزوتين لوقف هذا الاضطهاد. وقد أمكن حصر تاريخ الاضطهاد الثاني، وهو الاضطهاد الأكبر، ويسمى في المصادر الإسلامية وقعة الأخدود، في سنة ٥٢٠م. كذلك تبين أن الغزوة الحبشية الأولى التي كانت أصغر من الغزوة الثانية، حدثت في سنة ٥١٨م. فيما تؤكد معظم المصادر والمراجع أن الغزوة الثانية حدثت في سنة ٥٢٥م. على الأرجح. وبناءً على إشارات تدلّ على أن نجاشي الحبشة في الغزوة الأولى كان وثنيّاً، وكان في الثانية مسيحياً، اشتبه في أن صاحب الغزوتين هو الملك «إلا أصبح»، الذي تنصّر بعدما نذر أن يعتنق دين المسيح إذا آتاه نصراً في غزوته الأولى. ويُفهم من هذا أن ملوك الحبشة الذين تنصّروا في القرن الرابع، لم يمكثوا على النصرانية، وعادوا إليها في الربع الأول من القرن

(١) العسكري، أبو هلال: الأوائل، تحقيق محمد المصري ووليد قصاب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٧٥، ج ١، ص ٢٨. وكذلك الطبري: التاريخ، ج ٢، ص ١٠٨.

(٢) Rodinson: op.cit., p. 31

(٣) Devreesse: op.cit., p. 279

السادس لدى احتدام حربهم مع اليمن، واشتداد حاجتهم إلى الدعم البيزنطي في هذه الحرب^(١). ويظهر من الدراسات الحديثة التي استندت إلى نصوص النقوش الأثرية التي عثر عليها ريكمنس وفليبي أن مواجهة الملك المتهود يوسف أسار للغزوة الحبشية الأولى كانت مرنة. ويُعتقد أنه عجز عن جمع حمير لمؤازرته فأثر المراوغة. وأيدت هذه الدراسات على نحو غير مباشر ما جاء في بعض المصادر العربية الإسلامية حول هذا الأمر. إذ يروي أبو هلال العسكري في «أوائله» سبب نشوب الصراع بقوله: «وكان لدوس - رجل من يهود نجران - ضيعة يخرج بنوه إليها ليلاً. فيُجرون فيها الماء أكثر مما يخصّها، فاجتمعت نصارى نجران فقتلوهم وطلبوا أباهم دوساً فأعجزهم... فسار حتى قدم على ذي نواس - وكان تهود - فشكا إليه ما أصيب به، فخرج إلى أهل نجران فحاصروهم، ثم عاهدوهم، فلما تمكّن منهم، أوقع بهم وهم مغترون، فلم يُنَجّ منهم إلا الشريد، فلاحق بعضهم بالنجاشي ومعه الإنجيل قد أحرق أكثره، فلما رآه ساء، فكتب ملك الروم بذلك، واستدعى من جهته سفناً يحمل فيها الرجال إلى اليمن»^(٢). وأما عن مقاومة ذي نواس لهذه الغزوة الأولى، فقال أبو هلال: «وبلغ ذاك ذا نواس، فصنع مفاتيح كثيرة، فلما دنا منه جيش الحبشة أرسل إليهم بها وقال: هذه مفاتيح خزائن اليمن، فخذوا المال والأرض وأنا طوع لكم، فاطمأنوا وتفرّقوا في المخاليف يجبون، فأرسل ذو نواس إلى المقاولة: إذا كان يوم كذا فاذبحوا كل ثور أسود فيكم، فعملوا الذي أراد، فقتلوهم، فلم يبق منهم إلا القليل»^(٣). أما الطبري فاختلفت روايته في بعض التفاصيل لكنها لم تختلف في الجوهر إذ قال: «إن السفن لما قدمت على النجاشي من عند قيصر حمل جيشه فيها فخرجوا في ساحل المنذب، قال: فلما سمع بهم ذو نواس كتب إلى المَقَاوِل يدعوهم إلى مظاهرتهم وأن يكون أمرهم في محاربة الحبشة ودفعهم عن بلادهم واحداً. فأبوا وقالوا: يقاتل كل رجل عن مقوله وناحيته. فلما رأى ذلك

(١) Shahid: The Martyrs..., pp. 252 - 260

(٢) الأوائل، ج ١، ص ٢٨، ٢٩.

صنع مفاتيح كثيرة ثم حملها على عدة من الإبل وخرج حتى لقي جمعهم، فقال هذه مفاتيح خزائن اليمن قد جئتكم بها فلکم المال والأرض واستبقوا الرجال والذرية. فقال عظيمهم: أكتب بذلك إلى الملك، فكتب إلى النجاشي، فكتب إليه يأمره بقبول ذلك منهم، فسار بهم ذو نواس حتى إذا دخل بهم صنعاء قال لعظيمهم: وَجَّه ثقات أصحابك في قبض هذه الخزائن، ففرق أصحابه في قبضها ودفع إليهم المفاتيح. وسبقت كتبُ ذي نواس إلى كل ناحية أن اذبحوا كل ثور أسود في بلدكم، فقتلت الحبشة فلم يبق منهم إلا الشريد^(١). إن مقارنة هذه الرواية بخلاصة ما استنتجته بعض الدراسات الحديثة، تعزز الرأي أن المصادر العربية هي أجزل المصادر بالمعلومات عن قصة نجران في هذه المرحلة^(٢). إذ روى ديفريس أن النجاشي إلا أصبح انتصر في غزوته الأولى ثم تنصّر وأقام على حكم اليمن نائباً للملك، وأن ذا نواس تمالك قواه واستجمع أنصاره وعاود مقاتلة الحبشة، وأن شتاء ٥٢٢ - ٥٢٣ م حال دون قيام النجاشي بحملة ثانية. ولذا اضطر نائب الملك إلى طلب نجدة المنذر ملك الحيرة. غير أنه مات، فاستعاد ذو نواس سيطرته على البلاد^(٣). ويبدو أن النجاشي أقام نحواً من سبعة أشهر في اليمن بعد غزوته الأولى. فبنى كنائس عديدة وشجع النصارى على الإقامة والعبادة الحرة، وأخضع البلاد للجزية وجعل حاميات حبشية لتعزيب حكم نائبه وحراسة الكنائس، ثم عاد إلى الحبشة ومعه عدد من الأسرى والمناوئين لحكم الحبشة^(٤)، وكذلك معظم جيشه. وقد يكون إلا أصبح اطمأن إلى إحكام سيطرته على اليمن، أو قد يكون احتاج إلى جيشه في مكان آخر غير اليمن، فسحب معظم جنود^(٥). ويُعتقد أن ذا نواس انسحب إلى الجبال تجنباً للقتال، حتى إذا لحظ انكفاء الاحتلال الحبشي إلى بعض حاميات على السواحل في الأشاعر وحضرموت ومُخَا، وفي ظفار ونجران، هاجم

(١) الطبري: التاريخ، ج ٢، ص ١٠٨.

(٢) Shahid: Byzantium in South Arabia..., p. 28.

(٣) Devreesse: op. cit., p. 280.

(٤) الصلوي: ص ٥٤.

(٥) Rodinson: op. cit., p. 31.

هذه المواقع فأحرق في ظفار العاصمة، الكنيسة الكبرى التي التجأ إليها مائتان وثمانون من الأحباش، فيما تولى قائده شراحيل ذو يزأن مدامة مرفاً مُخَا، ثم اتجه ذو نواس إلى نجران معقل النصارى الأكبر في اليمن، ومركز قوة حلفاء الحبشة والبيزنطيين، حيث قتل مقتلته الكبرى التي اشتهرت في التاريخ^(١)، باسم وقعة الأخدود^(٢).

- و- عزل ذي نواس

بدأت بيزنطة والحبشة الإعداد للغزوة الثانية إعداداً عسكرياً وسياسياً. كانت بيزنطة ترغب على ما يبدو في اعتماد طريق التجارة الشرقية عبر البحر الأحمر أو الجانب الغربي من جزيرة العرب بعد اضطراب طريق الفرات، ولم يكن هذا أمراً مضموناً مع بقاء اليمن في يد ملك يهودي معاد لبيزنطة. وكان الإعداد لحملة اليمن الحبشية يحتاج إلى تسكين مواقع الصراع الأخرى، خصوصاً في بادية الشام، وإلى محاولة عزل ذي نواس عن حلفائه المحتملين (ملوك الحيرة والفرس). وكان مؤتمر الرملة، جنوب شرق الحيرة، سنة ٥٢٤ م. فرصة ممتازة لتحقيق هذين الغرضين. ولا شك أن هذا المؤتمر كان من أهم الحوادث في الملف الدبلوماسي للعلاقات البيزنطية العربية قبل ظهور الإسلام. ففي سنة ٥٢٣ م. أوفد جستينوس الأول سفيره أبراهام (Abraham) بن أفراسيوس (Euphrasius)، وهو خبير في الشؤون العربية، ليفاض المنذر ملك الحيرة في شأن عقد صلح بين بيزنطة والفرس. وكان المنذر قد أغار قبل سنوات على أراضي الروم وأسر اثنين من كبراء بيزنطة هما تيموستراتوس (Timostratus) بن سيلفانوس (Sylvanus) ويوحنا بن لوقا. وأسفرت المهمة عن نجاح المفاوضات في وضع معاهدة سلام في شباط/ فبراير ٥٢٤ م.، وفي إطلاق سراح الأسيرين البيزنطيين المرموقين لقاء فدية عظيمة، وفي تعهد المنذر أن يعامل المسيحيين

(١) Devreesse: op. cit., pp. 279, 280. وكذلك: Rodinson: op. cit., p. 31. والصلوي: ص ٢٣،

(٢) Shahid: The Martyrs of Najran...

اليعاقبة وغيرهم معاملة حسنة^(١).

وفي أثناء مؤتمر الرملة، الذي حضره ممثلون لملك الفرس قباد، حضر من اليمن مبعوث أرسله ذو نواس لحث ملك الحيرة والملك الفارسي على اجتناب المسيحيين من أراضيهم. هل كان حضوره مصادفة، أم ان كلاً من بيزنطة وذي نواس كان عالماً بنية الآخر؟ لا ندري. لكن وصول المبعوث اليمني حوّل مجرى المؤتمر إلى نزاع دبلوماسي حول مستقبل المدخل الجنوبي للبحر الأحمر. كانت بيزنطة تستعد لإرسال سفنها عبر البحر الأحمر إلى الحبشة لمساعدتها في نقل جنودها في إنزال كبير للاستيلاء من جديد على حكم اليمن. وجاءت مساعدة غير منتظرة للموفد البيزنطي من مسيحيي الحيرة الذين كان مبعوث ذي نواس يحاول تحريض المنذر عليهم، فقام أحدهم، زيد بن أيوب، ليؤيخ المنذر على نزوعه إلى قبول مقترحات ملك اليمن اليهودي، وارتأت البعثة البيزنطية أن المجتمع المسيحي في الحيرة قادر على أداء مهمة بيضة القبان في ترجيح إحدى الكفتين وردع المنذر عن التحالف مع ذي نواس. وكان تأييد بيزنطة لليعاقبة اليمنيين الذين مثلهم في المؤتمر سمعان الأرشامي، صاحب الرسالة الشهيرة عن شهداء نجران، يؤدي هذا الغرض السياسي في المؤتمر. وقد يكون الإمبراطور البيزنطي الخلقيدوني جستينوس قد تأثر لقتل اليعاقبة في نجران، مع إنه لم يحسن معاملتهم في إمبراطوريته، إلا أن حافزه الأول لا بد وأنه كان خوفه على مصالح الإمبراطورية من الضياع بسبب خروج حكم اليمن من أيدي حلفاء بيزنطة. هذه كانت أغراض البيزنطيين في مؤتمر الرملة.

أما ذو نواس، فعلى الرغم من أن استعادته للحكم في اليمن كانت تبدو مطلقة، إلا أن استقرار حكمه والولاء الديني الجديد الذي أنشأه، لم يكونا مضمونين. وفيما كان ذو نواس يتوقع الدعم بطبيعة الحال من الحيرة، كانت الحيرة مصدر قلقه أيضاً، لأنها صَدَّرت إلى نجران والجزيرة العربية المسيحيين النساطرة ثم اليعاقبة. وكان القضاء على مسيحيي الحيرة ضرورياً لاستقرار حكمه. ولذا لم تكن دعوة ذي نواس المنذر إلى إبادة المسيحيين في مملكته

(١) Shahid: The Conference of Ramla..., p. 115

دعوة موتور متعصب، على ما جاء في الوثائق المسيحية المتعلقة بشهداء نجران، بل كانت دعوة حاكم بعيد النظر، يخوض صراعاً مصيرياً مع أعدائه^(١). وقد حاول ذلك بحكمة ظاهرة. ففي بعض ما خاطب به ملك الفرس، أشار ذو نواس في الرسالة التي حملها مبعوثه، إلى الشمس على أنها عنصر مشترك في معتقدات الزرادشتيين واليهود. ومع أن الشمس لا مكان لها في دين اليهود، إلا أن المعنى السياسي للتلميح ليس خافياً. ولم يكن قباد يجهل أن الفرس واليمنيين اليهود، وإن كانوا مختلفين في الإيمان، إلا أنهم يتفقون في مناهضة العقيدة المسيحية، أو على الأقل الدولة البيزنطية التي تتخذها ديناً رسمياً.

هل كانت دولة الفرس في حاجة إلى سلام مع بيزنطة في جبهة بادية الشام، أم ان إغراء الفدية التي دُفعت للإفراج عن المسؤولين البيزنطيين كان شديداً، أم ان قباد والمنذر كانا غافلين عن خطة بيزنطة لغزو اليمن وشيكاً؟ لقد تخلّى المنذر وقباد لسبب لا نعلمه عن ذي نواس وحقق أبراهام مبعوث بيزنطة أعظم مآثره الدبلوماسية في مؤتمر الرملة، فعقد صلحاً مع الفرس واستطاع الإفراج عن الأسيرين، ثم سجّل أن بيزنطة دافعت عن مسيحيي الحيرة رغم أن معظمهم نساطرة. وحال دون تحالف المنذر مع ذي نواس، ونجح بذلك في عزل الملك اليمني عن القوى الوحيدة المؤثرة التي كانت تستطيع نجاته. فلما عاد إلى القسطنطينية أقنع الإمبراطور جستينوس بقبول تحليله السياسي لاحتمالات تطور الوضع في الجزيرة. وهكذا كان الحال مناسباً لغزوة اليمن الثانية^(٢).

- ز- الغزو الحبشي الثاني لليمن

«فخرج رجل من أهل نجران حتى قدم على ملك الحبشة... وأتاه بالإنجيل قد أحرقت النار بعضه، فقال له: الرجال عندي كثير، وليست عندي سفن، وأنا كاتب إلى قيصر في البعثة إليّ بسفن أحمل فيها الرجال. فكتب إلى

(١) Shahid: Ibid, pp. 115, 119, 120, 125, 127

(٢) Shahid: Ibid, p. 130

قيصر في ذلك وبعث إليه بالإنجيل المحرق فبعث إليه قيصر بسفن كثيرة^(١). هكذا وصف الطبري مشروع الغزو البيزنطي الحبشي المشترك ومساهمة كل طرف فيه. لم يكن التفسير الديني مقبولاً في تسويغ التحالف بين مملكة مسيحية تعتنق المذهب اليعقوبي، هي الحبشة، وإمبراطورية تتخذ المذهب الخلقيدوني مذهباً رسمياً، بل تضطهد اليعاقبة. وقد تنبّه مونتغمري وات إلى هذا الالتباس فقال إن جستنيانوس، الذي كان أهم مستشاري جستينوس في السياسة الخارجية، ولم يكن قد اعتلى العرش بعد، وافق حتماً على غزو الحبشة لليمن على الرغم من عقيدته الخلقيدونية، ذلك أنه كان يفضل وجود اليعاقبة في اليمن، على وجود اليهود أو النساطرة المتصلين بالفرس^(٢).

وقد أيدت المصادر الأخرى وصف الطبري لمساهمات الحليفين البيزنطي والحبشي في غزوة اليمن الثانية، فلا بيزنطة كانت قادرة على إرسال العدد اللازم من الجنود، ولا الحبشة كانت تملك وسيلة الإنزال الكافية. ولذلك استخدم أسطول بيزنطي في نقل الجنود الأحباش عبر البحر الأحمر من ضفته الغربية إلى ضفته الشرقية^(٣). وحفظت لنا رواية استشهاد الحارث النجراني ثبناً مهماً للسفن التي استخدمت في الإنزال: خمس عشرة من أيلة، عشرون من القلزم، سبع من يوتابه، اثنتان من برنيس (Berenice جنوبي الشاطئ المصري المطل على البحر الأحمر)، سبع من فرسان (Farsan: جنوبي البحر الأحمر)، تسع من إنديكه (Indice: في إريتريا على الأرجح)، أي ما مجموعه ستون سفينة. وكان معظم السفن بيزنطي، وبعضها استؤجر من بعض التجار، أما النجاشي فأضاف إلى هذا الأسطول عشر سفن بناها لهذه المهمة^(٤).

ولا تكتمل صورة الغزو الحبشي لولا المراجع الإسلامية في روايتها المعروفة. فيقول أبو هلال العسكري: «وبلغ النجاشي ذلك، فجهّز إليهم سبعين

(١) الطبري: التاريخ، ج ٢، ص ١٠٦.

(٢) Montgomery-Watt: Muhammad at Mecca, p. 12.

(٣) Shahid: Byzantium in South Arabia, p. 25.

(٤) Rodinson: op.cit., p. 32. وكذلك: Shahid: The Conference of Ramlā, p. 129.

الفاً عليهم أبرهة وتركي بن حزام وأمرهم ألا يقبلوا صلحاً [وفي ذلك تلميح إلى الصلح الذي خُذع به الأحباش في غزوتهم الأولى]، فعلم ذو نواس أنه لا قبل له بهم فركب حتى أتى البحر، فأقحم فرسه فيه حتى غرق، وملك الحبشة اليمن^(١). وجاء في سيرة ابن هشام: «فقدم دوس على النجاشي بكتاب قيصر، فبعث معه سبعين ألفاً من الحبشة، وأمر عليهم رجلاً منهم يقال له أرياط، ومعه في جنده الأشرم، فركب أرياط البحر حتى نزل بساحل اليمن ومعه دوس ذو ثعلبان، وسار إليه ذو نواس في جُمَيْر، ومن أطاعه من قبائل اليمن، فلما التقوا انهزم ذو نواس وأصحابه، فلما رأى ذو نواس ما نزل به وبقومه وجّه فرسه في البحر، ثم ضربه فدخل به فخاض به ضحضاح البحر، حتى أفضى به إلى غمره فأدخله فيه وكان آخر العهد به. ودخل أرياط اليمن فملكها^(٢). وروى الأندلسي رواية شبيهة^(٣). وجاء في محبّر ابن حبيب عن ذي نواس: «وبسببه جاءت الحبشة إلى اليمن فغلبت عليها لما فعل بالنصارى. وإن ذا نواس لمّا واقع الحبشة ففضّوا جيشه، اعترض بفرسه البحر فغرق خوفاً من أن يؤسر، فكان آخر العهد به^(٤). أما الأزرقي فقال: «فلما قدم [دوس] على النجاشي بعث معه رجلاً من الحبشة يقال له أرياط وقال: إن دخلت اليمن فاقتل ثلث رجالها وأخرب ثلث بلادها، فلما دخلوا أرض اليمن تناوشوا شيئاً من قتال ثم ظهر عليهم أرياط وخرج زرعة ذو نواس على فرسه فاستعرض به البحر حتى لجج به فماتا في البحر وكان آخر العهد به، فدخلها أرياط^(٥). ولعل أدق ما جاء في المصادر العربية عن هذه الواقعة ما رواه الطبري إذ قال: «فلما قدم دوس ذو ثعلبان بكتاب قيصر على النجاشي صاحب الحبشة بعث معه سبعين ألفاً من الحبشة وأمر عليهم رجلاً منهم من أهل الحبشة يقال له أرياط وعهد إليه إن أنت ظهرت عليهم فاقتل

(١) الأوائل، ج ١، ص ٢٩.

(٢) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ٣٦، ٣٧.

(٣) الأندلسي: نشوة... ص ١٥٦.

(٤) المحبّر، ص ٣٦٨.

(٥) الأزرقي، محمد بن عبد الله: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ف. فستفلد، غوتغن،

١٨٥٨، ص ٨٦.

ثلاث رجالهم وأخرب ثلاث بلادهم واسب ثلاث نسايتهم وأبنايتهم، فخرج أرياط ومعه جنوده. وفي جنوده أبرهة الأشرم، فركب البحر ومعه دوس ذو ثعلبان حتى نزلوا بساحل اليمن، وسمع بهم ذو نواس، فجمع إليه حمير ومن أطاعه من قبائل اليمن، فاجتمعوا إليه على اختلاف وتفرق لانقطاع المدة وحلول البلاء والنقمة، فلم يكن له حرب، غير أنه ناول ذو نواس شيئاً من قتال ثم انهزموا، ودخلها أرياط بجموعه، فلما رأى ذو نواس ما رأى مما نزل به وبقومه وجه فرسه إلى البحر ثم ضربه فدخل فيه فخاض به ضحضاح البحر حتى أفضى به إلى غمره فأفحمه فيه فكان آخر العهد به^(١).

ويتضح من الرواية العربية أمران مهمان، تلمح إليهما المصادر تلميحاً وينفرد الطبري بالتصريح بهما، وهما: أن الحميريين كانوا على خلاف فيما بينهم وتفرق، فلم يخوضوا الحرب مع ذي نواس مجتمعين. وهذا يفسر الأمر الثاني وهو أن القتال لم يكن شديداً وأن الحبشة انتصرت على ما يبدو بسهولة. ولعل في شعور ذي نواس بالخذلان مرتين، مرة حين استنجد الحيرة والفرس فلم ينجده، ومرة حين أخفق في جمع كلمة حمير في قتال الأحباش، تفسيراً لبقية ما جاء في المأثورات العربية من قصة ذات سمة أسطورية، أن ذا نواس أغرق نفسه ياساً بعدما رأى خسران المقاومة التي حاول تنظيمها ضد الاحتلال الحبشي سنوات.

- ح - استيلاء أبرهة على الحكم

بروي بروكوبيوس (Procopius) المؤرخ البيزنطي (حوالي ٥٠٠ - ٥٦٥ م.) رواية دقيقة لاستيلاء أبرهة الأشرم على حكم اليمن يقول فيها: «في الجيش الحبشي، كان كثير من العبيد وجميع الراغبين في السلوك مسلحاً غير قانوني، لا يرغبون في اتباع الملك على الإطلاق. وإذا تركوا هناك، مكثوا رغبة في الاستيلاء على أرض الحميريين، لأنها غنية جداً. وبعد زمن قصير تمرد هذا الرعاع مع آخرين على إسيفايوس [Esimiphaios: السُمَيْفَع] وجسوه في إحدى قلاع تلك البلاد وعينوا ملكاً آخر على الحميريين اسمه أبراموس. وكان أبراموس

(١) الطبري: التاريخ، ج ٢، ص ١٠٦، ١٠٧.

هذا في الحق مسيحياً، لكنه كان عبداً لمواطن روماني [بيزنطي] في مدينة حبشية، أدوليس، كان يقيم هناك لأجل تجارته في البحر. فلما سمع هليستايوس [Hellestheaios: إلّا أصبحه]، أراد حقاً أن يعاقب أبراموس والمتمردين على معاملتهم لإسيفايوس، فأرسل جيشاً من ٣٠٠٠ رجل إليهم وواحد من أقاربه، حاكماً. ولما أعرض جنود هذا الجيش عن أداء مهمتهم ورفضوا العودة إلى بلادهم ورغبوا في البقاء في هذه البلاد الغنية، بدأوا التفاوض مع أبراموس، في غفلة من الحاكم، واتفقوا مع الأخصام. ولما انصرفوا إلى العمل قتلوا الحاكم والتحقوا بجيش العدو وظلوا معه. وغضب هليستايوس كثيراً فأرسل جيشاً آخر إليهم، وقاتل هذا الجيش جماعة أبراموس، ولكن بعدما لحقت به هزيمة ماحقة في المعركة عاد إلى بلاده على الفور. ولم يرسل الملك الحبشي، بسبب خوفه أي حملة على أبراموس. فلما مات هليستايوس رضي أبراموس أن يدفع جزية للملك الذي خلفه على عرش الأحباش، وبذلك ضمن لنفسه حكماً شرعياً. ويستند سميث إلى هذا وإلى وثائق حبشية عن تاريخ موت الملك هليستايوس، أي إلّا أصبحه، ليخلص إلى أن الاعتراف بحكم أبرهة حدث بين السنتين ٥٣٥ و ٥٤٠ م.^(١) وأما ادعاء أبرهة مُلك اليمن فيرجح سميث حدوثه في سنة ٥٣٣ م.^(٢) وتلقي بعض التواريخ ضوءاً على السميع أشوع، الذي نصبه الأحباش ملكاً على اليمن بعد الغزو، فتشير إلى احتمال كونه يهودياً يمينياً اعتنق المسيحية وانحاز إلى الحبشة^(٣). وهذا الأمر يذكرنا بسلفه ذي نواس الذي قبل إنه كان مسيحياً وتهود، وكان لتهوده حافز سياسي. ولعل هذا الأسلوب في الانحياز السياسي إلى فريق دون آخر، شاع بين الأسر الحاكمة في اليمن، في تلك الحقبة.

غير أن المصادر التاريخية ظلت غامضة في مسألة لا تزال تنتظر الحل

(١) Procopius, translated by H.B. Dewing, Loeb Classical Library, Cambridge and London.

Smith: op.cit., pp. 431, 432 وكذلك 1979, vol. I, pp 189, 191.

Smith: ibid., p 451 (٢)

Rodinson: op.cit., p. 32 (٣)

الحاسم. وهي أن اسم الملك الذي عنه إلا أصبح على اليمن هو أبرام، فيما تشير الأدلة الأثرية والتواريخ غير الكنسية إلى أن أبرهة (أبرام) تولّى الحكم بعد السميعع أشوع. وثمة احتمال لتفسير هذا التضارب استناداً إلى رواية استشهاد الحارث النجراني. فقد جاء في الرواية أن السميعع اختار اسم أبرام للمعمودية، وهذا الأمر التيس على المؤرخين لذلك العصر، فجعلوا أبرهة هو أول حاكم لليمن بعد غزوة الأحباش^(١).

وتنشأ بسبب المصادر العربية وروايتها لحكم الأحباش في اليمن مشكلة أخرى هي أنها تجعل اسم أول ملك حبشي أرياط، مع أن اسم السميعع أشوع ليس مغفلاً في هذه المصادر. ولما كان أبرهة قد انتزع إمرة الأحباش من أرياط، فإننا نصبح إذنا أمام شخصين في منصب واحد: السميعع وأرياط، وكلاهما أزيح من هذا المنصب ليحل أبرهة محله. غير أن التدقيق في المصادر العربية قد يوحى بتفسير لهذا التناقض الظاهري. إذ يقول أبو هلال العسكري: «ونزل أبرهة صنعاء في قصر همدان، فكتب إليه النجاشي: من نزل منزل الملوك نجبره»^(٢). فلو كان ذلك في معرض قتل أبرهة أرياط لفُسر على أن النجاشي أراد أن يستنكر اغتصاب أبرهة المُلك من أرياط. لكن الموقع الذي جاءت فيه هذه العبارة، بعد موت ذي نواس، لا يوحى إلا أن أبرهة قائد عسكري نزل في قصر للملوك. ومن المنطقي أن يكون النجاشي قد استنكر هذا الطموح لدى أحد ضباطه، إذا كان الملك الحبشي يرغب في اصطناع ملكٍ يمني، أو إذا كان قد اختار فعلاً أحد الأمراء اليمنيين لاصطناعه ملكاً. ولذا ثمة احتمال أن يكون أرياط وأبرهة كلاهما «أمراء» على الجيش الحبشي، في بلاد يحكمها «ملك» هو السميعع. وهذا الاحتمال يؤيده قول ابن هشام: «فلما بلغ النجاشي [قتل أبرهة لأرياط] غضب غضباً شديداً وقال: عدا على أميري فقتله بغير أمري»^(٣)، والأمير عند المسلمين غالباً ما يكون قائداً عسكرياً. ونستخدم مصادر إسلامية أخرى

(١) Shahdi: Byzantium in South Arabia, pp. 34, 35.

(٢) الأوائل، ج ١، ص ٢٩.

(٣) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ٤٢.

كلمة المُلك، في الإشارة إلى أرياط وأبرهة، لكنه مُلك الحبشة في اليمن وليس مُلك اليمن. وقد يعني هذا إمرة الجيش الحبشي في اليمن. إذ يقول الأزرقى: «لما ظهرت الحبشة على أرض اليمن كان مُلكهم إلى أرياط وأبرهة. وكان أرياط فوق أبرهة». وهذه العبارة ترجّح استخدام كلمة المُلك هنا للإعراب عن الإمرة العسكرية، بخاصة إذا لاحظنا أن الأزرقى في بقية روايته يشتد على أن الصراع بين الرجلين كان صراعاً على إمرة الجنود الأحباش وحدها، إذ يقول: «فأقام أرياط باليمن ستين في سلطانه لا يتنازعه أحد، ثم نازعه أبرهة الحبشي المُلك، وكان في جند من الحبشة، فانحاز إلى كل واحد منهما من الحبشة طائفة، ثم صار أحدهما إلى الآخر، فكان أرياط يكون بصنعاء ومخالفها، وكان أبرهة يكون بالبحر ومخالفها، فلما تقارب الناس ودنا بعضهم من بعض لرسول أبرهة إلى أرياط: إنك لا تصنع بأن تلقى الحبشة بعضهم ببعض فتضيق بها»^(١). ثم باقي قصة أبرهة و قتله أرياط وانفراده بإمارة الجيش الحبشي. ولعل هذا حدث بعد الغزوة بستين، على ما قال الأزرقى، فيما يكون استيلاء أبرهة على عرش اليمن، لا على إمرة الجنود الأحباش، في مرحلة تالية، على ما سلف.

ط - ولاء أبرهة لبيزنطة

كان استيلاء أبرهة على الحكم في اليمن مسألة مهمة في نظر بيزنطة، لأن ولاء الحكام الجدد في اليمن هو الذي يفضي إلى الحكم بنجاح الجهد البيزنطي الذي بُذل في الغزوة، أو فشله. كان ولاء أبرهة للحبشة مهماً لملك أكسوم من أجل توسيع ملكه وتحسين موقعه لدى القسطنطينية. أما ولاؤه لبيزنطة فكان ذا أبعاد دولية أوسع لأنه يعني أن البيزنطيين حققوا غرضهم المنشود وهو السيطرة على المدخل الجنوبي إلى البحر الأحمر. وقد نجح أبرهة في الاستقلال، لكنه لم يكن مجاهداً في الصراع الدولي. فعلى رغم تمرده على ملك الحبشة وحصوله على الاعتراف بحكمه بعد استرضائه النجاشي، وهو استرضاء معنوي لأنه كان يعرف أن الحبشة لم تكن تملك على أية حال وسيلة لسلوك آخر معه، ظل أبرهة ضمن المعسكر البيزنطي، وأقام لهذا المعسكر حكماً حليفاً جعل

(١) الأزرقى: ص ٨٧.

البحر الأحمر يبدو عقوداً بحيرة مسحية^(١). ولعل أبرهة وجد في حساباته السياسية أنه قادر على الاستقلال عن الائتمار بأوامر النجاشي، لكنه كان يحتاج لضمان هذا الاستقلال إلى التحالف مع بيزنطة. وبيزنطة بحاجة إليه ضمن مشروعاتها الذي أعدت له طويلاً من أجل التحكم بمداخل البحر الأحمر ومخارجه. والتحالف مع بيزنطة قد يضمن له نوعاً ما، أن تحول القسطنطينية دون محاربة مملكة أكسوم له. وعلى الرغم من سلطان بيزنطة العظيم، فهي بعيدة عنه. والتحالف معها يتيح له استقلالاً أكبر من الاستقلال الذي يتيح التحالف مع الحبشة القريبة. وإذا كان يفترض أن أبرهة قد حسب هذه الحسابات السياسية، فإن لولائه لبيزنطة جلوداً في نفسه اكتسبها منذ أن كان عبداً لتاجر رومي في مدينة أدوليس كما قيل. وهذه الجلود تسهل ولاءه السياسي لبيزنطة وولائه العقائدي للمذهب البيزنطي الرسمي، المذهب الخلقيدوني. ومع أن الأحباش كانوا على المذهب اليقوني، مذهب القائلين بالطبيعة الواحدة في المسيح، إلا أن أبرهة مال في اليمين إلى المذهب الخلقيدوني على ما يعتقد، وهذا يرمز إلى تولية وجهه صوب بيزنطة بدلاً من الحبشة. وقد كان الأسقف الذي تولى رئاسة الكنيسة البثية في عهد أبرهة خلقيدونياً، وليس مستغرباً أن هذا الأسقف غريغنتيوس (Grogentius) لا ذكر له بين القديسين في سجلات الكنيسة الحبشية اليقونية^(٢).

وقد روى بروكوبيوس ما قد يوحي أن بيزنطة لم تكن في الأصل لتعارض خلق السميع عن حكم اليمن، ولعلها أكبرت ذلك في أبرهة سراً، إذ يقول: وفي الزمن الذي كان فيه جليستايوس ملكاً على الحبشة وإبيفايوس ملكاً على الحميريين، أوفد الإمبراطور جوستينيانوس [سنة ٥٢٩ م.] سفيره جوليانس (Julianus) ليسألهم أن يتفقا مع الروم، بسبب الإيمان المشترك، على محاربة

(١) Shahid: Byzantium in South Arabia, p. 25

(٢) Shahid: Byzantium in South Arabia, pp. 27, 32, 91. وانظر Procopius: op. cit., vol. I, p. 191

وكذلك Smith: op. cit., p. 462. وانظر أيضاً: Simon, R: L'Inscription RY 516 et la pré-

histoire de la Mecque, Acta Orientalia, (Hungaria), XX (1967), p. 330

الفرس. فالأحباش بشرائهم الحرير (البتاكسا) من الهنود وإعادة بيعه للروم يكتسبون ثروة كبيرة، ولا يستفيد الروم إلا في أنهم يكتفون عن الاضطراب إلى دفع جزء من أموالهم إلى عدوهم... واقترح كذلك على الحميريين أن يعيدوا تنصيب الهارب قيس عاملاً على مَعْد، وأن يخزوا الأرض الفارسية بجيش كبير من الحميريين أنفسهم والعرب من مَعْد. وكان قيس هذا... بارعاً في الحروب، لكنه بعد قتله أحد أقارب إسفابوس هرب إلى نواح مفرقة من الناس. وقيل كل من الملكين [الحشي واليمني] الطلب وتمهد القيام به وصرف السفير [البيزنطي]، لكن أباً منهما لم يلزم وعوده. فالأحباش ما كان يمكنهم شراء الحرير من الهنود مباشرة، لأن التجار الفرس كانوا في المعتاد يشترون كل الحمولة، إذ يمكنهم في الموانئ حيث تصل البواخر الهندية أولاً... والحميريون أيضاً ارتأوا أن مهمتهم [لوشنوا الهجوم المقترح على الفرس، ستكون] صعبة إذ كانوا سيحتاجون بقاعاً صحراوية شاسعة ويحتاجون إلى وقت طويل لشحن حملة على رجال يفضلونهم كثيراً في القتال.

وبذا يتضح أن السميع لم يكن يقضي حاجة بيزنطة، التي استمرت أموالاً طائلة لغزو اليمن. فإذا أضف إلى هذا انقلاب أبرهة على السميع، ثم انقلابه من الولاء للحبشة إلى الولاء لبيزنطة، فإن ابتهاج بيزنطة سراً لحلول أبرهة محل السميع يصبح موفور الأسباب. على أن المصلحة هي أفضل ضمان للتحالف. فأبرهة نفسه الذي كان رجل بيزنطة في أحداث الغزوة الحبشية الثانية لليمن، لم يعد يخشى التدخل الحشي، بعدما فشل هذا التدخل مرتين في إزاحته. ولذا لم يعد شديد الحاجة إلى إسداد بيزنطي، فأضحى قادراً على تعزيز استقلاله. ويقول بروكوبيوس في ذلك: وحتى أبراموس، حين ضمن استقرار حكمه تماماً فيما بعد، وعلى رغم أنه كثيراً ما وعد الإمبراطور جوستينيانوس باحتياج أراضي الفرس، إلا أنه بدأ في مرة فقط هذه الحملة ثم انسحب فوراً^(١). ولا شك في أن بيزنطة التي رأت إحكام حلفاتها واحداً بعد الآخر عن

(١) Rodman: Smith: ibid. p. 427. وانظر أيضاً Procopius: op. cit., pp. 193 - 195 وكذلك

Simon: L'Inscription ... p. 329 و op. cit., p. 32

المضي إلى آخر المدى في تفهد مأربها، اضطرت إلى الاكتفاء من أبرهة بآته أخرج اليمن من قبضة الفرس. ولم يكن هذا بالأمر السهل ولا المكسب الضئيل.

وقد أبدى أبرهة ولا شك في كثير من الأحيان مسلماً سياسياً وعسكرياً يخدم مصالح بيزنطة، مثل محاولته غزو مكة (وسبكون لهذه الغزوة باب في الجزء الثالث من هذا الفصل)، إلا أن حوافزه الخاصة ربما كانت تفسر هذا المسلك، أكثر مما يفسره التحالف مع بيزنطة، ولذا كان يمكن له أن يستقبل في بعض الأوقات مجموعة من السفراء بينهم سفير لملك الفرس، وسفير آخر للملوك ملك الحيرة^(١)، عدوي حليفه البيزنطي. وقد التفت مصلحة بيزنطة بمصلحة أبرهة لأن كليهما كان يريد الاستيلاء على طرق مكة التي كان الإبلان على ما يبدو قد بدأ يستغلها بنجاح بحرك المطامع.

ي - ثورة سيف بن ذي يزن

زال ملك الحيرة عن اليمن بُعيد سنة ٥٧٢ م. بعدما ملك مسروق بن أبرهة ثلاث سنوات، وسلفه وأخوه غير الشقيق بكسوم بن أبرهة سنتين. وهذا يعني أن أبرهة مات قبل سنة ٥٧٠ م.^(٢) وأتبع خلفنا أبرهة سياسة أشد معاداة للفرس. وكان جستينوس الثاني يحاول أن يتخطى الفرس للحصول على الحرير، من طريق برية آسيوية شمال الأراضي الفارسية، ويسمى إلى السيطرة على مناطق توفر له مقاتلين مرتزقة. وكان ساعد الترك قد أخذ يشتد في أواسط آسية، ف عقد معهم كسرى أنوشروان تحالفاً ففقد الفرس والترك على مملكة الهباطلة التي حكمت تركستان شرق فارس وبلاد الأفغان، واقتسم الحليفان المملكة المهزومة. وفي سنتي ٥٦٧ و٥٦٨ م. تبادل جستينوس الثاني وخاقان الترك الغربيين السفراء. وكان الخاقان يريد بيع الحرير إلى بيزنطة مباشرة متخطياً حليفه الفارسي. لكن كسرى رفض أي تسوية أو اتفاق في هذا الشأن، فتحالف

الترك مع البيزنطيين، وأعلن جستينوس الحرب على الفرس سنة ٥٧٢ م.^(٣)

في هذه الأثناء كان الفرس في جنوب الجزيرة العربية يشنون هجومهم لاسترداد اليمن من أيدي الأحباش. ويتفق تاريخ إعلان جستينوس الحرب مع ما ذكرته المصادر الإسلامية، في تعيين موعد دقيق للثورة التي أزال حاكم الأحباش. فالمصادر الإسلامية تشير إلى أن الفرس أخذوا سيف بن ذي يزن وأنصاره في عهد مسروق، الذي بدأ في رأي البعض سنة ٥٧٢ م. وانتهى في سنة ٥٧٥ م. بالهزيمة. ونروي هذه المصادر قصة سيف، فيقول ابن هشام: فلما طال البلاء على أهل اليمن، خرج سيف بن ذي يزن الحميري، وكان يكنى بأبي مرة، حتى قدم على قيسر ملك الروم. فشكا إليه ما هم فيه، وسأله أن يخرجهم عنه ويلبهم هو، ويبحث إليهم من شاء من الروم، فيكون له ملك اليمن، فلم يشكه. فخرج حتى أتى النعمان بن المنذر وهو عامل كسرى على الحيرة وما يليها من أرض العراق، فشكا إليه أمر الحيرة. فقال له النعمان: إن لي على كسرى وفادة في كل عام، فأقم حتى يكون ذلك، ففعل. ثم خرج معه فأدخله على كسرى... ثم قال له [سيف]: أيها الملك غلبتنا على بلادنا الأخرية... فجتك لتصرني ويكون ملك بلادك لك... فجمع كسرى مرازبته فقال لهم: ماذا ترون في أمر هذا الرجل وما جاء له؟ فقال قاتل: أيها الملك، إن في سجونك رجالاً قد حبستهم للقتل، فلوانك بعثهم معه، فإن يهلكوا كان ذلك الذي أردت بهم، وإن ظفروا كان ملكاً لزدتته، فبعث معه كسرى من كان في سجنونه وكانوا ثمانمائة رجل... فخرجوا في ثمان سفائن، ففرقت سفيتان ووصل إلى ساحل عدن ست سفائن، فجمع سيف إلى وهرز من استطاع من قومه، وقال له: رجلي مع رجلك حتى نموت جميعاً أو نظفر جميعاً. قال له وهرز: أنصفت. وخرج إليه مسروق بن أبرهة ملك اليمن وجمع إليه جده فأرسل إليهم وهرز ابناً له لقاتلهم فيخبر قتالهم، فقتل ابن وهرز، فزاده ذلك حقاً عليهم... وبقيت القصة حتى انهزم الحيرة ودخل وهرز صنعاء. وروى

(١) Trimmingham: Christianity among..., p. 301

Smith: op.cit., p. 434 (٢)

(٣) Rodinson: op.cit., p. 33

الاندلسي في نشوة الطرب رواية مماثلة لا تناقض هذه في شيء^(١). أما المسعودي فروى القصة ذاتها لكنه جعل معديكرب بن سيف بن ذي يزن محل والده^(٢). إلا أن جوهر الأمر لم يتبدل. وروى الطبري رواية تكاد تطابق رواية ابن هشام في العبارات والكلمات، إلا في قول ابن هشام: «فجمع سيف إلى وهرز من استطاع من قومه»، فجاء عند الطبري: «قال وهرز لسيف ما عندك، قال ما شئت من رجل عربي وفارس عربي»^(٣)، وهو ما عبر عنه أبو الفرج الأصفهاني في الأغاني بقوله: «وجعلت أمداد العرب تنوب إلى سيف»^(٤)، مما يدل على أن الحبشة لم يخرجوا من اليمن بفعل ستمائة فارسي، بل كان خروجهم بفعل أمداد عربية اجتمعت حول سيف. ولا يستبعد أن يكون هذا الرجل الذي حوّلته روايات العرب إلى أسطورة، قد استطاع فعلاً أن يجمع حوله من العرب ما لم يستطع أن يجمعه ذو نواس.

بقي أن نضيف بعضاً من التفاصيل المهمة التي وردت على الروايات العربية لثورة ابن ذي يزن، ومنها أن مسروقاً بن أبرهة آخر الملوك الأحباش قد مات في القتال مع العرب والفارس، وهذا إذا صحّ قد يجعل المعركة في سنة ٥٧٥ م^(٥). ومنها أيضاً أن مسروقاً كان ابن ربيعة امرأة ذي يزن أم سيف^(٦). وقد يعني هذا أن أبرهة حين ملك اليمن أخذ من إحدى زوجات الأعيان المهزومين زوجة له، فكان لهذا حصّة في الخصومات السياسية، خاصة إذا صحّ أن سيفاً كان يهودياً، مثل ذي نواس، على ما ذكره أبو الفرج، إذ قال: «فخرج سيف إلى قيصر ملك الروم، فكلّمه أن ينصره على الحبشة فأبى وقال: الحبشة على ديني ودين أهل مملكتي، وأنتم على دين اليهود»^(٧). والمع شهد إلى أن اسم سيف

(١) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ٩٥ وما بعد. والاندلسي: نشوة... ص ١٦٠ - ١٦٢.

(٢) المسعودي: ج ٢، ص ٢٠٣ - ٢٠٨.

(٣) الطبري: التاريخ، ج ٢، ص ١١٥ - ١١٨.

(٤) الأصفهاني، أبو الفرج: الأغاني، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٦٣، ج ١٧، ص ٣٠٩.

(٥) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ٩٧. والطبري: التاريخ، ج ٢، ص ١١٧.

(٦) الأغاني، ج ١٧، ص ٣٠٧.

(٧) الأغاني، ج ١٧، ص ٣٠٨. وفي شأن اسم سيف انظر Shahid: The Martyrs... p. 261.

لا سابق له في المأثورات العربية، ولعله محترماً من اسم يوسف اليهودي، الذي تُشَدَّد الكسرة على السين فيه. وقد تكون ثمة علاقة نسب بين سيف بن ذي يزن وشراحيل ذو يزان الذي قاد جنود يوسف ذي نواس، على ما جاء في باب الغزو الحبشي الأول لليمن، فيما سلف.

ك - حكم الفرس لليمن

على الرغم من أن بعض الشواهد تدلّ على أن بيزنطة لم تُفلح تماماً في تحقيق مآربها التجارية للسيطرة على مدخل آمن إلى المحيط الهندي يفتيها عن الوساطة التجارية الفارسية أو الفرشية، خلال حكم الأحباش لليمن، خاصة فيما يخصّ تجارة الحرير الشرقي، فإن حسانها الحليف الحبشي في اليمن كان ضربة قوية لمصالحها، لأن أبرهة وولديه ضمنا لبيزنطة على الأقل إبعاد النفوذ الفارسي الذي عاد بثورة سيف بن ذي يزن. وقد أدى هذا الأمر ولا ريب إلى مصاعب إضافية للبيزنطيين في البحر الأحمر ولحلفائهم الأحباش في المحيط الهندي. ولا بد أنه ترتب على هذا أن بيزنطة أصبحت ابتداء من سبعينات القرن السادس أشد اضطراباً إلى الاعتماد على قوافل التجارة المكيّة في التجارة الشرقية.

وقد روى الطبري تسلسل أحداث حكم الفرس لليمن الذي امتد تقريباً من سنة ٥٧٥ م. حتى ظهور الإسلام، فقال عن وهرز: «فلما ملك اليمن ونفى عنها الحبشة كتب إلى كسرى: إني قد ضطت لك اليمن وأحرحت من كان بها من الحبشة، ونفّث إليه بالأموال، فكتب إليه كسرى بأمره أن يُملّك سيف بن ذي يزن على اليمن وأرضها، وفرض كسرى على سيف بن ذي يزن جزية وخرجاً يؤدّيه إليه في كل عام معلوم يُمّث إليه في كل عام. وكتب إلى وهرز أن ينصرف إليه، فأنصرف وهرز، وملك سيف بن ذي يزن على اليمن، وكان أبوه ذو يزن من ملوك اليمن». ولم يقل الطبري كم سنة امتد حكم سيف، لكن الأحباش على ما يبدو قتلوا الملك اليمني الحديدي بعد مدة، فعاد وهرز إلى اليمن ومعه أمر من كسرى أن يقتل الأحباش. فبقول الطبري: «أقبل وهرز حتى دخل اليمن

ففعل ذلك، لم يترك بها حبشاً إلا قتله ثم كتب إلى كسرى بذلك، فأمره كسرى عليها، فكان عليها وكان يجيها إلى كسرى حتى هلك، وأمر كسرى بعده ابنه المرزبان بن وهز فكان عليها حتى هلك، فأمر بعده البهجان بن المرزبان بن وهز حتى هلك، ثم أمر كسرى بعده خرخره بن البهجان بن المرزبان بن وهز فكان عليها، ثم إن كسرى غضب عليه. ويروي الطبري في موضع آخر سبب غضب كسرى على خرخره فيقول: «وكان للمروزان [أي البهجان] ابنان أحدهما تعجبه العربية ويروي الشعر يقال له خرخره والآخر يتكلم بالفارسية ويتدهقن، فاستخلف المروزان ابنه خرخره وكان أحب ولده إليه على اليمن وسار حتى إذا كان في بعض بلاد العرب هلك... ثم بلغ كسرى تعرب خرخره وروايته الشعر وتأدبه بأدب العرب فعزله وولى بأذان [أخاه]، وهو آخر من قدم اليمن من ولادة العجم»^(١). ويُعتقد، استدلالاً بعدد الجنود الفرس الذين يروى أنهم ساهموا في إنهاء حكم الحبشة لليمن (على رغم أن الروايات في المعتاد تميل إلى المبالغة في زيادة الأعداد لا تقليلها)، أن حكم الفرس كان صورياً ورمزياً، وأنه اقتصر على صنعاء وما والاها. أما المواضع الأخرى في الأقاليم فكان حكمها لأبناء الأسر المالكة قديماً والأذواء والأهبال^(٢). وهذا قد يفسر سهولة التلقب بلقب الملك هناك في تلك الحقبة.

ويلاحظ بمقارنة احتفال المصادر العربية بحكم سيف بن ذي يزن وروايتها قصص وفود العرب إليه وتهليلها له، وعدم احتفالها بحكم الفرس، أن الحكم الفارسي غير المباشر لليمن، على الرغم من وطأته الخفيفة على ما يبدو، إذا ما شُبه بالغزو الحبشي، لم يكن مما يمتنّاه العرب، فلم يعربوا عن ترحيبهم به في أي من المأثورات، مثلما أعربوا عن ابتهاجهم لحكم سيف. وقد حكى أساطير عن بطولة سيف وأثره. وقرئوا أمية بن أبي الصلت شعراً في حضرته، لا شك في أنه منحول، إذ يروي الأصفهاني أن ابن أبي الصلت قال لسيف وهو حينئذ يديه:

(١) الطبري: التاريخ، ج ٢، ص ١١٧، ١٢١، ١٥٧.

(٢) جواد علي: ج ٣، ص ٥٣٠.

أتى هزقل وقد شالت نعماته فلم يجد عنده الصر الذي سالا^(١) ذلك أن العرب سمّت الأباطرة البيزنطيين هراقلة، على اسم الإمبراطور الذي تسنم التاج الإمبراطوري سنة ٦١٠ م. ولم يكن هرقل معاصراً لسيف. ولذا يمكن أن يكون الشعر منحولاً، وُضع بعد الحادثة بزمان طويل لتحميل قصة سيف وتعظيم أسطوريته، أو أن أمية قاله فعلاً، ولكن بعد سنوات، ولم يُلَفَّه «بين يديه». وفي أية حال فإن هذا يدلنا على نزوع عدد من الإخباريين إلى الاستراحة في قصة سيف. فروى الأزرقى والطبري وغيرهما أن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، جد الرسول كان في الوفود العربية التي وفدت على سيف. وهذا أمر ليس ممكناً فقط، بل إنه مرجح، لما كان لمكة من مصالح تجارية وسياسية مع اليمن، بخاصة بعد محاولة أبرهة هدم الكعبة، ومواجهة عبد المطلب له، ولما يكن قد مضى على ذلك سنوات طويلة. وكان مرجحاً أن ترحب مكة بأحداث اليمن وأن يسمى سادتها إلى عقد أسرة التحالف مع الحكم الجديد. لكن ما روي عن الحديث الذي جرى بين الرجلين في هذا الاجتماع، وتثنى سيف بظهور نبي من نسل عبد المطلب، والتناقض في تواريخ موت والد النبي ووالدته وغير ذلك من التفاصيل، تجعل الرواية مرفوضة في بعض جوانبها، ومعقولة في بعضها ومرتجحة في البعض الآخر^(٢).

تبقى الإشارة إلى مصير النصرانية في اليمن في إبان الحكم الفارسي، فليذكر الإخباريون أن أبا حارثة بن علفمة أحد بني بكر بن وائل أسفد النصارى وجبرهم في نجران قبل الإسلام كان قد شُرف فيهم وصار مرجعهم الأكبر، وكانت له حظوة عند ملك الروم، حتى أنه كان يرسل له الأموال والفضة لينتوا له الكنائس. وكان له أخ اسمه كوز بن علفمة. وقد أسلما مع من أسلم من الناس بعد السنة العاشرة من الهجرة. غير أن النصرانية التي ظلت قائمة في نجران بعد هزيمة الحبشة انحسرت في معظم الديار اليمنية الأخرى، من دون أن يؤتى على

(١) الأغاني، ج ١٧، ص ٣١٢.

(٢) الطبري: التاريخ، ج ١٧، ص ٣١٢، ٣١٣. والأزرقى: ص ٩٨-١٠٢. وكفلك المحتر.

ذكر أي اضطهاد جديد^(١).

ضمن هذا الإطار من الصراع الدولي على طرق التجارة الشرقية لم تستطع الدولتان البيزنطية والفارسية أن تمدا نفوذهما عميقاً داخل الجزيرة العربية إلا لئاماً، على ما سنبين. وفيما يلي سنتناول امتدادات الصراع البيزنطي الساساني في القرن الميلادي السادس. وهي امتدادات وصلت في بعض الأحيان إلى يثرب ومكة وعكاظ وغيرها، لكنها لم تستطع أن تند نبنة الإهلاف التي استطاعت، رغم المخاطر والمصاعب، أن تنشق للعرب طريقاً مستقلة بين القوتين العظميين.

ثالثاً: الصراع داخل الجزيرة العربية

أ- النصرانية في الجزيرة العربية

اختارت بيزنطة أن تجعل حدود الانتماء الديني مطابقة لحدود الانتماء السياسي. فكان من شروط اعترافها بالزعماء البدو عملاً في مناطق نفوذها، أن يعتنقوا الدين المسيحي. ذلك ما كان لها مع سلج ثم مع الفساسنة وغيرهم. وقد اكتسب النزاع اللاهوتي مع النساطرة صفة سياسية، فانهاز النساطرة إلى الفرس، وعوملوا على هذا الأساس. أما اليهود في جنوب الجزيرة العربية فكان نزاعهم مع بيزنطة مؤسساً على أن التبشير البيزنطي بالمسيحية كانت ترافقه وفود التجار الروم، وأحياناً جيوش بيزنطية أو حليفة لبيزنطة. فهل كان الأمر كذلك في داخل الجزيرة العربية؟ لعل دراسة الانتماء الديني في داخل الجزيرة العربية في القرن السادس، توضح الكثير من ماجريات الأحداث السياسية التي وقعت في هذا القرن، وتلقي الضوء على علاقة هذه الأحداث بما كان يجري في أطراف الجزيرة، الشمالية في الشام، والجنوبية في اليمن.

كان الميل إلى اليهودية أو المسيحية منتشرًا أيضاً في داخل الجزيرة العربية^(٢)، وكانت الدولتان الفارسية والبيزنطية تحاولان التحكم في طرق التجارة

(١) الطبري: التاريخ، ج ٣، ص ٥٥٣، وج ٤، ص ١٩٠.

(٢) في شأن انتشار النصرانية في الجزيرة العربية انظر: Shahid: Byzantium (5c), p. 405 sqq.

وانظر أيضاً: Fahd: Le Panthéon..., p. 3.

عبر الخليج والفرات، أو عبر البحر الأحمر، أو عبر حريرة العرب^(١). وقد توسعت بيزنطة في استخدام القبائل العربية لهذا الغرض، أموة برومة^(٢). وكان الحميريون، حتى الغزو الحشني لليمن، يسيطرون، بنحائهم مع كلفة، على الجانب الغربي لجزيرة العرب، ويتحكمون بمعظم طريق التجارة البرية غرب الجزيرة، وطريق تجارة البخور. وفيما كانت طريق الحرير الآسيوية بيد الفرس في معظم الأحيان، وطريق البحر الإريترى والمحيط الهندي أدنى إلى الشواطئ الفارسية، تحولت الجزيرة العربية إلى عامل أساسي في الصراع على تجارة الشرق^(٣). كان التبشير مسألة عقيدة نهتم لها بيزنطة ولا شك. فترسل إلى داخل الجزيرة وأطرافها القصة من يهتم لهداية البدو العرب. لكنها لم تخلص عنها في الوقت نفسه عن الفوائد السياسية والتجارية التي كان يمكن أن تنحسبها من فعل هذا التبشير.

ولم يمكن التبشير البيزنطي وحده مصدر انتشار المسيحية في الجزيرة بالطبع، لكن الصراع الطويل مع اليهود أحال الانتماء الديني إلى ما يشبه الانحياز السياسي إلى إحدى القوتين الكبريين على أية حال. ولاحظ فهد تأثير النصرانية في مكة نفسها عند الفتح^(٤). بل ذهب كريل إلى ملاحظة تأثيرات جليئة في الوثنية العربية وعبادة الصنم ذي الشرى^(٥). وكان بن قريش مكة نصارى قبل الإسلام، لكن معظم النصارى هناك كانوا من الروم أو الرقيق الإفريقي المنائرت بالنصرانية الحشية، أو الحواري اليونانية^(٦). أما الفرس النصارى فكانوا قلة، تجمع المصادر على أنهم كانوا أربعة لا غير، ووقع من نوظل

(١) الدوري: ص ١٠.

(٢) Graf: op. cit., p. 5.

(٣) Simon: op. cit., p. 329.

(٤) Fahd: Le Panthéon..., pp. 173, 251.

(٥) Krehl, Ludolf: Über die Religion der Vorislamischen Araber, Oriental Press, Amster-

dam, 1972 (Neudruck der Ausgabe Leipzig, 1863), ss. 48, 49).

(٦) الأزدي: ص ١١٠، ١١١. وسيرة ابن هشام: ج ١، ص ٢٠٩ وما جدد والأصلي: ج ٣.

ص ١١٩-١٢٢، وج ٤، ص ١٢٢-١٢٣. ورجل علي: ج ٦، ص ٤٣٩، ٦٠٣-٦٠٦.

وعبيد الله بن جحش وعثمان بن الحويرث وزيد بن عمرو بن نفيل^(١). وحفظ لنا الشعر الجاهلي بقايا من التأثيرات المسيحية في داخل جزيرة العرب، منها أبيات لامرئ القيس ولورقة بن نوفل وغيرهما، وإن كان الأب لويس شيخو مبالاً إلى اعتداد كل الموحدين والأحناف قبل الإسلام مسيحيين^(٢). وكان تغلغل النصرانية إلى مكة يُعزى في معظمه إلى أسفار المكين إلى بلاد الشام أو مجيء الروم والأحباش إلى مكة، على ما حدث لدى بناء الكعبة في عهد محمد قبل مبعثه، حين غرقت سفينة رومية عند شاطئ جدة.

أما النصرانية في أطراف الجزيرة، وبخاصة في الشمال الغربي والشمال الشرقي وفي اليمن، فكان انتشارها بفعل تماس مباشر ونفوذ سياسي وعسكري. ففي الشمال الشرقي للجزيرة كانت النصرانية في إباد في الحيرة وامتداداتها الصحراوية. فظل معظم نصارى الحيرة على مذهب النسطورية، حتى أخذ المذهب اليعقوبي ينتشر هناك قبيل الإسلام. وفي الأحساء جنوب الحيرة كانت النصرانية منتشرة في ربيعة ويكر. وإلى غرب الأحساء انتشرت في تميم، وكان كثير منهم مجوساً. وإلى جنوبه الغربي في اليمامة انتشرت في بني عجل. وكانت تغلب على الدين النصراني أيضاً، وكانت ديارها بين الحيرة والشام في أقصى شمال جزيرة العرب. وكذلك كندة التي كان موطنها الأول حضرموت. وكانت هذه القبائل معظم الأحيان ضمن نطاق النفوذ الفارسي، يشتد تارة وينحسر طوراً وفق الميزان العسكري، ويستقر أحياناً ويضطرب أحياناً أخرى تبعاً لقرب

= وانظر أيضاً: Lammens, Henri: l'Arabie Occidentale avant l'Hégire, Imprimerie Catholique, Beyrouth, 1928, pp. 1 - 49.

(١) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ٢٤٢ - ٢٥٠. وكذلك المحبر، ص ١٧١.

(٢) شيخو، لويس: شعراء النصرانية في الجاهلية، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٨٢. والطبعة الأولى لمطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين، بيروت، ١٩٢٦. وانظر أيضاً الأغاني، ج ١، ص ١٢٧، ٢٦٠، ٢٦٤، ج ٣، ص ١٢٥. وكذلك أوليري، ديلاسي: الفكر العربي ومكانه في التاريخ، تعريب تمام حسان، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦١، ص ١٩٤.

القبيلة من بلاد فارس أو بعدها عنها^(١).

وفي الغرب كانت غسان في يادى الشام وجنوبها، وبعض قضاة في شرق أيلة، وجذام (من لحم) ومنازلها بين تبوك ومدين وعُدرة وهراء، على النصرانية أيضاً. فيما كانت اليهودية في حمير على الخصوص، وفي كثير من كندة في حضرموت، وفي وادي القرى ويثرب. وكان سائر قبائل العرب من عبدة الأوثان^(٢). ويلاحظ أن النصرانية في غرب الجزيرة، امتدت حتى العلا ومدائن صالح، ولم تنتشر إلى الجنوب من هذه الديار في وادي القرى، إلا انتشاراً محدوداً. وقد كانت العلا ومدائن صالح في الوقت ذاته أقصى حدود الوجود العسكري والإداري الروماني والبيزنطي في الجزيرة العربية زمناً طويلاً. لكن الغساسنة استطاعوا مع ذلك أن يقيموا اتصالاً سياسياً وقبلياً بأبناء يثرب، مستندين إلى النسب المشترك. أما النصرانية فكانت ضعيفة في يثرب. كذلك كانت لبني عذرة علاقة بقريش، على ما يروى عن رزاح العذري ومساعدته أخاه لأمه قصي بن كلاب زعيم قريش الأول، في صراعه مع قبيلة خزاعة. كذلك امتدت النصرانية إلى طيء، وكان عدي بن حاتم زعيمها نصرانياً عند ظهور الإسلام. ولكن طيئاً لم تكن كلها نصرانية، فكان منها من تعبد لثلاثة أصنام هي الفللس ورضى وسهيل، وفيما بين نجران ووادي القرى، نادراً ما ذكر وجود مجتمع مسيحي، سوى أفراد هنا وهناك، على نحو ما كان من أمر نصارى مكة. فلم يُذكر مثلاً في الطوائف من نصارى غير نفر من الموالي والرقيق^(٣).

- ب - اليهود على طريق القوافل

لم يكن تعداد اليهود في داخل الجزيرة العربية عظيماً، لكن حسن

(١) في شأن المسيحية العربية قبل الإسلام في الحيرة وجوارها راجع مقالة الأب فييه: الأسقفيات

السريانية الشرقية في الخليج الفارسي. Fiey, Jean Maurice: Diocèses syriens orientaux du Golfe Persique, Mémorial Mgr Gabriel Khouri-Sarkis, Louvain 1969, pp. 177 - 219.

(٢) المحبر ص ٢٣٨. وابن قتيبة: المعارف، طبعة عكاشة، دار الكتب، مصر، ١٩٦٠، ص ٢٢١. وحمّور: ص ١٢٢.

(٣) جواد علي: ج ٦، ص ٦٠١ - ٦٠٣، ٦٠٧، ج ٤، ص ٢٢١، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٥٤.

وكذلك Lammens: l'Arabie..., p. 48.

انتشارهم من فلسطين إلى اليمن على جزء مهم من طريق القوافل، واتصالهم بيهود حمير ويهود طبرية، عند طرفي هذه الطريق، واهتمامهم الخاص بالتجارة والأعمال المالية، ضاعفت قوتهم السياسية. ولم يرَ سميت ثمة سبباً لاستبعاد ما روته المأثورات العربية أن تبعاً أبا بكر أسعد ملك اليمن في أوائل القرن الخامس، اعتنق اليهودية في يثرب وأن الملوك الذين خلفوه كانوا على هذا الدين أيضاً. ويُعتقد أن استيلاء اليهود على السلطة في يثرب عاصرَ تعاظمَ الجالية المسيحية في نجران. وكانت الجالية اليهودية التجارية في جزيرة يوتابه قد استقرت هناك قبل سنة ٥٠٠ م.، وحتى سنة ٥٣٠ م. وليس من شك في وثوق العلاقة بين يهود يثرب ويهود السامرة وطبرية. ويقول ديفريس في يهود طبرية هؤلاء إن بيزنطة كانت تخشى جانبهم لعقدتهم صلات متينة بأبناء دينهم في عمق الجزيرة العربية، فيما كان يهود يوتابه ينعمون بحرية الحركة، ولذا سارعت بيزنطة، بعد استيلاء الحبشة على اليمن سنة ٥٢٥ م. وقتلها الملك اليهودي يوسف، ذانواس، إلى تعيين أبي كرب بن جبلة المنتصر عاملاً على جنوب فلسطين وعلى جزيرة يوتابه. وعند نشوب الحرب مع الفرس ثار السامريون اليهود، على الحكم البيزنطي^(١). فلا يمكن والحال هذه ألا نرى علاقة بين ماجريات تلك السنوات واتصال بعضها ببعض، على طول طريق القوافل، من اليمن إلى بادية الشام. وإذا استمر الصراع البيزنطي المباشر مشدداً طوال القرن السادس وروحاً من القرن السابع، استمر في الوقت نفسه تهالك الوكلاء من الشمال ومن الجنوب، لمحاولة السيطرة على طريق القوافل عبر جزيرة العرب. ويُعدَّ استيلاء الأوس والخزرج على أزمة السلطة في يثرب، وحصرهم اليهود في حصونهم، خطة محكمة أصابت خط المستوطنات اليهودية بضربة قوية. وكان الغساسنة هم الذين نصروا الأوس والخزرج على اليهود. ومن المرجح أنهم حينما عزموا على ذلك، لم يغب عن بالهم أنهم عجزوا في سنة ٥٢٥ م. عن نجدة يعاقبة نجران، لأسباب منها امتناع اتصالهم باليمن براً بسبب اعتراض يثرب

(١) Smith: op.cit., pp. 428, 462, 463. cf. Devreesse: op.cit., p. 274

وغيرها من مواطن اليهود طريقهم إلى هناك^(٢).

وثمة خلاف حول زمن وقعة استيلاء الأوس والخزرج على يثرب، إذ يجعلها أبو الفرج الأصفهاني في عهد الملك الغساني أبي جبيلة^(٣). فيقول الشريف استناداً إلى سديدو وبعض المصادر العربية، إنها حدثت سنة ٤٩٢ م.^(٤). أما مونتغمري وات فيستند إلى فلهاوزن في القول إن انتزاع الأوس والخزرج السلطة من يهود يثرب كان في أواسط القرن السادس^(٥). ونميل إلى الرأي الثاني، لأسباب أهمها:

١- أن يثرب سنة ٥٢٥ م. لم تكن بعد في أيدي الأوس والخزرج، وإلا لما حالت اليهود فيها دون مرور النجدة الغسانية إلى نجران.

٢- أن الاطمئنان إلى قول المصادر العربية إن الحرب بين الأوس والخزرج التي نشبت بعد استيلائهم على يثرب، قد استمرت مائة وعشرين عاماً حتى ظهور الإسلام هو اطمئنان يبدو متسرعاً بعض الشيء.

٣- أن أبا جبيلة هذا قد لا يكون سوى الحارث بن جبلة الذي ملكه البيزنطيون على العرب من سنة ٥٢٩ م. إلى سنة ٥٦٩ م. وليس مستغرباً أن يعتمد زعيم قبلي عربي إلى تسمية ابنه على اسم أبيه، وأن يكون اسم الجد جبلة ويكون اسم الحفيد تصغيراً له: جبيلة^(٥) ولا يُستبعد حتى أن يكنى الحارث بن جبلة بهذه الكنية من غير أن يكون له ولد بهذا الاسم، فتلك مسألة غير نادرة بين العرب، بخاصة إذا كان الجد من أصحاب الشأن الذين اشتهروا بفعال ارتأى

(١) أبدى شهيد هذا الرأي في تعقيبه على عدم اشتراك الغساسنة بالحملة الحبشية على اليمن سنة ٥٢٥ م.، خلال حديث خاص. وعن يثرب ويهودها أنظر بيضون: الحجاز...، ص ٣٩ - ٤٥. وعن انتشار اليهود بين الحجاز والشام أنظر Lammens: l'Arabie..., p. 54.

(٢) الأغاني، ج ٢٢، ص ١١١ - ١١٣.

(٣) الشريف: مكة والمدينة...، ص ٣٢٩ - ٣٣١.

(٤) Montgomery-Watt: Muhammad at Mecca..., p. 141.

(٥) Shahid: Byzantium in South Arabia..., p. 83.

الناس أنها مجيدة. وقد استدلَّ الشريف على أن المسألة لم تكن مما يصحَّ اعتداده خطة سياسية غسائية ضد اليهود، بقوله إن الأمر لو كان كذلك، لفتك الغساسنة «بالجماعات اليهودية في خيبر ووادي القرى وهم منهم أقرب»، وفاته أن يهود يثرب استجدوا فعلاً بيهود خيبر، على ما جاء في نشوة الطرب^(١)، وأن الغساسنة غزوا يهود خيبر فعلاً في غضون سنوات قليلة على ما يبدو. إن عدم التسرّع في الاستنتاج فضيلة عند المؤرخين، لكن عدم التعمق في رؤية الخيوط الخفية التي قد تربط الأحداث المختلفة بعضها ببعض ليس فضيلة حتماً. كانت الحرب سجلاً بين اليهود والنصارى في الجزيرة العربية، وكان الصراع السياسي من أهم أسبابها. فمن الحوافز المحتملة لقتل ذي نواس شهداء نجران مثلاً، أن هذه المدينة النصرانية كانت تعترض طريقه إلى يثرب مركز اليهودية في الحجاز، وأن وقعة الأخدود قد لا تدرج ضمن الاضطهاد الديني مقدار ما تدرج ضمن العمل السياسي المدبر^(٢). ولا مسوغ إذن لاستبعاد احتمال الحافز السياسي عن الغزوات الغسانية للمدن اليهودية في الحجاز.

ومما يزيد في تأكيد صلة هذا الصراع الغساني اليهودي بالصراع البيزنطي الفارسي، أن ابن خردادبه يقول في كتابه «المسالك والممالك» إن مَرْبَانَ البادية الذي عيّنه الفرس عاملاً على يثرب كان يجمع الضريبة للفرس، وكان النضير وقريظة من يهود يثرب، تجمع له الخرج من الأوس والخزرج. وفي هذا قال الشاعر:

تؤدي الخَرْجُ بعد خراج كسرى وخرج من قُريظة والنضير
فإذا كانت قريظة والنضير تجمع الضريبة للفرس، وكان الفرس على حرب مع بيزنطة حلفاء الغساسنة، فلا يملك المؤرخ سوى وضع المسألة ضمن إطارها العام، بخاصة إذا تبذرت له في مكان آخر وربما زمان آخر، مظاهر تثبت أن

(١) الأندلسي: نشوة الطرب... ص ١٨٨. وربط بيضون اضطهاد يهود الحجاز بغزو الحبشة اليمن. أنظر بيضون: الحجاز... ص ٤٣، ٤٤.

(٢) Shahid: The Conference of Ramla... p. 124.

الصراع البيزنطي الفارسي كان مستمراً وشاملاً.

وعلى رغم زوال حكم اليهود عن يثرب، فإن الفرس لم يعدموا وسيلة للعمل مع الأوس والخزرج، حين كان ميزان القوى يسمح لهم بمد نفوذهم. فالأوس والخزرج على نسب مع اللخمين، وإن كان نسباً أبعد من نسبهم مع الغساسنة. وقد أبدى ثابت بن المنذر، والد حسان بن ثابت في إحدى قصائده، انتقاده لتعيين النعمان بن المنذر الحيري عمراً بن الإطنابة الخزرجي ملكاً على المدينة، فقال:

أَلْكَني إلى النعمان قولاً مَحْضُهُ وفي النُصح للآلِباب يوماً دلائلُ
بعثت إلينا بعضنا وهو أحقُّ فيا ليت من غيرنا وهو عاقل^(١)

وليس في وسعنا أن نتخذ انتقاد ثابت على أنه دليل على انتفاء الصراع السياسي بين الفرس وبيزنطة في يثرب، بل الضد هو الأخرى، إذ إن ابن الإطنابة كان عاملاً للحيرة، وكان حسان من أنصار الغساسنة، ولعله ورث هذا الولاء عن والده.

ضمن هذا الإطار من الصراع البيزنطي الفارسي، الذي انخرط فيه العرب النصارى واليهود، يمكن إدراج ثورة اليهود على بيزنطة في فلسطين مرة أخرى سنة ٥٥٦م.، ثم غزوة الغساسنة لخيبر اليهودية، وقد ارتوى أنها حدثت في سنة ٥٦٧م.^(٢)، وهو تاريخ قريب جداً من تاريخ غزوة أبرهة الحبشي الفاشلة لمكة، على ما سيأتي لاحقاً.

(١) الأندلسي: نشوة... ص ١٩٦. وانظر ابن خردادبه: المسالك والممالك، مطبعة بريل، ليدن ١٣٠٦ هـ، ص ١٢٨. وانظر أيضاً 145، 146، 147. Kister: Al-Hira... pp.

(٢) ابن الأثير: الكامل... ج ١، ص ٦٥٦ - ٦٧١. وكذلك ولفسون: ص ١٩٢. وجواد علي: ج ٦، ص ٥٩٤، و ج ٨، ص ١٧٧، ٥١٩. وقد استمر الصراع طويلاً حتى اتخذ بعض القبائل من بعض اليهود في يثرب حلفاء. أنظر في هذا بيضون: الأنصار والرسول، معهد الانماء العربي، بيروت، ١٩٨٩، ص ١٣ - ١٦.

ج - نفوذ الفرس في جزيرة العرب

لم تكن محاولات بيزنطة وحلفائها الوجود في جزيرة العرب دليلاً على غفلة الفرس عن ذلك، بل العكس. فبعد غزو الحبشة لليمن أخذ النفوذ اليمني في وسط الجزيرة يتهاوت، ونفوذ الحيرة يتعاظم. فلم تمض السنين من القرن السادس حتى كانت الحيرة، وكيالة الفرس، تمتد سلطانها على كثير من القبائل العربية. وكان تولدكه قد شك في قول الطبري إن ملك اللخمين قد امتد إلى وسط الجزيرة في القرن الرابع، عصر امرئ القيس، وأواسط القرن السادس، عصر المنذر الثالث. لكن اكتشافات ريكنس الأثرية أثبتت على نحو مقنع صحة قول الطبري، إذ جعل كسرى أنوشروان عامله المنذر بن النعمان ملكاً على جميع العرب بين عُمان والبحرين واليمامة والطائف والحجاز^(١). وقد سلفت الإشارة إلى أن اللخمين مدوا نفوذهم حتى يثرب في أواسط القرن السادس تقريباً. بل إن سيمون يشبه في أن هذا النفوذ امتد حتى إلى مكة نفسها، استناداً إلى الأصفهاني في أغانيه، حيث روى قصة مصالحة المنذر الثالث قبائل بكر وتغلب، ثم قال: «إن المنذر أخذ من الحيين أشرافهم وأعلامهم فبعث بهم إلى مكة». فاستنتج سيمون أن مكة كانت تحت سلطة المنذر. لكن الاستنتاج بعيد^(٢)، تضعفه روايات أخرى صريحة، من عهد قباز الذي عاصر حكمه حكم المنذر ستاً وعشرين سنة (٥٠٥ إلى ٥٣١ م). إذ جاء في «نشوة الطرب» للأندلسي: «وكان [عبد مناف بن قصي] في زمن قباز سلطان الفرس الذي تزندق وأتبع مذهب مزدك وعزل بني نصر عن الحيرة، لأنهم أنفوا من ذلك المذهب، وولّى عليها الحارث الكندي جد امرئ القيس الشاعر. وأمر الحارث أن يأخذ العرب المعذبة من أهل نجد وتهامة بذلك. فلما انتهى إلى مكة راسل قريشاً في الزندقة، فمنهم من تزندق... ومنهم من امتنع، وكان رأس الممتنعين عبد مناف، جمع قومه وقال: صارت الأديان بالملك، وأذهبت نواويس الأنبياء

(١) Simon: L'inscription..., pp. 331, 332 وكذلك: Smith op.cit., p. 442. وانظر أيضاً: Sha-

hid: The Arabs in the Peace Treaty..., p. 194

(٢) Simon: L'inscription..., p. 333

والشرائع! أنا لا أتبع ديناً بالسيف وأترك دين إسماعيل وإبراهيم. فبلغ ذلك الحارث فكتب به إلى قباز فأمره أن ينهض إلى مكة ويهدم البيت وينحر عبد مناف عنده ويزيل رئاسة بني قصي. ففكر ذلك الحارث، وداخلته حمية للعرب فدارى عنهم، وشغل قباز بغيرهم^(١). وإذا صححت شبهة معترضين أن نسبة الأمر إلى أحد أجداد الرسول قد تدل على رغبة في تعظيم أجداد النبي العربي، فإن هذه النسبة لا تكون ذات فائدة لو لم يكن تمرد مكة على أمر قباز صحيحاً. على أن اقتراب النفوذ الفارسي من مكة في ذروة تعاظم سلطان المنذر الثالث، هو أمر لا شك فيه، فقد عملت الحيرة لحصر نفوذ تميم وليسط سلطان غطفان شرق مكة^(٢). ولعل في ذلك تفسيراً لغزوات أبرهة داخل الجزيرة العربية، وهي غزوات قبل إنها موجّهة ضد الحيرة، وهي قطعاً موجّهة ضد حلفاء الحيرة في وسط الجزيرة، لأن حظ ملك اليمن الحبشي في بلوغ الحيرة نفسها في حملة عسكرية ناجحة، لا يبدو مقنعاً. وكان غرض الحيرة، وغرض أبرهة على الأرجح، هو السيطرة، بالمحالقات أو القدرة العسكرية، على طريق القوافل البرية القرشية التي أخذت تتعاظم حصتها في تجارة الشرق مع اشتداد الصراع العسكري. وقد أنشأ ملك الحيرة اللخمي نظام الرداقة تقريباً لشيوخ القبائل والردف هو شيخ يجلس عن يمين الملك في بلاطه. وكان للملك اللخمي أرداف في ضبة وتيم وسدوس (من شيبان) وتغلب وغيرها. وأنشأ ملك الحيرة أيضاً نظام ذوي الأكال، وهو أشبه بالإقطاعات، وكان ذوو الأكال من وائل^(٣).

وكانت طريق القوافل العربية التي تصل الحيرة بنجران أقل شهرة من «طريق العطور» في غرب الجزيرة. لكنها لم تكن أقل شأنًا في حسابات بلاد فارس والحيرة، لأنها وصلتهما باليمن وبالسوق الحبشية، وكانت مدخلًا للنفوذ السياسي إلى جنوب غرب الجزيرة، ومحوراً لتاريخ من المحالقات السياسية

(١) الأندلسي: نشوة الطرب...، ص ٣٢٧. وقال ابن قتيبة إن الزندقة امتدت إلى قريش. ابن

قتيبة: المعارف، ص ٦٢١.

(٢) Kister: Al-Hira..., p. 144

(٣) Ibid: pp. 149, 150

والاتصالات المعقدة والدينية والحملات العسكرية والمواصلات الثقافية في آن^(١). وعلى طول هذه الطريق عقد الفرس تحالفاتهم، وعلى هذه الطريق حاول أبرهة أن يبتزع الولاء له وليبنظة. لكن ابن حبيب وضع معظم قبائل مضر فوق أي انحياز، فوصف هذه القبائل بأنها لفاح، أي أنهم لا يذهبون للملوك^(٢).

وفيما وظلت قريش على ألا تدين بدين الملوك، رغم محاولات الفرس مد نفوذهم إليها، افترقت كندة، ذلك التحالف القبلي الذي كان له شأن فيما بين الحيرة وبادية الشام واليمن، بين منتصف القرن الخامس ومنتصف القرن السادس، افترقت منذ البداية إلى عنصر النماصك الضروري، وصرفت فيما بعد كل اندفاعاتها في تعقيدات كثيرة مع حمير والفرس وبنزنة. وفيما كانت كندة تبحث عن ولاء يعطيها مكاناً في الساحة بين القوتين العظميين، خاصمت بنزنة لتتزع اعترافها، وحالفتها ثم خاصمتها. وانقلبت في الحيرة من حليف للفرس إلى خصم لهم. أما في اليمن فكانت حليفة لحمير حين كانت في الشمال تحالف بنزنة، وحين غزا الاحباش اليمن ازداد موقف كندة غموضاً واضطراباً، وظلت على هذا الغموض حتى انقرض عهدها قبل منتصف القرن السادس^(٣).

د - فرائع حملة أبرهة على مكة

يمثل أبرهة الحبشي رأس حربة المسيحية الحبشية في الصراع مع يهودية حمير. ويمكن لدراسة مسلكه السياسي حيال القبائل العربية وخطوط التجارة في وسط الجزيرة العربية وعلى جوانبها أن تميظ اللثام عن كثير مما جرى بين الدولتين الكبيرتين واستداداتهما في الصراع على تجارة الشرق، ومن الظروف التي أحاطت بصعود مكة إلى مصاف القوى المؤثرة في مسار هذه التجارة.

(١) Shahid: The Conference of Ramlā... p. 130.

(٢) المحبر: ص ٢٥٣. وانظر أيضاً Kister: Al-Hira... p. 150 وكذلك Dindorus: vol II, p. 43.

(٣) Shahid: Ghassan. Von Wismann: Himyar Ancient History... pp. 487, 488. وانظر أيضاً and Byzantium... p. 249.

إن غزوة أبرهة الفاشلة لمكة هي ولا ريب أخطر الحوادث التي واجهتها مكة في مرحلة صعودها هذه. ولعلها أخطر الحوادث التي تعرض لها الإبلان في تطوره ومساره المستقل. ولا بد في استعراضنا لأسباب الغزوة، من التمييز بين الأسباب الحقيقية التي بتحريك بدافعها السياسي والغداة، والذرائع والمسوغات التي يتخللها لأجل التحرك. وقد حفلت المصادر العربية بتفصيل هذه الذرائع، حتى أصبحت قصة أبرهة وفيه من المأثورات الإسلامية الشعبية الرائجة.

فذكر الأزرقى أن أبرهة بعث إلى النجاشي بكتاب وعده فيه بأن يصرف حاج العرب إلى القليس الذي بناه في اليمن لتركوا الحج إلى بيتهم في مكة. وقال: «فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة بذلك إلى النجاشي، غضب رجل من النساء أحد بني فقيم من بني مالك بن كنانة فخرج حتى أتى القليس ففقد فيها - أي أحدث فيها [يعني أنه تبرز فيها] ثم خرج حتى لحق بأرضه، فأخبر بذلك أبرهة، فقال: من صنع هذا؟ فقبل له: صنع رجل من العرب من أهل البيت الذي تحج العرب إليه بمكة لما سمع بقولك أصرف إليها حاج العرب، فغضب فجاءها ففقد فيها أي أنها ليست لذلك بأهل، فغضب عند ذلك أبرهة وحلف ليسيرون إلى البيت حتى يهدمه»^(١).

وقال الطبري إن أبرهة لما بنى القليس وأمر الناس فتحه، فحجّه كثير من قبائل العرب سنين ومكث فيه رجال يتعبدون ويتألهون، ونسكوا له. وكان نفيل الخثعمي يؤرض له ما يكره، فلما كان ليلة من الليالي لم يزل أحدًا يتحرك، فقام فجاء بقليرة [غانط] فلطخ بها قلته وجمع حفاً فألقاها فيه فأخبر أبرهة بذلك فغضب غضباً شديداً وقال: إنما فعلت هذا العرب غضباً لبيتهم»^(٢).

وقال أبو هلال العسكري: «فاستنجم ملك اليمن لأبرهة وبنى كنيسة

(١) الأزرقى: ص ٩٢.

(٢) الطبري: التاريخ، ج ٢، ص ١١٨.

صنعاء على حلوة من غمدان، فاشتغل ببنائها عشر سنين، فلما أنتها رأى الناس شيئاً لم يروا مثله قط، وأراد صرف حجاج العرب إليها، حتى دخلها نفر من بني كنانة من قريش فأحدثوا فيها فغضب أبرهة، وعزم على غزو مكة وهدم الكعبة^(١).

وروى ابن هشام رواية شبيهة إذ قال: «فخرج الكناني حتى أتى القليس فقعد فيها... ثم خرج فلحق بأرضه فأخبر بذلك أبرهة فقال: من صنع هذا؟ فقل له: صنع هذا رجل من العرب من أهل هذا البيت الذي نحج العرب إليه بمكة ما سمع قولك: أصرف إليها حج العرب، غضب فحاه فقعد فيها، أي أنها ليست لذلك بأهل... فغضب عند ذلك أبرهة وحلف ليهربن إلى البيت حتى يهدمه»^(٢).

وقال محمد بن حبيب: «كان من حديث الغيل أن نفراً من كنانة خرجوا قبل اليمن فلما دخلوا صنعاء إذا هم ببيت قد بُني كنيان الكعبة بناء أبرهة الأشرم الحبشي وسماه قليس، فدخل أولئك نفر ذلك البيت فتخوَّط بعضهم فيه فارتحلوا فانطلقوا، فوجد ذلك الأثر فغضب أبرهة وقال: من فعل هذا؟ قالوا له نفر من أهل بيت العرب، فحلف بدينه أن لا يتركهم حتى يخرَّب بلدهم ويهدم بيتهم»^(٣).

ويلاحظ في جميع هذه الروايات، رغم تبدل التفاصيل فيها، أن الخصومة التي لا تبدل هي خصومة أبرهة لمكة. فكانة التي ينتمي إليها ملطخو القليس هم من أحلاف مكة، بل إن قريشاً تُعدُّ فرعاً من كنانة. والنساء هم قوم من كنانة لم يمتوا بصلة نسب مشترك إلى قريش فقط، بل كانوا يتولون النسب وهو من المهام التي سبَّين فيما بعد أنها كانت ذات شأن في تجارة مكة وفي الحج إليها.

(١) أبو هلال العسكري: المصدر السابق، ج ١، ص ٣٠، ٣١.

(٢) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ٤٦.

(٣) البغدادي، محمد بن حبيب: المتفق، تحقيق حورشيد أحمد فاروق، دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد، الهند، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م، ص ٦٨.

وقد أدرج البلاذري في «الأنساب» رواية مختلفة لنقمة أبرهة على مكة، لكن هذه الرواية أكدت أن للخصومة علاقة بتجارة مكة وإيلانها، إذ جاء فيها: «منهم الحارث بن علقمة بن كندة بن عبد مناف بن عبد الدار ربه قريش عند أبي بكسوم [أبرهة] الحبشي حين دخل مكة قوم من نخارهم في حطمة كانت فوق أحداث على بعض ما كان معهم فأنتهوه، فوفعت بينهم مافرة، ثم اصطلحوا بعد أن مضت عدة من وجوه قريش إلى أبي بكسوم وسألوه ألا يقطع نخار أهل مملكته عنهم فذبح الحارث وغيره ربه». وثمة رواية للسيرافي مفادها أن سب غزوة أبرهة هو سب شخصي، وتنفذ الرواية أن حفيد أبرهة، أكسوم بن الصباح الحميري خرج حاجاً، فلما انصرف من مكة نزل في كبة تحران، فعدا عليها ناس من أهل مكة فأخذوا ما فيها من الحلبي وأخذوا متاع أكسوم، فاتصرف إلى جده مغضباً^(١). وذكر إخباريون آخرون أن فنية من قريش دخلوا القليس فأجحوا فيها ناراً، وكان يوماً فيه ريح شديدة، فاحترقت وسقطت إلى الأرض، فغضب أبرهة، وأقسم ليتقم من قريش يهدم معدهم كما تسوا في هدم معدة الذي باهى النجاشي به^(٢).

وقد توحي هذه الروايات أن الإخباريين المسلمين اتسموا بالسذاجة في فهم أسباب غزو أبرهة لمكة. لكن التدقيق في هذه الروايات وفي اقتران مواسم الحج بالأسواق وطرق الفواضل، وروى نعاظم صبت مكة وساحتها بين العرب بهزيمة أبرهة بجعلان من هذه الروايات مادة تاريخية مكتوبة بلغة عصرها وقابلة لأن تُفسَّر بلغة عصر آخر. وقد ارتأى باحثون أن قول الروايات إن ملطخي القليس من النساء والخمس هو قول ذو دلالة مهمة، ولم يروا فيها سباً للشك في صحتها^(٣).

(١) Kister, M. J. The Campaign of Hahabān, a New Light on the Expedition of Abraha, Le (1).

Musnad, 78 (1969), pp. 429 - 432. ولم يتر على النص في ضوء الأسبب المذكورة في

مصادرها.

(٢) جواد علي: ج ٣، ص ٥١٠.

(٣) Kister M. J. Some Reports Concerning Mecca from Jahiliyya to Islam, Journal of the Eco-

name and Social History of the Orient, XV (1972), pp. 63 - 66.

هـ - أسباب الحملة الحقيقية

لقد كان لبيزنطة أسبابها الحافزة على غزو جزيرة العرب ومحاولة كسب مساهمة الحبشة وأبرهة في الجهد العسكري ضد الفرس هناك، خصوصاً بعدما استقر نفوذ الساسانيين عقوداً طويلة، وأصبح واضحاً أن هذا النفوذ الذي وصل إلى الحجاز يهدد الطرق التجارية التي كانت بيزنطة تعتمد عليها في غرب جزيرة العرب والبحر الأحمر.

ونعلم أن الإمبراطور جوستينيانوس أرسل سفارات عديدة لمحاولة إقناع نجاشي الحبشة ثم ملوك حمير النصارى، منذ الغزو الحبشي لليمن، بأن يشتروا حملات عسكرية أو غير مباشرة على الفرس. ويقول بروكوبيوس إن أبرهة نظم فعلاً حملة على الفرس، لكنها لم تبلغ مقصدها. ويحجج بعض الباحثين الذين درسوا الأمر إلى الاعتقاد أن النفش الذي عثر عليه ريكمنس، ووثقته: «ري ٥٠٦»، إنما يروي هذه الحملة التي ذكرها بروكوبيوس. ويقدّر البعض تاريخ الحملة بما بين ٥٤٣ و ٥٤٦ م، وهذه السنة الأخيرة هي السنة التي بدأ فيها العمل بهدنة بين الفرس وبيزنطة تعززت بمعاهدة السلام سنة ٥٦١ م^(١). لكن السلام بين الدولتين انهار سنة ٥٧١ م، أي بعد التاريخ الذي تجعله المصادر العربية لغزوة أبرهة بسنة واحدة. وقد تكون الغزوة بين الأسباب التي جعلت معاهدة السلام تنهار. ولا بد من أن نلاحظ أن المعاهدة لم تكن تلزم أبرهة ودولته، ولا كانت مكة منطقة نفوذ فارسي ضمن المناطق التي تخضع لأحكام المعاهدة، ولذا حدثت غزوة الفيل، دون أن تكون انتهاكاً للمعاهدة. وليس مستبعداً أن البيزنطيين والساسانيين الذين كانوا يوعزون لحلفائهم بالتحرش العسكري، قد استخدموا الوسيلة ذاتها هذه المرة أيضاً فأوعزت بيزنطة لأبرهة أن يشتد حملته، لأن استخدام الغساسنة للتحرش بالفرس لم يعد ممكناً بعدما نصت معاهدة ٥٦١ م. على تحريم ذلك، على ما سلف.

(١) Procopius: op.cit., vol I, p. 195. وانظر أيضاً Ryckmans, Jacques: Inscription de Mursighan.

(Ry 306). Le Mésopotamien, 66 (1953), pp. 341, 342.

ولقد كان لأبرهة أيضاً أسبابه الحافزة للاستجابة للدعوة البيزنطية، إذا كان من دعوة بيزنطية، أو لشئ حملته على مكة حتى من غير أن يهتم أحد على ذلك. كانت الحوافز الدينية والاقتصادية تعمل في الاتجاه ذاته، فبمركز بعضها البعض. ويبدو أن أبرهة رُوِّع للتوفيق التجاري المتعاضد الذي أصابته مكة، والمكاسب المالية التي كانت تحببها في الأنحاء، حتى بين الأحاش والبدو، ولا شك في أنه أدرك مقدار مساهمة منطقة الحرم المكي في نفوذ مكة هذا المبلغ من النجاح. فإذا كان لا بد من حصر نفوذ مكة والاستيلاء على مصدر ثروتها، فلا بد من تدمير الحرم المكي وجعل العرب يحشون حرمها أحراً بدلاً منه، ولا بد من اجتذابهم إلى مركز تجاري جديد. وإذا كانت المصادر غافلة في العموم عن الأغراض التجارية لحملة أبرهة فإن الأوضاع الدولية، وخصوصاً قرب هذه الحملة من زمن غزوة الغساسنة لخبره، تبرز الشهية كثيراً، في أن الحملتين كانتا بوحى بيزنطي للاستيلاء على الإبلان ونحوه.

كان أبرهة يرى، على ما يبدو، أن كل العناصر اللازمة ولصرف حاج العرب، عن مكة إلى بلاده، متوافرة لديه. ففي شهادته نحران الذين قتلهم الملك اليهودي يوسف أسار، قصة تصح أن تكون محور معتقدات شعبية تحيط بها الأساطير والمعجزات وكل ما يلزم لمخيلة الناس. ومقامات الشهداء تحولت فعلاً إلى مزارات، لا يحجها النحرانيون وحدهم، بل العرب في الحول أيضاً. وكان متوقفاً وطبيعياً أن تتحول المزارات إلى مؤسسات توفر الطعام وغيره من الحاجات للحجاج الآتي من خارج نحران. وبذلك أصبحت الضيافة واجباً من واجبات سدنة المزار، تماماً مثلما كانت رفادة الحجاج المكي من واجبات قريش^(٢). وكان سدنة هذه المزارات يستطيعون توفير هذه الضيافة، طالما أن الحج والتجارة كانا ينشطان معاً.

غير أن هذه الاحتمالات المطلقة المنطوق بها ثغرة مهمة، وهي أن أبرهة حين بنى القليس الذي أراد أن يجعله محجة العرب، بناء على ما قبل في صنعاء، لا

(١) Simon, L'inscription... p. 327. وانظر أيضاً Shahid, Byzantium in South Arabia..., p. 73.

معاً في سنة ٥٤٧م. السنة السابعة عشرة من حكم أنوشروان^(١). واتخذ كونراد وكستر رواية الزهري مستنداً يستحق الثقة. لأن الزهري لم يرهن عام الفيل بعلم المولد، ولأنه جعل عام الفيل سنة ٥٤٢م.، السنة التي تطابق عام الفيل وفقاً لاستنتاجات بعض الباحثين. إلا أن هؤلاء الباحثين يخطئون ولا شك في عدد من المسائل، أهمها أنهم مصرّون من غير دليل، على أن أبرهة شن حملة واحدة على الجزيرة العربية، مستندين بذلك إلى المؤرخ البيزنطي بروكوبيوس الذي انتهى تاريخه في سنة ٥٥٢م.، وأن هذه الحملة هي التي سجلها نقش العُرفقان الذي وسمه ريكمنس: «ري ٥٠٦»، وقُدر تاريخ الحملة هذه على حُلبان بما بين ٥٤٤م. و٥٥٢م. واختلف سميت مع ريكمنس في هذا التقدير^(٢). وبناء على جميع التقديرات هذه، على اختلافها، خطأ الباحثون المصادر العربية الإسلامية التي قالت إن النبي وُلد في عام الفيل.

ولكن قبل مناقشة هذا الأمر لا بد من وضع الأمور الواضحة في نصابها، والبحث في الغوامض فقط. فمما لا شك فيه أولاً أن النبي العربي هاجر إلى يثرب في سنة ٦٢٢م. ومما يرجّح أنه كان آنذاك في الثالثة والخمسين تقريباً. ولو قيل إنه كان في الخمسين أو الخامسة والخمسين آنذا لكان الأمر مقبولاً. فالخطأ في تقدير الأعمار يحتمل هذا الهامش، ولكنه لا يحتمل هوامش كبيرة، كان يخطئ شاهد عيان في تقدير عمر النبي بعشرين سنة مثلاً. وقد كانت غزواته في هذه السن مقبولة منطقياً. وبناء على هذا نستطيع أن نؤكد، استناداً إلى سنن الرسول يوم مُهاجره من مكة، أنه ولد على مقربة من سنة ٥٧٠م، ثم نترك هامشاً لا يتعدى السنوات الخمس. ولكن هل كان مولده في عام الفيل، أي هل صادفت غزوة أبرهة لمكة ذلك العام حين ولد الرسول؟ إن معظم الروايات

(١) Conrad, Lawrence J.: Ahraba and Muhammad, Some Observations Apropos of Chronology and Literary TO POI in the Early Arabic Historical Tradition, BSOAS, vol. 50 (1985), pp. 234 - 235

(٢) Ibid., p. 238. وانظر أيضاً: Smith: op.cit., pp. 436, 437. وكذلك: Kister: The Campaign of Simon: L'inscription..., pp. 326 - 328. و Hulubei, p. 427 - 428

العربية الأساسية التي ساواها كونراد بغيرها، ومنها على سبيل المثال سيرة ابن هشام وتاريخ الطبري ومعارف الوافدي وطفقات ابن سعد ومروغ السعدي ومخبر ابن حبيب، وجميعها من صف المصادر الأساسية في التاريخ الإسلامي، تُجمع على أن عام الفيل هو عام مولد النبي. أما النص الذي أفرجه البلاذري في «أنساب الأشراف» وسلمت الإشارة إليه، فهو نموذج على أن التناقض بين المصادر العربية لا يبرُز أبداً استناداً حقيقياً، بل يبرُز فقط الحاجة إلى نقد هذه المصادر وتصنيف الدقيق منها عن غير الدقيق، واعتماد ما يستحق الاحترام وإسقاط ما عداه. ففي نص البلاذري المذكور من العلام على الدقة ما يثير الاحترام لهذا المؤرخ ولا شك. فهو إذ يقول إن عام الفيل هو عام مولد النبي، أي إن أبرهة حاول غزو مكة على مقربة من سنة ٥٧٠م.، أصاف: «وذلك لأربعين سنة مضت من ملك أنوشروان كسرى». وقد بدأ ملك كسرى سنة ٥٣١م. فهذا تأكيد أول من مصدر مستقل على دقة تقدير البلاذري. وأصاف فيما بعد: «وكان ملك أنوشروان سناً وأربعين سنة وثمانية أشهر». ومعروف من المصادر غير الإسلامية أن كسرى ملك من سنة ٥٣١م. إلى سنة ٥٧٩م. وهذا تأكيد مستقل آخر على دقة رواية البلاذري الذي أصاف قوله: «وكان على الحيرة... عمرو بن هند». ويقدّر أن حكم عمرو من هذا استمر في الحيرة حتى سنة ٥٦٩م. وهذا يحصر هامش الخطأ الذي تسمح به رواية البلاذري بستين سنة (٥٦٩ - ٥٧١م)، وهو هامش ضيق جداً. ومثل هذه الدقة في بعض الروايات الإسلامية يستحق من الباحثين ولا شك، موقفاً أفضل من موقف بعضها جميعاً، بحجة أنها تعارضت وتناقضت ولم تنفق على رواية واحدة.

وإذا كنا لا نملك من الأدلة الإيجابية ما يؤكد أن عام الفيل هو عام مولد النبي، فإن الأدلة السلبية تسمح بقول احتمال صحة الرواية الإسلامية الأساسية، أي أن النبي وُلد في عام الفيل. ذلك أن النبي العربي، في دعونه للإسلام في مكة قبل الهجرة، إنما كان لا يزال في أواسط عمره. وكان من شيوخ قریش من المشركين من كان يذكر غزوة أبرهة ولا شك. لو كانت هذه الغزوة قد حدثت سنة ٥٧٠م. تقريباً. وسورة قریش وسورة الفيل مكثتان، من عهد الدعوة المبكرة

إلى الإسلام. ولو لم تكن غزوة أبرهة آنذاك حبة في الأذهان لضمّت تأثير حجةتها في مقارعة أعداء النبي. ولو كانت المصادر الإسلامية أرادت جعل غزوة الفيل ومولد الرسول في عام واحد، سحبا إلى تعظيم الرسول العربي وإظهار معجزة رافقت مولده إثباتاً لنبوته، لصح لنا أن نشك في صحة رواية هؤلاء المؤرخين الإسلاميين. لكن هذه المصادر لم تشر لا من قريب ولا من بعيد إلى أي أثر عجائبي يرهن مولد النبي بهزيمة أبرهة على أبواب مكة. بل إن المسلمين قادموا قروناً النزعة إلى اعتداد مولد النبي يوماً يستحق الاحتفال السنوي به^(١). وقد ظهرت المصادر الأساسية الإسلامية التي تجعل عام المولد النبوي هو عام الفيل، قبل أن يدرج المسلمون على الاحتفال بعيد المولد.

لقد أسس معظم الباحثين شكوكهم بالمصادر الإسلامية الأساسية وروايتها لعام الفيل، على افتراض أن نقش المربعان يشير إلى حملة وحيدة شنها أبرهة^(٢) ولم يشن غيرها. غير أن سميت أكد أن تدخل عمرو بن هند لمسائدة القبائل العربية المتحالفة ضد أبرهة، في وسط الجزيرة في الأفلاج إلى الشمال الشرقي من مكة، يوحي أن تلك الحملة كانت حرباً رئيسية على الحيرة، التي كانت قبائل مَعَدّ تدبر بالولاء لها^(٣). وهذا يعني على الأقل احتمال قيام حملة أخرى، تختلف أغراضها عن أغراض الحملة على مكة. ذلك أن كل المآثورات العربية التي ذكرت حملة الفيل على مكة، لم تشر إلى اغتنام الحيرة، أو اشتراك عمرو بن هند بصدها أو المشاركة في محاولة ردّها. وهذا يعني أيضاً أن قيام حملتين أمر محتمل ولا يستلزم استبعاده لمجرد رغبة في متابعة أول من اعتقد أن الحملتين ليستا إلا واحدة. وامتداد حكم أبرهة نحو خمس وثلاثين سنة، والتزامه جانباً من جانبي الصراع الدولي المحتدم لا يجعلان شن حملات في داخل جزيرة العرب أمراً منطقياً وحسب، بل أمراً متظراً أيضاً. وقد نسب إلى

(١) Conrad: op.cit., p. 229

(٢) Ibid.: p. 226 وكذلك: Kister: The Campaign of Huluban..., pp. 426, 427

(٣) Ryckmans: Inscription..., p. 339 وكذلك: Smith: op.cit., p. 436

المُغلطائي قوله في الزهر الباسم، إن أبرهة شن حملتين فعلاً، واحدة لم تبلغ مكة وثانية شنت بعد سنة أو سنتين. بلغت مكة فدخل بعض الحدود المنبذة لكن الحملة انتهت إلى كاتبة حلت بالجيش الحشني^(١). فإذا كان أبرهة قد شن حملتين على مكة أو جوارها، فلم تسجل المآثورات العربية منها سوى واحدة، فالأحرى أن نشك في أن احتمال عدم تسجيل المآثورات العربية حملة أخرى بعيدة عن مكة، هو احتمال قائم، خصوصاً أن المآثورات العربية كُتبت بعد الإسلام، ولذا اهتمت بمكة أكثر مما اهتمت بغيرها.

وإذا يرى سميت أن أبرهة مات سنة ٥٦٩ أو ٥٧٠ م. فإن هذا الرأي يعزز مقالة المصادر العربية إن النبي وُلد في عام الفيل. رواية الحملة في هذه المصادر تنتهي إلى أن المرض أصاب الجيش الحشني وأبرهة نفسه، وأن هذا حُمل إلى اليمن حيث مات. وقد سفت الإشارة في الفصل الأول إلى نفي الصفة المجانية عن هزيمة أبرهة أمام أبواب مكة وتأكيد الصفة المطفئة لها. فإذا كان أبرهة قد شن فعلاً حملة على مكة وارتد مهروماً من غير قتال، فلا مفر من تصديق رواية ابن هشام الذي قال في السيرة: «إن لول ما رؤيت الحصنة والجدوي بأرض العرب ذلك العام... وقال ابن إسحاق... عن عائشة رضي الله عنها قالت: لقد رأيت قائد الفيل وسائمه بمكة أعمىين مفجدين بسنطعمان الناس»^(٢).

وعلى رغم أن سيمون يدمج حملة حُلان وحملة مكة في واحدة، استناداً إلى عدم ذكر المصادر العربية غير حملة الفيل، وعدم ذكر بروكوبيوس غير الحملة التي سجلها نقش المربعان، فإن هذه الحملة الضعيفة، لا تلت أن تزاد ضعفاً بقول سيمون نفسه إن أبرهة حاول قتل حملة الفيل أن يمد نفوذه على القبائل العربية في وسط الجزيرة مرتين على الأقل^(٣). وقول هذا يعني وحدة الحملتين.

(١) Kister: Same Reports Concerning Mecca, p. 71, 72

(٢) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ٥٥، ٥٩ وكذلك: Smith: op.cit., p. 434

(٣) Simon: L'inscription..., pp. 331 - 337

ز- من قاتل أبرهة ومن ناصره؟

توسّعت المصادر الإسلامية توسّعاً وافياً في رواية وافعات حملة أبرهة الحبشي على مكة في عام الفيل. ولئن نصّيف جديداً في سياقنا هذا، إذا وقدنا ما جاءت به هذه المصادر من حوادث وأسماء. إلا أن إعادة النظر في مختلف الروايات لمحاولة معرفة القبائل والأحلاف التي قاتلت أبرهة في غزوته هذه، وتلك التي ناصرتها، يمكن أن نعرّز معرفتنا بالعلاقة بين هذه الغزوة والصراع الدولي على طرق التجارة الشرقية، ومكانة المتقاتلين بين الفرس وبيزنطة وما كان من أمر مكة في هذا الصراع.

لقد واجه أبرهة على طول طريقه من اليمن إلى مكة قبائل عربية أثارتها الحميّة للدفاع عن الكعبة التي كانوا يحجّون. فبدأت مقاومته من اليمن نفسه، إذ قام ذو نفر الحميري، وهو من الأعيان، وجمع حوله الرجال وارتأى أن مجاهدة أبرهة لردعه واجبة. وتقول المأثورات الإسلامية إن أبرهة هزم الرجل وأسرته^(١). وقد روى الأزرقى قيام العرب في اليمن لمجاهدة أبرهة بقوله: «فخرج إليه رجل من أشراف اليمن وملوكهم يقال له ذو نفر. فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وإلى مجاهدته عن بيت الله سبحانه وما يريد من هدمه وإخراجه. فأجابه من أجابه إلى ذلك ثم عرض له، فقاتله فهزم ذو نفر فأبى به أسيراً، فلما أراد قتله قال له ذو نفر: أيها الملك لا تقتلني فمسي أن يكون مقامي معك خيراً لك من قتلي، فتركه من القتل وحبه»^(٢). ويلاحظ في هذه الرواية التي وردت على سيرة ابن هشام أيضاً^(٣)، أن ملكاً من ملوك اليمن وأعيانهم أخذت به الحميّة في الدفاع عن مكة. وهذا أمر، إذا صحّ بين مكانة مكة في ذلك العهد، لا عند الأعراب وحدهم، بل عند الحضرة أيضاً. وقوله: «ومن أجابه من سائر العرب»، قد يشير إلى أن بعض البدو اجتمعوا مع قوم ذي نفر في هذه المحاولة للدفاع عن مكة. وقد أكدّ حسن العلاقة مع قريش قول ابن هشام، لدى وصول جيش أبرهة

(١) Kister: Some Reports Concerning Mecca..., p. 67 (١)

(٢) الأزرقى: ص ٩٣.

(٣) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ٤٧.

إلى جوار مكة إن عبد المطلب بن هاشم جد الرسول «سأل من ذي نفر، وكان صديقاً له»^(١).

كذلك واجه أبرهة لدى خروجه من اليمن قاتل آخرى. وقال الأزرقى: «حتى إذا كان في أرض خثعم غرض له نقيل بن حبيب الخثعمي في قاتل العرب، فقاتله فهزمه أبرهة وأخذ له نقيل أسيراً فأبى به فقال له نقيل: أيها الملك لا تقتلني فإنني دلي لك بأرض العرب وهاتان يداي على قاتل خثعم شهران وناهس بالسمع والطاعة، فأعفاه وخلّى سبيله وخرج به معه يداً»^(٢).

ويشير ابن خلكان إشارة مهمة إلى أن أبا الحبر الذي يروي عن الإخباريون المسلمون أنه حارب أبرهة، إنما هو يزيد بن شرحبيل الكندي، وهو أيضاً أبو الجبر بن عمرو من آل الجون^(٣). فهل كانت كندة في صف مقاتلي أبرهة؟ إن فون غرونباوم يعرّز هذا الاحتمال، إذ يقول إن مملكة كندة التي كانت في وسط جزيرة العرب درعاً لليمن في عهد يوسف أسار ذي نواس زالت بزوال دولته، إذ سقط ذو نواس سنة ٥٢٥ م. واضمحلت الوجود الكندي بين سنة ٥٢٨ م. وأوائل الثلاثينيات^(٤). ولكن القبائل التي شكلت الحلف الذي قامت عليه مملكة كندة لم تزل بالطبع. وقد تكون فروعها الحضرية قد ظلت على ولائها الأول، وعلى عدائها لأبرهة. فلما حانت الفرصة حاولت محاربه مع جمع آخر من القبائل.

أما في مكة فيقول ابن هشام: «فهتت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله، ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به، فتركوا ذلك»^(٥). وهذا القول يدل على أن المواقف التي حفزت القبائل العربية لم تكن ست ساعتها، بل إن لها

(١) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ٥٠.

(٢) الأزرقى: ص ٩٣.

(٣) ابن خلكان: ولغات الأعيان، نطق إسحاق طلس، دار صغر، بيروت، ١٩٧٨، ج ٦.

ص ٣٥٥. وانظر أيضاً pp. 416 - 433. Kister: The Campaign of Huthayl.

(٤) Von Grunebaum: op.cit., p. 6 (٤)

(٥) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ٤٩.

سوابق وجذوراً، فكانة وهذيل من الخمس حلفاء قريش الأقرين^(١). ويلاحظ أن المتهم بتدنيس قليب أبرهة كاثي. أما هذيل فلها سابقة مماثلة في مقاومة أبرهة، حين حاول قبل حملة القبل أن يتزوج محمداً بن خزاعي ملكاً على قبائل مَعَدَ المضرية، فقام عروة بن حياص الملاصي من هذيل، إلى ابن خزاعي وقتله^(٢). وقال ابن هشام إن عبد المطلب حين ذهب لمفاوضة أبرهة، رافقه كل من «يعمر بن نفاعة بن عدي بن الدئل بن بكر بن مناة بن كنانة، وهو يومئذ سيد بني بكر [من كنانة]، وخويلد بن وائلة الهذلي، وهو يومئذ سيد هذيل. فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم لا يهدم البيت»^(٣). ووجه الخطورة فيما جاء به ابن هشام، هو التحالف السياسي الواضح بين قريش وهذه القبائل العربية الكبيرة، واستعداد تهامة، وهي ما هي في ديار العرب، لافتداء مكة بثلث أموالها. ومن شبه المؤكد أن هذه الحرص على مكة لم تكن تحفزها الحوافز الدينية وحدها، فالسياسة والتجارة كانتا تحالطان الدين، مخالطة مواسم الحج للأسواق. ويتبين إذن أن الذين حاربوا أبرهة كانوا صنفين من العرب على وجه الاحتمال: مكة وخمسها وحبيحها العربي في البدو والحضر، وبعض القبائل التي كان ولاؤها يربطها بالحيرة أو بدولة ذي نواس المندثرة. وموضع هؤلاء في الصراع على طرق تجارة الشرق بين الفرس وبيزنطة معلوم في الحالتين.

أما الذين حاربوا مع أبرهة، فيقول الطبرسي في مجمع البيان إن معظمهم كانوا من عك وأشعر وخثعم (بعدما قُرم زعيمهم). فلما وصل جيش أبرهة إلى مكة كسر الأشعريون والخثعميون سيوفهم وسهامهم وأعلنوا أنهم أبرياء من أي نية لهدم البيت^(٤).

(١) سنتناول موضوع الخمس في فصل لاحق.

(٢) الطبري: التاريخ، ج ٢، ص ١٣١. وانظر أيضاً Simon L'Inscription.

(٣) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ٥١.

(٤) الطبرسي، الفضل بن الحسن: مجمع البيان في تفسير القرآن، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦١.

ج ٣٠، ص ٢٣٤ - ٢٣٧. وكذلك Kister: Some Reports Concerning Arabia, p. 70.

وثمة نمط آخر ممن ساهروا أبرهة في مسعاه محابية أو ترلفاً، مثل المطلب بن مالك ومسعود بن معتب الشغيفين وأبي رغال الذي عمل دليلاً لأبرهة ومات فرجهم قبره، فقال جرير:

إذا مات الفرزدق فارحموه كما ترمون قمر أبي رغال^(١)

وهؤلاء لا يملك ما يجعل لمعاونتهم أبرهة معنى سياسياً محتملاً في إطار الصراع الدولي. غير أن ثمة نمطاً ثالثاً من الجماعات التي ناصرت أبرهة دونما اضطراب على ما يبدو. إذ يقول محمد بن حبيب في المنتقى: «فجمع [أبرهة] فُشَاق العرب وطخاريهم وكان أكثر من نعمة خثعم، وكانوا لا يحقون البيت ولا يحرمون الحرم، وانبه أيضاً بو مئة من كعب بن الحارث من كعب وكانوا لا يحرمون الحرم، ولا يحقون البيت، وكان منهم الأسود من مفسود الذي يقول:

يا فرس اهدي يهـ إذا سمعت النبله

وكان قبل ذلك يقطع على الحاج والعمار سبلهم»^(٢).

وقوله «إن أكثر من نعمة خثعم، وكانوا لا يحقون البيت ولا يحرمون الحرم»، يعني أن محاولتهم في الدابة أن يفاوضوا أبرهة، لم تكن بفعل حمية للحرم المكي. ولعل الصداقة بين شيخهم نبل من حبيب الخثعمي وعبد المطلب بن هاشم، التي ذكرها الأزرق، إنما كانت صداقة تجارة مشتركة مع قريش. أما إذا كانت لقبيل وقيلته بغايا ولقاء لذي نواس أو للحيرة، فذاك ما ليس من دليل عليه. أما قوله: «وانبته أيضاً بو مئة من كعب بن الحارث من كعب وكانوا لا يحرمون الحرم ولا يحقون البيت»، فإن هؤلاء يتسبون إلى شهيد نجران النصراني، فإذا كانوا نصارى مثله، وهذا هو المرجح، فإن اشتراكهم بحملة أبرهة وعدم حقهم البيت في مكة أمران مفهومين. ذلك أنهم أبناء شهيد نجران الذي بنى أبرهة القليس ليؤذي فيه رعاته. وقد أقسم أبرهة أن

(١) الأزرق: ص ٩٣. وسيرة ابن هشام: ج ١، ص ١٩.

(٢) المنتقى: ص ٦٨.

يصرف حجيج العرب عن مكة إلى القلبيس. وكان هدم الكعبة في نظر بني كعب بن الحارث إذن أخذاً بالثار، أو تنفيذاً لسياسة الاستيلاء على الخط التجاري، وإحلال صنعاء محل مكة مثابة للعرب ومحجة لهم.

ولا يزيد قوله: «وكان منهم الأسود بن مقصوده» إلى قوله: «يقطع على الحاج والعمار سبلهم»، سوى تأكيد لذلك الإصرار على تخریب مكانة مكة بقطع طرقها وغزو قوافل الحجيج الميمنة شطر البيت الحرام.

أخيراً هل كان عبد المطلب بن هاشم يمثل في مفاوضاته لأبرهة قلة من قريش كما قال مونتغمري وات^(١)، أو هل كان يسعى إلى نصرته من أبرهة على منافسيه القرشيين الآخرين، مثلما اشتبه رودانسون^(٢)؟ إن هذه الشكوك لا تقاوم في كل مرة يفاوض فيها صاحب الأرض غازياً من الغزاة. غير أن أول من بدأ مقاومة أبرهة في اليمن هو صديق عبد المطلب ذو نفر الحميري، إذا صح قول ابن هشام. ولعله شريكه في التجارة أيضاً. وذهاب عبد المطلب مع زعيم كنانة وهذيل، ليس ذهاب من ينوي ترتيب مسمى انفرادي على حساب آخرين. ولا تبدو من بقية الحوادث التي أعقبت هزيمة أبرهة عند أبواب مكة أي إشارات تدل على أن أحداً من المكّيين اشتبه فيما اشتبه فيه مونتغمري - وات ورودانسون. وتجمع المصادر العربية الإسلامية على أن العرب أعظمت قريشاً، وقالوا: هم أهل الله، قاتل الله عنهم وكفاهم مؤونة عدوهم^(٣). ولو كان عبد المطلب حليفاً محتملاً لأبرهة، أو بدا منه ما يوحي رغبته في ذلك، لانتقم منه قريش بعد هزيمة أبرهة.

ج - مكة وبيزنطة

عندما انهزمت محاولة الأحباش لغزو مكة، واستولى الحميريون من جديد على الحكم في اليمن بمساعدة الفرس، لم تكفى بيزنطة عن محاولة الغاذ من

جديد في داخل الجزيرة العربية. كانت الحرب شاملة مع الفرس، وليس من مجهود الحروب الشاملة أن تجتنب أطرافها أي جهة متاحة للفتنة، إلا إذا أهوزتها الوسائل. ولذا كان تبديل الأداة والوسيلة متوقفاً، بعدما خسرت بيزنطة، في معركة مكة، الأداة العسكرية بنشئت جيش أبرهة. ولم يكن استخدام الدين المسيحي جديداً ضمن بدائل العمل السياسي البيزنطي. وقد سبقت الإشارة إلى انصراف ولاء اليهود إلى الفرس والمسيحيين إلى بيزنطة، في معظم الحالات، ضمن الصراع الطويل بين الدولتين على طرق التجارة الشرقية. وقد لا يبدو مستغرباً أن مكة التي حاولت أن تتخذ لنفسها موقفاً سياسياً وسيطاً ومحاداً، كانت في الوقت نفسه مستغفراً لدين ثالث، جمعت له القبائل العربية أصنامها حول الكعبة^(١). وقد ظل الحجاز مصباً على المسيحية، ويقول الأزرقى إن مكة لم يكن فيها بيت ليس له صنم^(٢). وكانت امتدادات مكة الدينية تصل إلى اليمن. بل إن الفاكهي لاحظ كتابة على الحجر الأسود فدونها رسماً، وكانت فيها حروف من أبجدية عربية جنوبية قال كسندر إنها حميرية، وإنها تدل على أن القبائل اليمنية كانت تتحج مكة في الجاهلية^(٣). وأن العلاقات بين مكة واليمن كانت وثيقة. لكن مكة التي حرصت على إنشاء علاقات بجميع أطراف الجزيرة العربية في الجنوب والشمال نسبياً لتجاريتها، كانت حريصة على عدم التزام أي معسكر من المعسكرين المسيحي - البيزنطي أو اليهودي - الفارسي، وعلى تجنب معاداة أي منهما صراحة أيضاً. وقد بينت تحرية غزوة أبرهة وما أظهره تصنيف الأحزاب والولاءات فيها، أن أصل علاقات مكة لم تكن مع نصارى اليمن، بل مع أولئك الذين كانوا يحثون البيت على ما يبدو. فهؤلاء كانوا «حزب مكة» إذا صح التسمير، ولم يكونوا مسيحيين ولا يهوداً وإن كان اليهود قد أبدوا تضامناً موقفاً مع مكة حين حسمتهم بها حصوة أبرهة ونصارى اليمن.

(١) الدوري: المرجع السابق، ص ١٠. وانظر أيضاً p. 27. Panchet.

(٢) الأزرقى: ص ٧٨. وانظر أيضاً pp. 29, 31. Panchet.

(٣) انظر كسندر مقالته بهذه الكتابة: Kasser, M J: Muslim Religion, a Stone with an Inscript. in, Le Monde 84 (1971), p. 487.

(١) Montgomery-Watt: Muhammad at Mecca..., pp. 31, 32.

(٢) Rodinson: op.cit., p. 41.

(٣) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ٥٩. والطبري: التاريخ، ج ٢، ص ١١٥. والأزرقى: ص ٩٨.

لكن محاولات بيزنطة للسيطرة على مكة لم تلبس جميعها لبوس النصرانية. بل ان ثمة ما يدعو إلى الاشتباه بأن عمرو بن لحي، الذي تنسب إليه المصادر الإسلامية أنه جمع أصنام العرب في مكة، إنما فعل ذلك ضمن معنى نبطي لتحسين الروابط بالحجاز^(١). ولا يستبعد أن تكون رومة أو بيزنطة^(٢) قد أوعزت له أن يبادر إلى ما يبادر إليه، لأغراض تتعلق بالصراع على النفوذ في هذه المنطقة، إذا صح أن هذه الأصنام أحضرت من بلاد الشام.

وإذا كان ثمة غموض يكتنف تاريخ عمرو بن لحي وأعماله وحوافزه، فإن قصي بن كلاب الذي استولى على مكة وجعلها لقبيلة قريش، وطرد منها خزاعة^(٣)، يبدو لنا أوضح في ملامحه وأجلى في مرآته. وقد أضاف ابن قتيبة سبباً وجيهاً لإدراج أحداث مكة لدى استيلاء قصي عليها، ضمن الصراع الدولي بين بيزنطة والفرس. ففي معرض شرحه استيلاء قريش على مكة من خزاعة، قال ابن قتيبة: «وليت خزاعة البيت، فلم يزالوا ولاته واشتدّت شوكتهم، وعظم سلطانهم حتى أحدثوا أحداثاً، ونصبوا أصناماً. ثم سار قصي إلى مكة فحارب خزاعة بمن تبعه». وأضاف ابن قتيبة كلمتين لا تزالان موضع تخمينات المؤرخين: «وأعانه قبصره» ثم قال، وبهذا: «صارت ولاية البيت له ولولده، فجمع قريشاً»^(٤). وعلى الرغم من أن مونتغمري وات قد أعرب عن دهشته لقول ابن قتيبة «وأعانه قبصره»، فإنه لم يستبعد أن تكون حُشَان وحلفاء آخرون لبيزنطة قد أعانوا قصياً فعلاً. وأكد أن شيخ قريش الأول كانت له علاقات مع بني عُدرة، وهي قبيلة نصرانية أقامت شمال وادي القرى وكانت لذلك قريبة من نفوذ بيزنطة. واستنتج مونتغمري وات أن استيلاء قصي على مكة كان غرضه على

الأرجح متصلاً بتطوير التجارة بين مكة وبلاد الشام^(٥).

إن التقديرات المقاربة لعصر قصي من كلاب، مائة على سلسلة السب التي تربطه بالرسول العربي، ومؤشرات أخرى سائي على ذكرها فيما بعد، توحي أن قصياً عاش في أوائل القرن الخامس الميلادي. في ذلك العصر، كانت بيزنطة قد خسرت نفوذها في اليمن، باستيلاء ملكي كرب بهامن ثم ابنه تيان أسعد أبي كرب على البلاد، وتهود هذه السلالة. ويحتمل أن تحجّل أن بيزنطة قد حاولت أن تجد سبيلاً إلى التعويض من خسارتها هذه، فاستعنت طموح قصي وقوة قبيلته الصاعدة، من أجل محاولة اتخاذ موطئ قدم في الحجاز، أهم المسالك البرية إلى اليمن وطريق التجارة الشرقية. ولما مثّل على أن بيزنطة تصرفت حيال مكة تصرفاً مماثلاً في ظروف مماثلة تماماً. إذ أنها بعد خسارتها اليمن عندما ثار الحميريون على حكم الأحاسن الموالين لبيزنطة، في سنة ٥٧٠م. تقريباً، حاولت أن تعوّض ملكاً على مكة بلزم حانتها، وبمؤاضها من خسارة اليمن، وهذا الملك الذي لم يتّوح هو عثمان بن الحويرث.

ط - عثمان بن الحويرث

يرى باحثون في تاريخ مكة أن محاولة تملك عثمان بن الحويرث، كانت ردة فعل بيزنطية على خروج البسر من نطاق العمود البيروني^(٦). ونعتمد رواية ابن هشام لحادثة عثمان هذا من أوفى الروايات في المصادر الإسلامية حول أمره. والتدقيق فيها يمكن أن يهبط اللثام عن حماها لا بد من بحث مزيد لتبيان حقيقتها.

(١) الشريف: مكة والمدينة، ص ١٩٠.

(٢) عمرو بن لحي لا يزال عصره مجهولاً، ولا تعرف إذا كان قد أدرك العصر البيزنطي أم لا.

(٣) Hartman, Martin: *Oman*, *Zeitschrift für Assyriologie*, XXVII (1912), ss. 43 - 49.

وبيضون: الحجاز، ص ٣٦.

(٤) ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم: المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية، ١٩٦٩، ص ٦٤٠، ٦٤١.

(١) Montgomery Watt: *Muhammad at Mecca* ... p. 13. وكذلك حواد علي، ص ٣٩.

٤٠، ٥٩، ٥٨، ١١٧. ويحمل بصور عصر قصي لوسط القرن الميلادي الخامس.

بيضون: الحجاز، ص ٣٧. وقد عالج شهيد علاء قصي مكة من خلال علاقة قصي

بأحواله العنبريين. *Muslim Byzantium* (١٩٠٠)، pp. 27n - 282, 340. وفي شأن النصرانية في

مكة أنظر المرجع نفسه ص ٣٩٠ وما بعد.

(٢) Montgomery Watt: *Ibid.*, p. 15. وكذلك بصور الحجاز، ص ٧٩، ٨٠.

يقول ابن هشام: «كان من شأن عثمان بن الحوirth بن أسد بن عبد العزى أنه انطلق حتى قدم على ابن جفنة ملك الشام. فقال له: هل لك أن تدبني لك قريش، قال: نعم، قال: فاكتب لي مَلَكِي عليهم... فكتب له ومَلَكُه وجعل له خرجاً على كل قبيلة. فأقبل بكتاب ابن جفنة حتى قدم مكة، فلما قدم على قريش أنكرت ذلك، فركب منهم رجال إلى ابن جفنة، فلما قدموا عليه كَلَمُوهُ وقالوا: إن عثمان امرؤ سفيه، وليس مثلك يصنع بنا مثل هذا الذي صنعت، ونحن عارفون بحقك ونحن أهل حق... فعمد ابن جفنة فأخرج عثمان وطرقه. فانطلق حتى قدم على قيصر فأراد كلامه، فبلغ ذلك ابن جفنة فبعث إلى البواب والترجمان [أن] لا يَدْخُلَا ولا يُخْبِرَا قيصر أمره، وأمرهما أن يخالفا بكلامه حتى لا يرفع به رأساً... فلما رأى عثمان الذي صُنِعَ به لم يدر كيف يصنع»^(١).

ثم يروي ابن هشام، كيف استطاع ابن الحوirth أن يكلم قيصرًا، فقال له: «إني من أهل الكعبة ومن أهل بيت الله الحرام الذي حجج إليه العرب، وإني كلمت ابن جفنة أن يجعل لي على قومي سلطاناً فأَقْبِرَهُمْ على دينك، فبني عليّ رجال من قومي، فرشوه، فأخرجني، وإني جئت إليك... فإن كتبت لي كتاباً وجعلت لي عليهم سلطاناً قَسَرْتُ لك العرب حتى يكونوا على دينك. فكتب له قيصر عند ذلك وكساه وحمله على بغلة مسرجة بسرج من ذهب وقال له: لا سلطان لابن جفنة عليك، ودفع إليه كتاباً مختوماً، وقال أشعاراً بأرض الروم هلكت وأشعاراً يروى بعضها منها قوله:

ولمّا دنونا من مدينة قيصر أحسّت نفوس القوم بعض الوساوس

«فأقبل عثمان بالكتاب حتى قدم على ابن جفنة فدفعه إليه، فقال ابن جفنة: خذ من وجدت هنا من قومك، فأخذ رجالاً من قريش منهم سعيد بن العاص بن أمية وأبو ذؤيب بن أبي ربيعة أحد بني عامر بن لؤي أخذهم تجاراً بالشام فسجنهم، فأما أبو ذؤيب فمات في الحديد، وأما سعيد فمكث حتى

(١) سيرة ابن هشام: طبعة طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ج ٢، ص ١٧٨ - ١٨٠. ولم نجد مثله في طبعة عبد الحميد.

اقتاده هبة بن ربيعة بن عبد شمس... ومات عثمان بن الحوirth من قبل أن يخرج من عند ابن جفنة. فقال كثير من الناس: سقاء سماً وحسده وظن أنه غالبه على مُلْكِهِ... واسم الملك الحفني عمرو بن أبي شُثْرَةَ^(٢).

ليست خطورة هذه الرواية في وفرة تفاصيلها، بل في دقة بعض التفاصيل ومغزاها المحتمل. فمن الواضح أن قريشاً رفضت تملك عثمان بن الحوirth عليها وسعت إلى منع هذا التملك. ولذا يعتد رضوان السِّدِّ أن القرشيين هم الذين قتلوا ابن الحوirth^(٣)، ويكتفي الأندلسي بأن قريشاً دَسَّتْ إلى عمرو بن جفنة ملك عرب الشام أن يربحهم منه فوضع له من شُئِهِ... ولما رجع إلى الشام صنع له بنو جفنة طعاماً ووضعوا السم أمامه، فلم ينصرف إلا وقد وجد أثره وأيقن بالموت^(٤). ومع أن ابن هشام لا يُشْرِك قريشاً في قتل ابن الحوirth، إلا أن الأمر هنا سيّان، فقريش رفضت تملكه، بل إنها هي التي سمت في تبديل موقف ابن جفنة منه. وقد أيقن ابن الحوirth ذلك، فاتهمهم بأنهم «رَشَرُوهُ»، أي إن قريشاً دَفَعَتْ للغساسنة مالاً يفوق ما كان يُمكن أن يتوفروا نقاصه من ملك مكة غير المتزوج. ولهذا حتماً، إذا صَحَّتْ نعمة الرشوة، علاقة بتنظيم مكة وحلاتها التجارية، وسعيها إلى إرضاء ملوك الأطراف من أجل تيسير هذه التجارة.

ويلاحظ كذلك أن ابن الحوirth سعى في إغراء الزنطينين باللغة التي يفهمون، فتقول رواية ابن هشام إنه قال لقيصر: «فإن كتبت لي كتاباً وجعلت لي عليهم سلطاناً قَسَرْتُ لك العرب حتى يكونوا على دينك»، وهذه عبارة أوضح من تلك التي سبقتها وقال ليها: «فأَقْبِرَهُمْ على دينك». وفي كلا الحالتين يعرب

(١) راجع هامش الصفحة السابقة.

(٢) السِّدِّ: رضوان: حديثات الطفل والبلل والبحرية التاريخية للأمة في الفكر السياسي العربي الإسلامي، مجلة الفكر العربي، العدد ١٥، أيار وحريز/ مايو ويونيو، بيروت، ١٩٨٠، ص ٨٣.

(٣) الأندلسي: نشرة الطرب... ص ٣٥٠، ٣٥١.

ابن الحويرث عن حزمه على إغراء بيزنطة بما يُغريها، أي ضمان مصلحتها التجارية من طريق الامتداد الديني، وهو ما بدا واضحاً للغاية في رواية المصعب الزبيري الذي ربط الانتماء الديني بالانتماء السياسي بلا أي التباس، إذ قال: «إن عثمان خرج إلى قيصر فسأله أن يملكه على قريش وقال: أحبلهم على دينك فيدخلون في طاعتك»^(١).

وفي هذا أيضاً شبهة نزاع مذهبي ربما حاول فيه ابن الحويرث أن يغري البيزنطيين بجعل المكيين نصارى على المذهب البيزنطي الرسمي، لا على مذهب الفساسة اليعاقبة، فاستجاب البيزنطيون، وكتبوا لابن الحويرث في كتاب اعتماده: «لا سلطان لابن جفنة عليك»، على ما سلف.

وحاول ابن الحويرث، وقد خاطب بيزنطة بلغة تفهمها، أن يخوف مكة فيما تخشاه، وهو تجارتها، وقدرة قيصر على إخراجها: «وقد رأى موضع حاجتهم إليه ومتاجرهم من بلاده»، فقال للقرشيين وهو يحاول إقناعهم بقول تمليكه: «قد علمتم أمانكم ببلاده وما تصيبون من التجارة في كفه، وأنا أخاف إن أبيتم ذلك أن يمنع منكم الشام فلا تجروا به وينقطع مرفقكم». فلما رفض المكيون بعد تردد قصير «كتب قيصر إلى عمرو بن حنيفة بأمره أن يحبس لعثمان من أراد حبسه من تجار قريش بالشام، ففعل ذلك عمرو»^(٢). وبذلك ردت بيزنطة على مكة بما رأت أنه يوجعها: التجارة. وقد عبر الزبيري عن رفض مكة الرضوخ، وإيثارها الموقف المستقل المحايد على الانحياز إلى بيزنطة، بما نقله عن ابن عم عثمان بن الحويرث، عن أبي زمعة الأسود بن المطلب، الذي صاح والناس في طواف: «إن قريشاً لقاحاً لا تملك ولا تملك! وأصاف قائلاً: «فانصت قريش على كلامه، ومنعوا عثمان مما جاء له، فمات عند ابن حنيفة»^(٣).

(١) الزبيري، مصعب: نسب قريش، تحقيق: إ. ليفي - برويسال، دار المعارف للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٥٣، ص ٢١٠.

(٢) Simon: Hume et Tāf..., p. 225. نقلاً عن الفاسي من كتاب: al-Fār: Die Chroniken der Stadt Mekka, herausg. von F. Wustenfeld, Band II, (Leipzig 1859), no. 143 sqq.

(٣) الزبيري: المصدر ذاته، ص ٢١٠.

وقد لاحظ مونتغمري - وات هذه الرعة المكة في الحبداء، ونسها إلى خشية القرشيين من الانغماس في الحرب البريطة القارصة وهي في أوج احتدامها، إذ قدّر أن واقعة عثمان بن الحويرث حدثت في تسعينات القرن السادس. ووافق سيمون في هذا الأمر. ولعل ما يدعم هذا أن ملك الفساسة في هذه الواقعة كان عمرو بن حنيفة العنابي، الذي حكم في مرحلة ما بعد حبس المنذر ثم العمان ابنه، نحو سنة ٥٨٢م^(١).

وقد انحلت الحادثة عن رصوح بيزنطة للأمر الواقع، في هذا الشأن، فاستمر تسيير الرحلات المكة التجارية إلى الشام، لأن البيزنطيين افترضوا إلى أية بدائل أخرى، خصوصاً بعد سقوط البس صر طاق العمود القارسي. إلا أن الإدارة البيزنطية المالية في بلاد الشام أحدثت نفساً على التحار المكيين، ولذا لم يستغرب حميد الله أن الإسلام ردل المشاربين ردلاً شديداً^(٢).

(١) الأندلسي: نشوة الطرب ص ٣٥٠ والزبيري المصدر السابق، ص ٢١٠ ونظر أيضاً

Simon: Hume et Tāf..., p. 225. وكذلك Montgomery Watt: Muhammad at Mecca ... p. 16

p. 225

(٢) Hamdullah: Muhammad Les voyages du Prophète avant l'Islam, B.E.O., XXIX (1977), (٢)

pp 221, 224

مقدمة الجزء الثاني

في الفصل الأول، تناولت هذه الدراسة الشرح النموي والتاريخي للمصدر الأول الذي أشار إلى إهلاف فريش، وهو سورة فريش في القرآن الكريم. وقد كان لا بد من وضع النقاط على الحروف في هذا الشأن قبل المادرة إلى التوسع في الموضوع. ولذلك جعل الشرح النموي والتاريخي الفصل الأول في الدراسة.

ولما كان الإهلاف هو التنظيم الذي تولت فريش سموحه تسيير أحد خطوط تجارة الشرق الدولية، ارتؤي أن ولوح الموضوع لا يفي الإهلاف حقاً، ولا يضعه في مرتبته الخطيرة ضمن سياق تاريخ الصراع الدولي في المنطقة، إذا لم يسبقه عرض تاريخي وافي للصراع على طرق بحارة الشرق، فكانت تلك مهمة الفصل الثاني.

أما الفصل الثالث فقد أتاح الخوض في التطورات التي حدثت على صعيد الصراع المذكور، في القرن السادس الميلادي، القرن الذي شهد نشوء الإهلاف وتطوره وتحولاً من مشروع بحاري صرف إلى عامل أساسي في عوامل نشوء نزعة إلى الوحدة الاقتصادية والسياسية والدينية واللغوية والاجتماعية بين القبائل العربية. وقد مهد الفصل الثالث بذلك لمهم أسبب تعاضد دور مكة في التجارة الدولية، وهو الأمر الذي لم يكن متاحاً لها قبل القرن السادس.

وستتناول الفصول الثلاثة المقبلة دراسة الإهلاف نفسه في تفاصيله التجارية والجغرافية والمالية والاجتماعية والدينية والتنظيمية والسياسية، في محاولة لفهم الدور الذي أداه إهلاف فريش في حفر عوامل الوحدة بين القبائل العربية، على الصعيد السياسي والديني والاجتماعي واللغوي.

الفصل الرابع

تجارة الإبل وطرقه وتنظيمه

أولاً: عوامل ظهور مكة

١- واد غير ذي زرع

لا يتصور بعض الدارسين قيام مكة من غير التجارة. وهذا أمر ليس صحيحاً تماماً، لأن مكة، إذا حلت من أي نشاط زراعي أو رعوي، على نحو ما جاء في وصفها في القرآن الكريم: «وَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ» (إبراهيم: ٣٧)، كانت لها على الأقل صفة المحطة منذ عصر لا نعلمها الدائرة. لكن الحج والمواسم التجارية اقترنت معاً زمناً طويلاً. ولذا فإن رعي اردھار مكة يتطور التجارة ليس خاطئاً تماماً أيضاً، خصوصاً لاسيما لا نبي منذاً كل من الأمرين. ويرى سيمون أن افتقار مكة لمؤهلات المدينة الراحية أو الرعوية لا يبيح لنا افتراض ظهور مكة قبل ظهور الوساطة التجارية. وهو يعتقد أن هذا الافتقار كان حافزاً على امتنان التجارة، بما كانت للطائف ولشرب ظروف ماحية أفضل أهلتها للاعتاش من مصدر آخر. ولا يصل سيمون إلى القول: لا مكة بلا تجارة، لكنه يرى أن مكة قبل الانحمار ما كان يمكن أن تكون سوى محطة ومحطة صغيرة لقوافل طريق الحور بين اليمن وسورية^(١)، على الأكثر.

وافتنار مكة ووادها إلى الررع حتم اتقاء المكّيين إلى التجارة. وكذلك أحاطت الطبيعة المدينة وحواها بمنطقة عارلة محترمة على الدولة الأحبة، حتى خلا تاريخها زمناً طويلاً من ذكر لسلطان أي دولة عليها، لعمرة المسالك إليها وجفاف الصحراء من حولها، على نحو جعل أعنى الدول نحر عن الغاذي

(١) Simon Dunne et TERT, pp. 208, 209 وكذلك الشريف: المرجع السابق، ص ٢٥٩ - ٢٦١.

٣٧٩ - ٣٧٨. وانظر بهتون: المحار، ص ٢٨.

الصحراء الحجازية. وقد افتخر المكيون لهذا وارتأوا أن من شرف مدينتهم أنها كانت لِقاحاً^(١)، أي أنها حصنة ولا تدبى لدين ملوك ولم يؤذ أهلها إتاوة ولا ملكتها ملك قط من سائر البلدان. نَحَح إليها ملوك حمير وكندة وغان ولخم فبدينون للخمس من قرش وبيرون تعظيمهم والافتداء بآثارهم مفروضاً وشرفاً عندهم عظيماً، بل إن أهل مكة في رأي باقوت كانوا «أمنين يَغزُون الناس ولا يُغزَوْنَ وَيَسْبُونَ ولا يُسَبُونَ، ولم تُسَب قرشة قط فتوطأ قهراً»^(٢). وجعل هذا مكة مدينة حرة مستقلة، لا لأن النظام القبلي لا يسمح بفهم سلطة مركزية محلية تربط الأطراف بعضها ببعض فقط، بل لأن ظروف الصحراء الصعبة أيضاً حظرت على أية سلطة مركزية خارجية، أن تمتد سلطانها المباشر إلى داخل الجزيرة العربية، على الرغم من أن خطورة المصالح الدولية ورغبة الحكومات في هذا الأمر، جعلوا الحجاز على الخصوص مطمحاً دائماً للدول في مختلف العصور^(٣).

وقد ارتقت مكة إلى مرتبة الزعامة السياسية في أمين العرب الذين وأعظموا قرشاً، خصوصاً بعد هزيمة أبرهة الحبشي، لأنها أثبتت أنها قادرة على أن تكون «لقاحاً»، لا تُدبى لملك ولا تأمر لأمر سلطة خارجية. غير أن انتصار الفرس في اليمن بعد موت أبرهة جعل مكة في حاجة أمس إلى إظهار استقلالها، حتى لا تبدو كمن انحاز فنصر جانباً على جانب. وقد كانت الأوضاع مناسبة لهذا، لأن الفرس ترددوا قبل أن يرسلوا جنودهم إلى اليمن، فأرسلوا ستمائة فقط، وكان هؤلاء عوناً معنوياً كافياً، بعد اندثار جيش أبرهة بالمرض الذي أصابه. ولكن الجنود الفرس الذين أرسلوا إلى اليمن بحرراً، لم يشكّلوا قوة كبيرة في جنوب الجزيرة العربية، فظلت بقية أجزاء الجزيرة خالية تقريباً من نفوذ أي من الدولتين الكبيرتين المباشر، وبذا تاحت لمكة فرصة لتعزيز هيبتها وتحسين مكانتها عند

(١) لسان العرب: مادة لِح.

(٢) مادة مكة في معجم البلدان.

(٣) الشريف: المرجع السابق، ص ٩١.

العرب. وسنبين فيما بعد أن حرب الفجار التي نشبت بعد طرد الأحباش من اليمن، كانت حرباً مكّبة لا مسرّع لها سوى تمكن الفرس من قضيته على أئمة التجارة، بعد محاولة الحيرة مد السلطان الفارسي إلى الحجاز، من أجل عقد اتصال بري مباشر مع اليمن الفارسي^(١). لقد رفضت مكة كلا الفوذيين الفارسي والبيزنطي، فمرة رفضت التزندق في أيام فاد ملك الفرس، ومرة رفضت تملك النصراني عثمان بن الحويرث على ماسلف، فتأملت التمسك بدين إبراهيم والآباء الأوائل، كما قالوا، مع ما شاب هذا الدين من تعبد للأوثان. ولما جاءها أبرهة غازياً لهم البيت ارتد مهزوماً أمام مرأى العرب وعلى مسامحهم.

لم تكن مكة تحتاج من الناحية المعنوية إلى غير هذا حتى تستحق الصدارة بين العرب. ولكن ما كان لهذه الزعامة أن تدوم وتتميز لولا أن مكة كانت أيضاً قد سيطرت على خطوط التجارة في غرب جزيرة العرب^(٢). وقد صادفت هذه السيطرة قبولاً لدى الدولتين الكبيرتين ضمن إمكاناتهما المتاحة في هذا القطاع من طرق تجارة الشرق. فبمنطقة قبل سقوط أبرهة كانت نزع في سوق جزء من هذه التجارة عبر قوافل الحجاز، لأن صمودات الإحبار في البحر الأحمر كانت ربما تحفزهم على اختيار مسلِك آمن، لا تستطيع أن تصل إليه سفن الفرس أو القراصنة^(٣). وكان اليمن حليفاً لمنطقة، وكانت مكة ملتزمة، بالإلاف، إيصال تجارة الشرق إلى أسواق بيزنطة الرسمية في بلاد الشام. ولم تكن الفرس تستطيع أن تبدّل من هذا الحال شيئاً، لأن الفاتل العربية على طريق القوافل كانت هي أيضاً متعاهدة بموجب الإلاف مع مكة، على نحو ما سنين فيما يلي.

أما بعد سقوط أبرهة فكان الفرس راضين نوعاً شحارة مكة لتقاضيتهم مكوسها في اليمن، ولعدم قدرتهم على تعزيز قضيته على الحجاز، على ما

(١) Montgomery Watt: Muhammad at Mecca... p. 14 وكذلك الشريف: المرجع السابق.

(٢) ص ٩٧. ويحسون: الحجاز... ص ٢٨.

(٣) Shahid: Taw'anic Sijra... p. 429.

(٤) Priscus vol. I, p. 179. واطر: vol II, p. 215. واطر: The Arabs in the

Peace Treaty. ويحسون: الحجاز... ص ٩١، ٩٢، ٩٣.

ظهر في حرب الفجار. ولم يكن لبيزنطة ندحة من قول التجارة المكيّة، بعدما انتفض وجود حلفائها وتقلّص نفوذها على طول الحانب الغربي من جزيرة العرب.

لقد كانت مكة مؤهلة في كل شيء لتنظيم تجارة الشرق، وكانت الظروف الدولية ملائمة تماماً لاضطلاعها بهذه المهمة.

ب - مكة والتجارة

ثمة أدلة أثرية تحفز باحثين على القول إن قبلة قريش امتنعت التجارة، حتى قبل أن تستولي على مكة في أوائل القرن الخامس الميلادي تقريباً. ففي نقش «حفلة» الذي يقدّر علماء الآثار أن تاريخه يراوح بين ٢٧٠ و ٢٧٨ م^(١)، ذكر لمن يدعوهم «قرشنة» ضيوفاً على ملك حضرمي، ومعهم ممثلون لمن دعاهم النقش «تدغر وكشد وهذه»^(٢). وتشته كرون بأن قرشنة من نساء من قريش، وبأن الآخرين هم تدمريون وكلدان وهنود ممن يتعاطون التجارة. فإذا صحّ هذا فإنه يعني في نظرها أن قريشاً كانوا تجاراً ذوي بعض الشأن منذ القرن الثالث الميلادي، أي قبل استقرارهم في مكة بقرن ونصف. ومع أن كرون على حق في قولها إن امتناع قريش التجارة في ذلك الزمن لم يكن مرهوناً بالحرم المكي ومواسم الحج، وإن الحرم كان يمكن أن يقوم قبل قيام التجارة في مكة^(٣)، إلا أنها تتجنب الاستنتاج الواضح الذي لم ترغب في استنتاجه، وهو أن تجارة قريش ازدهرت أيما ازدهار بعد ارتئانها بالحرم المكي، وأن مكانة مكة الدينية بين القبائل العربية تعاضمت عندما أخذت مواسم الحج ورحلات القوافل المكيّة تدور أرباحها على زعماء القبائل وتجارها. وقد أشار بيضون إلى قدم التجارة في مكة وميز بين أتجار المدينة بالتجارة المحلية وأتجارها بالتجارة الدولية، والصح إلى احتمال تطور هذه الوساطة المكية على نحو تدريجي^(٤) وهذا على الأرجح هو

(١) Crone: op. cit., pp. 169, 170.

(٢) بيضون، إبراهيم: الإبل والسلطة في مكة قبل الإسلام، دراسات، السنة الثانية عشرة، العدد ١٨، كلية التربية، الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٨٥، ص ٩. وكذلك Donner, Fried McGraw: Mecca's Food Supplies and Muhammad's Boycott, JESHO, vol. XX, part III, pp. 250, 254.

الذي حدث، من فعل تداخل الاستعدادات المكيّة والظروف الدولية وحالة العرض والطلب على طرفي خطوط التجارة الشرقية.

وإذا كان ثمة من يعرف أن مكة تحتل أو لا تحتل موقعاً مهماً على طرق التجارة الدولية، تلغى عنه الخطوط، فإن بيزنطة كانت في ثمة أهم الراغبين في معرفة ذلك، لأن جزءاً خطيراً من سياستها الخارجية حيال الشرق، كان متصلاً بتسيير تجارة الشرق وفز أفضل الشروط والظروف. وقد سقت الإشارة إلى محاولة بيزنطة تمليك ابن الحويرث على مكة بعد سقوط أرملة وخلفاته، وكذلك سقت الإشارة إلى محاولة مماثلة، إذ ساند حلفاء بيزنطة العنبريون النصراني، وربما بنو سلبج أيضاً، استيلاء قريش وزعمائها فصيحة من كلاب على مكة، بعد سقوط اليمن في أيدي حكام نهضوا أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الميلاديين. ولا يفتل أن تكون بيزنطة قد سعت كل هذه المساعي، لو لم تكن مكة فعلاً عقدة مواصلات مهمة في تجارة الشرق.

لقد احتلت هذه المدينة موقعاً على إحدى أهم الطرق الدولية لتجارة الشرق. وتنبه لها التجار وقادة القوافل، وصطت إلى حظوة موقعها الدول منذ أزمنة قديمة. وكانت منتجات الهد واليمن تمر عبرها إلى سورية ورومة والقسطنطينية. ولم يكن مثل هذا المرور ممكناً لولا موافقة المكيين، الذين كان كبارهم يطوفون في البلاد ويقيمون الاتصال السياسي والتجاري مسؤولي الديار المجاورة^(١).

ولا شك في أن قلّة من الكتاب علموا مرنة الإقناع في حديثهم على مكة وموقعها من خطوط التجارة. وهذا نموذج من مألوف ما حده في هذا الشأن، إذ يقول الشريف: «في منتصف الطريق الممتد للقوافل بين اليمن والشام تقوم مكة في وادٍ منبسط من أودية حبال السراة، تحيط به الحال الحرداء من كل جانب وتكاد تحجبه إلا من ثلاثة منافذ، يوصله أحدها بطريق اليمن وبهذه الثاني بطريق قريب من البحر الأحمر حد مرأ حنة، ويوصله الثالث بالطريق المؤدي إلى

(١) Hamdullah Al-Tijr: والشريف المرجع السابق، ص ٩٢.

فلسطين... والثابت أن واديهما أخذ من قبل أن تُبنى، مؤنلاً لراحة رجال القوافل القادمة من الشمال والجنوب، بسبب ما كان من المهن، فعلى طول طرق التجارة عبر الصحراء وجدت بضعة أماكن مبنية اتخذها التجار المسافرون مؤنلاً لراحتهم، وبالتدريج أصبحت منازل الراحة هذه مستودعات للتجارة، وصار بعضها مقاماً للهياكل والمحاريب يتابع التاجر في حمايتها تجارته ويلجأ الحاج إليها لالتماس العون منها^(١). إن وصف مكة وموقعها من طرق التجارة أمر ضروري ولا شك، لكن هذا الوصف التقليدي الشائع ليس مقنعاً وحده في تفسير مكانة مكة التجارية. إذ إن يثرب مثلاً تقع مثل مكة على مفاصل طرق التجارة نفسها، ولا تختلف عنها في هذا الشأن، ولم تبلغ مع ذلك ما بلغت مكة. ولعل خطأ هذا الأسلوب هو في أنه يفترض في مكة حالة دائمة، ملائمة للتجارة، قد تتبدل فيها الأمور وبالتدريج، دون تفسير لهذا التبدل أو أسبابه، ودون محاولة لربط هذا التبدل بالظروف المعاصرة والأحوال الدولية المحيطة. ومثل هذا التفسير اللاتاريخي الجامد يوحي أن الأحوال والظروف ملائمة دائماً لتجارة مكة، فيما توحي كرون في تفسير لا تاريخي جامد آخر أن الأحوال والظروف غير ملائمة لهذه التجارة في كل ظرف وحال. ولا علاج لهذه الجملتين إلا برؤية تبدل الظروف المؤثرة في هذه التجارة، وما الذي جعل الأحوال غير ملائمة لها في حين وملائمة في حين آخر.

ويحق للباحث أن يشبه في أن محي. قبيلة امتنعت التجارة، إلى بلدة احتضنت حرماً دينياً يحججه العرب أو كثير منهم، فمن أن يحدث تفاعلاً متصاعداً بين النشاط التجاري والمواسم الدينية، فينتهز الجميع سانحة مجيئه الموسمي من أجل كسب بعض الربح بما يحضره من نتاج قبيلته، وينشجع التاجر من ربحه فيعاود الحضور في موسم الحج التالي، ويتحول مجيئه السنوي إلى مراسم مقدسة، تختلط فيها فرحته بخير التجارة الممهم مع إيمانه بالبركة التي تحل عليه من صنمه الذي تعبد له وطاف به. ويشجع الباحث على الاشتباه في هذا التطور

(١) الشريف: المرجع ذاته، ص ٩٥، ٩٦.

المتلازم للتجارة والحرم الديني أن افتران الحج بالتجارة كان القاعدة في جزيرة العرب، على ما جاء في دراسة سرحت في هذا الخصوص^(٢). وأن استيلاء قريش، هذه القبيلة المناجرة، على مكة. راضه تنظيم فصيّ زعيمها لمراسم الحج ووظائفه المختلفة^(٣). إلا أن الاعتقاد أن مجرد الفناء الشرطين، التجارة والحج في مكة، قد رفعها على الفور إلى مصاف مطهي التجارة الدولية، هو اعتقاد خاطيء. إذ إن هذا الالتقاء جعل مكة مؤهلة لتقوم بمهمة في التجارة الدولية، لكنه لم يكن كافياً لهيوس المدينة إلى المكانة التي احتلتها فعلاً. وكان لا بد من انتظار تطورات الظروف الدولية في القرن السادس لتكتمل الشروط التي أتاحت لمكة أن تتسلم أمانة حصة حليلة من التجارة الدولية، وأهم هذه التطورات ما أشار إليه سيمون: الوضع التاريخي الملائم وانتقال مفاصل وعوامل التجارة الخارجية بسبب الصراع المستمر بين الدول الكبرى^(٤). وهذا رأي آبهه شهيد بقرة.

ج - أسباب التحول إلى غرب الجزيرة

لقد فصل شهيد هذا الوضع التاريخي الملائم الذي أتاح انتقال طرق تجارة الشرق إلى غرب جزيرة العرب، فحملها في حصة أسباب. نستحق الذكر هنا بالتفصيل:

- السبب الأول هو نشوب الحروب الطويلة بين الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية في أوائل القرن السادس، في عهد أنستاسيوس (٤٩١ - ٥١٥ م)، وهي حروب لم يخل منها أي من جهود الاماطرة الذين خلفوه: جستينوس وجستينيانوس وجستينوس الثاني وطباريوس وموريقيوس، وقد بلغت ذروتها بالفوزة الشاملة التي قادها كسرى فاتحاً بها الشرق كله، ونعماً هجوم الإمبراطور هرقل المضاد. وكان أثر هذه الحروب في طريق الخليج عبر الفرات مؤذناً جداً،

(١) Sepant, R. B. *Islam and Islamism: the Sacred Embrace in Arabia*, Motenag Tahs Nam- (١)

vol. 1962, pp. 41 - 58

(٢) راجع تنظيم الحرم المكي فيما بعد

(٣) Simon (Ism et Tār ... p. 208 (٣)

خصوصاً لأن الحملات كانت تُشن على محطات هذه الطريق بالذات: دارا ونصيبين والرقّة، التي كانت تؤوي دور المكوس. وكان الفرس يشتون حملاتهم العسكرية ويعرقلون في الوقت نفسه تجارة الحرير التي كانوا يحتكرونها. وتشهد سفارات جستنيانوس إلى الأحباش ومفاوضات مع الفرس بشأن الحرير على العراقيل الخطيرة التي اعترضت التجارة الشرقية عبر طريق الفرات. وقد ربط يبيزون أيضاً انتقال خطوط التجارة الشرقية من الفرات إلى غرب جزيرة العرب بالحرب البيزنطية الفارسية المزمعة.

- السبب الثاني هو ظهور المملكة العربية الوكيلة، التي أنشأها جستنيانوس ليوازن بها وكيل الفرس اللخمي. لقد أدى ظهور الغساسنة إلى تأجيج النزاع ولم يُنح للتجارة عبر طريق الفرات أن تزدهر، إذ كان نفوذ كل من هاتين المملكتين العربيتين يمتد على قطاع مهم من قطاعات هذه الطريق. وكان سبب الحرب بين بيزنطة والفرس من سنة ٥٤٠ إلى سنة ٥٤٥ م.، نزاعاً بين المنذر والحارث بن جبلة الغساني على منطقة السراط، على ما أسلفنا، من أجل مرعى بين دمشق وتدمر. وكان أسوأ ما أحدثه نزاع اللخمين مع الغساسنة في شأن عرقلة سير التجارة عبر طريق الفرات، أن الحارث والمنذر كانا يواصلان مناقشاتهما في أثناء السلم بين بيزنطة والفرس. وليس هذا بالأمر الغريب إذ إن الصفة العسكرية غلبت على الوكيلين العربيين، ولم تكن لهما الصفة التجارية التي اتصفت بها تدمر أو البتراء. وقد ظل الفرس يستخدمون المنذر الثالث خمسين سنة في ترويع المقاطعات البيزنطية من الفرات إلى فلسطين، فكانت حروبه حافزاً قوياً على تحويل طريق التجارة إلى غرب جزيرة العرب.

- السبب الثالث هو اشتراك الأحباش في مجال السياسة الدولية في القرن السادس. وقد بدأ اشتراكهم في عهد جستنيانوس الأول، وتعاظم في عهد جستنيانوس بغزو اليمن في ٥٢٤ - ٥٢٥ م. وتدل سفارة الإمبراطور يوليانيوس إلى النجاشي في شأن تجارة الحرير، على أن الأحباش كانوا بحارة قادرين على منافسة الفرس في احتكارهم لتجارة الحرير. لكن النشاط البحري الحبشي كان

يؤكّي على الخصوص شطر القارة الإفريقية. وحين غزا الأحباش اليمن استعانوا بسفن بيزنطة لنقل جنودهم، بسبب قلة سفنهم. أما الغزوة فليست كل آثارها واضحة في نطاق تطور أوضاع طرق التجارة. لكن المؤكد هو أن الحميريين الذين ازدهرت على أيديهم طريق البخور طوال عصور من الزمان، أصبحوا شعباً مغلوباً على أمره. وكان أبرهة حبشياً غريباً في اليمن، وكان عليه أن يحمي حكمه من الأقبال المهزومين، ومن القبائل العربية، وكذلك من ملك الحبشة نفسه الذي تمرد على سلطته. ولذا كان على أبرهة أن يظهر صفاته العسكرية ويستغلها بتوسّع، فاتّصف حكمه بالاضطراب والسمة العسكرية. ويمكن القول بنسبة جيدة من الاطمئنان إن النشاط الاقتصادي ما كان ليزدهر، وإن الذين سيطروا في الماضي على طريق البخور أخذوا يفقدون هذه السيطرة شيئاً فشيئاً، ويضمحل نفوذهم التجاري بعد استيلاء الحبشة على بلادهم.

- أما السبب الرابع فهو الأهم، وهو صعود مكة وتعرّسها في تنظيم التجارة، بسبب الغزو الحبشي وأثره في ضرب التنظيم الحميري. لقد كان سقوط اليمن فرصة مكة. واتفق شهيد ويبيزون وغيرهما على أن تجارة مكة، قامت على أنقاض الشبكة التجارية الحميرية. فقد استغل المكّيون هذه الفرصة استغلالاً تاماً، وأصبحت مدينتهم مركز التجارة الأول في غرب الجزيرة العربية. وأبلغ دليل على النجاح الذي أحرزته مكة في صعودها هذا، هو حملة أبرهة. ففي أواخر القرن السادس كانت قد أصبحت ملتقى ثلاث طرق رئيسية لتجارة الشرق، أولاها من شرق الجزيرة والثانية من الجنوب والثالثة من البحر الأحمر ناقلة البضائع من الحبشة. فالأولى أتت وادي الرمة ووادي الدواسر، وكان عرب البحرين وعمان يأتون عليها بتجارة الشرق بعيداً عن طريق الفرات التي أصبحت الرسوم عليها باهظة بما فرضته الدولتان المتحاربتان هناك. أما الثانية فهي الطريق من الجنوب اليمني وقد بدأ المكّيون في هذا القرن السادس ينظمون عليها رحلة الشتاء، بعدما كانوا يعاونون تجار اليمن بقوافلهم. وكانت الطريق الثالثة هي طريق البحر التي حملت من القارة الإفريقية إلى الشاطئ المجاور لمكة على ضفة البحر الأحمر منتجات الأحباش وتجاراتهم من أسواق الشرق.

ولم يكمل البحارة الأحباش إبحارهم إلى النصف الشمالي من البحر الأحمر، لأسباب سنأتي على ذكرها. وقد عبرت هذه الطريق الثالثة أكثر من الآخرين عن حيوية التجار المكيين الذين استطاعوا أن يجتلبوا إلى الشاطئ الآسيوي تجارة إفريقية، ليسوقوها عبر قوافلهم، في أسواق فلسطين وبلاد الشام.

- وفي السبب الخامس الذي أدى إلى تحويل طرق تجارة الشرق إلى غربي جزيرة العرب، أن نظام مراقبة التصدير والاستيراد الذي فرضته الدولتان على الحدود بينهما في بادية الشام، جعل التجارة تتخذ لنفسها طرقاً تُجنبها المراقبة الشديدة، أو توفر عليها بعض المكوس^(١).

د- انهيار التجارة اليمنية

لقد قُتُن كثير من الباحثين بفكرة تقول إن انهيار النظام التجاري اليمني بفعل الغزو الحبشي، قد أتاح لمكة سبيل الاستيلاء على أزمنة تجارة الشرق فتركوا البحث في الأسباب الأخرى لتعاظم تجارة قريش. فاستعرض أحدهم مساهمة حضرموت والشحر وظفار في الاتجار منذ القدم مع الهند وجاوة، وتاريخ معين وسبأ وحمير، وأكد أن مكة كانت مركزاً تجارياً للحميريين^(٢). وارتأى آخر أن الغزوات التي تعرض لها اليمن في القرن السادس دمرت تجارتها، وأن احتراب الدول أضعفها، فاشتد ساعد الزعماء القبليين لتعاظم مساهمتهم في التجارة البرية. وقد أرسلت الحملات العسكرية لإخضاعهم لكن أثر هذه الحملات كان مؤقتاً^(٣). كذلك ربط ثالث ضعف اليمن بقوة مكة فقال: «وفي الوقت الذي شهدت خلاله اليمن انهياراً لحضارتها ووقوعها تحت نير الاحتلال الحبشي، كانت مكة قد بدأت تبرز مجتمعاً حضارياً عربياً مهماً في الجزيرة العربية، حيث تمكنت من استغلال فرصة القتال الدائم بين الفرس والروم وتعطل طرق التجارة وضعف الدولة الحميرية في أواخر عهدها، فقامت

(١) 192 - 185 pp. Shahid: The Arabs in the Peace Treaty.... ويغنون: الحجاز....

ص ٣٠، ٥٧، ٥٨، ٧٦، ٨٢.

(٢) حمور: ص ٢١ - ٢٣.

(٣) Rodinson: op.cit., p. 35

بالخدمات التجارية التي كانت المميز الأساسي لاقتصاد الجزيرة العربية^(٤). ولاحظ سيمون أن اليمن الذي أخذ يضمف في القرون الميلادية الأولى فقد كل مواقع التجارة والسياسة في العقود التي نلت الغزو الحبشي^(٥). ولم يخرج الشريف عن هذا حين قال إن سقوط اليمن تحت الاحتلال الحبشي ثم الفارسي وقيام الخلافت الداخلية، أدبا إلى ظهور البديل في مكة^(٦).

أما شهيد فنظر إلى المسألة نظرة أقل تبسطاً، فافترض احتمال انتهاء الغزوة الحبشية لليمن بقيام سلطة الحاشي الموحدة على طرفي باب المندب. وقال إن هذا كان شأنه ربما أن يعيد إنشاء دولة سامية قوية في هذه المنطقة، لكنه أضاف أن هذا الدور كان مقدرًا للعرب الشماليين (أي مكة) لأن أبرهة أفضل المسمى الحبشي واستولى على اليمن نفسه، وبذا أتاح لمكة أن تتقدم إلى صدارة القوة. ولولا ذلك لعادت مكة في رآه إلى حالتها الأولى تابعة للجنوب العربي القوي، فكان استمرار الفوضى في حوض الجزيرة العربية ضرورياً لتواصل مكة لمناهة^(٧). لكن سبيل الافتراضات سيف ذو حدين. فدولة أبرهة الحبشي قضت فعلاً على دولة الحميريين، ولو لم ينفرد أبرهة لكادت مملكة أكسوم بشقيها الحبشي واليمني أقوى ولا شك. ولو تعاظمت قوة الدولة في اليمن، لما كان الحال مريحاً لنماء مكة وتجارها. ولكن هل ساعد نفوذ أبرهة على ملك الحبشة التجارة المكية فعلاً؟ إن الحزم في هذا الأمر شديد التعقيد والصعوبة. فأبرهة حين أحبط قيام سلطة موحدة على حاشي باب المندب، إنما عقد مع بيزنطة تحالفاً أخطر أثراً ربما على مكة من الدولة الأكسومية الموحدة. وإذا قلنا إن دولة أكسوم الحبشية - اليمنية المفترضة كانت هي الأخرى ستتحالف مع بيزنطة، فإن دولتي أبرهة وأكسوم تحالفتا معها فعلاً، كل على حدة. ولو قامت دولة حبشية موحدة على حاشي باب المندب فتمتة احتمال للاعتقاد أن قوتها كانت

(١) الصلوي: المرجع السابق، ص ١٣٥.

(٢) Simon: L'insurrection... p. 330, 331

(٣) الشريف: المرجع السابق، ص ١٥١.

(٤) Shahid: The Arabs in the Peace Treaty... p. 189

كفيلة أن تغنيها عن الحاجة إلى كسب ود بيزنطة، وأن تُضربها بالنالي عن مضايقة مكة في تجارتها، وهو الأمر الذي حاوله أبرهة ربما بإيعاز، ولكن حتماً بترحيب من بيزنطة.

لكن ضعف اليمن أو ضعف الدولة المسيطرة على اليمن وانهايار التجارة هناك لم يكن هو السبب الوحيد لصعود مكة قطعاً. لقد سيطر الساسانيون في سنة ٥٧٢م. تقريباً على البحرين وعمان واليمن وكان لهم نفوذ في نجد وسيطروا على مرفأء عدن وضحار ودبالة^(١)، وفي مرفأء دبا كان يجتمع تجار الهند والسند والصين والشرق والغرب^(٢). وكانت دولة الساسانيين قوية، فلم تنتزع من أيدي المكين تجارتهم.

- هـ - أسباب تفوق مكة

والواقع أن عدداً من العوامل أدت إلى انتقال التجارة إلى مكة بالذات، بعدما انتقل محور تجارة الشرق إلى غربي جزيرة العرب، وفق ما سلف. إن الحرب الساسانية البيزنطية المتصلة تقريباً على مقربة من طريق الخليج عبر الفرات، عطلت هذه الطريق وأخرجتها تماماً من المنافسة. ولم يبق من منافسة سوى منافسة طريق البحر الأحمر المباشرة إلى فلسطين ومصر، للطرق البرية عبر مكة. ويعتقد مونتغمري - وات أن البحر الأحمر في القرن السادس لم يعد مطروقاً لأسباب غير واضحة^(٣). ولكن بعض الكتاب اشتبهوا في عدد من الأسباب التي أخرجت البحر الأحمر من المنافسة، فوصف صاحب الطواف حول البحر الإريثري، خطورة الإبحار في البحر الأحمر في العصور القديمة. وقال حاجي حسن: «إن البحر الأحمر بين أهلة وأدوليس [في الحبشة] كان المنافس الوحيد لتلك الطريق [طريق مكة]. إلا أن البحر الأحمر، بعد تهاافت البحرية البيزنطية وعمول التجار الأحباش في أقصى الشمال، لم يعد يشكل أي

(١) Crone: op. cit., pp. 48, 49

(٢) البغدادي: المجتر، ص ٢٦٥.

(٣) Montgomery-Watt: Muhammad at Mecca..., p. 12

تهديد حقيقي لمكة. وكان معظم تجارة المواد الفاخرة التي تظليها بيزنطة يعتمد على مكة، بخاصة في أثناء الصراع البيزنطي الفارسي^(١). ونحدث بروكوبيوس عن كثرة المرجان في شمال البحر الأحمر، وإرتأى حمور أن البحر... لم يكن طريقاً آمناً، فالتجأ التحار إلى الطرقات البرية يسلكونها^(٢). ونسب ديودوروس الصقلي (Diodorus Siculus) صعوبة الإبحار إلى الفرصة، وقال الشريف: «وكان الطريق البحري عبر البحر الأحمر قد حلا من سفن الروم، ولم تقو البحرية الحبشية على سد الفراغ فيه، وأصبح مبدأاً لسفن القراصنة، فوق صعوبة الملاحة نفسها في هذا البحر بسبب الرياح الشمالية التي تعاكس السفن في إبحارها نحو الشمال، ولوجود الشبب المرحانية وحلو شواطئه من المرافء الصالحة لرسو السفن وحمايتها وقلة الماء والمؤن على حاتبه^(٣). وبعض هذه التفسيرات مقنع وصحيح، وبعضها غير مقنع ومهر كاف. وقد لحأت كرون بعد المعجز عن تفسير سبب انتقال التجارة إلى مكة، لحأت إلى حل المتصلة بنفي انتقال التجارة إلى أيدي المكين أصلاً، طالما أنها لم نعد تفسيراً لهذا الانتقال. وأصرت على أن الأحباش في القرن السادس هم الذين كانوا يسيرون معظم تجارة الهند والهندة البيزنطية، على الرغم من أن كرون لاحظت أن المصادر البيزنطية خلطت بين الهند والحبشة. ولاحظت كذلك أن آخر ذكر لسفن حبشية آتية من الهند (أي من اليمن أو من الحبشة نفسها) كان في نحو سنة ٥٧٠م. ولم نقل

(١) Periplus... p. 30. واطر أيضاً Hap Hassan Abdullah Abu: The Arabian Commercial Back

ground in Pre Islamic Times. Islamic Culture, vol 61 (1987), No 2, p. 77 وكذلك بصون:

الحجاز... ص ٥٦، ٥٧، ٧١

(٢) Periplus vol I, p. 170. واطر حمور: المرجع السابق، ص ١٩

(٣) Dinkhuus vol II, p. 215. واطر الشريف: المرجع السابق، ص ١٥١ ونحدث نشرلروروث

عن أسباب صعوبة الإبحار في البحر الأحمر، خصوصاً في شماله Charleworth

pp. 21, 63, 66. وقد نُحنت صعوبات السفر في البحر الأحمر على حجم وب في FArable of

see More Bordilares. فمن هذه الصعوبات كثرة المرجان وحضره. والرياح الشمالية طول

السنة. شمال خط العرض العشرين وغير ذلك. أطر في الكتاب المذكور مفتحي Ramez

ص ٦٢ و ٦٧، و SANIAVILLE، ص ١١، ١٨، ٢١.

كروان من تولّى هذه التجارة بعد ذلك التاريخ. وفُتِرت تطور الأمور بقولها: «وفي القرن السادس، عندما أصبح غير مألوف أن يقوم اليونان برحلة إلى الشرق ذهاباً وإياباً بأنفسهم، فقد يُحتمل أن يكون العرب الحنوبيون قد شاركوا في نقل البضائع الشرقية من سيلان إلى عدن مع الأحباش، رغم أن هذا ليس سوى افتراض بحت»^(١). وسيان أنكرت كروان أي احتمال لوجود استعداد ذاتي لدى العرب لتنظيم تجارة الشرق وتسييرها، أم أهمل غيرها اتخاذ هذا الاستعداد عنصراً مهماً من عناصر الموقف، فإن التفسيرات أخفقت في إدراك جدلية العاملين الأساسيين: الظروف الدولية الملائمة والاستعداد الذاتي المناسب. لقد لاحظ شهيد انهيار جميع منافسي مكة في المهمة التي كانت تطمح إلى القيام بها في التجارة الدولية. ولكنه نسب إلى أن هذا الانهيار بفعل الحروب كان العامل «الخارجي» في توفير أسباب نجاح مكة. ولاحظ بيضون انهيار اليمن وتجارته وتدهور أحوال الحيرة، لكنه لاحظ أيضاً عوامل القوة التي نهضت بتجارة مكة^(٢).

كان استعداد مكة الذاتي مسألة في غاية الخطورة، حسمت المنافسة لصالحها حين توافرت الظروف الخارجية الملائمة. فحين دعا جستنيانوس مملكة أكسوم، بعد هزيمة الرقة في بادية الشام سنة ٥٣١ م، إلى شن حرب بمساعدة اليمن على الفرس، من أجل محاولة الاستيلاء على تجارة الحرير الشرقي^(٣)، فشل في مساعده. لم تكن الرغبة ولا القوة وحدهما كافيين للاستيلاء على خطوط التجارة. فالحرب أوقفت التجارة على خط الفرات، ولم تحفزها. وفيما كان الآخرون يحترقون كانت مكة تنظم السلام بين القبائل العربية. والخطوط التجارية بطبيعتها تتجنب بؤر الحرب وجوارها. وحين سيطر أبرهة على اليمن

(١) Crone: op.cit., p. 40. وتحدث ميلر عن «السفر العربية» في التجارة الشرقية حتى مع الرقبة.

Miller, pp. 147, 190

(٢) Shahid: The Arabs in the Peace Treaty..., p. 182. ويهون: الحجاز، ص ٦٩ - ٨١.

وانظر أيضاً للمقارنة: دراذة: ص ٥٤. وكذلك جواد علي: ج ٤، ص ١٥٣.

Devreesse: op.cit., p. 284 (٣)

وعزز قبضته العسكرية على بعض القبائل العربية في وسط الجزيرة، لم يُفلح في انتزاع إزمّة تجارة الشرق من المكّيين. وكانت غرته لمكة دليلاً على هذا الفشل وتوجهاً له في آن. ذلك أن تنظيم خط نحاري كالذي نظمه مكة لا يحتاج إلى سيطرة عسكرية قدر حاجته إلى رأس مال نحاري ووسائل نقل منظمة وجهود كالتى عقدتها قريش مع القبائل العربية وملوك الأطراف، من أجل ضمان المرور الآمن والاتجار السلمي. وهذه جميعاً عناصر داتية توافرت لمكة ولم تتوافر لغيرها.

كذلك اتسم موقف مكة من الصراع السياسي والعسكري في القرن السادس بالحياد بين الفئتين العظيمين. وكانت لفرس مصلحة أن يشتري المكّيون بضائع تجارتهم الشرقية، وكانت لبرطة رغبة في شراء هذه البضائع. فلما حاول كل من الفريسيين الاستيلاء على مكة وطرفها وفشل، لم يحد بدأ من ترك التجارة المكّية تسير مسارها الطبيعي، فلم يكن ثمة بدل من مكة، والحرب سجّال بينهما.

لقد كان إيلاف قريش، الذي شكّل رحلة الشتاء وال الصيف، وحشد لها وسائل النقل اللازمة، ورصد لها المال النحاري الضروري، وسخر لها العنصر البشري المنظم، وعقد لها العهد مع القبائل لضمان المرور الحر الآمن، ووثق لها المواثيق مع ملوك الأطراف لتسيير التجارة الحرة^(١)، هو المصير الذاتي المهم الذي فشلت كل من الحشة واليمن والحيرة وغيرها في توفيره، فانتصرت مكة في المنافسة، واستطاعت وحدها، دون غيرها من المنافسين، أن تستفيد من الأوضاع الدولية الملائمة.

ثانياً: إيلاف قريش

١- من التجارة المحلية...

إذا كان ملوك حمير اليهود قد استولوا في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن

(١) يهون: الإيلاف، ص ٦. ولاحظ عاتقكمسكي في بحثه عن تجارة تمر لث الظروف الموضوعية الملائمة وحدها لا تكفي، وأن لا بد من استعداد ذاتي لدى تمر للقيام بعمل الخط النحاري. وهذا مظهر سليم بطور أيضاً على مكة. (Continued, p. 184)

الخامس على الحكم في اليمن، فإن هذا الوقت مناسب للاشتباه في أن البيزنطيين الذين خسروا موطنهم قدم لهم في جنوب جزيرة العرب، قد يحاولون تعويض خسارتهم بمساعدة حليف لهم في الاستيلاء على مكة. وإذا كان «قيصر» الروم قد «هاون» قُصياً بن كلاب في الاستيلاء على مكة، على ما قاله ابن قتيبة، في روايته لطرد قريش خزاعة من مكة على ما أسلفنا، فإن هذه الحادثة ربما حدثت في أوائل القرن الخامس أو بعد ذلك بقليل، رداً على تطورات الأوضاع في اليمن. إن سلسلة انتساب النبي العرب إلى قصي تزهد هذا الاشتباه، إذ إن من محمد بن عبد الله إلى قصي بن كلاب ستة أجيال، أي ما يمكن أن يبلغ بالسنوات نحواً من قرنين، مما يجعل قصياً رجلاً في الثلاثين تقريباً في سنة ٤٠٠ للميلاد، على افتراض صحة النسب وسلامة تقدير عدد السنوات.

إن الرواية العربية الإسلامية التقليدية لاستيلاء قصي على مكة قد تُعينا في محاولة تصوّر ما حدث في ذلك الزمن، في إطار الصراع الدولي على طرق التجارة، وفي ضوء ما سلف ذكره من عناصر هذا الصراع وعوامله. تقول رواية الطبري وابن هشام في هذا الشأن إن أم قصي تزوجت برجل من بني عدرة بعد وفاة كُلاب بن مرة والد قصي، فحملها العذري إلى قبيلته عند أطراف بادية الشام شمال وادي القرى، فأعلنت معها ابنها الطفل زهداً الذي لُقّب قُصياً لبعده عن دار قومه. ونشأ قصي في كنف زوج أمه حتى شب وعلم بحقيقة نسبه، فعاد إلى قومه واستقر بمكة، وأظهر فيها من النباهة والهمة ما جعله يصير إلى زعيم خزاعة حليل بن حبشية فيتزوج ابنته خُثَي. وأخذ مال قصي وولده يكثران في مكة، ومركزه يعلو، وطموحه يشتد، حتى أخذ يرتب للاستيلاء على سدانة البيت، وهي مركز سياسي خطير في الحرم. فاتصل سرّاً بعشائر قريش وبطونها وكانت متفرقة في تهامة وحول مكة، فوحد كلمتها وجمعها من حوله وحالف بطون كنانة، ثم راسل أخاه لأمه وزاح بن ربيعة بن حرام العذري القضاعي لِيُمدّه إذا لزم المدد. فلما تم له كل هذا، استنح سائحة موت حميه الذي كانت بيده سدانة الكعبة، فاستولى على مفتاح البيت الحرام، وأعلن أنه أحق بالولاية. واعترضت خزاعة وأبت أن تُخلّي لغيرها منصباً من مناصب خدمة البيت الحرام. فاستنفر قصي

قريشاً وكنانة واستمد أحماء، فقدم إليه فبس استطاع استفادهم من قضاة، وأنزل هزيمة بخزاعة وحلفائها من بني بكر وأحرحهم من مكة. ثم فرض قصي سلطانه على بطون كنانة التي كانت تلي بعض طفوس الحج، وأنزل قريشاً مكة وقسمها بينهم، فأقر له القوم جميعاً بالملك عليهم، واحتضمت مناصب مكة كلها في يده^(١).

ويتضح من هذه الرواية أمران: أولهما أن رواية شوه قصي في غير قومه، وعودته إليهم ليستولي على الحكم، هي أشبه سير أسماء الملوك الذين يُخْبأون في طفولتهم في كنف فلاح، فإذا شؤوا وعرفوا نسبهم حرحوا من محنتهم ليستولوا على الحكم. وقد يبرهن زعيمون قريش في كنانة: موسى والتوحيد، أن هذه الرواية الشعبية غرضها أساع الصفة الشرعية على من يستولي على الحكم من أهله، وإثبات حقه وانتمائه إلى بيت الملك. فإذا كانت هذه أسطورة وضعت بعد الإسلام، فقد ترمي عندئذ إلى إصفاء السمة الشرعية على دخول قبيلة الرسول مدينة مكة. أما إذا كانت من المانوروات التي سفت الإسلام وناقضتها الألسن حتى كتبها أصحاب السير والتواريخ الإسلامية، فقد نعي أن استيلاء قريش على مكة لم يكن مجرد حركة فلتة يحمل فيها قوم محل قوم، بل كان حدثاً سياسياً ذا شأن ومغزى في حياة الناس في حبه. وليس من سبل لتبخر من أي الاحتمالين هو الصحيح. لكن الاحتمال الثاني لو صح، لكان حافزاً آخر على الاشتباه في أن الصراع الدولي كان له بعض الأثر في هذه الحركة القبلية.

أما الأمر الثاني الذي نهه هذه الرواية، فهو أن مكة كانت حرماً ومحجة قبل أن تستولي قريش عليها، خلافاً لما يظنه بعض الباحثين. وقد سلقت الإشارة إلى اقتران حج المقامات بمواسم التجارة في جزيرة العرب، وهذا الأمر يعزز فكرة قيام حركة تجارية ما في المدينة وحولها، ويؤيد بالتالي احتمال طموح بيزنطة إلى السيطرة عليها، من طريق حلفاء لها.

(١) الطبري: التاريخ، ج ٢، ص ١٨١، ١٨٥. وكذلك سورة ابن هشام، ج ١، ص ١٣٠ و١٣١. وأظهر الشريف المرجع السابق ص ١٠٢، ١٠٤.

إلا أن تجارة مكة ظلت شبه محلية في عهد فصي وأبنائه، حتى جاءهم هاشم بن عبد مناف بالإبلان، إذ يقول أبو هلال العسكري: «كانت قريش تجاراً وكانت تجارتهم لا تعدو مكة وما حولها»^(١). وأكد محمد بن حبيب من ناحية ثانية أن تجارة الشرق كانت بيد الفرس آنذاك، إذ قال «كان من حديث الإبلان أن قريشاً كانت تجاراً وكانت تجارتهم لا تعدو مكة، إنما يتقدم عليهم الأعاجم بالسلع فيشترون منهم ثم يتبايعونه بينهم ويبيعون من حولهم من العرب، فكانت تجارتهم كذلك حتى ركب هاشم بن عبد مناف إلى الشام...»^(٢). وإذا صحّ تقديرنا لزمان استيلاء فصي على مكة، فإنه يوافق تولي ملوك حمير اليهود ملك اليمن، فيكون قول محمد بن حبيب إن الأعاجم هم الذين كانوا يأتون بالتجارة إلى مكة، قولاً منطقياً. ولم تنسح خطوط التجارة المكية كثيراً في ذلك العصر. إذ كان المكيون يشركون أهل الطائف في بعض تجارتهم. وكانت صلاتهم التجارية يبرش جيدة، فيمتارون من تمرها ويشتررون كثيراً من الحلبي والسلاح مما ينتجه اليهود فيها. وكانت لمكة سوق دائمة للتبادل التجاري مع القبائل القريبة منها، فتنشري الجمال والخيول والحمير والسمن والجلود، ثم تبعها لمن شاء من الأعراب. كذلك كانت تبعهم من مستوردات تجارتها الملابس والأطعمة والمشروبات التي كانت تروج بخاصة في موسم الحج^(٣).

وكانت مواسم التجارة مواسم محلية وأسواق العرب أسواقاً قليلة تتولى فيها كل قبيلة تنظيم سوقها في ديارها، فتأتيها القبائل الأخرى شاربة أو بائنة^(٤). ولم تغل جزيرة العرب طبعاً من قوافل التجارة الدولية، لكن هذه القوافل لم تصبح تجارة مكية إلا بالإبلان.

(١) الأوائل: ص ١٨.

(٢) المنقذ، ص ٣١، ٣٢. وكذلك: الفاي البخداي، أبو علي: الأمالي، دار الأفاق الجديدة، مطبوعة من طبعة دار الكتب، بيروت، ١٩٦٤، ج ٣، ص ١٩٩. وأيضاً الأوائل، ص ٨.

(٣) الشريف: المرجع السابق، ص ٢١١.

(٤) Simon: Etude et Tih... pp. 214, 215.

ج - الرواية الإسلامية والشكوك

والإبلان، حسبما تزوي المصادر الإسلامية، لم يقيم في رأي محمد بن حبيب: «حتى ركب هاشم بن عبد مناف إلى الشام فزل بقصره، واسم هاشم يومئذ عمرو، فكان يذبح كل يوم شاة مصححة نريد ويدعو من حوله فيأكلون، وكان هاشم [فيما] يزعمون أحسن الناس مصاً وأحمله، وذكر لقبره وقيل: وهنا رجل من قريش بهشم الخز ثم بصت عليه العرق وبغز عليه اللحم، وإنما كانت الأحاجم تفضع العرق في الصحاف ثم تأتيهم بالخنز فلذلك سمي عمرو هاشماً. وبلغ ذلك قيصراً فدعا به. فلما رآه وكلمه أصبح به [وكان] يرسل إليه فيدخل عليه، فلما رأى مكانه منه قال له هاشم: أيها الملك! إن لي قوماً وهم تجار العرب، فإن رأيت أن نكتب لهم كتاباً تؤمنهم وتؤمن تجارتهم فيقدموا عليك بما يُستطرف من آدم الحجاز ويأمنه فيكونوا يبيعونه عندكم، فهو لرخص عليكم، فكتب له كتاباً بأمان من أي منهم. فأقبل هاشم بذلك الكتب فعمل كلما مرّ بهي من العرب بطريق الشام أخذ من أشرافهم إلفاً. والإبلان أن يأمنوا عندهم في أرضهم بغير حلف، وإنما هو أمان الناس وعلى أن قريشاً تحمل لهم بضائع فيكونهم حملاتها ويرفون إليهم رأس مالهم ورجلهم. فأخذ هاشم الإبلان ممن بينه وبين الشام حتى قدم مكة، فأتاهم بأعظم شيء أتوا به، فخرجوا بتجارة عظيمة وخرج هاشم بخوزهم وبوقهم إبلانهم الذي أخذ لهم من العرب، فلم يرح بوقهم ذلك ويجمع بينهم وبين أشراف العرب حتى ورد بهم الشام وأحلهم قراها، فأتى في ذلك السفر بغزة من الشام... فلما مات هاشم خرج المطلب بن عبد مناف إلى اليمن فأخذ من ملوكهم عهداً لمن نجر قبائلهم من قريش، ثم أقبل بأخذ الإبلان ممن مرّ به من العرب، حتى أتى مكة على مثل ما كان هاشم أخذ، وكان المطلب أكبر ولد عبد مناف وكان يسمى الفيز. وهلك المطلب برمان من اليمن وهو رابع من اليمن. وخرج عبد شمس بن عبد مناف إلى ملك الحبشة، فأخذ منه كتاباً وعهداً لمن نجر قبيلة من قريش، ثم أخذ الإبلان ممن بينه وبين العرب حتى بلغ مكة. وهلك عبد شمس بمكة فغير بالحبشون، وكان أكبر من هاشم. وخرج نوح بن عبد مناف، وكان أصغر ولد

بد مناف، وكان لام وحده، وأمه واقدة بنت أبي عدي من هوازن بن
سور... فخرج إلى العراق، فأخذ عهداً من كسرى لتجار قريش، ثم أقبل
على الإبلات ممن مر به من العرب، حتى قدم مكة، ثم رجع إلى العراق ففعلت
لحمان من أرض العراق. وكان بنو عبد مناف هؤلاء أول من رفع الله به قريشاً لم
العرب مثلهم فط أسمع ولا أحلم ولا أعقل ولا أجمل^(١).

لقد شك كثير من الدارسين في هذه الرواية لأنهم ارتأوا فيها محاولة من
إخباريين الإسلاميين لتعظيم أسلاف النبي العربي. وكان موضع شكهم هو أن
سنة إنشاء الإبلات إلى والد جد الرسول، هاشم بن عبد مناف، إنما تنسب
زواج إلى حصر مفاخر المكثين ومآثرهم في أسرة النبي وحدها. وقد أثبت
رجنت في مقالته المهمة الحرم والحوطة^(٢)، أن الحرم لم يكن وجوده نادراً
به جزيرة العرب قبل الإسلام، تماماً مثل الحوطة في أمانا هذه. وبين سرجنت
كل حرم كان يخص جماعة قلبة ما، تقوم على حراسته وخدمته والاهتمام
لحجاج إليه. وكان أهل الحرم في المعتاد مقاتلين مسلحين، هم الأشراف، أما
آخرون من تجار وصناع ومزارعين يعمشون في جوار الحرم وحمايته، فكانوا
دعوى الضعفاء. ولا شك في أن قريشاً كانوا أشراف مكة. ولم يكن في ذلك
ي تعظيم استثنائي لشأنهم. وقد ظلوا على هذه الصفة حتى ظهور الإسلام.
توزع المسلمون في أول عهد الإسلام، وتوزع بنو هاشم في كثير من الأمور قبل
تنصار الإسلام، ولكنهم لم يَنَازِعوا في شأن هاشم والإبلات، على الرغم من أن
الإبلات درج في حُجج القرآن الكريم على المشركين بسبب إتيان القرآن على
ذكره في المرحلة المكية المبكرة، وفي شأن الدعوة إلى عبادة رب البيت. ولو
كان معارضو النبي، وعلى رأسهم زعماء عبد شمس، يعرفون أن جدهم هو
صاحب الفضل الأول في الإبلات، لا هاشم، لردوا على النبي بالدعوة إلى عبادة

(١) المنقذ، ص ٣١ - ٣٦، والمختبر، ص ١٦٢، ١٦٣. ولان أيضاً: الأوتل، ص ١٨ - ٢٠.
والأندلسي: نشرة... ص ٣٣٠. انظر أيضاً: جواد علي: ج ٤، ص ٦٥ - ٦٩. وكذلك
حنوز: ص ٣٦، ٣٧.

(٢) Serjeant: op.cit., pp. 41 - 58.

صنهم، ولما كان لسكونهم في هذا الشأن من مسوغ، خصوصاً إذا لاحظنا أن
عبد شمس كان أكبر من هاشم سناً.

ويمكننا أن نلاحظ حسب رواية ابن حبيب أيضاً أن أبناء عبد مناف وفق
ترتيب أعمارهم، هم: المطلب، ثم عبد شمس ثم هاشم فنقول. والرواية ترتب
خروجهم لأخذ الإبلات، على النحو التالي: هاشم، الثالث عمراً، ثم المطلب
الأول، ثم عبد شمس الثاني، فأصغرهم نوقل. ولو كانت القصة ملفقة لكان
أحرى أن يكون ترتيبهم بحسب ترتيب العمر. ولو كان مقصوداً نقل هاشم من
المرتبة الثالثة عمراً إلى المرتبة الأولى بين الخارجين للإبلات، لتعظيم شأنه
وتقليل شأن عبد شمس، لكان أحرى أن يُنقل عبد شمس إلى المرتبة الأخيرة، أو
ربما ألا يذكر على الإطلاق ضمن هؤلاء الذين وصفهم ابن حبيب بقوله السالف
إنهم ولم تر العرب مثلهم فط أسمع ولا أحلم ولا أعقل ولا أجمل. لقد كان

الصراع السياسي بين أبناء عبد شمس والأمويين وأبناء هاشم العباسيين والشعب في
القرنين الأولين للإسلام، بفرض تلميذاً أشد صرامة وأماناً حمدة عبد شمس،
لو كانت القصة منحولة أو ملفقة أو مخورة. وحاصر الصحف هذه في حجة من
يقولون بالتحوير، تعظيماً لوالد جد الرسول، لا نفي أن رواية ابن حبيب
والإخباريين الإسلاميين معصومة تماماً عن أسباب الشك ومفوضات التدقيق،
لكنها تعني على الأقل أن الشكوك يجب أن تكون أقوى حجة وأحسن سنداً مما
نعده حتى الآن في نقد الرواية الإسلامية للإبلات، حتى نحظى بالقبول.

ج - ... إلى التجارة الدولية

ونلاحظ من رواية ابن حبيب السالف ذكرهما، التي اتخذناها نموذجاً
لروايات الإسلاميين للإبلات، ما يلي:

- في قول ابن حبيب: «إن قريشاً كانت تخرأه، احتمال إشارة إلى ما قبل
المرحلة المكية من تاريخ قريش. ويُصنف هذا الاحتمال كثيراً قوله: «وكانت
تجاراتهم لا تعدو مكة، إذ يعني أنهم كانوا يَنَازِحون في مكة وجوارها. وإذا
يُصَغَف بقوله هذا احتمال الإلحاح إلى تاريخ قريش قبل نعلهم على خرازة

واستقرارهم في مكة، يمتاز من ناحية أخرى، بفضل هذا القول نفسه، الاعتقاد بأن قريشاً لم تخض غمار التجارة الدولية قبل الإيلاف. وهذا أمر منطقي تماماً. فالتجارة المحلية تحتاج إلى حرم وإلى أحلاف، لأن الخرم يحمي القبيلة وسوقها السنوية، كما يحمي زوار هذه السوق الوافدين إليها من القبائل العربية الأخرى. والأحلاف تحمي أبناء القبائل عند حلفائهم فقط ولا تؤهلهم لحركة أكبر. أما التجارة الدولية، أي نقل البضاعة من فريق إلى فريق خارج جزيرة العرب، فتتطلب أماناً على طول الطرق التجارية حينما تمر في ديار القبائل العربية، وأماناً عند طرفي الطريق حينما تشتري البضاعة وحينما تباع. وهذا ما جاء به الإيلاف.

وقد لاحظ البعض هذا الفارق فقال الشريف: «وبعد أن كانت تجارتها [قريش] قاصرة على التجارة الداخلية مرتبطة بالحرم، فتح لها هاشم وإخوته مجال التجارة الخارجية». وقال يبيرون إن الإيلاف كان بداية خروج قريش إلى العالم في القرن السادس^(١). وخطط البعض الأمرين فجعل حتمور الإيلاف حلفاً آخر بين الأحلاف^(٢)، وهو مختلف في جملة من الوجوه. فالإيلاف مرهون بغرض واحد هو مرور القافلة مروراً آمناً. وهو ينتهي لدى مرورها، فلا تلتزم قريش دفاعاً مشتركاً عن شريكها في الإيلاف، ولا ينفر الشريك إلى الحرب بالضرورة إذا نفرت قريش إليها. والحلف علاقة مبادلة بالمثل، فكلا الحليفين يأخذ ما يأخذه حليفه ويعطيه ما يعطيه. أما الإيلاف فهو عقد تأخذ فيه قريش أمراً لا يأخذه الآخرون، وهو «أن يأمّنوا عندهم بغير حلف، وإنما هو أمان الناس»، وتعطيهم في المقابل ثمناً لذلك الأمان أن «تحمل لهم بضائع فيكفونهم حملاتها ويردّون إليهم رأس مالهم وربحهم». وفي علاقة الإيلاف فريق أول ثابت لا يتغير هو قريش، وشركاء ثانويون عديدون هم قبائل العرب على طريق القوافل المكيّة. ولا شك في أن قريشاً لم تكن تحتاج إلى عقد الإيلاف مع حلفائها، لكن طريق القوافل لم تكن كلها لحلفاء قريش، ولذا احتاجت قريش إلى «كتاب

(١) الشريف: المرجع السابق، ص ١٣٦، ١٣٧. ويبيرون: الحجاز، ص ٧٦.

(٢) حتمور: المرجع السابق، ص ٨٦، ٨٧.

أمان يؤمنهم بغير حلفه على ما قاله أبو هلال العسكري^(٣). كذلك ينصن الإيلاف عهداً بين قريش وفريق غير عربي هو الروم في الشام. وأقرقاء آخرين هم ملوك الحيرة في العراق وملوك البس وملوك الحنة. وهذه المهود هي إجازة للتجارة وليست تحالفاً من أي شكل، إذ كيف كان يجوز لمكة أن تكون حليفة للروم وللحيرة في آن، في عز الحرب البيزنطية الفارسية.

- في قول ابن حبيب السالف: «فيقدموا عليك بما ينسطف من آدم الحجاز وثيابه»، ما أوحى لبعض الدارسين أن تحارة الإيلاف القرشبة لم تتعد يوماً الطابع المحلي. وهذا رأي لا يحتمل كثيراً من الماشقة، لأن مفاوضة هاشم للبيزنطيين قد تكون اقتضت على الصانع التي كانت تحتها جزيرة العرب أولاً، ثم توسعت التجارة فيما بعد لتكتسب السمة الدولية ثم إن فريقاً أحببوا واحداً في التجارة، يكفي لإسباغ هذه السمة الدولية عليها، وإن كان ثلثاً، على ما سنبين لاحقاً، أن قريشاً تولت حصّة من تحارة الشرق طوال عقود من الزمن، بين يائعين من خارج الجزيرة وشاربين من خارجها أيضاً.

- في قول ابن حبيب: «فيكونوا يبيعونه عندكم فهو أرحم من عليكم»، تلميح واضح إلى أمر من اثنين. فإما أن هاشماً كان يقصد بقوله هذا أن تحمل قافلة قريش إلى بلاد الشام منتحات الحريرة العربية، بدلاً من أن يحملها تحلوا الروم، فيعني بهذا أن كلفة النقل الصحراوي الذي كانت تتولاه قريش أقل ربما من الكلفة التي كان يتحمسها تحار الروم. أو أن يكون هاشم قد قصد أن تنقل قريش التجارة الشرقية، بدلاً من مرورها عبر العراق، فلا يدفع البيزنطيون مكوساً للفرس. وهذا الاحتمال الثاني أشد إغراء للبيزنطيين، إذا ما لاحظنا أن غرض المفاوضة كان إغراءهم بقبول تحارة قريش. فلو كان هاشم يقصد الاحتمال الأول لضعف عنصر الإغراء فيها اقترحه على البيزنطيين لأن هؤلاء قد يفضلون استمرار نقل تجارتهم لبضاعة الشرق، ولو دفعوا لذلك ثمناً أعلى من الثمن الذي تتقاضاه قريش، لأن مكاسب التحار الروم لم تُحسب حسابة على بيزنطة. أما لو

(١) الأوائل، ص ١٨.

كان يقصد الاحتمال الثاني لاشتد عنصر الإغراء في عرضه السماح بالتجارة القرشيين، لأن بيزنطة تكسب فارق السعر، ويخسر الفرس، فيكون الكسب مضاعفاً، علاوة على الكسب السياسي، بخسارة الفرس قدرتهم على ابتزاز بيزنطة في تجارتها الشرقية.

- في قول ابن حبيب: وعلى أن قريشاً تحمل لهم بضائع فيكفونهم حملاتها ويردّون إليهم رأس مالهم وربحهم، خلاصة المشروع الذي عرضته قريش على العرب فأشركتهم فيه وجعلتهم يتكافلون ويتضامنون في إنجاحه. فلقاء السلام والأمن الذي طلبته قريش لفاصلتها، أعطت القبائل العربية أن تنقل لها في القافلة تجارة، وتردّ عليها رأس مالها وربحها من غير أن تكلفها عناء الرحيل. وبهذا أحلت قريش السلام الذي لا تجارة مستقرة من دونه، فيما كان جميع الأطراف يخوضون حرباً أقفلت الكثير من الأسواق وحولت طرقها، وليس من شك في أن هذا الإيلاف مع القبائل العربية هو من الأدلة القوية على أن التجارة التي حملتها قوافل قريش كانت تجارة دولية، لأن التجارة المحلية لم تكن تحتاج إلى مثل هذه المجهود، وكانت الأسواق تُعقد كل سنة من دونها في أية حال.

د- متى قام الإيلاف؟

لا يشك حميد الله في أن هاشماً هو منشئ الإيلاف، استناداً إلى إجماع المصادر العربية الإسلامية على ذلك. ويرى أن هذه المصادر لا تعين زمناً دقيقاً لنشوء الإيلاف، وأن تعيين هذا الزمن ليس عسيراً^(١). والواقع أن تعيين زمن إنشاء الإيلاف أهم كثيراً من تعيين منشئه. لأن زمن نشوء الإيلاف لا يعيننا في رسم الصورة الدولية التي أحاطت بهذا المشروع الخطير منذ بدايته فقط، بل يساعدنا كذلك في فهم حوافز الحكام والملوك الذين عاصروا نشوء هذا

(١) المحرر، ص ١٧٤. وأيضاً سيرة ابن هشام: ج ١، ص ١٨٠. وكذلك Hamidullah, p. 303. ونزهد الموسومة الإسلامية شكوكاً في أن يكون عبد المطلب قد مات في سنته المائة والعشر، وتقدّر عند الإيلاف في مطلع القرن السادس الميلادي تقريباً. انظر Encyclopedia of Islam، مادة: Tihf.

المشروع. وقد انطلق حميد الله من عمر عبد المطلب حد الرسول لدى وفاته، ليحاول تقريب تاريخ هاشم ووفاته. فقال إن عبد المطلب من هاشم توفي نحو سنة ٥٧٨ م. وكان للرسول نمائي سنوات. ونشر روايات مختلفة إلى عمر عبد المطلب لدى وفاته: ٨٢ سنة، ٨٨ سنة، ١١٠ سنوات (في قول الوافدي)، وحتى ١٤٠ سنة (في قول ابن حبيب وغيره). ويحمل حميد الله السن المقولة ١١٠ سنوات، على أنها الرقم الأوسط بين مختلف التقديرات، وعلى أن عبد المطلب غمي من تقدمه في السن في أواخر عمره. لكن استخدام سن ١٤٠ سنة وهي بعيدة الإمكان، لمؤارة سن ٨٢ سنة وهي مقولة حداً، هو أمر غير مقنع، ويفضي إلى نتيجة بعيدة الإمكان أيضاً. إذ أفى هذا الاحتمال بحمد الله، إلى حمل الإيلاف سنة ٤٦٧ م^(١). أي أن هاشماً عند الإيلاف مع بيزنطة في عهد الإمبراطور ليون الأول الذي سالم الفرس، واستمرت النخلة في عهده معهم على وضع جيد ومستقر، ولذا لم يكن في حاجة ماسة إلى نخلة قريش الدولية. أما لو اخترنا أن عمر عبد المطلب لدى وفاته كان ٨٢ سنة، وهو رقم مقبول حداً ولا يثير أي مقدار من الشك، فإن ولادته تكون سنة ٤٩٦ م. تقريباً. ولما كانت المصادر العربية تشير إلى أن نشوء الإيلاف وولادة عبد المطلب ووفاته هاشم كانت قريبة عهد إحداها من الأخرى، فإن الإيلاف نشأ بذلك على مقربة من مطلع القرن السادس، فهل ناسب هذه المرحلة احتمال سمي بركة إلى تحسين تجارتها الشرقية عبر جزيرة العرب؟

إننا لا نملك مستندات مكتوبة في هذا الشأن، ولا ذكرت المصادر العربية نصوص الكتب التي قبل إن الملوك كدوها لقريش لتسير بحرية، ولا ذكرت حتى أسماء هؤلاء الملوك حتى يتمكن من تقدير زمن عند الإيلاف. لكن أغلب الظن أن الاتفاق التجاري مع الإدارة البيزنطية جرى في زمن عمر رضى الله عنه مع الاتفاق مع اليمن أو الحبشة أو الحيرة، والمصادر العربية نفسها توحى أن هاشماً لم يرحل إلى الشام

(١) انظر الهاشم في الصفحة السابعة

وفي ذهنه عقد الإيلاف، بل استحسن الفكرة بعدما رأى نفسه تمكن حننه قيصراً، على ما سلف. وهذا منطقي. فليس متوقفاً ولا مرجحاً أن تكون قریش قد خططت للمشروع في كل تفاصيله، ثم أوفدت موفديها الأربعة كلاً إلى جهة في المهمة ذاتها، بل نعتقد أن حاشماً أراد تحسين وضع التجار القرشيين لدى الإدارة البيزنطية في الشام، فأفلق في ذلك. ولما رأيت قریش نجاح الفكرة سعت إلى توسيع تجارتها وتحسين شروطها مع ملوك الأطراف الآخرين، فوفدت إخوة حاشم كل إلى مكان تجارته لترتيب الأمر. وهذا يعني أن الإيلاف لم ينشأ كله في سنة واحدة، بل تكوّن نظمه واتسع نطاقه تدريجاً.

إن قبول الرواية التي تؤكد أن حاشماً أخذ الإيلاف من قيصراً ومات بعد زمن قصير، يجعلنا نرتجح أن هذا حدث في أوائل القرن السادس، ليس لأن حساب عمر عبد المقلب بن حاشم يحفزنا على هذا فقط، بل لأن الأوضاع الدولية كانت آنذاك مناسبة تماماً لهذا التدبير أيضاً. ففي أوائل القرن السادس بدأت الحروب البيزنطية الفارسية التي اتصلت تقريباً طول قرن وثلاث قرن إلى ما بعد ظهور الإسلام، وهي الحروب التي سلف القول إنها حولت طرق التجارة عن المسرب الفراتي إلى المسربين الأساسيين الآخرين: البحر الأحمر وطريق القوافل المكية، ولذا كانت بيزنطة في حاجة إلى تنظيم هذا الشأن الخطير لضمان تدفق مصلح التجارة الشرقية. ولم تكن المائدة المتعلقة بتنظيم المكوس والأسواق في معاهدة ٥٦١م. مع الفرس، سوى محاولة لسد المنافذ التي كانت تتسلل منها التجارة غير الشرعية، ولضبط المكوس وتحسين جبايتها. وليس غريباً لذا أن يُعرض التجار عن طريق الفرات، مما يحوّل تجارة مكة ويحسن قدرتها على المنافسة^(١).

(١) انظر: أزمة الركلاء العرب في الفصل الثالث أعلاه. أما في شأن تاريخ أصل الإيلاف، فعلى الرغم من جودة أبحاث كثير صموئيل، إلا أنه أخذ رواية نهاية الأرب في أخبار الفرس والعرب، على جميع حلاتها، وهي تنسب إلى حاشم أنه أخذ الإيلاف من ملوك الحنة واليمن والفرس والشام، وليس في هذا الخلاف، لكن الرواية التي لم تُد كسر أي شكوك جدية فيها، نفترض

وقد نتساءل بحق: إذا كانت تلك التجارة المكية ماسية للمصالح البيزنطية، فما هي مصلحة الفرس فيها؟ وهذا تسأل جدي، لكن الرد عليه ليس عسيراً. ففي ذلك لا بد من التفرقة بين التجار الفرس الذين كانوا يفلون نحرارة الشرق، والإدارة الفارسية الرسمية. كانت مكاسب التجار في بيع سلمهم وتسيير تصريفها في الأسواق. أما الإدارة الفارسية التي كانت على حرب مع بيزنطة فكانت تسعى أحياناً إلى وقف الاتجار مع البيزنطيين، وتسعى أحياناً أخرى إلى ضبط الجباية وتحسين مداخيل تجارتها مع السوق البيزنطية في أفضل الأحوال، وكلا الأمرين لا يتفق تماماً مع مصالح التجار. ولذا بحق لنا أن نشبه بأن جميع القطاعات في المجتمع الفارسي لم تكن بالضرورة متفقة على موقف واحد حيال التجارة مع بيزنطة. ويمكننا أن نتخيل رغبة التجار الفرس الاتيين بسفهم من الهند، في تسريب بضائعهم إلى السوق اليمنية حيث ينتظرهم الناصر المكي، فلا يترجون بالرقابة الفارسية الرسمية. ويمكننا كذلك أن نتخيل نفوذ هؤلاء التجار في البلاط الفارسي، وسعيهم فيه إلى صرف أنظار المسؤولين أو مساعدتهم في خفض النظر عن تجارتهم مع قریش، خصوصاً إذا كانت الإدارة الفارسية لا تملك وسيلة لمنع التجار الفرس من نقل بضائعهم من الهند وسيلان مباشرة إلى اليمن، ولا لمنع قریش من نقل هذه البضاعة إلى الشام. ولا بد من أن نلاحظ في هذا الصدد أيضاً، أن كثيراً من تجارة قریش كان يأتي من جزيرة العرب نفسها وكذلك من الحبشة. ولم تكن للفرس قدرة على مراقبة هذه المصادر ومنع تجارتها مع القوافل المكية وأصحابها، حتى بعد استيلاء الفرس على اليمن، على ما بينته

أيضاً أن ملك اليمن أهام حاشم كان أربعة الحنسي. وهذا احتمال بعيد جداً، وأن ملك الشام كان جبلة بن الأيهم، وهذا خطأ فادح، لأن جبلة بن الأيهم ملوك الإسلام. ولذا لا بد من تقييد النص من أجل تصفية الروايات الإسلامية وتعيين الحنن صها، حتى لا يؤخذ الحنن بحريرة الفاسد. انظر: ٥٢، ٥٣. Kiser: Some Reports... pp ٥٢، ٥٣. ٢٠٤. أما من أول القرن الميلادي السادس. الشريف: المرجع السابق، ص ١٥٦، ٢٠٣، ٢٠٤. أما حنن فليؤخذ ذلك على نحي غير مباشر إذ يرى أن حاشماً ولد نحو سنة ٤٦٨ م. حنن: المرجع السابق، ص ٣٨. ولا يتردد بصون في جعل نشوء الإيلاف في مطلع القرن الميلادي السادس. وهذا هو ترجيحنا. بصون: الحجاز، ٥٠٠، ص ٧٦.

حروب الفجار التي سيتناولها البحث فيما بعد.

إن جميع هذه العناصر في الوضع الدولي تزيد ما يمكن أن يُستخلص من المصادر الإسلامية في تقريب زمن نشوء الإبلان من أوائل القرن السادس، أو ربما بعد ذلك بقليل.

هـ- أطراف الإبلان الأربعة

تكاد المصادر الإسلامية أن تجمع على أن الإبلان أول ما أخذ من ملوك الشام. وهذا أمر مقبول منطقياً لأن بيزنطة هي الطرف الوحيد الذي كان يحتاج إلى بديل من الخطوط التجارية الأخرى، المار معظمها في أرض عدوهم الفارسي. أما اليمن والحشة والفرس فالراجح أن تجارتهم مع مكة سارت على ما يرام من غير إبلان أولاً، لأن تجارتهم هذه لم تكن خاضعة لحسابات الحرب والسلام في بادية الشام على نحو مباشر، سب السمة السلمية للتجارة المكيّة، وامتناع قريش عن التزام أي فريق في هذه الحرب وامتداداتها. وكانت قوافل مكة تسلك الطريق إلى أيلة ثم تنصرف منها إلى غزة أو بصرى، أكبر أسواق بيزنطة آنذاك في بلاد الشام^(١). وكان البيزنطيون يلزمون التجار الوافدين أن تمر بضاعتهم عبر مراكز مخصوصة يشرف عليها موظفون ماليون. وكان غرض هؤلاء، طبعاً جباية الضرائب وحماية الاحتكارات التجارية، لكن الرقابة كانت تتناول أيضاً الأغراب الوافدين أو الراحلين لضبط الحدود ومنع عمل حواسيس للفرس. وكانت لبيزنطة نفسها جواسيس تعمل على الجانب الآخر من الحدود^(٢)، وقد اتفقت الدولتان البيزنطية والفارسية على ضبط مكوس المرور وانتقال الأفراد عبر الحدود بينهما في اتفاق السلام، سنة ٦٠١ م. على ما أسلفنا. وكثيراً ما كانت مهمة الجباية تُوكّل إلى سادات القبائل والأمراء. وعاملت مكة التجار الروم بالمثل على ما يبدو، إذ قال الأزدي: «وكانوا يحشرون من دخلها [مكة] من تجار الروم، كما

(١) الأغاني، ج ٦، ص ٣١٥ والأصاني: أسواق... ص ١٩، ٢٢، ٣١٤. وحواله على:

ج ٥، ص ٣٠٨.

(٢) Hay Houson: The Arabian Commercial... p. 79. وحواله على: ج ٥، ص ٣٠٩.

كانت الروم تخرج من دخل مهم بلادها»^(٣). لكن هذا لا يعني أن الروم كانوا ينظمون قوافلهم أيضاً لتسيير تجارة الشرق إليهم^(٤). بل اعتصموا في الغالب على التجار المكّين الذين كانوا يملكون وسائل النقل والنفوذ على احتلال الصحراء بسلام بين القبائل، والوصول إلى الأسواق الفارسية في جنوب الحنيح. وجميع هذه متعذرة على بيزنطة، على الرغم من أن مكة لم تخل من التجار الروم، الذين كانوا قادرين على شراء الصانع، لكنهم لم يكونوا قادرين على تنظيم القوافل وهي الأصل والأساس في تسيير تجارة الشرق.

وعدم القدرة على الحصول محل قريش في نظم تجارة الشرق يصح كذلك في زمن أبرهة. إذ إن هذا الحدي الحثي الذي اضطر لبعثه مُنكراً، لم يكن يفكر فقط إلى القدرة على احتلال الصحراء، على نحو ما قد نوحه حمله الفاشلة على مكة، بل كان يصر أيضاً إلى تأييد القبائل الصربية على الطريق التجاري، مثلما افتر إلى العصر السري الذي استطاعت مكة أن تستقطب حول حرمها، وإلى العلاقات الحيدة مع تجار الفرس وتجارة قنات والحنيح الذين كانوا يؤثرون الجانب الفارسي والعربي على بيزنطة وحملاتها فيها. ولم تكن حملة أبرهة على مكة تنويهاً فقط لعشيرة الحنظل في تسيير تجارة الشرق، بل إنشائها لهذا العشيرة وولياً عليه أيضاً، حتى لو فتر لحملته أن تنهي إلى النجاح. وتؤكد المصادر العربية أن قريشاً انخرت في البس بتصرّيج رسمي من حاكمه الحثي، إذ تروي أن أبرهة حين علم بظهور الفقيس قال: «هذا فقيس قريش لعصمهم لبهم الذي نخب إلى العرب... وكان عصمه نخبر من قريش فيهم هشام بن العيرة فأرسل إليهم أبرهة فأقبلوا حتى دخلوا عنده فقال لهم: ألم أطلق لكم المسح في أرضي وأمرت بحفظكم وإكرامكم؟»^(٥). وهذا صخ أنه قال هذا لأنه يعني أن أبرهة عند لقائه قريشاً إلهاماً بحرب لهم التخلي عن

(١) الأزدي: ص ١٠٧. وانظر أيضاً: p. 224. Simon Thoma at 188.

(٢) حواره على: ج ٢، ص ١٢٣.

(٣) Simon Thoma Reports... pp. 84, 85.

اليمن، أو أنه أجاز ما كان سلفه يحوزه لهم قبله. لكن ما لا ريب فيه هو أن هزيمة أرمه سنة ٥٧٠م. تقريباً أمام مكة كانت فاتحة عهد جديد وصل بمكة إلى ذروة نفوذها في اليمن وبين سائر العرب بعد فشل أعظم محاولات إخضاعها وأخطر مخططات الاستيلاء على تجارتها وانتزاع الزعامة الدينية والسياسة والاقتصادية منها.

أما الحبشة فيشكل سيمون في أن مكة عقدت معها إيلافاً أسوة بالأطراف الثلاثة الآخرين، ويبنى شكّه على أن الإبحار في البحر الأحمر كان خطراً جداً بسبب الشواطئ الصخرية والمرجانية والصحراوية وأعمال الفرقة، وأن الجزيرة العربية كانت تفتقر إلى الخشب والحديد اللازمين لصنع السفن، وليست لها أنهر أو موانئ ترفأ إليها السفن الأجنبية، وكان الإبحار في البحر الأحمر حكراً للبيزنطيين والأحباش. ويستنتج من هذا أن قريشاً لم تكن لها تجارة منتظمة مع الأحباش، بل كانوا على الأكثر يتلقون التجارة الحبشية الآتية إليهم، ولذلك فلم يكن ثمة إيلاف مع الحبشة^(١). لكن إشارات القرآن الكريم الكثيرة إلى البحر وذكوبه دليل على أن القرشيين الذين خاطبهم الله بلغتهم، كانوا ملتزمين بالملاحة. وأقرب ملاحظتهم قطعاً كانت إلى الحبشة عبر البحر الأحمر. وإن حجة خطورة الملاحة في البحر الأحمر نحوز على الأحباش والبيزنطيين وقريش معاً، ولا يمكن أن تجوز على هؤلاء دون أولئك. بل إن هذه الحجة تجوز أكثر على الفريق الأشد اعتماداً على البحر الأقل استخدماً للصحراء. وأما حجة الضفاف الصحراوية الففراء فلا تصح إطلاقاً في قريش، وهي حتماً من العقبات الأساسية في وجه حركة الأحباش والبيزنطيين. أما أن جزيرة العرب تفتقر إلى الخشب والحديد، فإن قريشاً لم تبحر إلى الهند نفسها، وكانت التجارة تأتيها بسفن غيرها على الأرجح، ولم تخل ذلك دون عطفها إيلافاً مع اليمنيين. وهذا يعني أن قريشاً كان يمكنها أن تستأجر سفن الأحباش لخل تجارتها من الحبشة إلى ميناء الشعيبة القريب من جدة، وكانت تستخدم لهذا الغرض قبل

(١) Simon, *History of Islam*, pp. 223, 224.

الإسلام^(٢). وقد أكد الحافظ أن قريشاً كانوا يستخدمون سفناً لحملهم لخل التجارة بينهم وبين الحبشة^(٣). أما لماذا لا تاجر الحبشة نفسها، بل تبع بهايتها لقريش، فليس محتمل، أولها أن الثعالب المرحية التي تحمل الإبحار في البحر الأحمر خطراً، نكثت شمالاً، ونزلي قريش لخل الصاعدة الحبشة إلى الأسواق الشمالية يكفي الأحباش هذا الخطر. ولما لبث الثاني فهو أن الحبشة لم تكن تستطيع لخل صاعداً إلى الحيرة والفرس لأنها افتقرت إلى وسائل النقل عبر الصحراء، ولأنها كانت من حلفاء بيزطة التي كانت على حرب مع الفرس. وتشير الحيرة الإسلامية الأولى إلى الحبشة، إلى أن المؤمنين كانوا يعرفون الحبشة معرفة جيدة ويعلمون علاقات حسنة مع الأحباش^(٤). وروى الأصمعي في الألفاظ عن نبحارة حمارة بن الوليد المصرومي ومصرومي العاصري عن نقل السهمي في الحبشة واتصالها بالأحباش^(٥). فبشر بذلك أن قريشاً كانت تنظر نحوها الأحباش أن تصل إليها، على ما قاله سيمون.

ولا شك في أن حلفاء مملكة أكسوم مع أرمه، ثم استيلاء الفرس على اليمن كان شأنهما تحسّن حالة التجارة المكنة مع الحبشة. غير أن العمل الأول الذي جعل المؤمنين أسبغ التجارة الشريفة في ذلك القرن ولا ريب هو حلفهم، فيما كان الآخرون يخشون سموات طوالاً.

لما الطرف الرابع في إيلاف قريش فهو مملكة الحيرة، ومن حلفها الفرس، الذين كانوا يسيطرون على نبحارة الحرير الآتية من الشرق من طريق البحر والبحر. ويقول سيمون إن الحيرة أصبحت على قاتل ليس حلال، وهي قاتل كانت تسيطر على سوق عكاظ شرق مكة، لتتحد حصّة من نبحارة القوافل، حتى

(٢) معجم البلدان، مادة القيسية. الطبري، التاريخ، ج ٢، ص ٢٢٩. ونظر قريش في مرجع السابق، ص ٢٠٧.

(٣) الجبل، البيان والبيان، طبع السديري، القاهرة، ١٩٢٦، ص ٢٠٧. ونظر أيضاً قريش في المرجع نفسه، ص ٢١٠. وسيمون المصرومي، ص ٢١٠.

(٤) القريش: المرجع نفسه، ص ٢٠٦، ٢٠٨. وكذلك، ص ٢٠٢. وMansur ibn Muhammad al-Ash'ari، ص ٩٠.

(٥) الألفاظ، ج ٢، ص ٥٥ وما بعد.

على أبي ذر الغفاري لإشهاره إسلامه، صاح بهم العباس بن عبد المطلب قائلاً: «ويلكم أستم تعلمون أنه من غفار وأنه من طريق تجارتكم إلى الشام»، وكان قوله رادعاً كافياً^(٢). وقد فهم المكيون علاقة السلم بالتجارة وحاجتهم إلى إشراك جميع القبائل الضاربة على طريق القوافل وبقرها، مثلما فهموا حاجتهم إلى الحياد بين الفرس والبيزنطيين^(٣). ولم تكن طرق القوافل وحدها بحاجة إلى سلام قريش بل أسواق العرب المحلية أيضاً. وكانت قريش تشجع القبائل على حضور أسواقها بمختلف الوسائل، فكانت تميم التي تسلمت الإشراف على سوق عكاظ بعد حروب الفجار تمتنع من جباية أي مكوس من التجار. وكانت قريش توزع إليهم ألا يَمْكُوسُوا أحداً لجذب العرب إلى السوق، وتضمن السلام والأمن حتى لا يُكَلَّفَ أحدٌ بكلفة العشور والخفارة ولا يُهان أو يُعتدى عليه. كذلك استخدم سادة قريش حنكتهم التجارية والسياسية النادرة في وجوه مختلفة لربط القبائل بعهود ومواثيق ومصالح، حتى أضحت التحرش بقافلة تجارية مكية أمراً من أصعب الأمور وأندرها، فاستمالت زعماء القبائل إلى جانبها بشتى الوسائل^(٤). وكان الأصل في أمن الصحراء النظام القبلي، ذلك أن التبعات التي تلقى أعمال البدوي على عاتق قبيلته كانت تردعه في معظم الأحيان عن إتيان ما لا يُرضي القبائل الأخرى. وكان الحلف بين قبيلتين نوعاً من الأمن الجماعي يردع القبائل بعضها عن البعض^(٥). وكانت لقريش علاقات طيبة مع قبائل ضاربة على طرق قوافلها، مثل جُهينة ومُزينة وغطفان وأشجع وسليم وبني سعد وبني أسد، وكان لها في هذه القبائل حلفاء يقيمون في مكة مقام أهلها. وكان من الطوائف ثقيفون كثر بلغ بعضهم مبلغ السيادة في بطون قريش نفسها مثل الأحنس بن شريق حليف بني زهرة، وكان مُطاعاً فيهم. وكان بين الثقيفيين من

(١) البخاري، أبو عبدالله محمد بن اسماعيل: صحيح البخاري، دار الجليل، بيروت، ج ٥، ص ٥٩. وانظر درادكة: المرجع السابق، ص ٥٨.

(٢) الشريف: المرجع السابق، ص ١٤٠ - ١٤٢.

(٣) جواد علي: ج ٧، ص ٣٧٩، وج ٤، ص ٣٨٨.

(٤) Montgomery-Watt, W.: Economic and Social Aspects of the Origin of Islam, Islamic Quarterly I (1954), p. 91.

Quarterly I (1954), p. 91

يشارك في كثير من أمور قريش، فكان عروة بن مسعود الثقفي أحد الرسل الذين مثلوا مكة في مفاوضاتها مع النبي في الحديبية. ولم تقتصر علاقات قريش بقبائل العرب على ثقيف، فأصهر هاشم بن عبد مناف إلى بني النجار الخزرجيين في يثرب وظل ابنه عبد المطلب على صلة وثيقة بأخواله هناك. وكان أمية بن خلف الجمحي صديقاً لسعد بن معاذ الأشهلي زعيم الأوس. وكان العاص بن وائل السهمي وعتبة بن ربيعة بن عبد شمس وغيرهم على صلات طيبة بأهل يثرب^(١). ولذلك كانت قوافل مكة الطاعنة شمالاً آمنة، فإذا قصدت دومة الجندل ظلت آمنة لأنها تمرّ ببلاد مُضَر، ولا يتحرّش مُضَرّ بمضري. وإذا مرّت بديار كلب كانت مطمئنة أيضاً لأن لكلب حلفاً مع تميم، وتميم من مُضَر وهي حليفة لمكة. وإذا مرت ببني أسد فهم من مضر كذلك. أما إذا دخلت ديار طيء فهي آمنة لتحالف طيء مع بني أسد^(٢). والواقع أن تحالف قريش مع تميم يضمن لها سلامة المرور من وادي الرّمة عقدة المواصلات شمالي الجزيرة العربية، حتى وادي الباطن عند الطرف الشمالي الغربي من الخليج، ذلك أن تميم كانت كبرى القبائل العربية شمال شرق مكة. كذلك كانت تميم على علاقة رداقة مع ملك الحيرة، والردف هو زعيم قبيلة يتخذ ملك الحيرة نائباً عنه. وقد ضمنت قريش بذلك جزءاً كبيراً من طريق قافلته إلى الشام وإلى الحيرة معاً، فيما كان تحالف تميم مع بني كلب يضمن أمان الطريق من أعالي الحجاز إلى مشارف بادية الشام، حيث تنتشر قبائل كلب. وقد أشركت مكة تميم، لمكانتها هذه، في تنظيم سوق عكاظ وأعطتها الحكومة في السوق، وكذلك أشركتها في الإشراف على الإجازة والإفاضة من ضمن وظائف تنظيم الحج. وفي ذلك قال أوس بن مغراء السعدي التميمي، في طبقات الشعراء:

(١) الأغاني، ج ٢، ص ٢٤٢، ٢٤٣. وسيرة ابن هشام: ج ١، ص ١٤٨. والشريف: المرجع السابق، ص ١٤٦ - ١٤٨. ويؤكد بيضون أن الطائف تولّت تجارة مكة اليمنية. بيضون: الحجاز... ص ٣٩.

(٢) جواد علي: ج ٤، ص ٢٠٨. وبيضون: الحجاز... ص ٤٧، عن انتشار كلب حتى بصرى.

ولا يَريمون في التعريف موقفهم حتى يُقالَ أجيزوا، آل صفوان

وكانت بطون قضاة وجذام المنتشرة شمال مكة على الطريق إلى الشام، على صلات بمكة وطلّوها الإيلاف. وإلى شرق مكة كان من غطفان وهوازن وبني هلال حلفاء لمكة يقيمون فيها. وإلى جانب البحر جنوباً كانت بطون كنانة التي تعدّ قريش منها مثل القين وغفار وبلحارث ومذليج وبكر. وإلى الجنوب من مكة كانت تتناثر قبائل على طول الطريق إلى اليمن مثل قبيلة خثعم التي قاتلت أبرهة دفاعاً عن مكة، وكانت تقيم في الهضبة الممتدة من الطائف إلى نجران على طريق القوافل المكيّة^(١). ويقول ابن حبيب في المحبر، إن بني آكل المرار في حضرموت كانوا حلفاء مكة وكانوا يخفرون قوافلها، وإنها نصرتهم على جميع القبائل الأخرى^(٢). وكانت لقريش تحالفات عسكرية أيضاً فكانت قريش الظواهر تغزو وتغير دفاعاً عن مصالح مكة. وكان ممن تحالفت معهم قريش ليقاتلوا معها في الحروب القارة والحدية والمصطلق وبنو الحارث بن كنانة^(٣). غير أن لجميع هذه القبائل حدوداً، ما كانت تتعدّها. فقد جاء في رواية يوم الصفقة أن نفوذ هوزة بن علي الحنفي لم يكن بعيداً، ولم يكن يمثل نفوذ آل غسان أو ملوك الحيرة. فلما طمع في الجعالة التي كان الفرس يعطونها لمن يتولّى خفارة قافلته التجارية الآتية من الحيرة أو الذاهبة إليها، ووافق الفرس على إعطائه ما أراد فسار مع القافلة خفيراً من هجر حتى نُطاع، وبلغ بني سعد ما صنعه، خرجوا إليه وأخذوا ما كان في القافلة وأسرّوه حتى اشترى نفسه منهم بثلاثمائة بعير^(٤).

لم تكن أحلاف مكة تستطيع أن تمتد لتضمن المرور الآمن على طول الطرق التجارية. وكان لا بد من نظام إضافي. كان لا بد من إيلاف القبائل.

-
- (١) سيرة ابن هشام: ج ٢، ص ٢٥٨، وج ٣، ص ٣٦١، ٣٦٢. وانظر أيضاً درادكة: المرجع السابق، ص ٥٨ - ٦٠. والشريف: المرجع السابق، ص ١٤٦ - ١٤٨.
- (٢) المحبر، ص ٢٦٧. وانظر أيضاً Hamidullah: Al Tāf... p. 306.
- (٣) الطبقات الكبرى، ج ١، ص ١٢٧. وانظر أيضاً درادكة: المرجع السابق، ص ٦٠.
- (٤) الطبري: التاريخ، ج ٢، ص ١٦٩. وانظر أيضاً جواد علي: ج ٤، ص ٢١٥.

ز - إيلاف القبائل العربية

تروي المأثورات الإسلامية أن النعمان بن المنذر ملك الحيرة كان يرسل كل سنة لطيفة تحمل تجارته إلى أسواق العرب وإلى اليمن، فتبيع وتشتري. واللطيفة قافلة سنوية كانت تخفرها بعض القبائل لحساب ملك الحيرة. وجاء في رواية المصادر العربية لحروب الفجار أن شرارتها كانت نزاعاً على خفارة إحدى لطائم ملك الحيرة. وقد أثبتت حروب الفجار التي سنأتي على ذكرها في فصل تال، أن الجعل الذي كان يدفعه أصحاب التجارة للخفر الذي كان يرافق قوافلهم كان حرياً أن يُشعل حرباً بين متنافسين، وأن القوة العسكرية التي كانت الحيرة تمتاز بها نظرياً على القبائل العربية، لم تكن كافية لفرض هيبتها بعيداً في الصحراء^(١). وهذان الأمران مفيدان جداً لفهم إيلاف قريش القبائل العربية، إذ أن زعامة مكة لم تسلك إلى تنظيم قوافلها سبيل القوة العسكرية، بل سعت بالأحرى إلى إشراك القبائل بوسائل شتى في فوائد التجارة. وهذا الإشراك هو الذي جعل لمكة تلك القوة التي أبدتها في حروب الفجار.

وقد شرحت المصادر مضمون اتفاق مكة والقبائل، إذ قال ابن حبيب في «المنق» في روايته لحديث الإيلاف: «فأقبل هاشم بذلك الكتاب، فجعل كلما مرّ بحي من العرب بطريق الشام، أخذ من أشرافهم إيلافاً... إلى آخر القول^(٢). فلما أصبح شيوخ القبائل العربية شركاء في تجارة مكة على هذا النحو، أضحت مهمة ردع ذؤبان العرب وصعاليكها وطلّاب الغنائم وأصحاب الغزوات، مهمة يسعى إليها هؤلاء الشيوخ من غير حاش ولا محصر، لأن تجارة قريش باتت تجارتهم هم أيضاً.

غير أن ذلك لم يكن الأسلوب الوحيد الذي اتبعته قريش في إيلاف قبائل

(١) جواد علي: ج ٣، ص ٢٧٧.

(٢) المنق، ص ٣٢. وكذلك القاضي في ذيل الأمالي. انظر درادكة: المرجع السابق، ص ٥٤.

ووصف بيضون اليهود مع القبائل بأنها أقامت أمن الإيلاف لا الأمن العسكري. بيضون: الحجاز... ص ٧٧، ٧٨.

العرب، لأن بعض هذه قد لا يرغب أو لا يقدر على الاشتراك في التجارة، وقد تكون له القدرة على عرقلة قوافلها. فلجأت مكة إلى مصانعة هؤلاء بدفع إتاوات المرور لقاء حق المرور الآمن. وكانت هذه الإتاوات مصدر دخل ثابت لكثير من البدو^(١). وكانت القوافل الطاعنة شمالاً وجنوباً في حاجة إلى خدمات أخرى غير الحماية والأمن، فكان البدو أدلاء وحراساً، لكن بعضهم لا بد وأنه عمل لمد القوافل بالماء والمؤمن. ولذا كان شيوخ القبائل شركاء لمكة في قوافلها على هذا النحو أو ذاك، يرون مصلحتهم في مصلحتها، ورخاءهم في رخائها. ويرون أن خسارتها خسارة لهم أيضاً^(٢). ولم يكن هذا تبديلاً طفيفاً في أخلاق الصحراء وعاداتها. فالغزو من مآثر البدو، لأنه مصدر رزق نادر المثال. وقد عُهد في جوار المناطق الزراعية أن المزارعين وسكان الحضر كانوا يعقدون العهود مع البدو المجاورين فيدفعون لهم الخوات لقاء الكف عن غزوهم وردع البدو الآخرين عن ذلك^(٣). فإذا افترضنا أن تجار تدمر واليمن كانوا يدفعون خوات للقبائل من أجل حق مرور القوافل، وأن العلاقة بين بيزنطة وبني سليح ثم بني غسان، والعلاقة بين الفرس ومملكة الحيرة، كانت شيئاً من هذا القبيل، فإن إيلاف قريش كان أول مجموعة عهود بهذا الاتساع، إذ امتد إلى خارج الجزيرة العربية وكاد أن يشمل كل قبائل العرب، في مشروع نُطِفَتْ ومقرّه عمق جزيرة العرب، لا أطرافها.

ولقد تسنى في الماضي لقبائل عربية أن تشترك مع تدمر وغيرها ربما في مشروع تجاري كبير كهذا، لكن إيلاف قريش كان أول مشروع يردف العمل

(١) القالي البغدادي، أبو علي: ذيل الأمالي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، بلا تاريخ، ص ١٩٩. وكذلك الشريف: المرجع السابق، ص ٨٠.

(٢) المصعب الزبيري: نسب قريش، تحقيق إ. ليفي بروفنسال، دار المعارف بمصر، ١٩٥٣، ص ١٤ - ١٨، ٩٨، ٩٩، ١٢٣، ١٢٦، ٢٢٩، ٣٠٢، ٣١١، ٣١٢، يروي مصاهرات قريش في القبائل العربية. انظر أيضاً الشريف: المرجع السابق، ص ١٤٣.

(٣) Lammens: l'Arabie..., Montgomery-Watt: Muhammad at Mecca..., p. 2 (٣). وانظر أيضاً Serjeant: Hāram and Hawāṭa..., p. 55 (٤).

المشترك بعقيدة دينية مشتركة تزيد الإحساس بانتماء مشترك، حتى أدرك شيوخ قبائل العرب أن أصنامهم كانت في مكة، ومصلحتهم كذلك^(١).

وقد بلغ إدراك شيوخ العرب لمصلحتهم في نجاح تجارة مكة، أنهم كثيراً ما كانوا يردون الجعل الذي تقاضوه لقاء المرور الآمن، إلى أصحاب القافلة، إذا ما تعرضت لاعتداء لم يتمكنوا من رده. فازدادت الثقة بهذا النظام، وازداد إحساس القبائل بالتبعات الملقة على عواقبهم. فاستخدموا علمهم بالصحراء ومسالكها، ومواقع الأمن والحذر فيها، وحسنوا قدرتهم على عناء السير والسرى وحرارة الصحراء وجفافها^(٢). وأضحى الإيلاف قيمةً يفاخر بها، حتى نُسب إلى مطرود بن كعب الخزاعي قوله:

يا أيها الرجل المحوّل رحله هلاً نزلت بآل عبد مناف
هبلتك أئسك لو نزلت بحيهم ضمنوك من جوع ومن إقراف
الآخذون العهد من آفاقها والراحلون لرحلة الإيلاف
والمطعمون إذا الرياح تناوحت حتى تغيب الشمس في الرجاف
والخالطون غنيهم بفقيهم حتى يكون فقيرهم كالكافي^(٣)

وفي نسبة هذا الشعر وحدها ما يعني على الأقل، أن العرب قبل الإسلام كانوا يُجَلُّون الإيلاف في قيمته الخلقية، وفي مآثره في بث الرخاء والأمن.

وليس من شك في أن حُرمة المكيين ما كانت لتكسب ذلك الإجماع شبه الكامل، وما كان للمكيين أن تكون لهم تلك الهبة الأشبه بالقدسية في قوافلهم^(٤)، لو أن مصلحة القبائل العربية كانت مخالفة لمصلحة المشروع الذي نَظَّم

(١) Montgomery-Watt: ibid., p. 11 (١). وتحدث سارجنت عن ترتيب مماثل للقوافل المشتركة نشأ

في اليمن. أنظر: Serjeant: op.cit., p. 55.

(٢) حنّور: المرجع السابق، ص ٢١.

(٣) البلاذري: الأنساب... تحقيق حميد الله، ص ٦٠. وانظر أيضاً يعضون: الإيلاف...

ص ١٣.

(٤) Serjeant: Hāram and Hawāṭa..., p. 55 (٤).

عقده الإيلاف. ولكن المال وحده لم يكن كافياً لجمع شمل القبائل معاً، فمكة لم تكن وحدها تملك المال، لكنه تسنى لها أن يكون رجالها في هذه المرحلة من التاريخ ذوي جلم وحكمة، وممن يكظمون مشاعرهم في مداراة مصالحهم. وهذه صفات رجال الدولة الذين قادوا قريشاً، فمكّنوها من قيادة قبائل العرب من غير مُنازع ولا منافس جدّي^(١).

- ح - الرفادة والسقاية

من ضمن جميع وظائف القيام على خدمة الحرم المكي، كانت الرفادة والسقاية أوثقها علاقة بسعي قريش إلى جمع قبائل العرب من حول حرمها. وكانت الرفادة، على قول ابن هشام «خرجاً تُخرجه قريش في كل موسم من أموالها إلى قصي بن كلاب فيصنع به طعاماً للحاج، فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد، وذلك أن قصياً فرضه على قريش... فكانوا يُخرجون لذلك كل عام من أموالهم خرجاً فيدفعونه إليه فيصنعه طعاماً للناس أيام منى، فجرى ذلك من أمره في الجاهلية على قومه، حتى قام الإسلام»^(٢). وكانت السقاية ملازمة للرفادة في مهمة تهوين مشاق الحج وعنايته. أما الوظائف الأخرى في خدمة الحرم المكي، فكان معظمها يرجع إلى صفة التنظيم الداخلي للقيادة المكية، ولم يكن على علاقة مباشرة بالحجيج، أو تسهيل حجّهم. فكانت الوظائف في الملأ المكي الذي أنشأه قصي في دار الندوة على ما تقوله المصادر الإسلامية، ست وظائف في البدء، ثم ازدادت بعد موت قصي، وهي: السقاية وكانت لبني هاشم، واللواء والسيدانة والحجابة والندوة وكانت لبني عبد الدار، والعقاب أي راية قريش في الحرب وكانت لبني أمية، والرفادة وكانت لبني نوفل، والمشورة لبني أسد، والأشناق وهي الديات والغرم لبني تيم، والقبّة والأعنة، فالقبّة كانوا يضربونها ثم يجمعون إليها ما يجهزون به الجيش، وأما الأعنة فما كان على خيل قريش في الحرب، وكانت لبني مخزوم، والسفارة لبني عدي، والأيسار وهي

(١) Montgomery-Watt: Muhammad at Mecca..., p. 11

(٢) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ١٤١، ١٤٢. وأنظر Serjeant: Hāram and Hawṭa..., p. 53

الأزلام يستقسمون بها قبل القيام بأي أمر يروونه خطيراً، وكانت لبني جُمح، والأموال المُحَجَّرَة التي خصّصوا بها آلهتهم وكانت لبني سهم. وقد جمعت الراية والقيادة معاً بعدما كانتا منفصلتين^(١).

وعلى الرغم من أن المصادر الإسلامية تُجمع على أن الحرم المكي والحجّ إليه كانا قائمين قبل استيلاء قصي وقريش على مكة، إلا أنها مجمعة أيضاً على أن قصياً هو الذي أنشأ الوظائف الست الأولى. وقد يعني هذا واحداً من أمرين: أن تكون خزاعة بعدما ضعف أمرها في مكة، قد أهملت هذه الوظائف، فأعاد قصي تنظيمها وتوسيع نطاقها، أو أن قصياً ارتأى أن يُنشئ هذه الوظائف ليعزز مكانة مكة ويجمع من حولها من الحجيج وقبائل العرب ما لم تكن تجمعه في السابق. ويدعم الاحتمال الثاني أن قصياً، لو صحّ أن قيصراً أعانه في الاستيلاء على مكة حقاً، لحقّ لنا أن نشبهه في سعة طموحه السياسي.

على أن المنعطف البارز في تكوين الشخصية التجارية لمكة، على ما قاله بيضون^(٢)، حدث في عهد حفدة قصي، أبناء عبد مناف. ذلك أنهم هم الذين أنشأوا الإيلاف على الأرجح، في أوائل القرن السادس، أو على مقربة من ذلك. وهذا يعني أنهم هم الذين حولوا التجارة المكية من سوق محلية لقبائل العرب، إلى تنظيم لخط التجارة الشرقية. والتجارة المحلية أقل قدرة على تحمّل أعباء الرفادة والسقاية، من التجارة الدولية، ولا بد من أن تكون الأرباح التي تجنيها قريش من قدوم العرب وتجارتهن إليها، أو مرور قوافل التجارة الشرقية عبرها، كبيرة جداً، حتى تستطيع أن تُخرج في كل موسم خرجاً من أموالها لإطعام الحاج. وثمة أقوال في المصادر الإسلامية إن السقاية لم تقم في عهد قصي، بل في عهد حفيده منشاء الإيلاف، هاشم بن عبد مناف الذي يُقال إنه حفر بئر زمزم، أو في عهد عبد المطلب بن هاشم الذي قال ابن هشام إنه «أقام سقاية

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٢، ج ٣،

ص ٣١٥ - ٣١٧. وانظر بيضون: الإيلاف...، ص ١٠، ١١.

(٢) بيضون، المرجع نفسه، ص ١٢.

زمزم للحجاج^(١). وليس من سبب للإحجام عن تصديق الرواية التي تنسب إلى منشيء الإيلاف حفر البئر. فالأمران منسجمان تفكيراً وغرضاً. وكانت البطون القرشية في مكة تحتفر آباراً لنفسها، فحفر أمية بن عبد شمس الحفَر، وحفر بنو أسد بثرهم سقية، وحفر بنو عبد الدار أمَ أحراد، وبنو جُمح السنبلة، وبنو سهم الغمَر، وكانت آبار أخرى. لكن الأمر الذي لا توفر المصادر الإسلامية أسباباً كافية للاشتباه فيه، هو أن تكون الرفادة قد أنشئت أيضاً في زمن نشوء الإيلاف أو بعده، لا أيام قصي. فهل كانت التجارة المحلية قادرة على إكساب قريش ما يكفي لتمكينها من إطعام الحجيج في المواسم؟ إن هذه مسألة قد يجب عنها ما قاله المسعودي في مروج الذهب: «وكان عبد المطلب أول من أقام الرفادة والسقاية للحاج، وكان أول من سقى الماء بمكة عذبا»، وتخالفه مصادر أخرى، إذ يكتفي ابن هشام بأن عبد المطلب بن هاشم «ولي... السقاية والرفادة بعد عمه المطلب، فأقامها للناس، وأقام لقومه ما كان آباؤه يقيمون قبله»^(٢). وفي رأينا أن الرفادة والسقاية أنشئت سابقاً، لإطعام الحجيج فيما كانت تجارة مكة لا تزال محلية، وكان حجيجها قليل التعداد إذا ما قورن بما أضحي فيما بعد. وليس مستبعداً أن يكون إيلاف قريش قد زاد عدد الراغبين في حج مكة وزيارتها للتجارة، فازدادت بطبيعة الحال قدرة مكة على الإطعام والإسقاء.

ط - تجارة وتدين

لكن الإطعام والإسقاء لا يفسران كل حوافز العرب على حج مكة. ولو كان ذلك كافياً لاصطنعت مدن أخرى سقاية ورفادة تصرف بها الحج إليها بدلاً من البيت الحرام. لقد كانت مكة قبلة العرب، وفيها أقيمت أصنامهم وإلهها هوت أئذنتهم، فازدادوا حماسة لها مع تعاظم نفوذها وازدياد مكاسبهم معها، ولم يكن ارتباط التجارة بالتدين مما يُعاب به العرب أو يُعيون. بل كانوا يؤمنون بأن الكسب نعمة من الله منذ أن نَفِد الماء فكادت هاجر ولدها إسماعيل يهلكان،

(١) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ١٥٨. وانظر أيضاً الشريف: المرجع السابق، ص ١٣١.

وكذلك: Montgomery-Watt: Muhammad at Mecca... p. 30.

(٢) مروج الذهب، ج ٢، ص ٢٥٤. وانظر سيرة ابن هشام: ج ١، ص ١٥٣.

فانفجرت عين زمزم وأقامت عندها معه، تَرُدُّ عليهما القوافل في رحلاتها، فينالان من العيش ما يكفيهما. وفي سورة إبراهيم: «رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ» (إبراهيم: ٣٧)، ما فيها من رجاء الازدهار المرهون بإقبال الناس على حج مكة^(١).

ويصعب أن نتصور أن عمرو بن لُحَي، الذي يُنسب إليه أنه أول من نصب الأصنام في الجزيرة العربية وجمعها في الحرم المكي^(٢)، إنما كانت تحفزه حوافز دينية فقط. ذلك أن زعيم قبيلة خزاعة هذا عمل لتشيط الحج إلى الكعبة، بعدما كان أمر مكة قد تدهور، والحج إليها قل، بسبب ما قال ابن هشام إنه بغى جرهم واعتادوا على القوافل والتجار والحجاج المازين بمكة أو الوافدين إليها للمتاجرة والحج. ويقول ابن كثير إن ابن لحي أخذ بقيم موائد الطعام في موسم الحج ويسر جلب الماء من الآبار المنبئة حول مكة، ونال بذلك منزلة كبيرة بين قومه وبين القبائل الضاربة حول مكة. وجلب الأصنام وأقامها حول الكعبة حتى يُرغَب القبائل العربية، وبخاصة قبائل الشمال في الحج، فلقي استجابة وموافقة لفعله بين القبائل العربية البعيدة والقريبة^(٣). وكان جمع أمري التجارة والتدين هو الذي ميّز في الواقع مكة على ما سبقها من مدن عربية خاضت غمار تنظيم التجارة الدولية من قبل.

وقد نسب الجاحظ ميل قريش للتجارة واشتغالهم بها، إلى تحمسهم في دينهم، فقال في كتاب البلدان: «وقريش من بين جميع العرب دانوا بالتحمس

(١) الأزرقي: ص ٣٣ وما بعد. وابن كثير: البداية والنهاية، ج ١، ص ١٥٤ - ١٥٧. والطبري: التاريخ...، ج ١، ص ٢٥٥ وما بعد. وانظر أيضاً الشريف: المرجع السابق، ص ٩٧، ١٠٠.

(٢) ابن الكلبي، أبو المنذر هشام: كتاب الأصنام، تحقيق أحمد زكي، المكتبة العربية، مصورة عن نسخة دار الكتب، القاهرة، ١٩٢٤. ص ٨، ١٣، ٥٤، ٥٥، ٥٧.

(٣) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ١٢٥. وابن كثير: البداية والنهاية، ج ٢، ص ١٨٧. وكذلك الشريف: المرجع السابق، ص ١٠٢.

والتشدد في الدين فتركوا الغزو كراهة للسبي واستحلال الأموال واستحسان الغصوب، فلما تركوا الغزو لم تَبَقْ مكسبة سوى التجارة فضربوا في البلاد إلى قيصر بالروم وإلى النجاشي بالحبشة وإلى المقوقس بمصر وصاروا بآجمعهم تجاراً خلطاء^(١).

ولا شك في أن ثمة رابطاً منطقياً بين التجارة والتدين في هذه الحال، لكن إعادة ترتيب السبب والنتيجة أمر ضروري لإدراك الحوافز التي تحرك المسار التاريخي في بعض الأحيان. فمكة كانت تستطيع أن تتحمس وحدها للدين، وما كان هذا قادراً على جمع قبائل العرب عندها. وسعي عمرو بن لحي إلى جمع الأصنام في الكعبة ينم عن طموح تجاري وسياسي، أكثر مما ينم عن حماسة دينية. إن النجاح يستتبع الرغبة في استمرار النجاح. وقد أدرك المكِّيون أن التجارة تحتاج إلى الأمن، ولذا كان لا بد من صمام يضمن الأمن لهم ولتجارتهم، فكان لا مفر من مخاطبة كل بلغته. فالأصنام لعموم العرب الراغبين في رمز ومحجة وثابة تستقطب انتماءهم وتشد قلوبهم إلى مستقر يجمعهم. والتجارة لمن يفهمون لغة المال والكسب. ولم لا يرتن واحدهما بالآخر؟ وما الذي يحول دون قدوم التاجر بتجارته فيبيع ويشترى ثم ينزع ثياب الإحلال ويلبس لبوس الإحرام، فيشكر لآلهته ما يظن أنها أكسبته في تجارته هذه. وقد يشند إيمانه كلما أحس أن هذا التدين عاد عليه بالمنفعة. ولم يكن التدين سبباً للميل إلى التجارة إذن، ولكنه كان مرادفاً للربح، حتى ازداد الناس حماسة كلما ازدادوا ربحاً، تخوفاً من انتقاص أصنامهم عليهم، ورغبة في استمرار هذه النعمة. وكيف يمكن لقبائل العرب أن تنكر ما اعتقدت أنه فضل أصنامها عليها، وهي ترى خيرات التجارة القرشية تعم وتتعاظم في كل موسم؟

ولم يكن تنظيم قريش لإيلافها وتجارها ومواسم حجها، موضوعاً على نحو يخفف هذه الصلة الوثيقة بين التجارة والتدين في أذهان القبائل، حتى خاطب

(١) الجاحظ: كتاب البلدان، نشر صالح أحمد العلي، مستلة من مجلة كلية الآداب، مطبعة الحكومة ببغداد، ١٩٧٠، ص ٤٧٢. وكذلك جواد علي: ج ٧، ص ٢٨٧.

القرآن قريشاً بلغتها التي تفهمها، إذ دعاها إلى عبادة رب البيت لأنه أطعمها من جوع، حين أمكن لها أن تؤلف رحلة الشتاء والصيف. ونسأ الكنانيون أحلاف قريش الشهور في ختام موسم الحج، لا لسبب ديني معلوم، بل لأسباب نعتقد أنها تجارية على ما سنبين لاحقاً في الفصل الخامس. كذلك استخدمت قريش حرمتها الدينية لدى القبائل للمحالة دون الاعتداء على قوافلها، بوسائل شتى منها أن الرجل منهم كان يتقصد قلادة من لحاء شجرة من شجر الحرم، ثم يذهب حيث يشاء فيأمن بذلك، وإن أهل مكة كانوا يفعلون ذلك في تجارتهم، فيضعون القلائد في أعناقهم وفي أعناق بهائمهم، فلا يعرض لهم أحد بسوء، إذ كانوا يرون الوفاء بالميثاق عهداً في أعناقهم وديناً يلزمهم الوفاء في أحكامهم^(٢). بل يعتقد سرجنت أن تسيير قريش قوافلها ما كان ممكناً لولا قداسة الحرم المكي وهيبة القبيلة التي كانت تقوم على سبائته^(٣). ويرى مونتغمري وات أن نماء المركز التجاري في مكة كان مديناً لوجود الحرم حيث كان الناس لا يخشون اعتداء^(٤).

ثالثاً: التجارة والطرق

١- البضائع ومصادرها

قلماً احتوت المصادر والمراجع على ثبت يجمع بضائع التجارة الشرقية ويصنفها ويعين مصادرها. ولذا يصعب على الباحث أن يهتدي إلى دليل في هذا الشأن، ويتعين عليه في كل مرة أن يجمع ما يريد من هنا وهناك، فلا يضمن أن يفوته إحصاء ما قد لا يجوز إغفاله. وسنحاول في الثبت التالي جمع ما أمكن جمعه من المصادر والمراجع، في ترتيب أبجدي لا يحتوي قطعاً على كل ما كانت تتجر به مكة وإن كان يغني عن التنقيب بعض الشيء، في شأن أهم بضائع التجارة القرشية:

(١) مروج الذهب، ج ٢، ص ٣٤٦. والطبري: التفسير، ج ٦، ص ٣٧ وما بعد. وجواد علي:

ج ٦، ص ٢٢٦.

(٢) Serjeant: Harem and Hawa..., p. 55 (٢)

(٣) Montgomery-Watt: Muhammad at Mecca..., p. 3 (٣)

المادة	وجه استخدامها	مصدرها
الأبنوس	خشب ثمين للأثاث الفاخر	الحبشة
الأدم	جلود للملابس وغيرها	جزيرة العرب والشام والعراق والحبشة
الأدوات والأسلحة	أدوات معدنية وسيوف وملحقاتها	عدن والشام وعمان والبحرين
البخور والعطور	أغراض دينية وتبرج	حضر موت والحبشة وسيلان
البرد	ملابس	اليمن
البلسم	دواء	جنوب الجزيرة العربية
التمر	طعام	العراق وهجر والبحرين
التوابل	تحسين الطعام	الهند والجزيرة العربية والحبشة
الجبن	طعام من حليب الإبل والمواشي	جزيرة العرب
الحبوب	طعام	الشام
الحجارة الكريمة	التبرج والتزويق	اليمن والبحرين وفارس وسيلان
الحرير	الحياكة والملابس	الهند والصين
الخطر	خضاب	اليمن
الخمور	مشروب	الشام وغزة والحيرة وهجر
دم الأخوين	دواء وصباغ	سقطرى
الذهب والتبر	النقود والحلي والمعابد	الجزيرة العربية وإفريقية
الرقيق والجواري	الاسترقاق والاستخدام	الحبشة والشام
ريش النعام	الطنافس والتزويق	الحبشة وإفريقية عموماً
الزبدة	طعام	جزيرة العرب
الزبيب	طعام	جزيرة العرب والشام
الزجاج	الأواني والتزويق والعمارة	الشام وفلسطين
الزنجبيل	توابل لتحسين الطعام	الهند
الزيت	طعام وطقوس وصناعات مختلفة	الشام
السكر	طعام	الشام
السنا أو القرقة	دواء	جزيرة العرب والصين وإفريقية
الصينية		

المادة	وجه استخدامها	مصدرها
السنبل	عطر ودواء	الهند
الصبر	دواء	سقطرى
الصمغ	صناعة	جزيرة العرب
الصندل	خشب ثمين للمفروشات	الهند
الطحين	طعام	والبحرين
العاج	الأواني والحلي والتزويق	الشام
العنبر	بخور وحجارة كريمة	إفريقية
الغار	نبات طيب الرائحة	فارس وسيلان والشحر
الفضة	النقود والحلي والمعابد	اليمن
الفلفل	من التوابل	اليمن وإفريقية
القرقة	من التوابل	الهند وإفريقية واليمن
القرنفل	من التوابل	جزيرة العرب وإفريقية
القطن	الحياكة والملابس	اليمن
القماش	الملابس	مصر والشام
الكافور	دواء	الشام
الكشت	بخور ودواء	الهند وسيلان
الكندر	دواء	كشمير - الهند
اللبان	أفخر أنواع البخور	اليمن
المر	دواء	فُفار
المسك	من أشهر أنواع البخور والتوابل	اليمن وجزيرة العرب عموماً
المقل	عطر ودواء	فارس وسيلان
الورد	صباغ	الهند وفارس وجزيرة العرب
اليلنجوج أو الكباء	بخور	اليمن ويُعالج في هجر الهند والصين وماليزية ^(١)

(١) الأفغاني: أسواق... ص ١٦٦ - ٣٢٩. وبيضون: الحجاز... ص ٦٩، ٧٠. والشريف:

وفي إمكاننا أن نصنّف هذه البضائع إلى أصناف تختلف في قيمتها ومكانتها من التجارة الدولية. فالتجارة المحليّة هاهنا، هي تلك التي لم يكن لجانب من جانبي الصراع البيزنطي - الفارسي احتكاراً ما في إنتاجها، كالطعام والملابس، ولذا كان اتجار قريش بها، في معظم الحالات على ما يبدو، للاستهلاك المحليّ، فلا يتعدى انتقال السلعة حدود بلاد الشام وجزيرة العرب، ابتداء بالمنتج وانتهاء إلى المستهلك. وهذا يعني أن شراء الزيت في بلاد الشام وبيعه في جزيرة العرب، يُعدّ في هذا الإطار تجارةً محليّة، على الرغم من أن المنطقتين لم تكونا تحت حكم دولة واحدة. وأما التجارة الدولية فهي التي كانت في معظم الحالات مَوْضِع الصراع.

- التجارة المحليّة: هي تجارة كانت على الأرجح قائمة في أزمنة سبقت الإيلاف، لأن الحاجة في جزيرة العرب إلى التبادل التجاري داخل الجزيرة ومع بلاد الشام، كانت قائمة. غير أن هذه التجارة المحليّة ازدهرت، على ما يُفترض، مع ازدياد دخل القبائل من التجارة الدولية، فاشتد إقبالهم على شراء الطعام والملابس وغيرها كالزجاج والرقيق، وما إليها. وكانت القوافل تحمل

= المرجع السابق، ص ١٥٧ - ١٥٩، ٢٠٥، ٢٠٦. وحمّور: المرجع السابق، ص ١٥، ١٦، ٢٤، ٣٦، ٣٧. ودرادكة: المرجع السابق، ص ٥٦، ٥٧، ٦٢، ٦٣. وجواد علي: ج ٤، ص ٢٢٤، وج ٧، ص ٣٠٧. وغيون: المرجع السابق، ج ١، ص ١١٠، ١١١. وكذلك Lammens, Henri: Les Grosses Fortunes à la Mècque au Siècle de l'Hégire. *Egypte Contemporaine*, VIII (1917), p. 25; Husein: The Early..., pp. 110, 111; Somogyi: The Part..., pp. 179, 180; Haji Hassan: The Arabian..., pp. 78, 79; Peters, F.E.: The Commerce of Mecca Before Islam, in: A Way Prepared, Essays on Islamic Culture in Honor of Richard Bayly Winder, Edited by Farhad Kazemi and R.D. McChesney, New York University Press, New York and London, 1988, p. 7; Crone: Meccan Trade..., pp. 12, 13, 27, 33, 37, 54- 71, 98, 99; Rabbath, Edmond: Mahomet, Prophète arabe et fondateur d'état, Publications de l'Université Libanaise, Beyrouth, 1981, p. 115; and Hourani, George Fadlo: Arab Seafaring in the Indian Ocean in Ancient and Early Medieval Times, Princeton University Press, 1951.

التمر من العراق إلى جزيرة العرب، لكن تمر هَجَر والبحرين كان أفخر التمور، ولذا كان تداوله ضمن أسواق العرب في الجزيرة ضمن التجارات المحليّة^(١). وكانت البدو تصنع الجبن والزبدة وتشتري بدلاً منها الخمر والطحين والحبوب من الشام. ويقال إن عبد الرحمن بن عوف ارتاش واغتنى من هذه المبادلة، وهي مبادلة تقليدية قديمة العهد بين منتجات البداوة والرعي وبين المجتمع الزراعي المستقر^(٢). وكان مما تستورده القوافل من الشام ومنتجاتها الغذائية: الزيت والسكر والزبيب^(٣). وكانت ضمن التجارة المحليّة أيضاً تجارة النسيج والأدم، وكانت البُرْد اليمانية مشهورة، وكان آل مخزوم القرشيون يفاخرون بإكساء الكعبة من القماش اليمني الفاخر الذي كان سبباً من أسباب ثرائهم العظيم^(٤). لكن القوافل كانت تحمل من الشام القطن والصوف مَحِيكاً أو مَخِيظاً، ومن مصر الأقطان المختلفة. بل إن منسوجات الشام كانت تستخدم الحرير، فتحمله القوافل في طريق عودتها إلى جزيرة العرب^(٥). أما الأدم فهو أهم ماكانت تصدره قريش من نتاجها الخاص. ويُعتقد أن هاشماً بن عبد مناف أنشأ الإيلاف مع ملك الروم في الشام من أجل الاتجار بالأدم المكي. وكان الأدم هو هديّة عثمان بن الحويرث إلى القيصر حين سعى إلى تملكه على مَكّة، وهديّة مشركي مَكّة حين سعوا لدى النجاشي إلى طرد المسلمين في الهجرة الأولى إلى الحبشة. وكان النبي نفسه وعُمر بن الخطّاب وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف يتاجرون بالأدم. وكانت الطائف مشهورة بدباغة الجلود، وفيها الأُهْب الطائفية المعروفة،

(١) Husein: op.cit., p. 110. وحمّور: المرجع السابق، ص ١٦، ٣٦.

(٢) Crone: op.cit., p. 98. وكذلك: Haji Hassan: op.cit., pp. 78, 79. وSomogyi: op.cit., pp. 179, 180. وانظر أيضاً حمّور: المرجع السابق، ص ١٦، ٢٤، ٣٧. ودرادكة: المرجع السابق، ص ٦٢، ٦٣.

(٣) أضف إلى مراجع الهامش السابق درادكة: المرجع السابق، ص ٥٦. وHusein: op.cit., p. 110. وكذلك: Hourani: op.cit., p. 33. وDonner: Mecca's Food..., p. 254.

(٤) Lammens: Les Grosses..., p. 25. وكذلك: Haji Hassan: op.cit., p. 79. وجواد علي: ج ٧، ص ٣٠٧.

(٥) حمّور: المرجع السابق، ص ٣٧. وHourani: op.cit., p. 29.

تُدبِّغ وتُلَيِّن ويُزَال ما بها ثم تُصَدَّر^(١). لكن الجلود لم تكن تُصَدَّر فقط من جزيرة العرب، بل كانت تُستورد إليها أيضاً، من الحبشة والشام والعراق^(٢). ويُعتَقَد أن حياة البداوة المعتمدة اعتماداً كبيراً على الإبل والمواشي كانت تؤهل جزيرة العرب لصناعة جلود مزدهرة. غير أن الشعوب المجاورة، خصوصاً الحبشة والقطاعات الزراعية وشبه البدوية في الشام والعراق كانت هي أيضاً مؤهلة لمثل هذا. ولم تكن الجلود احتكاراً في أي حال، وكانت تجارتها خارج إطار الصراع الدولي على تجارة الشرق بلا ريب.

- التجارة شبه الدولية: وهي تجارة كان يمكن لبضاعتها أن تكون جزءاً من التجارة الدولية، لأن مصدرها من خارج جزيرة العرب في معظم الحالات، وشاريها كذلك. لكن سبباً من الأسباب أخرجها من إطار الصراع بين بيزنطة والفرس على التجارة الشرقية. فالزجاج الشامي الذي كان يحمله التجار من الشام لم يكن يمكن أن يحدث نزاعاً لأن تجارته لم تكن على ما يبدو مطلوبة فيما يتعدى جزيرة العرب^(٣). وكانت بيزنطة قادرة على شراء الرقيق الحبشي وجواري الشام الذين كانت تجارة مكّة تنقلهم في الاتجاهين شمالاً وجنوباً^(٤). ولم يكن الفرس في المقابل يفتقرون إلى الرقيق فكانوا يتخذونه من مصادره الآسيوية، ولذا كانت هذه التجارة أيضاً على ما يبدو غير مُتَنَازَع عليها حقاً. وفي هذه الفئة تدرج أيضاً الأدوات المعدنية والأسلحة، كالسيوف والتروس ورؤوس الحراب والرماح وما شابه، لأن هذه كانت تُصنع في اليمن والطائف^(٥)، وفي

(١) Crone: op.cit., pp. 98, 99. وحَمَوْر: المرجع السابق، ص ٣٦. ودرادكة: المرجع السابق،

ص ٦٣. وجواد علي: ج ٧، ص ٣٠٧. وأيضاً Somogyi: op.cit., p. 179.

(٢) الشريف: المرجع السابق، ص ١٥٧. وحَمَوْر: المرجع السابق، ص ١٦. وHaji Hassan: op.cit., p. 78. وHourani: op.cit., p. 30.

(٣) Husein: op.cit., p. 110. وحَمَوْر: المرجع السابق، ص ٢٤.

(٤) Lammens: op.cit., p. 25. وHaji Hassan: op.cit., p. 79. وSomogyi: op.cit., p. 179.

و درادكة: المرجع السابق ص ٦٣. والشريف: المرجع السابق، ص ١٥٧. وكذلك: Houra: ni: op.cit., p. 30.

(٥) حَمَوْر: المرجع السابق، ص ٣٦. ودرادكة: المرجع السابق، ص ٦٣. وجواد علي: ج ٧،

ص ٣٠٧.

الشام أيضاً، ومنه قول الشاعر:

صَفَائِحُ بَصْرَى أَخْلَصَتْهَا قِيُونُهَا وَمُطَرِدًا مِنْ نَجْدٍ دَاوِدَ مُحْكَمًا^(١)

ويبدو ألا مفر من إدراج العاج والأبنوس^(٢) ضمن هذه الفئة، لسببين مهمين: أولهما أن كلا الدولتين الكبيرتين كان قادراً على ضمان مصادره الخاصة من هاتين المادتين بعيداً عن الآخر. فالعاج الحبشي في متناول بيزنطة، والعاج الهندي لا يقربه إلا الفرس. والسبب الثاني هو أن المادتين ثقيلتان، ولو حملت منهما القوافل المكّية، فلن تحمل المقادير التي يحتمل أن تجعل تجارتها عبر الطريق البرية غرب جزيرة العرب مجزية وأساسية في التجارة الشرقية. وهذا يسوقنا إلى حديث البضاعة التي خَفَّ حملها وغلا ثمنها، وهي سمة التجارة الدولية التي ازدهر بها الإيلاف ودار من حولها صراع الفرس والبيزنطيين على الخصوص.

ب- الحرير والذهب والفضة

يُصطلح البَحَاثَةُ على أن صنف التجارة الشرقية التي تَنَازَع الشرق والغرب طويلاً للسيطرة على خطوطها تتضمن أربع فئات من البضاعة إجمالاً هي: البخور والأفاويه والفضة والحرير. وهذا صحيح عموماً، لكن هذا التصنيف هو تبسيط في الواقع، لأن جميع هذه الفئات كانت تتضمن أشكالاً والواناً من البضاعة، لا تختلف في جودتها وثمنها وقيمتها التجارية فقط، بل تختلف في مصادرها، وبالتالي في موقعها من الصراع السياسي والعسكري أيضاً.

- الحرير، الذي سبقت الإشارة إلى مكانته في سياسة بيزنطة، خصوصاً في عهد جوستينيانوس، يضعه غيبون ضمن بضائع التجارة الشرقية الفاخرة التي يصفها بأنها «تافهة وعديمة النفع». ويقول غيبون إن الحرير كانت «لا تقل قيمة

(١) لسان العرب: مادة بصر. وانظر درادكة: المرجع السابق، ص ٦٣. وكذلك: Haji Hassan: op.cit., p. 79. وSomogyi: op.cit., p. 179.

(٢) أضف إلى مراجع الهامش السابق الشريف: المرجع السابق، ص ١٥٧. وCrone: op.cit., p. 78. وكذلك: Hourani: op.cit., p. 30.

الرطل منه عن قيمة رطل من الذهب^(١). ولا شك في أن غييون الذي حاول أن يستعير المقاييس والقيم الاستهلاكية التي كانت رائجة في عصره، لقياس عصر آخر، فاته أن ارتفاع ثمن الحرير في الزمان الغابر إنما كان يعبر عن شدة الطلب عليه وقلة وفرته في السوق الدولية. وهذا في ذاته ينفي عن تجارة الحرير صفة التفاهة وعدم النفع التي أسبغها غييون ببعض الغضب على التجارة الشرقية الفاخرة، مخالفاً على ما يبدو نظرة الأباطرة الرومان والبيزنطيين إليها، ابتداءً بترايانوس مروراً بجوستنيانوس. لقد كانت هذه التجارة، وفي صميمها الحرير وغيره، من العوامل الكبرى التي شكّلت أحلام الإسكندر في توفقه إلى الشرق، هو وخلفائه الإغريق والرومان والبيزنطيين. كانت ملابس الحرير أفخر الملابس. ولم يهتد الغرب إلى وسيلة استخدام خيط الحرير، ولا اهتدى إلى تربية شرنقته قبل القرن السادس الميلادي، على ما أسلفنا. ولم تُجد تربية الشرنقة في الغرب البيزنطي على الفور، لأن الإنتاج لم يكن كافياً على الإطلاق. ولا شك في أن الخبرة أيضاً كانت تجعل الحرير الشرقي أجود من الأصناف المصنوعة في المزارع البيزنطية الحديثة العهد. وكان الحرير كله قبل ذلك يأتي من الهند^(٢) أو الصين^(٣) أو سيلان^(٤). ولم يكن ثمة مصادر أخرى للحرير، وإن كانت الشام تحيك بعض الأقمشة الحريرية^(٥). ولذلك كان الحرير باهظ الثمن، وتجارته إلى الغرب معظمها في يد الفرس أو العرب، ولم يسقط يوماً من حساب الصراع الدولي على طرق التجارة الشرقية قبل الإسلام، بل كان عنصراً مهماً من عناصر هذا الصراع.

وكان الذهب والفضة والأحجار الكريمة من البضاعة الفاخرة التي نقلتها

- (١) غييون: المصدر السابق، ج ١، ص ١١١. وستى بيضون تجارة الحرير والتوابل والبخور تجارة واستراتيجية. بيضون: الحجاز... ص ٥٤.
(٢) Crone: op.cit., p. 81. وكذلك: Hourani: op.cit., p. 29.
(٣) Haji Hassan: op.cit., p. 79. وكذلك: Somogyi: op.cit., p. 179.
(٤) Husein: op.cit., p. 111.
(٥) حمّور: المرجع السابق، ص ٣٧.

قوافل قريش إلى أسواق الغرب على الخصوص، وإن كان هذا النوع من البضاعة مطلوباً في كل مكان. ولسنا نملك دليلاً على أن العرض في أسواق الشرق، أي الهند والحبشة وفارس واليمن، كان يفوق العرض في أسواق الغرب البيزنطي فيما يخص الذهب والفضة، لكن مصدر الأحجار الكريمة المحصور تقريباً في أسواق الشرق وحدها كالبحرين واليمن وفارس والهند وسيلان، ووفرة إنتاج الذهب والفضة في جزيرة العرب وإفريقية والهند، يبيحان لنا الاعتقاد أن معظم هذا الصنف من التجارة كان تجارة استيراد في الغرب وتصدير في الشرق. وكان اليمينيون يصدّرون مثلاً نوعاً ثميناً من الحجارة الكريمة يدعى البقران، والنوع المثلث منه كان ثميناً جداً، وهو ذو وجه أحمر فوق عرق أبيض فوق عرق أسود^(١). وذكر الأصمعي وغيره أن اليمن كانت كذلك تصدر العقيق من ضمن الحجارة الكريمة^(٢). وأما البحرين فكانت شهيرة باللؤلؤ، وكان جزءاً ثميناً من تجارة الشرق^(٣). لكن الحجارة الكريمة والجواهر كانت ترد من بلاد فارس والهند وسيلان أيضاً^(٤).

وكان الذهب والتبر يأتيان من الحبشة وإفريقية عموماً^(٥)، وكان التبر، وهو تراب يُستخلص منه الذهب، بضاعة حبشية في الغالب. لكن جزيرة العرب كانت ضمن المناطق المنتجة للذهب والتبر هي أيضاً^(٦)، وقيل إن عسير أمدّت الملك سليمان بالذهب فيما غبر من الزمان^(٧). وكانت في اليمن مناجم يُستخرج

- (١) حمّور: المرجع السابق، ص ٢٤.
(٢) حمّور: المرجع ذاته، ص ٣٦. والشريف: المرجع السابق، ص ٢٠٦.
(٣) الشريف: المرجع ذاته، ص ٢٠٦.
(٤) Hourani: op.cit., p. 29. وكذلك: Hourani: op.cit., p. 29. ودرادكة، المرجع السابق، ص ٦٣. وكذلك: Hourani: op.cit., p. 29.
(٥) Somogyi: op.cit., p. 179. Haji Hassan: op.cit., p. 78. Crone: op.cit., p. 78.
(٦) المرجع السابق، ص ٢٤.
(٧) Diodorus: vol. II, p. 49. وانظر أيضاً Husein: op.cit., p. 110. وجواد علي: ج ٧، ص ٣٠٧.
(٨) Crone: op.cit., p. 78.

منها الذهب^(١).

وتذكر المصادر العربية الفضة على أنها أعظم تجارة قريش في السنوات الأولى للهجرة قبل فتح مكة^(٢). وكانت أهم مصادر هذا المعدن اليمن وإفريقية^(٣).

ج - اللبان والفرصة التاريخية

يُعدُّ اللبان أخطر عناصر التجارة الشرقية أثراً في مهمة الوساطة العربية التي اضطلعت بها قوافل العرب الصحراوية عبر العصور وذلك لسببين أساسيين:

الأول، هو أن اللبان كان أفضل أنواع البخور على الإطلاق وأغلاها ثمناً، وأفضل اللبان هو ما تنتجه منطقة ظفار في وسط الشاطئ الجنوبي للجزيرة العربية، وهو يفوق اللبان الهندي والصومالي جودةً وثماناً^(٤). ولشدة الطلب على هذه المادة التي كانت تستخدم في المواسم الدينية وحرق الموتى وتعطير البيوت والتبرج منذ أزمنة واطلة في القدم، واحتكار جنوب الجزيرة العربية إنتاج أفضل أنواعها، استطاعت القبائل العربية على مرِّ العصور أن تتمرَّس في تجارة القوافل الصحراوية وتجهَّز نفسها بما يلزم لهذه التجارة من وسائل نقل وخبرة بشرية. فطريق القوافل هي أقصر الطرق مسافة لنقل اللبان من ظفار وجوارها إلى بلاد الشام ومصر. وفي إمكاننا إذن القول إن تجارة اللبان على الخصوص كانت عاملاً أساسياً في حماية القوافل الصحراوية من الاندثار، لأن هذه التجارة ظلت مجديةً على الدوام، وظلَّت طريق القوافل عبر الصحراء أفضل طرقها إلى الأسواق وأقصرها مسافة.

(١) حمّور: المرجع السابق، ص ٢٤.

(٢) جواد علي: ج ٤، ص ٢٢٤.

(٣) حمّور: المرجع السابق، ص ٢٤. و 78. Haji Hassan: op.cit., p. 78.

(٤) يصرّح بليني بوضوح أن اللبان العربي كان للتصدير. Pliny: Natural History, vol. II, p. 455.

وانظر Abercrombie, Thomas J.: Arabia's Frankincense Trail, National Geographic, vol. 168, No. 4, October 1985, pp. 482, 484.

اللبان. Herodotus: The Histories, p. 219. وارتأى ميلر أن أفضل اللبان هو الحضرمي

والسقطري Miller, p. 103.

الثاني، هو أن الحروب والتبدلات السياسية لم تستطع أن تتغيّر الوضع الجغرافي في تجارة اللبان. كان يمكن للسلام أن يفتح طريق التجارة الشرقية عبر الفرات للبضائع الآتية من الهند، وكان يمكن للحرب أن تقفل هذه الطريق، فتتحول التجارة الشرقية إلى طريق البحر الأحمر أو طريق القوافل الصحراوية. وكان يمكن للحروب الحميرية الحبشية أن تعرقل النقل عبر البحر الأحمر. أما اللبان فإن مصدره الأول في جنوب جزيرة العرب، جعل طريق القوافل الصحراوية شبه إلزامية لنقل هذا الجزء المهم من بضاعة التجارة الشرقية، حتى إذا ما اضطربت طرق التجارة الأخرى بسبب الحرب الساسانية البيزنطية، أو بسبب الحروب أو خمول النقل البحري عبر البحر الأحمر في القرن السادس، على ما سنبيّن، كانت طريق القوافل الصحراوية جاهزة، بفضل اللبان، لا لنقل هذا التاج الثمين فقط، بل لنقل البضائع الأخرى الآتية من الهند والصين وإفريقية بعد تحوّلها عن الطرق الأخرى. ولعل في هذا جواباً عن السؤال الذي حير بعض الباحثين: ما الذي أهل طريق القوافل الصحراوية للقيام بهذه المهمة الخطيرة في التجارة الدولية؟ لقد كان اللبان هو البضاعة التي مولت القوافل وأبقت على طريق الصحراء قيد العمل، حين كانت الطرق الأخرى ناشطة في نقل البضائع الأخرى. فتمرّست القبائل التي توالى على تنظيم القوافل في هذه المهنة وهذه الطريق، حتى إذا ما أهل القرن السادس وتعطلت طرق التجارة الشرقية عبر الفرات والبحر الأحمر للأسباب التي سلف ذكرها في الفصل الثالث أعلاه، استطاعت طريق القوافل الصحراوية أن تتطوّر وتنمو وتقوم بمهمة الشريان الأكبر لهذه التجارة، خصوصاً عندما استطاعت قيادة مكة في الوقت المناسب أن تلحظ اشتداد الطلب على وساطتها، فتنهز الفرصة التاريخية وتعقد الاتفاقات اللازمة، لتطوير الأدوات المتوافرة لديها، من مهمة نقل التجارة المحلية، أو من مهمة نقل جزء محصور من التجارة الدولية إلى مهمة الاضطلاع بجزء كبير، وربما بالجزء الأكبر من هذه التجارة الدولية. والمرجح أن طريق القوافل ما كان مقدراً لها أن تتمكّن من انتظار الفرصة التاريخية، لولا اللبان وموقع إنتاجه الأول وغلاء أسعاره في الأسواق.

لقد استخدم قدامى المصريين «عطر الآلهة» لمراسم عباداتهم ولصنع الطيوب منذ آلاف السنين. وأول ما ذكر اللبان فيما بقي لنا من آثار، كتابة على قبر الملكة حتشبسوت عمرها يقرب من ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة، إذ أرسلت بعثة لإحضار اللبان من أرض البُنت (لعلها الصومال). وفي نحو سنة ٤٥٠ قبل المسيح ذكر هيرودوتس الطيوب العربية وقال «إن بلاد العرب كلها تضوع بهذه الطيوب ذات الرائحة الزكية». وكان الرومان يستخدمون اللبان لإحراقه مع جثث موتاهم، لتغليب الرائحة الزكية. وقيل إن نيرون أحرق نتاج سنة كاملة من اللبان العربي في جنازة خليلته بوبية (Poppaea). بل إن بعض المدن القديمة كانت تستخدم اللبان لتطيب رائحة شوارعها^(١).

وشجر اللبان على أنواع. وهو صغير ويؤثر في أيلول/ سبتمبر من كل سنة، لكن استخلاص اللبان ممكن في كل فصول السنة تقريباً، إذ يكسب اللحاء بآلة حادة فيسيل سائل أبيض كالحليب نقطاً صغيرة. ويؤمى النتاج الأول، وبعد أسابيع يؤمى النتاج الثاني، ولا يُعد لباناً جيداً إلا ما يُجمع في المرة الثالثة. وقلة النتاج وجودته وشدة الطلب جعلت سعر اللبان يرتفع، حتى قال بليني الأكبر «إن أقصى إجراءات اليقظة لم تكن كافية» لمنع السرقات في مشاغل تصنيع اللبان في الإسكندرية، «ولم يكن يُسمح للعمال بالمغادرة قبل أن يخلعوا جميع ملابسهم»^(٢). وقدّر النتاج السنوي الذي كان يُصدّر إلى رومة واليونان في القرن الميلادي الثاني، الذي سبق اندثار الديانة الرومانية وحلول المسيحية مكانها، بنحو ثلاثة آلاف طن^(٣). وعلى الرغم من أن كرون تعتقد بأن سوق اللبان كسدت بعد اعتماد المسيحية ديناً رسمياً للدولة أيام قسطنطين سنة ٣٣٠ م، إلا

(١) في شأن نقل اللبان الحضرمي بالقوافل عبر الصحراء انظر Periplus p. 32. أما قول هيرودوتس المذكور فتجده في Herodotus: The Histories, p. 221. وانظر أيضاً: Abercrombie: ibid., pp. 483 - 488.

(٢) Abercrombie: ibid., p. 484.

(٣) تحدث سترابو عن اللبان في جنوبي جزيرة العرب، Strabo: The Geography, p. 311. وانظر Abercrombie: ibid., pp. 484, 487.

أنها تنقض هذا الاعتقاد بقولها إن المسيحيين الذين كرهوا أولاً استخدام البخور واعتدّوه من مراسم العبادات الوثنية، عادوا فيما بعد واستخدموا البخور لأغراض مختلفة، حتى أصبح هذا جزءاً من مراسم الدين المسيحي في القرن الخامس ثم السادس. ولذا تقول كرون إن استهلاك البخور كان مؤهلاً للازدياد في عصر ازدهار التجارة القرشية، لكن هذا الازدياد لم يحدث، لأن مقدار البخور الذي أحرق لدى موت جستنيانوس «لم يزد إلا قليلاً عل الإنتاج السنوي من اللبان العربي»^(١). وتوحي حجة كرون هذه أن إنتاج العرب من اللبان كان يحتاج إلى موت إمبراطور بيزنطي كل سنة لضمان تصريفه. والحجة تُغفل طبعاً استخدام اللبان في ألوف الكنائس والمعابد في طول الإمبراطورية البيزنطية وعرضها، وتغفل كذلك أي استخدام آخر للبان في أغراض التطيب والتبرج. واستخدام اللبان في الأغراض الطبية لم يتأثر قطعاً بأي تحوّل ديني. وفي رأي أن مجرد القول إن كل النتاج العربي السنوي من اللبان قد استهلك في احتفال واحد، هو جنازة الإمبراطور، دليل على ندرة اللبان وشدة الإقبال عليه في ذلك الزمن، وليس دليلاً على العكس.

- د - الطيوب والتوابل

لم يكن اللبان هو البضاعة الوحيدة المهمة في تجارة الطيوب والبخور العربية، إذ كانت ثمة أنواع أخرى من الطيوب، مثل المُقل، وهو مادة صمغية معطرة، تنتجها الجزيرة العربية والهند وبلاد فارس أيضاً، والسبل الهندي الذي يُصنع منه زيت مُطيب. والكُشت أو القُشت وهو عُشبة كشميرية زكية الرائحة، واليَنجوج أو العود الهندي ويسمى الكباء أيضاً وهو معطر للحم ويُدخن به ويحرق بخوراً، والعنبر الفارسي والسيلاني وهو معروف، وكذلك المسك، والغار اليمني الطيب الرائحة، والصندل وهو خشب هندي رائحته زكية أيضاً. ومن طيوب تجارة الشرق أيضاً الكَمَكَم وهو سائل يُستخلص من لحاء شجرة في الجزيرة العربية، والضُرو أو الضُرو، واللدن أو اللادن، والآخران عطران من نتاج جنوب

(١) Peters: op.cit., p. 7. وقارن: Crone: op.cit., p. 27.

الجزيرة العربية، والإذخير أو الحَمْض وهو عطر نباته يكثر في مكة وجوارها، والوَج وهو نباتٌ عَطر الجذور، والبَلَسَان وهو نبات يُستخلص منه عطر ثمين، ومنه نوع في الجزيرة العربية يُسمى البَشَام^(١).

ودرجت في تجارة الشرق أيضاً المواد الطبية، وكان كثير منها غالي الثمن خفيف الوزن.

وكان المرَّ أهم هذه المواد الطبية، وهو من نتاج جزيرة العرب. وقد ذُكر ضمن الهدايا التي حملها الملوك المجوس إلى السيّد المسيح في مهده، وكانت تُعطر به مومياءات الفراعنة ويُصنع منه الزيت المقدس عند اليهود. وقد استخدم المرَّ أيضاً دواءً، ويُقال إنه كان يُعطى للنساء على الخصوص لتنظيم دورتهن. وشجرته تنبت في جزيرة العرب والصومال والهند. ومنها أنواع. وبعض أنواعها يُنتج في الهند المُقَل الذي أنف ذكره. وعلى الرغم من أن جزيرة العرب لم تحتكر إنتاج أفضل المرَّ، إلا أن هذه المادّة كانت تُعدّ أهم ما تنتجه الجزيرة العربية بعد اللبان في تجارة الشرق^(٢). ولم يكن المرَّ دواءً فقط بل كان يُستخدم أيضاً بخوراً. ومن الأدوية الأخرى التي كانت تنقلها تجارة الشرق الصُّبر وهو من جزيرة سُقطرى المجاورة لرأس الصومال^(٣)، والسنا أو القرفة الصينية وهي دواء ينبت رغم اسمه في الجزيرة العربية والصومال^(٤)، والكُشت الذي أنف ذكره مع الطيب، وهو دواء أيضاً^(٥)، والكُنْدُر اليمني وهو صمغ شجرة شائكة ورقها

(١) Husein: op.cit., p. 110 و Lammens: op.cit., p. 25 و Crone: ibid., pp. 12, 54 - 75, 98

وكذلك: دراذكة: المرجع السابق، ص ٥٦، ٦٣. وحمّور: المرجع السابق، ص ٢٤، ٣٦.

والشريف: المرجع السابق، ص ١٥٧، ٢٠٦. وغيون: المرجع السابق، ص ١١١.

والأفغاني: أسواق...، ص ٢١٤، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٤٣.

(٢) Abercrombie: op.cit., pp. 483, 486. وكذلك: Crone: op.cit., p. 13, 67. وحمّور: المرجع

السابق ص ٢٤.

(٣) Crone: op.cit., p. 59

(٤) Crone: ibid. pp 37, 66

(٥) Crone: ibid., p. 73

كالأس، ويُعلك الكُنْدُر وهو نافع جداً لقطع البلغم^(١)، والبلسم وهو نبات طبي اشتهرت به اليمن أيضاً وأصبح اسمه اسماً لكل دواء من شدة انتشاره على ما يبدو^(٢).

واحتوت هذه التجارة موادّ أخرى غير الطيوب والأدوية، كالتوابل والأصباغ وغيرها. وكان معظم التوابل يأتي من الهند^(٣). لكن الجزيرة العربية^(٤) والحبشة^(٥) كانت أيضاً تُنتج بعض الأنواع. وكان أهم التوابل وأشهرها على الإطلاق الفلفل الهندي الذي كان يُستخدم في رومة بكثرة لتطيب الطعام^(٦). وكان من التوابل المطلوبة الكافور، ومصدره البلاد الآسيوية^(٧)، والزنجبيل وهو من الهند^(٨)، والقرنفل اليمني^(٩) والقرفة العربية والإفريقية^(١٠).

ومن الموادّ الأخرى لا بد من ذكر ريش النعام الحبشي الذي كان يُستخدم في تزويق المنازل وملء الطنافس^(١١)، والصمغ العربي^(١٢)، والورس وهو صباغ يميّ أصفر اللون، يُستخرج من نبات يشبه السمسم، ويُتخذ منه الزعفران^(١٣)،

(١) حمّور: المرجع السابق، ص ٣٦.

(٢) حمّور: المرجع نفسه، ص ٢٤.

(٣) Haji Hassan: op.cit., pp. 78, 79 و Somogyi: op.cit., p. 179. وحمّور: المرجع السابق،

ص ٢٤.

(٤) Husein: op.cit., p. 110 وأيضاً Haji Hassan: op.cit., p. 78, 79.

(٥) الشريف: المرجع السابق، ص ١٥٧.

(٦) Crone: op.cit., p. 77 وكذلك Hourani: op.cit. p. 29 و Haji Hassan: op.cit., p. 78, 79.

(٧) Husein: op.cit., p. 110

(٨) Crone: op.cit., p. 76

(٩) حمّور: المرجع السابق، ص ٢٤.

(١٠) Hourani: op.cit., p. 37 و Crone: op.cit., p. 37. وحمّور: المرجع السابق، ص ٢٤.

(١١) حمّور: المرجع السابق، ص ٢٤. والشريف: المرجع السابق، ص ١٥٧.

(١٢) جواد علي: ج ٧، ص ٣٠٧.

(١٣) حمّور: المرجع السابق، ص ٣٦.

ودم الأخوين وهو دواء وصباغ أحمر من سقطرى^(١)، والخِطَر وهو خِضَابٍ يمني^(٢).

ويلاحظ من هذا الاستعراض لبضاعة التجارة الشرقية أن نسبة كبيرة من التوابل والأدوية والأخضبة كان مصدرها جزيرة العرب. وأهم المواد ولا شك كان عربي المصدر: اللبان يليه المر، ثم الفلفل (وجله من الهند). وهذا الأمر يعزز المهمة التي أداها اللبان في تنشيط طريق القوافل العربية، وفي تمريس القبائل في تجارة الشرق والقيام بجزء كبير منها. وأما في شأن البضائع التي كانت جزيرة العرب تشترك مع الهند والصومال والحبشة في إنتاجها، فإن قرب موقع جزيرة العرب من الأسواق البيزنطية وقصر الطرق منها إليها، بالمقارنة مع طرق الهند والحبشة إلى هذه الأسواق، واضطراب الأحوال على الطرق من الهند والحبشة في القرن السادس على الخصوص، بالمقارنة مع السلام الذي عمّ القبائل العربية وطريق قوافلها بفضل إيلاف قريش، واشتراك معظم القبائل في التجارة القرشية، قد روجت للتاج العربي وسهلت تصريفه قبل نظيره الآتي من بلاد أخرى. وهذه العوامل، إذا ما أُضيفت إلى العوامل التي أضرت بالطرق البحرية، لا بدّ وأنها ضخّمت تجارة القوافل العربية وزادت حصتها من تجارة الشرق، وحسّنت أرباح القبائل العربية وزادت ثقتها بمشروعها المشترك.

هـ - رحلة الشتاء والصيف

جاء في القرآن: ﴿إِلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ (قريش: ٢٥١). والقرآن الكريم هو النص الذي لا شك في صحته التاريخية، ولذا فهو المصدر الأول لتأكيد رحلة الشتاء والصيف. وفوق هذا يقارع المشركين بحجّتهم ومنطقهم، ولو كان المشركون يعرفون خلاف ما جاء في السورة لما امتنعوا عن استخدام ذلك حجّة على المسلمين. وهذا لم يحدث. واستناداً إلى هذا، فليس من شك أن قريشاً سيّرت على الأقل رحلة في الشتاء ورحلة في

(١) Crone: op.cit., p. 60

(٢) حمّور: المرجع السابق، ص ٣٦.

الصيف، فأجملهما القرآن الكريم بصيغة المفرد، ليظهر فضل الله في تمكين تجار مكة من تسيير الرحلتين معاً. ذلك أن الرحلتين معاً كانتا تعنيان أن مكة وسّعت تجارتها وانتقلت من مرحلة التجارة المحلية التي كانت قائمة على أية حال منذ أزمنة غير معروفة، إلى مرحلة التجارة الدولية التي كانت تتطلب ربط السوقين: سوق المحيط الهندي وسوق البحر المتوسط، بشريان القوافل الصحراوية. وتوضح سورة قريش، إذا دقّقنا النظر فيها، بعض أبعاد رحلة الشتاء والصيف ومقتضياتها. إذ يرهّن القرآن إيلاف الرحلة بإطعام الله قريشاً من جوع وإيمانه إياهم من خوف. ويؤكد هذا أن قريشاً حين عقدوا الموائيق لتسيير القوافل إلى الشام وغيرها، اتّسعت تجارتهم وازداد دخلهم وتحسّن مكسبهم. ويؤكد كذلك أن هذه الموائيق ضمنت لقريش السلام بين القبائل وأمان الطريق. وبذا يرسم الخط الفاصل القاطع بين ما كان قبل الإيلاف من تجارة محلية لا تخرج إلى أطراف جزيرة العربية جميعاً، ولا تتعدى مواسم الأصنام القبلية، ولا تزيد على بعض المبادلات ضمن نطاق الاستهلاك المحلي، وبين ما صار، بالإيلاف ومن بعده، من تسيير الرحلتين ونقل التجارة الدولية واتّخاذ الأمان من القبائل لإجازة مرورها، وما نتج من ذلك من خير نعمت به قريش والقبائل معاً. كان الإيلاف هو هذا الخط الفاصل.

لكن التجارة التي سبقت الإيلاف لم تكن كلّها محلية في جزيرة العرب. وقد سبق القول إن تجارة اللبان ظلت قائمة من ظفار وغيرها، وكان سوقها خارجياً في معظمه. فلماذا تُرهن الرحلتان بالإيلاف وحده؟ ألم تكن هناك رحلتان لتجارة اللبان التي سبقت الإيلاف؟ وكيف كانت قوافل اللبان تنقل بضاعتها من غير رحلتين إحداهما إلى اليمن في الشتاء والثانية إلى الشام في الصيف؟ إن لهذا جواباً أبسط مما يتوقعه المرء. فاللبان كان يُجمع في كل فصول السنة تقريباً، ولم يكن جمعه وخزنه ونقله مرهوناً بموسم ما في السنة الشمسية^(١). وكانت تجارة اللبان على الدوام في يد الدولة المسيطرة على شرق اليمن، من أيام معين وسبأ وحميز ثم الأحباش والفرس. ولذا لم يكن أسلوب

(١) Abercrombie: op.cit., p. 484

نقل اللبان هو أسلوب تأليف القبائل العربية وإشراكها في التجارة، على ما أتبعته قريش في إيلافها، بل كان أسلوب الدولة الذي أتبعته بيزنطة وغيرهما من خيفارة واستئجار مقاتلين بدو واستصناع أحلاف من العرب على طريق القافلة، لردع القبائل عن غزو القوافل.

وتكاد المصادر العربية تُجمع على أن رحلة الشتاء كانت إلى اليمن، ورحلة الصيف كانت إلى الشام. وجاء في طبقات ابن سعد^(١) أن رحلة الصيف كانت إلى بلاد الشام، وتتجه إلى غزة، وقال باحثون إنها وصلت حتى إلى أنقرة^(٢). ويدل ذهاب القافلة إلى غزة على أن جزءاً مهماً من البضاعة على الأقل كان معداً للتصدير بحراً إلى رومة وبيزنطة، وربما صُدِّر بعضها براً من غزة إلى مصر. وفي «أنساب» البلاذري^(٣) إشارة مهمة إلى أن رحلة الشتاء كانت إلى اليمن والحبشة والعراق معاً، ورحلة الصيف إلى الشام وحدها. وليس في إمكاننا استنتاج الكثير من جمع اليمن والحبشة في رحلة واحدة، إذ قد يؤخذ الأمر على أنه جمع لبلدين قرييين في رحلة واحدة، توفيراً للوقت والجهد. لكن إجمال العراق في رحلة الشتاء قد يوحي بنظرة مختلفة إلى هذا الأمر، وإن كان الحر في الصيف والبرد في الشتاء قد يفسران اتجاه الرحلتين وموعدهما. فبيان البضاعة التي كانت تنقلها التجارة الشرقية، يبيح لنا القول إن تجارة الشرق كانت في الإجمال تجارة استيراد لبيزنطة. أما البضاعة التي كانت تشتريها قوافل قريش من الشام وفلسطين ومصر، فمعظمها استهلاكي تحتاج إليه القبائل والمجتمعات في جزيرة العرب، ولا يُنقل إلى الهند أو الحبشة أو بلاد فارس، إلا القليل اليسير منه. ولذا غلبت عليها سمة التجارة شبه المحلية التي لم يداخلها صراع بين الشرق والغرب. ويلاحظ كذلك أن البضاعة التي كانت سبب الصراع على الخصوص، وهي اللبان والتوابل والفضة والحريز، إنما كان مصدرها ما نصطلح على تسميته الشرق، وسوقها ما أجملناه بلفظة الغرب. وتشترك الحبشة واليمن

(١) الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٧٥ وما بعدها.

(٢) درادكة: المرجع السابق، ص ٦٣. وأيضاً Hamidullah: Al-Ṭāf..., p. 300.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف، تحقيق حميد الله، ص ٥٩.

والعراق في أمرين معاً: أنها مقصد رحلة الشتاء القرشية، حسبما يقول البلاذري، وأنها تنتمي إلى البلاد المنتجة لبضاعة الشرق. وهذا قد يعني أن رحلة الشتاء كانت تجمع تجارة الشرق الدولية من البلاد الثلاثة. لتصرفها رحلة الصيف في مصرفها الأكبر: السوق البيزنطية. واستطراداً لهذا الاحتمال، فإن جمع اليمن والحبشة في رحلة واحدة هي رحلة الشتاء، ليس سببه بالضرورة قرب البلدين أحدهما من الآخر، بل تشابه غرض الرحلة إلى البلدين، وهو استيراد بضاعة الشرق. ونستطيع أن نفترض إذن أن القافلة الطاعة لإحضار تجارة اليمن، لم يكن ضرورياً أن تكون هي ذاتها القافلة التي كانت تُحضر تجارة الحبشة. وهذا أمر قد تؤكد الأخبار النادرة عن ميناء الشعيبة^(١) الذي كانت تستخدمه مكة لاستقبال سفن النقل الآتية من الحبشة. وليس منطقياً أن تُذكر رحلة الشتاء إلى الحبشة على حدة، إذا كانت رحلة الشتاء إلى اليمن هي التي تُحضر تجارة اليمن والحبشة معاً. ذلك أن ذكر الحبشة عندئذ كان يفترض أيضاً ذكر الهند وسيلان. ولذا نرجح أمرين: الأول هو أن الرحلة الشتائية لإحضار تجارة الحبشة كانت مستقلة عن رحلة اليمن، وإن كانت قد أجملنا معاً في المصادر باسم رحلة الشتاء، والثاني هو أن طريق الرحلة إلى الحبشة كانت طريقاً مختلفة عن الطريق إلى اليمن. وبذلك تكون رحلة اليمن هي القافلة التي تعود بتجارة اليمن ونتاج الهند وسيلان وغيرهما، مما تأتي به السفن إلى اليمن.

وإذا استقر الرأي على أن رحلة الشتاء تغلب عليها سمة استيراد البضاعة الشرقية، فإن هذا قد يؤثر في المعالجة اللاحقة لموعد رحلة الشتاء، لأن هذا الموعد لا بد عندئذ، من أن يرتفع بمواعيد وصول السفن من الهند وسيلان.

و- مكة تتاجر

انتقلت قريش في مكة من الاقتصاد البدوي الرعوي إلى الاقتصاد التجاري حسبما يقول مونتغمري وات^(٢). لكن الانطباع الذي توحى كتابات عدد من الباحثين،

(١) Haji Hassan: op.cit., p. 80.

(٢) Rodinson: op.cit., p. 35 وكذلك Montgomery-Watt: Economic and Social..., p. 81.

هو أن هذا الانتقال كان قريباً من ظهور الإسلام أو ملازماً لنشوء الإيلاف في أوائل القرن السادس. وفي اعتقادي أن الانتقال كان سابقاً لذلك. فإقامة الأسواق المحلية في مواسم الحج قديمة العهد. وإذا كان يحق الاشتباه في أن قريشاً كانت تجاراً قبل استقرارها في مكة، فإن موعد انتقالها من البداوة الرعوية إلى الاستقرار التجاري يصبح قريباً من بداية القرن الخامس على الأقل، زمن قصي بن كلاب حسب تقديرنا السابق. واشتغال مكة في التجارة قبل استيلائها على مكة معقول ومحتمل، لا لأن التجارة المحلية كانت ناشطة في الجزيرة العربية فقط، بل لأن تجارة اللبان المزدهرة منذ عصور غابرة كانت أيضاً تستخدم القبائل في تسيير القوافل المحملة بالبضاعة الثمينة. واكتشاف النقش السبي المعروف باسم نقش العُقلة، الذي ذكر قريشاً ضمن وفود كانت في اليمن في أواخر القرن الميلادي الثالث^(١)، يُعزّز الاشتباه في أن قريشاً كانت حتى من القبائل التي عملت على تسيير قوافل اللبان لحساب السبئيين والحميريين فيما بعد. وقد لا يكون استيلاؤها على مكة مجرد غزوة بدوية غير محسوبة، خصوصاً إذا نُظر إلى هذا الاستيلاء ضمن إطار الصراع الذي كان شديداً في أوائل القرن الخامس في اليمن حين استولى اليهود الحميريون على الحكم وطرّدوا الأحباش. وقد سبقت الإشارة إلى «قيصر» ومعاونته قُصياً. كانت قريش على ما يبدو إذن، متمرسّة في التجارة منذ زمن أبعد من المُعتقد. فلما استقرّت في مكة في مطلع القرن الخامس على الأرجح، لم تكن تفتقر إلى الخبرة في تنظيم القوافل، وإن كان تنظيم القوافل لا يعني بالضرورة تسيير التجارة الدولية. فقد يكون عمل القوافل محصوراً في التجارة المحليّة والانتقال من سوق إلى سوق للبيع والشراء. ويمكن أن تكون قريش قد عملت بواسطة قوافلها، في نطاق التجارة المحلية، وربما شاركت كذلك في نقل اللبان اليمني إلى الأسواق البيزنطية وحتى الفارسية، قبل أن يعقد القرشيون عهود الإيلاف في أوائل القرن السادس

(١) Crone: op.cit., p. 169. وقد استبعد جاك ريكمنس أن يكون أحد الوفود المذكورة هو وفد قريش، رغم وجود وفد تدمري. وتدمر مدينة عربية تجارية أخرى، ولذا فالشبهة بالحضور القرشي تتعزّز.

ويوسّعوا نشاطهم التجاري ليشمل حصة كبيرة من تجارة الشرق الدولية كلها.

كان تنظيم القوافل في موافيتها المعلومة يحدث حُمّى في الجمهور المتجمّع في ساحات مكة وجوارها. وكانت قافلة البضاعة تُدعى لطيمة، وقافلة الاطعمة تُدعى ركاباً. وأما رحيلها وعودتها فكانا حدثين يهتم لهما الناس، لأن قُطان مكة كانوا جميعاً منخرطين على نحوٍ أو آخر بتجارة القوافل. بل إن القافلة كانت تظل على اتصال بمكة طول الطريق، بواسطة بريد بدوي لا ينقطع رواحه وُعْدُوهُ^(١). وكانت القوافل إلى الشام تُلزم أسواقاً رسمية معينة في بعض المدن، إذ كانت الإدارة البيزنطية تجبر كل التجارة الأجنبية على ارتياد الأمكنة المخصصة بالغرض، لتظل قيد الرقابة المنشودة. وكان غرض هذه الرقابة جباية الضرائب وحصر التجارة بأصحاب الامتياز فيها. وكان المراقبون البيزنطيون كذلك يلحظون حركة الأغراب للاشتباه في أن بعضهم كانوا جواسيس. ولم تكن بيزنطة تمتنع عن دسّ عيونها بين التجار لترصد أخبار الساسانيين، حتى ذكر هذا الأمر ضمن بنود اتفاق السلام بين الفرس وبيزنطة سنة ٥٦١ م.^(٢) أما عودة القوافل فكانت أشبه بالاحتفال، إذ تلوح بشائر الظعن في الأفق وتتقدم الجمال متهادية في اتجاه المدينة وعلى ظهر كل منها نحو مائتي كيلوغرام من البضاعة، وكانت تلك هي الحمولة المعتادة في الرحلات البعيدة. ونادراً ما كان الرجال يصلون أصحاء، بل متعبين ومنهكين وقد لُوّحت وجوههم الشمس وشقّق العطش شفاههم^(٣). وكان وصول السفن من بحارها البعيدة شبيهاً بوصول القوافل، إذ كانت سلامة العودة نادرة وعزيزة المنال. وكان النساء والرجال يتجمعون لاستقبال التجار العائدين، فتأخذهم حماسة ترقب الأرباح. فإذا حط الرجال غاصت مكة في ضجيج المحاسبة والمساومة والأخذ والعطاء، وارتفع رنين النقود والسيئات من كل وزن ومعدن تتبادلها أيدي العارفين المتمرسين، وذلك ما وصفه سترابو حين قال «إن

(١) Encyclopaedia of Islam, first edition, Leiden and London (1913 - 1934), vol.III, p. 440

وانظر أيضاً Haji Hassan: op.cit., pp. 78, 79

(٢) Haji Hassan: ibid., p. 79

(٣) Husein: op.cit., p. 116

كل عربي وسيطاً أو تاجر^(١). في مثل هذه الأوقات كانت مكة تمكس البضاعة المارة عبرها أو تعشرها، إذا كانت لتاجر أجنبي، أو لتاجر لم يحط بجوار لدى عين من أعيان المدينة، أو بطن من بطونها. وكان هؤلاء التجار يدفعون كذلك رسوماً مختلفة لدخول المدينة والتجوال فيها والمكوث وعبور بضائعهم والاتجار والمغادرة. ولم تكن تلك ضرائب تعسف، بل كانت معاملة بمثل ما يلقاه التجار المكيون في بلاد هؤلاء. وقد طوّر التجار المكيون أعرافاً غير مكتوبة للتعامل فيما بينهم، أو بينهم وبين المزارعين في يثرب مثلاً، فتحوّلت هذه الأعراف إلى قوانين استوحي بعض عناصرها من تشريعات البلدان المجاورة. وثمة من يعتقد أن البيع والشراء في مكة كان بدائياً، لكن هذا الاعتقاد غير صحيح، إذ كان التجار المكيون يستخدمون في تجارتهم الوثائق المكتوبة، خصوصاً من جرّاء احتكاكهم الدائم بالبلاد المجاورة، بعد نشوء الإيلاف. وقد اتخذوا عادة قيد حساباتهم، من الأسواق الفارسية والبيزنطية واليمينية. وكانت عادة استحضار شاهدين سابقة للإسلام، وكان التجار يتبعونها أسوة بما كان متبعاً في اليمن^(٢). وعرف التجار الصكوك يقيّدون فيها حساب تجارتهم وحقوقهم على غيرهم وحقوق غيرهم عليهم. ومما حُفظ لنا من هذه الصكوك ما ذكره ابن النديم في الفهرست أنه كان في خزانة المأمون كتاب خط في جلد أدم ذكر فيه «حق عبد المطلب بن هاشم من أهل مكة» على حميري من أهل صنعاء، «بألف درهم فضة كيلاً بالحديدة، ومتى دعاه بها أجابه»^(٣). وقد اشتهر عبد الله بن أبي ربيعة، والد الشاعر عمر بن أبي ربيعة، بالاتجار بالعطّر اليمني، وكان يبعث إلى أمه في مكة من هذا العطّر، وكانت تباعه نقداً أو ديناً، فإذا باعت ديناً كتبت مقدار الدين في كتاب^(٤).

(١) Strabo: the Geography, p. 355. وانظر أيضاً Rabbath: L'Orient Chrétien..., p. 172.

(٢) Haji Hassan: op.cit., pp. 80 - 83.

(٣) النديم، أبو الفرج محمد: الفهرست، طبعة رضا تجدد، طهران، ١٩٧١، ص ٨. وانظر أيضاً حمور: المرجع السابق، ص ٤٢.

(٤) الأغاني، ج ١، ص ٦٤ وما بعد. وأيضاً جواد علي: ج ٧، ص ٢٩٣. ودرادكة: المرجع السابق، ص ٥٦، ٥٧.

وقد دخلت التعبيرات التجارية إلى اللغة العربية في مكة، واستخدمت في الحياة اليومية، فمنها الرهن والصفقة والعهد والمكس والعمرى والرقيبي والمكسي^(١). والرهن ما وُضع عند الإنسان مما يتوب مناب ما أخذ منه. والصفقة الضرب باليد على اليد عند وجوب البيع. والعهد كتاب الحلف والشراء وهو أشبه بكفالة البضاعة. والمكس دراهم كانت تؤخذ من البائع في الأسواق. والعمرى أن يدفع الرجل إلى أخيه داراً فيقول: هذه لك عُمرى أو عُمرى، أيّنا مات دُفعت الدار إلى أهله. والرقيبي: أن يقول إن ميتاً قبلك فهي لك وإن ميت قبلي فهي لي. والمكسي: أن يبيع الرجل الشيء ولا يضمن عهده.

واشتهر في أن فعل دُلس الذي يفيد نوعاً من الغش في البضاعة التي تُباع، مُتخذ من كلمة لاتينية^(٢)، ولو صحّ ذلك لكان الأرجح أن التجار العرب سمعوا العبارة في أسواقهم البيزنطية، فاقبضوها.

ويبدو أن كثيراً من التجارة المكية كان جماعياً، يشترك فيه الأغنياء ومتوسطو الحال وحتى الفقراء، حتى أضحت هذه التجارة همّاً مشتركاً يتعاون في حمل أعبائه المالية وغير المالية كثرة من الناس، ولذا استطاعت قريش أن تسيّر قوافل كبيرة الحجم كثيرة الإبل. ولولا التجارة الجماعية لربما عجزت هذه المدينة الصحراوية عن تنظيم رحلة الشتاء والصيف، وأخفقت في حماية مصالحها التي تشعبت من جرّاء هذه الرحلة^(٣). فإلى جانب المصرفي، الفاحش الغني والممول الثري اللذين كانا يخاطران بمالهما على نطاق واسع، في هذا العمل التجاري المعقد، الذي كان يقتضي معرفة بالمخاطر والأسعار الدولية وميزان العرض والطلب، وقدرة على المرونة المالية، كان صفار التجار وأصحاب الحوانيت والناس غير الميسورين يجربون حظهم أيضاً ويسهمون ببعض ما أمكنهم من

(١) لسان العرب: المواد: رهن وصفق وعهد ومكس وعمر ورقب وملس. وكذلك Haji Hassan: op.cit., pp. 82, 83.

(٢) عن استخدام الدنانير والذهب في تجارة قريش أنظر الواقدي: المغازي، طبعة جونز، ص ٢٧. وجواد علي: ج ٤، ص ٦٩، ج ٧، ص ٢٩٠. وأيضاً Haji Hassan: op.cit., pp. 76, 80. والشريف: المرجع السابق، ص ٢١٢.

مال. وكان الحرفيون من حدادين ونساجين يشتركون أيضاً في التجارة. وكان الشريك المضارب غير نادر الوجود في مكة، حتى أمكن الاشتراك في التجارة بما لا يزيد على نصف دينار، وكان يُسمى النش. ومن لم يشترك بماله اشتغل دليلاً للقوافل أو سائفاً أو خفياً يرد أذى الغزاة. وانخرطت المرأة في التجارة أيضاً. وقد ذُكر من نساء قريش اللواتي تاجرن، خديجة بنت خويلد زوج الرسول، وأسماء بنت مخزبة أم أبي جهل المخزومي الشهيرة بالحنظلية، وكانت تاجر بالعمرة اليمانية، وهند بنت عتبة زوج أبي سفيان الذي كان يبيع تجارته لبني كلب في الشام^(١). وقد شبه لامنس هذه التجارة الجماعية بالجدول الصغيرة التي تصب في الأنهر الكبيرة، ووصف تجمع صغار الممولين وتحلقهم بحماسة حول أبي سفيان لدى عودة لطيمته من الشام، وسدهم الطرق الضيقة حول دار الندوة حيث كان مجلس شيوخ مكة. فمن هذه الجموع كان العبد وغير الميسورين، الذين جاءوا قبل تفريغ حمولة الجمال يسألون عن مصير رأس مالهم الصغير ليتقاضوا حصتهم من الربح، وكانت نسبته في الغالب عالية^(٢).

ز- المال والصيرفة

تداول التجار المكيون الدينار الذهب البيزنطي والدرهم الفضة الفارسي والحميري، وأحضروا معهم هذه النقود إلى مكة. وكان تمييز هذه النقود يحتاج إلى خبراء متمرسين في معرفة العيار والوزن وما إلى ذلك. وكان الغش بالنقد ممكناً. والدينار الذهب كان هو العملة المعتمدة عند سكان الشام ومصر البيزنطيتين، ويسمى القرشون أهل الذهب. وكان العراق بلاد العملة الفضية، وأهله يسمون أهل الورق (أي الدراهم الفضة المضروبة). وكانت النقود في حقيقة الأمر راحة عند المكّين، أي انهم كانوا كثيراً ما يمتنون الصيرفة، فيستثمرون أموالاً في تنظيم القوافل الكبيرة بخاصة إلى الشام واليمن. وكانت في

(١) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ٢٠٣. والواقدي: المغازي، ص ٨٩. وانظر حمور: المرجع

السابق، ص ٢٠، وكذلك: Hajj Hassan: op.cit., pp. 77, 78.

(٢) Lammens: Les Grosses fortunes..., p. 27.

مكة بيوتات مال ومؤسسات مكوس. وكان الربا فاحشاً لكنه كان يُعد عملاً مقبولاً من أعمال إعارة رأس المال والتسليف. وكان التاجر يستطيع أن يدفع المال في مكة ليشتري بضاعة في بلاد بعيدة أو ليرسل بضاعة إلى بلاد بعيدة. وكان البعض يؤمن التجارة التي يعرف أنها ستجتاز طرقاً خطيرة. بل إن أعمال المقايضة على نطاق واسع كانت تُعقد على بضاعة التجارة الدولية^(١). وكان الربا والتأمين ممكنين لأن أرباح القوافل كانت كثيرة.

فمن ناحية، كانت نفقات القافلة لا تتعدى استئجار المطايا من جمال وخيول ودفع أجرة الخفر والعدة وبعض الضرائب والهدايا لزعماء القبائل على الطريق^(٢). وتذكر المصادر الإسلامية الأرباح الطائلة والمكاسب التي كانت تجنيها التجارة المكية. فكان الصرافون يعدون بمكسب يبلغ خمسين في المائة من رأس المال، لترغب التجار في الاقتراض. ولم يكن في هذا مبالغة في الواقع. إذ يؤكد لامنس أن نسبة الخمسين في المائة كانت معتادة، بل شرعية لدى السلطة الرسمية في إيطالية وفلاندرية، وهما البلدان الأولان في التجارة الأوروبية في القرنين الميلاديين الثالث عشر والرابع عشر. ويرهن لامنس نسبة الأرباح العالية، بالمخاطر العظيمة التي كان يلقاها التجار في الصحراء وما كانوا يؤدونه من إتاوات للقبائل لدفع هذه المخاطر. ويستنتج أن المنافسة بين الصيارفة لكسب المقترضين من التجار كانت منافسة شديدة. فإذا كانت الضرائب البيزنطية في سنة من السنوات معقولة، ونجت القافلة من صعاليك الطريق الصحراوية، فإن المكسب قد يبلغ مائة في المائة. وقد بلغ في أحيان مائتين في المائة على ما جاء في النصوص: لكل دينار ديناران^(٣). وكان البلاذري يُعد بلوغ المكسب مائة في المائة أمراً اعتيادياً إذ يقول: «وكانوا يربحون للدينار ديناراً»^(٤).

(١) الأغاني، ج ١، ص ٦٤، ٦٥. والواقدي: المغازي، ص ٢٧، ٢٨. وانظر أيضاً: Hajj Hassan: op.cit., pp. 76, 77. والشريف: المرجع السابق، ص ٢١٢، ٢١٥.

(٢) Hajj Hassan: op. cit., p. 79.

(٣) Rodinson: op.cit., p. 35. وكذلك للمقارنة: Lammens: Les Grosses fortunes..., pp. 20, 27.

(٤) البلاذري: الأنساب، تحقيق حميد الله، ص ٣١٢.

وكانت المضاربات مفرطة على أسعار الصرف وعلى حمولة قافلة لم تصل أو حصاد لم ينضج أو نتاج لا يزال في بطون النوق بعد. وقد تشكّلت الشركات الوهمية فمقدت عقود البيع أو استلّفت المال للتجارة، فافلست بيوتات وأغتنت أخرى بين ليلة وضحاها، ونحا صغار التجار نحو كبارهم في المضاربة، ولم تخل الصفقات أحياناً من غشٍ رذله القرآن الكريم^(١).

وقد أمكن تقدير قيمة بعض اللطائم بفضل ما رواه الواقدي في مغازيه عن غزوة بدر الكبرى التي كان سببها عودة قافلة تجارة مكيّة من الشام ومرورها إلى الغرب من يثرب. إذ كان ما استثمره أبو أحيحة بن سعيد بن العاص بن أمية وحده في هذه اللطيمة ثلاثين ألف دينار، قدّر لامنس قيمتها بنحو مليون فرنك فرنسي سنة ١٩١٧^(٢)، فيما استثمر مصرف مكّي أموي آخر يملكه أبو سفيان عشرة آلاف دينار، إضافة إلى ما ساهم به صغار المساهمين في اللطيمة، والبيوتات المالية المكيّة الأخرى. ولم تكن تلك سوى قافلة واحدة من قوافل الشام واليمن والعراق والحبشة. وهذا الأمر يدعو إلى تخيل الثروات الضخمة التي كان يملكها المكيّون ويستثمرونها في تجارتهم. وكان آل مخزوم القرشيّون أغني أغنياء مكة، وكانوا يفوقون الأمويين ثراءً. ولم تكن مساهمتهم المالية في لطائم الشام سوى جزء من ثروتهم، إذ لم يكن متوقعاً أن يعمد تجار متمرّسون عالمون بمخاطر الصحراء إلى استثمار رأس مالهم كله في رحلة تجارية واحدة^(٣).

وكان عبد الله بن جُدعان التيمي القرشي قد كسب ثروات طائلة من تجارة الرقيق الحبشي، فكان يشرب في كأس ذهبية ولقّب حاسي الذهب^(٤). وكانت

(١) سورة المطففين (١-٦) وسورة الأنعام (١٥٢) وسورة الأعراف (٨٥) وسورة الأسراء (١٨١) وسورة هود (٨٤، ٨٥). وانظر Haji Hassan: op.cit., p. 77. وكذلك الشريف: المرجع السابق، ص ٢١٤.

(٢) الواقدي: المغازي، ص ٢٧. وكذلك: Lammens: Les Grosses fortunes..., p. 19.
(٣) الأغاني (طبعة بولاق - ١٢٨٥ هـ - ج ٨، ص ٢-٤، ولم نثر على هذا في طبعة دار الكتب. وانظر الأندلسي: نشوة...، ص ٣٥٤. وكذلك Lammens: ibid., pp. 19, 20, 23. والشريف: ص ٢١٣.

تجارة الرقيق مجزية، وكان كثير من المكيين يتعاطونها. وكان من المخزوميين المشهورين بالشراء الوليد بن المغيرة وعبد الله والد عمر بن أبي ربيعة الشاعر. وقد لقّب عبد الله عدل قريش، وكان متجره إلى اليمن. وقد بلغ المخزوميون من الشراء ما مكّنهم بلا عناء من إكساء الكعبة كل سنة، بعدما كانت قريش كلها تشترك في الكسوة. واشتبه لامنس في أن المخزوميين الذين كانوا يتاجرون بالقماش اليمني الفاخر إنما كانوا بذلك يروّجون بضاعتهم لدى العرب الذين كانوا يأتون في كل موسم حج «يتعلقون بأستار الكعبة». بل إن بعض المصادر نسب إلى أبناء عبد مناف نصيباً جيداً من الثراء، إذ ذكرت أن جد الرسول عبد المطلب بن هاشم كُنّ لدى موته في حُلل قيمتها ألف مثقال من الذهب وطُرح عليه المسك حتى ستره^(١). إلا أن هذا المقدار من الثراء ليس مما عُهد في جد الرسول، لأن عبد المطلب مات وكان الرسول في الثامنة من عمره، ولم يكن من الفقراء، ولكنه لم يكن أيضاً من الأغنياء. وهذا، وإن درج احتمالاً في باب رغبة المؤرخين الإسلاميين في تمجيد جد الرسول، لا ينفي ما ذكر في المصادر عن ثروات المكيين الآخرين، خصوصاً أولئك الذين تزعموا المشركين من آل مخزوم وآل أمية، قبل الإسلام. لقد كان واضحاً أن أعمالاً مالية معقدة جداً كانت تُدار من مكة، يديرها مصرفيون أكفأ متمرّسون في استثمار الأرضة والمضاربة، يعملون في منطقة تمتد من عدن إلى غزّة ودمشق. وقد نسجوا حول التجارة المكيّة شبكة ذرّج في خيوطها جميع المكيين وعدد كبير من أعيان القبائل المجاورة أيضاً. وتدل لغة القرآن الكريم على أن الخطاب لم يكن موجّهاً إلى جهلة هائمين في صحراء، بل إلى جماعة عالمية بفنون التجارة وإدارة المال^(٢).

ح - الإبل وطرق الصحراء

استطاع عثمان بن عفّان وحده أن يُمدّ جيش المسلمين في غزوة تبوك

(١) الأغاني: ج ١، ص ٦٤. وكذلك Lammens: op.cit., p. 25. والشريف: ص ٢١٣.
(٢) عن الألفاظ المتعلقة بالتجارة في القرآن. انظر: هداية الرحمن للألفاظ وآيات القرآن، طعة محمد صالح البنداق، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨١. انظر Montgomery-Watt: Muhammad at Mecca..., p. 3.

بتسعمائة وخمسين بعبيراً وخمسين فرساً. وهذا يدل على نماء الثروة الحيوانية في الحجاز في ذلك الزمن، الذي لم يكن بعيداً بعد عن الجاهلية. وكان ما يملكه أهل يثرب المسلمون من الإبل والدواب والخيول قليلاً بالقياس إلى ما كانت تملكه مكة أو القبائل البدوية. وعلى سبيل المقارنة، كانت الإبل التي خرج عليها المسلمون يوم بدر سبعين بعبيراً يعتقبها ثلاثمائة رجل، بينما خرجت قريش ومعها سبعمائة بعبير يعتقبها تسعمائة وخمسون رجلاً. وكانت خيول المسلمين فرسين، بينما كانت خيول المكيين مائة فرس^(١). وقلة الإبل في يثرب منطقية في الواقع، لأن المدينة هي أكبر مجتمع زراعي في الحجاز. واعتمادها على الزراعة يخفف بالتأكيد اعتمادها على تربية المواشي والإبل، وإن كان لا ينفيه تماماً. ولذا استطاع عبد الرحمن بن عوف، وهو ثري آخر من أثرياء الصحابة، أن يجهز سبعمائة ناقة، ولما يمض على الهجرة سوى سنوات^(٢). فإذا قيل إن تجار مكة، بما اجتمع لهم من إبل بعد تمرس طويل في مهنة تنظيم القوافل، وبما اجتمع لديهم من إبل القبائل الأخرى المشاركة في التجارة بموجب الإيلاف، قد سبّروا قوافل بلغ تعدادها ألفين وخمسمائة بعبير، فإن العدد لا يبدو غريباً ولا مضحكاً^(٣). وذكر الطبري عن قوافل كان تعدادها ألفاً وخمسمائة بعبير^(٤). وكان عدد التجار والأدلاء والخفراء يراوح بين مائة شخص وثلاثمائة شخص، وقد يفوق ذلك العدد. فإذا قُدِّر وزن حمولة كل بعبير بنحو مائتي كيلوغرام في الرحلات البعيدة، على ما أسلفنا، لبلغت حمولة قافلة كبيرة تضم ألفي بعبير، نحواً من أربعمائة طن من البضاعة الثمينة وهذا قليل إذا اقتصرنا رحلة الصيف الشامية مثلاً على قافلة واحدة، وهو أمر غير محتمل. ولذا نعتقد أن رحلة الشتاء والصيف لم تكن متعددة القوافل في وجهة سيرها فقط، بل كانت متعددة القوافل

(١) الواقدي: المغازي، ص ٢٣، ٢٤، ٢٦، ٣٩. وسيرة ابن هشام: ج ٢، ص ٢٥٣. وانظر أيضاً الشريف: ص ٣٦٢، ٣٦٣.

(٢) Lammens: Les Croisades fortunes..., p. 22

(٣) Haji Hassan: op.cit., p. 80. وكذلك الشريف: ص ٢٠٥.

(٤) الطبري: التاريخ...، ج ٢، ص ٤٢٢، ٤٢٥. وكذلك حمّور: ص ٢٠.

إلى الوجهة الواحدة في السنة ذاتها أيضاً. وليس قوله تعالى: ﴿رَحَلْنَا الشَّاءَ وَالصَّنِيفَ﴾، سوى ذكر للجمع في صيغة المفرد، على ما نظن. ولا بد أن رحلة الصيف إلى الشام كانت تسير قوافل عديدة. وكذا رحلة الشتاء إلى اليمن وغيرها.

أما الطرق التي كانت تتبعها القوافل عبر جزيرة العرب في جميع الاتجاهات التي كانت سالكة قبل الإسلام، فقد أجملها أطلس تاريخ الإسلام في تسع هي:

١ - الطريق التهامية وهي الطريق الساحلية الموازية تقريباً لساحل البحر الأحمر، من العقبة إلى عدن. وتصل إلى غزّة وتمرّ بأيلة ومذنب شُغيب والجحفة ومكة والليث والقنفذة والحديدة ومخا وعدن.

٢ - الطريق من مكة إلى فلسطين، وقد سمّاها مؤنس «التوكية»، وتمرّ قريباً من المدينة المنورة، وكان المسافرون يسلكونها للسفر من مكة إلى المدينة قبلاد الشام أحياناً. وهي تمر في مكة وخيبر وتيماء وتعبّر غرب دومة الجندل إلى وادي سرحان، حتى بُصرى.

٣ - طريق الجاذة، من مكة إلى المدينة، وهي في الحقيقة مجموعة طرق كثيرة تمرّ في الوديان وكلها توازي طريق الجاذة. وقد تُسمّى «غرب التوكية»، وهي تمرّ بديار أسلم ثم بين سُلَيم ومزينة، وتدخل المدينة من الجانب الجنوبي الغربي.

٤ - الطريق الجانبية من المدينة إلى مكة، وهي تسير غرب طريق الجاذة أي قريباً من ساحل البحر الأحمر، وتساير الجاذة من المدينة إلى الروبة ثم تنفصل عنها وتمرّ في إقليم العرج ثم في إقليم الفرع حتى تصل إلى الحُحفة، وهناك تلتقي من جديد مع طريق الجاذة إلى مكة، في ديار أسلم.

٥ - الطريق من المدينة إلى العراق، وهي تمرّ في فُذَك ونحناز ديار غطفان وطيء وأسَد وتلتقي بطريق أيلة - الأهواز، شرق دومة الجندل.

٦ - الطريق الداخلية بين مكة وعدن، وهي تمرّ بمكة والطائف وحُباشة

ونجران وصعدة وصنعاء وتعز والمعافر، حتى تصل إلى عدن. وهي طريق جبليّة.

٧- الطريق النجدية وهي تبدأ في مكة وتمرّ بوجرة ومران وخربة وجديلة وطلخفة والنباج والحفير وكاظمة وتصل إلى الأبلّة في جنوبي العراق. وقد عُرفت فيما بعد الإسلام بطريق زبيدة على اسم زوجة الخليفة هارون الرشيد التي عُنيّت بها وعمّرتها بحفر الآبار وإنشاء المحطّات لراحة المسافرين. وكانت تتفرّع منها إلى الشمال من فيد طريق إلى جنوبيّ الشام وتسمّى الحوشية.

٨- طريق الأسوار وهي طريق طويلة تبدأ من هجر وتسير بحذاء ساحل الخليج مارةً بالمشقرّ حتى تصل إلى مسقط وقریات في عُمان، ثم تسير جنوبي الجزيرة حتى تصل إلى عدن. والمدن والبلدات التي تمر بها هي: الهفوف وهجر والمشقرّ وبيونة وصحار والخابورة ومطرح ومسقط وقریات وراس مدركة وريسوت وظفار ومهرة وتاريم وشباب وشبوة ومارب ثم عدن.

٩- طرق أخرى كثيرة داخلية أو ساحلية لها أسماء متعددة، أهمّها الطريق بين مكة ومران واليمامة والقطيف^(١).

(١) مؤنس، حسين: أطلس تاريخ الإسلام، دار الزهراء للإعلام العربي: القاهرة، ١٩٨٧. ص ٩٩. ويتفق وصف هذه الطرق، والخريقتان ٣٥ و٣٦، ص ٥٩ و٦٠ في هذا الأطلس، مع المصادر على النحو التالي:

١- الطريق التهامية: تاج العروس للزبيدي، مواد نيك وجار ونيع. وكتاب: الخراج لقدامة بن جعفر، تحقيق دي خويه، لندن، ١٨٨٩، ص ١٩١.

٢- الطريق «التبركية» (أطلس، خريطة ٣٦) تنطبق فيما بين المدينة ومكة على تاج العروس، مادتي ريد وفعا، وقدامة ص ١٨٦، والمسالك والممالك لابن خرداذبه، تحقيق دي خويه، لندن، ١٨٨٩، ص ١٣٢.

٣- طريق الجادة: ينطبق وصفها على ما جاء في رحلة ابن بطوطة تماماً، في وصفه مراحل الطريق من تبوك إلى الحجر والملا والمدينة والروحاء والصفراء وبدر ورايح وخلص وعسفان ووطن مر ومكة. رحلة ابن بطوطة، دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب المصري، بلا تاريخ، ص ٨٧-٨٩. وكذلك ينطبق على ما جاء في طريق عودته ص ١١٧.

٤- انطبقت خريطة الطريق الجانبية هذه تماماً مع ما جاء في: صفة بلاد اليمن ومكة وبعض

وتُعد الطرق إلى الشام قطعاً أهم طرق التجارة المكيّة في القرن السادس، لأنها كانت في الغالب الطرق التي كانت تسوق معظم تجارة الشرق التي تستوردها بيزنطة. وكانت معظم القوافل تدخل الأراضي «البيزنطية» في أيلة عند رأس خليج العقبة، حيث نهاية الطريق من البحر الأحمر إلى فلسطين. لكن بعض القوافل كانت تواصل سيرها إلى غزة حيث كانت البضاعة الشرقية تتخذ طريقها إلى موانئ البحر المتوسط الأخرى. وكانت قوافل أخرى تقصد بصرى حيث كان التجار المكيّون يسلمون بضاعتهم لمشتريين رسميين تعيّنهم الدولة البيزنطية. وكانت المدن الثلاث: أيلة وغزة وبصرى هي الأسواق الكبرى للتجارة المكيّة^(١).

أما سرعة القوافل على طرق الصحراء فإن في الإمكان احتسابها، إذ يقول

= الحجاز لابن المجاور، استشهد جواد علي: ج ٧، ص ٣٣١ وما بعد.

٥- طريق المدينة إلى العراق هذه تنطبق مع المسالك... ص ١٢٥ إلى ١٢٨، في وصف ابن خرداذبه لطريق تمر في أسد وطى... وكذلك قدامة، ص ١٨٦.

٧- يزواج مؤنس في وصفه هذه الطريق، طريقين: النجدية من الأبلّة إلى مران، وثانية من مران إلى اليمامة. وبذلك يتفق هذا الوصف مع وصف ابن خرداذبه لطريق من الأبلّة إلى اليمامة: ص ١٥١. انظر أيضاً بلاد العرب للحسن بن عبد الله الأصفهاني، تحقيق حمد الجاسر وصالح العلي، الرياض، ١٩٦٨، ص ٣٧١. وكذلك تاج العروس، مواد نجش وحفر وخرج ونسج ونيج. والمسالك... ص ١٤٦ وما بعد. وقدامة، ص ١٩٠.

٩- أهم الطرق الأخرى التي جاءت في خريطة الأطلس ٣٥ (ص ٥٩)، طريق شامية، تربط تبوك بالمدينة عبر السويداء ووادي القرى والحجر. وينطبق وصفها على ما جاء في: تاج العروس، مواد سرغ وجن وحجر. وبلاد العرب، ص ٣٩٥-٣٩٧، ٤١٣، ٤١٤. والطبري، المصدر السابق، طبعة دار المعارف، ج ٣، ص ١٠٠ وما بعد.

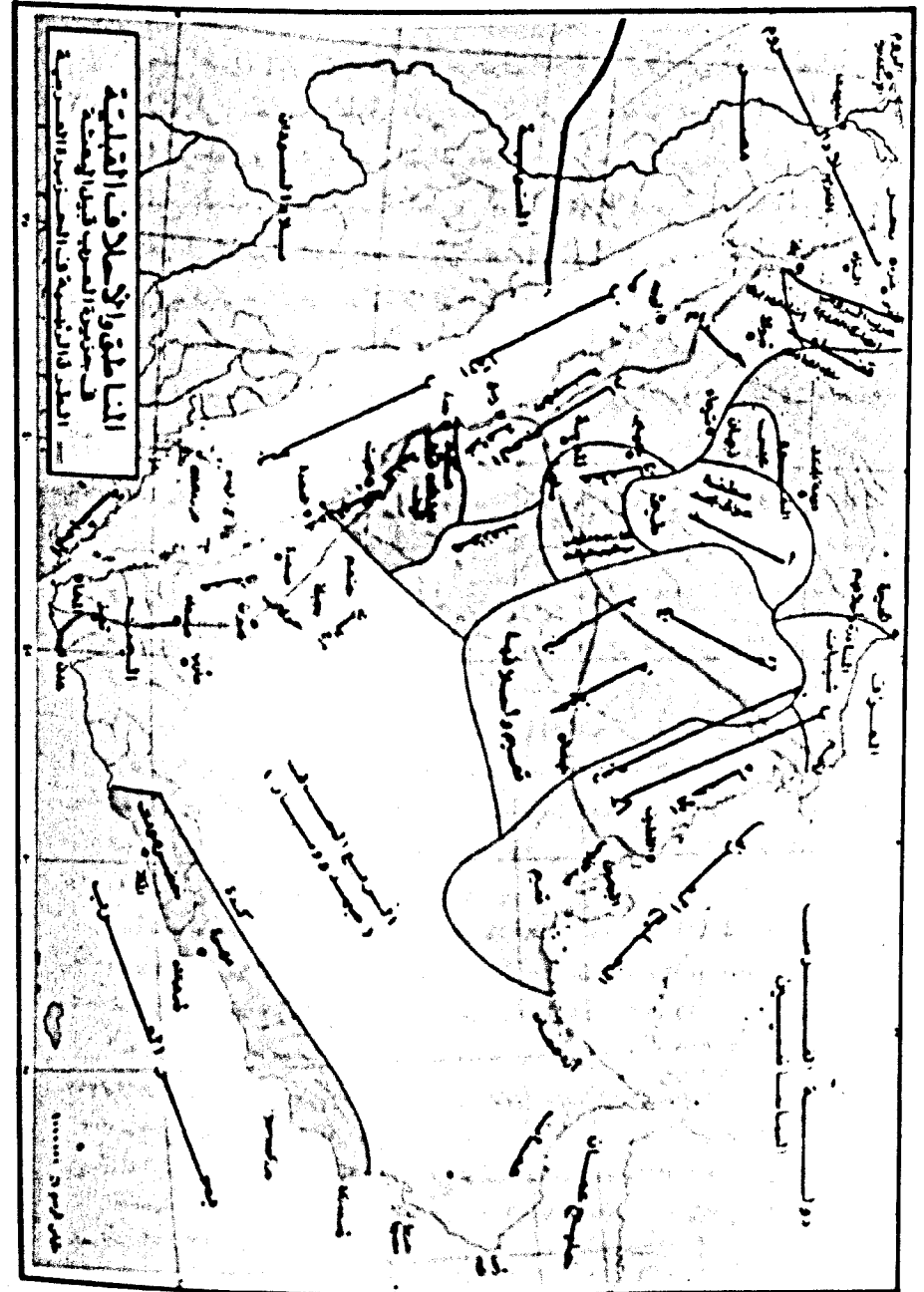
(١) قول البغدادي في: المحرّ، ص ١٦٢: «فكان متجر هاشم إلى الشام فهلك بغزة، وقول ابن هشام في: سيرة النبي، ج ١، ص ١٩٤: «إن أبا طالب خرج في ركب تاجراً إلى الشام... فلما نزل الركب بصرى»، يدلان على أن قوافل قريش قصدت هذه الأسواق الكبرى في البلاد التي تحكمها بيزنطة. انظر أيضاً: Haji Hassan: op.cit., pp. 79, 80. والأفغاني: أسواق... ص ١٦، ٢٢، ٣١٤.

حميد الله إن رحلة الذهاب من مكة إلى يثرب استغرقت وقت مُهاجر النبي اثني عشر يوماً^(١). ويقول ابن هشام في السيرة: فلما دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ذو القعدة تعهّز للحج وأمر الناس بالجهل له. قال [ابن إسحاق]: فحدثني عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه القاسم بن محمد عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحج لخمس ليلٍ يقين من ذي القعدة^(٢). ولما كان الطواف بالبيت لتسع مضين من ذي الجبّة، فإن قول حميد الله إن المسافة بين المدينة ومكة تستغرق اثني عشر يوماً هو قول مقبول.

إن المسافة بين المدينتين تبلغ نحو أربعمئة كيلومتر، وبذا يبلغ معدل ما يجتازه الجمل في اليوم على هذا السؤال. ٤٠٠ كلم: ١٢ = ٣٣.٣ كلم. وفي تقدير آخر لسرعة سير النبي إلى يثرب من مكة، قال ابن الكلبي: «خرج [النبي] من الغار يوم الإثنين أول يوم من ربيع الأول، ودخل المدينة يوم الجمعة لثنتي عشرة منه، وكانت بيعة العبة أوسط أيام التشرية». وهذا تأكيد آخر للقول إن المسافة بين المدينتين تستغرق اثني عشر يوماً. وقد اختلفت الآراء في تاريخ مغادرة مكة والوصول إلى يثرب، لكن الاختلاف غير مهم، لأن ما يهمنا في هذا المقام هو سرعة الجمل في الصحراء، فأياً كان تاريخ المغادرة والوصول فإن ابن الكلبي كان يعلم قطعاً أن المسافة تستغرق اثني عشر يوماً في أمة حال. وثمة تقدير ثانٍ لسرعة الجمل في الصحراء يؤيد هذا، إذ يقول حميد الله في وصفه لأسواق العرب، إن زوّار المواسم كانوا يغادرون المشفر في لول رجب ويصلون إلى صحار في العشرين منه. وفي خريطة أطلس تاريخ الإسلام (رقم ٣٥) تُقدّر هذه المسافة بنحو ٧٠٠ كيلومتر، وسرعة سير الجمل في اليوم تبلغ إذن ٧٠٠: ٢٠ = ٣٥ كيلومتراً. وهذا تقدير قريب جداً مما سلف. ويقول مؤنس في الأطلس إن سير الإبل تُقدّر سرعته بأربعة كيلومترات في الساعة. فإذا سارت

(١) Hamidullah Les Voyages du Prophète... p. 222

(٢) سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ٢٧٢.



● خريطة ٤٩ - ص ٧٢ (من أطلس تاريخ الإسلام).

الإبل ثمانى ساعات أو تسع ساعات في اليوم، فإنها تسير ما يراوح بين ٣٢ كيلومتراً و٣٦ كيلومتراً^(١).

وبناء على هذا فإن الطريق بين مكة وعدن تستغرق ما يقدر بما يلي:

- الطريق عبر الطائف ثم صنعاء ونحو ١٨٠٠ كلم: ٤٠=٣٥ يوماً.

- الطريق النهامية الساحلية عبر الحديدة ومخا ١٢٠٠ كلم: ٣٥=٣٤ يوماً تقريباً.

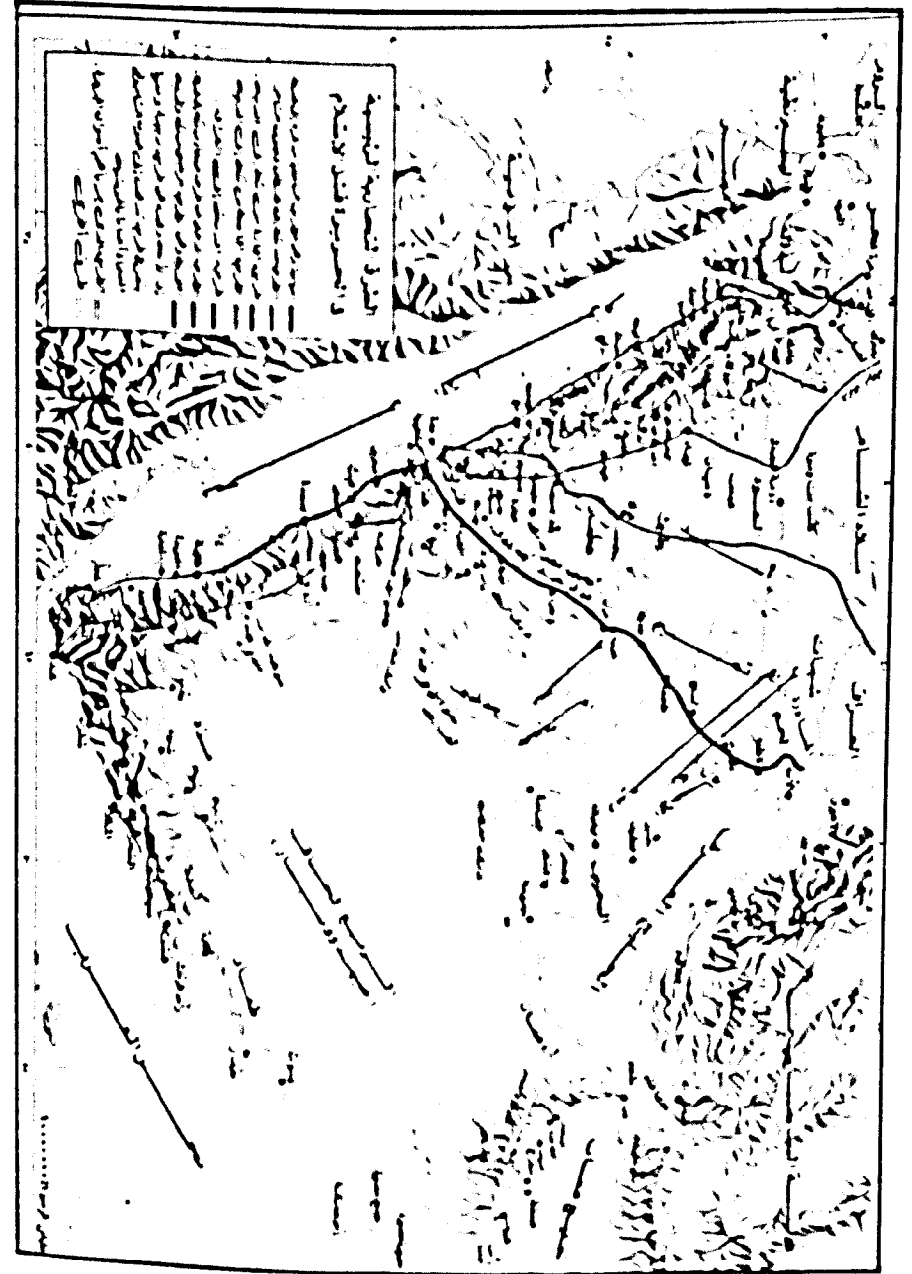
أما الطريق إلى الشام من مكة فإن حسابها هو الآتي: تتوقف القوافل في مسيرها من عدن إلى الشام نحواً من خمس وستين مرة، أي خمسة وستين يوماً. فإذا حسبنا ما تستغرقه الرحلة من عدن إلى مكة، فإن ما يبقى للمسافة بين مكة والشام يقرب من الشهر. وهذا في الواقع ما تؤيده المصادر الإسلامية عموماً. إذ تهكم المشركون بخبر الإسراء والمعراج، فقال أكثر الناس: هذا والله الأمر [العجيب] البين. والله إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مُدبرة وشهراً مُقبلة، أفليذهب ذلك محمد في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة؟^(٢) وقولهم لتطرد أي أنها تُسير تسييراً شديداً، وإنها لو سارت على هواها دون تطريد لاستغرقت وقتاً أطول من شهر قليلاً^(٣).

ط - هل سافر العرب بحراً؟

يعتقد سوموغي أن العرب انخرطوا في الملاحة بين جنوب الجزيرة العربية

(١) قول ابن الكلبي المذكور من: الروص الألف للسلمي، تحقيق عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب الحديثة، ج ٤، ص ٢٥٣. واطر المفري. إنتاج الأسماح، لجنة الترجمة والتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٤١، ج ١، ص ٤١، ٤٤. وكذلك مؤسس: اطلس تاريخ الإسلام، ص ٥٩ خريطة رقم ٣٥، وص ٧٦ خريطة رقم ٥٢. واطر أيضاً: Hamidullah: Les Voyages du Prophète..., ويقدر شارلرودوث معدل سرعة الإبل ما يراوح بين ١٦ و٢٠ ميلاً في اليوم (٢٦ إلى ٣٢ كيلومتراً في اليوم تقريباً). فيما تقدير ملاول ٢٥ إلى ٤٠ كيلومتراً في اليوم. وهذه كلها تقديرات قريبة من تقديري المذكور. Charlesworth, p. 22. و Planhol, p. 17.

(٢) سيرة ابن هشام، ج ٧، ص ٤. واطر ٥، ٧، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١١، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٦، ٣١٧، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٧٧، ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨٠، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٣، ٣٨٤، ٣٨٥، ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩٠، ٣٩١، ٣٩٢، ٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٥، ٣٩٦، ٣٩٧، ٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠١، ٤٠٢، ٤٠٣، ٤٠٤، ٤٠٥، ٤٠٦، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٠٩، ٤١٠، ٤١١، ٤١٢، ٤١٣، ٤١٤، ٤١٥، ٤١٦، ٤١٧، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢٠، ٤٢١، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٣٣، ٤٣٤، ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٣٨، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٥٩، ٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٢، ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٦٥، ٤٦٦، ٤٦٧، ٤٦٨، ٤٦٩، ٤٧٠، ٤٧١، ٤٧٢، ٤٧٣، ٤٧٤، ٤٧٥، ٤٧٦، ٤٧٧، ٤٧٨، ٤٧٩، ٤٨٠، ٤٨١، ٤٨٢، ٤٨٣، ٤٨٤، ٤٨٥، ٤٨٦، ٤٨٧، ٤٨٨، ٤٨٩، ٤٩٠، ٤٩١، ٤٩٢، ٤٩٣، ٤٩٤، ٤٩٥، ٤٩٦، ٤٩٧، ٤٩٨، ٤٩٩، ٥٠٠، ٥٠١، ٥٠٢، ٥٠٣، ٥٠٤، ٥٠٥، ٥٠٦، ٥٠٧، ٥٠٨، ٥٠٩، ٥١٠، ٥١١، ٥١٢، ٥١٣، ٥١٤، ٥١٥، ٥١٦، ٥١٧، ٥١٨، ٥١٩، ٥٢٠، ٥٢١، ٥٢٢، ٥٢٣، ٥٢٤، ٥٢٥، ٥٢٦، ٥٢٧، ٥٢٨، ٥٢٩، ٥٣٠، ٥٣١، ٥٣٢، ٥٣٣، ٥٣٤، ٥٣٥، ٥٣٦، ٥٣٧، ٥٣٨، ٥٣٩، ٥٤٠، ٥٤١، ٥٤٢، ٥٤٣، ٥٤٤، ٥٤٥، ٥٤٦، ٥٤٧، ٥٤٨، ٥٤٩، ٥٥٠، ٥٥١، ٥٥٢، ٥٥٣، ٥٥٤، ٥٥٥، ٥٥٦، ٥٥٧، ٥٥٨، ٥٥٩، ٥٦٠، ٥٦١، ٥٦٢، ٥٦٣، ٥٦٤، ٥٦٥، ٥٦٦، ٥٦٧، ٥٦٨، ٥٦٩، ٥٧٠، ٥٧١، ٥٧٢، ٥٧٣، ٥٧٤، ٥٧٥، ٥٧٦، ٥٧٧، ٥٧٨، ٥٧٩، ٥٨٠، ٥٨١، ٥٨٢، ٥٨٣، ٥٨٤، ٥٨٥، ٥٨٦، ٥٨٧، ٥٨٨، ٥٨٩، ٥٩٠، ٥٩١، ٥٩٢، ٥٩٣، ٥٩٤، ٥٩٥، ٥٩٦، ٥٩٧، ٥٩٨، ٥٩٩، ٦٠٠، ٦٠١، ٦٠٢، ٦٠٣، ٦٠٤، ٦٠٥، ٦٠٦، ٦٠٧، ٦٠٨، ٦٠٩، ٦١٠، ٦١١، ٦١٢، ٦١٣، ٦١٤، ٦١٥، ٦١٦، ٦١٧، ٦١٨، ٦١٩، ٦٢٠، ٦٢١، ٦٢٢، ٦٢٣، ٦٢٤، ٦٢٥، ٦٢٦، ٦٢٧، ٦٢٨، ٦٢٩، ٦٣٠، ٦٣١، ٦٣٢، ٦٣٣، ٦٣٤، ٦٣٥، ٦٣٦، ٦٣٧، ٦٣٨، ٦٣٩، ٦٤٠، ٦٤١، ٦٤٢، ٦٤٣، ٦٤٤، ٦٤٥، ٦٤٦، ٦٤٧، ٦٤٨، ٦٤٩، ٦٥٠، ٦٥١، ٦٥٢، ٦٥٣، ٦٥٤، ٦٥٥، ٦٥٦، ٦٥٧، ٦٥٨، ٦٥٩، ٦٦٠، ٦٦١، ٦٦٢، ٦٦٣، ٦٦٤، ٦٦٥، ٦٦٦، ٦٦٧، ٦٦٨، ٦٦٩، ٦٧٠، ٦٧١، ٦٧٢، ٦٧٣، ٦٧٤، ٦٧٥، ٦٧٦، ٦٧٧، ٦٧٨، ٦٧٩، ٦٨٠، ٦٨١، ٦٨٢، ٦٨٣، ٦٨٤، ٦٨٥، ٦٨٦، ٦٨٧، ٦٨٨، ٦٨٩، ٦٩٠، ٦٩١، ٦٩٢، ٦٩٣، ٦٩٤، ٦٩٥، ٦٩٦، ٦٩٧، ٦٩٨، ٦٩٩، ٧٠٠، ٧٠١، ٧٠٢، ٧٠٣، ٧٠٤، ٧٠٥، ٧٠٦، ٧٠٧، ٧٠٨، ٧٠٩، ٧١٠، ٧١١، ٧١٢، ٧١٣، ٧١٤، ٧١٥، ٧١٦، ٧١٧، ٧١٨، ٧١٩، ٧٢٠، ٧٢١، ٧٢٢، ٧٢٣، ٧٢٤، ٧٢٥، ٧٢٦، ٧٢٧، ٧٢٨، ٧٢٩، ٧٣٠، ٧٣١، ٧٣٢، ٧٣٣، ٧٣٤، ٧٣٥، ٧٣٦، ٧٣٧، ٧٣٨، ٧٣٩، ٧٤٠، ٧٤١، ٧٤٢، ٧٤٣، ٧٤٤، ٧٤٥، ٧٤٦، ٧٤٧، ٧٤٨، ٧٤٩، ٧٥٠، ٧٥١، ٧٥٢، ٧٥٣، ٧٥٤، ٧٥٥، ٧٥٦، ٧٥٧، ٧٥٨، ٧٥٩، ٧٦٠، ٧٦١، ٧٦٢، ٧٦٣، ٧٦٤، ٧٦٥، ٧٦٦، ٧٦٧، ٧٦٨، ٧٦٩، ٧٧٠، ٧٧١، ٧٧٢، ٧٧٣، ٧٧٤، ٧٧٥، ٧٧٦، ٧٧٧، ٧٧٨، ٧٧٩، ٧٨٠، ٧٨١، ٧٨٢، ٧٨٣، ٧٨٤، ٧٨٥، ٧٨٦، ٧٨٧، ٧٨٨، ٧٨٩، ٧٩٠، ٧٩١، ٧٩٢، ٧٩٣، ٧٩٤، ٧٩٥، ٧٩٦، ٧٩٧، ٧٩٨، ٧٩٩، ٨٠٠، ٨٠١، ٨٠٢، ٨٠٣، ٨٠٤، ٨٠٥، ٨٠٦، ٨٠٧، ٨٠٨، ٨٠٩، ٨١٠، ٨١١، ٨١٢، ٨١٣، ٨١٤، ٨١٥، ٨١٦، ٨١٧، ٨١٨، ٨١٩، ٨٢٠، ٨٢١، ٨٢٢، ٨٢٣، ٨٢٤، ٨٢٥، ٨٢٦، ٨٢٧، ٨٢٨، ٨٢٩، ٨٣٠، ٨٣١، ٨٣٢، ٨٣٣، ٨٣٤، ٨٣٥، ٨٣٦، ٨٣٧، ٨٣٨، ٨٣٩، ٨٤٠، ٨٤١، ٨٤٢، ٨٤٣، ٨٤٤، ٨٤٥، ٨٤٦، ٨٤٧، ٨٤٨، ٨٤٩، ٨٥٠، ٨٥١، ٨٥٢، ٨٥٣، ٨٥٤، ٨٥٥، ٨٥٦، ٨٥٧، ٨٥٨، ٨٥٩، ٨٦٠، ٨٦١، ٨٦٢، ٨٦٣، ٨٦٤، ٨٦٥، ٨٦٦، ٨٦٧، ٨٦٨، ٨٦٩، ٨٧٠، ٨٧١، ٨٧٢، ٨٧٣، ٨٧٤، ٨٧٥، ٨٧٦، ٨٧٧، ٨٧٨، ٨٧٩، ٨٨٠، ٨٨١، ٨٨٢، ٨٨٣، ٨٨٤، ٨٨٥، ٨٨٦، ٨٨٧، ٨٨٨، ٨٨٩، ٨٩٠، ٨٩١، ٨٩٢، ٨٩٣، ٨٩٤، ٨٩٥، ٨٩٦، ٨٩٧، ٨٩٨، ٨٩٩، ٩٠٠، ٩٠١، ٩٠٢، ٩٠٣، ٩٠٤، ٩٠٥، ٩٠٦، ٩٠٧، ٩٠٨، ٩٠٩، ٩١٠، ٩١١، ٩١٢، ٩١٣، ٩١٤، ٩١٥، ٩١٦، ٩١٧، ٩١٨، ٩١٩، ٩٢٠، ٩٢١، ٩٢٢، ٩٢٣، ٩٢٤، ٩٢٥، ٩٢٦، ٩٢٧، ٩٢٨، ٩٢٩، ٩٣٠، ٩٣١، ٩٣٢، ٩٣٣، ٩٣٤، ٩٣٥، ٩٣٦، ٩٣٧، ٩٣٨، ٩٣٩، ٩٤٠، ٩٤١، ٩٤٢، ٩٤٣، ٩٤٤، ٩٤٥، ٩٤٦، ٩٤٧، ٩٤٨، ٩٤٩، ٩٥٠، ٩٥١، ٩٥٢، ٩٥٣، ٩٥٤، ٩٥٥، ٩٥٦، ٩٥٧، ٩٥٨، ٩٥٩، ٩٦٠، ٩٦١، ٩٦٢، ٩٦٣، ٩٦٤، ٩٦٥، ٩٦٦، ٩٦٧، ٩٦٨، ٩٦٩، ٩٧٠، ٩٧١، ٩٧٢، ٩٧٣، ٩٧٤، ٩٧٥، ٩٧٦، ٩٧٧، ٩٧٨، ٩٧٩، ٩٨٠، ٩٨١، ٩٨٢، ٩٨٣، ٩٨٤، ٩٨٥، ٩٨٦، ٩٨٧، ٩٨٨، ٩٨٩، ٩٩٠، ٩٩١، ٩٩٢، ٩٩٣، ٩٩٤، ٩٩٥، ٩٩٦، ٩٩٧، ٩٩٨، ٩٩٩، ١٠٠٠، ١٠٠١، ١٠٠٢، ١٠٠٣، ١٠٠٤، ١٠٠٥، ١٠٠٦، ١٠٠٧، ١٠٠٨، ١٠٠٩، ١٠١٠، ١٠١١، ١٠١٢، ١٠١٣، ١٠١٤، ١٠١٥، ١٠١٦، ١٠١٧، ١٠١٨، ١٠١٩، ١٠٢٠، ١٠٢١، ١٠٢٢، ١٠٢٣، ١٠٢٤، ١٠٢٥، ١٠٢٦، ١٠٢٧، ١٠٢٨، ١٠٢٩، ١٠٣٠، ١٠٣١، ١٠٣٢، ١٠٣٣، ١٠٣٤، ١٠٣٥، ١٠٣٦، ١٠٣٧، ١٠٣٨، ١٠٣٩، ١٠٤٠، ١٠٤١، ١٠٤٢، ١٠٤٣، ١٠٤٤، ١٠٤٥، ١٠٤٦، ١٠٤٧، ١٠٤٨، ١٠٤٩، ١٠٥٠، ١٠٥١، ١٠٥٢، ١٠٥٣، ١٠٥٤، ١٠٥٥، ١٠٥٦، ١٠٥٧، ١٠٥٨، ١٠٥٩، ١٠٦٠، ١٠٦١، ١٠٦٢، ١٠٦٣، ١٠٦٤، ١٠٦٥، ١٠٦٦، ١٠٦٧، ١٠٦٨، ١٠٦٩، ١٠٧٠، ١٠٧١، ١٠٧٢، ١٠٧٣، ١٠٧٤، ١٠٧٥، ١٠٧٦، ١٠٧٧، ١٠٧٨، ١٠٧٩، ١٠٨٠، ١٠٨١، ١٠٨٢، ١٠٨٣، ١٠٨٤، ١٠٨٥، ١٠٨٦، ١٠٨٧، ١٠٨٨، ١٠٨٩، ١٠٩٠، ١٠٩١، ١٠٩٢، ١٠٩٣، ١٠٩٤، ١٠٩٥، ١٠٩٦، ١٠٩٧، ١٠٩٨، ١٠٩٩، ١١٠٠، ١١٠١، ١١٠٢، ١١٠٣، ١١٠٤، ١١٠٥، ١١٠٦، ١١٠٧، ١١٠٨، ١١٠٩، ١١١٠، ١١١١، ١١١٢، ١١١٣، ١١١٤، ١١١٥، ١١١٦، ١١١٧، ١١١٨، ١١١٩، ١١٢٠، ١١٢١، ١١٢٢، ١١٢٣، ١١٢٤، ١١٢٥، ١١٢٦، ١١٢٧، ١١٢٨، ١١٢٩، ١١٣٠، ١١٣١، ١١٣٢، ١١٣٣، ١١٣٤، ١١٣٥، ١١٣٦، ١١٣٧، ١١٣٨، ١١٣٩، ١١٤٠، ١١٤١، ١١٤٢، ١١٤٣، ١١٤٤، ١١٤٥، ١١٤٦، ١١٤٧، ١١٤٨، ١١٤٩، ١١٥٠، ١١٥١، ١١٥٢، ١١٥٣، ١١٥٤، ١١٥٥، ١١٥٦، ١١٥٧، ١١٥٨، ١١٥٩، ١١٦٠، ١١٦١، ١١٦٢، ١١٦٣، ١١٦٤، ١١٦٥، ١١٦٦، ١١٦٧، ١١٦٨، ١١٦٩، ١١٧٠، ١١٧١، ١١٧٢، ١١٧٣، ١١٧٤، ١١٧٥، ١١٧٦، ١١٧٧، ١١٧٨، ١١٧٩، ١١٨٠، ١١٨١، ١١٨٢، ١١٨٣، ١١٨٤، ١١٨٥، ١١٨٦، ١١٨٧، ١١٨٨، ١١٨٩، ١١٩٠، ١١٩١، ١١٩٢، ١١٩٣، ١١٩٤، ١١٩٥، ١١٩٦، ١١٩٧، ١١٩٨، ١١٩٩، ١٢٠٠، ١٢٠١، ١٢٠٢، ١٢٠٣، ١٢٠٤، ١٢٠٥، ١٢٠٦، ١٢٠٧، ١٢٠٨، ١٢٠٩، ١٢١٠، ١٢١١، ١٢١٢، ١٢١٣، ١٢١٤، ١٢١٥، ١٢١٦، ١٢١٧، ١٢١٨، ١٢١٩، ١٢٢٠، ١٢٢١، ١٢٢٢، ١٢٢٣، ١٢٢٤، ١٢٢٥، ١٢٢٦، ١٢٢٧، ١٢٢٨، ١٢٢٩، ١٢٣٠، ١٢٣١، ١٢٣٢، ١٢٣٣، ١٢٣٤، ١٢٣٥، ١٢٣٦، ١٢٣٧، ١٢٣٨، ١٢٣٩، ١٢٤٠، ١٢٤١، ١٢٤٢، ١٢٤٣، ١٢٤٤، ١٢٤٥، ١٢٤٦، ١٢٤٧، ١٢٤٨، ١٢٤٩، ١٢٥٠، ١٢٥١، ١٢٥٢، ١٢٥٣، ١٢٥٤، ١٢٥٥، ١٢٥٦، ١٢٥٧، ١٢٥٨، ١٢٥٩، ١٢٦٠، ١٢٦١، ١٢٦٢، ١٢٦٣، ١٢٦٤، ١٢٦٥، ١٢٦٦، ١٢٦٧، ١٢٦٨، ١٢٦٩، ١٢٧٠، ١٢٧١، ١٢٧٢، ١٢٧٣، ١٢٧٤، ١٢٧٥، ١٢٧٦، ١٢٧٧، ١٢٧٨، ١٢٧٩، ١٢٨٠، ١٢٨١، ١٢٨٢، ١٢٨٣، ١٢٨٤، ١٢٨٥، ١٢٨٦، ١٢٨٧، ١٢٨٨، ١٢٨٩، ١٢٩٠، ١٢٩١، ١٢٩٢، ١٢٩٣، ١٢٩٤، ١٢٩٥، ١٢٩٦، ١٢٩٧، ١٢٩٨، ١٢٩٩، ١٣٠٠، ١٣٠١، ١٣٠٢، ١٣٠٣، ١٣٠٤، ١٣٠٥، ١٣٠٦، ١٣٠٧، ١٣٠٨، ١٣٠٩، ١٣١٠، ١٣١١، ١٣١٢، ١٣١٣، ١٣١٤، ١٣١٥، ١٣١٦، ١٣١٧، ١٣١٨، ١٣١٩، ١٣٢٠، ١٣٢١، ١٣٢٢، ١٣٢٣، ١٣٢٤، ١٣٢٥، ١٣٢٦، ١٣٢٧، ١٣٢٨، ١٣٢٩، ١٣٣٠، ١٣٣١، ١٣٣٢، ١٣٣٣، ١٣٣٤، ١٣٣٥، ١٣٣٦، ١٣٣٧، ١٣٣٨، ١٣٣٩، ١٣٤٠، ١٣٤١، ١٣٤٢، ١٣٤٣، ١٣٤٤، ١٣٤٥، ١٣٤٦، ١٣٤٧، ١٣٤٨، ١٣٤٩، ١٣٥٠، ١٣٥١، ١٣٥٢، ١٣٥٣، ١٣٥٤، ١٣٥٥، ١٣٥٦، ١٣٥٧، ١٣٥٨، ١٣٥٩، ١٣٦٠، ١٣٦١، ١٣٦٢، ١٣٦٣، ١٣٦٤، ١٣٦٥، ١٣٦٦، ١٣٦٧، ١٣٦٨، ١٣٦٩، ١٣٧٠، ١٣٧١



• خريطة ٣٥ - ص ٥٩ (من أطلس تاريخ الإسلام).

وأغاثارخيدس (Agatharchides) رئيس مكتبة الإسكندرية، وكتب رحلة لاسولوس (Lambulus) على أن العرب كانوا تشار المحيط الهندي ويخترنه. ويست نفس إلى بليني الذي عاش في القرن الميلادي الأول، قوله إن العرب كانوا كثيراً في ساحل مالابار في الهند، وإهم كانوا في سيلان من الكثير ما حملهم أسياح الساحل. وقد تبدوا الموقف في المحيط حتى سيلان على الأقل في ذلك الوقت. وكانت هذه الجزيرة موضع انصاتهم مع مائزبة والصين والتجارة اليهود الذين كانوا يبحرون شرقاً^(١). وقد ظل التجارة العرب بعد الإسلام يستعملون الصواري والأشرفة والسفن التي كانوا يستعملونها قبل الإسلام، بل قبل المسيح. ولذا فإن وصولهم إلى أقصى الشرق بعد الإسلام بثو سنتل ذاتها، بدل على أنهم كانوا قادرين على الوصول بهذه السفن إلى نكت الحار قبل الإسلام^(٢). وكان السهاليون وهم كثرة السكان في سيلان يتبنون المسلمين اسماً يعني في لغتهم: التجارة. ويستدل نفس بهذا على أن السهاليين كانوا يؤكدون بذلك الصفة التي علت على العرب، في أهم أول التجارة الذين حملوا تجارة الهند. وقال إهم سفوا في هذا الغرس والهند والصينيين والمصريين واليونان والرومان، وأهم الشعب الوحيد الذي كان مع تجارة وتجار في المحيط الهندي في آن، ونسب ذلك إلى موقفهم الحرامي. وإرنأي أن أول ذكر لهم في التاريخ أشار إلى صفهم تجاراً وتجارة، وانعصر إهم كانوا كذلك قبل إتيان المؤرخين الأوائل على ذكرهم^(٣). وقد حلف لنا رخلان صبيان من أوائل القرنين الخامس والسابع بعد الميلاد روايات لرحلاتهما. وفي ذلك الزمن أيضاً كان التجار العرب ينشطون في سفرات تجارة على شواطئه آسية الجنوبية حتى سومطرة وجاوة^(٤).

(١) Nafis op cit, p. 224. واطر Peripplus, pp. 28, 31, 34.

(٢) Ab. Abdul The Arabs in Malabar, Islamic Culture, vol 54 (1981), No. 4, p. 211. واطر عثمان شولي عبد الغوي: تجارة المحيط الهندي في عصر السلطنة الإسلامية، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، تموز/يوليو، ١٩٩٠، ص ١١٧ وما بعد.

(٣) Nafis op cit, pp. 223, 224.

(٤) Nafis ibid, p. 226.

وربّ مسائل: لماذا ترك الفرس وهم على مقربة من الهند، يطلّون على شواطئ المحيط الهندي، أمر الإبحار والتجارة البحرية الشرقية للعرب في كثير من الحالات، على الرغم من تفوّقهم على العرب قوّة وسلطاناً، وعلى الرغم من رغبتهم الأكيدة في السيطرة على تجارة الشرق؟

لم يكن الفرس يوماً أمةً بحرية ذات شأن، وسبب أن كان هذا لافتقارهم إلى المرافئ المناسبة على الشواطئ الجنوبية المطلة على المحيط الهندي، أم كان لافتقارهم إلى الوحدة السياسية والتماكك الإداري في أقاليمهم الجنوبية. لقد أبدى العرب في الخليج تفوّقاً حاسماً على الفرس في البحار. بل يقول فون فيسمان إن الحميريين ملكوا أفضل أسطول على شاطئ المحيط الهندي في القرون التي سبقت الإسلام مباشرة^(١). ولذا تولّى العرب بأنفسهم شؤون الأسطول الفارسي. وأمكنوا للإمبراطورية الساسانية أن تسيطر بواسطتهم على خطوط التجارة في الخليج وتنافس في البحر كلاً من بيزنطة والأحباش^(٢)، حتى قال كوسماس الهندي في أواسط القرن الميلادي السادس، الذي بهتت ما هنا أكثر من القرون الأخرى، إن العرب كانوا العامل الأنشط في التجارة عبر سيلان^(٣). وكان وجودهم في الجزيرة يجعل التجارة الهندية والتجارة الصينية معاً في متناول أيديهم^(٤).

ولم يكن إبحار العرب إلى إفريقيا أقل نشاطاً من إبحارهم شرقاً، إذ كانوا يتجهون من البحر الأحمر إلى شاطئ الحبشة ويصلون إلى سُفالة (في الموزمبيق اليوم) ومرافئ جنوب إفريقيا. وكانت جزيرة زنجبار من مناجرهم، وكذلك مدغشقر. وقد وصف السمودي هذه البلاد في مروج الذهب. أما السفن والبخارة فكان كثير منهم من سيراف. وقد اتسعت التجارة إلى الأزده على

(١) Anani: op cit., p. 444 وأيضاً ٥٤. Von Wisemann: Himyar Ancient History....

(٢) Ali: op.cit., p. 212.

(٣) Nafta: op.cit., p. 225.

(٤) Subhi, J. Latih: Die Islamische Expansion und das Persienwesen im Indischen Ozean, Der

Islam, Band 58, Heft 1, s. 150.

الخصوص. وكانت محطاتهم التي يلمصونها من سيراف وحمّان، زبلع وحذاب وسواكين وزنجبار وبربرة، وكانوا يرحلون منها بالذهب والحرير والصاعدة الإفريقية الأخرى^(١).

ولذا يمكن القول إن العرب كانوا رواد التجارة البحرية في تلك المناطق فاستقروا في شواطئ المحيط الهندي، بل دخلوا الصين متاجرهم منذ القرن الميلادي الثالث. ومعرفة العرب للبحار ظاهرة ولا شك في الشعر الجاهلي، ومنه ما يقوله طرفة بن العبد الذي عاش في أواخر القرن السادس، في معلقته:

كَأَنَّ حُدُوجَ الْمَالِكِيَّةِ حُدُودَ حِلَابِهَا سَفِينٍ بِالسَّوْصِفِ مِنْ قَدِ
خَسْفَتِ لَيْلَةٍ أَوْ مِنْ سَفِينِ ابْنِ بَسَامٍ نَحْوَرُهَا الْمَلَأُ طَوْرًا وَنَقَبَتِ
يَتَّقُ حَبَابَ الْمَاءِ خَيْرَ مِمَّا هِيَ كَمَا قَسَمَ التَّرْتِ الْمُنَابِلُ بِالْبَدِ

وقول شمر كهذا يتعلّر على شاعر لم يخص البحر نفسه. والغدولة هي سفينة من مرفأ الحبشة الأكبر عدولس أو أدولس. لكن أهم الإشارات في هذا الشعر هي إشارته إلى سفن ابن بام. وتدل الإشارة على أن هذا البحار العربي الشهير كان يملك مجموعة سفن. وقول الشاعر: غدولة أو من سفن ابن بام، يوحي أنه يختم السفينة أهم حشة أم عربية. وقد ذكر امرؤ القيس ابن بام هذا في إحدى قصائده. ولعمري كلنوم أيضاً شعر في البحر بنى به نشاط بحري عربي سابق للإسلام، إذ يقول:

مَلَأْنَا الْبَحْرَ حَتَّى ضَاقَ عَنَّا وَطَهَرَ الْبَحْرَ نَمْلَأُهُ سَفِينًا^(٢)

(١) مروج الذهب:، أطر المهرس بحر الرّيح وسفالة. وكذلك Nedavi, Sayyed Subhman Arab

Navigation, Subhman Culture, vol. 16, (1942), pp. 80, 81

(٢) الشنمري: أشعار الشعراء الجاهليين، دار الأمل للتحقيق، بيروت، ١٩٧٩، ص ٢٠.

ص ٨٠، ٨١. وكذلك Ali: op.cit., pp. 211, 212. ولي مروي نرى القيس بن شمر يذكّر

بهمنا ابن بام. أطر: ديوان امرؤ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف

بمصر، ١٩٥٨، ص ٥٧.

أما أقوى الدلائل في المصادر العربية الإسلامية على خوض العرب غمار البحر بكثرة ومعرفتهم للملاحة قبل الإسلام، فهو لا شك في ذلك القرآن الكريم. فالقرآن أنزل في بيئة حجازية، وقد حفل بالعبارات عن الملاحة والبحر والسفن. ولو لم يكن أهل مكة والمدينة ملمين بكل هذه العبارات ومعانيها، لما كان مقبولا منطقياً أن يخاطبهم القرآن الكريم بها. وقد أحصينا في قاموس الالفاظ والأعلام القرآنية الكلمات والعبارات التالية:

البحر: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ (البقرة: ٥٠)، ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ (الأنعام: ٥٩)، ﴿لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِزَاجًا لِكَلِمَاتٍ رَبِّي﴾ (الكهف: ١٠٩)، ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ﴾ (فاطر: ١٢)، ﴿حَتَّىٰ أَتْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ (الكهف: ٦٠)، ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ (الرحمن: ١٩)، ﴿وَإِذَا الْبَحَارُ سُجِّرَتْ﴾ (التكوير: ٦)، ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ (لقمان: ٢٧).

ركب: ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ (الكهف: ٧١)، ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِّ﴾ (العنكبوت: ٦٥)، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلِّ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ (الزخرف: ١٢)، ﴿وَقَالَ أَزْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ (هود: ٤١).

السفينة: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ (الكهف: ٧٩)، ﴿يَأْخُذُ كُلُّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ (الكهف: ٧٩)، ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾ (العنكبوت: ١٥).

الفلك: ﴿وَالْفُلْكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾ (البقرة: ١٦٤)، ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ﴾ (الأعراف: ٦٤)، ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ﴾ (النحل: ١٤)، ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلِّ تُحْمَلُونَ﴾ (المؤمنون: ٢٢)، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ (إبراهيم: ٣٢).

اليَم: ﴿فَأَعْرَفْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ (الأعراف: ١٣٦)، ﴿أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ (طه: ٣٩)، ﴿فَلْيَلْقِ الْيَمَّ بِالسَّاحِلِ﴾ (طه: ٣٩)، ﴿فَنَعِيشُهُمْ مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ (طه: ٧٨)، ﴿ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ (طه: ٩٧)، ﴿فَإِذَا

خَفَّتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ (القصص: ٧)، ﴿فَنَبِّذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ (القصص: ٤٠)، الذاريات: ٤٠).

هذه الآيات ليست جميعاً دليلاً مباشراً على أن المُخَاطَبِينَ مَلَمُونَ بِالْإِبْحَارِ، وإن كانت وفرة الإشارة إلى البحر والسفن وما إليها تدلُّ على نحوٍ غير مباشر على أن هذه الأمور كانت مألوفة لدى أبناء مكة والمدينة الذين بادأهم القرآن بمخاطبتهم أولاً. لكن قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلِّ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾، ثم قوله: ﴿وَقَالَ أَزْكَبُوا فِيهَا﴾، وقوله: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلِّ تُحْمَلُونَ﴾، فقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ تشير جميعاً إلى اغتماس مباشر في مهنة البحر والملاحة^(١)، أو في السفر بحراً على الأقل.

ي- متى الإبحار إلى الهند؟

استخدم البحارة العرب الرياح الموسمية في دفع سفنهم الشراعية إلى الهند وسيلان. والرياح الموسمية تقلب اتجاهها كل ستة أشهر تقريباً. فمن حزيران/ يونيو إلى تشرين الأول/ أكتوبر، تكون الرياح الموسمية جنوبية غربية، تهب من جانب الشواطئ الإفريقية صوب شبه القارة الهندية، ومن تشرين الثاني/ نوفمبر إلى آذار/ مارس تهب شمالية شرقية. ففي الربيع تأخذ الحرارة فوق سهول التبت في الارتفاع، فتتحول وجهة الرياح إلى شمال هذه السهول. وفي الخريف تبتد هذه البلاد وينجم من هذا أن رياحاً جافة من الشمال الشرقي تأخذ في الهبوب نحو جنوبي آسية والمحيط الهندي^(٢). ويشير حوراني إلى أن

(١) محمد إسماعيل إبراهيم: قاموس الالفاظ والأعلام القرآنية، دار الفكر العربي، ١٩٦٦. بلا مصدر. انظر المواد: بحر، ركب، سفن، فلك، يَم. وكذلك: هداية الرحمن...، طبعة البنداق، المواد نفسها.

(٢) جاء ذكر لانقلاب اتجاه الرياح الموسمية في «الطواف حول البحر الاربرتي» Periplus: pp. 45-46. انظر في هذا Hourani: op.cit., pp. 26, 27. وكذلك: The New Encyclopaedia Britannica, (15th edition), Chicago, 1987, vol. 8: monsoon. انظر Darrell Haug Davis: The Earth and Man, MacMillan, New York, 1943, p. 141. وانظر أيضاً: The Citizen's Atlas of the World, 8th.ed., John Bartholomew and Son Ltd., Edinburgh and London, 1944, p. 5. وكذلك Salles, p. 94.

الرياح الموسمية الصيفية الجنوبية الغربية تُحدث في المحيط نوءاً عالياً، لا تحدثه الرياح الموسمية الشتوية الشمالية الشرقية^(١).

ويتخيل المرء لأول وهلة أن العرب سافروا إلى الهند صيفاً ثم عادوا منها شتاءً، استناداً إلى اتجاه الرياح الموسمية. وهذا ما تخيله عددٌ من الباحثين في الواقع^(٢). غير أن إجماع المصادر العربية على أن القوافل المكية إلى اليمن كانت في الشتاء فقط، يوفر أول أسباب الشك في الإبحار الصيفي نحو الهند. ولتوضيح هذه المسألة سنفترض خطأً أن الرياح الصيفية كانت تأخذ السفن إلى الهند، والرياح الشتوية كانت تعود بها من هناك. وهذا هو الافتراض الذي يخطر بالبال إذا التزمنا وجهة الرياح وحدها في محاولة معرفة اتجاه الرحلات. وبناءً عليه، كان على قوافل مكة التي تصل إلى اليمن في الشتاء حين تكون الرياح مقبلة بالسفن من الهند، أن تستقبل عندئذ بضاعة الهند وسيلان. ولكن إذا كانت السفن تبحر إلى الهند مع الرياح الموسمية الجنوبية الغربية، فهذا يعني أن القوافل التي تأتي إلى اليمن بالبضاعة المعدّة للتصدير إلى الهند، كان يجب أن تأتي إلى اليمن في الصيف. ولم يكن ثمة رحلة صيف إلى اليمن حسبما تقول المصادر الإسلامية. فهل كان المكّيون يستوردون فقط من الهند وسيلان ولا يصدّرون؟ إن نفيس يؤكد أن التجّار العرب كانوا يصدّرون إلى سيلان الأدوات المعدنية، ومصدرها اليمن والشام على ما أسلفنا، والملابس من الأدم والقطن والصوف، ومصدرها الجزيرة العربية والشام أيضاً والخمور من العراق^(٣). فمتى كانت القوافل تُحضر هذه البضاعة للتصدير؟ إن رحلة الشتاء إلى اليمن تعني أن السفن تكون حينئذٍ مقبلة من الهند، لا مدبرة. فهل كانت البضاعة المكية المعدّة

(١) أنظر في هذا، Hourani: op.cit., pp. 24 - 27. وانظر كذلك Grand Larousse Encyclopédi-

que. Librairie Larousse, Paris, 1960 - 1964, vol. 6: mousson

حول البحر الأيرتري، أن رياح الصيف الجنوبية الغربية أخطر لكنها أسرع دفعا للسفن إلى

الهند. Periplus: p. 38.

(٢) منهم Subhi: op.cit., p. 147.

(٣) Nafis: op.cit., p. 240.

للتصدير تُخزن في اليمن في الشتاء، إلى أن يحين موعد تصديرها في الصيف؟ إن هذا احتمال ضعيف، لأن المصادر لم تأتِ إطلاقاً على ذكر أي شيء من هذا. أما الاحتمال الثاني الذي لا يبدو منطقياً للوهلة الأولى، فهو أن السفن لم تكن تُقبل من الهند فقط، بل كانت تُبحر إليها كذلك في الشتاء. وقد أكد فلييه هذا الأمر بقوله إن الافتراض أن السفن كانت تُقبل مع الرياح الشمالية الشرقية وتُدبر مع الرياح الجنوبية الغربية افتراض متسرّع، إذ أن الصيف موسم سيء جداً للإبحار في المحيط الهندي، وكان على البحارة والتجّار أن يستخدموا موسم الشتاء للإبحار في الاتجاهين والعودة إلى مرفأ الأمان قبل بداية الصيف وأنوائه العاصفة. وكان هذا بالضبط ما يفعله البحارة العرب والفرس والهنود على الدوام. ولكن كيف للسفينة المسافرة من عدن أن تدفعها رياح شمالية شرقية إلى الهند؟ إن ساحل مالابار الغني بالتوابل على الشواطئ الغربية للهند يُدرك من عدن بالإبحار شرقاً مع ميل إلى الجنوب. وأما بلوغ شواطئ كاتش وكاتياوار الهندية فيتطلّب الإبحار شرقاً مع ميل قليل إلى الشمال. وفي هذه الحالات جميعاً تهب الرياح في الشتاء من جانب السفينة الأمامي الأيسر، لا من خلفها. فهل يمكن لسفينة شرعية أن تبحر عكس الرياح؟ إن المركب الشراعي العربي المسمّى الذُفُو، وهو يُستخدم الشراع المثلث، يستطيع السفر تقريباً في عكس اتجاه الرياح، إذا تجنّب الاتجاه المعاكس للريح تماماً وحاد عن هذا الاتجاه بضع درجات يَمَنَةً أو يَسَرَةً. وقد تفوّق هذا المركب في الأزمنة القديمة على كل المراكب الأخرى التي كانت تُستخدم الأشرعة المستطيلة، لأنه كان يستطيع السفر في أي وقت إلى أي اتجاه تقريباً دون أن يحتاج إلى انتظار ربح مؤاتية. ولذا كان التجّار العرب يسافرون إلى الهند وسيلان في الشتاء في مواجهة الرياح الموسمية غير المؤاتية لتجنّب أنواء الصيف العاتية حين تكون الرياح الموسمية مؤاتية في اتجاهها. فإذا أفرغوا حمولة سفنهم في الأسواق الهندية والسيلانية واشتروا البضاعة التي يبتغون عادوا أدراجهم مسرعين وقد أخذت الرياح بأشرعتهم أي مأخذ^(١). وشرح حوراني بالوصف والرسم البياني كيف كانت سفن العرب

(١) Villiers: op.cit., pp. 56, 57. وعثمان: تجارة المحيط الهندي... ص ١٢٦، ١٢٧. أما

هذه تسافر إلى الهند مستخدمة قوة الرياح المعاكسة والشرع المثلث وتغيير اتجاه السفينة^(١).

وقد أكد بريتز أن البحارة في شرق إفريقيا يسافرون شمالاً بفضل الرياح الشمالية الشرقية المعاكسة، إذ قال إن أغنية «الحرب بين سيو وأمور» التي تتحدث عن سيد سعيد الآتي من الجنوب، أي من زنجبار إلى شواطئ كينيا الحالية، تقول في أحد مقاطعها:

وهو بنفسه سيحضر

مع رياح الشمال الموسمية^(٢)

وردى بريتز عن توالي الهدوء والعواصف مع توالي الرياح الموسمية الشتوية والصيفية، وقال إن مبدأ البحارة القديم مع الأمواج هو: مع سكون البحر ينشط البحارة، ومع نشاط البحر يسكن البحارة^(٣).

ورغم ذلك يقول غييون إنه «كان يُبحر عند الانقلاب الصيفي في شهر حزيران/ يونيو من كل عام أسطول [روماني] من مائة وعشرين سفينة من ميناء ميوس هرمز (Myos Hormus) في مصر عبر البحر الأحمر، ثم تدفعه الرياح الموسمية، فيقطع المحيط في أربعين يوماً، حتى يُلقي مراسيه في ساحل ملبار أو جزيرة سيلان. وفي هذه الأسواق كان يرقب وصوله التجار في أقصى أطراف آسية، وكان من المقرر أن تعود السفن المصرية أدراجها في شهر كانون الأول/ ديسمبر أو كانون الثاني/ يناير^(٤). والواقع أن غييون كان محقاً لأن الرومان

في خزن بضائع التجارة الشرقية فلم نثر إلا على نص في «الطواف حول البحر الإريتري» يشير إلى تخزين اللبان في حضرموت. Periplus: p 33.

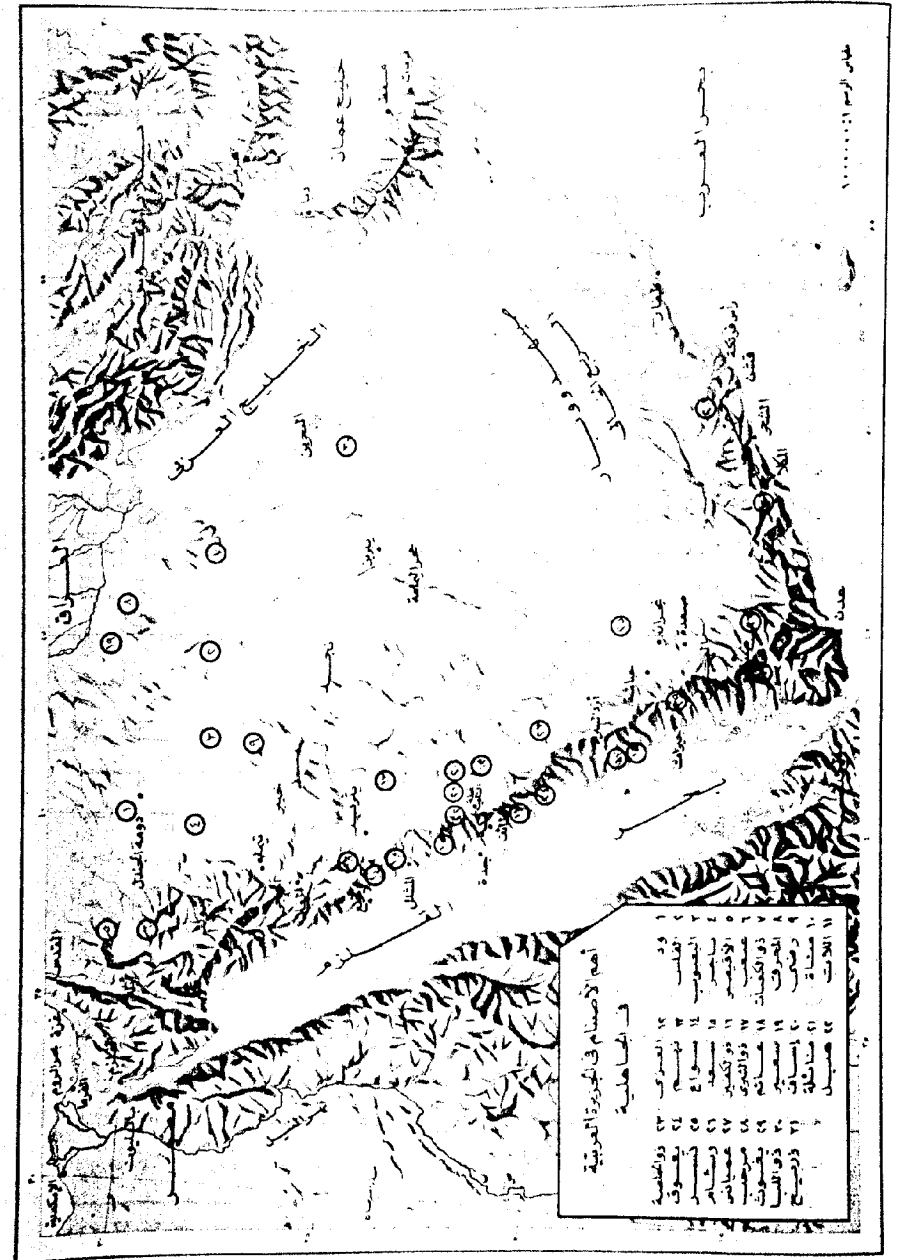
(١) Hourani: op.cit., pp. 109, 110. واتفق روجيه وسال على أن العرب سافروا إلى الهند بواسطة الرياح الموسمية الشتوية الشمالية الشرقية. وفصل روجيه في أنواع السفن والأشعة التي

استخدموها Rougé: pp. 73, 74 و Salles: p. 78.

(٢) Prins, A.H.J.: Sailing from Lamu, Assen, 1965, p. 70.

(٣) Prins: ibid., p. 19.

(٤) غييون: المصدر السابق، ج ١، ص ١١٠، ١١١.



والبيزنطيين سافروا فعلاً إلى الهند في الصيف، لا الشتاء، مستخدمين الرياح الجنوبية الغربية. ويؤكد حوراني هذا الأمر، إذ يجعل تاريخ البحار اليوناني المستكشف هيبالوس سنة ٩٠ قبل الميلاد على أقدم تقدير، ويبيّن استناداً إلى رواية «الطواف حول البحر الإريتري» أن هيبالوس غادر مصر في تمّوز واستخدم الرياح الموسمية الخطرة. وصفه الريح الخطرة في الرياح الموسمية لا تنطبق إلا على الرياح الصيفية. ويقول حوراني إن رحلة هيبالوس التي وُصفت بأنها اكتشاف، لا يمكن أن تكون اكتشافاً إلا إذا استحدثت أسلوباً جديداً للإبحار إلى الهند. وهذا الأسلوب هو السفر صيفاً حين كان البحارة قبله، وحتى بعده، يبحرون إلى الهند شتاءً فقط^(١).

ولكن كيف ولماذا استطاع الرومان استخدام الرياح الموسمية الصيفية الخطرة، وأحجم غيرهم عن استخدامها؟ لقد كانت سفن الرومان واليونان قوية البنيان، مجمّعة بمسامير من حديد، أما سفن العرب فكانت تُجمّع وتُشدّ بألياف الشجر. وكان الدّهر ملائماً جداً للسفر في بحر هادئ وأمواج ساكنة. ولو استُخدم في البحار العاتية لتفكك. وليس محتملاً على الإطلاق أن يكون العرب قد أبحروا يوماً بسفنهم هذه في رياح جنوبية غربية، إلا إذا اتّبَعوا الشواطئ في الخليج وجنوب بلاد فارس وسواحل السند. وقد تساءل حوراني، لماذا إذن لم يعتمد العرب أسلوب اليونان في بناء السفن بعدما بيّن هيبالوس أن الإبحار فيها صيفاً إلى الهند ممكن. وقال إن البحارة في المعتاد محافظون. ولعلهم افترضوا أيضاً إلى الحديد ونوع الأخشاب لصنع سفن مثل سفن الرومان والبيزنطيين. إن مكوث البحارة الرومان واليونان لم يدم طويلاً في مياه المحيط الهندي. ولعل البحارة العرب لم يروا في سفن الروم تحدياً خطيراً لهم حتى يبدّلوا أساليب عملهم. ولا شك في أن إبحار الرومان واليونان في المحيط الهندي قلّص تجارة العرب البحرية هذه بعض الوقت، ولكنه لم يوقفها. والراجح أن سفن العرب والروم عملت معاً في نقل تجارة الشرق لأن الرومان والبيزنطيين لم يمتلكوا يوماً في المحيط الهندي الأسطول الكافي لنقل كل تجارة الشرق إلى أسواق

(١) Periplus: p. 27. وانظر Hourani: op.cit. pp. 24 - 26.

الغرب^(٢). فلجميع هذه الأسباب حافظ البحارة العرب على الدّهر المشدود بالآليات، وسافروا إلى الهند شتاءً طوال الحقب السابقة للإسلام على الأقل.

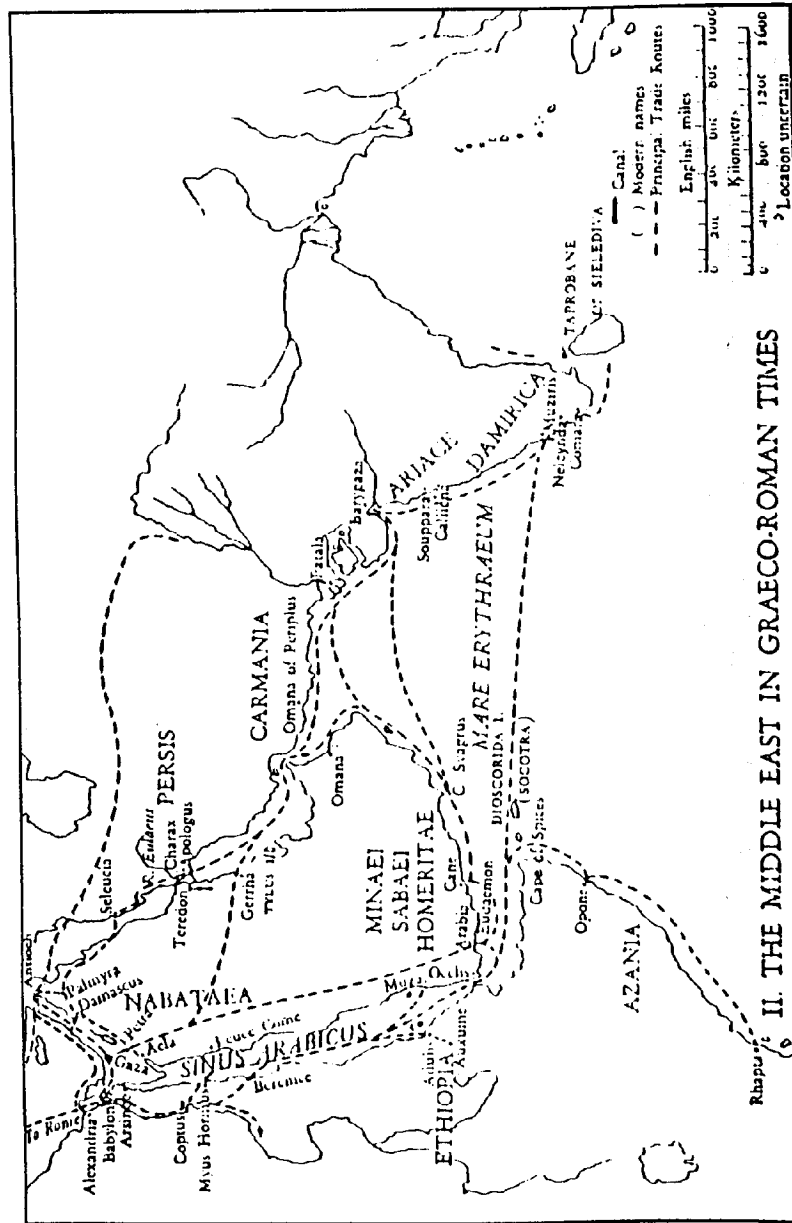
ك - سرعة الرحلة إلى الهند

ظل العرب بعد الإسلام يشتركون في الإجمال من الهند وسيلان البضاعة الشرقية التي كانوا يشترونها قبل الإسلام، بسبب عدم تبدّل الحاجات بدلاً كبيراً. ولم تبدل وسائل انتقالهم إلى الهند بحرّاً. ولذا فإنهم قصدوا المتاجر نفسها على الأرجح، في أوقات تدعونا كل الأسباب إلى الاعتقاد إنها لم تزد على ما كانوا يستغرقونه في السفر قبل الإسلام، ولم تنقص عنه. وقد قصد التجّار المسلمون، وأسلافهم ولا شك، مرفأ كشبات القريب من الخليج، ثم موانئ بلوخرستان والسند وغوجرات وكاتياوار وشاطئ مالابار ومقاطعة مدراس في جنوب الهند وكلكتة، ثم وصلوا إلى تشيناغونغ وهي في بلاد البنغال اليوم، وكانوا يسمونها سَجَم. ومن هناك كان تجّار المسلمين يدخلون بحر الصين من سيام. ولكن مراكزهم المهمة كانت في غوجرات والسند، وهي مناطق أصبحت إسلامية. وكان الفلفل يباع على الخصوص في سواحل مالابار وهي الجانب الغربي من طرف الهند الجنوبي^(٣). ولا بد من الاعتقاد أن عوامل عديدة جعلت العرب بعد الإسلام يبحرون شرقاً أبعد مما كانوا يبحرون قبل الإسلام. ذلك أن فتوحاتهم في شبه القارة الهندية جعلت السفر إلى الصين ميسوراً جداً بسبب قرب المسافات. كذلك كان ظهور الإسلام في جزيرة العرب إيذاناً بحلول السلام بين قبائل العرب، فلم تعد قوافل التجارة تحتاج إلى الأمن الذي وفّره الأشهر الحُرُم ووفّره الإيلاف قبل الإسلام. ولذا أصبح التجّار المسلمون غير مرتبهين لمواعيد معينة في السنة، وأضحى وغولهم في متاجر الشرق وفقاً فقط على طموحهم في تجارتهم وحده، فيما كانوا قبل الإسلام مضطّرين إلى العودة في مواعيد معينة

(١) أكد صاحب «الطواف حول البحر الإريتري» أن العرب لم يستعملوا إلا الزوارق المشدودة بالآليات. Periplus: pp. 28, 36. وانظر Hourani: ibid., p. 28. وناقش عثمان هذه المسألة في

كتابه: تجارة المحيط الهندي... ص ١١٩ - ١٢٦.

(٢) Nadavi: op.cit., p. 80. وكذلك Husein: op.cit., p. 116.



طرق التجارة الشرقية

من كتاب: Arab Seafaring, Princeton University Press, 1951, p. 37

لملاقاة قوافل الشتاء المكيّة التي كانت تنتظر تجارة الشرق في اليمن لنقلها إلى أسواق بيزنطة. وعلى هذا الأساس يمكن القول إن تجار العرب قبل الإسلام كانوا يعتمدون على سيلان مخزناً لتجارة الصين أكثر مما اعتمد حقدتهم المسلمون، للأسباب التي أنف ذكرها. ذلك أن سيلان كانت تكفيهم مؤونة السفر إلى الصين. وكان السفر إلى الصين بعيد المنال شديد المخاطر قبل الإسلام. وكان لا يؤخر التجار العرب عن إدراك موعد رحيل قافلة الشتاء المكيّة من اليمن إلى الشمال فقط، بل كان يؤخرهم أيضاً عن العودة قبل هبوب الرياح الموسمية الصيفيّة الخطرة.

لقد نُقل عن مسافر مسلم في القرن الهجري الثالث أن الرحلة من مسقط إلى سواحل الهند تستغرق شهراً^(١). وأثبت المسعودي في مروج الذهب أن السفر إلى الهند حتى بعد الإسلام، إنما كان في أواخر شهر تشرين الثاني/ نوفمبر وأوائل شهر كانون الأول/ ديسمبر. ولما كانت السفن تبحر إلى الهند في حزيران/ يونيو. وكان السفر يستغرق من مسقط إلى كولام مالي في ساحل مالابار، جنوبي الهند، شهراً كاملاً حسبما جاء في كتاب أخبار الصين والهند. وقد احتسب حوراني الرحلة ذهاباً وإياباً، وأدرج الوصول إلى الصين ضمن الرحلة، مما جعلها تستغرق سنة ونصف سنة، على الرغم من أنه يرجح في موضع آخر أن سفن الصين كانت تلاقي السفن الآتية من غرب المحيط الهندي في سيلان. وهو يقول حتى في موضع ثالث إن سيلان كانت مخزن التجارة البحرية بين الصين وغرب آسية. وكانت السفن من الصين وبلاد الشرق الأقصى تبحر حتى سيلان، وكان الفرس والأحباش يتسلمون منها البضاعة للإبحار بها غرباً^(٢).

وقد أمكن احتساب سرعة الإبحار بالرياح الموسميّة في المحيط الهندي،

(١) Nadavi: op.cit., p. 79

(٢) مروج الذهب... ج ١، ص ١٧٤، ١٧٥. وانظر أيضاً، Hourani: op.cit., pp. 38, 40, 74.

75. ويتضمن كتاب حوراني هذا خرائط مهمة، إحداها في ص ٨٥ تبين طرق الملاحة إلى

الهند حسب رواية وأخبار الصين والهند، وابن خرداذبه ويزرج.

بفضل الوصف الذي ورد على كتاب برينز: «الإبحار من لامو»، إذ جاء فيه أن السفن تقطع المسافة بين لامو ومومباسة، وهي مائتا ميل، في أربعة أيام. وهو يعني بالتأكيد أميلاً بحرية. فإذا افترضنا أن سرعة السفينة الشراعية على مقربة من سواحل إفريقيا الشرقية، وهي تندفع بالرياح الموسمية الشتوية الضاربة في شراعها من الجانب الأيمن الأمامي، هي خمسون ميلاً بحرياً في اليوم، فإن حساب الرحلة من عدن إلى سيلان يصبح كما يلي:

المسافة من عدن إلى سيلان: ٣٩٠٠ كيلومتراً تقريباً أي نحو ٢١٠٥ أميال بحرية.

٢١٠٥ : ٤٣ = ٥٠ يوماً تقريباً.

ونلاحظ في صدد الرحلة من عدن إلى سيلان عدداً من العوامل تجعل القول إن شهراً يكفي للوصول إلى الهند وسيلان قولاً معتدلاً ومعقولاً. فالخط البحري بين عدن وسواحل الهند أقرب كثيراً من سواحل إفريقيا إلى مصدر الرياح الموسمية على مرتفعات القارة الآسيوية. وهذا يفترض أن الرياح إذن على هذا الخط أقوى منها عند سواحل إفريقيا. وقد لاحظ برينز ذلك^(١)، حتى أكد أن معدل سرعة السفن بين مومباسة وعدن، مع توقف في مقديشو، يبلغ مائة ميل لا خمسين^(٢). كذلك نلاحظ أن السير من عدن إلى سيلان يميل عن الاتجاه الشرقي إلى الجنوب. وهذا يجعل زاوية الرياح على محور السفن المتجهة إلى سيلان تزيد على خمس وأربعين درجة، وهي زاوية جيدة إذا ما قورنت بزاوية محور السفر من مومباسة إلى عدن. وهذا عامل آخر يحفزنا على القول إن الشهر الذي قيل إن الرحلات إلى الهند كانت تستغرقه، لا يكفي للرحلات الذاهبة من مسقط فقط، بل ربما من عدن أيضاً.

ولما كان موسم الرياح الشمالية الشرقية يستمر نحواً من خمسة أشهر أو ستة أشهر، ففي إمكاننا أن نتصور قدرة السفن على الإبحار من عدن إلى الهند

(١) Prins: op.cit., p. 20

(٢) Prins: ibid., p. 14

أو سيلان، وتبادل البضاعة، والعودة إلى عدن، ضمن الموسم الشتوي ذاته، حتى لو لم تأخذ في حسابنا أن رحلة الإياب أسرع من رحلة الذهاب، لأن الرياح تدفع السفن من الخلف وهي مقبلة من الهند في الشتاء^(١). كذلك لا بد من أن نلاحظ أن السفن المبحرة إلى سيلان تستطيع أن تكون أسرع من تلك المبحرة إلى الهند، لأن زاوية مواجهتها للرياح الموسمية أكبر، لكن هذا التأخير النسبي تعوّضه السفن في إيابها من الهند، لأن اتجاه الرياح الضاربة في مؤخرة السفينة في رحلة العودة يكون أقرب إلى محور السفينة العائدة من الهند، منه إلى محور السفينة العائدة من سيلان^(٢).

ولكن، لانتصرون أن السفن كانت تسافر إلى الهند ثم تعود، أو تسافر إلى سيلان مباشرة. فلعل طول الموسم الشتوي كان يسمح لها بالسفر إلى عدد من المحطات في رحلة واحدة، فتعود بعدئذ إلى عدن أو مسقط أو الخليج، محملة بالبضاعة المطلوبة، قبل أن تهب رياح الصيف الموسمية العاتية.

(١) Villiers: op.cit., p. 57

(٢) وضع حوراني ثبناً لبعض المسافات وما يستغرقه اجتيازها، وهو لا يناقض تقديراتنا: Hourani

op.cit., p. 111

الفصل الخامس الإيلاف ومؤسّساته

أولاً: الوظائف المكيّة

أ- قضيّ المؤسّس

لم تكن مكيّة دولة عظيمة تمتلك جيوشاً أو أساطيل لحماية تجارتها حماية عسكرية. ولم تكن حتى دولة متوسطة مثل مملكة حمير أو مملكة الأنباط لتهابها القبائل وتعرض لحكمها. بل لم تكن في قوة مملكة الحيرة أو مملكة الغساسنة لتجنّد الأعراب في خدمتها. ولكنها كانت طامحة إلى مهمة تحتاج إلى نمط من أنماط القوة المذكورة، أو تحتاج إلى أسلوب آخر مبتكر، يُجلب السلام على طرق تجارتها ويحمي مقر هذه التجارة وقيادتها، من غير قوة عسكرية متفرّغة. وهذا الأسلوب الآخر الساعي إلى التجارة في ظل السلام غير المسلّح، يبدو ربما فكرة غير مضمونة. فالسلام الذي لم تُحمِه قوة عسكرية، لا بد وأنه كان سلاماً غير مستقر، والتجارة التي سارت في ظله تجارة غير مضمونة. لكن ما حدث في الواقع كان مخالفاً للمعهود. إذ إن القوة العسكرية التي امتلكتها الدولتان الكبيرتان آنذاك بيزنطة وبلاد فارس، بدت عاجزة تماماً عن تسيير التجارة الدولية وحماية خطوطها الكبرى، حين استطاعت قريش أن تحمي تجارتها، لا بالقوة العسكرية، وكانت تفتقر إليها، بل بالمؤسّسات المختلفة التي أنشئت شيئاً فشيئاً حول هذه التجارة ومن أجلها.

ولا بد، قبل معالجة التفاصيل، من الإشارة بلا لبس ولا غموض، إلى أن بعض هذه المؤسّسات سبق نشوء الإيلاف. وليس في مكيّتنا إذن أن ندّعي أن

نظام النسب أو نظام الأحلاف أو الأشهر الحُرْم مثلاً قد ظهرت في إثر الإيلاف لتكاملته وتنظيم مختلف جوانبه. لكن الإيلاف القرشي، على نحو ما سنبين فيما يلي، استطاع أن يتكيف مع المؤسسات الدينية والاجتماعية التي كانت قائمة في مكة، وأن يُدرجها في منظومته، وأن يُضيف إليها مؤسسات أخرى مثل الحماسة، لتنظم معاً في تشكيل ديني وسياسي واقتصادي واسع انصهرت فيه جهود القبائل العربية، من غير قسٍ أو قهرٍ عسكري. فكان الانتظام الديني والسياسي والاقتصادي هذا أضمن للتجارة المكية وقوافلها من أية قوة عسكرية يمكن أن تمتلكها أية دولة. وقد كانت هذه المؤسسات مبعث إعجاب بعقريه القيادات القرشية وتنوع الأساليب التي اتبعتها بمرونة وحنكة وحكمة جعلت التجارة المكية تواصل عملها بسلام ومثابرة وثبات في وسط منطقة اصطفتت أطرافها في حروب ضروس، عطلت التجارة الدولية على جميع الخطوط، إلا خط القوافل المكية^(١).

ومن المؤسسات التي اصطللنا على تسميتها مؤسسات الإيلاف رغم نشوء بعضها قبل نشوء الإيلاف نفسه، تلك التي أحيها قصي بعد استيلائه على مكة. فعلى الرغم من أن البيت الحرام كان محجة تؤوب إليها العرب منذ أيام خزاعة على الأقل، على ما تقوله جميع المصادر الإسلامية التاريخية، فإن هذه المصادر قلما تذكر شيئاً عن الرفادة أو السقاية أو الأشهر الحرم وما إليها قبل عهد قصي بن كلاب. فما قبله يلقه ضباب يصعب على المدقق اختراقه بمقدار ولو مقبول من الدقة التاريخية الجديرة ببعض الثقة. وحتى قصي نفسه لم يحظَ بقبول كل المؤرخين أنه شخص حقيقي. وقد استند هارتمان في مقاله عن قصي، إلى نصّ نبطي ورد عليه اسمه، ليقول إن قصياً كان شبه معبود عربي قديم، انتقلت عبادته من الأنباط إلى مكة مع دخول قريش في المدينة^(٢). وأضاف هارتمان أن قصياً شخص أسطوري مثل كنانة وقريش، وأن أسطوره دخلت مكة نحو سنة

(١) Simon: Hums Ilāf..., p. 230. وبيضون: الحجاز... ص ٧٨. ويتحدث بيضون عن أمن

الإيلاف لا الأمن المفروض عسكرياً.

(٢) Hartman, Martin: Ousaij, Zeitschrift für Assyriologie, XXVII (1912), ss. 45, 46

٣٠٠ م. تقريباً. لكن قصر سلسلة النسب التي تربط الرسول بقصي (محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي)، بالمقارنة مع سلاسل النسب الطويلة التي حرص العرب على حفظها ومعرفتها ربما أكثر من حرص أي شعب آخر عليها، تدفعنا إلى الشك في نظرية هارتمان، خصوصاً وأن قصياً كان بموجب هذه السلسلة، والد جد عبد المطلب، جد الرسول الذي رباه بضع سنوات في كنفه. وليس من شك في أن بين شيوخ مكة الذين أدركوا الإسلام، من عاصر عبد المطلب وغيره، ممن زوّوا تواريخ أنسابهم القرية. ولم يكن متعذراً أن تحفظ ذكريات عمرها قرن ونصف قرن أو حتى قرنان حفظاً معقولاً، على رغم أن الذكريات بهتت وغمضت لأنها تُنوّلت برواية كابر عن كابر، حتى تسنى لها من يكتبها بعد ظهور الإسلام.

لم يتفق كثرة الباحثين مع هارتمان في مقاله هذه، بل ارتأى عدد منهم أن قصي بن كلاب إنما كان شخصاً حقيقياً، فقال بيترز إنه استولى على مكة مع رجاله فيما بين سنتي ٤٠٠ و ٤٢٥ م. تقريباً. وارتأى حمور أن قصياً وُلد سنة ٤٠٠ م تقريباً، واستولى وهو في الأربعين على مكة^(١). واقترب تقديرهما من تقديرنا فيما سلف. ولكن أياً تكن حقيقة أمر قصي تظل قصته في المصادر العربية الإسلامية ذات دلالة تاريخية، لأنها في أية حال تعبر عن مفهوم القرشيين للاستيلاء على مكة وما يعنيه هذا الاستيلاء من وظائف ومهام يضطلع بها القوم لتنظيم الحياة السياسية وتنظيم القيام على الحرم وخدمته. ولقد سبقت الإشارة إلى قصة استيلاء قصي على البيت وإخراجه خزاعة. لكن التدقيق في نصوص الروايات العربية يبين لنا بوضوح ما كانت أغراض قصي من هذا الاستيلاء. فيقول ابن هشام في السيرة: «فرأى قصي أنه أولى بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة». فالمسألة كانت إذن مسألة استيلاء على إدارة شؤون الكعبة. وهذا مؤكد في غير موضع من السيرة، إذ نازع قصي صوفة في أنها كانت أول من يرمي الجمار في منى «فأناهم قصي بن كلاب بمن معه من قومه من قريش وكنانة

(١) Peters: The Commerce of Mecca..., p. 11. وحمور: المرجع السابق، ص ٣١، ٣٢. وكذلك

بيضون: الحجاز... ص ٣٦، ٣٧.

وقُضاعة عند العقبة، فقال: لَنَحْنُ أُولَى بِهَذَا مِنْكُمْ، فقاتلوه، فاقْتَتَلَ النَّاسُ قِتَالًا شَدِيدًا ثُمَّ انْهَزَمَتْ صَوْفَةٌ، وَغَلِبَهُمْ قُصَيٌّ عَلَى مَا كَانَ بِأَيْدِيهِمْ مِنْ ذَلِكَ». ويوالي ابن هشام رواية الواقعة إذ يقول: «وانحازت عند ذلك خزاعة وبنو بكر عن قصي وعرفوا أنه سيمنعهم كما منع صوفة، وأنه سيحول بينهم وبين الكعبة وأمر مكة». وبعد القتال والتحكيم قضى الحَكَم: «بأن قُصَيًّا أُولَى بِالْكَعْبَةِ وَأَمْرُ مَكَّةَ مِنْ خِزَاعَةٍ... وَأَنْ يُحْلَى بَيْنَ قُصَيٍّ وَبَيْنَ الْكَعْبَةِ وَمَكَّةَ»^(١).

ثم يقول ابن هشام: «فولي قصي البيت وأمر مكة... إلا أنه قد أقر للعرب ما كانوا عليه، وذلك أنه كان يراه ديناً في نفسه لا ينبغي تغييره، فأقر آل صفوان وعُدوان والنساء ومرة بن عوف على ما كانوا عليه... فكان قصي أول بني كعب بن لؤي أصاب ملكاً أطاع له به قومه، فكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء فحاز شرف مكة كله»^(٢).

لقد كان واضحاً تماماً في الروايات الإسلامية (وهي إذا افترضنا أنها لم تعبر عن واقعات تاريخية فهي على الأقل تعبر عن مفهوم القرشيين للسلطة في مكة) أن ولاية البيت ومفتاح الكعبة والمؤسسات المواكبة لهذه الولاية هي التي كانت موضع الصراع^(٣). وإذا أخذنا قول ابن هشام: «فأقر آل صفوان وعُدوان والنساء ومرة بن عوف على ما كانوا عليه» على أنه يثبت أن النسيء والإجازة من عرفات والمزدلفة كانت قائمة قبل قصي، فإن أمر المؤسسات الأخرى كالحجابة والسقاية والرفادة ليس واضحاً تماماً. وقد يكون بعضها سابقاً وقد لا يكون. إلا أن عصر قصي، وهو في رأينا أوائل القرن الميلادي الخامس، كان عصراً تأسيسياً مهماً للتنظيم الذي نشأ وتطور حول الحرم المكي في الجانبين التجاري

(١) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ١٣٠، ١٣٥، ١٣٦. وراجع كذلك قصة قصي في المنمق، ص ١٤ - ١٩، ٨٢ - ٨٤. عن صوفة أنظر الأزرقي: ص ١٢٨، ١٢٩.

(٢) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ١٣٦، ١٣٧. وقارن الأندلسي: نشوة الطرب، ٣٢٣ - ٣٢٥. والبلاذري: أنساب الأشراف، تحقيق حميد الله، ص ٤٩ - ٥٣.

(٣) راجع في هذا المحبر، ص ١٦٤، ١٦٥. وسيرة ابن هشام، ج ١، ص ١٣٥ وما بعد. والأندلسي: نشوة الطرب، ص ٢١٣ - ٢١٥. و Crone: op.cit., p. 188.

والديني معاً لأنه على الأقل طور وظائف القيام على خدمة الحرم المكي، وربما استحدث وظائف. ذلك معرفته وقف على معرفة ما كان قبله، وهو غير ميسور الآن.

ب - علاقة قصي بالتجارة

هل استولى قصي على خط التجارة المار عبر مكة، وهل كان ذا طموح تجاري ما؟ لقد أخطأ سيمون حين قال إن المصادر لا تذكر شيئاً عن نشاط قصي التجاري. صحيح أن معظم ما لدينا من مصادر إسلامية لا يحفل بكثير عن هذا النشاط، لكن ثمة نصاً مهماً في «منمق» ابن حبيب يؤكد أن السيطرة على الخط التجاري عبر الجزيرة أو في الحجاز على الأقل، لم تكن فكرة غائبة عن ذهن قصي. فيقول ابن حبيب: «وكان أول مال أصابه قصي بن كلاب أنه كان رجل من عظماء الحبشة أقبل إلى مكة بتجارة فباعها ثم انصرف يريد أهله فتبعه قصي وقتله وأخذ ماله»^(١). فلو أخذ قصي بظاهر النص لبدا لغير المدقق وكأنه نوع من قطاع الطرق، يغضب الناس مالهم وهم عزّل في البراري. لكن المشروع السياسي الذي بدا قصي مصمماً على تحقيقه في مكة ومن خلالها، لم يكن شأنه نفي التهمة فقط، عن هذا المؤسس، بل إضفاء أبعاد جديدة أيضاً على المهمة الموكلة إلى المؤسسات التي أنشأها في مكة. فهل أراد الرجل تأسيس تجارة مكيّة مستقلة؟

يقول سيمون إن معظم المصادر الإسلامية تربط ظهور مكة بقيام التجارة عبرها، ربط السبب بالنتيجة، على أن التجارة هي النشاط الاقتصادي الأول في المدينة. ولذا حاول بعض الدارسين أن ينسبوا إلى قصي أنه نظم هذه التجارة. واعتمد سيمون تاريخيين محتملين لزمن قصي، وانتهى إلى أن مكة لم تكن تستطيع عندئذ أن تمتلك أي تجارة مستقلة، فلا في زمن بهرام الخامس ملك الفرس (٤٢٠ - ٤٤٠ م). ولا في عهد فيروز بن يزدجرد (٤٥٧ - ٤٨٣ م). كانت مكة في رأيه قادرة على تسيير تجارة مستقلة، لأن اليمن في ذلك الزمن كان

(١) المنمق، ص ١٨.

يسيطر على طريق البخور ويسير عليها تجارته. وافترض سيمون أن استقلال اليمن يعني سيطرته على تجارة القوافل عبر جزيرة العرب، وأن ضياع هذا الاستقلال بالاحتلال الحبشي، أنهى سيطرة اليمن على تجارة القوافل^(١). ولا شك في أن بعض ما ارتآه سيمون صحيح، لكنه أخطأ فيما يلي:

- أن تأسيس تجارة مكيّة مستقلة يعني تأسيس تجارة مكيّة دولية، وهذا غير صحيح، لأن التجارة المكية ظلت على الأرجح مستقلة ومحلية، وربما نقلت اللبّان من اليمن، حتى نشأ الإيلاف في أوائل القرن السادس، فأتسعت هذه التجارة عندئذٍ لتشمل البضاعة الآتية من أسواق الشرق إلى أسواق الغرب. وهذا يعني أن قصياً كان يستطيع أن يُنشئ لمكة تجارته المحلية أو شبه المحلية المستقلة دون أن يتعارض هذا مع سيطرة اليمن على تجارة الشرق الدولية.

- أن تجارة اليمن وتجارة مكة تعارضتا بالضرورة. والحق أن المصادر تحفل بالإشارات إلى أن المكّيّين تعاونوا مع اليمنيين في حقب مختلفة آخرها الوفود القرشيّة التي جاءت إلى سيف بن ذي يزن لثبته على انتصاره. فاليمن في معظم حقب التاريخ، وباقي الدول المجاورة للصحراء العربية، لم تستطع أن تفرض سلطانها بالقوة العسكرية على قبائل العرب، وكانت تُصانعهم وتتخذهم حلفاء وشركاء. وأغلب الظن أن تأسيس تجارة مكيّة مستقلة في عصر قصيّ لم يكن غرضه ولا كان طموحه الاستيلاء على خط التجارة الدولية من اليمن حتى الشام، بل في أقصى الحدود، تنشيط التجارة المحلية وتحسين الحصّة المكيّة، من الأسواق والمواسم السنوية، وتعزيز المهمة التي كانت تضطلع بها قريش على ما يبدو، في نقل اللبّان اليمنى إلى أسواق بيزنطة.

- إن سيمون لم يلحظ أن ما كان يجري في اليمن في النصف الأول من القرن الخامس يعرّز الاعتقاد أن قصياً كان فعلاً مهتماً بإنشاء تجارة مكيّة، وأنه نقل ربّما بعض لوائه إلى ملوك اليمن. ففي ذلك العصر كان أسعد أبو كرب قد طرد النفوذ الحبشي من اليمن وأقام حكم الحميريين اليهود، على ما سلف في:

(١) Simon: Hums et Nāf..., pp. 211, 212

«الصراع في جنوب الجزيرة العربية»، أعلاه. وفي المقابل كان قصي يستولي على مكيّة بمعونة قيصر، إذا صح قول ابن قتيبة الشهير. ولكن ما الذي يحدو قصياً، وهو حليف محتمل لقيصر، وقد نصرته قبائل عذرة المعروفة بميلها إلى الروم، على الإشاحة عن قيصر ومماشاة الحميريين؟ إن التاريخ حافل بمثل هذه الحوادث السياسية. فمن يسعى إلى السلطة يُغدق الوعود ويتوسّل العون حيثما تيسر. أما إذا استوى على عرشه فإن الحسابات تختلف. ويؤكد حدوث انقلاب قصيّ هذا أن «أول مال أصابه» كان من «رجل من عظماء الحبشة». والحبشة هم حلفاء بيزنطة، وهم الذين طردهم أسعد أبو كرب من اليمن. والتاجر الذي قتله قصيّ لم يكن حبشياً فقط، بل «من عظماء الحبشة». وقد يكون ذاك آخر عهد للحبشة بمكة في ذلك العصر، وقد تكون تلك هي إشارة الانقلاب السياسي الذي انقلبه قصي، بعدما ارتأى أن مصلحته التجارية تقضي أن يساير الحميريين اليهود، وإلاّ فقدّ صلته باللّبان ومصادره^(٢).

ومن ناحية أخرى أكدت المصادر أن مؤسسات تنظيم الحرم المكي التي يُنسبُ إنشاؤها لقصيّ إنما كانت على صلة مباشرة بالتجارة قدر اتصالها بالدين أيضاً. فتذكر الروايات أن مضاضاً بن عمرو الجهمي، قال في إحدى خطبه لحثّ المكّيّين على حماية الغرباء في الحرم جلباً للتجارة: «ولا تظلموا من دخله وجاءه معظماً لحرمته أو أخر جاء بايعاً لسلعته أو مرتغباً في جواركم»^(٣). ولم تكن دار الندوة التي أنشأها قصيّ بعيدة عن أمور التجارة. كانت المشاورة تُقضى فيها، وكانت ملاصقة للمسجد الحرام من ناحية الجهة الشامية من الكعبة. لكن القوافل أيضاً كانت ترحل منها للتجارة، وفي فئانها كانت تحط حولتها إذا رجعت^(٤). وكان في دار الندوة، في تقدير بعض الباحثين، نوع من

(١) ابن قتيبة: المعارف، ص ٦٤٠، ٦٤١. وكذلك Hamidullah: Al-Tiāf, p. 296. وانظر منازل قبائل عذرة شمال وادي القرى بين الحجاز والشام في مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، ص ٥٥، ٥٨، ٥٩، ٧٨، ٧٩.

(٢) الأزرقى: ج ١، ص ٤٨. وانظر الشريف: المرجع السابق، ص ١٨٧.

(٣) ياقوت: مادة مكة. وانظر الشريف: المرجع ذاته، ص ١١٥.

المحفوظات، لحفظ المعاهدات والمواثيق التجارية والمحالقات. وكان من مهام القائمين على دار الندوة، أن يعينوا التجار بالمشورة والدرس والنصح وتبادل الخبرة، وأن يشرفوا على جمع المكوس^(١).

ج - السياسة والحرب

لكن دار الندوة كانت في الأصل مؤسسة سياسية أنشأها قصي، على ما ترويه المصادر. وكانت تؤوي نوعاً من القيادة الجماعية. وقد قارن مونتغمري - وات الملا المكي في دار الندوة بمجالس أثنية الديمقراطية، فقال إن المساواة في نظام مكة السياسي لم يبلغ ما بلغته المساواة في أثنية. ومع أن أعضاء الملا كانوا متساوين، إلا أن المكيين اهتموا على ما يبدو إلى طريقة اختيار ممثلهم في هذا المجلس. ولكن الملا كان أعظم وأقدر على تحمل تبعات من الإكليزيا الأثنية، وكانت قراراته تستند إلى صفات رجاله وسياستهم، أكثر مما كانت تستند إلى بلاغة قد تبدل الباطل حقاً والحق باطلاً. وفيما كانت المجالس الأثنية تقدّم الأخلاق والمثل على الصفات البشرية الأخرى، كان المكّيون مهتمين أكثر بالكفاءات العملية والجدوى في القيادة^(٢). وكانت دار الندوة تجتمع لبحث شؤون مكة، وكان يلتزم في الدار أيضاً مجلس العائلة أو نادي القوم لتداول الشؤون الخاصة بالبطون والأفخاذ، دون سائر العشائر. ولا شك في أن الشراء كان من المؤهلات للنفوذ السياسي في هذه المجالس. لكن السن وقوة العشيرة والخبرة والحكمة كانت من القيم المكيّة المرموقة. ولم يكن في قرارات دار الندوة ما يُستَم منه أي نوع من أنواع القسر، بل كان التزام الإجماع والتقليد والعرف يوحى للمكّيين سلوكاً جماعياً يبدو اختيارياً^(٣). وقال الشريف إن قرارات مجلس الملا لم تكن ملزمة للقبائل إلا عند الإجماع، ولذا لم يكن لعشيرة سلطان على عشيرة، بل كانت العشائر حرة تماماً، لكن اشتراكها معاً في المصلحة

(١) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ١٣٧، ١٤١. وكذلك: Haji Hassan: op.cit., pp. 75, 76.

(٢) Montgomery-Watt: Mohammad at Mecca..., pp. 9, 10.

(٣) Rabbath: L'Orient Chrétien..., p. 173.

كان يخفف من غلواء هذا الأمر^(١).

وإذا كانت العشائر خاضعة اختياراً لمجلس الملا، كان المجلس مصدر السيادة المكيّة. ذلك أن مدينة مكة كانت مستقلة وتمتع بالسيادة التي تمتعت بها كل الدول المستقلة، كل في نطاقه. وكانت تعقد المواثيق والعهد مع الأجانب وتقيم العلاقات معهم، دونما رجوع إلى أي سلطان غير سلطان الملا. وكانت العلاقات بالخارج ينظمها سفير مُنافر، أي مُحَاكِم، وظيفته يتوارثها الأبناء عن الآباء. وقد تحدث ابن عبد ربه في «عقده الفريد»، وكذا المقرئ في «الخبر عن البشر»، عمّا يشبه وزير الخارجية في النظم السياسية الحديثة، فكان في دار الندوة مجلس من عشرة يمثلون مختلف البطون القرشيّة، فإذا نشبت حرب أرسل السفير المنافر بسلطات مطلقة. وكان عمر بن الخطاب يشغل هذا المنصب قبل الإسلام. ومن مهام هذا المنصب أيضاً أن يُنَافِر السفير القبائل التي تتحدى السلطة المكيّة^(٢).

ولم تكن المؤسسة السياسية المكيّة هذه مجردة من الأداة العسكرية، وإن كان معظم هذه الأداة من حلفاء قریش، لا المكّيين أنفسهم. ذلك أن سر القوة العسكرية التي مكّنت قریشاً من أن تسود القبائل هو أن الأحلاف جمعت للقرشيين ما لا قبل لأية قبيلة أو حلف بين الأعراب به. لقد كانت مشكلة بيزنطة والفرس مع قبائل العرب، أن هذه القبائل كانت قادرة على الدوام على قطع خطوط التجارة الدولية. وقد ترددت الدولتان بين سياسة القمع العسكري التي أثبتت عقمها، وبين المصانعة والمخالفة. لكن للمصانعة أو المخالفة ثمناً كانت الإدارة البيزنطية أو الفارسية تدفعه لكف شر الأعراب، أو طلباً لحمايتهم. وكان موطن ضعف هذه السياسة أن القبائل الحليفة كثيراً ما كانت تطلب ثمناً مزيداً أو تطمح إلى حصة في التجارة أو في مكاسبها. وقد يبلغ بها الطموح ما بلغه بتدمر من سعي إلى السيادة السياسية الكاملة. أما مكة، فإنها لم تصطنع من القبائل

(١) الشريف: المرجع السابق، ص ١١٢، ١١٣.

(٢) ابن عبد ربه: المقد... ج ٣، ص ٣١٤. وكذلك: Hamiddullah: Al Tāf..., pp. 296, 297.

حلفاء وخفراء لقوافلها أو مقاتلين مرتزقة^(١)، بل انها اشركت هذه القبائل بتجارتها، فلم تعد من حاجة إلى حراسة أو خفارة. بل ان حروب الفجار قد تكون دليلاً على أن تجارة القبائل والقوافل لم تعد بفضل المشروع المكي والإيلاف القرشي بحاجة إلى من يحميها من القبائل، بل إلى من يحميها من الدول أو الدويلات عند أطراف الجزيرة العربية. وهذا التبدل الحاسم في موقف القبائل العربية من تجارة القوافل على الأرجح، هو الذي جعل هذه التجارة آمنة مزدهرة.

لقد جمعت مكة القبائل من حولها على مصلحة مشتركة، فأصبحت قدرة دولة الأطراف على إغراء القبائل ضعيفة للغاية، وتحولت قريش إلى ما يشبه الزعامة الاقتصادية والسياسية. ولم يكن صعباً أن تتحول إلى زعامة عسكرية أيضاً طالما أن القبائل كانت ترى أن مصلحتها هي في نصرة قريش، وحماية تجارتها.

د - لغز الأحابيش

ويؤثر في المصادر الإسلامية إجمالاً أن بين حلفاء مكة الذين حاربوا إلى جانب قريش في حقبة متوالية، ما يُسمى الأحابيش. وقد ارتأى لامنس أن هؤلاء الأحابيش إنما كانوا من الرقيق الحبشي الذي استقر في مكة وجوارها بعد هزيمة أبرهة، فتكاثروا وانتظموا، وصار حليفاً ونصيراً لمكة، ينفر معها إلى الحرب. وقد خالف مونتغمري - وات هذه المقالة وارتأى أن الأحابيش كانوا قبائل عربية أقحاحاً اجتمعوا عند جبل حُبَشِي في أسفل مكة وتعاهدوا على نصرة قريش وحماية الحرم، فسُمُّوا بالأحابيش^(٢). ويبدو أن هذه المسألة لم تنجَل بعد عن رأي قاطع، ولا بد لها من بحث مزيد. إلا أن ما يهَمُّنا في هذا المقام هو المكانة التي تبوأها الأحابيش في إطار القوة العسكرية المكية وما إذا كانت هذه المؤسسة

(١) Montgomery-Watt: Muhammad at Mecca..., pp. 10, 11. وبيضون: الحجاز...، ص ٥٠.

(٢) Lammens, Henri: Les Aḥābiṣ et l'organisation militaire de la Mecque, au siècle de l'hé-

Montgomery-Watt: Muhammad at Mecca..., pp. 425 - 482. وكذلك: Journal Asiatique, 1916, pp. 425 - 482.

Mecca..., Excursus A, pp. 154 - 157.

قد أنشئت مع الإيلاف في مطلع القرن السادس أو قبل ذلك الزمن، أو بعده.

وقد جاء في ذكر صلح الحديبية في «السيرة النبوية» أن بعض الرسل الذين أوفدتهم قريش لمفاوضة المسلمين لم يستسيغوا سلوك القرشيين، ومنهم الحُليّس بن يزيد من عبد مناة بن كنانة، الذي قال لزعماء مكة: «يا معشر قريش، والله ما على هذا حالناكم، ولا على هذا عاقدناكم. أَيْصَدُّ عن بيت الله مَنْ جاء معظماً له؟ والذي نفس الحُليّس بيده لَتَخْلُنَّ بين محمد وبين ما جاء له أو لَأَنْفِرَنَّ بالأحابيش نفرة رجل واحد»^(١). وهذا الخبر يدل على الأقل، على أن الأحابيش كانوا يشكلون قوة عسكرية حليفة لمكة في العهد النبوي. إلا أن هذه القوة كانت سابقة للإسلام ولا شك. إذ يُفرد محمد بن حبيب في «المنمق» صفحات لأخبار الأحابيش في الجاهلية^(٢). فيقول في بعض ما يقول: «والأحابيش بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة، والقارة بنو الهون بن خزيمة وهم عَصَلٌ والديش ويطوئها كلها وبنو المصطلق من خزاعة، وذلك لأنهم كانوا حلفاء لبني الحارث بن عبد مناة فدخلوا معهم. فلما التقوا بذات نكيف وهو من ناحية يلملم، وقائد الناس يومئذ المطلب بن عبد مناف وهو في ألف من بني عبد مناف، والأحابيش، ومع بني عبد مناف حلفاؤها من قريش، وقائد الأحابيش حُطْمُط بن سعد أحد بني الحارث بن عبد مناة وأبو حارثة والحبيش بن عمرو وهم رؤساء بني الحارث بن عبد مناة... ثم اجتمعت قريش والأحابيش جميعاً فأخرجوا بني ليث من تهامة»^(٣). إن هذا الخبر إذا صح بما فيه، فإنه يدل على أن الأحابيش كانوا حلفاء لمكة منذ أوائل القرن الميلادي السادس، إذ كان يقودهم ويقود قريشاً المطلب بن عبد مناف أخو هاشم المؤسس المفترض للإيلاف.

غير أن «المنمق» نفسه يتضمن إشارة غير مباشرة، قد تدل على أن هذه المؤسسة العسكرية التي كان يشكلها تحالف الأحابيش مع مكة كان سابقاً حتى

(١) سيرة ابن هشام: ج ٣، ص ٣٦١.

(٢) المنمق، ص ١٢٦ - ١٣٢، وكذلك ص ١٩٨، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٣٠، ٢٥٢.

(٣) المنمق، ص ١٢٦، ١٢٧.

للإيلاف وزمن نشوئه. ففي موضع آخر من الكتاب، يروي محمد بن حبيب موقعة أخرى نصرت فيها الأحابيش قريشاً، ثم يضيف قوله: «لَمَّا غَلَبَ قَصِيَّ عَلَى مَكَّة»^(١). وبذلك يكون مؤسس دار الندوة، المجلس السياسي والتجاري في مكة، قد جمع حلفاً عسكرياً، ليكون هذا الحلف أداة عسكرية في يده. وإذا كان يتعدّل القول إن قصياً هو أول من جمع هذا الحلف من حول قريش، فإن خبر هذا الحلف يدعمه أن الحيا والمصطلق وهما من القبائل المذكورة ضمن الأحابيش، تنتمي إلى خزاعة، التي انضمت إلى حلفاء قريش بعد إخراجها من مكة، فيما ينتمي بنو مالك إلى كنانة، وهي من أحلاف قريش غير المنازعين.

ولا ندح هنا عن كَرّ القول إن التنظيم السياسي والعسكري الذي ابتدئته القيادة القرشيّة قبل الإيلاف، لم يكن غرضه بالضرورة تسيير التجارة الدولية، إذ يستطيع هذا التنظيم أن يسدّ حاجات أخرى أيضاً، منها القيام على نظام الحج والأسواق الموسمية المحلية وربما تنظيم تجارة اللبان اليمني لحساب الدولة الحميرية، أو من ورث الحكم في اليمن من بعدها. لكن الإيلاف، حين نشأ، استوعب فيما يبدو هذه المؤسسات وأدرجها في نظامه الواسع، بعدما اتسعت آفاق التجارة المكية. ولا شك في أن بقاء دار الندوة والحلف مع الأحابيش وغيرهما، قائمين حتى ظهور الإسلام، لدليل على استيعاب الإيلاف لهذه المؤسسات، وقدرته على تكييفها ضمن أطره.

هـ - إطعام الحجاج والتجار

من بين الوظائف الست التي قالت المصادر العربية الإسلامية إن قصياً أنشأها من أجل القيام على خدمة الحرم المكي، وهي الحجابة والبيّقة والإفادة والندوة واللواء والرياسة، وظيفتان اختصتا بخدمة غير المكّنين ممن يأتون مُحرمين، وهما الإفادة والسقاية: «وكانت الإفادة خُرْجاً تُخرجه قريش في كل موسم من أموالها إلى قصي بن كلاب، فيصنع به طعاماً للحاج، فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد، وذلك أن قصياً فرضه على قريش، فقال لهم حين أمرهم

(١) المنقّ، ص ٢٧٦.

به: يا معشر قريش، إنكم جيران الله، وأهل بيته، وأهل الحرم، وإن الحجاج ضيف الله [وأهله] وزوّار بيته، وهم أحقّ الضيف بالكرامة، فاجعلوا لهم طعاماً وشرباً أيام الحجّ حتى يصدروا عنكم، ففعلوا، فكانوا يُخرجون لذلك كل عام من أموالهم خُرْجاً، فيدفعونه إليه، فيصنعه طعاماً للناس أيام منى، فجرى ذلك من أمره في الجاهلية على قومه حتى قام الإسلام، ثم جرى في الإسلام إلى يومك هذا، فهو الطعام الذي يصنعه السلطان كل عام يبنى للناس حتى ينقضي الحجّ»^(٢). وقد سبقت الإشارة إلى الرفادة والسقاية، وحضر هاشم بن عبد مناف بثر زمزم والأقوال في ذلك. وتقديرنا وفقاً للمصادر، أن قصياً ربّما أنشأ الرفادة والسقاية معاً، وإن كانت السقاية لا تعني بالضرورة أن بثر زمزم كانت هي مصدر السقاية منذ البداية، لأن مكة كانت تحتوي آباراً عديدة، على نحو ما أسلفنا. فالرفادة والسقاية قامتا منذ عهد قصي على الأقل، إن لم تسبقا عهده فأهملتهما جرهم ثم خزاعة على ما توحى به بعض النصوص^(٣). وأما حضر هاشم أو ابنه عبد المطلب لبثر زمزم فعله كان تحسباً للخدمات وتنشيطاً للوظائف، بعد قيام الإيلاف وازدياد عدد الحجاج. وقد تداولت على هذه الخدمات والوظائف عهود أهملتها. فجفّت البئر قبل رحيل جرهم ودُفن فيها الغزالان والسيف المذهبة^(٤)، ثم أحيّاها آخرون في عهود لاحقة، وفقاً لخمول حركة الحج والتجارة، أو ازدهارها.

وإذا كانت الرفادة والسقاية لا تفسّران وحدهما إقبال العرب على مكة للحج والتجارة، فإن إقبال العرب على مكة للحج والتجارة يستطيع أن يفسّر نشوء الرفادة والسقاية. ولا بد من أن نلاحظ، أن الحج لم يكن في الأصل يقترب

(١) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ١٤١، ١٤٢. وانظر أيضاً المنقّ، ص ١٩. والأوائل، ص ١٦، ١٧.

(٢) الشريف، المرجع السابق، ص ١٠٢، ١١١، ١١٢.

(٣) Hawting, G.R.: The Disappearance and Rediscovery of Zamzam and the Well of the Karba, B.S.O.A.S., vol. 43 (1980), pp. 44 - 54. وانظر الشريف: المرجع السابق، ص ١٣٧.

مباشرة بمكاسب أو رسوم أو أموال نجنيها فريش أو تنقاصها، أما التجارة فكانت مورد كسب عظيم، بل كانت المورد الوحيد للرزق في هذه المدينة الصحراوية. ولذا يمكن أن نجزم بثقة واطمئنان، أن الرفاة والسقابة لم تنفوا إلا بفضل التجارة ومكاسبها. ولولا هذه التجارة لما استطاعت فريش أن تخرج الخرج كل عام لإطعام الحجيج. بل نمة من يرتزون أن فريشاً مدينةً يبقونها للتجارة. وقد نجد في هذه العلاقة سبب ارتباط المواسم والحج بالتجارة المكيّة. فالتجارة هي المورد الذي أنفقت منه فريش على إعداد الخدمات لزوار البيت، فاستطاعت أن تنشئ نظامي الرفاة والسقابة. وفي المقابل، جلبت الرفاة على فريش كثيراً من الفوائد الأدبية والمادية. فالمؤاكلة تُعَدُّ عهد حوار وحلفاً عند العرب. وكان الإطعام والضيافة من أعظم المحامد. فلما كانت فريش تُطعم الحجيج من مختلف القبائل العربية فكانت كانت تعقد حواراً مع هذه القبائل. ولم يكن غريباً أن يسهل هذا مرور قوافلها آمنة في منازل العرب. وتبرز إحساس القبائل بالقيادة المكيّة، ويتقدّم فريش على سواها من العرب، لأن الحرم المكي كان آمناً أمناً شبه مطلق، فلا يؤخذ فيه بثأر، ولا يُهدى على أحد ضمن حدوده كائنات ما كان السبب. وقد كان ذاك حال الأمن أيضاً في جزيرة العرب في الأشهر الحرم نظرياً، لكن الحرم المكي كان آمناً كل أشهر السنة، حتى للوحش والطير. وقد دانت العرب لمكة في ذلك لحاحنها إلى منطقة آمنة ينشونها لأداء شعائرتهم الدينية وتبادل تجارتهم^(١).

وتشير بعض المصادر إلى أن السقابة لم تكن ماء على الدوام، إذ أسقى بعضهم المحتاج نبياً وليناً. بل إن أبا أمية بن المغيرة المخزومي كان يفتي المحتاج العسل. وكان يُسَمَّى زاد الركب، لأنه كان أيضاً يُطعم الفائتين على قوافل التجار^(٢). ولم يكن الإطعام والإسقاء حكراً لأحد، إذ كان لكل أن يخرج من ماله ما شاء لهذا الأمر. لكن قول المصادر إن الرفاة والسقابة كانتا لفلان من

(١) الشريفة: المرجع ذاته، ص ١١٨، ١١٩، ١٧١، ١٧٢.

(٢) المحبر، ص ١٧٦ وما بعد. وكذلك انظر حوار علي، ص ٥٠، ص ٨٣، ٨٤.

الفرشين، إنما يعني أن فريشةً حملت على الفرشين كل عام فكتوا يؤقونها لصاحب الرفاة أو السقابة، فكان هو يتولى الإحاطة في الوحة التي تُكَلَّف الانفاق فيه. وما زاد على ذلك من كرم الفرشين هناك أمره لمن شاء. وقد جمع قصي كل المآثر في حياته، لكن ابن هشام يقول إنه حين ذكر قصي ووزق عطمه وكان حيد الدار يكرمه، وكان عد صاف قد شرف في زمان أبيه، وذهب كل مذهب... قال قصي لعبد الدار: أما والله يا سي لألطفك بالقوم، وإن كانوا قد شرفوا عليك، لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت تمنعها له [السادة أو الجبابرة]، ولا تعقد لفريش لواء لحربها إلا أنت بذلك [القواء]، ولا يشرب أحد بمكة إلا من سقابتك [السقابة]، ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاماً إلا من طعامك [الرفاة]، ولا تقطع فريش امرأة من أمورنا إلا في ذلك [الدوة]، فأعطاه داره دار الندوة، التي لا تقضي فريش امرأة من أمورنا إلا بها، وأعطاه الحجابة واللواء والسقابة والرفاة^(١). ولما اختلف أبناء قصي على أحبيهم الأكبر بعد مات أبيهم، تولّى عد شمس الرفاة والسقابة، لكن أحد هاشمياً من عد صاف ولي الرفاة والسقابة من بعده، لكنرة أسفاره. وقبل إنه سقى هاشمياً لهشمه الخبز وإطعامه الشهد للحناح بمكة^(٢).

ثانياً: المفائد السياسية والدينية

١- الخمس وخزنة مكة

أحاطت فريش بإلهامها مجموعة من المفائد السياسية والدينية التي كان بعضها قائماً قبل الإبلان، كالأشهر الحرم، وشأ بعضها الآخر بعد الإبلان، كالحماسة على الأرحح، وحلف الأحابيش رسماً. وبس ابن هشام إلى ابن إسحاق في السيرة السوية قوله: «وقد كانت فريش، لا لفرى أقل الغيل أم بحدّه، ابتدعت رأي الخمس رأياً راوه وأداروه، فالتوا: نحن سو إبراهيم وأهل

(١) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ١١١. وكذلك انظر اللامي، ص ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٧. انظر حيد، ص ٥٣.

(٢) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٧. انظر حيد، ص ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١١، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٦، ٣١٧، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٧٧، ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨٠، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٣، ٣٨٤، ٣٨٥، ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩٠، ٣٩١، ٣٩٢، ٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٥، ٣٩٦، ٣٩٧، ٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠١، ٤٠٢، ٤٠٣، ٤٠٤، ٤٠٥، ٤٠٦، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٠٩، ٤١٠، ٤١١، ٤١٢، ٤١٣، ٤١٤، ٤١٥، ٤١٦، ٤١٧، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢٠، ٤٢١، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٣٣، ٤٣٤، ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٣٨، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٥٩، ٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٢، ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٦٥، ٤٦٦، ٤٦٧، ٤٦٨، ٤٦٩، ٤٧٠، ٤٧١، ٤٧٢، ٤٧٣، ٤٧٤، ٤٧٥، ٤٧٦، ٤٧٧، ٤٧٨، ٤٧٩، ٤٨٠، ٤٨١، ٤٨٢، ٤٨٣، ٤٨٤، ٤٨٥، ٤٨٦، ٤٨٧، ٤٨٨، ٤٨٩، ٤٩٠، ٤٩١، ٤٩٢، ٤٩٣، ٤٩٤، ٤٩٥، ٤٩٦، ٤٩٧، ٤٩٨، ٤٩٩، ٥٠٠، ٥٠١، ٥٠٢، ٥٠٣، ٥٠٤، ٥٠٥، ٥٠٦، ٥٠٧، ٥٠٨، ٥٠٩، ٥١٠، ٥١١، ٥١٢، ٥١٣، ٥١٤، ٥١٥، ٥١٦، ٥١٧، ٥١٨، ٥١٩، ٥٢٠، ٥٢١، ٥٢٢، ٥٢٣، ٥٢٤، ٥٢٥، ٥٢٦، ٥٢٧، ٥٢٨، ٥٢٩، ٥٣٠، ٥٣١، ٥٣٢، ٥٣٣، ٥٣٤، ٥٣٥، ٥٣٦، ٥٣٧، ٥٣٨، ٥٣٩، ٥٤٠، ٥٤١، ٥٤٢، ٥٤٣، ٥٤٤، ٥٤٥، ٥٤٦، ٥٤٧، ٥٤٨، ٥٤٩، ٥٥٠، ٥٥١، ٥٥٢، ٥٥٣، ٥٥٤، ٥٥٥، ٥٥٦، ٥٥٧، ٥٥٨، ٥٥٩، ٥٦٠، ٥٦١، ٥٦٢، ٥٦٣، ٥٦٤، ٥٦٥، ٥٦٦، ٥٦٧، ٥٦٨، ٥٦٩، ٥٧٠، ٥٧١، ٥٧٢، ٥٧٣، ٥٧٤، ٥٧٥، ٥٧٦، ٥٧٧، ٥٧٨، ٥٧٩، ٥٨٠، ٥٨١، ٥٨٢، ٥٨٣، ٥٨٤، ٥٨٥، ٥٨٦، ٥٨٧، ٥٨٨، ٥٨٩، ٥٩٠، ٥٩١، ٥٩٢، ٥٩٣، ٥٩٤، ٥٩٥، ٥٩٦، ٥٩٧، ٥٩٨، ٥٩٩، ٦٠٠، ٦٠١، ٦٠٢، ٦٠٣، ٦٠٤، ٦٠٥، ٦٠٦، ٦٠٧، ٦٠٨، ٦٠٩، ٦١٠، ٦١١، ٦١٢، ٦١٣، ٦١٤، ٦١٥، ٦١٦، ٦١٧، ٦١٨، ٦١٩، ٦٢٠، ٦٢١، ٦٢٢، ٦٢٣، ٦٢٤، ٦٢٥، ٦٢٦، ٦٢٧، ٦٢٨، ٦٢٩، ٦٣٠، ٦٣١، ٦٣٢، ٦٣٣، ٦٣٤، ٦٣٥، ٦٣٦، ٦٣٧، ٦٣٨، ٦٣٩، ٦٤٠، ٦٤١، ٦٤٢، ٦٤٣، ٦٤٤، ٦٤٥، ٦٤٦، ٦٤٧، ٦٤٨، ٦٤٩، ٦٥٠، ٦٥١، ٦٥٢، ٦٥٣، ٦٥٤، ٦٥٥، ٦٥٦، ٦٥٧، ٦٥٨، ٦٥٩، ٦٦٠، ٦٦١، ٦٦٢، ٦٦٣، ٦٦٤، ٦٦٥، ٦٦٦، ٦٦٧، ٦٦٨، ٦٦٩، ٦٧٠، ٦٧١، ٦٧٢، ٦٧٣، ٦٧٤، ٦٧٥، ٦٧٦، ٦٧٧، ٦٧٨، ٦٧٩، ٦٨٠، ٦٨١، ٦٨٢، ٦٨٣، ٦٨٤، ٦٨٥، ٦٨٦، ٦٨٧، ٦٨٨، ٦٨٩، ٦٩٠، ٦٩١، ٦٩٢، ٦٩٣، ٦٩٤، ٦٩٥، ٦٩٦، ٦٩٧، ٦٩٨، ٦٩٩، ٧٠٠، ٧٠١، ٧٠٢، ٧٠٣، ٧٠٤، ٧٠٥، ٧٠٦، ٧٠٧، ٧٠٨، ٧٠٩، ٧١٠، ٧١١، ٧١٢، ٧١٣، ٧١٤، ٧١٥، ٧١٦، ٧١٧، ٧١٨، ٧١٩، ٧٢٠، ٧٢١، ٧٢٢، ٧٢٣، ٧٢٤، ٧٢٥، ٧٢٦، ٧٢٧، ٧٢٨، ٧٢٩، ٧٣٠، ٧٣١، ٧٣٢، ٧٣٣، ٧٣٤، ٧٣٥، ٧٣٦، ٧٣٧، ٧٣٨، ٧٣٩، ٧٤٠، ٧٤١، ٧٤٢، ٧٤٣، ٧٤٤، ٧٤٥، ٧٤٦، ٧٤٧، ٧٤٨، ٧٤٩، ٧٥٠، ٧٥١، ٧٥٢، ٧٥٣، ٧٥٤، ٧٥٥، ٧٥٦، ٧٥٧، ٧٥٨، ٧٥٩، ٧٦٠، ٧٦١، ٧٦٢، ٧٦٣، ٧٦٤، ٧٦٥، ٧٦٦، ٧٦٧، ٧٦٨، ٧٦٩، ٧٧٠، ٧٧١، ٧٧٢، ٧٧٣، ٧٧٤، ٧٧٥، ٧٧٦، ٧٧٧، ٧٧٨، ٧٧٩، ٧٨٠، ٧٨١، ٧٨٢، ٧٨٣، ٧٨٤، ٧٨٥، ٧٨٦، ٧٨٧، ٧٨٨، ٧٨٩، ٧٩٠، ٧٩١، ٧٩٢، ٧٩٣، ٧٩٤، ٧٩٥، ٧٩٦، ٧٩٧، ٧٩٨، ٧٩٩، ٨٠٠، ٨٠١، ٨٠٢، ٨٠٣، ٨٠٤، ٨٠٥، ٨٠٦، ٨٠٧، ٨٠٨، ٨٠٩، ٨١٠، ٨١١، ٨١٢، ٨١٣، ٨١٤، ٨١٥، ٨١٦، ٨١٧، ٨١٨، ٨١٩، ٨٢٠، ٨٢١، ٨٢٢، ٨٢٣، ٨٢٤، ٨٢٥، ٨٢٦، ٨٢٧، ٨٢٨، ٨٢٩، ٨٣٠، ٨٣١، ٨٣٢، ٨٣٣، ٨٣٤، ٨٣٥، ٨٣٦، ٨٣٧، ٨٣٨، ٨٣٩، ٨٤٠، ٨٤١، ٨٤٢، ٨٤٣، ٨٤٤، ٨٤٥، ٨٤٦، ٨٤٧، ٨٤٨، ٨٤٩، ٨٥٠، ٨٥١، ٨٥٢، ٨٥٣، ٨٥٤، ٨٥٥، ٨٥٦، ٨٥٧، ٨٥٨، ٨٥٩، ٨٦٠، ٨٦١، ٨٦٢، ٨٦٣، ٨٦٤، ٨٦٥، ٨٦٦، ٨٦٧، ٨٦٨، ٨٦٩، ٨٧٠، ٨٧١، ٨٧٢، ٨٧٣، ٨٧٤، ٨٧٥، ٨٧٦، ٨٧٧، ٨٧٨، ٨٧٩، ٨٨٠، ٨٨١، ٨٨٢، ٨٨٣، ٨٨٤، ٨٨٥، ٨٨٦، ٨٨٧، ٨٨٨، ٨٨٩، ٨٩٠، ٨٩١، ٨٩٢، ٨٩٣، ٨٩٤، ٨٩٥، ٨٩٦، ٨٩٧، ٨٩٨، ٨٩٩، ٩٠٠، ٩٠١، ٩٠٢، ٩٠٣، ٩٠٤، ٩٠٥، ٩٠٦، ٩٠٧، ٩٠٨، ٩٠٩، ٩١٠، ٩١١، ٩١٢، ٩١٣، ٩١٤، ٩١٥، ٩١٦، ٩١٧، ٩١٨، ٩١٩، ٩٢٠، ٩٢١، ٩٢٢، ٩٢٣، ٩٢٤، ٩٢٥، ٩٢٦، ٩٢٧، ٩٢٨، ٩٢٩، ٩٣٠، ٩٣١، ٩٣٢، ٩٣٣، ٩٣٤، ٩٣٥، ٩٣٦، ٩٣٧، ٩٣٨، ٩٣٩، ٩٤٠، ٩٤١، ٩٤٢، ٩٤٣، ٩٤٤، ٩٤٥، ٩٤٦، ٩٤٧، ٩٤٨، ٩٤٩، ٩٥٠، ٩٥١، ٩٥٢، ٩٥٣، ٩٥٤، ٩٥٥، ٩٥٦، ٩٥٧، ٩٥٨، ٩٥٩، ٩٦٠، ٩٦١، ٩٦٢، ٩٦٣، ٩٦٤، ٩٦٥، ٩٦٦، ٩٦٧، ٩٦٨، ٩٦٩، ٩٧٠، ٩٧١، ٩٧٢، ٩٧٣، ٩٧٤، ٩٧٥، ٩٧٦، ٩٧٧، ٩٧٨، ٩٧٩، ٩٨٠، ٩٨١، ٩٨٢، ٩٨٣، ٩٨٤، ٩٨٥، ٩٨٦، ٩٨٧، ٩٨٨، ٩٨٩، ٩٩٠، ٩٩١، ٩٩٢، ٩٩٣، ٩٩٤، ٩٩٥، ٩٩٦، ٩٩٧، ٩٩٨، ٩٩٩، ١٠٠٠، ١٠٠١، ١٠٠٢، ١٠٠٣، ١٠٠٤، ١٠٠٥، ١٠٠٦، ١٠٠٧، ١٠٠٨، ١٠٠٩، ١٠١٠، ١٠١١، ١٠١٢، ١٠١٣، ١٠١٤، ١٠١٥، ١٠١٦، ١٠١٧، ١٠١٨، ١٠١٩، ١٠٢٠، ١٠٢١، ١٠٢٢، ١٠٢٣، ١٠٢٤، ١٠٢٥، ١٠٢٦، ١٠٢٧، ١٠٢٨، ١٠٢٩، ١٠٣٠، ١٠٣١، ١٠٣٢، ١٠٣٣، ١٠٣٤، ١٠٣٥، ١٠٣٦، ١٠٣٧، ١٠٣٨، ١٠٣٩، ١٠٤٠، ١٠٤١، ١٠٤٢، ١٠٤٣، ١٠٤٤، ١٠٤٥، ١٠٤٦، ١٠٤٧، ١٠٤٨، ١٠٤٩، ١٠٥٠، ١٠٥١، ١٠٥٢، ١٠٥٣، ١٠٥٤، ١٠٥٥، ١٠٥٦، ١٠٥٧، ١٠٥٨، ١٠٥٩، ١٠٦٠، ١٠٦١، ١٠٦٢، ١٠٦٣، ١٠٦٤، ١٠٦٥، ١٠٦٦، ١٠٦٧، ١٠٦٨، ١٠٦٩، ١٠٧٠، ١٠٧١، ١٠٧٢، ١٠٧٣، ١٠٧٤، ١٠٧٥، ١٠٧٦، ١٠٧٧، ١٠٧٨، ١٠٧٩، ١٠٨٠، ١٠٨١، ١٠٨٢، ١٠٨٣، ١٠٨٤، ١٠٨٥، ١٠٨٦، ١٠٨٧، ١٠٨٨، ١٠٨٩، ١٠٩٠، ١٠٩١، ١٠٩٢، ١٠٩٣، ١٠٩٤، ١٠٩٥، ١٠٩٦، ١٠٩٧، ١٠٩٨، ١٠٩٩، ١١٠٠، ١١٠١، ١١٠٢، ١١٠٣، ١١٠٤، ١١٠٥، ١١٠٦، ١١٠٧، ١١٠٨، ١١٠٩، ١١١٠، ١١١١، ١١١٢، ١١١٣، ١١١٤، ١١١٥، ١١١٦، ١١١٧، ١١١٨، ١١١٩، ١١٢٠، ١١٢١، ١١٢٢، ١١٢٣، ١١٢٤، ١١٢٥، ١١٢٦، ١١٢٧، ١١٢٨، ١١٢٩، ١١٣٠، ١١٣١، ١١٣٢، ١١٣٣، ١١٣٤، ١١٣٥، ١١٣٦، ١١٣٧، ١١٣٨، ١١٣٩، ١١٤٠، ١١٤١، ١١٤٢، ١١٤٣، ١١٤٤، ١١٤٥، ١١٤٦، ١١٤٧، ١١٤٨، ١١٤٩، ١١٥٠، ١١٥١، ١١٥٢، ١١٥٣، ١١٥٤، ١١٥٥، ١١٥٦، ١١٥٧، ١١٥٨، ١١٥٩، ١١٦٠، ١١٦١، ١١٦٢، ١١٦٣، ١١٦٤، ١١٦٥، ١١٦٦، ١١٦٧، ١١٦٨، ١١٦٩، ١١٧٠، ١١٧١، ١١٧٢، ١١٧٣، ١١٧٤، ١١٧٥، ١١٧٦، ١١٧٧، ١١٧٨، ١١٧٩، ١١٨٠، ١١٨١، ١١٨٢، ١١٨٣، ١١٨٤، ١١٨٥، ١١٨٦، ١١٨٧، ١١٨٨، ١١٨٩، ١١٩٠، ١١٩١، ١١٩٢، ١١٩٣، ١١٩٤، ١١٩٥، ١١٩٦، ١١٩٧، ١١٩٨، ١١٩٩، ١٢٠٠، ١٢٠١، ١٢٠٢، ١٢٠٣، ١٢٠٤، ١٢٠٥، ١٢٠٦، ١٢٠٧، ١٢٠٨، ١٢٠٩، ١٢١٠، ١٢١١، ١٢١٢، ١٢١٣، ١٢١٤، ١٢١٥، ١٢١٦، ١٢١٧، ١٢١٨، ١٢١٩، ١٢٢٠، ١٢٢١، ١٢٢٢، ١٢٢٣، ١٢٢٤، ١٢٢٥، ١٢٢٦، ١٢٢٧، ١٢٢٨، ١٢٢٩، ١٢٣٠، ١٢٣١، ١٢٣٢، ١٢٣٣، ١٢٣٤، ١٢٣٥، ١٢٣٦، ١٢٣٧، ١٢٣٨، ١٢٣٩، ١٢٤٠، ١٢٤١، ١٢٤٢، ١٢٤٣، ١٢٤٤، ١٢٤٥، ١٢٤٦، ١٢٤٧، ١٢٤٨، ١٢٤٩، ١٢٥٠، ١٢٥١، ١٢٥٢، ١٢٥٣، ١٢٥٤، ١٢٥٥، ١٢٥٦، ١٢٥٧، ١٢٥٨، ١٢٥٩، ١٢٦٠، ١٢٦١، ١٢٦٢، ١٢٦٣، ١٢٦٤، ١٢٦٥، ١٢٦٦، ١٢٦٧، ١٢٦٨، ١٢٦٩، ١٢٧٠، ١٢٧١، ١٢٧٢، ١٢٧٣، ١٢٧٤، ١٢٧٥، ١٢٧٦، ١٢٧٧، ١٢٧٨، ١٢٧٩، ١٢٨٠، ١٢٨١، ١٢٨٢، ١٢٨٣، ١٢٨٤، ١٢٨٥، ١٢٨٦، ١٢٨٧، ١٢٨٨، ١٢٨٩، ١٢٩٠، ١٢٩١، ١٢٩٢، ١٢٩٣، ١٢٩٤، ١٢٩٥، ١٢٩٦، ١٢٩٧، ١٢٩٨، ١٢٩٩، ١٣٠٠، ١٣٠١، ١٣٠٢، ١٣٠٣، ١٣٠٤، ١٣٠٥، ١٣٠٦، ١٣٠٧، ١٣٠٨، ١٣٠٩، ١٣١٠، ١٣١١، ١٣١٢، ١٣١٣، ١٣١٤، ١٣١٥، ١٣١٦، ١٣١٧، ١٣١٨،

الحرمة وولاية البيت وقطان مكة وسكانها، فليس لاحد من العرب مثل حقنا، ولا مثل منزلنا، ولا تعرف له العرب مثل ما تعرف لنا، فلا تعظموا شيئاً من الجبل كما تعظمون الحرم، فإنكم إن فعلتم ذلك استحققت العرب بحرمكم، وقالوا: قد عظموا من الجبل ما عظموا من الحرم، فتركوا الوقوف على عرفة والإفاضة منها، وهم يعرفون ويفزون أنها من المشاعر والحدود ودين إبراهيم - صلى الله عليه وسلم - ويرون لسان العرب [غير الخمس] أن يفنوا عليها وأن يفيضوا منها. إلا أنهم قالوا: نحن أهل الحرم فليس ينبغي لنا أن نخرج من الحرمة، ولا نعظم غيرها كما نعظمها. نحن الخمس والخمس أهل الحرم. ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من ساكن الجبل والحرم مثل الذي لهم بولادتهم إياهم^(١). ويتبين إذن أن قريشاً ابتدعت نظام الحماية لتسيير أهل الحرم من بقية العرب. والخمس (الجمع من الأخمس) هم في عرفهم: «فرش كلها وخزاعة لنزولها مكة ومجاورتها قريشاً، وكل من ولدت فرش من العرب [من كانت أمه قريشياً]، وكل من نزل مكة من قبائل العرب. فمن ولدت فرش: كلاب وكعب وعامر وكلب بنو ربيعة بن عامر بن صعصعة، وأمهم محمد بنت نهم بن غالب بن فهر... والحارث بن عبد مناة ومدلح بن مرة بن عبد مناة بن كنانة بنزولهم حول مكة، وعامر بن عبد مناة بن كنانة ومالك وملكان ابنا كنانة ونفيع وعدوان ويروبع بن حنظلة ومازن بن مالك بن عمرو بن نهم وأمهما حنذلة بنت فهر بن مالك بن النضر. ويقال إن بني عامر كلهم خمس لخمس إخوانهم من بني ربيعة بن عامر وعجلاف وهو ربان بن خلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة وجناب بن هبل بن عبد الله من كلب وأمهم أمية بنت ربيعة بن عامر بن صعصعة وأمها محمد بنت نهم الأدم بن غالب بن فهر. كذلك أدخلوا في الخمس كافة كلها^(٢).

والأحمس هو ابن البلد واس الحرم المقيم المنسب إلى الكعبة والحرم. ويلاحظ مما سلف، أن قريشاً توسعت في استئاع الناس من القبائل المحيطة

(١) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ٢١٦. وانظر في الخمس أيضاً المنذر، ص ١٤٣ - ١٤٦.

والشريف، المرجع السابق، ص ١٨٨.

(٢) المنذر، ص ١٧٨، ١٧٩. والشريف، المرجع ذاته، ص ١٨٩.

بها، وأدخلت في الخمس أصهارها، وبدأت زوج القرشية قوتها، فاعتد ذلك شرفاً له. ورأى سيمون أن الحماية، وإن كانت مؤسسة دينية، إلا أنها أتت بقريش عدداً من القبائل التي كان استئاعها مهماً جداً للتحلوة القرشية. فقد أحاط الخمس بالحرم المكي إحاطة السور بالمعظم وجعلوه منطقة سلام لا يخترقها إلا من ينتهك العقيدة الدينية^(١). ورأى أن في قول الله: «لَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا خَزْئاً أَيْباً وَنُحْطِفُ النَّاسَ مِنْ حَوْلِهِمْ»... الآية (العنكبوت: ٦٧)، إشارة إلى هذا السلام الذي كانت التحلوة منطقة لولاء. وقد كانت عقيدة الحماية عاملاً مهماً في إنشاء حالة احتشاعية بين مرثني البدولة والاسترقاق، خروصها ضمان الحرمة المكية لا في الأشهر الحرم وحسب، بل طوال أشهر السنة أيضاً. ولذا كانت الحماية جزءاً مكملًا لمهود الإبلات^(٢)، إذ أقيمت منطقة حراماً لا يحل فيها القتال في أي وقت، فكان أعظم المنع عند العرب أن ينتهك الحرم وحدوده بعدوان أو بني أو قال^(٣). وقد أصر سيمون على أن الحماية ما كان لها من معنى لولا أن قريشاً كانت قد أقيمت تحلوة مستقلة لها. واستبح من هذا أن معرفة زمن نشوء الحماية مهم جداً، لأنها تعني معرفة زمن نشوء التحلوة المكية المستقلة^(٤). إلا أن هذا الافتراض يعني أن قريشاً أعدت لكل شيء سلفاً، فأقامت التجارة ونظام الحماية وعقدت مهود الإبلات، وكأنها تنفذ مخططاً دقيقاً. وهذا غير مرجح، بل المرجح أن تحلوة مكة توسعت تدريجاً وطالعتها مشكلات، فأحدثت شروح مكة تنكر الحلول فلما نسى لها، بمرور وحسن واقعي. وفي نقدنا أن ما ارتأه ابن الأثير في التكميل في التاريخ، أن عقيدة الحماية نشأت بعد هزيمة أرمه، هو رأي مطول جداً^(٥). فبعد تحلوة الأحمس خزو مكة، وهي محاولة فائتتها بعض القبائل العربية، أعطت العرب

(١) Simon, *History of Islam*, pp. 230, 231.

(٢) Simon, *ibid.*, pp. 216, 217.

(٣) حقود: المرجع السابق، ص ٦١.

(٤) ابن الأثير: التكميل في التاريخ، طبعه صابر، بيروت، ١٩٩٥، ج ١، ص ٤٥١ - ٤٥٢.

وص ١٣٩.

قريشاً وأرادت حماية الحرم وتنظيم هذه الحماية، وصادفت هذه الرغبة قبولاً لدى قريش حتماً، وتعاظمت ثقة مكة وقاداتها بنفسها، وتعاظم التغاف العرب حول الحرم وما يمثل في العقيدة الدينية وفي التجارة أيضاً. وهذه الحوافز جميعاً هي أنسب ما يمكن تخيله لمثل هذا الحل. فالأغراض التي تؤديها عقيدة الحماسة هي الأغراض التي يمكن أن نسمي إليها مدينة نحارة مثل مكة، بعد غزوة فاشلة مثل غزوة أبرهة. وقد أبد كسندر هذا الرأي^(١). ولما لم يقطع ابن إسحاق في نشوء الحماسة أبعد حملة أبرهة أم قبلها، أكد الأزرقى، مثل ابن الأثير، أن هذه العقيدة ظهرت في مكة ومن حولها بعد فشل الغزوة الحبشية^(٢). وإذا استعرض ظهور مؤسسات الإيلاف في تسلسله الزمني، ففي إمكاننا أن نتخيل التطور المنطقي التالي: في مرحلة التجارة المحلية كانت قريش مثل أصحاب أي حرم آخر، يقيمون سوقهم ويحضرون أسواق الآخرين، فكانت الأشهر الحرم أماناً لكل القبائل العربية على حد سواء في أشهر معلومة من السنة. فلما أرادت مكة أن تسيّر قافلها بالتجارة الدولية، أنشأت الإيلاف الذي أعطاها وحدها، دون غيرها من القبائل أمان الطريق. وبذا ارتفعت مصلحة القبائل بمصلحة مكة. لكن غزوة أبرهة أفتت قريشاً بأن حرما ونحارنها في حاجة إلى حماية أفضل تمنعها من أي غزوة محتملة، فكانت الحماسة وسيلتها إلى ذلك، وقد ظهرت بدورها في المقاومة القبلية لأبرهة. واثبتت حرب الفجار أن الحماية التي أعدها قريش لحرما ولتجارتها بفضل عقيدة الحماسة، استطاعت أن تردع الحيرة عن غزوة لحساب الفرس شبيهة بغزوة أبرهة التي كانت هزيمة تمنى ولا شك نجاحها. وجعلت الحماسة من الحرم نواة لعدد كبير من القبائل انتظمت خلف القيادة القرشية، فاجتمع التجار من حول مكة آمنين، وتبرزت العلاقة بين قريش والقبائل بالعقيدة، فقام بعضها للدود من الحرم المكي وطغوسه وتطوع للدفاع عنه، مثلما فعل بنو عمرو بن نهم الذين نزعهم صلصل بن أوس، أو مثلما فعل

زهير بن جنب الكلمي حين حطم الحرم الذي أنشأه غطفان بدلاً لها من الحرم المكي^(٣).

ب - أهل الجلة والطلس

كانت للعرب منزلة أخرى، هي منزلة أهل الجلة، وهم عرب ممن يحتجون البيت الحرام، لكنهم لم يكونوا خُصاً. ويقول محمد بن حبيب إن «قاتل الجلة من العرب: تميم بن مرّ كلها غير يرموع، وموازن وضّة وحيس وظاعة والغوث بن مرّ وليس هبلان بأسرها ما خلا ثلثها، وعدوان وعطرين صمصعة وربيعة بن نزار كلها وقضاعة كلها ما خلا علاما وجابا، والأنصار وخثعم وبيعة ويكر بن عبد مناة بن كنانة وهذيل بن مدركة وأسد وطيه ويلوق... وكانت الجلة يحرمون الصيد في النسك ولا يحرمونه في غير الحرم ويتواصلون في النسك ويمنح الغني ماله أو أكثره في نسكه فيلأ [يطبخ] فزلاهم السن ويحتجون من الأصواف والأوبار والأشعار ما يكتفون به، ولا يلبسون إلا ثيابهم التي نسكوا فيها ولا يلبسون في نسكهم الحدد ولا يدخلون من باب دار ولا باب بيت، ولا يؤويهم ظل ما داموا محرمين، وكانوا يذهبون ويأكلون اللحم، وأنصب ما يكونون أمام نسكهم. فإذا دخلوا مكة بعد فراعهم نصّفوا بكل حذاء وكل ثوب لهم، ثم استكروا من ثياب الحرس نزيهاً للكعبة أن يطوفوا حولها إلا في ثياب جدد. ولا يحملون بينهم وبين الكعبة حذاء يشارونها بأقدامهم. فإن لم يجدوا ثياباً طافوا حفاة. وكان لكل رجل من الجلة حرمي من الحرس يأخذ ثيابه. فمن لم يجد ثوباً طاف عرياناً. وإنما كانت الجلة تستكري الثياب للطواف في رجوعهم إلى البيت لأنهم كانوا إذا خرجوا حفاة لم يستحلوا أن يشتروا شيئاً ولا يبيعوه حتى يأتوا منازلهم إلا اللحم. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يهاض بن حمار المحاشمي: كان إذا قدم مكة طاف في ثياب رسول الله صلى

(١) الأغانى، ج ١٩، ص ١٥ وما بعد وانظر أيضاً مقدمة: المرجع السابق، ص ٥٣. وكذلك:

Sarjeant op cit. pp. 43, 44, 50

Kennedy, Same Reports. pp. 75, 76 (١)
(٢) الأزرقى: ج ١، ص ١٧٠. وكذلك 217, 218. Sarjeant op cit.

الله عليه^(١). وقد روى ابن هشام رواية شبيهة، وإن زاد بعض التفاصيل كقوله: «فإن تكرم منهم متكرم من رجل أو امرأة ولم يجد ثياب الحمس فطاف في ثيابه التي جاء بها من الجبل، ألفاها إذا فرغ من طوافه، ثم لم ينتفع بها ولم يمتها هو ولا أحد غيره أبداً. وكانت العرب تستني تلك الثياب: اللقي، فحملوا على ذلك العرب، فدانته به. ووقفوا على عرفات وأفاضوا منها وطاقوا بالبيت عراة، أما الرجال فيطوفون عراة وأما النساء فتضع إحداهن ثيابها كلها إلا درعاً مفرجاً عليها ثم تطوف فيه... ومن طاف منهم في ثيابه التي جاء فيها من الحل ألفاها فلم ينتفع بها هو ولا غيره^(٢)».

وقد اشتهر الشريف بأن نظم عقيدة الخمس والحلة ابتدعت لمصلحة قريش الأدبية والتجارية. وقال: «إن قريشاً نظمت الحج والفدوم إلى مكة حسب ما تقتضيه مصلحتها الأدبية والمادية، وكانت تندع من الأمور ما يحقق لها الاحترام ولبلدها القدسية عند العرب، وما يحقق لها الكسب المادي... وإن هذه السنن التي فرضوها على العرب جميعاً هي في الحقيقة منصلة بنشاطهم التجاري، فإن الناس يطرحون أزواد [أطعمة السفر] الحل قبل الدخول في الحرم، حتى يتأهوا أزوادهم من أهل مكة... وكذلك... عليهم أن يلبسوا المآزر الأحمية وذلك حتى يشتروا ما يلزمهم من ذلك من قريش، وبذلك كانت توجد سوق نشطة في مكة في موسم الحج لبيع الملابس، وتخصص بعض التجار في بيع الأطعمة^(٣)».

ولا شك في أن بعض هذا الرأي صحيح وإن كان غير واف. لعقيدة العماسة وعقيدة الجلة، إذا ما دقق في محرمانها ومحللاتها، نحتبان الكثير مما تحتويه المعتقدات الشعبية الشائعة، مثل الإيمان بالآرواح عند عتبات البيوت أو

(١) المختار، ص ١٧٩، ١٨٠، ١٨١ وحقوق المرحم السابق، ص ١٢١. والشريف: المرجع السابق، ص ١٧٨، ١٧٩.

(٢) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ٢١٩، ٢٢٠.

(٣) الشريف: المرحم السابق، ص ١٩٠، ١٩١.

السحر المرتبط بالملابس، وغير ذلك، مثل التشف من أطباء الطعام. وبقينا أن قريشاً، وهم أهل الحرم، كانوا أفقر من أي قبيلة عربية أخرى على تبدل عادات الحج والإضافة إليها والحذف منها، وهم مقيمون وغيرهم قد لا يحضر في كل عام ليراقب ما ابتدع من طفوس وما خلقي منها. وتدلّ الصوص على أن قريشاً هي التي كانت تقم الشعائر، فتقول ما يجب منها وما لا يجب. وبلاخط أن النص في السيرة يقول صراحة: «وقد كانت قريش... ابتدعت رأي الحمس» وفي موقع آخر: «... ثم ابتدعوا في ذلك أموالاً لم تكن لهم حتى قالوا: لا ينبغي للحمس... ثم دفعوا في ذلك فقالوا: لا ينبغي لأهل الجبل أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم... ولا يطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا في ثياب الخمس» ثم يقول: «فحملوا على ذلك العرب فدانت به^(١)». ولذا فليس مستبعداً أن يكون القرشيون قد راعوا مصالحهم في ابتداعهم الشعائر. لكن المصادر العربية نادراً ما تدفع إلى الاعتقاد أن الطعام في مكة كان تجارة. ففي المصادر أن الرقادة كانت خراجاً تخرجه قريش إلى قصي. ولو كان قصي يجمع الأموال من قريش لتاجر بالطعام، لما احتاحت قريش إلى من يستحقها بحوافز دينية لتدفع رأس مال هذه التجارة. وحديث الرقادة في كل المصادر، على عكس ذلك، يؤكد أن الرقادة كانت خراجاً تخرجه قريش من أموالها لصنع الطعام للحجيج حتى يصدروا عن مكة. ولا نص على ما تعلم، ينتفع أو يفهم منه أن قريشاً أو صاحب الإهلاف كان يتفاحس الناس ثمن هذا الطعام، سوى قول ابن الأثير: «ويشترون من طعام الحرم». أما الثياب فإن في قول ابن حبيب: «ثم استكروا من ثياب الخمس»، وفي موضع آخر: «ولما كانت الجلة تستكري الثياب... لأنهم إذا خرجوا حجاجاً لم يستحلوا أن يشتروا شيئاً ولا يبيعوه حتى يأتوا منازلهم، إلا الحلم»، يدل على أن اكتراء الثياب من الجرمين كان دراجاً بين الحجيج. إلا أن هذا لم يكن لازماً واجباً على كل حاج من الجلة، لأن ابن حبيب يقول أيضاً: «وكان لكل رجل من الجلة جرمتي من الخمس يأخذ

(١) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ٢١٩، ٢٢٠.

ثيابه... (١). وهذا يعني أن قريشاً خيّرت الجلة بين أن يحالف كل منهم قريشاً يطوف بالبيت في ثيابه، أو أن يستكري ثياباً أو يطوف هرباً. ونميل إلى الاعتقاد أن الترويج لتجارة الملابس لم يكن سبباً لهذه الشعائر بل نتيجة لها، لأن قريشاً ربما أرادت للعرب من الجلة أن تتعاقد وتتعاهد وتتحالف مع المكثين، لا أن تستغل حاجتهم إلى الثياب لأسباب مادية صرف. كانت قريش تريد من العرب أولاً حمايتهم لمكة وتجارتها الدولية. فهذه التجارة هي مورد الرزق الأعظم. أما مكاسب تجارة الطعام واللباس في موسم الحج، فهي مرتبة أدنى.

وتتحدث المصادر الإسلامية العربية عن منزلة بين الخمس والجلة، هي منزلة الطلّس. وهؤلاء هم سائر أهل اليمن وأهل حضرموت وعك وعجيب وليباد بن نزار. وفي اللسان أن الطلّس هو الدُّنس الثياب. وكان الطلّس في قول ابن حبيب: «يصنعون في إحرامهم ما يصنع الجلة، يصنعون في ثيابهم ويدخلون البيت ما يصنع الخمس. وكانوا لا يتعزّون حول الكعبة ولا يستمرون ثياباً، ويدخلون البيوت من أبوابها، وكانوا لا يتدون بناتهم، وكانوا يفتنون مع الجلة ويصنعون ما يصنعون» (٢). ويُذكر إدراج المصادر الطلّس هؤلاء في منزلة بين الجلة والخمس على أن علاقة خاصة كانت قائمة بين أهل اليمن وحضرموت وقريش. ولهذه العلاقة الخاصة استنتاجات محتملة بعيدة الأثر في سياق استنطاق المصادر حول الإهلاف. ذلك أنها قد تشير إلى تحالف تجاري يعني مكّي قديم لا يرد ذكره على المصادر إلا في مواضع نادرة وضمن صيغ غامضة. ولا شك في أن عقيدة الطلّس التي كانت قائمة بوضوح قبل الإسلام، تدلّ على أن اليمنيين الذين دانت لهم العرب طويلاً وتزعّموا قوافل التجارة أحقاباً من الزمن، اهتموا لمكة بالزعامة الدينية والسياسية والتجارية في أواخر القرن الميلادي السادس على الأقل. وربما بدأ هذا الاعتراف بنشأ بعد سقوط مملكة الحميريين في سنة ٥٢٥ م. وتعاطف لدى هزيمة أبرهة وزوال الحكم الحبشي هناك.

(١) المحبر، ص ١٨١. وابن الأثير: المصدر السابق، ج ١، ص ٥٠٢. والسنن، ص ١٩. والأوائل، ص ١٦، ١٧.
(٢) المحبر، ص ١٧٩، ١٨١.

وبلغت هبة قريش وحرمتها مبلغاً، فجعلت العرب يرتدعون عن أي مُنْجِل إلى البيت الحرام، حالما يُعلن نية الحج أو الأتحرل في مكة. وكانت أساليب الإعلان بذلك مختلفة. فيقول المرزوقي في كتاب الأزمات والأمكنة: «كان الرجل إذا خرج من بيته حاجاً أو داعياً (أي متحرراً في الأشهر الحرم) أهدى وأحرم ثم قلّد وأشعر، فيكون ذلك أماناً في الشحلين». والإهداء أي شوق الهدي الذي سبقه قرباناً. والإحرام دخول الحرم، والتقليد تعلّق قلادة من جلد في أحناق الهدي إشارة إلى أنها قربان للبيت الحرام. والإشعر القيام بمشاعر الإحرام. ويقول المرزوقي أيضاً إن الحاج في الأشهر الحرم إذا لم يكن يملك شيئاً أو انفرد وخشي على نفسه ولم يكن معه هدي أو قربان للحرم، قلّد نفسه بقلادة من شعر أو وبر، فإذا فرغ من حجه وقطع عاتداً تقلّد بقلادة من لحاء شجر الحرم أماناً له في الشحلين» (١). وليس أبلغ من هذا دلالة على جدوى المؤسسات والعقائد التي أنشأتها مكة من حول حرمتها ونحلتها لإقامة الأمان وضمان كنف الصالحات وأصحاب الغزوات من حلماتها وقضاةها وحجاجها.

ج - الأشهر الحرم

تُعَدّ الأشهر الحرم من المؤسسات العفائية المهمة التي قرّنت على هذا النحو أو ذاك بالتجارة المكّنة. وليس من شك في أن إنشاء الأشهر الحرم سبق جهود الإهلاف زمنياً طويلاً. ولذا يُعتقد أن العلاقة الوثيقة بين هذه الأشهر وأسواق العرب ومواسمهم، إنما كانت تختص في الأصل بالتحلّة المحلية ومواسم الحج إلى الأصنام» (٢). وقد ذكر الجغرافيون العرب أنه كانت للعرب أسواق يُقيمونها في شهور السنة وينتقلون من بعضها إلى بعض، ويحضرها سائر قبائل العرب ممن قرّب منهم ونشد، وقالوا إنهم «يرتحلون إليها في الأشهر الحرم» (٣). ولونّاي

(١) المرزوقي: الأزمات والأمكنة، مجلس دار المعارف، ج ١، ص ١٣٣، ج ٢، ص ١٦٦. وحسن: المرجع السابق، ص ٩٠، ٩١.
(٢) لسان العرب، مادة حرم وصغر. وكذلك قريشي: تاج العروس، مادة حرم وصغر. وانظر أيضاً جواد علي: ج ٥، ص ٣٨٠.
(٣) حسن: المرجع السابق، ص ١٩.

بعض الباحثين أن هذا السلام النسبي الموقت كان يمكن للفراسخ من أن تسير بأمان دونما حاجة إلى خفارة مسلحة تحميها من الغزوات^(١). وهذا صحيح، لكنه لا يؤدي معنى الأشهر الحرم كاملاً. ذلك أن الفارق بين المسير في الصحراء في الأشهر الحرم والمسير في غيرها، لم يقتصر على الاستغناء عن الخفارة المسلحة. فجلّ العرب لم يكن قادراً أصلاً على التحرك بخفارة، أسلحة كانت أم غير مسلحة. لذا كانوا يلزمون منازلهم في معظم الحالات والأوقات، ولا يخرجون إلى الأسواق والمحلات والمواسم إلا في الأشهر الحرم. وفي إمكاننا إذن أن نتصور الأثر النفسي والاجتماعي لهذه الأشهر، حين كان العربي يشعر بالسلام، ويخرج حاجباً أو داجباً إلى حيث شاء، وقد امتلأت نفسه أملًا بالكسب الروحي أو المالي، وطموحاً إلى لقاء أو سعيًا إلى حضور مساجلة شجرة.

والأشهر الحرم هي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب. والثلاثة الأولى سرّ أي متوالية إذ تحتل المكانة الحادية عشرة والثانية عشرة والأولى من أشهر السنة القمرية، ويحتل رجب المكانة السابعة منها. ويتوسط موسم الحج الأشهر الثلاثة الحرم، إذ يُطاف بالبيت في التاسع من ذي الحجة. ويفسر القول إن للعرب أسواقاً يحضرها سائر قبائل العرب ممن قُرب منهم ويُعدّ الحاجة إلى الأشهر الثلاثة. فكان الحجاج يقصدون مكة من اليمن وحضرموت، على نحو ما جاء في الباب السابق في تفسير الطلّس، وكانوا يقصدونها أيضاً من بادية الشام ومملكة الحيرة، إذ ينقل دهريس ودي برسفال عن بروكوبيوس ذكره لهجوم بيزنطي على نصيبين سنة ٥٤١ م.، انتهز في التوقيت له، انصرف العرب إلى حجاجهم شهرين عند الانقلاب الصيفي^(٢). وكان الوصول إلى مكة لا يحتاج عادة

(١) Simon: *Le Hame et l'Arab*, p. 231 (١)

Nobire, Rev. Bro. Louis: *Notes on the Arab Calendar*, وكذلك Devroes: *op. cit.*, p. 289 (٢)

Before Islam, (Translation of Caussin de Perceval: *Mémoire sur le Calendrier Arabe avant l'Islamisme* in: *Journal Asiatique*, Avril 1843), *Islamic Culture*, vol. 21 (1947),

p. 152

إلى أكثر من شهر على ما أسلفنا، وشهر للمعدة، فيلج للنحر أو الحاج شهر ثلاث بقضي فيه تجارته أو مناسكه إذا شاء، أو يقتصر مكوته فخر حاجته إذا شاء^(١). لما شهر رجب فإنه كان يُسنى رجب مصر، وهو الذي نسبته مصر: الأصم. واسمه مشتق من الترجيب أي التعظيم. وقد جاء في طفلة ابن سعد أن أهل مكة كانوا يحتفلون بعيد ديني لهم في رجب، فلا يعد أن يكون هذا العيد في شهر رجب بعيداً خاصاً بقبائل مصر أو قبائل الحجاز أو بعضها، وإن يكون هذا أصل حرمة. فكان قريش من مكة يتبع لهم الذهاب إليها والعودة منها ولداه الشعائر المطلوبة في شهر لا غير^(٢). وقد يعني هذا أيضاً أن تأسيس الأشهر الحرم كان عملاً متكاملاً أو مضمناً على الأكثر، ثم انتظمت في لروم القبائل الأخرى فيما بعد. لكن الحاجة إلى هذه الأشهر الحرم كانت حاجة عامة، ولذا تقبلها العرب واحتفلوها. كانت الصحراء حلواً من نفوذ أي دولة تقريباً، وكانت معظم القبائل البعيدة عن الأطراف لقاحاً. وكانت المازن والغزوات مهودة، والعصية القبليّة شديدة والألفة والحمية متاصلتين، ولذا اعتد الأمن. لما الحاجة إلى هذا الأمن فكانت مائة، فلا بد للنخاعة من مشيرين وبائعين آمنين على لرواحهم وأموالهم. وكان الزرع والصناع ينظّمون إلى مفاضة غلاتهم وسلمهم. وكان الأعراب في حاجة إلى تصريف ما يفيض من ماشيتهم ونجاحها وجلودها وحليها والأجبان وما إلى ذلك، لشراء أنواع الفوت الأخرى والملابس الفطية والصوفية. ولذا أقبل العرب على هذه الأشهر الحرم إقبالهم على نوع من الردع الذاتي، لأنهم أدركوا صميم فائدتها. فاصطفت الهدنة باللداسة ونحوها إلى عفة من المعاشات الدينية. فإذا انتهكت الأشهر الحرم، اضطربت التجارة وانقطعت الأرزاق. وتلك كانت، فيما بطون، دلائل لمة الأصنام العاصية لهذا الانتهاك. ويروي محمد بن حبيب كيف حاول عمرو بن عبد العزى أن يجمع قوروس بني لبت لتهجير بهم على جوف مكة في الشهر الحرم، فأتوا عليه وقالوا: «ويحك، في

(١) الشريف: المرجع السابق، ص ١٧٦.

(٢) تفسير الطبري: سورة التوبة، الآية ٣٧، ج ١٠، ص ٨٨ وما بعد. وكذلك الشريف: المرجع نفسه، ص ١٩٧.

الشهر الحرام وفي الحرم! وعظموا عليه^(١).

وكان صمالك العرب وخلصوا لها [جمع خليج: من تيرات قبيلته منه ومن أعماله] من أولئك المتمردين الخارجين على هذه القواعد، يستحلون الغزو والقتل في كل زمان ومكان، لأنهم خرجوا على التزامات قبيلتهم فأسقطت قبائلهم حق الحماية عنهم وتيرات من دمهم وفعالهم في آن معاً. وكان هؤلاء أشد الجماعات خطراً على نظام الأمن الذي أنشأه الإبلان والأشهر الحرم ونظام الحماسة^(٢). ولعل هذا هو الذي حدا القيادات المكية على مصانعتهم وإيوائهم، إذ يروي الإخباريون أن مكة قبل الإسلام كانت مكاناً أوى إزاء ذوبان العرب وخلصواهم وصالحهم حتى كثر عددهم فيها، لما وجدوا من حماية ومعونة. فكان أحدهم إذا جاءها، نادى قريشاً نداء النخوة لتجيره، فيجيره أشرافها وسادتها ويستلحقونه. وكان الفتاك يجوسون آمين في داخل الحرم المكي، فلا يجرؤ أحد على العُدُو عليهم. ولا نستبعد أن مكة كانت تسعى إلى أن تكفي نفسها وتجارتها شر هؤلاء الفتاك، لأنهم كانوا قادرين على غزو قوافل التجارة ونهبها^(٣).

- د - حروب الفجار

ولم تكفب مكة من الصمالك بكف شرهم، بل كان في استطاعة التجار المكيين الذين استأجروا الخفارة لفرافلهم، أن يستعملوا صمالكهم على هذه القوافل. ولم يكن ذلك غريباً، لأن الصمالك كانوا أسباد الكر والقر في الصحراء، وكان صيتهم رادعاً في ذاته، يضاف إلى رادع انتماهم المستجدة لقريش.

غير أن قريشاً استعملت الصمالك في شؤون سياستها العليا أيضاً. ذلك ما حدث في حروب الفجار حين بدا أن المكيين نجحوا في تحدي أبرهة حليف

ببزنطة، ليواجهوا على الفور تحدياً من العمان ملك الحيرة، حليف الفرس. لقد كانت مكة في الصمد السياسي، تحتاج إلى إثبات حيادها واستقلالها، بعد ردّها الأحباش عن الحجاز. فكان ذلك وحده قسماً أن يحثها تعقيدات سياسية تعرقل تجارتها مع بزنطة. فهي رفضت سلطان الممكر البيزنطي، لكنها رفضت أيضاً سيطرة الفرس عليها. وكانت تحتاج في الصمد النحلي إلى أن تثبت سيطرتها على خطوط القوافل حتى تملك بركة نخله الشرق، ولا تضيق الفرصة التاريخية التي تاحت لها، بعدما التفت العرب من حولها. وقد كانت حروب الفجار على ما قاله مونتغمري - وات من فعل نحرش قرشي متعمدة، بقافلة من الحيرة كانت تقصد اليمن من طريق الطائف، منخبة مكة^(١). إذ يبدو أن الفرس حاولوا، بعدما استولوا على اليمن لدى سقوط حكم الأحاش، أن يسيروا قوافل لحسابهم وحساب حلفائهم ملوك الحيرة، دون أن يسلوكوا مسالك القوافل المكية^(٢). وقد لاحظ مونتغمري - وات بحصافة مغزى هذه المحاولة الفارسية، وربطها بتجارة اللبان الحضرمي واليمن، وربما أيضاً بتجارة الحنطة، واستبعد احتمال أن تكون لتجارة الهند علاقة بالامر، لأن الفرس اتصلوا بالهند بحراً، على نحو شبه مباشر^(٣). ولاحظ درادكة أيضاً أن حرب الفجار كانت صراعاً بين مكة والفرس، لكنه ربطها بتجارة تحرير الصين ونوابل الهند^(٤)، وهذا مستبعد. وأكد شهيد أن مكة سهلت نسيير النخلة من شرق الجزيرة العربية إلى غربها عبر وادي الرمة ووادي الدواسر، لكن حروب الفجار بينها وبين حلفاء الفرس، كانت تختص قطعاً باختيار أفضل الطرق للقوافل النخلية^(٥). وكانت الطرق الملتمة عبر مكة هي أفضلها من وجهة نظر قريش ولا شك.

(١) المحبر، ص ١٩٥ وما بعد. وانظر أيضاً p. 16. Montgomery-Watt: Mohammed at Mecca...

(٢) جواد علي: ج ٤، ص ١١٥.

(٣) Montgomery-Watt: Mohammed at Mecca..., pp. 12, 13.

(٤) درادكة: المرجع السابق، ص ٦٠. ويلاحظ أن درادكة لم يستر إلى مصدر يصرح بأن طريق

مكة إلى الحيرة كانت طريقاً لتحرير الصين ونوابل الهند.

(٥) Shahid: The Arabs in the Peace Treaty..., p. 191.

(١) المنقذ، ص ١٣٦. والشريف: المرجع السابق، ص ١٩٢.

(٢) الشريف: المرجع نفسه، ص ٨٣.

(٣) الألفاني، ج ٢١، ص ٢١٦. وانظر جواد علي: ج ٩، ص ٦١٨، ٦١٩.

وقد اجمع الباحثون على أن قريشاً وحلفاءها هم الذين بدأوا بالحرب، فقال معظمهم إن الشرارة الأولى لحروب الفجار كانت قتل البرأض بن قيس الكنانى، حليف مكة، عمرو الرخال خفيّر قافلة النعمان ملك الحيرة^(١). فيما قال البعض إن ذريعتها المباشرة هي أن بني كنانة غنّوا على عير وهرز حاكم اليمن الفارسي بطريق الحجاز حين مرت بهم، وكانت جوار رجل من أشراف قيس عيلان حلفاء الحيرة، فكانت حروب الفجار بين قيس وكنانة^(٢). ووصف يعضون هذه الحروب بأنها نشبت حين حاولت مكة أن تعدو على مناطق نفوذ تابعة لعشائر أخرى، دفاعاً عن المصالح الاقتصادية^(٣). وقال الأفغاني إن الفجار كانت نزاعاً على النفوذ بين قريش وهوازن. وأكد مونتغمري - وات أن البرأض كان يعلم وهو يقتل عمرو الرخال، أن فعلته تناسب المصلحة القرشية وأن قريشاً مستأنده، وإن كان حافظه على القتل شخصياً^(٤).

وحروب الفجار فجاران: في الأول ثلاثة أهام نجم القتال فيها من ثلاثة حوادث، وفي الثاني خمسة أهام، نجم القتال فيها من حادثة البرأض. فإذا استعرضنا جميع أسباب القتال لاحظنا بوضوح أن قريشاً وحلفاءها كانوا البادئين المتحرّشين.

- نشب اليوم الأول من الفجار الأول حين تفاخر بدر بن معشر الكنانى في عكاظ، متحدياً الأحمر بن مازن الهوازنى، فضربه الأحمر على رجله بالسيف.

- ونشب اليوم الثانى حين كشف فتية من قريش أو كنانة عن دُبر امرأة من هوازن.

- ونشب اليوم الثالث بين كنانة وهوازن أيضاً، وكان سببه أن كنانياً مظل رجلاً من هوازن ماله فشّر الهوازنى بماطله.

(١) Rodinson: Mohammed, p. 40.

(٢) جواد علي: ج ٣، ص ٥٢٧.

(٣) يعضون: المرجع السابق، ص ١٤.

(٤) Montgomery-Watt: Muhammad at Mecca... p. 11. وكذلك الأفغاني: أسواق... ص ١٤٤.

- أما الفجار الثانى، وهو خمسة أهام، فكان سببه أن البرأض وكان جلواً لحروب بين أمة القرشي، قتل عمرو الرخال الهوازنى. وكانت الأهم الخمسة هي: يوم نخلة ويوم شحمة ويوم العبلاء ويوم شرب ويوم الحريرة. ولا بد من الإشارة إلى أن هوازن تنتمي إلى قيس عيلان، وكانت سوق عكاظ تقام في أرض قيس عيلان^(١).

وقدّر زمن وقوع حروب الفجار بما بين سني ٥٨٥ و ٥٩٠ م. فيما كان النبي بين الخامسة عشرة والعشرين من عمره، وقدّر الأفغاني حدوث أولى حروب الفجار سنة ٥٨٥ م.^(٢) فيما وسّع رودانسون حُدود تقديره فجعله بين ٥٨٠ و ٥٩٠ م.^(٣) وترجع المصادر العربية الإسلامية التقدير الأول. إذ جاء في أنساب البلائري: «قال حكيم بن حزام: تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم هتني خديجة وهي ابنة أربعم، ورسول الله ابن خمس وعشرين، وكانت أسنّ مني بستين، وولدت أنا قبل الفيل ثلاث عشرة سنة، وشهدت الفجار وأنا ابن ثلاث وثلاثين سنة^(٤)، فإذا افترضنا أن النبي وُلد سنة ٥٧٠ م، فإن حساباً بسيطاً يجعل عام الفجار، حسب تقدير حكيم بن حزام، سنة ٥٩٠ م. ولكن ابن هشام يقول في السيرة: «فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع عشرة سنة أو خمس عشرة سنة... هاجت حرب الفجار بين قريش ومن معها من كنانة، وبين قيس عيلان»^(٥). ولا يتناقض قول البلائري وابن هشام في الحقيقة، لأن حروب الفجار كانت تحدث كل سنة في موسم عكاظ، ويتوقف القتال وتنفض السوق، ويتواحد الفريقان للقتال في العام القابل. وقد استمر الحال على هذا نحواً من

(١) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ١٩٨ - ٢٠٢. وابن عبد ربه: العقد... ج ٥، ص ٢٥١.

٢٥٣. الأفغاني: ج ٢٢، ص ٥٢ - ٧٥. وانظر أيضاً: حنوز: المرجع السابق، ص ٧٦.

٧٧، ٧٨، ٨٢.

(٢) Montgomery Watt: Muhammad at Mecca... p. 33. والأفغاني: أسواق... ص ١٤٧.

(٣) Rodinson: Mohammed, p. 40.

(٤) البلائري: أنساب الأشراف، تحليف حميد الله، ص ٩٨، ٩٩.

(٥) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ١٩٨.

خمس سنوات. ولذا يمكن أن نفترض أن ابن هشام احتسب عمر الرسول سنة بداية حروب الفجار، فيما احتسب حكمهم بن حزام عمره سنة الفجار الأعظم المستى بفجار البرّاض.

لن يجدي أن نعاود رواية حروب الفجار التي توسّعت المصادر في روايتها، ولكن تجدر ملاحظة بعض النصوص المهمة في الرواية.

- يقول ابن هشام في السيرة: «وكان الذي حاجها [الحرب] أن حروء الرجال... أجار لطيمة [قافلة تجارية] للنعمان بن المنذر، فقال له البرّاض...: أتجيرها على كنانة؟ وهذا السؤال يفتر سبب الحرب، إذا أحسن التدقيق في معناه. ذلك أن النعمان حين يكلف كناناً أو هوازناً أن يُجير له اللطيمة، فهذا يعني أن النعمان دفع أجره لكنانة أو هوازن حتى تُجير القافلة، أي تُجير مرورها. وكانت إجارة اللطائم إذن شبه اعتراف سياسي بسيادة القبيلة في نطاق ما من الأرض. ويبدو هذا واضحاً من جواب حروء. فقد سأله البرّاض: وأتجيرها على كنانة؟ فأجابه متحدياً: «نعم، وعلى الخلق»^(١).

- ويقول في السيرة أيضاً: «فأتى أبّ قريشاً فقال: إن البرّاض قد قتل حروء وهم في الشهر الحرام بمكاظ، فارتحلوا وهوازن لا تشعروا، ثم بلغهم الخبر فاتبعوهم، فأدركوهم قبل أن يدخلوا الحرم، فاقتلوا حتى جاء الليل ودخلوا الحرم، فأسكت منهم هوازن»^(٢). ويدل هذا على أن هوازن الذين لم يكن منهم حُمس على ما نعلم، سوى بني عامر بن صعصعة، تجنبوا مع ذلك دخول الحرم المكي مقاتلين، على رغم أنهم والقرشيين نقاتلوا في الشهر الحرام. وقد يعني هذا أن حرمة مكة وجوارها كانت عند العرب أعلى مرتبة من حرمة الأشهر الحرم. وهوازن من مضر مثل قريش»^(٣).

(١) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ١٩٨، ١٩٩.

(٢) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ٢٠١.

(٣) راجع حروب الفجار في المصنوع، ص ١٦٩ - ١٧١، ١٩٥، ١٩٦، والمسنون، ص ١٩٠ - ٢١٧. والأندلسي: نشوة الطرب، ص ٣٨٠ - ٣٨١. وجواد علي: ج ٤، ص ٨٣ - ٨٥. وكذلك الأصفهاني: أسواق... ص ١٥٢، ١٥٩.

هـ - انتصار مكة على الحيرة

انتصرت مكة على الحيرة في حروب الفجار. وكان هذا يعني لمرأ من اثنين: فلما أن يتوقف تسير الغزاة عبر الطائف لحساب الحيرة، لو أن تصبح لقريش عليها وصاية. وقد بلغت قريش غايتها^(١). غير أن انتصار مكة لم يكن سريعاً بل اكتمل بالتدريج، ولم يبلغ مداه في تسعينات القرن الميلادي السادس، بل تعزّز في مطلع القرن السابع عندما ترقّت العلاقة بين الحيرة والفرس، وانهار سلطان الملوك اللخمين على الفيلال فتحسّنت مكانة مكة. ولم يكن انتصار مكة بآثر مباشر من حروب الفجار، بل تسببت في ذلك فيما بعد عوامل خارجية أيضاً أهمها ولا شك الحلاف اللخمي الساساني. لكن قريشاً التي راقت الأوضاع ببطء، وظلت تسنح الفرص لتحصين مكانتها، لم تقوّ أيّ مناسبة لسد كل فراغ سياسي ونحاري يدو في الساحة المتاحة لها.

وقد حاولت الحيرة أن تستعيد هيبتها بين العرب، لكن ما حولت إصلاحه تفاقم بسرعة. ويقول ابن الأثير إن النعمان جهّز حملة قلداه أخوه لأمه ويرة بن رومانيس، وحشد لها مقاتلين من معدّ وغيرها. واستدعى من أحلافه ضرل بن عمرو الضبي الذي جاء مع أبنائه السبعة، وكانوا جميعاً متحرسين في القتال وقادة القوارص. وانضم إليهم ضبي آخر هو حيش بن ذلف. وكرّس النعمان لطيمة معهم إلى عكاظ، وأمرهم أن يهاجموا بني عامر بن صعصعة بعد انتهاء مجاهديهم. وبني عامر بن صعصعة بن معاوية بن هوازن^(٢)، هم من قبيلة هوازن حليفة الحيرة، لكنهم كانوا من البطون المنتمة إلى الحُسن. وتجهّز النعمان حملة عليهم قد يبيح الاشتباه في أنهم ساهموا في هزيمة قبيلتهم هوازن لينصروا قريشاً في حروب الفجار، أكانت هذه الحملة قبل الفجار أم بعده. ويرى ابن الأثير أن سبب نفقة النعمان على بني عامر هو أنهم هاجموا إحدى لطائمه التي كان يرسلها كل سنة إلى عكاظ. إلا أن عبد الله بن جُدعان الثري القرشي أنذر بني

(١) Montgomery-Watt: Muhammad at Mecca... pp. 14, 15 (١)

(٢) ابن الأثير: الكامل... ج ١، ص ٦٣٩ - ٦٤١. وكذلك سيرة ابن هشام: ج ١، ص ١٩٨.

عامر فاستمدوا للحرب، وهزموا حملة النعمان في وقعة الفرتين، التي يستبها ابن الأثير يوم السلان، وأسروا أخاه، فلم يتركوه إلا بغددة بلغت ألف بعير وقتين وبعضاً من أمواله. وفي ذلك قال يزيد بن الضحى متفاخراً:

تركنا أخا النعمان يرسف هانها وجدها اجناد الملوك الصنائع^(١)

ولم يتوقف تردّي هبة الحيرة مثلاً بين قبائل العرب. وكانت علاقات الحيرة بهذه القبائل على ثلاثة صنف، على ما قاله أبو البقاء في المناقب المزيديّة: «وأما حدّ حرّهم في العرب الذين كانوا في التفدير رعايا لهم، ولهم اسمُ المُلْك عليهم، فقد تقدّم ذكر كونهم معهم على طبقات ثلاث: اللّقاح الذين كانوا يغازونهم، وأهل الهدنة الذين كانوا يعاهدونهم ويوافقونهم، وهذه معاملة ومساواة من أهل هاتين المنزلتين للملوك، هم وإياهم على حد سواء. وأما الطبقة الثالثة فهم الذين كانوا يدهنون لهم، فكانوا في أكثر زمانهم أيضاً يصانعون أهل هذه المنزلة استمالة لهم وتقرباً بهم على من سواهم، حتى أن الملك كان يكون معهم كالمؤلى عليه. وكان أقرب العرب منهم داراً ربيعة ونميم»^(٢). ويتبين من هذا النص أن الحيرة لم تكن ذات هبة عظيمة بين العرب، إذ كان بعضهم يقاتلونهم مثلما يقاتلون القبائل الأخرى، والبعض الآخر يعاهدها، ولكن ثداً لند، أما الذين دانوا للحيرة فكانوا أقرباً إليها، تحتاج إلى استمالتهم، وكان الملك هو تابعهم. وعلى رغم ذكر أبي البقاء ربيعة ونميمة ضمن رعايا الحيرة، فإن بطوناً من نميم كانت ترمي مواشها قرب الحيرة فدانت لمملوكها ولم يكن ذلك حال البطون الأخرى. ومن اللّقاح ذكرت قبائل أسد بن خزيمة وخطفان، وكان بعضهم يزور الحيرة للتجارة. ومن أهل الهدنة ذكرت قبائل سليم وهوازن: «وكانت سليم وهوازن توافقهم ولا تدين لهم، وباعدون لهم التجائر فيبيعونها لهم بمكاظ وغيرها ليعبون معهم الأرباح. وربما أتى الملك منهم الرجل والنفر فيشهدون معه مغازيه ويعبون معه من الغنائم ويعصرفون. ولم تكن لطائم

(١) ابن الأثير: الكامل... وانظر أيضاً pp. 154, 155. Knorr Al Uthra

(٢) Knorr Al Uthra... pp. 153, 154

الملوك وتجارتهم تدخل نحداً فما وراءه إلا محضر من القبائل. وبلاخط إذن أن أفضل علاقات الحيرة بالقبائل كانت علاقة الذبالة، فيما كانت مكة محجة وقيادة تدبّر لها القبائل بالولاء. وقد لاحظ كسر صف الحيرة هذا، وتبدّل موقف القبائل منها في حادثة هيرة بن عامر من سلعة الفسيري من عامرين صمصمة، الذي هاجم مضرراً للنعمان واحتطف زوجته المنحردة وغنم أمواله، فيما كان ابنه قُرّة بن هيرة مكلماً أن يراض لطيبة للنعمان: «بخضرها على من ليس في دينه من العرب». وقد استولى قُرّة على النطيبة لنفسه حين اضطر النعمان إلى الهرب بعد خلافه مع كسرى في نحو سنة ٦٠٤م. واشته كسر في أن لعلاقة عامرين صمصمة بغيرش أنراً ولا شك في أفعال هيرة وابنه قُرّة^(١).

وأحصى من حلفاء الحيرة: سان بن مالك (وهو من لوس ملة من نميرين قاسط). وكان حاكم النعمان على الأنلة، والحلاق بن قيس (وقد لوسله عمرو بن هند لإخضاع تغلب)، وخمر (وهو من قبيلة بشكر)، ويكرين وائل، ونميم (رضخوا إلا أسند)، وقيس بن عيلان (وكان منهم حجة، وحصلوا على مراع). وأما جنود الحيرة فكان منهم الدواسر والشهائ والوضائع والمصائع والرهائن^(٢).

وأحصى من القبائل التي عادت الحيرة وخاصتها: عامرين صمصمة (وكانوا نخساً)، وبني أسد (من عمرو بن نميم، وقد قتلوا وائل بن صريم الشككري جابي عمرو بن هند)، وقبيلة فكل (التي حرّمت بكرين وائل)، وأسد (التي رفضت الرضوخ للحيرة)، وعصيمة بن خالد بن مضر (أو عصمة بن سنان بن خالد بن مضر الذي أحرار رجلاً من عامرين صمصمة وتحتى النعمان ولم يسلمه).

وتروي المأثورات العربية وقعة ذي قار مطولة^(٣). لكنها نادراً ما تشير إلى

(١) Knorr Al Uthra... pp. 154, 155

(٢) فسر ابن الأثير الصائع والوضائع في الكامل، ج ١، ص ٦٣٩. وشر كسر صوف الحيرة في المراجع السابق، ص ١٦٥ وما بعد. أما إحصاء القبائل التي حلفت الحيرة أو عاهدتها، فهي ص ١٥٩ وما بعد.

(٣) ابن الأثير: الكامل... ج ١، ص ٤٨٣ - ٤٩٠. والطبري: التاريخ، ج ٢، ص ١٩٣ - ١٩٤.

علاقة ما، بين هذه الحرب والتجارة الشرقية، سوى إشارة ثمنية في منقح ابن حبيب. إذ يقول في وقعة ذي قار: «وكان أمرهم أن كسرى بعث بلطيمة إلى عكاظ فتعرضت له بنو تميم وبنو شيبان فاقتطعوها، فبعث إليهم كسرى غيلاً واستعمل عليهم وهرز فخرجوا حتى لقيتهم تميم وشيبان بلدي قار فقتلوا فارساً واقتطعوها...»^(١). فإذا أضيفت هذه الإشارة إلى ما ذكرته المصادر العربية عن اختيار كسرى أبريز النعمان لتخليقه على الحيرة، من بين إخوته أبناء المنذر بن المنذر، لتناقص نسبة التكهن وازدادت نسبة اليقين بأن للتجارة علاقة ما بقتل النعمان ووقعة ذي قار، وإن كانت هذه العلاقة لا تزال في حاجة إلى أدلة أوضح. فلما مات ملك الحيرة المنذر الرابع، تقول المرويات العربية إن كسرى أراد اختيار أحد أبنائه لخلافته على عرش الحيرة، ويقول ابن الأثير: «فكان يسألهم: أنكفوني العرب؟»^(٢). وفيما يستعد أن يكون كسرى في ذلك الزمن قد عثر عن تخوفه من خطر عربي ما على مملكته، فليس مستبعداً أبداً أن يقصد من سؤاله أن يملك ذلك الذي يملكه من إحارة تحارته وقوافله بين قبائل العرب. وأخفق النعمان في هذا الشأن في حرب الفجار، وفي يوم السلان على الأقل. وإذا كان كسرى مهتماً بتسيير قوافله في جزيرة العرب، فلماذا لا يكون هذا الإخفاق ضمن أسباب حنقه على النعمان؟

أين أخطأ كسرى إذن؟ لقد أخطأ في ظنه أن القوة تكفي العرب وتحمي لطاقمه، فيما أدركت منه أن استمالة القبائل وإشراكها في التجارة والأسواق والمواسم والدين والمعتقدات، يضمنان السلام في الصحراء، ويحميان قوافل

٢١٢. وراجع أيضاً محمد بن حبيب كتاب المغازي، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الحانفي بمصر ومكتبة الشئب سعد، ١٩٥٤. وفيه سب ليل النعمان عدي بن زيد الأدهي، ص ١٤٠-١٤١.

(١) المشق، ص ٣٢٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ١، ص ٣٨٤. وفيه رشح السد النخاري لحنق كسرى على النعمان، يستند أن تكون رغبة كسرى في الزواج من بنت النعمان هي السب الحقيقي، ولو أحصيت عليها المصادر العربية

التجارة. ولذا أحقق النعمان في حروب المحابر، ولذا أيضاً انقلبت القبائل على كسرى في ذي قار، فيما كانت التجارة المكية تنشق طريقها مهددة وأمان.

٥- الحلف الشخصي والقبلي

حلّ الإيلاف المشكلات التي لم نستطع أحلاف مكة القبلية أن تحلها على طريق تجارة قريش. وقد سلفت الإشارة إلى هذا الأمر في باب سابق. لكن الأحلاف ظلت بعد نشوء الإيلاف من المؤسسات الفاعلة في البنية الاجتماعية والسياسية التي تطورت فيها هذه التجارة. بل كانت للأحلاف علاقة مباشرة بالتجارة وحماتها، على نحو ما سنسب في معالمة حلف الفضول فيما يلي.

والحلف عند العرب نوعان: شخصي يُعقد بين فرد وفرد، أو بين فرد وجماعة، وقلي وهو يُعقد بين قبيلة وقبيلة. والحليف رجل حرٌّ غير مُسترق التحق بقوم غير قومه، فضله مستحقوه ليكون معهم في سرقة الحر الصميم، فعليهم حياله ما عليهم حيال أي فرد منهم، وعليه هو من الثمنات العتمة تجاه قبيلته الجديدة ما على الصرحاء منها. وإذا كان الحلف بين رجل ورجل صار الحليف مولياً لحليفه، وأضحى مثل ذوي رحمه بالولاء. وكان الحلف يُعقد بالمواثيق والأيمان والمعهود، فيقول واحداهم للآخر: «معي دمك وثاري ثارك وحربي حريك وصلمي سلمك، ترثني وارثك وتطلب بي وأطلب بك وتعفل عني وأعفل عنك. وكذلك كانت تقوم أحلاف بين القبائل أشبه بالمعاهدات السياسية بين الدول. فإذا أحسَّت قبيلة بضعفها حيال القبائل القوية، التحقت بقبيلة أقوى منها لتحتمي بها. وقد تنفصي أحوال فيصح للحليفين اسم بهما معاً إلى حدٍّ مشترك. ويُعتقد أن الجرح إلى الاتحاد هذا كان حارماً على ظهور كثير من التجمعات القبلية الكبرى، فيقول الكري: «فلما رأيت القبائل ما وقع بينها من الاختلاف والفرقة وتنافس الناس في الماء والكلا والناسهم المعاش في المتع وغلبة بعضهم بعضاً على البلاد والمعاش واستضعاف القوي الضعيف، انضم الدليل منهم إلى العزيز، وحالف الغليل منهم الكثير». وشاعت قُرعة التحالف هذه قبيل الإسلام، ولم تحجم إلا بمصر القبائل مُستبَته وحملت العرب. وقد جاء

الإسلام ومعظم العرب ينتسبون إلى أصول ثلاثة هي: مُضر وربيعة واليمن^(١).

واسم الجلف من فعل خَلَف أي أقسم، لأنهم كانوا يُقسمون على التحالف. وذكر أن قَسَم قريش والأحابش عند الركن يوم تحالفوا وتعاقدوا حلفوا: بألف القاتل وحرمة البيت^(٢). وقام الحلف بقرن عادة بطقوس دينية تحرص القبائل على اتباعها تعظيماً لهيبة الميثاق والمهود، إذ كانوا يغمسون أيديهم في الطيب أو الدم، أو ربما أوقدوا ناراً ودعوا الله أن يحرم من فوالدها الناكث بالعهد. ومن أيمانهم لدى عقد الأحلاف: الدم الدم والهدم الهدم، لا يزيد العهد طلوع الشمس إلا شذاً وطول الليل إلا مدداً، ما بل بحر صوفة، وأقام رضوى مكانه. ورضوى جبل، فإذا كانوا يقرب جبل آخر ذكروه^(٣). وقد وصف هيرودوتس الحلف والمؤاخاة عند العرب وقال إن الميثاق والمهود ترقى عندهم إلى مرتبة الحرمات المقدسة، لا تشاركهم في ذلك أمة من الأمم. وكانت قريش حين تعقد حلفاً تطوف مع الحليف بالأصنام في الكعبة لإشهادها، ثم يُشبهون من بالكعبة على هذا الحلف أيضاً^(٤). ولاحظ الشريف أن الحلف هو جوار لازم دائم لا يترهن بزمن ولا يمحو كالحلف أو رجليه، والترتب حاجي حسن من ملاحظة ذلك أيضاً^(٥).

وقد اضطرب موقف بعض الباحثين المسلمين من الأحلاف، بسبب عدم يقينهم بما إذا كان الرسول قد أهد الحلف أو رذله. ففي السيرة: وقال رسول الله

(١) البكري: معجم ما استعجم، طبعه السقا، لجنة الدلائل والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٥، ج ١، ص ٥٣. وانظر ابن الأثير: الكامل... الأحلاف في أيام العرب، ج ١، ص ٥٠٢-٦٨٧. وسيرة ابن هشام، ج ١، ص ١٤٤ وما بعد. وكذلك الشريف: المرجع السابق، ص ٤٣-٤٦، ٦٥، ٦٦، ٧٤. وفي حشرات العرب أطر ابن عبد ربه: العقد... ج ٣، ص ٣٦٧، ٣٦٨.

(٢) جواد علي: ج ٤، ص ٣٨١. وكذلك: H. H. H. L'Encyclopédie de l'Islam. (٣) في شأن الأحلاف: أطر سيرة ابن هشام، ج ١، ص ١٤٢-١٤٧. وكذلك الشريف: المرجع السابق، ص ٤٦.

(٤) جواد علي: ج ٤، ص ٣٧٩، ٣٨١.

(٥) الشريف: المرجع السابق، ص ٤٣. وكذلك: H. H. H. Homan op cit. p 71.

صلى الله عليه وسلم: لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حُمْر النعم، ولو أدمى به في الإسلام لأجنته^(١). وقد بدأ من قول الرسول: «ما كان من حلف في الجاهلية فإن الإسلام لم يزه إلا شدة وقرله: «لا حلف في الإسلام»^(٢). وكأنه أهد الحلف ولم يؤيده مآ. ولو نُظر في طبيعة الحلف الاجتماعية لا يمكن تفسير ذلك. إذ تصفّت العقود الاجتماعية التي كانت تنظم الحياة العامة في العصور القديمة صفين أساسين: فقامت الوحدة الاجتماعية على أساس الانتماء إلى دين مشترك. وقامت الوحدة الاجتماعية في المجتمعات البدوية على أساس المعصية القبلية المؤسسة أصلاً على فكرة الانتماء إلى نسل مشترك. وكان الحلف في الجاهلية خطوة نحو تخطي حدود المعصية القائمة على نسل مشترك، ونحو توسيع العقد الاجتماعي. وكان متظراً أن يرحب الإسلام بهذا، وأن يهد الحلف نظوراً سياسياً واجتماعياً حيداً في الجاهلية. لكن الحلف في الإسلام لم يكن كائناً، لأن الإسلام سمى إلى إقامة عقد اجتماعي أوسع، لا يفرق فقط على الانتماء إلى نسل مشترك، ولا حتى إلى دين مشترك فقط، بل ينسج أيضاً لأهل الكتاب ضمن الأمة الموحدة^(٣). وكانتبيعة العقبة حلفاً في ذاتها، وكان «كتاب رسول الله الذي كبه بين المهاجرين والأنصار» حسبما قال ابن هشام، حلفاً أيضاً، لكنه حلف فريده، اتسع لكل من دخل فيه، ولم يلف عند حد المعصية القبلية لو عند حد التجمع القبلي.

٣- المطليون والأحلاف

من أهم الأحلاف التي أثرت في مسار الأحداث في الجاهلية حلف المطليين الذي كاد أن يزعج نار حرب بين بطون قريش، وانتهى إلى انقسام هذه

(١) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ١١٥.

(٢) حديث الرسول: «لا حلف في الإسلام»، أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والبيهقي وابن حنبل. وفي الأقوال الأخرى أطر سيرة ابن هشام، ج ١، ص ١٤٤. وكذلك الشريف: المرجع السابق، ص ٤٧.

(٣) شكوتو صغاب: وحدة المجتمع في الإسلام (في كتاب ضرورة شرف)، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤، ص ١١١-١١٨. وكذلك ملحة: ملحة، في: L'Encyclopédie de l'Islam.

البطون الوظائف المتكئة. وليس في الحوادث التي رافقت نشوء حلف المطيعين وحلف الأحلاف المناهض له، ما يختص مباشرة بتجارة قريش، لكن الحزبين اللذين نشأ من جراء هذه الحوادث بقيا قائمين على التشكيل ذاته في أزمة حلف الفضول. وهي أزمة تتصل مباشرة بالتجارة المتكئة وتنظيمها.

ويروي ابن هشام قصة حلف المطيعين، ويجعل عنوانها: النزاع بين بني عبد الدار وبني أعمامهم، فيقول: ... ثم إن بني عبد مناف بن قصي، عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل، أجمعوا على أن ياحلوا ما بأيدي بني عبد الدار بن قصي مما كان قصي جعل إلى عبد الدار، من الحجابة واللواء والسقاية والرفادة^(١)، ورأوا أنهم أولى بذلك منهم لشرفهم عليهم وفضلهم في قومهم، فنفرت عند ذلك قريش، فكانت طائفة مع بني عبد مناف على رأيهم يرون أنهم أحق به من بني عبد الدار لمكانهم في قومهم، وكانت طائفة مع بني عبد الدار، يرون أن لا ينزع منهم ما كان قصي جعل إليهم. وأحصى ابن هشام خمسة بطون في كل من الفريقين. ففي الفريق المؤيد لعبد مناف: بنو عبد مناف، وبنو أسد بن عبد العزى بن قصي، وبنو زهرة بن كلاب، وبنو نعيم بن مرة بن كعب، وبنو الحارث بن فهر بن مالك بن النضر. وكان بنو الحارث من قريش الظواهر (خارج البلدة) الذين التحقوا بقريش الطاح (وسطها). أما أحلاف بني عبد الدار فهم: بنو عبد الدار، وبنو مخزوم بن يقظة بن مرة، وبنو سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب، وبنو جشم بن عمرو بن هصيص بن كعب، وبنو هذيل بن كعب^(٢).

ومضي ابن هشام في روايته فيقول: «فبعد كل قوم على أمرهم حلفاً مؤكداً على أن لا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضاً، ما بل بحر صوفة، فأخرج

(١) وضيف محمد بن حبيب الندة: المسنن، ص ١٢-١٤، ٢٢٣، ٢٣٧.

(٢) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ١٤٤. وكذلك اللادي: الأسب... لحظ عبد الله، ص ٥٥، ٥٦. ويحكي محمد بن حبيب في المسنن، ص ٤٣، البطون عسها بالترتيب ذاته، إلا أنه أخرجه مخروماً إلى المرتبة الثالثة من حلفاء بني عبد الدار. وكانت وفاة ابن هشام سنة ٢١٣ للهجرة، وابن حبيب سنة ٢٤٥ للهجرة. وليرشح أن ابن حبيب المتك على سيرة ابن هشام.

بنو عبد مناف جفنة معلومة طياً، فزعمون أن بعض نساء بني عبد مناف أخرجتها لهم، فوضعوها لأحلافهم في المسجد عند الكعبة، ثم غس القوم أيديهم فيها فتعاقبوا وتعاهدوا هم وحلفائهم، ثم سحروا الكعبة بأيديهم تأكيداً على أنفسهم، فسما المطيعين. وتعاهد بنو عبد الدار وتعاهدوا هم وحلفائهم عند الكعبة حلفاً مؤكداً على أن لا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضاً، فسما الأحلاف. ويروي ابن هشام كيف اختار كل بطني من المختصين خصمه، إذ يقول: «تقسم القبائل في هذه الحرب: ثم سوند بين القبائل ولز بعضهم ببعض، فعيت بنو عبد مناف لبني سهم، وعيت بنو أسد لبني عبد الدار، وعيت زهرة لبني جشم، وعيت بنو نعيم لبني مخزوم، وعيت بنو الحارث بن فهر لبني هذيل بن كعب، ثم قالوا: لنف كل قبيلة من أسد إليها. ومضي ابن هشام يقول: «فبينما الناس على ذلك قد أجمعوا للحرب إذ تداعوا إلى الصلح، على أن يحطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار كما كانت، ففعلوا ورضي كل واحد من الفريقين بذلك وتعاهد الناس من الحرب»^(٣).

ويلاحظ من روايته ابن هشام وابن حبيب أن زمن حدوث هذه الواقعة لا بد وأن يكون أواسط القرن السادس. إذ يقول ابن حبيب إن مفتاح الكعبة كان مع أبي طلحة وهو عبد الله بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار^(٤)، فيما كان على بني عبد مناف «عبد شمس بن عبد مناف وذلك أنه كان لسن بني عبد مناف» حسبما يقول ابن هشام. وأما صاحب امر بني عبد الدار فكان: «عاصم بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار»^(٥). فإذا افترضنا أن عبد مناف بن قصي وُلد في نحو سنة ٤٣٠ م، في رحولة والده قصي، فإن ابنه عبد شمس يمكن أن يكون قد وُلد في نحو سنة ٤٦٠ م. أو ٤٧٠ م. فإذا كان قول ابن هشام «إنه كان

(١) راجع الهامش السابق في الصفحة السابقة.

(٢) المسنن، ص ٤٢.

(٣) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ١٤٣.

أسن بني عبد مناف يعني أنه كان في الثمانين، فهذا يعني أن واقعة حلف المطييين تكون قد حدثت في نحو سنة ٥٤٠ م. أو ٥٥٠ م. ويمكن أن يؤيد هذا إذا لاحظنا احتمالات سن عامر بن هاشم، صاحب أمر بني عبد الدار. فهو يعود بالنسب إلى عبد الدار أكبر أبناء قصي. ولذلك يكون عبد الدار قد وُلد في نحو سنة ٤١٠ م. أو ٤٢٠ م. فإذا احتسبنا لكل جيل بين عبد الدار و عامر ثلاثين سنة في المعدل، فإن عامراً هذا يكون قد وُلد في سنة ٥٠٠ م. أو ٥١٠ م. وكونه في الأربعين أو الخمسين من عمره على رأس بني عبد الدار سنة ٥٥٠ م. منطقي مقبول. وهذا تقدير محتمل خطأ قد يصل إلى عشرين سنة. ولكن هامش الخطأ يقلص كثيراً إذا أخذنا في الحسبان عمر عبد شمس. ولذا نميل إلى الاعتقاد أن حلف المطييين محتمل أنه قام سنة ٥٥٠ م. أو قبلها بسنوات، لكنه يصعب القول إنه قام بعدها، بسبب سن عبد شمس.

أما الأمر الخطير الآخر الذي نلاحظه من تحليل نصوص روايتي ابن هشام وابن حبيب، فهو أنهما يناقضان رواية أخرى لهما تتعلق أيضاً بانتقال الرقادة والسقاية من بني عبد الدار إلى بني عبد مناف. فقد سلفت الإشارة إلى قول ابن هشام إنه لما انقلب أبناء قصي على أخيه عبد الدار بعد موت والدهم، ولي عبد شمس الرقادة والسقاية. وهذا قول لا يتعارض مع خبر حلف المطييين بل يؤيده. لكن ابن هشام يضيف أن هاشماً بن عبد مناف ولي الرقادة والسقاية من بعد عمه عبد شمس^(١). إلا أن وفاة هاشم في مطلع القرن السادس الميلادي على الأبعد، يجعل انتقال الرقادة إلى بني عبد مناف سابقاً جداً لحلف المطييين، أو يعني أن يكون عبد شمس ثم هاشم أو أي من بني عبد مناف قد وليها قبل حلف المطييين.

ولذا لا نستطيع أن نجزم بثقة مقبولة، إلا في أمرين: أولهما أن حلف المطييين وحلف الأحلاف اختصا في شأن انقسام السلطة في مكة وحرماها،

(١) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ١٤٦، ١٤٧. والمختار: ص ١٦٤، ١٦٥.

والثاني هو أن هذا الخصام جعل قريباً حزينين لا يتبدل تشكيل أحلافهما. ويقول ابن هشام في هذا: «وثبت كل قوم مع من حلفوا، فلم يزالوا على ذلك حتى جاء الله تعالى بالإسلام»^(٢)، على ما سيلي في خبر حلف الفضول.

وقد لاحظ بعضون بحث أن حلف المطييين الذي ترعّمه عبد شمس جد الأمويين لم يكن موجهاً ضد أحصائهم التغلبيين بني هاشم، بل كان البطان حليين في هذه الواقعة. ولم تكن الخصومة قد نشأت بعد. كذلك يشير تحليل النصوص إلى أن كلا الحليين كان يضم بطوناً من أترياء قريش وأخرى لم يؤثر عنها الثراء والقوة. فمن أغنياء الأحلاف بنو مخزوم، ومن أترياء المطييين بنو عبد مناف. ومن فقراء المطييين بنو الحارث بن فهر. ولذا لا يستقيم أن يُبالغ في تفسير النزاع تفسيراً اقتصادياً يضع بطوناً فقيرة في مواجهة بطون غنية، على الرغم من أن الحوافز الاقتصادية في هذا النزاع مؤكدة. وقد بدا أن بعضون ينجح إلى اعتداد الأحلاف أقرب إلى الفهر، وأنهم إنما كانوا يواجهون في حلف المطييين بطوناً غنية تحاول السيطرة على مكة، إذ يقول إن قيام تحالف المطييين بدوافعه الاقتصادية... لمصلحة بطون دون أخرى في قريش... سيؤدي هذا التحالف إلى المجابهة الحتمية مع البطون الأخرى، لا سيما الأكل ثراء في مكة، وإن الأحلاف كانوا من متوسطي الثروة بالمقارنة مع أعضاء التكتل السابق^(٣). وليس هذا ما نوحه المصادر تلمساً. فمخزوم، وكانوا من الأحلاف، هم أغنيى أغنياء التجار الفرشين. ولول ابن هشام إن قصياً وجعل إلى عبد الدار الحجابة واللواء والسقاية والرقادة إضافة إلى الدعوة، وإن سبب نقمة المطييين هو «أنهم أولى بذلك منهم لشرفهم عليهم وفضلهم في قومهم»^(٤)، إنما يورحى

(١) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ١٤٤. وفي شأن حلف الفضول انظر الأملسي: نشوة... ص ٣٢٦.

(٢) بعضون: الإبل... ص ١٥. وكذلك بعضون: المختار... ص ٩٠. ونظر Leaman, J. Arabo... p. 65.

(٣) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ١٤٢.

على النقيض أن السلطة السياسية والاقتصادية كانت حكراً على قوم استطاع بنو عمومته أن يَفُضِّلُوهم اجتماعياً، وربما اقتصادياً، دون أن تتاح لهم حصتهم من السلطة السياسية، فتمردوا وأخذوا منها حصة.

ج- حلف الفضول

على رغم أن هذا الحلف يبدو إحياء لحلف المطييين، إلا أن علاقته بتجارة مكة وتنظيمها أشد وضوحاً. وتقول المانورات العربية الإسلامية إن سبب عقده «أن رجلاً من بني زبيد [اليمنيين] جاء بتجارة له إلى مكة فاشتراها منه العاص بن وائل بن هاشم بن سعد بن سهم، فمظله بحقه. وأكثر الزبيدي الاختلاف [إليه] فلم يُعطه شيئاً فتمهل الزبيدي حتى إذا جلست قريش مجالسها وقامت أسواقها، قام على [جليل] أبي قبيس فتأدى بأعلى صوته:

يا أهل فهر لمظلوم بضاعته بيطن مكة نائي الأهل والنفر... ثم نزل وأعظمت قريش ما قال وما فعل، ثم خشوا العقوبة، وتكلمت في ذلك المجالس. ثم إن بني هاشم وبني المطلب وبني زهرة وبني تيم اجتمعوا في دار عبد الله بن جدعان، فصنع لهم طعاماً وتحالفوا بينهم [أن] لا يُظلم بمكة أحد، إلا كنا جميعاً مع المظلوم على الظالم، حتى نأخذ له مظلمته ممن ظلمه شريف أو وضيع منا أو من غيرنا. ثم خرجوا»^(١).

وقد أضاف ابن هشام إلى الحلفاء بني أسد بن عبد العزى، وأضاف ابن حبيب في المحبر بني الحارث بن فهر^(٢). وهذا يجعل حلف الفضول مطابقاً تماماً لحلف المطييين، لولا خروج بني عبد شمس بن عبد مناف وبني نوفل بن عبد مناف، مخلفين من بني عمومته بني هاشم وبني المطلب وحدهم في الحلف الجديد^(٣). إلا أنه لم ينشأ في مواجهة حلف الفضول حلف منافس. وتدل

(١) المنق، ص ٤٥، ٤٦. وأكد الأفغاني أن حلف الفضول وحلف تجاري بمقدماته ونتائجها.

الأفغاني أسواق... ص ١٣٦.

(٢) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ١٤٥. والمحبر، ص ١٦٧.

(٣) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ١٤٥. راجع أيضاً في شأن حلف الفضول المنق، ص ٢١٧ - ٢٢٢. وسيرة ابن هشام: ج ١، ص ١٤٤ وما بعد.

الحوادث التي نشأ منها هذا الحلف، والتي دُعي إلى القضاء في أمرها، على أن الخصومات التي قسمت قريشاً زمن حلف المطييين لم تزل. فالعاص بن وائل الذي مَظَّل الزبيدي ماله، سهمي. وسهم كانت من الأحلاف خصوم المطييين. ويقول ابن حبيب إنه بعد عقد حلف الفضول: «قدم رجل من ثمالة فباع سلعة له من أبي بن خلف [بن وهب] بن حذافة بن جُمح فظلمه وفجر به وكان سعى المخالطة ظلوماً. فأتى إلى أهل حلف الفضول فأخبرهم، فقالوا له: اذهب إليه فأخبره أنك قد أتيتنا، فإن أعطاك حَقك والّا فارجع إلينا. فاتاه فقال له: إني قد أتيت حلف الفضول فأمروني أن أرجع إليك فأخبرك أنّي قد أتيتهم، وقد رجعت إليك فما تقول؟ فأخرج له أبي حَقَّه فأعطاه إياه. وجمُح كانوا أيضاً من الأحلاف خصوم المطييين. وتقدم إلى مكة رجل تاجر من خثعم معه ابنة يقال لها القتل، فعلقها نبيه بن الحجاج بن عامر بن حذيفة بن سعد بن سهم، فلم يبرح حتى نقلها إليه وغلب عليها أباه، فقبل لأبيها: عليك بحلف الفضول. فاتاهم فشكا ذلك إليهم، فأتوا نبيه بن الحجاج فقالوا: أخرج ابنة هذا الرجل... فأخرجها وأعطوها أباه»^(١). ونبيه بن الحجاج أيضاً سهمي. لكن حلف الفضول استطاع في الحوادث الثلاثة أن يُمضي حكمه بلا اعتراض لسببين محتملين، أولهما أن تَجُمُع بطون الأحلاف لم يعقد أي حلف معاد لحلف الفضول على ما يبدو من المصادر، والثاني أن جميع ما قضاه حلف الفضول فيما نعرفه من الحوادث، يُحفظ لمكة سمعتها التجارية ويضمن لتجار العرب الأمن والسلام فيها. ولا بد أن الكثرة من تجار قريش من بطون حلف الأحلاف السابق، ومن بني أمية وبني نوفل الذي أحجموا عن التحالف مع الفضول، لم يجدوا حقاً في الحلف الجديد ومسلكه ما يُضر بمصالحهم التجارية، بل لعلمهم وجدوا العكس، أو لم يتحمسوا للمواجهة على الأقل، لعدم إجماعهم على رأي في حلف الفضول وأحكامه، ومخالفته أو عدم مخالفته لمصالحهم^(٢).

(١) المنق، ص ٤٧ - ٤٩.

(٢) ارتأى الأفغاني أن حلف الفضول وحفظ سمعة قريش وصان ازدهار أسواق مكة. الأفغاني: أسواق... ص ١٣٦.

ومع ذلك توحي بعض المصادر أن القيادات المكيّة النافذة هي التي أوجت بالاعتداء على التّجار اليمنيين. إذ تقول المرويات إن حلف الفضول كان «منصرف قريش من الفجار ورسول الله صلى الله عليه يومئذ ابن عشرين سنة. قالوا: وكان الفجار في شوال وكان الحلف في ذي القعدة». ويؤكد المسعودي هذا إذ يقول: «وكان حلف الفضول بعد منصرفهم من الفجار»^(١). ولذا تساءل الباحثون: هل قضت قريش على تجارة الحيرة في الفجار، فانصرفت على الفور للقضاء على تجارة اليمن؟ وهذا طعناً نساؤل منطقياً، لكن الفارق بين معنى الحيرة إلى أخذ أزمة قيادة تجارة القوافل من مكة، وبين متاجرة أفراد من اليمن ضمن نظام تتبّده مكة من غير مقاومة تُذكر، هو فارق كبير. وقد تكون حوادث الاعتداء على التّجار اليمنيين محاولات رعيّة من أفراد لم يروا هذا الفارق. أما أن تكون حوادث متعمّدة ضمن خطة رسمتها قيادة التجارة المكيّة، فذلك يتفيه قبول هذه القيادة أعمال حلف الفضول بلا مقاومة تُذكر، على رغم قدرتها على المقاومة لورأت في ذلك مصلحتها. وقد أوّل سيمون في البالغة حين ارتأى في حلف الفضول بداية لإهلال اليمن^(٢). لقد قدّر ابن حبيب زمن الحلف سنة ٥٩٠ م. والمسمودي سنة ٥٩٥ م. إذا اصطلاحاً عل أن مولد النبي سنة ٥٧٠ م.^(٣) ولكن تجمار مكة كانوا يقصدون مناصر اليمن مد عهد أبرهة على ما سلف، أي قبل نشوء الحلف بعشرين سنة على الأقل. وتروي المصادر أن بني أميّة، وهم من بني عبد مناف، وكانوا من المطّبين، وقفوا قبيل الإسلام ضد حلف الفضول مع خصومهم السابقين، في حادثة سرقة مقيس بن عبد قيس السهمي خزال الكعبة المذنب^(٤). وقد أبحاث هذه الحادثة الاعتقاد أن بني أميّة أخذوا يشكّلون مع التّجار الأثرياء الفرشيين من بطون الاحلاف تجتمعاً للأغنياء، لا يابه للحرمان والعهود والموائيق التي قام عليها الإهلال وقامت عليها سمعة

(١) المنقش، ص ٢١٨، وانظر أيضاً المسعودي مروج الذهب، ج ٣، ص ٨.

(٢) Simon Hume et al., pp. 222, 223.

(٣) المنقش، ص ٢١٨، والمسعودي مروج الذهب، ج ٣، ص ١٠.

(٤) المنقش، ص ٥١ - ٦٧.

حكمة. إلا أن هؤلاء التّجار ما كانوا يجهلون مصلحتهم المالية والتجارية.

لم يكن حلف الفضول بداية للتجارة مع اليمن على أساس عهد الإهلال، بل كان حماية لها حتى نطل قائمة. وعلت النظر أن حوادث الاعتداء على التّجار اليمنيين كانت نعتراً رسمياً من وجهة نظر بعض التّجار الفرشيين في أسلوب خدمة التجارة المكيّة، لكنها وجهة نظر لم نخطّ تأييد كل التّجار الأثرياء أنفسهم، وإلا لكانوا أبدوا تأييداً أقوى لها ومعارضة أشد لحلف الفضول. وهذا يعني أن حلف الفضول لم يكن مستنداً لإهلال اليمن كما اعتقد سيمون، بل كان إعادة لأمر الإهلال إلى مصالها، بعدما كادت حماية الانصراف على أنصار الحيرة في حروب الفجار أن تعمد بعض الفرشيين صوابهم. وقد بدا مونتغمري - وات أكثر فهماً لحلف الفضول، إذ لاحظ أنه كان استمرراً لحلف المطّبين وليس مجرد ثورة على الظلم كما قال كاهاني وغيره^(١). ومع إثباته أن الرغبة في جبه العدوان على بعض التّجار المصممين كانت السبب المباشر لنظام الحلف، وأن الحلف كان اتحاداً لبعض البطون الفرشية الأصعب، إلا أنه لاحظ أن هذه البطون كانت تدافع عن تجارتها المحليّة مع اليمن، لأنها رأت في الاعتداءات محاولة من بعض البطون الغنيّة للاستيلاء على هذه التجارة. وقد مرّ مونتغمري - وات بين تجار حلف الفضول والتّجار الآخرين بقوله، إن التّجار المتمسكين إلى الفضول كانوا ممن لا يملكون وسائل تسير قوافل التجارة الدولية. ولذا تعلّقوا مع تجار اليمن في تسير تجارتهم المحليّة، لانقارهم إلى رأس المال الضرووي. أما الآخرون فكانوا يملكون القوافل ورأس المال^(٢). وعلى وحاشة هذا الرأي فلا مفر من الحذر في أحده، لأن عبد الله بن حذعان الذي رعى قيام حلف الفضول كان من أثرياء مكة. أما حديجة بنت خويلد زوج الرسول، وهي من أسد، أحد بطون حلف الفضول، فكانت تسير قوافل تجارية لحسابها. حسبما تروي السيرة النبويّة. وهذا يصحّ كثيراً رأي الفاتحين بأنفسهم الفرشيين إلى حزين:

(١) Montgomery Watt, Muhammad at Mecca..., p. 6. وكذلك حضور المرجع السابق.

ص ٨٨، والشريف المرجع السابق، ص ١٢٥ - ١٢٧.

(٢) Montgomery Watt, Muhammad at Mecca..., pp. 19, 32, 33, 74.

الفقراء والأغنياء. والراجح أن الخلاف كان مبعث طموحاً سياسياً، وصراع مصالح اقتصادية، وإن لم يَحُلْ الأمر من ثابن في الثروات.

ثالثاً: النسيء

أ- التقويم القمري والسنة الشمسية

جاء في القرآن: ﴿إِلَّا بِإِلْفٍ مُّقَرَّنٍ﴾ إيلانهم رَحْلَةُ الشَّاءِ وَالصَّيْفِ (قريش: ٢٠١). وتدل الأيتان عل أن فوافل مكة التجارية كانت ترحل إلى اليمن والشام في الموسم ذاته كل سنة، وكانت إذن مرهونة بفسار السنة الشمسية لا القمرية. غير أن حرب الجزيرة كانوا يعتمدون تقويمياً قمرياً. ويفترض هذا التقويم واحداً من أمرين: فإما أن منظمي الفوافل كانوا يسيرونها في الشتاء والصيف في مواسم شمسية ثابتة غير آبهين للأشهر القمرية وتواليها، وهذا مستبعد لأن التجارة والمواسم كانت شديدة الارتباط بالحج والأشهر الحرم، وإما أن العرب اعتمدت نظاماً لكبس السنة القمرية حتى توافق شهورها شهور السنة الشمسية تقريباً. وهذا ما سُمِّيَ النسيء^(١). ولا شك أن العرب كبسوا السنة القمرية، بدلً على ذلك أن أسماء بعض شهور هذه السنة مرهونة بالمطر أو الحر أو ما إلى ذلك. وقد درج معظم البَحَّاثَة على القول إن جُمادى الأولى وجُمادى الثانية هما شهرًا الشتاء، إذ تجتمع فيهما المياه. لكن هذا أمر غير محتمل، لأن الشتاء في الجزيرة العربية لا يَحْتَمِدُ أية مياه. ولا بد إذن لاسم جمادى من معنى آخر. إن المصدر جمد يتضمَّن معنى الحفاف واللمط وانحباس المطر. والجُماد هي الأرض التي لم تُنْظَر، أو السنة التي انحبس فيها المطر. ويُقال جُمادى للعين التي جَفَّتْ مَاقِيها. ولذلك يحتمل أن يكون هذا الاسم قد أطلق أصلاً على الشهرين اللذين ينحبس خلالهما المطر، بعد ربيع الأول وربيح الثاني وهما شهرًا المطر. أما شهر رمضان فيعني شهر الحر القاطط. وموقعه في السنة منطقي إذ أنه الشهر الخامس بعد جمادى الأولى، شهر انقطاع المطر^(٢)، وبينه وبين

(١) Montgomery-Watt, Muhammad at Mecca... p. 8 (١)

(٢) لسان العرب: مواد حمد ورفض وريح. وكذلك p. 136. Nabrus, up on.

ربيع الأول، بداية موسم المطر المفترضة، سنة لشهر. فلو اعتمد العرب سنة قمرية صرفاً، لما كان لهذه الأسماء من علاقة بمواسم الحر والمطر. وفي هذا دليل أول على أنهم عدلوا إلى كبس السنة القمرية لتتنق في طولها تقريباً مع السنة الشمسية. وقد يُسأل: لماذا لم يُعتمد السنة الشمسية أصلاً. لقد اتخذت جميع الشعوب الفجر في الأساس مقياساً للتقويم، لأن القمر ينبئ كل شهر. أما السنة الشمسية فلم يس لها من تقسيم ظاهر سوى توالي المواسم، وهو تقسيم غير سهل الملاحظة، وحدوده غير قاطعة، وهو ليس مقياساً إلى أشهر، سوى ما وضعه الحساب البشري منذ عصر بوليس فيصر، الذي أنشأ التقويم واعتمده. ولذا اتخذ البشر الفجر أولاً لعد الأيام والأشهر وإحصاء السنوات، فلما لاحظوا أن الأشهر القمرية اثنتي عشر لا تطابق السنة الشمسية، أي أن أعياهم ومواسمهم المرهونة بالتقويم القمري متفلة غير ثابتة، عدلوا إلى الكبس. فالسنة القمرية أقصر من السنة الشمسية بنحو أحد عشر يوماً. وكل ثلاث سنوات شمسية تزيد على الثلاث السنوات القمرية أكثر من شهر. ولذا فالشهر القمري الذي صادف الربيع مثلاً، يصادف الشتاء بعد تسع سنوات، ثم الخريف بعد تسع سنوات، أخرى، وهكذا. ويلاحظ في جميع المجتمعات الزراعية أن معتقدات الفلاحين وأديانهم وعاداتهم كانت مرتبطة بالدورة الشمسية السنوية، مع أن التقويم الشمسي لم يُعتمد إلا قبل المسيح^(٣). وهذا يفسر سب نشوء عادة الكبس عند شعوب بابل وغيرها من الشعوب القديمة، ومنهم الرومان أنفسهم^(٤).

ولكن هل للنسيء، أي كبس السنوات القمرية، علاقة بتجارة مكة ولماذا؟ إن بضعة الأبواب التالية سنحاول الإجابة عن مسائل عديدة منها: منشأ

(١) أنظر مادة Calendrier في Grand Larousse Encyclopédique وكذلك راسع في شأن علاقة الشمس بالأيام والمعتقدات الدينية مذكور سَنَب: التقاليد والمعتقدات وأشهر الشمسية في فلسطين قبل ١٩١٨. في الموسوعة الفلسطينية. وكذلك سَنَب: وحدة المجتمع في الإسلام، ص ١٠٧-١١٥.

(٢) أنظر مادة Embellissement في Grand Larousse Encyclopédique وكذلك Rabboth, Mahomet. Prophète... p. 206.

النسب، ومبتدأ اعتماده عند العرب ونظامه وأصوله، وسبب رذل الإسلام له، وعلاقته بالتجارة المكيّة والمواسم والإبلان.

ب - منشأ النسب عند العرب

عالج الكتاب المسلمون موضوع النسب باكراً، فورد ذكر نسب الشهور في كتاب الألف لامبي معشر البلخي الفلكي الذي توفي سنة ٢٧٢ للهجرة. وتوسّع البيروني في بحث أمر النسب وقال إن العرب نقلته عن اليهود. وربط البيروني بين لفظة «جُبُور»، التي كانت تعني عند العربيين السنة الكبيسة، وبين لفظة «مُعَبَّرَات» التي تعني عندهم المرأة الحامل. ولاحظ أنهم شبهوا السنة التي تحمل شهراً إضافياً بالمرأة التي تحمل في حشاها طفلاً ليس جزءاً من جسدها. وفي المقابل قال الطبري في النسب إن النسوة هي المرأة الحامل، وإن قولهم: «نُسبت المرأة»، يعني أنها حملت. ورأى مويرغ أن اتفاق البيروني والطبري ليس مصادفة، وأن هذا الاتفاق يؤيد قول البيروني إن العرب نقلت النسب عن اليهود. وارتأى دي برسفال أن رئيس مجلس السهريين اليهودي كان يُلقب «ناسي». وكان هذا المجلس يتولى إنشاء الشهور عند قدامى اليهود. وتؤيد المأثورات الإسلامية أن كلمة نسب كانت اسم رجل. وكان اليهود إذ يُسنون، يضيفون شهراً بين آخر شهور سنتهم وأول شهور السنة الجديدة، وهو ما كانت تفعله العرب، إذ يضيف النساء شهراً بين ذي الحجة والمحرم، على نحو ما سيُبين لاحقاً^(١).

والنساء كانوا حُصصاً من كنانة، ونُسب إليهم أنهم هم الذين غضبوا لمحاولة صرف أبرهة حاج العرب عن مكة^(٢). وكان بنو كنانة يفتخرون بهذه المهمة التي كانت من أهم الوظائف المكيّة. وفي ذلك قال حمير بن قيس، أحد بني فراس بن غنم بن ثعلبة بن مالك بن كنانة:

(١) البيروني، عبد الرحمن محمد بن أحمد: الآثار الباقية من الفنون الخالية، طبعة ادوارد سانخاو، لايبزغ، ١٨٧٨، ص ١١، ١٢، ١٣، ٣٢٥. والطبري: التفسير، ج ١٠، ص ٩١. وانظر أيضاً مادة Nest في *Encyclopedia of Islam*.

(٢) أنظر فيما سبق: فرائع حيلة امرأة على مكة وكذلك اسم الكلي: كتاب الأصنام، ص ٤٦، ٤٧.

لقد خيلت منذ أن قومي كرام الناس أن لهم كراما
هناي الناس فأتونا سوتير واي الناس لم نعلبك لجلسا
ألسنا الناسين على نجد شهر الحبل نعملها حراما^(١)

وكانت مهمة إنشاء الشهور وراثية في بني عبد ظهير الكناينة. وكان الناس يلقب القلمس، تشبهاً له بالحر الماتح العميق العور^(٢).

وقد اختلفت المصادر الإسلامية اختلافاً طفيفاً فيما كان أول نسب الشهور. فنسبت ذلك تارة إلى سرير بن ثعلبة الكنايني حذ قصي بن كلاب لأمه^(٣)، ونسبت طوراً إلى أخيه حذيفة بن عدي بن عامر بن ثعلبة الكنايني. ويحصى ابن هشام ستة قلائص توارثوا الوظيفة منذ حذيفة حتى ظهور الإسلام. وهم: حذيفة بن عبد بن قحيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمه، ثم قام بعده حلي ذلك ابنه عباد بن حذيفة، ثم قام بعد عباد قلع بن عباد، ثم قام بعد قلع أمية بن قلع، ثم قام بعد أمية عوف بن أمية، ثم قام بعد عوف أمو ثعلبة حذافة بن عوف وكان آخرهم وعليه قام الإسلام^(٤).

فلذا حاولنا تخمين زمن حذيفة أول النسب حسب بعض الروايات، فإن العودة من زمن ظهور الإسلام ستة أجيال، نرجعنا نحواً من مائتي سنة، إذا احتسبنا ثلاثة وثلاثين عاماً لكل جيل في المتوسط. وهذا يهبطنا إلى زمن قصي تقريباً، وهو أمر متوقع، لأن قصياً هو حفيد سرير بن ثعلبة على ما أسلفنا، أما حذيفة فهو حفيد عامر بن ثعلبة أخي سرير. وحفيدا آخرين لا بد أن زمنيهما كان متقارباً. وقد يغربنا هذا الأمر بأن نسارع إلى الاستنتاج أن قصياً هو الذي أنشأ النسب فأوكل وظيفته إلى أحد بني أحواله الكناينة، حذيفة بن عدي، غير أن

(١) سورة ابن هشام: ج ١، ص ٤٦.

(٢) اللسان، مادة القلمس. وانظر أيضاً: *Nabatae* op cit. p. 148.

(٣) الأوائل، ج ١، ص ٩٨. والتفسير، ص ١٥٦، ١٥٧. والأدري: ج ١، ص ١٢٥.

والشريف: المرجع السابق، ص ١٠٩. وكذلك: *Nabatae* op cit. p. 139, 140.

(٤) سورة ابن هشام: ج ١، ص ٤٥.

التدقيق في خبر استيلاء قصي على مكة يعني هذا الأمر أو بنافسه. إذ يقول ابن هشام: «فولي قصي البيت وأمر مكة... إلا أنه قد أفر للعرب ما كانوا عليه، وذلك أنه كان يراه ديناً في نفسه لا ينبغي تغييره، فأقر آل صفوان وعدوان والنساء ومرة بن عوف على ما كانوا عليه»^(١). وهذا يعني أن النبي كان مؤسسة قائمة منذ أيام خزاعة، وأن القائم عليها كان أيضاً الكنانيون. وقد يبرز هذا الأمر أن منشئ النبي ليس حذيفة، بل أخو جده سرير بن ثعلبة، إذا شئنا أن نوافق المصادر في حصر الأمر بينهما وحدهما. وإذا اعتمد سرير مؤسساً للنبي، فإن ظهور هذا التقليد عند العرب لن يرجع على الأرجح إلى العقد الثاني أو الثالث تقريباً من القرن الخامس الميلادي، زمن رجولة قصي وجيله، بل إلى العقد السابع أو الثامن تقريباً من القرن الرابع الميلادي، زمن رجولة سرير، إذا قدرنا الجيل المتوسط بما قدرناه آنفاً، أو إلى زمن ما، بين الزميين.

وليس لدينا دليل قاطع على أن النبي قام نحو مائتي سنة تقريباً قبل الإسلام، فتلك تخمينات منطقية وحسب. لكن إحياء قصي المؤسسات المكية يعزز الاعتقاد أن النبي كان من تلك المؤسسات التي أعملتها خزاعة، وأعيد العمل بها أيام قصي. ومع ذلك يقول البيهقي إن عمر النبي لدى إلغائه في جعبة الوداع كان نحواً من مائتي سنة. وقد جاء أن أسماء الأشهر القمرية العربية التي نعرفها أعطيت لهذه الأشهر مائتي سنة قبل الإسلام. والعلاقة واضحة بين تسمية الشهور والنبي، على ما سلف. وقد خضع محمد حميد الله ثلاث دراسات مستفيضة بمسألة النبي ومحاولة الكشف عن أسرارها^(٢). واحتسب زمن

(١) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ١٣٦.

(٢) البيهقي: الآثار... ص ١٢، ١٣. وانظر أيضاً Hamidullah, Muhammad Intercalation in the Hijrah and the Hadith, Islamic Culture, vol 17 (1943), pp. 327 - 330 And Hamidullah: The Nafl, the Hijrah calendar and the need of Preparing a New Concordance for the Hijrah and Gregorian Eras, Journal of the Pakistan Historical Society, 16 (1968), pp. 1 - 18. And Hamidullah: The Concordance of the Hijrah and Christian Eras for the Life-Time of the Prophet, Journal of the Pakistan Historical Society, 16 (1968), pp. 213 - 219. وكذلك: pp. 146, 147. Nahuron, op cit.

إنشاء النبي على وجه الاحتمال، استناداً إلى نصوص صلح الحديبية سنة ست للهجرة. إذ تقول المصادر الإسلامية أحياناً إن الحديبية كانت في ذي القعدة، وأحياناً في رمضان. وأكد حميد الله أن سب الفروق أن المسلمين لم يكونوا يمتنعون الشهور، وأنخلوا تقريباً يختلف عن الطوم الذي مكث عليه مكة. وفي إشارة أبي بكر الحج سنة تسع للهجرة صاعد ذو الحجة المكي ذا القعدة المديني. واستنتج حميد الله بالحساب أن عمر النبي إذن هو نحو مائتين وست عشرة سنة^(١). والقرب نوبرون بحساب المستقل، من هذا التقدير فجعله مائتين وتسع عشرة سنة^(٢). غير أن هذه المسألة توحى الحاجة إلى مزيد من التدقيق على الرغم من جلال الأبحاث التي عاليتها، وبخاصة أبحاث حميد الله.

ج - نظام النبي

إذا كانت المصادر الإسلامية لا تنصح بوضع عن أسرار النبي عند منشئه، فإنها تستفيض في وصفه في زمن ظهور الإسلام أو ما سبقه بقليل. وفي لسان العرب: «وقوله تعالى ﴿يُحَلِّتُهُمْ غِلَاً وَخُرْقَتاً غَلِيَّةً﴾ فتره ثعلب فقال: هذا هو النبي، كانوا في الحاملة يحسمون ألباً حتى تصير شهراً»^(٣).

وقد جاء في إمتاع الأسماع للمفريزي وصف لما كان يجري عند حلول موحد إنساء الشهور، إذ قال: «وتولّى عمل ذلك للعرب السنة المعروفون بالفلاس من بني كنانة، واحد منهم فلّمس، وكان يقوم بعد انقضاء الحج فيخطب وينسيء الشهور وينسي الشهر التالي له باسمه، فيقبل الجميع قوله ويستنون هذا الفعل النبي، لأنهم كانوا يُستنون أول السنة في كل سنة لو ثلاث شهراً حسب ما يستلزمه التقدم. ومعنى قوله: «وينسي الشهر التالي له باسمه»، أنه كان يسمي شهرين متوالين مترجماً، وذلك ما يوضحه في قوله: «وكان النبي الأول للمحرم لسنّي صفر باسمه، وسنّي ربيع الأول باسم صفر ثم والوا بين

(١) Hamidullah, Intercalation... p. 329.

(٢) Nahuron, op cit., pp. 146 ff.

(٣) ولسان العرب، مادة حل.

أسماء الشهور. وأضاف المفريزي قوله: «فإن ظهر... لهم تفرُّم شهر عن فصل من الفصول الأربعة لما يجتمع من كسور سنة الشمس وبقيّة فصل ما بينها وبين سنة القمر الذي الحقوه به، كسوا كسباً جديداً»^(١). وهو يشير بقوله هذا إلى الكسور التي تبقى من إنساء شهر كل ثلاث سنوات، مما يجمع شهراً كاملاً كل ثلاثين سنة تقريباً، فيحتاجون بذلك إلى كسب شهر آخر غير الشهر الذي اعتادوا أن يكسوه. وقد اختلفت الروايات في المصادر الإسلامية حول النظام المتبع لإنساء الشهور، فجاء في المحرّر: «نسأ الشهور من كثرة وهم القلابة... فكان القلّس من هؤلاء... يقوم إمام الشريعة في الحجر فيُفتيهم، لا يسأل أحد عن شيء غيره، فيقوم رجل منهم عند باب الكعبة ويقوم رجل آخر في الحجر، فيقول كل واحد منهما: أنا الذي لا أحاب ولا أحاب ولا يُزد قضاء قضاء. فإن جاء قوم يريدون الغارة في المحرم يسألوه أن يؤخر المحرم، فيحسب لهم: ويقول: هذا العام صفر الأول... فيؤخر المحرم ويقدّم صفر. فيُجلّ المحرم عاماً ويحرّمه عاماً. وليس من شك في أن ابن حبيب أصاب حين قال إنهم كانوا يؤخّرون محرّماً، لكن تقدّم صفر مسألة أخرى. فنقدّم شهر وتأخير آخر لا يزيد عدد شهور السنة. ولا يؤدي هذا الغرض سوى تأخير المحرم، ثم تأخير أو إنساء كل الشهور بعده، حتى تبقى بالترتيب المعتاد. فيكون في السنة محرّمان لا واحد. والراجع أن ابن حبيب أراد أن يؤيد بذلك تفسير بعض الإخباريين للنسبة. فقد فسّر النسبة على أن غرضه كان اختصار هذنة الأشهر الحرم الثلاثة المتوالية ذي القعدة وذي الحجة والمحرّم، لأن العرب كما قال: «تمش من سيولها ورماعها، فيشقّ موالاة الأشهر الحرم الثلاثة عليها»^(٢). فكان الناس في رأيه يبذل ترتيب الأشهر فقط، فيصبح: ذا القعدة وذا الحجة وصفر ثم المحرم، بدلاً من أن يسبق المحرم صفرًا. وبذا تهدن الغزوات شهرين وتُستأنف شهراً في

(١) استند حميد الله إلى مخطوطة، ولم يعثر على النص في نسخة مطبوعة لانتاج الأساع في مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت. انظر Hamidullah The Naq. p. 5. وانظر في النسبة

أبشاً البندادي، أبو علي الفاي: الآمال: ج ١، ص ١.

(٢) المحرّر، ص ١٥٧. وانظر أيضاً: p. 150. Numbered copy of

صفر المقدّم، وتعود إلى الهدنة في المحرم المسوّه. بعدما يقسم الغزؤون ما يسد حاجتهم. وسُمّالِح أسباب النسبة وعلاقته بالهجرة والمواسم والفزوق وقوافل قريش فيما بعد. لكنه لا مفر هنا من أن نحطّ به ابن حبيب في افتراضه أن النسبة لا يزيد من شهور السنة، وهذا يخالف القرآن في تحريم النسبة: «إِنَّ جُذَةَ الشُّهُورِ جُذَةُ اللَّهِ أَتَانَا عَشْرَ شَهْرًا» (النوبة: ٣٧).

وقد اختلفت المصادر الإسلامية أيضاً في وتيرة إنساء الشهور، فقال معظمها إن شهراً كان يزداد كل ثلاث سنوات، وقال بعض آخر إن الشهر كان يضاف كل سنتين، بل حتى كل سنة. وجاء في متن ابن حبيب: «كانوا يُنسئون الشهر، فكانوا يحسّون في كل شهر عامين. يحسّون في المحرم عامين وفي صفر عامين وفي ربيع الأول عامين وفي شهر ربيع الآخر عامين وفي جمادى الأولى عامين وفي جمادى الآخرة عامين وفي شعبان عامين وفي رمضان عامين وفي شوال عامين ثم ذي القعدة عامين ثم ذي الحجة عامين»^(١). وقوله هذا يعني أن العرب كانوا يُنسئون مرة كل سنتين، فسه يكسونها ويحسون سنة. وهو قول يؤكد أن الإنساء يزيد شهور السنة.

وقد اعتدى حميد الله إلى تفسير بسيط ومطع لاختلاف المصادر في قولها بالكسب كل ثلاث سنوات أو كل سنتين أو حتى كل سنة. فالكسور التي لا يشملها كسب شهر، وهي ثلاثة أيام كل ثلاث سنوات، كانت تجمع ثلاثين يوماً كل ثلاثين سنة. ولذا كانوا يحتاجون إلى كسب شهر إضافي كل ثلاثين سنة. ولما كانت السنة تكسب في المعتاد كل ثلاث سنوات، فإن هذا كان يترك للناس سنتين عاديتين لاختار كسب إحداهما الكسب الإضافي. والسنة الكيس الإضافية هذه كان لا بد أن تفصلها سنة ثم ستان عن السنة الكيس العادية التي تسبقها وتلك التي تليها. ويبدو أن هذا الأمر أروهم بعض العرب أن الكيس إنما كان يحدث كل سنتين أو كل سنة^(٢).

(١) المتن، ص ٢٧١.

(٢) Hamidullah The Naq. pp. 8, 9

والواقع أن مسألة النسيء اختلف كثيراً مما قد تبدو للوهلة الأولى. وهذا سبب قول ابن حبيب إن الناسء كان إذا سالوه أن يؤخر المحرم، فيحسب لهم. فالمسعودي وأبو الفدا بسطوا الأمر فقالا إن شهراً كان يُضاف كل ثلاث سنوات. أما حاجي خليفة فقال إن سبعة أشهر كانت تضاف في مدى تسع عشرة سنة، فيما اتفق البيروني والمقرئزي ومحمد جرکسي على أن تسعة أشهر كانت تضاف كل أربع وعشرين سنة^(١). وفيما يلي بيان للحالات الثلاث بوضع أي الأساليب أشد تضييقاً للفارق بين السنتين القمرية والشمسية، إذا افترضنا أن الشهر المنسوء ثلاثون يوماً وأن طول السنة الشمسية ٣٦٥.٢٥ يوماً.

أسلوب النساء	عدد السنوات القمرية وأيامها	عدد الأشهر المضافة وأيامها	المجموع	عدد السنوات الشمسية وأيامها	الفارق
شهر كل ٣ سنوات قمرية	٣٥٤×٣ ١٠٦٢ يوماً	٣٠×١ ٣٠ يوماً	١٠٩٢ يوماً	٣٦٥.٢٥×٣ ١٠٩٥ يوماً	٣ أيام كل ٣ سنوات
٧ أشهر كل ١٩ سنة قمرية	٣٥٤×١٩ ٦٧٢٦ يوماً	٢١٠×٧ ١٤٧٠ يوماً	٦٩٣٦ يوماً	٣٦٥.٢٥×١٩ ٦٩٣٩ يوماً	٣ أيام كل ١٩ سنة
٩ أشهر كل ٢٤ سنة قمرية	٣٥٤×٢٤ ٨٤٩٦ يوماً	٢٧٠×٩ ٢٤٣٠ يوماً	٨٧٦٦ يوماً	٣٦٥.٢٥×٢٤ ٨٧٦٦ يوماً	صفر كل ٢٤ سنة

ويوضح هذا البيان أن الأسلوب الثالث، أي إضافة ما مجموعه تسعة أشهر كل أربع وعشرين سنة هو أدق الأساليب في تقريب النساء من فرضهم أي موافاة التقويم القمري على التقويم الشمسي. وهو أسلوب احتسبت دقته على افتراض أن الشهر المنسوء ثلاثون يوماً وأن السنة الشمسية ثلاثمائة وخمسة وستون يوماً.

(١) البيروني: الآثار، ص ١١، ١٢، ١٣، ٣٢٥. وانظر أيضاً Noblesse: op.cit., pp. 137, 138. وهو يستشهد بالمقرئزي وجرکسي من غير ذكر المصدر.

وقد وقع يوم في المتوسط، وكلا الأمرين تقريباً. ولم يكن القول إن النسيء كان يضيف شهراً كل ثلاث سنوات بعيداً جداً عن الحقيقة. ولذا قال بذلك معظم المصادر الإسلامية العربية.

٥- مطابقة الشهور

إن محاولة التدقيق في بعض النصوص قد تمكن الباحثين من معرفة الشهور القمرية والشهور الشمسية التي كان النسيء يوافقها، أي يتبناها. فذلك قد لا يوضح فقط أسلوب النسيء في القرون التي سبقت الإسلام، بل ربما يزيل بعض الغموض في شأن أسباب النسيء وأغراض السنة.

لقد اذهب دي ساسي استناداً إلى الفيروزبدي والجوهري وبعض المفسرين أن النسيء كان يبدل شهر حرام من شهر آخر، دون أي زيادة في أشهر السنة. وقد أثبتنا أن هذه المغالاة التي قال بها محمد بن حبيب أيضاً غير صحيحة، استناداً إلى نص قرآني صريح، لكن دي ساسي لم يستطع أن يتجاهل المسعودي والمقرئزي وأبا الفدا الذين أكدوا أن النسيء هو كبس سنة قمرية بشهر ثالث عشر، فقال بوجوه نفيهم على الأكل عند العرب قبل الإسلام: تقوم مكبوس (يسمى نوبرون قمري - شمسي اعتمد أهل شراب والعرب اليمنية)، وتقوم قمري خالص اعتمد أهل مكة والعرب المذنبون. وذلك أمر ينبغي تاريخ العرب قبل الإسلام تماماً، لأن الحج والمواسم والأشهر الحرم كانت حتمية موحدة. ولا أثر في أي من المصادر لأي احتمال يوحي أن مغالاة دي ساسي قد تكون صحيحة. وقد أجمعت المصادر على مناقضة النسيء بقولها إن هذه الشهور اثني عشر شهراً لا غير، أي إن النسيء كان يبدل عدد الشهور. وكانت الأسواق العربية تنقل في طول الجزيرة وعرضها، على نحو ما سيتبين لاحقاً. ولو اعتمد نفيهم أن أحدهما ينسب الشهور، لمعت الفوضى هذه المواسم والأسواق، لتحريم بعض العرب الغزو والقتال وتحليل البعض الآخر لهما في آن، وفقاً لاعتمادهم هذا التقويم لو ذلك. وقد بين نوبرون أن دي ساسي سبق

إلى هذا الاعتقاد بسبب خطأ في مخطوطة المقرئ التي استخدمها^(١).

لقد اعتمد العرب تقويمياً موحداً منذ زمن أطول مما يُعتقد. ففي الحروب البيزنطية الفارسية التي أجت نارها طوال القرن السادس، روى بروكوبيوس، وهو مؤرخ مولود في سنة خمسمائة للميلاد تقريباً، أن بليزاريوس (Belisarius) القائد العسكري البيزنطي جمع سنة ٥٤١ م. عسكره في دارة ليدرس خطة مهاجمة نصيبين التي كانت بأيدي الفرس. فاعترض قائدا الوحدات السورية والفينيقية، لأن مسيرهما مع الجيش البيزنطي في رابهما، بترك البلاد طعمة سهلة للمنزل الثالث ملك الحيرة. وأثبت بليزاريوس للفائدين المذكورين أن خشيتهما ليست في محلها لأن الانقلاب الصفي كان يقترب. وفي هذه الحقبة من السنة يخصص العرب شهرين بحجهم، ويمتنعون عن أي قتال أو غزو. وليس من شك في أن العسكري البيزنطي كان يعني موسم الأشهر الحرم الثلاثة التي كان يستغرق السفر فيها إلى مكة والعودة منها إلى بادية الشام شهرين على الأقل. وأظهر نوبيرون في حسابه أن الحج في تلك السنة، وفق بيان سنوات السيرة الذي أعده، صادف الثاني والعشرين من حزيران/يونيو، أي موعد الانقلاب الصفي^(٢). وقد أتاح هذا الأمر وضع تقويم السنة القمرية التي تلت ذلك الحج على النحو الآتي، على أساس تقريبي طبعاً، يفترض أن التاسع من ذي الحجة صادف الثاني والعشرين من حزيران/يونيو سنة ٥٤١ م.

(١) تفسير الجلالين: سورة النوبة، الآية ٣٦. سيرة ابن هشام: ج ٤، ص ٢٧٥. الوائلي: المغازي، ص ١١١٢. أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، الطبعة المحببة، ج ١ ص ٩٩. الطبري: التاريخ، ج ٣، ص ١٥٠، ١٥١. وانظر أيضاً Nobro: Ibid. pp. 141 - 143. والفرض جواد علي أيضاً أن يكون للحرب موسم للحج. انظر جواد علي: ج ٦، ص ٣٤٩.

(٢) Nobro: op cit. p. 152 وكذلك Devroese: op.cit. p. 289.

الشهر القمري	بدا	انتهى
المحرم •	١٣ تموز/يوليو	١٠ آب/أغسطس ٥٤١ م.
صفر	١١ آب/أغسطس	٨ أيلول/سبتمبر
ربيع الأول	٩ أيلول/سبتمبر	٧ تشرين الأول/أكتوبر
ربيع الآخر	٨ تشرين الأول/أكتوبر	٦ تشرين الثاني/نوفمبر
جمادى الأولى	٧ تشرين الثاني/نوفمبر	٦ كانون الأول/ديسمبر
جمادى الآخرة	٧ كانون الأول/ديسمبر	٤ كانون الثاني/يناير ٥٤٢ م
رجب •	٥ كانون الثاني/يناير	٣ شباط/فبراير
شعبان	٤ شباط/فبراير	٤ آذار/مارس
رمضان	٥ آذار/مارس	٢ نيسان/إبريل
شوال	٣ نيسان/إبريل	٢ أيار/مايو
ذو القعدة •	٣ أيار/مايو	١ حزيران/يونيو
ذو الحجة •	٢ حزيران/يونيو	١ تموز/يوليو

تقويم سنة ٥٤١ م. • الأشهر الحرم

إن قول بليزاريوس يثبت على نحو قاطع أن العرب كانوا يُسنون الشهور منذ ذلك الزمن على الأقل، ولا بد أن بداية الإنشاء سقت تلك السنة حتى بات الحج في الانقلاب الصفي قرناً ونظيراً عربياً في بداية الشام يعرفه البيزنطيون. وقوله يثبت أيضاً أن غرض السيرة كان موازنة الشهور حتى يصادف موسم الحج الانقلاب الصفي. غير أن الساء على ما يبدو لم يُحسنوا دائماً الحساب لتثبيت موعد الحج على موعد الانقلاب أو تلاعبوا به لغرض ما. فبما يلي تقويم السنة العاشرة للهجرة^(١)، وما يساهلها في الضموم الشمسي سنة ٦٣١ م. وسنة ٦٣٢ م.

(١) Contaux, H.O.: Tables de Correspondance des ères (hébraïque et hélienne, trinitaire ed., (١)

Editions Techniques Nord-Africaines, Rabat.

الشهر القمري	بدأ	انتهى
المحرم •	٩ نيسان/إبريل	٨ أيار/مايو ٦٣١ م.
صفر	٩ أيار/مايو	٦ حزيران/يونيو
ربيع الأول	٧ حزيران/يونيو	٦ تموز/يوليو
ربيع الثاني	٧ تموز/يوليو	٤ آب/أغسطس
جمادى الأولى	٥ آب/أغسطس	٣ أيلول/سبتمبر
جمادى الثانية	٤ أيلول/سبتمبر	٢ تشرين الأول/أكتوبر
رجب •	٣ تشرين الأول/أكتوبر	١ تشرين الثاني/نوفمبر
شعبان	٢ تشرين الثاني/نوفمبر	٣٠ تشرين الثاني/نوفمبر
رمضان	١ كانون الأول/ديسمبر	٣٠ كانون الأول/ديسمبر
شوال	٣١ كانون الأول/ديسمبر	٢٨ كانون الثاني/يناير ٦٣٢ م.
ذو القعدة •	٢٩ كانون الثاني/يناير	٢٧ شباط/فبراير
ذو الحجة •	٢٨ شباط/فبراير	٢٨ آذار/مارس

تقويم سنة ١٠ هـ • الأشهر الحرم

ويظهر من مقارنة التقويمين أن السنة القمرية رغم النسيء، لم تثبت على مواعيد شمسية معينة. وفي نحو من تسعين سنة شمسية تحرك المحرم من تموز/يوليو إلى نيسان/إبريل. وينقل جواد علي عن أحد مؤرخي الروم أن ذا الحجة في زمنه كان يصادف تشرين الثاني/نوفمبر^(١)، أي أن محرماً انتقل إلى كانون الأول/ديسمبر.

لقد دعا حميد الله في أبحاثه عن النسيء (وقد أسلفنا ذكرها في باب: منشأ النسيء عند العرب، أعلاه) إلى جهد مشترك تسخر فيه الحاسبات لاستكمال حقيقة تاريخ النسيء. فإذا رُصدت التواريخ التي توحى الثقة في شأن

(١) جواد علي: ج ٦، ص ٣٤٨، ٣٤٩.

حوادث الأشهر القمرية من السنوات النسيئية. لا يمكن وما التوصل إلى الأخطاء التي ارتكبتها النساء، فادت إلى تحرك الأشهر. ولا يمكن بالتالي اكتشاف النظام الذي اتبعه النساء العرب. وقد يحسم من هذا حلاء كثير من غوامض التاريخ العربي قبل الإسلام.

أما الحال القائمة الآن، فإن وصفها بالمفوض لا يرقى إلى مرتبة المبالغة. إذ يجد بعض الباحثين أن ربيع الأول وربيع الآخر كانا في الشتاء^(١)، وأن لديه ما يثبت ذلك في المصادر. ويستدل البعض الآخر بالمصادر على أن ربيع الأول وربيع الآخر كانا في الخريف^(٢). ونفة من يعتقد أن النسيء توقف بعد الهجرة^(٣)، ونفة من يؤكد أن النسيء ظل قائماً حتى حرّمه الإسلام في السنة العاشرة للهجرة خلال حجة الوداع^(٤). وهذه حال لا يمكن أن تسفل إلا إذا بذل جهد استثنائي لا يمكن لولاء أن تقدم الأبحاث في مثل هذا الموضوع المعقد.

هـ - تحريم الإسلام للنسيء

ذكر النسيء في القرآن الكريم تلميحاً وتصريحاً، ففي قوله: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ (الكهف: ٢٥)، قال مفسرون: وهذه السنوات الثلاثمائة عند أهل الكهف شمسة وترد القمرة عليها عند العرب تسع سنين. وقد ذكرت في قوله: ﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾، أي تسع سنين، ثلاثمائة شمسة ثلاثمائة وتسع قمرية^(١). وجاء في سورة ياسين قوله: ﴿وَالشُّعْرُ فَجَرِي لِمَسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ • وَالْفَرْقَنَ فَتَرْكَبُ عَلَى سُرَابٍ مِّنْ جِلْجَلٍ فَتَرْتَجِي فِي السَّمَاءِ • فَتُفَوِّضُهَا إِلَى الْيَوْمِ الْقَدِيمِ • لَا الشُّعْرُ يَنْفَعُهَا إِنَّ تَدْرِكُ الْفَنَاءَ وَلَا الْكَلْبُ شَابِقُ الْفِتَاءِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (ياسين: ٣٨ - ٤٠). وقد نشر الطبري والقرطبي والفيثري هذه الآيات على أنها الإشارة الأولى إلى محالمة النسيء لعقيدة الإسلام، خصوصاً

(١) Montgomery Watt: Muhammad at Mecca..., p. 1.

(٢) Kretschmer, F.: The Annual Fairs of the Pagan Arabs, Islamic Culture, XXI (1947), p. 112.

(٣) Montgomery Watt, W.: Muhammad at Medina (Oxford, Clarendon Press, pp. 339 ff.).

(٤) Hamidullah: The Naif..., pp. 11, 12.

(٥) أنظر تفسير سورة الكهف الآية ٢٥، في تفسير الخليل.

في قوله تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾... الآية، إذ كان غرض النسيء بالتخصيص أن تساوى الستان الشمسية والقمرية.

لكن القرآن الكريم ذكر النسيء صراحة في سورة التوبة وفي معرض تحريمه إذ قال: ﴿إِنَّ جُنَّةَ الشُّهُورِ جُنْدَ اللَّهِ أَتَانَا خَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ إِنَّمَا النِّسْيَةُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ حَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ حَامًا لِيُؤْاطُوا جُنَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَهُمْ لَهُمْ سَوْءُ مُعْآلِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (التوبة: ٣٧ - ٣٨).

وكلمة ليؤاطوا في الآية تُفصح عن معنى النسيء. ففي اللسان، مادة وطأ: يُقَالُ وَطَأَنِي فُلَانٌ عَلَى الْأَمْرِ إِذَا وَافَقَكَ عَلَيْهِ (١). وقد أكدت خطبة الوداع التي ردد فيها الرسول عبارات من سورة التوبة، معنى موافقة التقويم القمري التقويم الشمسي، فقال النبي: «إن النسيء زيادة في الكفر... يُحِلُّونَهُ [المحرَّم] حَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ حَامًا لِيُؤْاطُوا جُنَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، فُجِّلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَيُحَرِّمُوا مَا أَحَلَّ اللَّهُ، وَإِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ» (٢). وتدل هذه العبارة الأخيرة بالطبع على أن الإسلام نظر إلى النسيء نظرتة إلى فعل عيث بنظام وضعه الله. وهذا سبب من أهم الأسباب التي يمكن أن تفسر رد الإسلام للنسيء. وقد فتح المسلمون مكة في سنة ثمان للهجرة؛ ولكن النساء أنساوا شهراً في سنة تسع. وقال البيهقي في الآثار إن الرسول «انتظره» (٣). وأما تفسير سبب «انتظاره» ففي قوله: «إن الزمان قد استدار كهيته يوم خلق الله السموات والأرض». وهذا يعني أن الرسول شاء أن ينتظر حتى يبلغ عدد الشهور المنسوبة ضعفاً كاملاً من أضعاف اثني عشر، فيعود كل شهر قمري إلى

(١) لسان العرب، مادة وطأ.

(٢) سيرة ابن هشام: ج ٤، ص ٢٧٥. واطر في هذا: Hamidullah: The Nad'... pp. 2, 4, 11.

(٣) البيهقي: الآثار... ص ٩٣. واطر أيضاً 12. Hamidullah ibid.

موضعه الذي كان له قبل بدء النسيء. فهل كان النسيء ملماً بحجبات السنة وهم من كثافة قومه؟ إن هذا احتمال مقبول.

لكن حصر أسباب تحريم الإسلام للنسيء في هذا الجانب وحده قد لا يوحى للباحث الثقة الكاملة.

وقد مر رودانسون سرباً على هذه المسألة فقال إن الإسلام عاد إلى السنة القمرية العبرية لأن للنسيء صلة بعادة الأوثان (١). لكنه لم يشر تماماً هذه الصلة. وفسر مويرغ تفسيراً أصح حين قال إن النسيء كان يجعل للحج شهراً ليس للحج، وبهذا يصرف الناس عن لواء شعائهم وفرائضهم في زمنها (٢). ولما هو متخفيري - وات فارتأى سبين الأول هو أن للنسيء صلة بعادة الأوثان يبدو أننا لا ندرِكها الآن، والثاني هو أن الإسلام ليس دينا زوامي الطابع (٣). وقد فتح بذلك الباب إلى تفسير عمين لهذه المسألة، لكنه امتنع عن ووجه. فالنظرة المحققة إلى الأديان القديمة في وادي الرافدين وودي النيل تبين العلاقة الوثيقة بين هذه الأديان والنظام الزراعي القائم على الدورة السوية الشمسية. فكانت الأديان المذكورة تثبت أعيادها على مواسم الدورة السوية الشمسية بواسطة النسيء. وقد قام نظام الصرية نفسه في دول وادي الرافدين وودي النيل على حقيقة دينية زراعية ترهن الحصاد بالفرايين وترط الأعياد بالانقلابين الشمسيين، والمواعيد الأخرى الخاصة بالشمس والرياح. فيما كان التقويم أصلاً وأساساً تقويمياً قمرياً. ولذا ارتأى الإسلام أن في النسيء عودة إلى هذه الأديان، ولم يكن معقولاً أن يبل هذه العودة، أو أي ارتباط بالتقويم الشمسي قد يستلها (٤).

و - النسيء والتجارة الدولية

لقد اختلف الباحثون في تفسير علاقة النسيء بالتحلوة، وإن اتفقوا على تأكيد هذه العلاقة. وارتأى الشريف أن بدء النسيء إنما ابتدئها العرب لتطويل

(١) Rudinow: Muhammad, p. 233.

(٢) Encyclopaedia of Islam: Nad', by Muhiy, Amel.

(٣) Montgomery Watt: Muhammad at Medina... p. 300.

(٤) سحاب: وحدة المجتمع... ص ١٠٧ - ١١٥.

الهدنة بين القبائل في الجزيرة. وقال في تفسير ذلك إن بلاد العرب حارة يصعب فيها الانتقال والغزو في أشهر الصيف. فإذا كانت أشهر الصيف مائعة للقتال من طبيعتها، وإذا كانت الأشهر الحرم تحرّم الغزو والقتال كذلك، فإن هذه الأشهر مجتمعة يمكن أن تجعل الهدنة سبعة أشهر متوالية. وفي الأشهر الباقية متنفس لطلب الثارات وشن الغارات. واستدلّ الشريف على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ (التوبة: ٨١). وكذلك استدلّ بما قال ابن سعد في الطبقات الكبرى، عن غزوة تبوك وما لقي المسلمون فيها من شدة الحرّ وتخلّف بعضهم عن القتال وتردّد بعضهم الآخر. كذلك نسب النسيء إلى رغبتهم في جعل زمن الحجّ في فصل من فصول السنة حتى ينشئ لهم الحجّ في غير وقت الحرّ أو البرد الشديدين، وفي الفصل الذي تفرّق فيه الأصواف والأوبار والسمن والدّهن ليتجرّوا بها^(١). وقد لاحظ أن مقالته هذه تناقض المصادر العربية التي قالت إن النسيء كان لطلب الغزو لا لطلب الهدنة. وقال إن طلب الغزو ليس الأصل في إنشاء النسيء. غير أنه افترض أن النسيء ثبت أشهر السنة القمرية على مواقيت معينة في السنة الشمسية. والنسيء أصلاً هذا غرضه. لكننا أثبتنا فيما سلف أن النساء لم يؤدوا هذا الغرض لسبب من الأسباب، فكانت الأشهر الحرم سنة عشر وإحدى عشرة للهجرة في شباط وآذار ونيسان/فرراير ومارس وأبريل، فيما صادفت سنة ٥٤١ م. أشهر الصيف. وهذا ينفي أولاً قدرة الباحث على اتّخاذ سنة من السنوات أساساً لتفسير النسيء وأغراضه، وينفي ثانياً أن النساء تلاعبوا بالأشهر لتطويل الهدنة.

وأبدى مورخ حلياً في معالجه هذا الأمر، فقال إن ما نعرفه عن أسلوب النسيء عند العرب غير مؤكد في شيء ولا بد أنه كان على غير انتظام، وإن غرضه كان على الأرجح جعل موسم الحجّ والأسواق التي ترافقه في جوار مكة في موعد مناسب من السنة الشمسية. ولاحظ أن النسيء كان يتولاه بنو كنانة، وكانت الأسواق تُعقد في أرض الكنانيين^(٢). وكذلك ربط جواد علي النسيء

(١) الشريف: المرجع السابق، ص ١٩٦ - ١٩٨.

(٢) Encyclopaedia of Islam: op cit., Muberg: Naaf

بالتجارة، لكنه لم يربطها بالنحارة المحلية فقط مثلما فعل مورخ، بل بالتجارة الدولية أيضاً، فقال إن حرب الحاملة وأهل مكة على الأحص ابنكروا النسيء حتى لا تدور أشهر الحجّ والنحارة على فصول السنة فتأتي الحجة هذه السنة في الصيف، وتأتي بعد مدة في الشتاء، وإن النسيء استخدم على ما يبدو لجعل موضع شهور الحجّ والنحارة ثابتاً في السنة الشمسية، فلا يضطرون إلى قيام قافلة الشام في الشتاء وهم لا يحملون مرد الشمال، لو يضطرون إلى تسير تجارة اليمن في الصيف وهو على ما هو من حرّ^(١).

أما سيمون فأنشأ عموماً إلى علاقة النسيء بالنحارة، دون أن يخوض في تفصيل الأمور، فقال إن المصادر العربية وغير العربية تبيح القول إن غرض الأشهر الحرم في نظر معظم الفاتل العربية، هو إقرار سلام نسيء، ففي هذه الأشهر كانت القوافل تسير من غير جفارة مسلحة تحميها من البدو الغزاة. وكان إنشاء النسيء مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالأشهر الحرم، وكان يحضّر حر كنانة، لسلطان القرشين، فكان يبيع لهم أن يحناروا للأشهر الحرم الرمن الذي يناسب تجارتهم^(٢). ولم يفل إذا كان النسيء يأس النحارة العربية المحلية أم التجارة الدولية التي نظم الإهلاف رحلتها.

لكن نوبرون وحيد الله كانا أشد إصاحاً وأكدوا أن غرض النسيء كان مطابقة موسم الحجّ على موسم الفطاف والتاح، حتى يتمكن العرب من تقديم الأضاحي والغرابين. ويربط هذا التفسير النسيء حكماً بالأسواق المحلية والمواسم القبلية. وقد نحّل نوبرون ما يحدث بالحجّ والمواسم من دون نسيء فقال: عندما يفتح موسم الحجّ قبل نصح حصاد السنة وتلغرها، وبعد إشراف مؤونة السنة الفائتة على الماء، ينحدر على الراعي في الحجّ أن يجمعوا ما يكفيهم مؤونة السفر والمكوث في مكة أو في الأسواق المحلولة التي كانت تُعقد فيها المواسم السنوية. وكان لا بد من معالجة هذه المسألة بثبت موعد الحجّ

(١) جواد علي: ح ٨، ص ١٧١ - ٥٠٨.

(٢) Simon: Journal of Hist., p. 231

في موعد تكون فيه الحبوب والثمار والتاج من كل صنف وفيرة، أي الخريف^(١). أما حميد الله فاستشهد ابن سعد «ومؤرخين إسلاميين آخرين» في ذكر نصوص معاهدات عقدتها النبي مع أهل البحرين لدى قبولهم الإسلام. فقال إن الزكاة فُرِضت على المتعبدين، وفسر ابن سعد في الطبقات ذلك بقوله: «ولهم أن لا يُحبسوا عن طريق الميرة، ولا يُمنعوا صوب الفطر ولا يُحرّموا صريم الثمار عند بلوغه، أي ألا يُحال بينهم وبين بيع نتائجهم ولا تُمنع قطعانهم من رعي المراعي التي مُطِرت، ولا يُحرّم جني الثمار قبل وصول جامعي الزكاة^(٢)». إن هذه الملاحظة تزيد ارتباط النسيء بما سبّناه «الأديان الزراعية» وبالمواسم المحلية والأسواق القبلية والحج، لأنها تؤكد أن القبائل لم تكن قادرة في كل فصل من فصول السنة على دفع الزكاة في الإسلام. وليس يعقل أن هذه القبائل نفسها كانت قادرة قبل الإسلام على جمع الأصاحي والقرابين ومؤونة الأسفار والإقامة في المواسم، أي كان موعدها. ولا مفر من الاعتقاد أن النسيء كان مُعدّاً في الأصل لدفع موسم الحج والأسواق إلى ما بعد الحصاد والقطاف، على الرغم من أن النساء على ما يبدو، لم يُحبسوا الحساب المطلوب، وفقاً لما سلف.

إن أسرع ما يخطر ببال الباحث في معالجة أمر النسيء، هو احتمال أن يكون النسيء قد ربط الأشهر الحرم بالانقلاب الصيفي لأسباب دينية أولاً، وربما لأسباب التجارة المحلية والمواسم، ثم تحكمت قرش بالنسيء شيئاً فشيئاً من أجل توقيت الأشهر الحرم الثلاثة المتوالية، على رحلة اليمن الشتائية، المرتبط موعدها بالرياح الموسمية، أي بالدورة الشمسية، لا بالأشهر القمرية. ويفترض هذا الاحتمال أن القوافل الطاعنة إلى اليمن لحمل تجارة الشام وتلقي تجارة المحيط الهندي، تحتاج إلى هدنة الأشهر الثلاثة حتى تنطلق من مكة وتصل إلى اليمن وتفرغ حمولتها وتحمل البضاعة الشرقية وتعود بها إلى مكة. فرحلة

(١) Nabonon: op cit., p. 137

(٢) ابن سعد: الطبقات... ج ١، ص ٢٨٣. وانظر أيضاً... Hamidullah: Interpolation... p. 330

الذحباب شهر، ورحلة الإياب شهر، وتُحلى للتفريح والتحميل والاستراحة وعقد الصفقات شهر. وتبين لنا مطالعة تفويم السنة العاشرة للهجرة أن هذا تفسير محقول. فكانت الرياح الموسمية المؤاتية لإبحار السفن إلى الهند وسيلان والعودة منها، تهب من تشرين الثاني/نوفمبر حتى آذار/مارس، على نحو ما أسلفنا في باب: متى الإبحار إلى الهند؟

فلذا شتاً أن نتخيل مسار الترتيب لرحلة الشتاء وفقاً لتفويم السنة العاشرة للهجرة. على افتراض أنها كانت نموذجاً للسنوات المتتالية لسنة الشهور فيما يتعلق بتجارة قرش الدولة، فإن ما كان يحدث هو الآتي:

- تخرج قافلة رحلة الشتاء من مكة في أول ذي القعدة (أول شهر شباط/فبراير)، فتصل إلى اليمن وموانئها في آخر ذي القعدة.

- في هذه الأثناء تصل السفن من المحيط الهندي. لأن الرياح الموسمية الشتوية الملائمة للإبحار موشكة على التبدل. وهذا لوفان المسارعة إلى الاحتماء من أنواء الرياح الموسمية الصيفية.

- ينصرف المكيون في اليمن طوال شهر ذي الحجة (شهر آذار/مارس) في بيع تجارتهم ومستوردات الشام، ويشتررون تحلة الشرق الآتية مع السفن من المحيط الهندي. وفي شهر آذار/مارس، منع لعودة السفن المتخلفة في المحيط إلى موانئها العربية.

- في آخر ذي الحجة تتبدل الرياح الموسمية، فيوقف البحارة أسفارهم، فهما تظعن القافلة القرشية عائدة إلى مكة، محملة بالتمول والحرير واللبان وما إليها، فتصل في أواخر المحرم.

ولكن مسألتين نعرضان هذا الاحتمال. الأولى هي: هل كانت البضائع التي يأتي بها القرشيون إلى اليمن تُحزن إلى حين الإبحار في السنة التالية؟ لقد صيقت الإشارة إلى أن هذه البضائع كانت تتضمن الأدوات المعدنية وملابس الأدم والصوف والظن من الشام والحمور من العراق. وكل هذه السلع يحتمل

الخير، بل بعضها يُستحسن خزنه. وليس من شك في أن تجارة التصدير إلى الهند وسيلان كانت تجارة قليلة إذا ما قورنت بتجارة الاستيراد منها، ولذا يبدو أن مسألة خزن هذه السلع لم تكن مشكلة ذات شأن يُذكر، حتى أن المصادر لم تأب على ذكرها. أما المسألة الثانية فهي: طالما أن موسم الرياح الشتوية المؤاتية للإبحار يبدأ في تشرين الثاني / نوفمبر، فلماذا كانت قريش (إذا افترضنا أنها تحكمت بإنساء الشهور لهذا الغرض) تؤخر الأشهر الحرم، أي تؤخر رحلتها الشتائية إلى اليمن حتى أواخر موسم الرياح الشتوية؟ إن ذهاب القافلة المكية إلى اليمن في تشرين الثاني / نوفمبر، يعني أنها ذاهبة لشراء بضاعة المحيط الهندي التي وصلت إلى موانئ اليمن في السنة الماضية، لأن الخريف كان موعد رحيل السفن إلى الهند، لا عودتها. وافترض هذا يعني افترض أن وسائل خزن ضخمة كانت موفرة في اليمن لحساب القرشيين من أجل استيعاب تجارة الشرق الكثيرة الواردة. وهذا أمر مستبعد، لم تأب على ذكره المصادر على الإطلاق. وإذا افترضنا أن قريشاً كانت تؤخر قافلتها شهراً لتصل إلى اليمن في كانون الأول / ديسمبر، فإن هذا يعني أن السفن الآتية ببضاعة المحيط الهندي أمضت موسم الصيف العاصف في الهند وسيلان، بدلاً من أن تمضيه في موانئ الخليج وحضرموت واليمن. وهذا أيضاً مستبعد، لأن معظم البحارة كانوا عرباً في هذا القطاع من المحيط الهندي على نحو ما أسلفنا.

ويُفترض إذن أن القرشيين كانوا ينتظرون عند بدء هبوب رياح الشتاء الموسمية، ثلاثة أشهر، من أول تشرين الثاني / نوفمبر إلى آخر كانون الثاني / يناير، ليسيروا قافلته التي تصل إلى اليمن في أول آذار / مارس. وبذلك تكون للسفن مهلة أربعة أشهر لتبحر إلى الهند وسيلان وتفضي متاجرها بيعاً وشراءً هناك، وتعود إلى موانئ حضرموت واليمن. وهذا وقت كافٍ على ما يبدو.

ز - مشكلة رحلة الصيف

وهذا الحل لمسألة النسيء يبدو مفيداً للرحلة الأولى. غير أن التدقيق فيه يفضي إلى الكشف عن عدد من المشكلات:

١ - ليست هذه المواعيد لرحلة الشتاء إلى اليمن ثابتة تماماً. فالنسيء هو إضافة شهر كل ثلاث سنوات في الإحمال. وهذا يعني أن بين النسيء والنسيء تتحرك الشهور القمرية أحد عشر يوماً في السنة واثنين وعشرين يوماً في السنتين، إلى أن تعود المواعيد إلى موضعها في السنة الثالثة مع الإساء. وسنفترض مع حميد الله أن آخر إنساء حدث سنة نبع للهجرة، وستخص بناءً على ذلك موقع الأشهر الحرم في السنوات الثلاث التالية والماثرة والحادية عشرة للهجرة، لنرى جدوى هذا النظام في تنظيم الفواصل المكية حتى تلاقي السفن الآتية من المحيط الهندي. وسنفترض طعناً أن هذا النظام ظل قائماً في السنوات الثلاث المذكورة، لأن الذين أسأروا شهراً في سنة ٩ هـ. افترضوا ذلك واحتسبوه:

٩ هـ	١٠ هـ	١١ هـ
٩ شباط - ١٠ آذار	٢٩ كانون الثاني - ٢٧ شباط	١٨ كانون الثاني - ١٦ شباط
١١ آذار - ٨ نيسان	٢٨ شباط - ٢٨ آذار	١٧ شباط - ١٧ آذار
٩ نيسان - ٨ أيار	٢٩ آذار - ٢٧ نيسان	١٨ آذار - ١٦ نيسان

٢ - اعتمدنا في إعداد هذا البيان على تقويم السنة العاشرة للهجرة فيما سلف، وأضافنا أحد عشر يوماً لنميين نواربع السنة ٩ هـ. وحسباً أحد عشر يوماً لنميين نواربع السنة ١١ هـ. ويلاحظ هنا أن المحرم ينتهي إلى سنة هجرية تلي السنة التي ينتهي إليها ذو القعدة وهو الحجة اللذان يصفاه بالطبع.

وبتين من هذا، إذا افترضنا أن القافلة المكية كانت تسافر في ذي القعدة وتصل في أول ذي الحجة إلى الموانئ اليمنية والحضرية، أن السنة الأخيرة من دورة النسيء الثلاثة هي أسب السنوات لأنها تتيح للقرشيين اثني عشر يوماً

في شباط/ فبراير ونصف آذار/ مارس لقضاء تجارتهم، قبل أن يبدأوا رحلة العودة في أول المحرم. أما أصيق السنوات مجالاً فهي سنة الإنشاء لأن مجال قضاء التجارة قبل وصول آخر السفن في أواخر آذار/ مارس وبداية رحلة العودة ينقلص إلى نحو عشرين يوماً من آذار. لكن هذا المجال يبقى مقبولاً.

المشكلة الثانية هي في أن الإبل كان قائماً، وفق ما سلف، منذ مطلع القرن السادس الميلادي. والنسب كان قائماً لدى العرب منذ أوائل القرن الخامس الميلادي على الأقل. وفي سنة ٥٤١ م. إذن كان يُفترض أن تكون قريش قد سخرت النسب لرحلة الشتاء كما جاء آنفاً. لكن ما ذكره بروكوبوس في شأن حج العرب عند الانقلاب الصيفي (في باب «مطابقة الشهور أعلاه»)، وما يُبينه تقويم سنة ٥٤١ م. الموضوع على هذا الأساس على نحو تقريبي، يتفان علاقة النسب بالتجارة المحلية، أي قيام الحج في الخريف، وعلاقة النسب بالتجارة الدولية، أي مصادفة الأشهر الحرم لأشهر الشتاء. لكن في الإمكان القول إن قيادة مكة في السنة المذكورة، وكانت حديثة عهد بعد في قيادة الإبل، لم تكن قد سخرت جميع المؤسسات الدينية والاجتماعية والاقتصادية لمشروعها، وقد يَبْينُ فيما مضى كيف كانت هذه القيادة تعالج المشكلات حالما تعرض لها، وتسد الفراغ إثر الفراغ في منظومتها. وهذا قول بشيع الراحة والرضى ولا شك، لكنه منطقي أيضاً، إذ ليس مستحيلاً أن يكون القرشيون قد سبّروا قوافل تجارتهم الدولية أولاً بما تيسر لهم من جهود وأحلاف، ثم أخذوا كلما اكتشفوا ثغرة أو ضعفاً في نظامهم، يدفعون أمن قوافلهم بالخمسة تارة، وبالأشهر الحرم طوراً، فلم يحى الإسلام إلا وقد أحكموا نظامهم إحكاماً شبه تام.

يحل النسب حسبما تخيلناه، مشكلة رحلة الشتاء إلى اليمن، فما حال رحلة الصيف إلى الشام؟ هل كان شهرها الحرم هو شهر رجب؟ إن المسافة بين مكة واليمن مثل المسافة بين مكة وغزة أو بصرى تقريباً. فلماذا تحتاج رحلة اليمن إلى ثلاثة أشهر حرام ولا تحتاج رحلة الشام لغير شهر؟ إن لهذه المسألة حلولاً محتملة، ذلك أن الرحلة إلى الشام كانت تحمل تحارة الشرق الثمينة

وكانت تعود بتجارة لليلة النحر إذا ما قورنت بالطوب والأفوية والحرير، ولذا كانت قريش تحتاج ربما إلى حماية الشهر الحرم في فعلها إلى الشام، فتعود منها ساحة نشاء غير خائفة. وهذا احتمال. أما الاحتمال الثاني فهو أن خريطة الأحلاف المكيّة تبين وفق ما جاء في باب: أحلاف قريش القبيلة، أن مكة كانت تستطيع تسير قوافلها آمنة حتى مشارف بقعة الشام عبر وادي القرى ومنازل حُدرة وغيرها من القبائل. أما ما بقي من الطريق فهو خاضع لسلطان الدولة البيزنطية. وكان يمكن لقريش أن تخرج بقافلة الشام قبل رجب بمسوعين أو أكثر فتكسب وقتاً بفضل حلفائها المستترين على نصف الطريق. لكن رجباً في سنة عشر للهجرة لم يكن في الصيف بل في شهر تشرين الأول/ أكتوبر. وإذا كانت لمكة أحلاف على طريق الشام فقد كانت لها أحلاف على طريق اليمن أيضاً. وإذا قيل إن الإبل قام لتسني قريش من الأحلاف وتسّر قوافلها على مدار السنة، فذلك ينطبق أيضاً على رحلة الشتاء إلى اليمن.

وتعاور هذه التسلالات طرح الاحتمال الذي سبقت الإشارة إليه وهو أن النسب كانت له وظيفة ما في التجارة الدولية لقريش، وكان قبل ذلك ينظم المواسم والأسواق المحلية. ولا يحلو هذا الاحتمال نفسه من مشكلات تظهر فور مطالعة سنة ٥٤١ م. و١٠ هـ. ولن يكون حل هذه المشكلات ممكناً إلا بحل مشكلة نظام النسب الذي كان معتمداً. إلا أن مجموع المؤشرات والدلائل توحي أن قريشاً امتلكت عدداً كبيراً من المؤسسات والوسائل لحماية تجارتها وتسييرها بأمان، وقد احتاجت إلى استخدام بعض هذه المؤسسات أحياناً، واستغنت عن استخدامها في أحيان أخرى. ولأ فكيف تفسّر أن وقعة بدر الكبرى التي حدثت في السابع عشر من رمضان في السنة الثانية للهجرة، الخامس عشر من آذار/ مارس سنة ٦٢٤ م. (١)، فيما كانت اللطيمة القرشية حائلة من الشام، ورمضان ليس شهراً حراماً ولا آذار/ مارس من أشهر الصيف؟

الفصل السادس المواسم والأسواق

أولاً: ملغى الأصنام والقبائل

١ - ارتباط الحج بالأسواق

صُرف في هذا البحث جهدٌ للفرقة بين النحلة المحلية التي كانت قائمة على الدوام في جزيرة العرب، والنحلة الدولية التي لم تنشط إلا ضمن ظروف سبقت دراستها. وأشهر خبر مرءٍ إلى أن عهود الإهلاف التي عقدتها القبائل المحيطة مع ملوك الأطراف الأربعة ومع القبائل العربية على طرق القوافل، إنما كان عرضها تسير نخلة الشرق الدولية، ولو أن النحلة المحلية لم تنفذ من هذه العهود والمواثيق، ولعلها على المكس نشطت بفضلها واتسعت. ولا شك في أن التجارة المحلية لم تكن حاضرة على عهد عهود الإهلاف لأنها لم تكن تحتاج إلى هذه العهود. فالتجارة المحلية في جزيرة العرب قامت بفضل الأحلاف والأشهر الحرم وغيرها من المؤسسات السابقة للإهلاف. وكان يمكنها أن تستمر إلى ما شاء الله، من غير الإهلاف. ولذلك قد يبدو أن إقحام المواسم والأسواق في دراسة الإهلاف، عمل في غير محله.

هيه هنا إذا استطنا القول إن الأسواق والمواسم لم تسبب ظهور الإهلاف، فإننا لا نستطيع في المقابل أن نزع أن الإهلاف لم يؤثر في هذه المواسم والأسواق. لقد نشأ الإهلاف بمنزل عن النحلة المحلية. ولكن تطوره وتعاظم القوافل القرشية وحصنها في النحلة الدولية، واشترك القبائل العربية في جني أرباح هذه التجارة حسن الأحوال الاقتصادية في الجزيرة العربية، وزاد القدرة

إلى ما قبل الإيلاف، وقبل قريش وخزاعة. إذ كانت الكعبة منذ عهد هود واخله في القدم مثابة للأعراب وأما لهم، فلا يُمنع أحد من التبعّد فيها والطواف حولها لأنها بيت الله^(١). وقد ذكرها بطليموس في كتاب الجغرافيا السادس، وسماها مَكْرَبَة. أما فيليب حتى فقال إن هذا الاسم اشتق من كلمة سبئية تعني المعبّد. وارتأى حميد الله أن اللفظة السبئية هذه ذات صلة لغوية ولا شك بالكلمة العربية: مقرب، أي موضع القريب أو الغريب، حيث يقدمون الأضحية الدينية. وقد تكون التسمية جاءت من اليمن مع جرهم سكان مكة قبل خزاعة^(٢).

ولكن المأثورات الإسلامية عن أصول مكة هي أول رواية فيها شيء من التفصيل والوضوح، وإن كان الغموض غالباً. وقد اهتم المؤرخون المسلمون لمصر جرهم، أي لما قبل سنة ٤٠٠ م. حسب تقديرنا، لأن الرسول تكلم على عمرو بن لحي مؤسس التنظيم المكّي في ذلك العصر. وقد جاء في سورة ابن هشام: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لاكنم بن الجبون الخزاعي: يا أكنم، رأيت عمرو بن لحي بن قميصة بن جندب بنجر قضيّة [أي أمعاه] في النار... إنه كان أول من غير دين اسماعيل، فنصب الأوثان ونحر البحيرة ونسب السائب ووصل الوصلة وحمل الحامي»^(٣). وتجميع المصادر الإسلامية على أن ابن لحي جلب الأصنام من الشام، ويقول ابن هشام: حدثني بعض أهل العلم أن عمرو بن لحي خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره، فلما قدم مأب من أرض البلقاء، وبها يومئذ المعاليق... رأهم يعبدون الأصنام، فقال لهم: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبّدون؟ قالوا له: هذه أصنام نعبدها، فنستطيرها فنمطرها، ونستنصرها فننصرها، فقال لهم: أفلا تعطونني منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب فيعبّدونه؟ فأعطوه صنماً يقال له قبل، فقدم به إلى

(١) الأزدني: ج ١، ص ٤٤ - ٥١. وسيرة ابن هشام: ج ١، ص ١٧٣ - ١٧٥. وكذلك الشريف: المرجع السابق، ص ١٦٧، ١٦٨.

(٢) حتى، فيليب: تاريخ العرب، الطبعة الخامسة، دار عبود، البعيري، لبنان، ١٩٧٤، ص ١٥١. وكذلك Hamidullah: Al Tārīkh... p. 295.

(٣) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ٨١.

مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته ونعطيهم... وصلوا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلالات، وفيهم على ذلك بلها من عهد إبراهيم يتسكنون بها: من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف على عرفة والمزدلفة، وعدي البذل والإحلال بالحج والعمرة، مع إدخالهم فيه ما ليس منه^(١). ويقول ابن الكلبي في رواية أخرى لفصة عمرو بن لحي وتجميعه الأصنام في مكة: إن نسل إسماعيل بن إبراهيم لنا نكاثر بمكة حتى ضاقت بهم، وقعت بينهم الحروب والعداوات، فأخرج بعضهم بعضاً، فنصحروا في البلاد التماساً للعيش. وكان كلما ظعن من مكة ظاعن حمل معه حجراً من حجارة الحرم، تعظيماً للحرم وصيانةً بمكة. فحينما حلوا وضرمه وطافوا به كطوافهم بالكعبة تيمناً منهم بها وصيانةً بالحرم وحياً له. وهم بعد يمشون الكعبة ومكة ويحشون ويمشرون على إرث إبراهيم وإسماعيل. ويضيف ابن الكلبي قوله: «ثم سلخ ذلك بهم إلى أن هبطوا ما استحبوا ونشروا ما كانوا عليه... فعدوا الأوثان وصلوا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم، وانحشروا [أخرجوا] ما كان بعد قوم نوح منها على إرث ما بقي فيهم من ذكرها، وفيهم على ذلك بلها من عهد إبراهيم وإسماعيل يتسكنون بها: من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف على عرفة والمزدلفة وإهداء البذل والإحلال بالحج والعمرة، مع إدخالهم ما ليس منه»^(٢).

وتشبه من تنوع الروايات أن الإسرائيليين جمعوا ما ترقّد على لسان الناس في محاولة لاستكمال قصة عمرو بن لحي، من غير أن يستدلوا على ما يبدو، إلى سند تاريخي متع. لكن بعض التفاصيل نزل مع ذلك جذيرة بالملاحظة، وأولها أن الروايات مجمعة على أن مكة كانت صحبة ومقاماً قبل خزاعة وعصر عمرو بن لحي، وكان الناس لها يعبّدون على دين إبراهيم. والثاني هو أن عمرو بن لحي أحضر صنمه قبل من الشام. وهذه الرواية سنّة تاريخي قوي لأن قبل كان يعبّد في بلاد الشام. وقد جاء ذكره في الكتابات السبطية التي عثر عليها في

(١) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ٨٢.

(٢) ابن الكلبي: كتاب الأصنام، ص ٩. وكذلك حرد علي: ج ١، ص ٧٦، ٧٧.

الحجر^(١). ولكن ما الذي جاء عمرو بن لحي بفعله في الشام. وما هي بعض أموره التي قال ابن هشام إنه جاء إلى الشام من أجلها؟ لقد حولت فيما مضى علاقة رجلين مكيين ببلاد الشام، وهما قصي بن كلاب وهاشم بن عبد مناف، وكلاهما وضع نظاماً لمكة يتعلق بالتجارة وإدارتها. وليس مستغرباً أن يكون عمرو بن لحي هو الآخر اهتم لأمر التجارة ووسيلة تنظيمها. والمستغرب في الواقع هو ألا يكون اهتم لذلك. إذ إن عمرو بن لحي لم يكتف بجلب قبل، بل جلب أصنام القبائل ووضعها في البيت الحرام لإغراء العرب على الحج إلى مكة. ولا شك في أن مكة كانت مركزاً مهماً لتجارة العرب، ولولا ذلك لما راضيت القبائل أن تضع أصنامها فيها. ولولا أن التجارة مرهونة بالمواسم الدينية لما كان عمرو بن لحي قد استطاع أن يجلب الأصنام والقبائل إليه. واجتذبت مكة التي كانت ممراً قديماً لقوافل اللبان القبائل القوية التي طمعت في احتلال هذا المركز التجاري والديني الكبير. فتوالى على المدينة قبيلة جرهم، ثم خزاعة بفروها عمرو بن لحي، ثم قريش بفروها قصي بن كلاب، وقد ارتأى كل منها في المدينة مكنى قوة ومصدر ثراء وسلطان. وإذ يروي الإخباريون أن ابن لحي كان يطعم الحاج ويقيم موائد الطعام في المواسم، قالوا إنه ربما ذبح أيام الحج عشرة آلاف بدنة وكس عشرة آلاف حلة في كل سنة، يطعم العرب ويحس لهم الحيس [طعام من لبن ونمر وسمن] ويلت لهم السوق [عجين حنطة وشعير]^(٢). وعلى رغم أن المبالغة في هذا لا يمكن أن تؤخذ على محمل الجد، إلا أن ما يبقى من الروايات هو أن عمرو بن لحي كان ينفق على الحجاج. والقول إن الحجاج كانوا يمولون هذا الإنفاق بقرايبتهم، هو أمر غير مقبول، لأن هذا لا بد من أن يجعل عمرو بن لحي جامعاً للقرايين والأصاحي، وهو على النقيض كان متنفذاً في الحج، وإلا لتعدر جمعه قبائل العرب. ولولا التجارة لتعدر إنفاقه على الحج. ويقول ابن هشام في روايته لدخول عمرو بن

(١) الشريف: المرجع السابق، ص ١٦٠. واستند في ذلك إلى هيرودوتس وبقوش ذكرهما جواه علي.

(٢) ابن كثير: البداية... ج ٢، ص ١٨٧. وانظر أيضاً الشريف: المرجع السابق، ص ١١٦، ١١٩.

لحي مكة وإخراجه جرحاً منها: «ثم إن جرحاً نفوا بمكة واستحلوا خلالاً من الحرم». فظلموا من دخلها من غير أهلها وأكلوا من الكعبة الذي يهدى لها^(١). ومخبرنا هذا القول على الاعتقاد أن من يقوم على خدمة الحرم كان مستغراً منه أن ينفق لا أن يرتزق من الحرم. ولا بد أن التحلة هي المورد الذي كان ينفق منه.

وإذا دقق في المصوص التي حلنها لنا الإخباريون في شأن النظم التي ابتدعها عمرو بن لحي فالتخذا العرب من بعده شرعة^(٢)، فقد يمتد إلى طرف خفيط يبيح بعض الثغ في قول ذلك. فعمرو بن لحي ابتدع ولا شك قواعد ذات صفة دينية خالصة على ما يبدو، مثل الفرقة والعنزة. والفرقة لول نتائج الإبل والغنم، كانوا يذبحونه لأصنامهم، والعنزة ذبائح الضم عامة، وكاتوا يذبحونها في الملحج ليسمونه العنزة، فهي المسلمون من ذلك. وفي الحديث: لا فرع ولا حجرة^(٣). لكن كثيراً من يدع ابن لحي يدعو إلى الاشتباه في اعتناقه بالتجارة. فيقول ابن هشام في شأن البحيرة والسائفة والوصلة والحلي: «فلما البحيرة فهي بنت السائفة، والسائفة السائفة إذا نامت [أولدت على التوالي] بين عشر إناث ليس بينهما ذكر، صيبت فلم يركب ظهرها، ولم يخر وبرها، ولم يشرب لبنها إلا ضيق، فلما نمت بعد ذلك من أنش شفت لفتها ثم غلبي سبلها مع لبنها، فلم يركب ظهرها ولم يخر وبرها ولم يشرب لبنها إلا ضيق كما فعل بلنهاء، فهي البحيرة بنت السائفة. والوصلة السائفة إذا أنثت [وضعت توأم] عشر إناث متتابعات في خمسة أطول ليس بينهما ذكر صيبت وصيلة. قالوا: قد وصلت، فكان ما ولدت بعد ذلك للذكور منهم دون إناثهم، إلا أن يموت منها شيء فيشتركوا في أكله، ذكوره وإناثهم. قال ابن هشام [إضافة إلى ما قاله ابن اسحاق]: فكان ما ولدت بعد ذلك للذكور بينهم دون إناثهم. قال ابن اسحاق:

(١) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ١٦٥. وانظر كذلك: الأملسي: شيوخ... ص ٢٠٩-٢١٢.

(٢) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ٨١، ٨٢.

(٣) لسان العرب: فرع وهو رأس الكلب: الأصنام، ص ١٢٠، ١٢١. والحدث المذكور لمرجه: البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والدارقطني وابن حبان.

والحامي الفحل إذا تُنَجَّ له عشر إناث متتابعات ليس بينهما ذكر، حتى ظهره فلم يُركب ظهره، ولم يُجَزَّ ويره، وعُلي في إبله بضرب فيها، لا يُنْتَفَع منه بغير ذلك. وخالف ابن هشام ذلك إذ قال: «والبحيرة عندهم الناقة تُشَقُّ أذنهما فلا يُركب ظهرها ولا يُجَزَّ ويرها ولا يُشرب لبنها إلا ضيف أو يُتَصَدَّق به، وتُهْمَلُ لآلئهم. والسائبة: التي يُنَلِّرُ الرجل أن يُبَيِّها إن برىء من مرضه أو إن أصاب أمراً يطلبه. فإذا كان أساب ناقةً من إبله أو جملًا لبعض آلئهم فسابت فرعت، لا يُنْتَفَع بها. والوصيلة: التي تلد أمها اثنين في كل بطن، فيجعل صاحبهما لآلئته الإناث منها ولنفسه الذكور، فتلدها أمها ومعها ذكر في بطن، فيقولون: وصلت أخاها، فُسِبَ أخوها معها، فلا يُنْتَفَع به» (١).

وعلى رغم مخالفة ابن هشام ابن اسحاق، فإنهما يتفقان في أن العرف الذي ابتدعه عمرو بن لحي للعرب يرمي إلى حماية النوق والجمال التي تُكْثَر من إنسال الإناث، لاهتمامهم ولا شك بإنماء قطعانهم. وقطعان الإبل كانت رأس مال التاجر في القوافل. والأُنثى مفضلة على الذكر في هذا لأن ذكراً واحداً يستطيع إخصاب عدد من الإناث، فكانوا يذبحون الذكور ويحتفظون بالإناث لحليبها ونتاجها. وقد حرم الإسلام هذه الأعراف لصلتها المباشرة بذيبح القرابين للأصنام، ذلك في قوله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَهِيمَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا خَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَلْبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (المائدة: ١٠٣).

ج - أصنام وتلبات

تعددت قبائل العرب لعدد كبير من الأصنام أقامت بعضها في الكعبة وبعضها الآخر في مواضع قريبة وأحياناً بعيدة عن مضارب أصحاب الوثن. وقد استمعن كتاب الأصنام لابن الكلبي والمحرر لابن حبيب وأطلس تاريخ الإسلام على الخصوص، لوضع ثبت الأصنام التالي:

(١) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ٩٥ - ٩٧. وانظر أيضاً الأندلسي: نشرة... ص ٧٩٥. والبلاندي: الأساب... تحقيق حميد الله، ص ٣٤.

اسم الاصنام	قبائل تعددت له	مذته	موضع
إسلاف	فريش والاحابيل		على صفائي مكة وقيل عند زمزم
الأحجار	الضامة ولحم وحمام ومعلك وعطشان		مضارب الشام
بختير	الأله وحورانيم من طي. وضامة		شرق نيك
جوزان	هوزان	ك حرف الصرور	مكة في جبل الحقل
قروح	كندة		الحجر قرب مكة
قو الخلفنة	سحبة وعلم ولرد السرة وحجر هوزان	حو إيلان من مكة من كندة	من مكة وسحران في مكة
قو القزى	الحارث بن منكر من الأله		ساحل حير
قو الكفكف	بكر وأحلب وليلة		سعد
قو الكفكف	عواطة وقوس وحرم		من برك وبع
قو الكلب	عبدليس	حو حير من حير	المنقر في الحير
رقم	حير وأمل الحير		سعد
رقة	بنو الحارث بن كعب		حرا
رقي	ربعة بن كعب		شرق حير
سعد	مالك وملوك با كندة		الحير من سعد قساق جند
سحبة	الأله وضامة إلا ورا	حو الصلحان	في مكة
شعر	حرا		
شواح	كندة وعطشان وميردة وعمر بن ليس من حيلان	حو صاعلة من حيلان	في ضامة قرب برك
شس	بنو ك: حبة ولحم وعدي وعكر	لوس من حيلان من حير	
عظيم	لرد السرة		حير
عقزى	فريش وعبي وضامة وعصوم كندة	حير من نزة	لحرا مكة حطفا وثي لقطان
عقزى	حوران		أرض حوران قرب سعد
عقزى	فريش		في الكعبة
عقزى	طي. ومن يليها حيلان من طي	حو حوران	سعد قرب حير
عقزى	كعب	ق لي الحير من حير	حير في الحقل
عقزى	لكر بن وائل وربيعة وحجر بن الحارث	الأسود الحظرون	على طريق من الحيرة
عقزى	حصر موت	حو حير	في حصر موت شمال الحير
عقزى	الأسود والحروج ولرد السرة	الطاريق من الأله	في سبيل الحير

اسم الصنم	قبائل تعبد له	سكنه	موضعه
شاف المنطق نائلة	قريش السلف ومك والأنجيين قريش والاحابيش	بنو ذي الكلاع	في الكعبة الهن على المروة في مكة وليل عند زمرم فعدان
نسر نهم شبل وذة	جنهر مزينة بكر وكنانة وتعظمه قريش بنو وبرة من قضاة		شرق يثرب في حوف الكعبة قومة الجندل
الجهوب يخوق يخوت	جديلة طيه عدنان وخولان مذحج وأنعم من طيه	بنو الفرائصة بن الاحوص من كلب بنو النضر من الحارث بن كعب	حوف دومة الجندل في ارحب على ليلتين من صنعاء بحران وخريش

ولا شك في أن هذه أهم الأصنام وليست جميعها لأن المصادر أغفلت كثيراً من الأصنام الثانوية التي كانت تتخذ في البيوت، فلا يتعبد لها سوى قلة من القوم^(١). وقد أغفل مؤنس ذكر صنم قريش الغيب، وذكر صنماً اسمه عجب، جعله بين أيلة ودومة الجندل. وعبدت العرب، مع الأصنام الأجرام السماوية أيضاً. لكن تفرق الأصنام أصبح شيئاً فشيئاً قليل الأثر في إحداث تباعد بين العرب، إذ إن اجتماع القبائل حول الكعبة في موسم الحج جعل عبادة العرب الأصنام تتوحد مع مر السنوات. وكان أعظم عوامل توحد هذه العبادة أن الشعائر والفرائض كانت واحدة عند الجميع، من الإفاضة إلى الطواف والسعي والتلبية. وكان تشابه التلبية، وعلى الخصوص عدم ذكر الصنم في معظم الحالات سبباً أكيداً لجعل الحاج يشعرون مع مر السنوات وكأنهم يتعبدون لصنم واحد. وكانت تلك ربما بداية نهاية تعلق القبائل بأصنامها.

(١) ابن الكلبي: كتاب الأصنام، ص ١٠-١٢، ٢١ وما بعد، ٣٤-٤٤، ٥٩، ٦٣، والمختار، ص ٣١٥. وصورة ابن هشام: ج ١، ص ٨٣-٩٤. ومؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، خريطة: أهم الأصنام في الجزيرة العربية في الحاضرة، الخريطة ٣٧، ص ٦١.

كانت قريش وكنانة، ونسكهم لإساف، إذا أهلوا قالوا: «إليك اللهم إليك، إليك لا شريك لك، إلا شريك هو لك تملكه وما ملك»^(١). وفي ذلك جاء في التنزيل العزيز: «وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِآيَاتِهِ إِلَّا وَقَدْ شَفَعُوا» (يوسف: ١٠٦). «وَمَنْ نَسَكَ لِلْعَزَى قَالَ: «إليك اللهم إليك، إليك وسعديك، ما أحبنا إليك». وَمَنْ نَسَكَ لِلْأَث قَالَ: «إليك اللهم إليك، إليك كفى بيتنا بيتاً، ليس بمهجور ولا بلة، لك من ثوبة زكية، لربابه من صالحين البرية». ومن نسك لجهار قال: «إليك اللهم إليك، إليك اجعل قنوساً جباراً، واجعلنا لأوضح المنار، ومثمتنا وملنا بجهار». ومن نسك لسواع قال: «إليك اللهم إليك، إليك أبنا إليك، إن سواع طُلبن إليك». ومن نسك لشمس قال: «إليك اللهم إليك، إليك ما نهلنا نجره، إدلاجه وحزه وفزه، لا تنفي شيئاً ولا تفرقه، حماً لرب مستقيم بره». ومن نسك لمحرق قال: «إليك اللهم إليك، إليك حماً حفاً، تبدأ ورقاه». ومن نسك لود قال: «إليك اللهم إليك، إليك مطرة إليك». ومن نسك لمنطق الخلفة قال: «إليك اللهم إليك، إليك ما هو أرحب إليك». ومن نسك لمنطق قال: «إليك اللهم إليك، إليك». ومن نسك لسة قال: «إليك اللهم إليك، إليك لولا أن بكراً دونك، برك الناس وبهروك، ما زال حج ضح يأتونك، إنا على حدوائهم من دونك». ومن نسك لسمدة قال: «إليك اللهم إليك، إليك إليك، لم تأتكم للمباحة، ولا طلباً للرفاحة، ولكن حثك للصحة». ومن نسك ليحوق قال: «إليك اللهم إليك، إليك بخص إيا الشر، وحب إيا الخير، ولا تبطرنا فناشر، ولا تفدحنا بمناره». ومن نسك ليخوت قال: «إليك اللهم إليك، إليك أحبنا بما لديك، فمن عادك فد صرنا إليك». ومن نسك لسرق قال: «إليك اللهم إليك، إليك إنا عبيد، وكلنا ميرة عبيد، وأنت ربنا الحميد، اردد إلينا ملكنا والصيد». ومن نسك لذي النأ قال: «إليك اللهم إليك، إليك رب فاصرفنا عنا مضر، وسلمنا لنا هذا الفجر، إن عنا فيهم لمرهجر، واكفنا اللهم أرباب هجره». ومن نسك لمرح قال: «إليك اللهم إليك، إليك إنا لديك، إليك حبنا إليك». ومن نسك للربح قال: «إليك اللهم إليك، إليك كلنا كنود».

(١) في التليكات المختلفة أطر على الحصر من المختار، ص ٢١١-٢١٥.

وكلنا لنعمه جحود، فاكفنا كل حية وصوده. ومن نسك لذي الكفن قال: «لبيك اللهم لبيك، لبيك إن جرحاً عبادك، الناس طُرف وهم عبادك، ونحن أولى منهم بولاك». ومن نسك مُبل قال: «لبيك اللهم لبيك، إنا لفاح، حرمتنا على أسنة الرماح، يحسدنا الناس على النجاح»^(١).

ويلاحظ في هذه التلييات نسق موحد يبدأ بالجملة نفسها. وكذلك يلاحظ أن القبائل قلما كانت تذكر بالاسم صنمها الذي تنسكت له. وذكر الصنم مرتين، في التلية لجهار وسواغ، فظهر من التلية أن المخاطب ربما كان مبعوداً أسى من الصنم المذكور. وقد ذكر في التلية لذي اللبا، دعاء بني عبد قيس الذي يُبدى تحقراً من مضر وأرباب حجر. وجاء في تلية كنانة تفاخر واضح بقولهم: تحسدنا الناس على النجاح. فنلك تنبيه بحزازات بين القبائل. لكن هذه العناصر جميعاً، إذا ما قوبلت بالعوامل الأخرى التي قاربت ما بين الحجاج، لم يكن شأنها عرقلة هذا التطور البطيء الذي أزال كثيراً من التخوم الحادة بين قبائل العرب. وكان أعظم العوامل ولا شك وحدة الشعائر ونشابه التلييات وإغفال ذكر اسم الصنم في معظمها، وفوق كل هذا، الاختلاط البشري من فوق المصنّيات القبلية. لقد كانت نار الرجل البشري هذا تصهر المعادن، وتمدّ الميدان لسبكة جديدة قابلة لمفهوم أمة الإسلام بدلاً من مفهوم المصنبة القبلية. ولا شك في أن نهافت الولاء للصنم وتراخي المشاعر القبلية المصنبة الحادة كانا تطورين ناجمين من أسباب، ضمنها تلك الشعائر المشتركة.

إن الحكمة في استنطاق الماضي لفهم ما جربته تقضي ألا تسترّع في الاشتباه بأن وحدة العرب الكاملة قامت بين القبائل بعد بضع سنين من الحج إلى مكة. لكن فهم كيمياء التطور الذي حدث يفترض ألا تستخف نتائج اللقاء البشري السوي الحاشد، الذي كان يجمع قبائل العرب عند قبليهم ومهوى أقدلتهم وموطن قاداتهم.

(١) راجع الهامش في الصفحة السابقة.

٥ - مكة والتوحيد الديني

وفي جنوب جزيرة العرب كان الوثنيون يمدون ثلوثاً قوامه القمر والشمس والزهرة. وقد عُدّ القمر هو الأب في هذا الثلوث، وصلى هو الإله المقدم فيهم. وصارت له منزلة خاصة في دين العرب الحويين، وثنا سقى بعض المستشرقين دينهم دين القمر. وذهبوا إلى أن الساميين الشماليين لم يُعرفوا للقمر هذه المرتبة العالية. وقد نوقشت الفروق بين معتقدات العرب الشماليين والعرب الجنوبيين في بعض الأبحاث^(١). وبهما في هذا أن العرب الذين حثروا مكة وأحضرها أوثانهم إليها استوعبوا هذه المفاهيم وأدخلوها في شعائر الحج والطواف. وقد لاحظت هابرلي أن اللات، التي ذكرها هيرودوتس باسم الهلات، هي إلهة الشمس، أما العزى فهي نحتد كوكب الزهرة. واعتقد هابرلي المعبود الثالث الذكر^(٢). ويعتقد حواد علي أن كل صم من الأصنام يبدأ اسمه بلفظة ذت أو ذات في كتابات المسند اليمنية، فهو يمثل الشمس، وكل صم يبدأ اسمه بلفظة ذي فهو يمثل القمر أو الإبن في هذا الثلوث. وقال إن هذا الثلوث يمثل حقيقة الجاهليين والساميين عمومًا في الدين، قبل ظهور التوحيد^(٣).

ولم تتأثر معتقدات جميع مكة بمعتقدات الوثنيين الآخرين وحدها، أو بالسببيين والحميريين دون غيرهم. فقد وصف بعض المؤرخين مبدأ للإلهة اللات في مدينة البتراء، مذكر أنه معبد للام العنودة. وكانت اللات تُعبد في الخلصة، بين القدس وغزة. ويبدو أن عبادتها قد انتقلت من البتراء إلى العرب الشماليين والحجاز^(٤). وقد لوحظ أن الصرانية تعالمت مع الوثنية في بعض القبائل، ولم تقانلها مثلما تقانلت مع اليهودية. فكان الصراني مثلاً في عكاظ يلتقون مع عبدة الأوثان من هوازن عند صم لهم اسمه جهل تبعده أيضاً

(١) تحدث سوزوموس ونيودورث وديودورس عن عوط حرية إلى الفرجة. كذلك تحدثت عن هذا المصنم العربية وأيد بلاول هذا الاعتقاد. Shahrastani, Byzantium (١٢١, ١٢٢) ١٢٢.

٣٣٢. وكذلك p. ٣٧. واطر أيضاً حواد علي: ج ١، ص ٥١، ٥٢.

(٢) Harnass, The Hymnology, p. ١٧٧. وكذلك p. ٢٢, ٢٣. واطر أيضاً حواد علي: ج ١، ص ٥١، ٥٢.

(٣) حواد علي: ج ١، ص ١٦٦.

(٤) حواد علي: ج ١، ص ٢٢٣، ٢٢٤.

محارب، وكان سدنته من آل عوف الصريين^(١). وكان بعض تميم على النصرانية وبعضها على المجوسية وبعضها يتعبد للشمس، ولها بيت سدنته من آل أوس بن مخاشن، وبعضها الآخر يعبد الدبران وهو من النجوم^(٢). وحتى نجران قصبة النصرانية في جنوب الجزيرة العربية كان فيها كعبة لإلهة اسمها الرية، وكانت تعبد لها مدحج، ويعظمها بنو الحارث بن كعب، الذين كانوا نصارى واضطهدهم ذو نواس. وحتى غسان كانت تعبد البيت الحرام وكانت تلبيتها: لبيك رب غسان، راجلها والفرسان. ونُقل عن عائشة أم المؤمنين قولها: إن الأصنام وغسان كانوا قبل أن يُسلموا يصلون لمناة^(٣).

ويبدو أن تجميع أصنام العرب وقبول جميع أديانهم والسماح بالصلاة لها جميعاً في الكعبة لم يكن سياسة أتبعها عمرو بن لحي فقط، بل نهجاً متعمداً اتخذته قريش حتى زمن قريش من الإسلام أيضاً. إذ جاء في المعبر أن قريشاً كانت تعبد صاحب كنانة وبنو كنانة يعبدون صاحب قريش^(٤). وقريش من بطون كنانة، واحتمال أن يكون هذا سبب عبادة بعضهم أصنام بعض بضعفه أن لكل منهم صنماً خاصاً. وفيما كان لكل قبيلة صنم، أو لكل بطن من قبيلة صنم في بعض الحالات، فإن قريشاً مجتمعاً كانت لها أصنام عديدة، على نحو ما أسلفنا في الباب السابق. وفيما كانت قريش تجتذب الأصنام إليها كان بناء بيوت خارج مكة لأصنام أو لأديان أخرى أمراً غير مقبول. وقد تبين ذلك طبعاً في حادثة قلبيس أبرهة. ويروي ابن الكلبي أن ظالم بن سعد لما رأى قريشاً يطوفون بالكعبة ويسعون بين الصفا والمروة، فذرع البيت... وأخذ حجراً من الصفا وحجراً من المروة فرجع إلى قومه وقال: يا معشر غطفان، لقريش بيت يطوفون حوله والصفا

(١) المعبر، ص ٣١٥. وكذلك جرود علي: ج ٤، ص ٥١٧. وانظر Lamme: l'Arabie... p. 41.

(٢) جرود علي: ج ٤، ص ٥٢٨.

(٣) اللسان، مادة رب. والامام مسلم الباقوري: الجامع الصحيح، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ج ٤، ص ٧٠. وانظر أيضاً جرود علي ج ٦، ص ٢٥، ٣٧٧، ٣٨٢.

(٤) المعبر، ص ٣١٨. وانظر Lamme: l'Arabie... p. 45.

والمروة، وليس لكم شيء، فبنى بيتاً على قدو البيت ووضع الحجرين فقال: هذان الصفا والمروة فاجتزئوا به من الحج. فأغار زهير بن جنب بن هبل بن حيد الله بن كنانة الكلبي، فقتل ظالماً ومدم بئاصه.

وجاء في رواية أخرى أن بني صداه قالوا: أما والله لتتخذن حرمًا مثل حرم مكة، لا يُقتل صيده، ولا يُعصد شجره، ولا يُهاج عائته، فوليت ذلك بنو مرة بن عوف. ثم كان القائم على أمر الحرم وبناء حائطه ورياح بن ظالم فقتلوا ذلك، وهم على ما يُقال له بس. فلما بلغ فعلهم هذا وما أجمعوا عليه زهير بن جنب، قال: والله لا يكون ذلك وأنا حي ولا أعتلي غطفان تتخذ حرمًا أبدًا. ثم سار في قومه حتى غزا غطفان وتغنن منها واستولى على الحرم وقطع ربة أسير من غطفان به، وعطل الحرم وهدمه. وكان زهير من الخمس^(١). ويستدل من هذا السلوك الذي سلكته قريش وأصنامها من الخمس، أنها لم تكن تابه لكثرة الأصنام طالما أن هذه الأصنام كانت تُعبد في البيت الحرام. أما إنشاء بيوت جديدة تجتذب إليها بعض العرب من الحجاج، فذلك أمر لم تسمح به.

إن شأن تجميع هذه الأصنام في الكعبة، وتشابه الشعائر والمناسك والفرائض، مفرونة ربما بفكرة غامضة مما احتفظوا به من دين التوحيد الإبراهيمي الأول، وهي فكرة إله فوق الجميع، يفوق الجميع جبروتاً وقوة، تذيب الكثير من الفروق بين معتقدات القبائل. ولعل تشابه التلييات واختفاء اسم الصنم من كثير منها، أشاع الإحساس والانطباع بين الحجاج بأنهم إنما يتعبدون لإله واحد لا إله إلا هو. وكان هذا تطوراً فريداً في نوعه ربما. فعبادة الأصنام شائعة لدى كثير من الشعوب. لكن تجميع هذه الأصنام القبليّة في بيت واحد، واتخاذ شعائر ومناسك موحدة لميادنها جميعاً في موسم موحد، والطواف والسعي والإفاضة وما إليها من فرائض مشتركة كان يقضيها الحجاج معاً، والتلييات المتشابهة، كانت فريدة في عبادة الأصنام، ولا بد وأنها فعلت فعل

(١) الزبيدي: تاج المروس، مادة بس. والأغان، ج ٢١، ص ٢٠٩ - ٢١٠. وابن الكلبي: الأصنام، ص ١٧، ١٨. وانظر أيضاً جرود علي: ج ٦، ص ٢٤١، ٣٦٥.

السحر في إذكاء الشعور بوحدة في العقيدة الدينية، وجعلت فكرة التعبد لأصنام مختلفة متعددة تبدو شيئاً فشيئاً فكرة غير منطقية ولا مقبولة. وقد يكون هذا خير تمهيد لتهاافت عقيدة الأوثان ووهنها، وعودة فكرة دين التوحيد الإبراهيمي إلى الازدهار، حتى أخذت التربة تستعد، لا لقبول بذرة الإسلام من حيث هي الإيمان بأن لا إله إلا الله فقط، بل لقبول فكرة الوحدة الاجتماعية والسياسية أيضاً. فالدين الوثني القبلي هو تعبير عفائدي عن الواقع الاجتماعي والسياسي والعسكري للقبيلة، لأن القبيلة هي الوحدة الأساسية في المجتمع القبلي. والفرد في القبيلة محدود الكيان محصور النعمات. والصلاة إلى الصنم القبلي غرضه الأول أن تحفظ القبيلة ويضمن بقاؤها. وبقاء القبيلة ليس مرهوناً ببقاء أي من أفرادها، طالما أنها تتناسل وتحفظ بوحدتها وتحمي نفسها وتطعم أبناءها. ولذا لم يكن هذا الدين القبلي يهتم للفرد ومصيره في الآخرة. وكان اجتماع القبائل في مكة للصلاة لأصنام مختلفة أخذت تفسح الحدود بينها مع الوقت، مناسبة تاريخية لبده تبدل نفسي أخذ يلمن حدة المعصية القبلية وشذّب حدودها، ليتعزز سلوك التعامل المباشر بين الأفراد، على حساب العلاقات بين قبيلة وقبيلة. وكان شأن هذا التبدل النفسي والاجتماعي، أن النعمات القبلية، التي يؤخذ فيها القوم بجريرة أي من أبنائهم، أخذت تنهت وهناً واضحاً لتحل محلها المسؤولية الشخصية التي عبر عنها الإسلام أفضل تعبير بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾... الآية (الأنعام: ١٦٤). ومثل هذا الوضع القانوني هو النقيض الاجتماعي والشرعي لاساس المعصية القبلية. فالمسؤولية الشخصية الفردية هي المستند الأول لقيام العلاقة المباشرة بين الفرد والدولة على الصعيد السياسي والاجتماعي، وهي المفهوم الأساسي في العلاقة بين المؤمن والإله الواحد، على الصعيد الديني، لأن عليها يقوم مفهوم الثواب والعقاب. وكانت إحدى بلود التمهيد لهذه العلاقة الجديدة بين الفرد وبقية القوم من سائر القبائل العربية، المواسم الدينية المشتركة.

ولم تكن التجارة ولم يكن إيلاف قريش غريبين عن هذه البلود، ذلك أن التجارة مولت المواسم والوظائف المكية التي نظمت المواسم. ولولا التجارة

وليلاف قريش لحق لنا أن نساءل: هل كان يمكن للعرب أن يجمعوا على قبول القيادة المكية. أفلم يسهل ارتباط مصالحهم بتجارة قريش ارتباطهم العقائدي والسياسي والاجتماعي، بهذه القصة التي أخذت تستخطبهم أكثر فأكثر؟^(١).

- ه - التوحيد قبل الإسلام

يُحَدِّثُنا القرآن الكريم بأوثق الأدلة على أن العرب قبل الإسلام كانوا يؤمنون بالتوحيد، إذ يقول: ﴿وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَشَجَرَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَتَى يَوْمَئِذٍ يَوْمُئِذٍ﴾ (المنكوت: ٦١)، ويقول: ﴿وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لِيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (المنكوت: ٦٣). ويقول: ﴿وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (لقمان: ٢٥). ويقول: ﴿وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ أَفَرَأَيْتُمْ مَنْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ... الآية (الزمر: ٢٨). ويقول: ﴿وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (الزخرف: ٩). ويقول: ﴿وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُنَّ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَتَى يَوْمَئِذٍ يَوْمُئِذٍ﴾ (الزخرف: ٨٧). واستعادة التنزيل العزيز هذه الحجة ست مرات في مقارعة المشركين تدل على أن المجادلة مع المسلمين كانت كثيراً ما تعالج هذا الأمر فيعترف المشركون بوجود الله. بل إن القرآن الكريم يؤكد أنهم كانوا يقسمون بالله، إذ يقول: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ بِنَدِ اللَّهِ... الآية (الأنعام: ١٠٩). ويقول: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾... الآية (النحل: ٣٨). ويظهر القرآن الكريم صراحة اعتراف المشركين بوجود الله إذ يقول: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾... الآية (الأنعام: ١٠٠). ويقول: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا قَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾... الآية (الأنعام: ١٣٦). ويقول: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾... الآية (الأنعام: ١٤٨).

(١) Von Grunebaum, op.cit., p. 15. ويضربون: المحل: ٨٦، ص ٩٠.

وليس من شك في أن المشركين كانوا يعترفون بأن الله هو الخالق على رغم أنهم تعبّدوا لأصنامهم. والإسلام يؤكد أن التوحيد كان هو أصل الدين في مكة، إلا أن عبدة الأوثان ابتدعوا دين الأصنام وتعدد الآلهة. وذهب رينان إلى أن العرب موحدون بطبيعتهم وأن ديانتهم في جوهرها هي ديانة توحيد. واستند رينان إلى انتشار كلمة إيل في اللهجات والسامية، وإلى أن هذا الإله كان يمثل الإله الواحد. بل إن جمعاً من المؤرخين يؤمن بوجود توحيد سامي خامس الملامح. وثمة من يخالف هذا الرأي^(١). لكن التوحيد في جزيرة العرب لا يلبث أن يظهر، لا بالتحليل والتكهن العلمي، بل بالدليل الأثري. ففي الآثار السودية ذكر لله. ولا يُعرف إذا كان الساميون عرفوا وحدانية الله من اللحيانيين أم إن هذه المعرفة جاءتهم من بلاد الشام. ويعتقد ويت أن وصفهم الله بالأبتر، أي الذي لا ولد له، يدل على أنهم لم يستمدوا أو يتفلقوا عبادته من اللحيانيين. ويرى أن الأنياب عندما دخلوا بلاد شمو ولحيان على الجانب الغربي من شمالي الجزيرة العربية، أتخلوا عبادته من الساميين. وبقيت ذكريات قوية من عبادته بين الأعراب. ولاحظ ويت أن القرآن الكريم يؤيد هذه المعلومات الأثرية في أن عبادة الله عُرفت باكراً في منطقتي الملا ومدائن صالح، حين بُعث النبي صالح إلى قومه شمو ويشرهم بالله الواحد^(٢). وقد رأى جواد علي أن إطلاق الساميين على الله صفة الأبتر، قد يكون دليلاً على إيمانهم بالوحدانية^(٣) وهذا استنتاج معقول، لأن التسمية قد تكون نفصاً للنظرية المسيحية القائلة إن لله ابناً، وبالتالي رفضاً لأي نوع من تعدد الآلهة. واعتمد التدمريون أسلوباً آخر في الإعراب عن إيمانهم بالوحدانية على الرغم من أن عبادة الأصنام كانت شائعة في

(١) Ernest Renan: Histoire Générale et Système comparé des Langues Sémitiques, Paris, vol. I, pp 1, ff. وانظر جواد علي: ج ٦، ص ٤٣، ١٠٢ وما بعد. كذلك Montgomery: Watt Muhammad at Mecca, p. 64.

(٢) سورة الأعراف: ٧٣، ٧٥، ٧٧، ١٨٩، ١٩٠، ومحمد: ٦١، ٦٢، والصل: ٤٥. وانظر أيضاً Wilmott, F.V.: Allah Before Islam, The Modern World Review, vol. XXVIII (1938).

Krona Reprint Co., New York (1968), p. 248.

(٣) جواد علي: ج ٦، ص ١٧٨.

المدينة. إذ يقول ستاركي إن التدمريين بدلوا في القرن الميلادي الثالث يقيمون هياكل ولعن تبارك اسمه إلى الأبد. ولاحظ أن النقوش التدمرية لم تذكر اسم الإله المعبود. وغني عن القول إن عبدة الأوثان لا يستطيعون أن يبدلوا آلهة هدملة من غير تسميتها. وإذا لم يُسمَّ المعبود فلأنه فريد وحيد. وقد يعني هذا أنهم يؤمنون بإله واحد، أو بإله أكبر. لكن ستاركي لاحظ أن العصر في بلاد الشام كان ينتج نحو الإيمان بالوحدانية^(١).

وأتبع السبتيون هذا الأسلوب أيضاً في تجريد فكرة الله، والتجريد خطوة جديدة نحو التوحيد، فسوّوا معبودهم «ذسموي» أي إله السماء. فهو إذن لا يحمل اسماً خاصاً به، بل هو الإله الأعلى، من غير تسمية. ولا تستطيع الأبحاث في المرحلة الراحنة على ما يبدو أن تبت فيما إذا كان «ذسموي» إلهاً أوحده عند السبتيين أم كبير الآلهة، ولا إذا كان السبتيون قد اعتنقوا عقيدته متأثرين باليهودية أو المسيحية، لكن النزوع إلى اعتداده تقدماً لفكرة وحدانية الله هو نزوع قوي بين الباحثين في تاريخ اليمن. وقد تميز هذا الاعتقاد لأن النصوص المتأخرة التي ذكرت «ذسموي» لم تلت على ذكر أسماء الأصنام الأخرى^(٢).

وظهرت عبادة توحيد أخرى في الجزيرة العربية قبل الإسلام، وإن كانت خامضة المعالم مشوّفة الملامح، هي عبادة الرحمن. وقد ظهرت التسمية هذه في نقش الملك الحميري شرحبيل يعفر لتاريخ بناء سد مأرب على جدار السد في أواسط القرن الخامس الميلادي. وبعد ثماني سنوات نقش الملك عبد كلال بن ماثوب كتابة على جدار السد يُذكر فيها اسم الرحمن. وجدير بالذكر أن الملك الأول كان يهودياً وكان الثاني مسيحياً. وقد استخدم اليهود التسمية، واستخدمها أبرهة في نقوشه أيضاً. وقد قيل في ذلك إن عبادة الرحمن كانت يهودية، وقيل كانت مسيحية. لكن استخدام المسيحيين واليهود معاً هذه التسمية

(١) Starky, Jean: Palmyre, POrient ancien illustré, 1952, p. 47 (١)

(٢) جواد علي: ج ٢، ص ٣٤٣، وج ٦، ص ٣٦، ٣٧.

التي لم تدرج كثيراً خارج جزيرة العرب، قد يعني أن اليهود والمسيحيين استخدموا تسمية أو صفة لله كانت شائعة بين العرب. وقد ذكر شعرُ للشنفرى قال فيه:

ألا ضربت تلك الفتاة هجبتها ألا قصب الرحمن ربي بمينها
وفي شعر لسلامة بن جندل الطهوي:

عجلتم علينا عجلتنا عليكم وما بشأ الرحمن بمقد ويطلق
ونسب إلى حاتم الطائي أيضاً شعر يقول فيه:

كلوا اليوم من رزقي الإله وأمسروا وإن على الرحمن رزقكم قدلاً^(١)

لكن جميع هذه الإشارات غامض ولا يركز إلى تمام الركون، على الرغم من أن أثر انتشار فكرة التوحيد لم يكن موضع شك في مكة قبل الإسلام. ولا يسع المرء وهو يلاحظ هذه المواصلات الدينية والمقائدية في الجزيرة، إلا أن يربطها بحركة التجارة والقوافل، الحركة الوحيدة (مع التبشير) القادرة على نقل الأفكار والأديان والمواظاة على ذلك عقوداً وفروناً من الزمن حتى تزدني أثرها. حتى التبشير كان يتبع التجار ويرافقهم حينما يذهبون ويصل حينما يصلون. بل إن رهن التبشير بالأغراض السياسية والتجارية هو فكرة مقبولة لدى الباحثين، خصوصاً في تاريخ بيزنطة ووجودها في جوب جزيرة العرب.

و- الحنفاء

كانت حركة الحنفاء من أهم ما نتج على الصعيد الفكري، من حركة «المواصلات» الدينية التي حركتها التجارة. ويبدو أن الحنفاء الأربعة المشهورين في مكة ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث وعبدالله بن جحش وزيد بن عمرو بن نفيل، بدأوا خروجهم على عبادة الأصنام بعد رحلة إلى الشام. إذ يروي هشام بن سعيد بن زيد بن عمرو، حفيد رابعهم أن جدّه الذي مات سنة

(١) الطبري: التفسير، ج ١، ص ٤٤، و ج ١٥، ص ١٧١. والريدي: الناح، مادة رحم. وانظر أيضاً جواد علي: ج ١، ص ٥٠، ج ٦، ص ٣٧-٤١.

بناء الكعبة، قبل المبعث بخمس سنوات، خرج مع ورقة بن نوفل يلتصقان الدين حتى انتهيا إلى راهب بالموصل، فسأله زيد عن الدين فلم يقتنع بالنصرانية، أما ورقة فاقنع بها وتنصر. وفي رواية أخرى أن زيد بن عمرو خرج إلى الشام ومعه ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث وعبدالله بن جحش. ويذكر الرواة أن زيداً كان نديماً لورقة، فمات ورقة وخرج زيد إلى الشام. ويذكر الإخباريون أن حرص عمرو على الحنيفية وسعيه إليها حمله على السفر والترحال بحثاً عن مبادئ دين إبراهيم الخالية من كل شائبة. فزار الموصل والجزيرة وبلاد الشام حتى وصل إلى راهب في أرض البلقاء أو أيلة، فسأله عمّا قدم من أجله وعلم أن ما يبغيه لا يجده في النصرانية، والتقى أحراراً من اليهود فلم يجد عندهم ما يطمئن نفسه، فلم يدخل في أي من الديانتين، لأنه كان يسعى إلى التوحيد الخالص في دين إبراهيم. ولاحظ اللغويون أن لفظة الحنفاء التي سُمّي بها هؤلاء الموحدون، ولفظة الصابئة والصابية التي سُمّي بها المشركون النبي وأوائل المسلمين في مكة، مشتقان من حنف وصبا، وكلاهما يعني خرج على دين قومه، وهو أمر يصحّ قوله في إبراهيم والرسول معاً لرفضهما التبعّد للأصنام التي تعبد لها قومهما^(١). وكانت اللفظتان في الأصل للذم، فصارتا مدحاً بعد ترك عبادة الأصنام. وارتأى بعض المستشرقين أن الحنفاء شيعة من الشيع النصرانية التي انتشرت في جزيرة العرب. وعدّوهم نصارى عرباً زهدوا بالحياة وعبادة الأوثان، وخلطوا بالنصرانية بعض التعاليم من دين إبراهيم. واستندوا في قول ذلك إلى تنصّر بعضهم، كورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث. وقد أدخل المؤرخون المسلمون في الحنفاء عدداً من النصارى فعلاً، لكنهم صرّحوا بأن معظمهم لم يكونوا نصارى ولا يهوداً، بل مؤمنين بالتوحيد الإبراهيمي، باحثين عن سنة لتنظيم الدين والدنيا، تخرجهم من عبادة الأصنام ومن الفساد الذي رذلوّه. وقد كان بين الذين عُُدوا حنفاء، بعض النصارى، وكان منهم من كان

(١) اللسان، مادنا صبا وحنف. وقد أرب شهيد في محادثة خاصة عن مزجه على الأعداد لدراسة حول لفظة الأحناف. وهو يرى أن لفظة المسلمين قد حُلّت محلّها ونسختها في الإسلام.

حنيفاً ثم نصّراً^(١).

وقد ذكر القرآن الكريم صراحة أن الحنفاء لم يكونوا يهوداً ولا نصارى، وإنما كانوا موحدين على ملة إبراهيم حنيفاً، في سورة البقرة (الآية ١٣٥) وفي سورة آل عمران (الآية ٦٧) وغيرهما. ويلاحظ في هذا الإصرار على نفي نصرايتهم أو يهوديتهم، نوع من الإطراء بهم، بما يدعو إلى الاشتباه في أن الانتماء إلى النصارى أو اليهود لم يكن أفضل انتماء ممكن في نظر المكّين. لقد رفض المكّيون سلطان أبرهة، ثم رفضوا تملك عثمان بن الحويرث. وليس مستبعداً أن تكون النصراية في نظرهم قد تحولت إلى نوع من الانحياز السياسي إلى المسكر البيزنطي. كذلك يُفترض أن حرب الفجار ورفض المكّين الانضواء تحت جناح الفرس ومملكة الحيرة، لم يكن شأنهما إحلال اليهود محلاً ممتازاً في مكة، بل النصارى. ولا شك في أن الحنفاء، لو كانوا تعبيراً عقائدياً عن موقف سياسي، لكانوا تعبيراً عن بحث مكة عن عقيدة لموقفها السياسي المستقل ومشروعها الاقتصادي الخاص، عقيدة لا تكون إعلان انحياز لا لهذا المعسكر ولا لذلك. وقد أدرك الحنفاء مرتبة من العلم تؤهلهم لطرح مثل هذا، فقرأوا الكتب الأرامية وناقشوا الأخبار وكانوا من أهل العلم، ثم كان موقفهم مستقلاً. ويلاحظ غابريلي هذه الصفات في الأحناف (إذا استثنى ابن الحويرث البيزنطي الهوى) ووافق على أنهم كانوا مستقلين على حدٍ سواء عن العقيدتين النصراية واليهودية، فيما تمسكوا بالمبادئ الأساسية لفكرة التوحيد^(٢)، فكانوا البشير الذي عبّر بعض عن حاجات مجتمعهم الدينية والاجتماعية والسياسية، وهي الحاجات التي كُتب للإسلام أن يمدّها جميعاً. فكان شعر أمة بن أبي الصلت عن الحساب والثواب والعقاب والجنة والنار أبلغ بيان للمعانة التي عانتها

(١) سورة ابن هشام: ج ١، ص ٢٤٢-٢٥٧. المسعودي: المروج: ج ١، ص ٧٨-٨٣. ابن خلدون: كتاب العمر، دار الكتاب العلمي، بيروت، ١٩٧٧، ج ٣، ص ٧٠٧-٧٠٩. ابن كثير: البداية... ج ٢، ص ٢٢٠-٢٤٣. وانظر أيضاً جواد علي: ج ٦، ص ٤٤٩-٤٧١، ٧٠١، ٧٠٢.

(٢) Gabrieli: op.cit., pp. 25, 26.

الحنفاء حتى جاء الإسلام. وكان ملك عثمان بن مظعون والمنتقلين من الصارورة ووكيع بن سلمة الإيادي وغيرهم^(٣)، إعلاناً لهذا التزوع إلى الدين الجديد الذي بدت الحرية العربية كأنها تحسّ بوشوك ظهوره، دون أن تعرف تحسلاً متى وكيف سيظهر.

٣- اسم الجلالة: الله

لقد صبغت الإشارة في باب مكة والتوحيد الديني، إلى العلاقة العميقة بين التوحيد وعدم تسمية الإله، ونسب أن الاستعاضة عن التسمية بدلالة الإله غير المستحسن هو في الراجح إله توحيد، لو في أصحّ حال إله أكبر مقدم على ما سواه. وليس من شك في أن التليث المتشابهة في مكة، وهي تليث خلا عظمتها من اسم الصنم أو الإله، ربما كانت على الأقل مرحلة مهمة أزيلت فيها حقيقة نفسية خطيرة بين معتقدات الفاتل، نحو الإيمان بأنها جميعاً كانت تتمتع بحبوة واحد. ولا شك في أن الفاتل كانت تعلم أن لكل منها صنماً مختلفاً، وأن التلية تفصله عن لا غيره. لكن احتلال الحصح في طواف واحد، وإغفال أسماء الأصنام، أدباً حتماً إلى نهائات كثير من الحدود النفسية والمفاتيحية بين القبائل، حتى أضفى ممكناً في خطرة خطيرة أخرى لإدماج مفهوم المعبود، بما يمهّد لعقيدة التوحيد.

وقد كان ظهور اسم الجلالة: الله، مرحلة مهمة في الصراع الطويل بين عقيدة التوحيد وعبادة الأصنام. وأول ما ظهر اسم الله في آثار منحوتة، في النقوش اللحيانية على الحصوص. ويحتمل أن اللفظة ظهرت مرتين فقط في الكتابات العربية الجنوبية، أحدهما في كتابة معبية عُثر عليها شمال المُلا (التي كان اسمها لحيان)، أما الثانية فهي النقوش السبئية، ولذا يمكن القول بثقة إن الاسم انتقل من لحيان إلى حوض الجزيرة العربية، مع انتقال عبادة الله إلى اليمن: أما في الصلوات فلم يُعثر ضمن النقوش العربية الجنوبية على ذكر لاسم

(٣) المسخّرة: ص ١٣٦. ابن سعد: الطبقات، ج ٢، ص ٣٩٣-٤٠٠. وانظر أيضاً جواد علي:

ج ٦، ص ١٣٢، ٢١٨، ٢١٩.

الله. وقد عثر في النقوش اللحيانية والثمودية على صلوات باسم الله، فجعل
 وبت تاريخها القرن الخامس قبل الميلاد. ولم يُعثر على مثل هذا في نقوش
 ديدان التي سبق عصرها عصر اللحيانيين في شمالي غربي جزيرة العرب. ويعرف
 الإخباريون اللحيانيين بأنهم من سلالة هذيل بن مُدركة بن الياس بن مُضر، أي
 أنهم عرب حدنانية. لكن وبت تساءل مع ذلك عن أصل تسمية الله، وما إذا
 كانت عربية. ففي الأرامية السريانية وربما في اللهجة النبطية واللهجة التدمرية،
 تبدأ لفظة إله بهزمة مفتوحة لا مكسورة. والهزمة المفتوحة على الألف في بداية
 اسم الجلالة الله، حُوت الباحثين بعض الشيء، إذ افترضوا أن محلها في
 العربية لهزمة مكسورة. لكنهم حلوا المسألة بقولهم إن أصل اللفظة الإله، أي
 كلمة إله معرفة بأداة التعريف، فأدغمت اللامان بعد حذف الهزمة لاستقبال
 لفظها. وقد عالج الرازي هذا الأمر في تفسيره الكبير، إذ قال: وقال بعضهم هذه
 اللفظة ليست عربية بل عبرانية أو سريانية، فإنهم يقولون: إليها رحمانا ومرحمانا،
 فلما قُرِبَ جُعل: الله الرحمن الرحيم، وهذا بعيد، ولا يُلْزَمُ من المشابهة
 الحاصلة بين اللغتين الطعن في كون هذه اللفظة عربية أصيلة... أما الأكثرون
 فقد سلموا كونها لفظة عربية. أما القائلون بأن هذا اللفظ اسم علم لله تعالى فقد
 تخلصوا عن هذه المباحث، وأما المنكرون لذلك فلهم قولان: قال الكوفيون
 أصل هذه اللفظة إلاه فأدخلت الألف واللام عليها للتنظيم، الإلاه، فحُذفت
 الهزمة استغناءً لكثرة جرياتها على الألسنة فاجتمع لامان فأدغمت الأولى فقالوا:
 الله. وقال البصريون أصله: لاه، فالحقوا بها الألف واللام فقبل: الله^(١).

ويقول وبت إن اللفظة في اللحيانية كتبت كذا: هـ ل هـ، وفي الثمودية
 كذا: هـ ل هـ، ويضيف أن اسم الإله الذي كان يُعبد عندئذ لا بد إذن وأن
 يكون إله فأدخل اللحيانيون هاء التعريف على هذا الاسم وكان اسم جنس،
 فحوّلوه إلى اسم علم، وكذلك العرب، فدخلت أداة التعريف الألف واللام على

(١) الرازي، الامام فخر: التفسير الكبير، المطبعة البهية المصرية ببيدات الأزهر بمصر، ج ١،
 ص ١٦٣. وكذلك جواد علي: ج ١، ص ٢٣، ٢٤.

كلمة إله، التي هي اسم حس بدل على كل ما كان يُعبد، فحوّل الاسم في
 مرحلة أولى إلى اسم إله مُعَرَّف، ثم إلى اسم علم للإله الذي لا إله إلا هو.
 ولم يأخذ وبت ببعض الاعتراضات على هذا الاستنتاج^(٢). ولا شك في أن قول
 هيرودوتس إن اسم اللات فيما مضى كان أيلات، إنما يعرّز هذا الرأي، لأن
 لفظة أيلات قريبة جداً من لفظة الإلهة. وحذف الهزمة وإدغام اللامين مطابق
 تماماً لما قال به الإخباريون المسلمون وما اعتنقه وبت^(٣).

وقد درجت في الكتابات والنقوش صفات أُضيفت على الإله، مثل: تبارك
 اسمه، أو رب العالم، أو الله المحسر، أو رب العالمين، وما شابه. لكن وبت
 قال بعد استعراضه عدداً من النقوش الثمودية والنحيانية، إن صفة الأيتز (أي
 الذي لا ولد له) لم تُطلق على عبه الله، فيما اشترك الآلهة الآخرون بالصفات
 الأخرى. ولا حظ أن هذا يشير أن اللحيانيين كانوا يؤمنون بمكانة خاصة لله لا
 يؤمنون بمثلها لغيره. وقال إن هذا قد يكون أصل الإيمان بالله الأوحد في
 الجزيرة العربية^(٤). وهذا صحيح على الخصوص إذا كان المقصود من تمت
 الأيتز فهي نظرية التثليث المسيحية في قوله: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ • اللَّهُ الصَّمَدُ •
 لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ • أَلَمْ يَكُنْ لَهُ قُفُوءاً أَحَدٌ» (الإخلاص: ١-٤).

إن هذا التطور اللغوي في لفظة اسم الجلالة كان نسبياً ولا شك عن تطور
 في مضمون اللفظة وفكرة الإله عند اللحيانيين والثموديين. لكن اللفظة نفسها
 صاحبت هي أيضاً في تطوير المضمون بدورها. لأن غياب اسم العلم عن
 المعبود، ثم تحويل اسم الحس المُعَرَّف إلى اسم علم، طوّرت في ذهن العرب
 شيئاً فشيئاً فكرة الإله الأوحد الذي لا يشترك أحد في مكانته. وقد ظلت هذه
 الفكرة ترسخ في الأذهان، حتى أخذت مكانة الأصنام في عقيدة القبائل تتقلص.
 ومضى زمن طويل والعرب، كما يؤكد ذلك الفرق الكريم، يؤمنون بالله
 ويشركون به في آن. ونلك كانت مرحلة. وقد ذكر الله في كثير من أشعار

(١) Winnett op cit. pp 245 - 247

(٢) Rendell: op cit. p. 16

(٣) Winnett op cit. pp 243, 244

الجاهليين، وذهب مستشرقون إلى أن رواية الشعر الجاهلي المسلمون حذفوا أسماء الأصنام حينما استطاعوا وجعلوا اسم الله محلها^(١). غير أن فلهلوا وزن ارتأى أن سبب ذلك ليس تبديل الرواة الشعر، بل أدب الجاهليين ودورهم على عدم الإسراف في ذكر أسماء الآلهة الخاصة على سبيل التأديب حيال الأرباب والأصنام، فاستعاضوا عن ذكر صنمهم بذكر الله، دون أن يمنوا إلهاً معيلاً^(٢). وفي رأينا أن هذا تفسير غير مقبول، لأن القرآن الكريم يؤكد أن العرب كانوا يعظمون الله فوق كل أصنامهم، رغم شركهم. ولا يدل معنى الشرك على إنكار الله، بل على عبادة آلهة أخرى معه، رغم الإقرار بأنه الخالق (لقمان: ٢٥، وغيرها) ولا يستقيم أن يقرؤوا اسم الصنم فلا يذكروه، ويذكروا بدلاً منه اسم الله وهو عندهم فوق الأصنام. أما أن رواية الشعر أدخلوا اسم الله في الشعر الجاهلي بعد الإسلام، فذلك قول يضعفه القرآن الكريم أيضاً حين يثبت بما لا يقبل شكاً أن الله كان في رأي المشركين أنفسهم خالق السماء والأرض، على نحو ما سلف.

ثانياً: أسواق العرب

١- تجارة محلية ومراهم

يختص ابن حبيب في المحرر فصلاً مهماً بأسواق العرب^(٣). وقد صلفت التفرقة والتمييز بين هذه الأسواق التي صبغت الإبلان بسبب طبيعتها المحلية والحاجة الدائمة إليها، وبين التجارة الدولية التي كان يمكن أن تمر بضاعتها عبر جزيرة العرب من الكرام دون أن يكون للقبائل فيها بيع أو شراء. إلا أن طبيعة عهود الإبلان وإشراك مكة القبائل في التجارة الدولية ومكاسبها على هذا النحو أو ذاك، مثلما يتبين في الأبواب السالفة، وتعاظم حصة قريش في التجارة الدولية

(١) لاحظ لامنس أن رب البيت كان أعلى مرتبة من هل والعري عد قريش. انظر: Lamnens: l'Arabe... p. 42.

(٢) جواد علي: ج ٦، ص ١٢.

(٣) Wellhausen, Julian Reste Arabischen Heidentums, (1897), n. 217, 218. وانظر أيضاً جواد

علي: ج ٦، ص ١١٥.

(٤) المحرر، ص ٢٦٣ - ٢٦٨.

في أواخر القرن السادس للميلاد، بعد اشتداد الحرب بين البيزنطيين والساسانيين واضطراب خطوط التجارة الشرقية عبر البحر الأحمر وعبر الفرات وبادية الشام، جعلت تجارة مكة الشرقية تزدهر، ومكاسب القبائل التي كانت تشاركها في التجارة أو تمر قوافل قريش في منازلها تزداد ازدياداً، حسن عيشها وعزز قدرتها الشرائية. وكان من علامت ارتياشهم أن درجت في كثير من أسواقهم تجارة رقيق رابحة، فكان الأسرى والعبيد يجلبون إلى بلاد العرب من الحبشة أو من الأسرى العرب الذين استرقوا في الغزوات. وكانت هذه التجارة رائجة في أسواق مكة وفي سوق حباشة على الطريق إلى نجران. وكان ثمة من يقبل على شراء الرقيق لأن أشرف العرب حرصوا في ثرائهم الحديد هذا، على ألا تخلو منازلهم من العبيد^(١). ولا مفر من التكهن بأن تحسن القدرة الشرائية وازدياد ثروة القبائل وأسيادها وتعاظم رأس المال بين أيدي التجار، نشط حركة البيع والشراء ذات الصفة الاستهلاكية المحلية التي كانت معظم الأسواق تقوم عليها، لأن معظم التجارة الشرقية كان تجارة عبور في بلاد العرب.

ولذا كان ثمة علاقة مباشرة بين الإبلان ورواج تجارته الشرقية وبين ازدهار أسواق العرب، على الرغم من صفة الأسواق المحلية. لكن هذه الأسواق الدورية التي كانت تنتقل فيها القبائل العربية وصادتها وتجارها من مكان إلى مكان على توالي شهور السنة في كل أرجاء جزيرة العرب، أثرت بدورها آيما تأثير بحركة الإبلان العامة، فانشأت سوقاً مشتركة بمعنى الكلمة الحديث. وكانت زهامة الفرشين في كل هذا المسار المتصاعد، تتعزز، من جراء مركز مكة الديني ولا شك، ولكن من جراء تلك الأسواق أيضاً، وخصوصاً أسواق ذروة المواسم: حكاظ وذو المجاز ومنجنة التي كانت تنتهي في يوم التروية، الثامن من ذي القعدة ليبدأ الحج في التاسع منه. هناك في الأسواق وفي الحرم، كانت الثارات والعداوات تنهات، ويلتقي الحضرمي بالشامي والمماني بالعنزي

(١) في شأن حباشة والرقين وتجارة العبيد انظر المحرر، ص ٢٦٤. واللسان، المواد عبد وقن وأما.

والموت: معجم البلدان، حباشة. وسيرة ابن هشام: ج ١، ص ٢٦٥، ٢٦٦. وكذلك

حقوق: المرجع السابق، ص ٧٠.

ليقبضوا تجارتهم ويحصروا أرباحهم، ثم ينصرفون إلى شكر أصنامهم معاً في طواف واحد أعدت تذوب فيه مشاعر العصبية القلبية الحادة^(١).

وقد استطاعت المؤسسات والأعراف والنظم المتبعة ومنها الأشهر الحرم وعهود الإيلاف والأحلاف أن تنظم أسواق العرب حتى تقوم على مدار السنة تقريباً. وقد صُنّف أمن الارتحال إلى الأسواق صنفين:

- فمن الأسواق ما كان يقع في حكم مملكة تفرض الأمن وتلاحق الغزاة وتمنع التعدي وترد الحق إلى صاحبه. وفيها لم يكن التجار يحتاجون إلى بخفارة ترافقهم أو تمنع العدوان عنهم. وكانت الحكومات تضرب عشوراً ومكوساً على التجار لقاء السماح لهم بالتجارة.

- ومن الأسواق ما كان يقع في مناطق البادية حيث لا حكومة ولا سلطان، ولذا كان التجار في معظم الحالات يستأجرون الحفراء لحمايتهم وحماية تجارتهم لقاء جُمْل يدفعونه. ولاحظ المرزوقي أن في هذه الأسواق أيضاً فتيين، إذ قال: وكانت هذه الأسواق منها ما يقوم في الأشهر الحرم ولا يقوم في غيرها، ومنها ما لا يقوم في الأشهر الحرم ويقوم في غيرها. لكنه لا يصل إليها أحد إلا بخفير ولا يرجع إلا بخفير^(٢).

وكانت بضاعة الأسواق المحلية الدورية، من نتاج جزيرة العرب في كثير من الحالات، كالتمر والزيت والمواشي والرقيق العربي والسلاح والادم وحتى اللبان والعطور اليمينية والفضة. لكن ازدهار تجارة الشرق وإثراء بعض القبائل والمشاير أمكنت لعرب الجزيرة من أن تبيع وتشترى في الموانئ التي كانت تأتي بالبضاعة

(١). Germanus, A K Julius Legacy of Ancient Arabia, Islamic Culture, vol. 37 (1963).

pp. 261 - 269. والألعاني: أسواق... ص ١٧٧، ١٧٨.

(٢) أنظر المشور ومن كان يفرضها ولحساب من في أسواق دما والشعر والمنفر ودومة الجندل في المحبر، ص ٢٦٣ - ٢٦٦. ولي الانتصار في الأشهر الحرم وغيرها أنظر المرزوقي: الأمانة والأمانة، حيدر أباد الدكن، ١٣٣٢ هـ، ص ٢٠٦، ١٦١ - ١٦٦. وكذلك حشور: المرجع السابق، ص ٥٧، ٥٨، ٦٤.

من المحيط الهندي، أو تذهب عبره ببضاعة الشام ومصر.

وقد أحصى الندوي^(١) مرافق التجارة التي أثرت مباشرة بالتجارة العربية على النحو التالي:

- صحار: كانت مرفأً لقصبة عُمان. وقال فيها البشاري إنها أكبر المدن على بحر الصين [أي الذي يُبحرون فيه إلى الصين]. وهي آهلة وجميلة وتزخر فيها الأرزاق والائمار، وفيها أسواق على طول الشاطئ. ووصفها ياقوت بأنها دهليز الصين وخزانة الشرق ومتجر اليمن.

- الشحر: كانت غنية بالأسماك فتصدّرها إلى عُمان وعدن والعراق.

- قيس، أو قَيْش: جزيرة في بحر عُمان قرب البحرين. كانت محطة للسفن المبحرة إلى الهند.

- البحرين: سكنها البحارة على الدوام وكانت تحتشد فيها السفن والمراكب.

- هُرمُز: جزيرة كانت مركز التجارة البحرية في الخليج وكانت تنافس قيس، وترفاً إليها سفن الهند والصين واليمن.

- جُعدّة: كانت مرفأً مكة [الشعبية كانت مرفأها قبل الإسلام]. وكانت ترفاً إليها السفن الآتية إلى الحجاز من الحبشة. وعرفت جُعدّة كميناء قبل الإسلام، لكنها لم تزدهر إلا بعده.

- الجار: ميناء المدينة وقد أغلقه أبو جعفر المنصور في بداية العصر العباسي فاندثر.

- القُلُوم: ميناء على شاطئ مصر من البحر الأحمر [السويس اليوم]. وكان التجار يصدّرون منه اللّذرة إلى الحجاز واليمن^(٢).

(١) Nadavi: op. cit., pp. 76 ff. (١)

ب - مواعيد الأسواق ومواقعها

خلا شهرا شَوَّال وصفر وحدهما دون سائر الأشهر القمرية من الأسواق الدورية الموسمية في جزيرة العرب. أما الأشهر الأخرى فكانت الأسواق فيها لا تتوقف، فتدور من موقع إلى موقع ناقلة معها البضاعة والتجار وطلاب الشهرة من الشعراء والرواة. ولا شك في أنه لا ندحة لمبالغة، مهما قبل عن أثر هذه المواسم السنوية في إنشاء عيش اقتصادي واجتماعي ولغوي مشترك بين القبائل، - دومة الجندل: هي أول سوق تقام في العام بعد انقضاء موسم الأشهر

الحرم، فتقوم في أول ربيع الأول وتنصرم في منتصفه. والسوق لكنانة من كلب، جيرانها كلب وجديلة طيء. وكان كلب حلفاء بني نعيم، وطيء حلفاء بني أسد، ولذا كانت قوافل قريش فيها آمنة بلا خفارة، فإذا أخذوا طريق العراق تحفروا ببعض بني قيس بن ثعلبة فتجيز ذلك لهم ربيعة كلها. وكانت دومة الجندل عقدة مواصلات بين الخليج والشام وبين مكة والعراق. وكان يباع فيها اللبان والمر واللدن والعقيق اليمني والمطور والذهب والعاج وخشب الأبنوس والرقيق الحبشي والقمح المصري في أحيان. وكان يتأوب على ملكها أكيدر الكندي وثقافة الكلبي. فكان الملكان يتحاجبان، فأبهما ملك غلب صاحبه بأحبيته كانت له السوق فصنع فيها ما يشاء فلم ينج أحدٌ فيها إلا بإذنه، وكانت له العشور. وكانت مباحة العرب في دومة الجندل إلقاء الحجارة. وذلك أنه ربما اجتمع على السلعة نفر يسامون بها صاحبها، فأبهم رضي ألفى حجره^(١).

- هَجَر: ينتقل إليها الناس بعد فراغهم من سوق دومة الجندل. وهَجَر في البحرين عند ساحل البحر، وكانت تقام في مطلع ربيع الثاني. وكانت ضرائبها لملوك البحرين من تميم الذين كانوا يدهنون للفرس. وهَجَر تمرها فاخرة. وكان يباع فيها العنبر الهباني^(٢).

(١) البقوي يذكرها في طلبه الأسواق البطوني: التاريخ، ج ١، ص ٢٧٠. وكذلك العرذولي: الأزمة...، ج ٢، ص ١٦١. وانظر المحرر، ص ٢٦٣، ٢٦٤. وانظر أيضاً حنود: المرجع السابق، ص ٥٢، ١٦٦ وما بعد. ودرادة: المرجع السابق، ص ٩٢.
(٢) المحرر، ص ٢٦٥. وكذلك الأعاني: أسواق...، ص ٢٠٨ - ٢١٥. وحنود: المرجع ذاته، ص ٥٢، ١٦٠ وما بعد.

- عُمان: كانت تقام سوقها بعد هجر وتستمر حتى آخر جمادى الأولى. وكانوا يتبادلون فيها نتاج اليمن والحجاز والشام والحشة والهند وفارس. وكان أمراؤها يدهنون للفرس يهينونهم لجباية العشور والمكوس، مثل هَجَر.

- المشقر: قال ابن حبيب «تقوم سوقها أول يوم من جمادى الآخرة إلى آخر الشهر، فتوافي بها فارس يقطعون البحر إليها ببياعتهم. ثم تنفث عنها إلى مثلها من قابل. وكانت عبد القيس وتميم جيرانها، وكان ملوكها من بني تميم، من بني عبد الله بن زهد رط المنذر بن ساوى. كانت ملوك فارس تستعملهم عليها، بني نصر على الحيرة وبني المستكبر على عُمان. وكانوا يصنعون فيها ويسرون فيها بسيرة الملوك بدومة الجندل. وكانوا يعشرونهم. وكان من يؤمها من التجار يتخفرون بقريش لأنها لا تؤتى إلا في بلاد مضر. وكان يبيعهم فيها الملامسة والهمهمة. أما الملامسة الإيما، يومئذ بعضهم إلى بعض فيتبايعون ولا يتكلمون حتى يتراضوا إيما. وأما الهمهمة فكيلا يحلف أحدهم على كذب إن زعم المشتري أنه قد بدا له^(١). ويبدو أن هذه السوق كانت من كبرى الأسواق لقيامها شهراً. إلا أن ناصر الدين الأسد تشكك في كونها سوقاً، إذ قال إنه لم يجد خبراً واضحاً على ذلك، فاستشهد قول باقوت: «المشقر حصن بالبحرين عظيم لعبد القيس يلي حصناً لهم آخر يقال له الصفا قبل مدينة هجر... وبين الصفا والمشقر نهر يجري يقال له العين... وفيه خيس كسرى بني تميم». ثم استشهد قول البكري: «المشقر قصر بالبحرين وقيل: هي مدينة هجر»، وأضاف أن الذي «ذكره» أن المشقر سوق الطائف وهو غير هذا، وذكروا أن سوق الطائف تسمى أيضاً المشرق^(٢). إن إغفال بعض المؤرخين والجغرافيين العرب ذكر السوق في

(١) المحرر، ص ٢٦٥. و Hamdullah: Les Voyages...، p. 227. والأعاني: أسواق...، ص ٢٠٣ - ٢٠٧، ٢١٦ - ٢٢١.

(٢) بانوت: معجم البلدان، ملحقا المشرق والمشرق. وانظر أيضاً الأسد، ناصر الدين: مقدمة لدراسة القبائل العربية في الخليج قبل الإسلام: هجراتها وعلاقاتها بالقبائل الأخرى بالجزيرة العربية، في: دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى إحسان عيسى، تحرير وداد القاضي، الجامعة الأميركية في بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨١، ص ٤٦.

المشقر سببه على الأرجح أن الأسواق الموسمية تقام في معظم الحالات في أرض خلاء حتى اليوم. والجغرافيون قلما يذكرون الأرض انخلاء إذا لم تكن فيها موقعة ما أو ذكرى خطيرة الشأن. والخبر الواضح الذي ذكره ابن حبيب عن سوق المشقر والذي خلا من احتمالات الالتباس وغلط السوق بسوق أخرى، مستند معقول للقول بقيام سوق في المشقر قبل الإسلام. وكان سكان المشقر من الأزدي الذين برعوا في الملاحة.

- حُباشة: كانت تقام في ديار بارق بنهامة في ديار الأزدي من حُشان، وهي على ست ليالٍ من مكة بين الحجاز واليمن. وتبدأ في الخامس من رجب وتستمر ثلاثة أيام. والراجح أنها كانت مستغلة من جولة الأسواق السنوية، لأن المجيء إليها من المشقر في خمس ليالٍ غير ممكن. وقد أولدت خديجة أم المؤمنين الرسول إلى هذه السوق للتجارة قبل المبعث^(١).

- ضُحار: كانوا يرتحلون إليها من المشقر، وهي قصبة عمان على البحر، على ما أسلفنا. وكانوا ينادون المشقر في أول رجب ويلفون ضُحار في العشرين منه، فتقام السوق فيها خمسة أيام. وهي لملوك حُمان من الأزدي وكانت حمايتها من حرمة شهر رجب، ويحشرهم فيها الجلندي بن المستكبر وكيل الفرس. وسُميت «دهليز الصين وخزانة الشرق».

- ذُبا: (وتُكتب أيضاً بصورة الهاء: دى) تُعقد فيها السوق في آخر يوم من رجب فتمتد حتى العاشر من شعبان، وهي عند مخرج مضيق عُمرز على ساحل حُمان، وسماها ابن حبيب إحدى فرضي العرب، لمكانتها بين الموانئ. وكان يأتيها التجار من السند والهند والصين وأهل المشرق والمغرب، وكان يجمع فيها المساومة. وكان الجلندي بن المستكبر يحشرهم فيها، ويفعل في ذلك فعل الملوك بغیرها. وكانت سوق مشهورة في فناء المجاورة تُذكر معها^(٢).

(١) باقوت: معجم البلدان، حباشة. وانظر أيضاً الأصفهاني: أسواق... ص ٢٢٢ - ٢٢٤.
وحقنور: المرجع السابق، ص ١٩ - ٥٢، ٥٤ - ١٦٠ وما بعد.
(٢) المشقر، ص ٢٦٥، ٢٦٦. وكذلك: Hamidullah. Les Voyages... p. 227. والأسد: المرجع السابق، ص ٤٦. وحقنور: المرجع السابق، ص ٥٢ - ٥٤، ١٦٠ وما بعد. والأصفهاني: أسواق... ص ٢٢٥ - ٢٢٦.

- الشُقر: في فُهرة بين ظفار وحضرموت، وقال فيها محمد بن حبيب: «فتقوم السوق تحت ظل الجبل الذي عليه قبر هود عليه السلام. ولم تكن بها حشوره، لأنها ليست بأرض مملكة وكانت التجار تتخفر فيها بيني محارب بن هرب من مهرة. وكان قيامها للنصف من شعبان. وكان يجمع بها إلقاء الحجارة». أما تجارتها فأجمعها الإبل والعبير واللُبان^(١).

- عدن ويقول فيها ابن حبيب: «وكانت تقوم أول يوم من شهر رمضان إلى عشر يمتصين منه. وكانوا لا يتخفرون هناك بأحد لأنها أرض مملكة وأمر محكم. وكانت الأبناء تمشيهم بها ولا تشتري في أسواقهم ولا تبيع. والأبناء هم أبناء الفرس الذين فتحوا اليمن مع هرمز وقتلوا الحبشة^(٢). وكان يباع فيها ويشترى على الخصوص البن والطيب الفاخر^(٣)».

- صنعاء، قال ابن حبيب: «كانت تقوم في النصف من شهر رمضان إلى آخره. وكانت الأبناء تمشيهم. وكان بها الجس جس الأيدي أي أنهم يوجبون البيع بالجس^(٤). وكانت السوق في وادي صنعاء وأفضل بياعاتهم الأدم والبرود والزعفران والأصباغ، وفيها يشترون البز والحرير والخز^(٥)».

- الرابية: سوق حضرموت، «لم يكن يصل إليها أحد إلا بخفارة لأنها لم تكن أرض مملكة، وكان من عز فيها يز صاحبه، فكانت قريش تتخفر فيها بيني أكل المرار، وسائر الناس يتخفرون بال مسروق بن وائل من كندة، وكانت مكرمة لآل البيتين جميعاً. وساد بنو أكل المرار بفضل قريش على سائر الناس، فكان يأخذ إليها بعض الناس، وبعض إلى عكاظ^(٦)، لأن عكاظ كانت تقوم في الموعد نفسه من مطلع ذي القعدة إلى العشرين منه، ولذا كانت سوقاً محدودة،

(١) المشقر، ص ٢٦٦. وحقنور: المرجع السابق، ص ٥٢ - ٥٤، ١٦٠ وما بعد.
(٢) المشقر، ص ٢٦٦. والأصفهاني: أسواق... ص ٢٢٢ - ٢٢٤.
(٣) حقنور: المرجع السابق، ص ١٦٠ وما بعد. والأصفهاني: أسواق... ص ٢٢٣.
(٤) المشقر، ص ٢٦٦. والأصفهاني: أسواق... ص ٢٢٨ - ٢٣٥.
(٥) حقنور: المرجع السابق، ص ١٦٠ وما بعد.
(٦) المشقر، ص ٢٦٦. والأصفهاني: أسواق... ص ٢٣٩ - ٢٤١.

تباع فيها على الخصوص الذرة والدخن والقمح والسمسم والقطن^(١).

- عكاظ: قال ابن حبيب إنها كانت من أعظم أسواق العرب. وكانت قريش تنزلها وهوازن وطوائف من أبناء العرب: غطفان وأسلم والأحباش... وكانت تقوم للنصف من ذي القعدة إلى آخر الشهر. ولم يكن فيها عشور ولا خفارة. وكان بيعهم السرا: إذا وجب البيع وعند التاجر فيها إلف ممن يريد الشراء ولا يريده، أشركه في الربح. وقوله: ولم يكن فيها عشور ولا خفارة، فلأن السوق لم تكن في أرض أي مملكة، وكانت تقوم في شهر حرام. وسفره باباً لهما يلي لسوق عكاظ. وقد جعل ابن حبيب موعدها في المنتق من أول ذي القعدة إلى العشرين منه، فإن مضت العشرون انصرفوا إلى مكة^(٢).

- مَجَنَّة: وهي على أمال من مكة، وتقام آخر عشرة أيام من ذي القعدة، منصرفهم من عكاظ. وهي أقرب إلى مكة من عكاظ، ولذا فهي شبه استمرار لسوق عكاظ واقترب من مكة، مع اقتراب موعد الحج^(٣). وحتى تقوم سوق في مَجَنَّة بين عكاظ وذي المجاز، لا مفر من التراض أن عكاظ كانت تنصرف في العشرين من ذي القعدة، لا في آخره.

- ذي المجاز: وهي بناحية عرفة قرب جبل تَكْبُ في ديار هذيل. وكانت السوق تقام حين يُهل ذو الحجة، وتنتفض في الثامن منه يوم التروية، لأن عرفة والمزدلفة لا ماء لهما. وكانت السوق تجمع جمعوا عظيمة قدمت على الخصوص للحج، فيصرفون في التاسع من ذي الحجة إلى شعائرهم^(٤).

- نطاة خيبر: بعد منصرفهم من الحج كانت السوق تقام في العاشر من المحرم إلى العشرين منه. وموقعها شمال خيبر.

- (١) حنوز: المرجع السابق، ص ١٦٠ وما بعد.
(٢) المحبر، ص ٢٦٧. وكذلك المنتق، ص ٢٧٤، ٢٧٥.
(٣) حنوز: المرجع السابق، ص ٥٢، ٥٤، ١٦٠ وما بعد. والألفاني: أسواق... ص ٢٩٦-٢٩٨.
(٤) المحبر، ص ٢٦٧، والمنتق، ص ٢٧٤، ٢٧٥. وكذلك حنوز: المرجع ذاته، ص ١٦٠ وما بعد. والألفاني: أسواق... ص ٢٩٩-٣٠٥.

- خَجَر اليمامة: كانت تقام لمن ينصرفون من الحج إلى عمان والبحرين. فيقصون فيها تجاراتهم من العاشر من المحرم، حتى آخره. وهي لبني حنيفة من بكر بن وائل، أشبه بمكاظ. ولم تكن فيها خفارة لوقوعها في شهر حرام^(١).

وقد ذكرت في المصادر والمراجع أسواق أخرى، منها سوق دير أيوب، في قرية الشيخ سعد بحوران، وسوق بَصْرَى الشام، وسوق أَذْرَعَات في درعا اليوم، على خلاف في موعد قيام هذه الأسواق الشامية. كذلك كانت تقام سوق في الحيرة. لكن هذه الأسواق لا تبدو جميعاً منتظمة في سياق المواسم في جزيرة العرب ضمن نظامها الزمني. ولا مفر من اعتدادها أسواقاً للتجارة الدولية أيضاً: دير أيوب: كانت تقوم بعد انقضاء الحج وتقصدتها قريش بقوافلها.

وكانت تحت حكم بيزنطة، فتُفرض فيها العشور، ولا تحتاج إلى خفارة.

- بَصْرَى: تقوم بعد سوق دير أيوب وتستمر خمسة وعشرين يوماً، ويقوم عليها الفساسة بجيوش الضريبة للروم. وكانت تأتيها بضاعة الهند والبصرة وغيرها. وكانت سوقاً عظيمة واشتهرت بالسيوف المشرفة المنسوبة إليها، وكذلك بالخمور.

أذْرَعَات: كانت تقوم بعد انقضاء سوق بَصْرَى بسبعين ليلة، وتستمر طويلاً خلال الصيف، وربما الصيف كله.

- الحيرة: جاء في الأغاني أنها سوق يجتمع الناس إليها كل سنة، فتعرض فيها الآدم والعمود والبرود والجواهر والخيول والإبل والشيء. وكانت عشورها لملوك الحيرة. ولم يُعرف موعد لقيامها^(٢).

- ج - سوق عكاظ

- لسوق عكاظ مكانة ممتازة بين أسواق العرب في نظر الباحثين، لأسباب (١) المحبر، ص ٢٦٨. وحنوز: المرجع السابق، ص ٥٢، ٥٤، ١٦٠ وما بعد. والألفاني: أسواق... ص ٣٠٦-٣١١.
(٢) بالوت: معجم البلدان، أذْرَعَات ودير أيوب. وانظر أيضاً: حنوز: المرجع ذاته، ص ٥٠، ٥٢-٥٤، ١٦٠ وما بعد. والألفاني: أسواق... ص ٣١٢-٣١٩.

ثلاثة على الأقل: الأول هو أن المصادر العربية الإسلامية تزخر بأخبار هذه السوق كما لم تزخر بأخبار أي سوق غيرها. والثاني هو أن سوق عكاظ فيما يختص بهذا المبحث كانت مكان اختبار لأداء مكة السياسي والعسكري في إدارتها للإيلاف، خلال حروب الفجار. والثالث هو أن وفرة الحوادث والمرويات عن هذه السوق تتيح أفضل فرصة لدراسة أسواق العرب وأثرها في تطوّر الحياة المشتركة فيما بين القبائل، ولملاحظة العوامل التي جعلت هذه الأسواق مراجل تنصهر فيها القبائل سنةً بعد سنة، على نار المواسم الحامية.

لقد لاحظ درادكة أن مكة سيطرت على أسواق عكاظ ومجنة وذوي المجاز التي كانت تقام قربها، وأضاف قوله إنه كانت لها أيضاً مراكز في بصرى وأذرع^(١). إلا أن مكة لم تسيطر على عكاظ لقربها. فقد كانت عكاظ أولاً لقبيلة هوازن القوية المروية الجانب. وكانت قريش تهيمن على أسواق بعيدة جداً عنها أيضاً. إذ كانت قوافل مكة آمنة في دومة الجندل بفضل الأحلاف. وأما سوق المشقر في منطقة الخليج، وكانت سوقاً عظيمة تستمر شهراً، فكان الناس فيها يتخفرون بقريش. وفي سوق حضرموت في الرابية قالت المصادر إن بني آكل المرار سادوا على سائر الناس بفضل قريش، على رغم أن قريشاً هي التي كانت مخفورة هناك، على ما جاء فيما سلف. ولذا قد يوحي القول إن قريشاً سيطرت على عكاظ القريبة، أن سبب السيطرة الوحيد هو قربها. وهذا غير صحيح، إذ يلاحظ أن دومة الجندل هي عقدة المواصلات بين مكة والحيرة وبين الخليج وبصرى. والمشقر هي من أعظم أسواق الخليج. والرابية هي سوق حضرموت أحد أهم مصادر اللبان. فإذا أضيفت إلى هذه، عهد الإيلاف التي أمنت تجارة مكة وقوافلها في الشام والحيرة واليمن والحشة لتبين أن هذه الشبكة المكتملة من العلاقات المكيّة تغطي كل متطلبات قيادة مكة للتجارة الدولية عبر جزيرة العرب. وقد ظلت سوق عكاظ تقوم لهوازن قرب مكة بلا اعتراض، حتى حاولت الحيرة أن تتجنب تسير قوافلها عبر مكة، وأن تسيرها

(١) درادكة: المرجع السابق، ص ٦١.

عبر الطائف إلى اليمن مباشرة. عندئذ فقط حدثت حروب الفجار وسيطرت مكة على عكاظ. وافترض أن مكة كان يُمكن أن تدع هوازن وعكاظ على حالهما لو انتظمت هوازن في سلك الإيلاف ليس افتراضاً بعيد الاحتمال.

وقد خصّص كلٌّ من الأفغاني وحَمُور فصلاً جيداً من كتابه، بسوق عكاظ^(١). واستعرضا معاني الكلمة المحتملة. فعكظه أي حبسه وعركه وذلكه وقهره ورد عليه فخره وصرفه ومطله. وعكظ به، افتخر. وتعكّظ القوم اجتمعوا وازدحموا. وتعاكظ القوم تفاخروا وتعاركوا وتجادلوا. وقيلت أقوال في سبب تسمية السوق، وهي أقوال تستند إلى هذه المعاني، وعلى الخصوص طبعاً: تفاخروا واجتمعوا وازدحموا. ولم يُجمع على رأي في هذا، وبقي الأمر مسألة تأويل وتكهّن واختلاف على ما بين ياقوت. وقد كان موضع السوق أيضاً مسألة اختلف فيها الرأي، إذ يُعتقد أن أرض السوق لم تكن ثابتة، ولم تكن لها حدود واضحة، فتتسع عاماً وتضيق عاماً آخر. ونقل ياقوت عن الأصمعي والواقدي أن موقع عكاظ كان بين الطائف ونخلة وذوي المجاز خلف عرفة ومجنة من بلاد الحجاز جنوب شرق مكة، في موقع اسمه الأثداء يبعد عن مكة ثلاثة أيام، وبينه وبين الطائف يوم. ووصف المكان بأن فيه نخيلاً. وفي هذا الموضع يُقال أيضاً إن حروب الفجار وقعت. ولا شك في أن عظمة السوق واتساعها لجمهور حاشد من الزوّار والقاصدين الحجّ، كان يقتضي اختيار منفسح كبير لها. وقد اتسع الموقع لقيام حروب الفجار. وهذا الاتساع يفسّر عقد السوق في مكان غير ثابت من هذا المنفسح. وكان الموضع في أرض هوازن، وكانت السوق لها. وهي قبيلة من قيس عيلان، من أكبر قبائل العرب. وكانت قريش تخشاهما وتحاذر مخاصمتها. ولذا اشتبه حَمُور بأن حروب الفجار وقعت رغماً عن إرادة قريش. وقد بينّا أن جميع أيام الفجارين نتجت من تحرش أحلاف مكة بهوازن. ولذا فالراجح أن مكة وقد ارتأت في تسير قافلة الحيرة تخفرها هوازن، عبر الطائف مباشرة إلى اليمن خطراً على تجارتها، كانت ترغب في منع ذلك، لكنها خشيت

(١) حَمُور: المرجع السابق، ص ٩٧-١٢٠. والأفغاني: أسواق...، ص ٢٤٢-٢٩٥.

بأس هوازن ولا شك. فتحرّشت بها على نحو غير مباشر، ولما رأت نفسها تميل إلى الانتصار سارع قرشي إلى اقتراح التفادي والهدنة. ولم تكن الحروب رغباً عن إرادة مكة. وإذا أنكر المكّيون مبادأتهم إلى القتال فلسبب وجيه، إذ إن حروب الفجار كانت انتهاكاً خطيراً للأشهر الحرم، ولم يكن يستقيم لمكة أن تنتهك صراحة أحد أهم أسس نظامها الديني والاقتصادي.

وكانت عكاظ حقاً أعظم أسواق العرب، أذ يحضرها سائر قبائل العرب وعرب الشام والعراق والخليج واليمن والبلاد المجاورة. فكانت تزدهم بالناس وتضيق على سعتها بهم، فيكسب التجّار في الموسم ما لا يكسبون مثله في أي موسم آخر. وفي رواية المرزوقي أنه لما «دخلت سنة خمس وثلاثين من عام الفيل حضر السوق من نزار واليمن ما لم يُعرف أنه حضر مثله في سائر السنين، فباع الناس كل ما كان معهم من عروض تجارية»^(١). وكانت لكل قوم من نزلاء السوق منازل خاصة بهم ينصبون فيها الخيام وترفع عليها راياتهم، فيدير شؤون كل وفد قبلي شيخ القبيلة أو رؤساؤها، فإذا غادر الناس مضاربهم إلى المعارض والأندية في رحاب السوق اختلط الناس والتقى اليماني بالشامي والحجازي بالعماني، وامتزجت القبائل في بحث شتى الأمور، من البيع والشراء إلى التباري في الشعر، فتبادل الروايات والتحدث فيما جرى منذ الموسم الفائت.

وأما موعد قيام السوق فقد تضاربت روايتان لابن حبيب فيه، إذ قال في المحبّر إنها: «كانت تقوم للنصف من ذي القعدة إلى آخر الشهر»، وقال في المنّوق ما يدلّ على أن عكاظ كانت تُقام في أول ذي الحجة وتنصرم في العشرين منه^(٢). وسبب هذا التنافر في الروايتين على الأرجح، أن ابن حبيب

(١) المرزوقي: الأزمنة والأمكنة، مجلس دائرة المعارف، حيدر آباد الدكن، ١٣٣٢هـ، ج ٢، ص ١٦٨.

(٢) المحبّر، ص ٢٦٧. والمنّوق، ص ٢٧٤، ٢٧٥. والواقع أن ابن حبيب قال: «فإن كان الحج في المحرم قام سوق عكاظ صبيحة ذي الحجة فتقوم عشرين يوماً بعكاظ، فإذا مضت العشر انصرفوا إلى مجتة». وكان ذلك في السنوات المكبوسة. وبذلك يعني أن موعد عكاظ هو أول ذي القعدة.

أغفل في المحبّر ذكر سوق المجنة التي كانت تستغرق عشرة أيام بين عكاظ وذو المجاز قبل بداية الحج. وإغفال هذه السوق، وقيام عكاظ عشرين يوماً جعله يستتج أن عكاظ كانت تقوم في العاشر من ذي القعدة بدلاً من أوله. وحين ذكر ابن حبيب سوق مجنة في المنّوق استقام حسابه، فجعل بداية عكاظ في أول ذي القعدة. وهذا هو الصحيح على ما نعتقد، وإلا لما ظلّ متسع لسوق مجنة بين عكاظ وذو المجاز، ولما كان لدينا تفسير مقبول لتناقض الأقوال. ولم يهتد حمّور إلى هذا التفسير، ولذا قال: «أما الموسم فالإجماع يكاد يكون منعقداً على أنها تقوم مع هلال ذي القعدة من كل عام»^(١).

واختلفت الأقوال أيضاً في سنة بدء قيام السوق. وكثير من المصادر يذكر أنها اتُخذت سوقاً بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة، أي سنة ٥٨٥ م. وقد عارض حمّور هذا الرأي محقّقاً، لأن خبر الفجار الثاني يجعل بدءها في السنة ذاتها على الأرجح. فمتى وقع الفجار الأول إذن؟ وأيد سعيد الأفغاني القول إن عكاظ قامت منذ سنة ٥٠٠ م. تقريباً. وفي تقديرنا أن عكاظ كان يمكن أن تقوم قبل ذلك، لأنها سوق لا تغلب عليها الصفة الدولية، بل الصفة العربية. ولذا فهي غير مرهونة بقيام قوافل التجارة الشرقية وازدهارها. والتجارة المحليّة حاجة كانت قائمة على الدوام. أما أن تكون السوق قد قامت في هذا المكان وتحت هذا الاسم، فذلك ما لا يسع امرأ أن يقول فيه قول اليقين.

أما بضاعة عكاظ فكانت تضم البرود اليمانية المخططة والموشاة والمسيرة بخطوط حرير، والزعفران والأصبغة والعلك والخضاب والبخور والعقيق، والمرّ والتوابل والطيب. تلك تجارات اليمانية. أما العمانيون فتجد عندهم اللؤلؤ من البحرين وتمور هجر وجوارها. وكان الشاميون يُحضرون الزبوت والزبيب والدقيق والقمح والأواني الزجاجية وأرجوان صيدا وصور وزيت السمسم والمصوغات الذهبية والفضية من البتراء والجنّاء من عسقلان. وكان الأعراب يبيعون الصوف والشعر والدهون والسمن والوبر والأنعام من إبل وغنم والجلود المدبوغة والأحذية

(١) حمّور: المرجع السابق، ص ١٠٧.

والأوكية. ولم تكن السوق تخلو من عطارين يحملون عطارتهم والأدوية والأعشاب والمسك والطيب والعطور، وبيطرة يعالجون الدواب، ونجارين وحُدادين ويزّازين يبيعون الثياب والسلاح. وقد اشتهرت في السوق الرماح الخطية المصنوعة في بلدة الخط على ساحل البحرين، والرماح الردينية، وكانت تصنعها امرأة من البحرين اسمها ردينة. أما أشهر الخمر في السوق فكانت تلك الآنية من بَصْرَى وغزة والأندرين التي ذكرها عمرو بن كلثوم في معلقته. وفي السنوات الأخيرة التي سبقت الإسلام ازدهرت تجارة الرقيق الحبشي والقيين الشامية.

وكانت عكاظ سوقاً حرة بالمعنى الحديث، فبضاعتها معفاة من العشور والمكوس. وكانت فيها شبه محكمة تجارية، خصوصاً بعد حلف الفضول وتعاظم نفوذ مكة والحمس، إثر حروب الفجار. وكان القضاء فيها لهوازن قبل الفجار وصار لكثافة بعدها. وقد أشاعت عدالة هذه المحكمة وأمن الشهر الحرام، الاطمئنان التام بين قُصّاد السوق، وكان ازدهارها هذا الازدهار العظيم منطقياً ومفترضاً.

وتروي المصادر ما قد يوحي أن في السوق كُتّاباً عُذولاً كانوا يتولّون كتابة العقود والمعاملات، إذ حضر عكاظ في أحد المواسم عمرو بن الشريد السلمي أبو الخنساء الشاعرة ومعه ابنه معاوية وصخر، فلما رآه مَعْمَر بن الحارث العذري أسرع مرحباً به وأمر أولاده بالقيام على خدمته وإكرامه. فلما انقضت السوق دعا عمرو بن الشريد ابنه وقال لهما: إن مَعْمَرًا قد طَوَّقني ما لم يطوَّقني أحدٌ من العرب بمثله وقد أحببت أن أكافيه فقالا له: إفعل ما بدا لك. فدعا «بكايب وصحيفة» وكتب: هذا ما منح عمرو بن الشريد السلمي مَعْمَر بن الحارث العذري... منحه قطعة أرض بين مكة ويثرب بما فيها وما عليها... وكتب لخمس وثلاثين عاماً خلعت من عام الفيل. بل إن عكاظ كانت فيها وسائل الإعلان للتشهير بمستهكي العهود أو بمرتكبي أعمال الغش أو التدليس، فقال المرزوقي: «كانوا إذا غَدَرَ الرجل أو جنى جناية عظيمة انطلق أحدهم حتى يرفع له رايةً غَدِرَ بعكاظ»، فيقف في القوم خطيباً ويعلن قائلاً: «ألا إن فلاناً بن فلان

قد غدر فاعرفوا وجهه ولا تصاهره ولا تجالسوه ولا تسمعوا منه. وقد حدّث ابن عباس أن ضباعة بنت عامر وهي من بني عامر بن صعصعة كانت متزوجة من هودبة بن علي الحنفي، فلما مات أصابت منه مالا كثيراً ورجعت إلى أهلها. فخطبها عبد الله بن جدعان إلى أبيها، فزوّجه إياها. فقام ابن عم لها وطلبها لنفسه، فقال أبوها: قد زوّجتها ابن جدعان، فحلف ابن عمّها ألا يدع ابن جدعان يصل إليها أبداً وليقتلنها دونه. فخاف الأب وكتب إلى ابن جدعان في الأمر، فقال له ابن جدعان: والله لئن فعلت هذا لأرفعنّ لك رايةً غَدِرَ بسوق عكاظ. فقال أبوها لابن عمّها: قد جاء من الأمر ما ترى فلا بد من الوفاء لهذا الرجل. ثم جهّزها وحملها إلى ابن جدعان^(١). ويدلّ هذا على أن عكاظ تحوّلت إلى مرفق مشترك لكل العرب في الجزيرة، بقصد كل من يرغب في نشر خبر. وفي ذلك نموذج لتحوّل الأسواق إلى مواقع عيش مشترك لم تلتق فيها القبائل على الصُّعد الاقتصادية أو الدينية أو اللغوية فقط، بل توحدت فيها قيمها ومعاييرها الأخلاقية والاجتماعية كذلك.

د- الأسواق وتوحيد اللهجات

وضع فون غرونباوم دراسة تناول فيه «الوحدة العربية قبل الإسلام»، وأفرد جزءاً وافياً من دراسته هذه لأثر الأسواق في توحيد لغة القبائل العربية وتقريب لهجاتها. ولاحظ أن خريطة اللهجات العربية كانت شديدة التلوّن منذ زمن طويل، وأن اللغويين المسلمين فيما بعد، وهم يبحثون عن أنقى اللغة وجدوا أن الفروق بين لهجات القبائل حتى ذلك الزمن لم تكن مما يُستهان به. فالتفاهم بين أصحاب اللهجات العربية المختلفة لم يكن مطلقاً. وكانت ثمة فروق بين لهجات البدو والحضر. وكانت تلك أيضاً نوعاً من العقبات دون التفاهم. وكانت لهجة كلب في مناطق حكم بيزنطة تبيّن عن لهجة البادية أكثر من لهجة ربيعة على ضفة الفرات مثلاً، إذا اتخذت لهجة الداخل في عمق الجزيرة معياراً ومقياساً. بل ذهب بعضهم في تمييز اللهجات إلى أن الحي داخل القبيلة

(١) المرزوقي: الأزمة...، ج ٢، ص ١٦٨، ١٦٩. والافغاني: أسواق...، ص ٢٧٨ - ٢٨١. وحَمُور: المرجع ذاته، ص ١١١ - ١٢٠.

الواحدة كان أحياناً يقترب في لهجته من لهجة حي من قبيلة أخرى، ولذا لم تكن القبيلة دائماً وحدة لغوية. وغالباً ما كانت حدود اللهجات تقسم قبيلة وتجمع أقواماً من قبيلتين وفقاً لتعاطيهما عيشاً مشتركاً^(١). إن نوعاً من هذا العيش المشترك وقره الإيلاف حين نشط الأسواق والمواسم وحسن فرص ازدهارها. وأوضح ما لدى الباحثين من مظاهر نزوع اللهجات إلى التقارب من جراء الاحتكاك، ما كان يجري في عكاظ من مساجلات شعرية. إلا أن هذه المساجلات كانت تجري على صعيد لغوي راق هو صعيد لغة الفصاحة عند العرب، وهي حتماً غير لغة التخاطب اليومي التي كانوا يتداولونها. ولاحظ فون غرونيباوم هذا التباين من صعيد إلى صعيد، لكنه قال إن ظهور لغتين متوازيتين بين العرب الشماليين، واحدة هي لغة الفصاحة والأخرى هي لغة التعامل اليومي، ضمن على ما يبدو الاتصال والتجانس بين العرب. وقد ارتأى أن لغة التخاطب اليومي استخدمت في التجارة في المراكز الحجازية، فيما كانت لغة الفصاحة لغة الأسلوب المحرود للمصطلح البدوي في وسط الشمال، لغة الشعراء. وقال فون غرونيباوم إن تفحص مفردات الشعر الحاملي تظهر ربما ست مدارس لغوية تكاد تكتسحها تقاليد لغوية عربية عامة، أخذت مفرداتها تتكون من جراء امتزاج هذه المدارس الست. وهذا النزوع نحو تطوير لغة أدبية من خلال الاستيعاب والتراكم، أسهم في جعل هذه اللغة مقبولة سلفاً. ولا بد مع ذلك من أن نلاحظ مساراً انتقائياً كان يفعل فعله دون أن يكون إدراك الحافظ عليه سهلاً^(٢). وعلى رغم وجاعة ملاحظات فون غرونيباوم هذه، فإنه أخطأ في قوله إن الإصرار على وضوح التشردم اللغوي الحاد، يعني الإصرار على حجز هذا التشردم عن تدمير الحس الاجتماعي الذي جمع العرب الشماليين كوحدة ثقافية. ذلك أن هذا القول يوحي أن التشردم اللغوي، أي تعدد اللهجات في هذه الحال، هو وضع قائم جامد. وهو ليس كذلك لأنه كان في هذه المرحلة على الخصوص من التاريخ العربي، مرحلة الانتقال من الكهان البدوي المستقل، إلى العيش

(١) Von Grunbaum: The Nature of the Arab Unity... pp. 13, 14

(٢) Von Grunbaum: Ibid., p. 14

المشترك، وضعاً متحركاً، يتنقل من حال إلى حال. فمما سقاه فون غرونيباوم امتزاج المدارس الست ونشوء لغة أدبية بالاستيعاب والتراكم، ضيق هوامش التشردم هذا، وتقارب بين اللهجات. فلم يكن التضام بين أصحاب اللهجات المختلفة مطلقاً، هذا صحيح. لكن عدم التضام لم يعد مطلقاً. ولولا ذلك لما أمكن لأسواق العرب ومواسمهم أن تزدهر هذا الازدهار. كانت عكاظ ملتقى العرب للنشاط الاقتصادي والاجتماعي وهما نشاطان قد يكتفيان باستخدام لغة التعامل اليومي، لكن هذه السوق كانت أيضاً ملتقى العرب لتبادل الأفكار والأشعار ولتنقية اللغة وتصفيها وتوحيدها. فكان يؤم السوق الشعراء والخطباء والحكماء يعرضون شعرهم أو يخطبون في الناس من مختلف القبائل ويتساجلون. وكان منهم ولا شك أن يفهمهم الجميع. وكان بعض المبشرين يفتشون هذه السوق وغيرها لأديانهم، فكانت متدى عاملاً اهتمت فيه عوامل التوحيد الثقافي واللغوي احتمالاً أكيداً^(١).

وكان الشعراء في عكاظ يخضعون لمعيار واحد لا غير، قيل إنه معيار قريش في الفصاحة واللغة. إذ جاء في المفضليات أن حماداً الراوية قال: كانت العرب تعرض أشعارها على قريش، فما قبلوه منها كان مقبولاً، وما رقدوه منها كان مردوداً. فقدم عليهم حلقة بن قَبَّة النخعي فأنشدتهم قصيدته التي قال فيها:

هل ما علمت وما استودعت مكتوم أم حبلها إذ نأتك اليوم مصروم
لم أدر باليهن حتى ازعمروا ظفناً كل الجمال قبيل الصبح مزوم
فقلت قريش: هذا بسيط الدهر. ثم عاد حلقة إلى قريش في قابل، فأنشدتهم قصيدة قال فيها:

عفا بك قلب في الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب
يكلفني ليلي وقد شط عهدهما وعلدت عواد بيننا وخطوب
إذا غاب عنها البعل لم تفسر سره وترضي أهب البعل حين يؤوب

(١) الألفاني: أسواق... ص ١٠، ١٧٧، ٢٩١. والشراف: المرجع السابق، ص ٨٦، ٨٧.

فلان تالوني بالنشاء فلاني بصير بادوا النساء طبيب
إذا شاب رأس المرء أو قل ماله فليس له من وديع نصيب
فأجازت قريش قصيدته هذه على أنها سمط الدهر أيضاً. ولما فك
عمرو بن كلثوم بعمرو بن هند ملك الحيرة أحب أن تسر معلقته الشهيرة:
الاهني بصحنك فاصحبنا ولا تبقي خموراً الأندلسنا

في الناس، لسمي إلى سوق عكاظ، حيث كتب لها الخلود، وفنت في
القبائل كلها. ولولا أن هذه لغة فصاحة مشتركة، أو قريبة إلى أفهام جميع قبائل
العرب التي كانت تؤم عكاظ، لما كان الأمر معقولاً ولا مفهوماً. بل إن لدينا من
الشعر العربي نفسه ما يفصح صراحة عن مكانة عكاظ اللغوية والأدبية، وأثر هذه
المكانة في تقرب اللهجات. ففي إحدى القصائد مما أمة بن خلف الخزاعي
حسان بن ثابت، وأبدى رغبته في نشرها في الناس بمكاظ إذ قال:

الامن مبلغ حسان عني مغلغلة تدب إلى عكاظ

فأجابه حسان بقصيدة أعرب فيها عن رغبة مماثلة:

سأنشر إن بقيت لكم كلاماً ينشر في المجنة مع عكاظ^(١)

وقول حسان هذا يحزم بأن القصائد لم تكن تلقى في عكاظ فقط، بل
كانت تنتشر منها إلى الأسواق.

ومن السذاجة بمكان أن نظن أن المعلقات السبع والقصائد والخطب
وحدها كانت تفعل فعلها التوحيدي، فتشبه لغة الفصاحة عند العرب. ذلك أن
أحداث التجارة والمجتمع والحرب والسلام والسياسة والعصبة والأحلاف
والخلع وما إلى ذلك من شؤون الحياة اليومية، كانت تشكل مساحة تماس أكبر
بلا قياس من مساحة التماس التي كونتها القصائد والخطب. ويحتمل أن يكون
التقارب على صعيد لغة التعاطي اليومي قبل الإسلام أكبر من التقارب الذي

(١) الأغاني، ج ٢١، ص ١٩٩ - ٢٠٤. وكذلك ج ١١، ص ٥٠ - ٦٠. وتاج العروس: مادة
عكاظ. وحمور: المرجع السابق، ص ١١٨ - ١٥٢.

أحدثته الأسواق على صعيد لغة الفصاحة، وهو أمر لا بد أنه انقلب إلى الضد
بعد الإسلام بسبب انتشار القرآن الكريم. لكنه يبدو أن لهجة قريش كانت العامل
المؤثر في المرحلتين، على رغم قول بعض الباحثين إن لهجة نجد ارتقت إلى
مرتبة الفصاحة عندما ساد ملوك كتلة على بقية القبائل. ولا شك في أن لغة
الشعر الجاهلي ومفرداته أدخلت مع الوقت تقترب كثيراً من لغة القرآن الكريم
الذي اصطُح على أنه أنزل بلسان قريش. وقد تكون لغة قريش هي التي اختريت
من اللغة الفصحى بفعل التماس في الأسواق. وكانت هذه اللغة قد سادت في
العصر النبوي في كل أنحاء جزيرة العرب تقريباً. وكانت الوفود إلى النبي في
المدينة تتكلمها بطلاقة، فيما كانت وفود النبي إلى العرب، مثل معاذ بن جبل،
لا تلقى صعوبة في مهنتها. ومع أن اللغة العربية الفصحى انتصرت انتصارها
التام بالقرآن وظهور الإسلام، إلا أن الطريق كان ممهداً تمهيداً جيداً بفضل فعل
الأسواق في تقرب اللهجات^(١).

ولاحظ كل من جواد علي وحمور أن اللهجة القرشية حين قاوت لهجات
العرب وقُلصت الفوارق بينها، إنما كانت في الوقت نفسه تقضي على اللغة
الحميرية. فهل كانت لانهيار دول اليمن وللغزو الحبشي مساهمة في تغليب لهجة
قريش العربية الشمالية، مثلاً كانت لهذه العوامل مساهمة في تسليم قيادة التجارة
من اليمنيين إلى القرشيين؟ إن الوجود في البحث اللغوي ليس من مهام هذا
المبحث التاريخي. لكنه لا يسهل الباحث إلا أن يلاحظ توازي المسارين. ففي
نفوس المسند التي نقتت في العهود القريبة من ظهور الإسلام مثلاً اخضت
أوزان الأسماء الحميرية القديمة المرتبة التي كانت سائدة قبل الميلاد وبعده.
وأخذت الأسماء تتسم بسمات أقرب إلى الأوزان العربية. أما في داخل الجزيرة
العربية، فأخذت تنحسر هُتوات كثيرة في لهجات القبائل، مثل صنعة تميم
وكشكشة ربيعة وتَضُجع قيس وتلثة بهراء وعبرية ضبة وغمغمة قضاة،
وتفسرها في لسان العرب. ولقد كانت أسواق العرب، وعكاظ على
الخصوص، المصفاة التي نقت اللهجات من الشوائب، والمجمع الذي اجتمعت

(١) Germanus: op.cit., pp. 267, 268.

عنده المفردات، والحكم الذي أخذ يتخبط ويتنفي أرقى اللفظ والتعبير، حتى قال قتادة بن دعامة السدوسي: كانت قريش تنجي أفضل لغات العرب حتى غدت لغتها أفضل اللغات واللهجات فنزل القرآن بها. ولو أتبع كل شاعر أو خطيب لهجة قومه ولغة قبيلته وحدها لم يجد من يستحسنها غيرهم ووقفت عن الشهرة ولم تزوها القبائل العربية الأخرى، فيفوته بذلك الافتخار بها^(١).

- هـ- آثار الإهلاف الاجتماعية

ومثلما نحتاج آثار الإهلاف اللغوية إلى دراسات لغوية خاصة لا يمكن أن يغني عنها باب في مبحث يحتفل بأمر أهم، كذلك آثار الإهلاف الاجتماعية. لكن إغفال هذه الآثار تماماً قد يوهم بغفلة الباحث عنها، وليست تلك هي الحال. وحسب المبحث أن يذكر هذه الآثار ويشير إليها ببعض التحليل، ويلفت النظر إلى ضرورة انصراف الباحثين في التاريخ الاجتماعي إلى التعمق فيها، حتى يتعمق فهم العرب لماضيهم الاجتماعي، ضمن محاولات فهم ماضيهم على كل صعيد.

إن أوضح آثار الإهلاف الاجتماعية قد تكون العلاقات التي استحدثتها نظام الحمس بين قريش وبعض القبائل. وهي آثار تبدو أشبه بما يترتب على الحلف القبلي التقليدي. ففي خبر البلاذري في أنسابه عن حروب الفجار، رواية قتل البراء حروء الرخال، ثم قول البلاذري: «ولقي [البراء] بشر بن أبي حازم الأسدي الشاعر... وحلّده أن يسبق الخبر إلى قومه [قوم الرخال] فيكتموه ويقتلوا به رجلاً من قريش عظيماً، لأنهم لا يرضون أن يقتلوا به خليعاً من بني ضمرة»^(٢). ويلاحظ في هذا الخبر أن بني كنانة الحمس، والبراء وبنو ضمرة كانوا منهم، متضامنون في الثارات مع قريش من جراء نظام الحماسة، الذي يقتل فيه قرشي بدلاً من كناني سواء بسواء. وإذا كان الخبر يعني في ظاهره أن

(١) الهمداني، الحسن بن أحمد: الإكليل، تحقيق محمد علي الحوالي، ج ١، ص ١٣ وما بعد. وانظر أيضاً السنان، مراد كسر وكش وعرف ونلل. وكذلك جواد علي: ج ١، ص ٩٢. وحقوق: المرجع السابق، ص ١١٥ - ١١٩.
(٢) البلاذري: الأنساب... تحقيق حميد الله، ص ١٠٠، ١٠١.

بين الكنانين والقرشيين حلفاً تقليدياً كالذي بين أي حلبيين قبايلين، فالتدقيق فيه يظهر أن هذين الحلبيين لم يكونا متساويين تماماً في المكانة ضمن التحالف. ذلك أن البراء أراد أن تُلز قريش، حتى لا يقتل رجل من عظمائها، بدلاً من قتله هو الصعلوك الخليع من بني ضمرة. وإذا بدا هذا ضرباً من ضروب الكتاب المسلمين في تعظيمهم لقريش إكراماً للنبي، فثمة ما يبين أن قريشاً كانت فعلاً تحتل مكانة الشرف بين القبائل العربية قبل الإسلام. ففي السيرة يقول ابن هشام: «قال كعب بن الأشرف وكان رجلاً من طيء... حين بلغه الخبر [عن موقعة بدر]: أحق هذا؟ أترون محمداً قتل هؤلاء... هؤلاء أشرف العرب وملوك الناس»^(١). إن قول كاتب سيرة النبي هذا القول في قريش وهم على شريكهم وفي موقعة كان خصمهم فيها النبي، يعني أي شك في صحة القول إن شرف قريش على باقي العرب كان سابقاً للإسلام. وقد ذكر الجاحظ أن الإسلام لما ظهر، ولم تكن هناك أمة امرأة قرشية كانت مسيئة عند غير قريش، ولم تكن هناك أمة امرأة مسيئة في أيدي القبائل وأماها من قريش»^(٢).

وقد توسع مفهوم التقدّم على باقي العرب فشمّل مع قريش سائر الحمس. فصار أي زواج بين قرشية ورجل من سائر القبائل ينجب حُماً جديداً. ونسل هؤلاء الحمس الجدد كانوا يُعلّون حُماً أيضاً^(٣). ولما تعاضل نفوذ قريش وتطور نظام الحماسة أصبح الكنانيون أنفسهم يستظفون أن تُسمى منهم امرأة. ففي «نشوة الطرب»، أن عروة بن الورد العبي وأصاب امرأة من بني كنانة بكرة يُقال لها سليبي وتكنى أم وهب فأعتقها واتخذها لنفسه، فمكثت عنده بضع عشرة سنة وولدت له الأولاد وهو لا يشك أنها من أرغب الناس فيه، وهي تقول: لو حببت فأثّر على أهلي فأراهم. فحج بها وأتى مكة، ثم أتى المدينة، فأتت سليبي قومها، وقالت إنه خارج قبل أن تخرج الأشهر الحرم فتعالوا إليه وأخبروه أنكم تستحيون أن تكون امرأة منكم معروفة النسب صحيحة الحسب مسيئة

(١) سيرة ابن هشام: ج ٢، ص ٤٣١.

(٢) جواد علي: ج ٦، ص ٣٦٥، عن كسر عن مخطوطة للجاحظ غير منشورة.

(٣) جواد علي: ج ٦، ص ٣٧٧.

وافقدوني منه، فإنه يظن أنني لا أفارقه ولا اختار عليه أحداً... إلى آخر القصة، حتى اقتداها ذووها وحرمت على مفارقة زوجها. ويقول الأندلسي: «ثم فارقت، فتزوجها ابن عم لها، فقال لها يوماً: يا سَلَمَ، أنني عليّ كما أننت على حرة فقالت: لا تكلفني ذلك، فإني إن قُلْتُ الحق غضبت، ولا - لا واللات والغزى - أكلب عليك!»^(١). فإذا استطقنا هذا الخبر، فإن كراهة أن تُسَي امرأة من القبيلة هي كراهة عامة لدى جميع القبائل ولا شك. وليس من قبيلة تستحسن أن تُسَي نسلها. أما في هذا الخبر فإن المرأة السيئة كانت أرغب الناس في زوجها، على نحو ما تبين، وهذا يفرّج الشك في أن كنانة، فوق كراهة السيئة، كانت ترى نفسها في مرتبة أشرف من أن تقبل بالسي. وكانت هذه المرتبة هي مرتبة الحمس.

على أن ثقة قريش وأحلافها وأحساسها بتقدمهم في الشرف، لم تُغضِر بالقيادات المكيّة إلى سلوك العزلة الاجتماعية. وكانت مصلحة قريش المالية والتجارية تقتضي تفتيح تفتيح علاقاتها بالقبائل. وقد قال لامس إن أفضل وأدق المعهود مع القبائل ما كانت تستطيع أن تحمي القوافل المكيّة من الغارات. وكان المكيّون يستمرون قسماً كبيراً من رأس مالهم بفائدة في الطائف أو يثرب أو عند زعماء القبائل البدوية. وكان الباقي مستمراً في التجارة أو المناجم. وكانت مناجم الذهب والفضة آنذاك لا تزال غنية جداً، ودخلها عظيماً على رغم الوسائل البدائية المستخدمة في استغلالها. وكانت المناجم في ديار القبائل، فكان على القرشيين أن يتضاموا مع زعمائها. ولذا أصهرت العائلات المكيّة المقنطرة في القبائل أو صاهرتها، فكانت هذه المصاهرات المتبادلة أسباباً لا تنقطع، شكّت القبائل إلى الدوران في أفلاك مكة وتجارها ومصالحها^(٢). وكان القرشيون يشترطون على من يهجرهم أن ينتهي إليهم، من طريق نظام الحماسة، ويرون ألا يجوز زواج من قرشية حتى يدين زوجها إليهم ويتبع مبادئهم. ولم يكن أبناء

(١) الأندلسي: نشرة... ص ٥٣٦، ٥٣٧.

(٢) Lammen: Les Grandes Fortunes... p. 24 (٢)

القبائل الأخرى يتمنون أفضل من ذلك لتعاظم صيت قريش في العرب^(٣). وتحفل أغاني الأصفهاني بحوادث تروي الكثير عن العلاقات بين المكيين وسائر العرب. وهي علاقات لم تنحصر في الحجاز أو جوار مكة، بل كانت تمتد حتى الحيرة على الأطل، ولم تكن نادرة. فيقول الأصفهاني مثلاً في مسافر ابن أبي عمرو بن أمية، إن له شِعْراً ليس بالكثير، «والآيات التي فيها الغناء يقولها في هند بنت عتبة وكان يهاها. فخطبها إلى أبيها بعد فراقها الفاكه بن المغيرة، فلم ترض ثروته وماله. فوجد على النعمان يستعينه على أمره ثم عاده. ويقول في رواية أخرى: «فخرج حتى أتى الحيرة، فأتى عمرو بن هند فكان ينادمه. وأقبل أبو سفيان بن حرب إلى الحيرة في بعض ما كان يأتيها»^(٤).

ونعلم الكثير عن وفود النابغة الذبياني على النعمان وعلى بني جيلة الفساسة، ثم اعتذاره شِعْراً للنعمان، ونعلم الكثير عن اختلاف امرئ القيس إلى شمال الجزيرة العربية وجنوبها، وعن عمرو بن كلثوم ووفوده على الحيرة وقصته مع عمرو بن هند. وتلك إن هي إلا ما بقي لنا بفضل الشعر. وليس فيها ما يتعلق مباشرة بعلاقات مكة الاجتماعية بالعرب كافة. لكن هذا النشاط الاجتماعي العربي العام في الجزيرة وعبرها، نموذج لما كانت عليه العلاقات الاجتماعية التي لم ينس لها أن يخلد شعر، بسبب طبيعتها التجارية أو المالية أو السياسية^(٥)، وكان محورها إيلاف قريش وقوافلها، ورحلة الشتاء والصيف وما كان من أمر المواسم. وقد تعاظمت هذه العلاقات الاجتماعية بفضل المواصلات التجارية والمصالح المشتركة، حتى أصبحت للعرب قيم خلقية واجتماعية متشابهة، وأضحى المدح والذم في الشعر على مرأى من جميع العرب. وأدى الإحساس بالوقوف على مسرح مشترك أمام جمهور مشترك إلى نحت معايير ومقاييس موحدة في السلوك الاجتماعي^(٦).

(١) الأزرلي: ج ١، ص ١٢٣. وانظر أيضاً الشريف: المرجع السابق، ص ١٨٩.

(٢) الأغاني، ج ٩، ص ٥٠.

(٣) الأغاني، ج ١١، ص ١٩، ٥٣.

(٤) Von Gränebaum: op. cit., p. 19 (٤)

وتناول مونتغمري - وات آثار الإهلاف الاجتماعية من زاوية مختلفة، تتعلق بسلوك الفرد حيال الجماعة، بعد تراكم الثروات التجارية. فقال إن العيش في الصحراء في المعتاد شديد القسوة، إذ أن الطعام والماء نادرا، والقبيلة التي لا تُعطر أرضها تضمحل. ومبدأ الندرة يحتم الصراع على الموارد المتوفرة، فيصبح الغزو والقتال سلوكاً يومياً ضرورياً. ولا يعود البقاء ممكناً إلا إذا تمتعت زعامات القبيلة بصفات الامتياز البشري في الحرب والقيادة وسياسة الرجال وجه الصعاب. ولكن في مقابل الحرص الشديد على أبناء القبيلة، في نظام العصبية والنار لضمان نوع من الدفاع المشترك، كان أبناء القبائل الأخرى بمثابة أشياء في أحسن حال، وأخصام في معظم الأحوال. ولذا كانت عصبية القبيلة، أي تضامن القوم على أساس النسب، هو مبدأ الضمان الاجتماعي والأمن العام.

وقد تبدل هذا مع تعاظم مساهمة التجارة في المجتمع البدوي. فالتجارة أحدثت وفرة في الثروات الشخصية، وحفزت الأفراد على امتلاك الأرض والبهوت والكروم. وفي مثل هذه الظروف ينجح الناس إلى السلوك الفردي، وتتهافت مشاعر التضامن الجماعي والعصبية القبلية، في بحث كل من مصلحته الخاصة. وكانت لزعامات القبائل امتيازات، منها ربح الغنائم في الغزوات والحروب. لكن على الزعامات في المقابل تبعات كان منها أداء عدد من المهام نيابة عن القبيلة، والقيام على واجب الضيافة وإعانة فقراء القوم على عيشهم. ومع أن زعماء البطون القرشية أقاموا ثروتهم في المبتدأ، على زعامتهم للبطون، باقتسامهم الوظائف المكينة وتنظيمهم الفرائض والمواسم والحج، إلا أنهم أخذوا فيما بعد يُعرضون عن التقليد البدوي والملكية الجماعية، ويهتمون لأنفسهم وورثتهم المباشرين من بعدهم. وإذا اضطرب مبدأ الورثة، كان كثيراً ما يستولي الأقرباء من زعماء القبيلة أو البطن على الميراث، فيحرمون الورثة والمحتاجين من القبيلة على حدٍ سواء. وقد شهد على حدة النزوع الفردي هذا، القرآن الكريم فيما لا يحصى من آيات تحث على الإحسان إلى الأرحام واليتامى وعلى منع استيلاء الأقرباء على الموارث وتنظيم اقتسامها بين الورثة الشرعيين. وقد جاءت هذه النظم مع إقرار القرآن الكريم الملكية الفردية. فالإسلام في نظامه

الاجتماعي اعتمد المسؤولية الفردية، التي يحاسب فيها كل امرئ على فعالة، ولا يؤخذ بحريرة قريب أو نسب. ونظام المسؤولية الفردية هذا يناقض، مثلما أسلفنا في باب: مكة والتوحيد الديني، نظام العصبية القبلية الذي كانت تُحاسب فيه القبيلة كوحدة اجتماعية مسؤولة عن فعالة أفرادها. وقد لمس مونتغمري - وات هذا التطور بين حسن الانتماء إلى العصبية القبلية وحسن الانفراد والملكية الخاصة والمسؤولية الشخصية، وقال إن نظام القبيلة كان لا يزال قوياً في بعض المظاهر، لكن البدوي في مظاهر أخرى صار لا يتردد في الإعراض عن مقتضيات صلة القرابة والنسب. وكان هذا التطور الاجتماعي في المبتدأ نتيجة للحياة التجارية وتعاظم مكانة المصالح المالية التي أخذت تملئ على البدوي من يشارك من يهاجر^(١). ولاحظ فون غرونبوم هذا التشطّي في أساس الانتماء القبلي، لكن هذا التشطّي لم يفتت مجتمع الجزيرة العربية على ما يمكن توقّعه، بل على نقيض ذلك، مهّد لوحدة اجتماعية متعاظمة، قامت في رأيه على نظرة مشتركة وضمت جميع العرب (والمزدوجات من عند فون غرونبوم) ضمن العالم الاجتماعي ذاته. وكان الاشتراك في أنماط المثل البشرية العليا، والموقف الموحد حيال مهمة الفرد ضمن المجتمع، والقلق المشترك في صدد أحوال الناس، روابط وحدتهم على أسس جديدة^(٢).

- و- آثار الإهلاف السياسية

ارتأى فون غرونبوم أن حسن الانتماء السياسي إلى العرب كان أصلاً مُركّزاً في القبائل العربية. ولم تستطع أحلافها القصيرة العهد وتقاتلها الأزلي، أن تُزيل حسن الانتماء هذا. وإذا كانت الوحدة تفترض الثقافة الواحدة مقرونة بالبنية الاجتماعية والسياسية الموحدة، فإن مفهوم الوحدة الثقافية التي تسبق الوحدة

(١) Montgomery-Watt: Economic..., pp. 91 - 93. وكذلك: Mohammad at Mecca...

pp. 16 ff, 72. وأنظر: Rodinson: op.cit., p. 36 ff. وتحدث يهون كذلك عن ظهور الشعور

الفردى بسبب التجارة. يهون: الحجاز...، ص ٨٦، ٩٠. وقد تنبّه بلاتول إلى هذا الشأن

وعالجه معالجة جيدة. Planhol, p. 28.

(٢) Von Grunebaum: op.cit., pp. 16, 17.

السياسة، كان في العموم قائماً إلى حد كبير بين قبائل العرب قبل الإسلام^(١). وقد لاحظ فون غرونبوم أن وحدة الثقافة والمجتمع كانت في الحقيقة أشد وأقوى مما توحيه المصادر. والفضل في نشوء هذه الوحدة لسكان مدن الحجاز الذين وحدوا نسباً شمال غرب الجزيرة في منطقة اقتصادية، فساهمت هذه بدورها في تجميع القبائل ضمن إطار ثقافي موحد. وكانت القوافل التي وصلت أقصى جنوب الجزيرة بالشام ومصر، والبحر الأحمر بالعراق، تحتاج إلى مستقرات في المدن والواحات، تستخدمها محطات، إن لم تكن هذه المستقرات هي نفسها مراكز هذه القوافل، لا محطاتها فقط. وكانت مكة مخزناً ومحطة أخيرة لتجارة القوافل هذه. وفيما كان الاتصال والاجتماع في عكاظ وغيرها من المواسم، عوامل خطيرة في تطوير حس الوحدة، فإن تشابه النمط الاقتصادي أدى فعله أيضاً في ذلك. ولم يكن للفروق بين رعاة الإبل ورعاة الغنم وغيرهم، أن تنشئ فروقاً أساسية في حس الانتماء هذا. فعلى رغم بعض الأنماط المعزولة، مثل تربية النحل في هذيل، كان النشاط الاقتصادي عند القبائل ووفرة عيشها متشابهين في الأساس^(٢). وقال فون غرونبوم إنه لم تكن لدى العرب قبل الإسلام «فلسفة سياسية واحدة تستلزم ضمائرهم وأعمالهم حول غرض ورمز». لكن مفهوم لفظة «العرب» ومضمونها كانا أشبه بالضمير الجماعي الذي يصعب تعريفه على الرغم من أنه كان كافياً لإنماء الحس القومي المشترك. ذلك ما يستنتج من قولهم في امرأة مثلاً: «إنها والله عربية اللسان وقلبيها أعرب منها». وقد أحصى وجوه استخدام كلمة العرب، قبل الإسلام على النحو التالي:

- في تصنيف جماعة من القبائل، مثل قولهم: «نميم أغلظ العرب وأجفاها»، أو في وصف جماعة بصفة يمتازون بها مثل قولهم: «دهاة العرب»، وحمقى العرب، وما إلى ذلك.

(١) يشير فون غرونبوم إلى فكرة ما يهيك الذي يرى أن وحدة اللغة أو ما يسميه «أمة اللغة» الواحدة (Kulturnation)، تنبئ وحدة الدولة، أو ما يسميه «أمة الدولة الواحدة» (Staatsnation)، أنظر 6, 7. Von Grunebaum: op cit., pp 6, 7.

(٢) Von Grunebaum: op cit., pp. 6, 7, 17.

- في ذكر عادة من العادات التي أجمعت عليها القبائل، مثل قولهم: «إن العرب كانت ترتجع في قضاياها المشككة إلى حكيماها عامر بن الظرب»، أو مثل قولهم: «والعرب تسمي الأمة فرقتي».

- في الحكم على شاعر أو رجل من رجالها أو حكيمة من حكامها، مثل قولهم: «كان الأفوه الأودي واحداً من حكماء العرب»، أو مثل قولهم: «كان الشاعر المخضرم سويد بن أبي كاهل من أفضل شعراء العرب».

- في شيوخ شعر أو حكمة بين سائر القبائل بفضل قصة مشهورة، مثل قولهم: «وذبحت مثلاً عند العرب».

- في اتخاذهم إجماع القبائل على أمر ما، نوعاً من الضمير الجماعي أو المحكمة الخلقية أو المعيار في قياس الخير والشر والفضة والشرف، وما شابه ذلك من قيم ومثل، وذلك في مثل قولهم: «وأعظمت العرب قريشاً»، أو قولهم: «والعرب لا تفعل هذا، وتستبحه». ومضى فون غرونبوم إلى القول: «وبذلك بدا العرب مجموعة واسعة من الناس غامضة التعريف، لها ذكريات تاريخية وسياسية مشتركة، وقد تحولت على الخصوص إلى جمهور يتعين على الفرد وعلى القبيلة أن يؤديها أمامه أداة جيداً، وكأنهما أمام محكمة دائمة»^(١).

وإذ لاحظ أن لفظة العرب قلماً ظهرت في الشعر العربي الجاهلي، مر مرور الكرام بما قال إنه استثناء في النقائص، حيث استخدمت لفظة العرب للتمييز بين العرب والفرس في وقعة ذي قار^(٢). إن أدب العرب الجاهلي فريد بين آداب الأمم في أنه في معظمه أدب تخاطب ومساجلة. وذلك هو الحال على الأقل في المدح والذم والتفاخر. وقلماً تجد أمماً يحتل التخاطب بين القبائل أو الوحدات

(١) التوحدي في البصائر والذخائر، استشهد فون غرونبوم: Von Grunebaum: op.cit., pp. 20 - 23. لهذه الوجوه في استخدام لفظة عرب راجع إلى منظور: اللسان، مادة فرتن. والأندلسي: نشرة... ص ٧٩، ٥٩١، ٦٩٣، ٧١٤. والأغاني، ج ٥، ص ١١٨. وكذلك الأزلي: ج ١، ص ١٢٢، ١٢٤.

(٢) Von Grunebaum: ibid., p. 20.

الاجتماعية هذا النصب من ادبها. والتخاطب في داخل أسرة واحدة لا يمكن أن يستخدم اسم الأسرة. فلا يعود هذا الاسم ضرورياً إلا حين التخاطب أو التعاطي خارج الأسرة. وإذا كانت لفظة العرب قد ندرت في مواضع وظهرت في مواضع، فلأنها ندرت في التعاطي بين قبائل العرب والتخاطب فيما بينها، وهو معظم آداب عرب الجاهلية، ثم ظهرت حين دخل الفرس في إطار الموضوع. وقد كانت للعرب نطفة فلسفة سياسية واحدة استقطبت ضمائرهم وأعمالهم حول غرض ورمزه، وهي النطفة التي نشأت حول مكة فقاتلت القبائل أبرهة دفاعاً عنها. وظهرت هذه النطفة كذلك في التأيد الذي أبداه النبي حيال وقعة ذي قار. لكن هذه النطفة التي بدأت تتكون حين أخلت مكة نبي دورها التوحيدي في العرب، لم تولد ولادة شرعية كاملة إلا بظهور الإسلام. لجهاد الإسلام: «رَحْمَةُ لِلْعَالَمِينَ» (النمل: ٧٧) أي ليست حاجة البشر إلى عهدة دينية وسياسية واجتماعية تستقطب ضمائرهم وأعمالهم حول غرض ورمزه. فتخرج نزوعهم إلى رفض غزو أبرهة وسيطرة كسرى، وإلى بناء وحدتهم على دستور جديد، وتخرج توفيقهم إلى النهوض بمشروعهم المستقل المعبر عن حاجاتهم وخير مجتمعهم.

ولم يكن قبلهم للإسلام، إلا دليلاً على هذا النزوع، الذي ظل عقوداً طويلة يحتل بإحساس وتامل غامضين، ويتنظر ظهور قيادة المشروع المستقل في مكان ما من أمة العرب.

الفصل

أ - النبي وقوافل قريش

حاولت هذه الدراسة أن تبين كيف وُلد الإيلاف، وكيف نما وازدهر ونشأت من حوله المؤسسات، وتعاظمت آثاره الدينية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية. فكيف مات الإيلاف ولماذا؟

لقد مات الإيلاف على مرحلتين، فالمرحلة الأولى كانت مرحلة غزوات المسلمين لقوافل قريش في السنوات الأولى للهجرة. إذ ارتأى النبي بعد تنظيمه جيش المسلمين في المدينة، واستمرار مكة على الشرك وعدائها للمسلمين، أن أعظم نقاط ضعف قريش هي تجارتهم. وهي حتماً أشد المواضع إلحاحاً لهم، إذا ضربت. فنظم المسلمون غزوات حول مكة وعلى طرق تجارتها، ترقى إلى مستوى الحصار القاري. وبث النبي شبكة من العميون تنسقط له أخبار القوافل وحركة المشركين. وأخذ المسلمون يعترضون كل قافلة ويأسرون التجار والأدلاء والخفراء ويغزون القبائل التي اشتبّه في تعاطفها مع قريش. وما لبث المكثون أن توقفوا مكرهين عن الاتجار في الشام وأخذوا يبحثون عن مخارج لازمتهم دفاعاً عن مصالحهم الهائلة، وما لبثت أحوالهم أن شارفت على الإفلاس، فاشتكى بعضهم من أنهم أخذوا ياكلون أموالهم، أي ينفقون من رأس المال^(١).

(١) شخص دونر مقالين يؤكد أن النبي اهتم على الخصوص بضرب طرق التجارة القرشية.

Donner, Fred. M.: Muhammad's Political Consolidation in Arabia up to the Conquest of

Donner, Fred. M.: Mecca, The Muslim World, vol. LXIX, No. 4 (1979), pp. 229 - 247

McGraw: Mecca's Food Supplies and Muhammad's Boycott, JESHO, vol. XX, part III,

Lammens: op.cit., pp. 249 - 266. انظر كذلك الوائلي: المخازي، ص ١٩٧. وانظر أيضاً،

pp. 25, 28, 29

إن إحصاء الغزوات الأولى يدلّ بوضوح على أن الغرض الأول لهجمات المسلمين كان محاصرة التجارة المكيّة وضرب خطوطها. وهو عمل سياسي على أعلى مستوى، ولا يصحّ الاشتباه في أنه لا يخرج عن كونه عمل ارتزاق، على نحو ما قد يوحى بعض المستشرقين.

- غزوة ودان هي أول غزوات الرسول. قال ابن اسحاق: «حتى بلغ ودان وهي غزوة الأبواء يريد قريشاً وبني ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، فوادعته فيها بنو ضمرة»^(١). وبني ضمرة كان منهم البرّاض، الأحبس الكناني الذي كان يقود القوافل، ولذا زجماً أراد النبي نفس تحالفهم مع قريش. أما الأبواء فهي في الخريطة ٣٦ والخريطة ٤٠ من أطلس تاريخ الإسلام، على نحو ٢٠٠ كيلومتر جنوب غرب يثرب.

- وقال ابن هشام: «وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في مقامه ذلك بالمدينة عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف بن قصي في ستين أو ثمانين راكباً من المهاجرين وليس فيهم من الأنصار أحد، فسار حتى بلغ ماء بالحجاز بأسفل ثنية المرة، فلقى بها جمعاً عظيماً من قريش فلم يكن بينهم قتال». وموقع ثنية المرة في الخريطة ٣٩ من الأطلس المذكور، على نحو ١٥ كيلومتراً شرق بدر، على خط القوافل إلى الشام.

- سرية حمزة إلى سيف البحر. قال ابن هشام: «وبعث في مقامه ذلك حمزة بن عبد المطلب بن هاشم إلى سيف البحر من ناحية المص، في ثلاثين راكباً من المهاجرين، ليس فيهم من الأنصار أحد، فلقى أبا جهل بن هشام بذلك الساحل في ثلاثمائة راكب من أهل مكة... فلانصرف بعض القوم عن بعض، ولم يكن بينهم قتال». والمص في الخريطة ٣٢ من الأطلس، على نحو ١٢٠ كيلومتراً جنوب غرب المدينة على شاطئ البحر. والغزوان المذكوران قواتا طابع تجاري واضح، وكثرة القرشين جعلت المسلمين ينجبون القتال.

(١) فيما يلي من غزوات ومواقع، راجع سرية ابن هشام: ج ٢، ص ٢٢٣ - ٢٤٠. ومؤنس: أطلس تاريخ الإسلام.

- غزوة بواط: «ثم غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم في شهر ربيع الأول يريد قريشاً... حتى بلغ بواط من ناحية رضى، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً». والموقع شرق المدينة على طريق وادي الحمض، وفق الخريطة ٤٠ و٣٠ في أطلس تاريخ الإسلام.

- غزوة العشيرة: «ثم غزا قريشاً... فسلك على نقب بني دينار... حتى نزل العشيرة من بطن ينبع. فأقام بها... ووادع فيها بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً». والموقع المذكور على نحو ١٥٠ كيلومتراً شرق المدينة قرب شاطئ البحر، في الخريطة ٤٠.

- سرية سعد بن أبي وقاص: قال ابن هشام «بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم... غزوة سعد بن أبي وقاص في ثمانية رطل من المهاجرين، فخرج حتى بلغ الخزار من أرض الحجاز، ثم رجع ولم يلق كيداً». ووادي الخزار موضعه على ٢٥٠ كيلومتراً على الطريق إلى مكة، في الخريطة ٣٢.

- سرية عبدالله بن جحش: «وسلك على الحجاز حتى إذا كان بمعدن فوق القرع يقال له بهران، أضلّ سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بغيراً لهما، كانا يمتقبانه فتخلفا عليه في طلبه. ومضى عبدالله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزل بنخلة [بين مكة والطائف] فمّرت به عير لقريش تحمل زبيباً وأدماً وتجارة من تجارة قريش... وأقبل عبدالله بن جحش وأصحابه بالعر وبالأسييرين حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة».

إن جميع هذه الغزوات تُفصح عن غرضها أو تُضمّرها، لأنها جميعاً قصدت قريشاً أو أحلافها أو طرق تجارتها. ولو أراد المسلمون استزاقاً لاستطاعوا أن يفتزوا قبائل أقل سلطاناً وسطوة من قريش. ولم تُسجل في سيرة النبي أي غزوة حتى فتح مكة، إلا اتّسمت بسمة محاصرة تجارة مكة وقطع طرق قوافلها.

وكانت غزوة بدر الكبرى نموذجاً لهذه السياسة التي اعتمدها النبي في المدينة لضرب لإبلا قريش، ومحاصرة تجارة المشركين. فيقول ابن هشام في ذلك: «ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع بأبي سفيان بن حرب مُقبلاً

من الشام في حير لقريش عظيمة، فيها أموال لقريش وتجارة من تجاراتها وفيها ثلاثون رجلاً من قريش أو أربعون، منهم مخزومة بن نوفل بن أهب بن عبد مناف بن زهرة، وعمر بن العاص بن وائل بن هشام... لما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبي سفيان مبعثاً من الشام ندب المسلمين إليهم وقال هذه حير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها. فانتدب الناس فحفت بعضهم وثقل بعضهم... وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتحسس الأخبار ويسأل من لقي من الركبان تخوفاً على أمر الناس، حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعمرك، فحلل عند ذلك. فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى مكة وأمره أن يأتي قريشاً ليستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض لنا في أصحابه. فخرج ضمضم بن عمرو سريماً إلى مكة^(١)، إلى آخر خبر بدر.

ثم حاولت قريش أن تسلك إلى الشام من طريق العراق، تجنباً لاعتراض المسلمين قوافلها، فسلك أبو سفيان بقوه القافلة، شرقاً إلى نجد. وقد جاء في السيرة في هذا: «وسرى زيد بن حارثة التي بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها، حين أصاب حير قريش، وفيها أبو سفيان بن حرب، على الفزدة، ماؤ من مياه نجد، وكان من حديثها أن قريشاً خافوا طريقهم الذي كانوا يسلكون إلى الشام حين كان من وقعة بدر ما كان، فسلكوا طريق العراق، فخرج منهم تجار فيهم أبو سفيان بن حرب ومعه فضة كثيرة وهي عظم تجارتهم، واستأجروا رجلاً من بني بكر بن وائل، يقال له فرات بن حبان يديهم في ذلك الطريق»^(٢).

ب- من أهلة إلى الحبشة

لقد كان النبي يعرف إيلاف قريش معرفة ممتازة، لا في أغراض العامة ومراميه الإجمالية، بل في أدق تفاصيله. وفي إمكاننا أن نستدل على ذلك استنتاجاً، من عمل الرسول في القوافل المكية ونسبها قبل المبعث، حين

(١) سيرة ابن هشام: ج ٢، ص ٢٤٣، ٢٤٤.

(٢) سيرة ابن هشام: ج ٢، ص ٢٢٩.

أوكلت خديجة إليه أمر تجارتها. لكن الاستنتاج يضحى بيقيناً بقرينة، حين نطالع ذلك النص المدهش الذي أدرجه ابن هشام في السيرة ضمن خبر غزوة تبوك، سنة تسع للهجرة. يقول ابن هشام: «ولمّا انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك، أتاه بُحَنة بن ربيعة صاحب أيلة، فصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعطاه الجزية، وأتاه أهل جرباء وأذرح فأعطوه الجزية، فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً فهو عندهم. فكتب بُحَنة بن ربيعة:

بسم الله الرحمن الرحيم: هذه أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله بُحَنة بن ربيعة وأهل أيلة، سفنهم وسيارتهم في البر والبحر: لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وإنه طيب لمن أحله من الناس، وإنه لا يحل أن يمتنوا ما يردونه، ولا طريقاً يُريدونه من بر أو بحر»^(١).

إن هذا النص يدل دلالة قاطعة لا شك فيها، على أن الرسول بعدما فتحت مكة، كان يسعى إلى مد سلطان المسلمين إلى جميع عناصر إيلاف قريش، وكانت أعظم تجارتها ما كانت تسيره من اليمن إلى الشام عبر مكة وأيلة، على نحو ما بيّنا في حينه. وكان الرسول يعرف جوهر أدوات الإيلاف وطرقه، وإلا فما معنى ذكر أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر والسفن والقوافل معاً، في معاهدة عُقدت مع سكان مدينة في جنوبي فلسطين. بل نمة ما يدعو إلى الاعتقاد أن الرسول حاول إنشاء تجارة مع بيزنطة، إذ يقول ابن هشام في موضع آخر، في معرض خبر غزوة زيد بن حارثة إلى جُذام: «لم يلبث أن قدم دحية بن خليفة الكلبي من عند قبصر صاحب الروم، حين بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه ومعه تجارة له»^(٢). ومن السذاجة بمكان أن نظن أن الرسول أوفد مبعوثاً إلى

(١) سورة ابن هشام: ج ٤، ص ١٨٠، ١٨١. وانظر المفريزي: إنتاج الأسماح، ج ١، ص ٤٦٨. وكذلك: حميد الله، محمد: مجموعة الوثائق السياسية للمهد النبوي والخلافة

الراشدة، الطبعة الثانية، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٦، ص ٥٥.

(٢) سيرة ابن هشام: ج ٤، ص ٢٨٥.

قيصر بتجارة من أجل كسب تجاري. وقد ارتأى يعضون أن النبي حاول أن يفك ارتباط حرب الشام ببيزنطة. ولا مفر كذلك من الاشتباه في أن المسمى كان يرمي إلى إبدال عهد رومي مع المسلمين من عهد الإيلاف الذي كان معقوداً مع قريش. ولا تنفي غزوة تبوك التي كانت بأيدي الروم آنذاك^(١) هذا الاحتمال، لسببين: أولهما أن الحرب بين المسلمين والروم في شمالي الجزيرة وجنوبي فلسطين لا تنفي التفاوض السياسي، بل قد ترجح حدوثه. والثاني أن النبي كان يعرف بحسّته السياسي ولا شك، أن حاجة بيزنطة إليه في هذه المنطقة الحساسة على طرق التجارة، أشد من حاجته إليها، خصوصاً وأن ذكرى تدفق جيوش الفرس على الشام قبل سنوات، لم تكن بعد قد تلاشى أثرها وطعمها المرّ في البلاط البيزنطي.

ولم يكتف النبي على ما يبدو بمحاولة السيطرة على إيلاف قريش من الشمال، بل قد تكون إحدى نتائج الودة بين المسلمين الأوائل والأحباش، أن الرسول فكّر في قطع طرق التجارة الحبشية مع مكة قبل فتحها. وقد بدأت مظاهر هذا الودة قبل الهجرة. يقول ابن هشام: «ثم قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة، عشرون رجلاً، أو قريب من ذلك، من النصارى حين بلغهم خبره، من الحبشة، فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه وكلموه وسألوه، ورجال من قريش في أديبتهم حول الكعبة، فلما فرغوا من مسألة رسول الله صلى الله عليه وسلم حثّ أرادوا دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الله عز وجل وتلا عليهم القرآن. فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدّقوه وعرّفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره، فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش فقال لهم: خيبتكم الله من ركب! بعثكم من وادكم من أهل دينكم ترنادون لهم لتأتوهم بخير الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدّقتموه بما

(١) سيرة ابن هشام: ج ٤، ص ١٨٠. والروم هنا هم «سوا الأصفر». ويهون: الأنصار والرسول، ص ٤٢، ٩٠.

قاله^(٢). وأبو جهل هو من هو في المشركين، ولكنه أيضاً من رؤساء قوافل قريش وكبار تجّارها من مخزوم. وقد لا يخلو حقه على الأحباش الذين صدّقوا النبي، من الجزع على احتمال تضرّر التجارة القرشية من ميل الأحباش إلى المسلمين. وقد ظهر هذا الجزع بوضوح حين أوفدت قريش إلى النجاشي عبد الله بن أبي ربيعة والد الشاعر عمر، وعمرو بن العاص ليكلّموه في أمر المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة. وقصّة محاولة عبد الله وعمرو، وكان لا يزال مُشركاً، نالِب النجاشي على المسلمين معروفة في المصادر^(٣). ولا يمكن فهمها إلا إذا افترضنا أن المسلمين حاولوا وقف التجارة الحبشية مع مكة. إذ كانت لدى النجاشي كل الأسباب السياسية المقبولة للنظر بعطف في محاولة المسلمين. فالحبشة لم تنسّ بعد فشلها في اليمن وخروجها صفر اليدين من جزيرة العرب. فإذا قام في مكة حكمٌ على صلة جيدة مع مملكة الأحباش، فقد يرى النجاشي في ذلك تعزية وتعويضاً، خصوصاً إذا كان أصحاب العقيدة الجديدة يحملون السّيد المسيح وآله صريخ، على ما تبيّن. لقد تنبّه مونتغمري - وات لهذا الاحتمال وبالح في تعظيم احتمالاته حتى افترض إمكان طلب النبي عوناً عسكرياً من الحبشة. كانت بيزنطة قبيل الهجرة إلى يثرب، زمن الهجرة الأولى إلى الحبشة، في وضع عسكري سيء. بعدما استولى الفرس على القدس واجتاحوا الشام وفلسطين ومصر في العقد الثاني من القرن السابع. ولا شك في أن بيزنطة كانت تمنى أن ترى جيشاً حليفاً هو جيش النجاشي في مكة، لفتح جبهة جديدة للجيش الفارسي. لكن هذا الاحتمال يتجاهل موقف النبي من هذا الأمر. فالنبي في تلك المرحلة المبكرة من الدعوة كان يسعى إلى مضايقة المشكّكين ومحاصرة تجّارتهم على الأرجح من الجنوب، مثلما فعل فيما بعد من الشمال، بعد استقراره في يثرب، لكن شيئاً لا يبيح لنا استنتاج ما استنتجه مونتغمري - وات، أن الرسول، الذي ابتهج «لانتصاف العرب من الفرس» في

(١) ابن هشام: سيرة النبي، طبعة طه عبد الرؤوف سعد، ج ٢، ص ٢٨، ٢٩. ولم نثر على هذا النص في طبعة محمد محي الدين عبد الحميد.

(٢) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ٣٥٦ - ٣٦١.

ذي قار، وبعث البعث لتحرير نبوك وغيرها من أيدي البيزنطيين، كان يمكن أن يطلب من الأحباش أن يرسلوا جيوشهم إلى الجزيرة العربية لمساعدته على المشركين^(١).

لقد وصف القرآن الكريم إرسال جيش حنني إلى مكة بأنه «كَيْدُهُ ضَلَّه» الله، وذلك في قوله: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ • أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ» (الفيل: ١-٢). وسورة الفيل من السور المكية المبكرة. فكيف يتسنى والحال هذه قبول مقالة مونتغمري - وات؟ وكيف يمكن أن تتخيل موقف المسلمين المهاجرين إلى الحبشة، وعينهم على سورة الفيل، والعين الأخرى على أمر من الرسول أن يطلبوا غزواً حشياً آخر لمكة؟

ج - الإيلاف والإسلام والوحدة

مات الإيلاف على مرحلتين. مات أولاً بفعل سياسي وعسكري نظم الرسول من يثرب. لا لأن الإسلام كره الإيلاف. فالقرآن الكريم دعا المشركين إلى عبادة رب البيت، لشكره على الإيلاف الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف. ذلك في قوله: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قَرِئَ» • إِيْلَاهِهِمْ رَحْمَةً الشَّاءِ وَالصَّبَب • فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ» (قرئش: ١-٣). وقد بيّنا فيما مضى جانباً من آثار الإيلاف في تكوين نطفة أحدث تنمو معها العوامل الاقتصادية والدينية والثقافية والاجتماعية والسياسية التي حسنت فرص توحيد القبائل العربية في عيش مشترك، كانت تنفصه العقيدة الدينية والقاعدة الدستورية والسياسية. وليس من شك في أن جوهر الفكر الجديد الذي جاء به الإسلام أيّد هذا الاتجاه إلى الوحدة الدينية والاجتماعية والسياسية، أولاً بتخطيطه الأصنام القبلية ودعوته إلى عبادة الله الذي لا إله إلا هو، ثم بإنشائه عقداً اجتماعياً جديداً يتجاوز حدود العصبة القبلية، فيحمل الأمة الإسلامية جسماً واحداً لا تُداعله حدود كيانات قبلية صغيرة ذات صفة دستورية، فانتقلت حزيرة العرب من كونها مجموعة

(١) 114, 115 pp. Montgomery-Watt: Muhammad at Mecca ... واستند دون أن يكون لموقف

القبائل العربية في ذي قار مغزى سياسي عريق. انظر 28 pp. Donner: The Baki b WTH

وحدات قبلية مستقلة، إلى دولة فوق هذه الوحدات. وهذا التطور الذي جاء به الإسلام لم يناقض قطعاً البذور التوحيدية التي نشأت من حول الإيلاف. لكن دولة المسلمين الناشئة في المدينة، في حربها على المشركين في مكة اضْطُرَّت إلى ضرب السلطة المكيّة في أخطر شرايات دمها: الإيلاف. وكان متظراً أن تعاود الدولة الإسلامية بعد فتح مكة تنظيم هذا الإيلاف وإحيائه، فلم يحدث ذلك، لأن الإيلاف كان محكوماً عليه بالموت في مرحلة ثانية، من جراء انتفاء الحاجة إليه^(١).

فالإيلاف على نحو ما تبيّن في هذا البحث هو، في أساسه وغرضه الأولين، عقود مع ملوك الأطراف للسماح للمكيين بتسيير تجارة الشرق في أسواقهم، وعهود مع زعماء القبائل على طرق القوافل المكية لإشراكهم في التجارة في هذا الشكل أو ذاك، حماية لهذه القوافل. فلما جاء الإسلام وتحت بلاد الشام وبلاد السواد وأسلم البنيون، لم يعد للمهود مع زعماء القبائل العربية من معنى، لأن قوافل المسلمين سَهِرت من بعد في ديار مسلمين، فأمنت بحماية قانون الدولة الإسلامية، لا بموجب عهود هنا وهناك. أما ملوك الأطراف فأنتهى أمر الحاجة إلى عقودهم واحداً بعد الآخر، فانهلكت دولة الساسانيين ودخل الإسلام بلاد فارس. واختفت دولة الأبناء المؤيدة للفرس في اليمن، وأضيفت عمان والبحرين وكل شواطئ الجزيرة العربية إلى الفتوح الإسلامية. ثم أجلي البيزنطيون عن بلاد الشام وعن مصر. ومكثت بيزنطة ترقب التبدل المذهل وقد أسقط في يدها، ولم يعد من ندحّة أمامها سوى القبول بشروط العرب في تجارة الشرق، حتى اكتشف الغرب رأس الرجاء الصالح.

لقد كانت الحركة إلى الوحدة هي الحركة السياسية التي حقّقها الإسلام وتوجّها بعقيده. وقد بُعث النبي برسالته والناس في شوق إلى هذه الوحدة التي بشرهم بها، بعدما كانت بذورها تبت في كل ميادين الحياة العربية المشتركة من حول الإيلاف، دون أن تتمكن قريش من تجاوز النظام القبلي للوصول بالتبذل

(١) 297, 298 pp. Montgomery-Watt: Muhammad at Medina ...

الدستوري إلى مرحلة الأمة الواحدة. إن الإسلام هو الذي أنشأ للعرب والمسلمين دولة وحدثهم. وكانت بشائر التمهيد لذلك قد بدأت تظهر هنا وهناك. ففي رواية المصادر لوقعة ذي قار التي انتصر فيها بنو بكر بن وائل على الفرس، وانحاز بنو إيلاد حلفاء الفرس التقليديون فيها إلى العرب، لا يشعر المرء أنه يقرأ عن حرب تحرير «قومية»، لكن العرب جميعاً أحست في هذه الوقعة أن سلطان الفرس أخذ يهين^(١). ولعل الإسلام وحده كان يستطيع أن يوفر البنية السياسية القادرة على تحقيق التوازن التي كانت تعتمل في الفرس، وأما البنية القبلية (في كونها وحدة سياسية مستقلة) فكان ينبغي أن تندثر بفعل مبدأ تنظيمي واسع ينشئ سلطة أهلى. «وحينما أخفق الملك نجح الرسول وخلفاؤه»^(٢).

إن ما جرى في سنة ٦٢٢ م. على الصعيد السياسي، هو تخطي أسوار القبيلة دون تحطيمها، نحو صيغة اجتماعية أهلى، تُمكن من إنشاء كيان سياسي واحد تعيش في إطاره القبائل دونما إحساس بالغبن أو الضغط^(٣). وهذا الكيان السياسي الواحد، فيما نعلم، كان أول دولة ظهرت من عمق جزيرة العرب، فوق حدود القبائل التي ظلت حتى ظهور الإسلام كيانات مستقلة تخضع أحياناً لسلطان ملوك الأطراف، وتتمرد أحياناً أخرى.

وإذا كان الإيلاف قد نثر هنا وهناك وهناك بذوراً لهذه الوحدة التي انتصرت بالإسلام، فإن هذه الوحدة نفسها هي التي أغتت العرب عن الإيلاف فأدت إلى موته، تماماً مثلما تخرج الفراشة إلى الحياة، وتموت الشرنقة.

(١) الأندلسي: نشوة... ص ٩٦٥.

(٢) Von Grunebaum: op. cit., p. 19.

(٣) السيد، رضوان: جدليات المثل والظل والتحرية التاريخية للأمة في الفكر السياسي العربي الإسلامي، الفكر العربي، العدد ١٥، أيار وحريان / مايو ويونيو، بيروت، ١٩٨٠، ص ٧٥.

خلاصة واستنتاج

وبعد، لا بد في ختام كل بحث من أن نتساءل: هل أتى بجديد، أم اكتفى، مثل كثير مما يكتب، بترداد معلومات معروفة في صياغة جديدة لا تزيدنا معرفة؟

إن كثيراً من مضمون هذه الأطروحة يوحى وكان ما فيها لا يزيد على تجميع تفاصيل يعرفها الباحثون في التاريخ العربي قبل الإسلام. وهذا صحيح في ظاهره فقط، ذلك أن الأطروحة هذه لم تكشف سرّاً كان مكتوناً، ولا اعتدت إلى واقعات تاريخية لم يسبقها إليها أحد من قبل. غير أن تفسير هذه الواقعات هو الجديد، فكانما هي حياتٌ من هنا وهناك، شوهدت من قبل، لكنها لم تجمع في سلكٍ لتشكّل عقداً، ولا جُمعت في إطار نظرية كهذه من قبل لتعطىها معنى جديداً، وتفسرها تفسيراً خاصاً ضمن سياق تاريخ مشرقنا العربي الكبير.

لقد كان الإيلاف معروفاً، وقوافل قريش وتجارة التوابل كذلك. وتناول الباحثون حروب بيزنطة والفرس فيما لا يحصى من مباحث. وقيل الكثير في صراع الدول على بادية الشام والبحر الأحمر، وكذلك في مكة ومواسم حجّها وأسواقها. لكن أحداً من قبل لم يجمع هذه المسائل جميعاً لينظّمها في خيط معاً، لاستكشاف حقيقة الموقع الجغرافي - السياسي الذي تحتله جزيرة العرب، في صراع الدول على النفوذ والاقتصاد، وفي المشروع العربي المستقل حيال هذا الوضع الجغرافي - السياسي.

لقد أعاد البحث النظر في تاريخ المنطقة على امتداد زمني كبير، وخصّص المائة سنة التي سبقت الإسلام ببحث مستفيض، ليجيب عن سؤال هو: هل ان المسألة الكبرى في الصراع الدولي على جزيرة العرب، هي محاولة السيطرة

على طرق التجارة بين المحيط الهندي والبحر الأبيض المتوسط؟ ثم كيف تصرّف العرب لينظموا بأنفسهم تسير التجارة الدولية على هذه الطرق، وكيف كان أدوارهم في هذا الشأن حيال الدول الأجنبية وحيال العرب أنفسهم؟

أفليست الإجابة عن هذه التساؤلات ضرورية في فهمنا لتاريخنا والأداء الذي أبداه العرب في مرحلة خطيرة من تاريخهم؟

أفليست الإجابة عن هذه التساؤلات حاجة ماسة في زمن، مثل زمن الإيلاف، يشتد فيه القتال على المنطقة، من أجل السيطرة على تجارة المواد الاستراتيجية الآتية من حوض المحيط الهندي إلى حوض البحر الأبيض المتوسط؟

أوليس مفيداً أن نعرف كيف استطاعت القبائل العربية، في خضم الصراع الدولي على الجزيرة العربية، أن تجمع كلمتها، وتلزم الحياض وتتفق على اقتسام فوائد استثمار الخطوط التجارية التي جعلت الدول الكبرى تتقاتل فيما بينها؟

أوليس ضرورياً أن ندقق في الأساليب التي اعتمدتها قريش والقبائل العربية لتحسين تحالفها وتعزيز ائتلافها حول مشروعها الاقتصادي المشترك، بالعقيدة والمناسك الدينية الموحدة، والمواسم التجارية المستعانة، والعلاقات الاجتماعية المتعاضدة؟

أفهل يعني هذا أن التاريخ يعاود سيرته الأولى، على ما يقال؟

لا ليس هذا ما يسمى إليه هذا البحث، ولا هذا ما يدعيه. لكن مبادئ الجغرافيا السياسية لا تزال ثابتة في الجزيرة العربية وجوارها. وما دامت الجغرافيا السياسية على حالها، ورغم ابتعاد الشقة بين زمننا هذا وزمن الإيلاف، يظل احتمال استفادة الدرس والعبرة قائماً.

وقد حاولت الأطروحة أن تُلغ هذا الغرض، وعسى أن تكون قد أصابت بتوفيق من الله.

الملحق

هل سبّرت مكة قوافل تجارة دولية؟

قد يبدو هذا العنوان غريباً، في ذيل دراسة غرضها تفصيل معرفة مختلف نواحي التجارة الدولية التي نظمها قريش عبر قوافلها بموجب عهود الإيلاف. إن مسترغ هذا العنوان هو أن الباحثين غير متفقين على أن بعض تجارة قريش كانت دولية. وينفي كتاب باتريسيا كرون: تجارة مكة وظهور الإسلام^(١)، أن تكون قريش قد تعاطت التجارة الدولية أصلاً، بل ينفي أن يكون العرب قد حجّوا إلى مكة قبل الإسلام. وقد أحدث كتاب كرون ضجيجاً في مجتمع الباحثين في تاريخ العرب قبل الإسلام، فكتبت في نقده مقالات عديدة، منها مقالة لريتشارد بوليث^(٢). ولو نفت كرون في كتابها مبعث الرسول أو ظهور الإسلام، لضمنت ولا شك إحداث ضجيج أقوى. لكن مشكلة كتاب كرون هو أنه يضمن، بمقالته المنطرفة، ألا يتخذ مرجعاً جدياً في الدراسات الحديثة، على رغم أنه كتاب صادر عن مؤسسة عريقة هي جامعة برنستون، وأن كاتبه تطرح فيه أسئلة لا تخلو من الذكاء، وتجنب عنها بأجوبة لا تخلو من المظهر العلمي المضلل. ولذا يتحتم التنبيه إلى الكتاب التحذير من أخطائه الفادحة.

ما الذي قالته كرون في كتابها؟ إن ما قالته كثير وخطير، ولا سبيل إلا مناقشته تفصيلاً، وترك الإجمال إلى خاتمة المناقشة.

(١) Crone, Patricia: Meccan Trade and the Rise of Islam

Bulliet, W. Richard: Book Review, International Journal of Islamic and Arabic Studies, (٢)

فكما قاله كرون أن قريشاً ولم تتاجر بالبخور والأفاويه أو أية بضاعة أجنبية فاخرة أخرى^(١). ويدلنا قولها «أو أية بضاعة أجنبية فاخرة أخرى»، على أنها أرادت أن توحي أن البخور أو اللبان كان بضاعة أجنبية، مع أن مصدره الأول كان حضرموت، وهو مصدر لا يمكن وصفه بالأجنبي. ذلك أن كرون في مسعاها إلى إثبات القول بأن تجارة قريش كانت محلية لا تتعدى حدود الجزيرة العربية ولا تتعاطى البضاعة المطلوبة خارج الجزيرة، ربما أرادت أن اللبان، الذي كان مطلوباً خارج جزيرة العرب على الخصوص، وكانت أسعاره قادرة على إضفاء صفة الخطورة على تجارة قريش، قد يخرّب دعواها. فما هي بضاعة التجارة المكيّة في نظرها؟ إنها جميعاً منتجات من الجزيرة العربية، ولكن تلك المنتجات التي يمكن أن تفسّر ازدهار تجارة مكة هي الذهب والفضة والمطور. ولذا أغفلت ذكر اللبان، وهو نتاج الجزيرة الأخطر تأثيراً في تجارة مكة حسبما بينّا، وأعلنت في جملة مبثورة: «أننا لا نستطيع القول إن المكّين صدّروا الذهب والفضة إطلاقاً». وإذا تنتظر القارىء إسناداً أو تفسيراً لإعلانها هذا، ينتفل الحديث إلى تجارة الجلود، فلا إسناد ولا تفسير^(٢). لقد كانت تجارة مكة قبل الإيلاف محلية قطعاً، وإلا لما كان للإيلاف من معنى. ولكن إذا قلنا أن القرشيين خرجوا بتجارته من الجزيرة بفضل الإيلاف، وأن هذه التجارة لم تتعاط بضاعة تجارة الشرق من حرير وتوابل وبخور وفضة، فإن كرون لا تفيدنا عن الطريق أو المسرب الذي سلكته تجارة الشرق هذه عندما أفقلت الحرب البيزنطية الساسانية طريق الفرات ولم تنشط بدلاً منها طريق البحر الأحمر.

ولقد اقتربت كرون مرات من الاعتراف بتجارة مكة الدولية، لكنها أحجمت في كل مرة بحمل غامضة، دون تفسير لهذا الإحجام. إذ تقول في بعض كتابها: «إن ثمة أدلة مقنعة على أن المكّين تاجروا بالمطور. وكان مركز صناعة المطور العربية عدن، ويقول المرزوقي إن الهنود أيضاً كانوا يصنعون مطورهم هناك، فيحضرون على ما يبدو المواد الأولية، ويعودون بالطيب

(١) Crone: op. cit., p. 83

(٢) Crone: ibid., p. 87

المعمول». وتضيف: «في الوقت نفسه كان تجار آخرون ينقلون العطر اليمني برأ إلى فارس وبيزنطة، فلا تقول من هؤلاء التجار «الآخرون». وإمعاناً في إبعاد «الشبهة» عن المكّيين تسارع إلى القول: «وعندما غزت الفرس اليمن صارت صناعة العطر إلى سيطرة الفرس»^(٣). وهذا صحيح، لكن موضوع البحث هو التجارة المكيّة، لا الصناعة اليمنية. ولا مفر من الاعتراف بأن أسلوب التضييل ذكي.

وحتى نؤكد كرون أن مكة لم تقم فيها تجارة على الإطلاق، نشير إلى أنه «لم تقم تجارة في عرفة ولا في بني، والآخرى أنه لم تقم تجارة في مكة نفسها»^(٤). وهذا صحيح مرة أخرى، لأن مكة لم تقم أسواقاً في حرمها، وكانت أسواقها في عكاظ ومجنة وذئ المجاز. ولكن هذا لا يعني أن مكة لم تتاجر. بل إن هذا قد يمزّز الاعتقاد أن مكة، إذا كان لها من تجارة، فهي تجارة عبور دولية، ولم تكن تتوقف عند الأسواق المحلية. وتنفى كرون أي صفة تجارية لحروب الفجار، فتقول إن هذه الحروب حدثت في عكاظ «لأن الناس كانت تجتمع هناك»، ولم تقل لماذا كانت الناس تجتمع هناك. وإذا تستعرض أسباب هذه الحروب نذكر تحرش صبيّة بامرأة، وتذكر مظلّ رجل رجلاً ماله، وتذكر قتل البرّاض حروة الرّحال، ونفعل التدقيق في قبيلة المتحرّشين والمتحرّش بهم. وقد أثبتنا أن قريشاً وخمسها كانوا في جميع هذه الحالات يتحرشون بهوازن، وكيلة الحيرة في تجارة قوافلها^(٥)، حينما كانت الحيرة تحاول تسير خط قوافل تجارية إلى اليمن، لا يمر عبر مكة. ولا مفر من الاشتباه بأن الأسباب في هذه الحروب كانت تجارية، وإلا وصمنا أنفسنا إما بالفلة أوبية تحوير الحقائق التاريخية. وقد أثبت كرون أن الاحتمال الأول لا ينطبق عليها.

وقد نفت أن تكون قريش قد تاجرت بالزيت والخمر والأطعمة والملابس، على أساس أن الشام لا تحتاج إلى الزيت والخمر وأن الملابس الشامية أفضل

(١) Crone: ibid., p. 95

(٢) Crone: ibid., p. 171

(٣) أنظر باب حروب الفجار فيما مضى.

نسيجاً. لكنها لم تقل شيئاً عن احتمال أنجار قريش بالزيت الشامي في اليمن والحبشة، أو بالتصوير والزبد ومنتجات الإبل في بلاد الشام، وبالخمر في بلاد العرب، وبالملايس في غير الشام^(١). ولم تقل شيئاً في الفروق المحتملة بين أنواع الملايس أو الأطعمة المختلفة التي يمكن أن تنتجها الجزيرة والشام، والمبادلة بينهما. ولم تقل شيئاً في احتمال نقص ما في سوق الشام، تسدّه جزيرة العرب بما لديها من فائض من التاج ذاته. وبذلك مضت كرون لي نفي تجارة مكة، حتى أدركت مرحلة لا تُصنّف، نفت فيها وجود حرم في مكة قبل الإسلام، فقالت: «إذا كان الحرم المكي لا يجذب حجاجاً، ولا يحمي سكانه، ولا يؤثر في النشاط الاقتصادي، فبأي شكل كان هذا الحرم موجوداً أصلاً... إن المصادر تثبت الانطباع أن قدسية مكة منشؤها إسلامي، لا سابقاً للإسلام»^(٢). أما المصادر التي تثبت ذلك، فلا ندلنا كرون عليها بهامش أو كلمة. وفيما تدور كل مقالاتها حول محاولة إثبات أن مكة لم تُقم لها تجارة خارجية، إذا بها تقول: «إن المكيين أوقفوا تجارتهم خارج مكة في وقت ما قبل ظهور الإسلام»^(٣)، فلا تعرف أية تجارة أوقفوا، طالما أن قريشاً لم تتاجر خارج مكة، ثم لا تعرف ماذا يعني قول كرون «في وقت ما»، هل تلمح إلى وقعة بدر وما أدت إليه من وقف القوافل المكيّة. وإذا كانت تلمح إلى ذلك فلماذا لا تصرّح؟ هل تخشى بنصرتها أن تصل إلى الاستنتاج المنطقي، وهو أن وقعة بدر إذا أوقفت تجارة قريش مع الشام، فلأن قريشاً كانت لها تجارة مع الشام؟ وإذا لم تكن لقريش تجارة مع الشام ومع الحيرة، فعلام دارت الحرب بين المدينة ومكة بعد الهجرة؟

ومن أدلة كرون على أن مكة لم تكن تتاجر إلى الخارج أن «المكيين لم يكن لديهم خشب ولا سفن»^(٤)، وتستدل على ذلك بأن بناء الكعبة استخدم فيه خشب سفينة رومية غرقت في ميناء الشعبة. وكذلك برحيل المهاجرين

(١) Crona: op.cit., pp. 101 - 108

(٢) Crona: ibid., p. 183

(٣) Crona: ibid., p. 113

(٤) Crona: ibid., p. 5

المسلمين إلى الحبشة في سفن قالت إن ومن الواضح أنها لتجار أجانب، ولم تقل كيف استنتجت ذلك. ولكن من قال إن قريشاً كانت تمتلك لتجارتها مع الحبشة أسطولاً خاصاً؟ لقد كان أزد عمان الذين اهتموا الملاحة بأنون بيضاة الهند وسيلان إلى موانئ الخليج واليمن لحساب تجار مكة، فلماذا لا تستأجر مكة أيضاً سفناً لتجارتها مع الحبشة، ممن لديهم خشب وسفن؟

وتوسّع كرون بكار منطلقها مستندة إلى هذا الدليل الفاسد، فتقول منهكمة عن المكيين: «إنهم قوم عبيون إذ كانوا يُبحرون إلى إفريقية والهند، ولكنهم ما إن وصلوا إلى شواطئهم حتى ينقلوا بضاعتهم بالقوافل، فسقنهم رغم ملاءمتها للأسفار الطويلة، كانت بدائية فلا تحتمل الإبحار في البحر الأحمر، وكذلك على ما يبدو في الخليج»^(١). وهذا تهكم يبدو ذكياً، لولا أننا لم نشر في أي مرجع أو مصدر على من أذى يوماً أن قريشاً كانت تُبحر في سفنها إلى الهند أو إفريقية. فإذا كان القرشيون مثلاً يتأجرون سفناً يقودها بخّارة الأزد الذين احترقوا الملاحة ولم يحترفوا قيادة قوافل الصحراء، فلن يعود من سبب لتهكم، لأن إحصار البخّارة البضاة إلى حيث يتسلّمها تتاجر احترقوا تسيير القوافل ولم يخوضوا البحر، يصحح أمراً منطقياً جداً.

وتبلغ كرون غاية تجاهلها واحترافها للمصادر العربية الإسلامية حين تقول «ليس ثمة دليل على وجود تجار قرشيين في عدن، أو على تنظيم قريش قوافل من هناك إلى الشام»^(٢). ويتابعها في ذلك ببيتز الذي أطلع على كتابها فكبت مقالة ينفي هو الآخر فيها تجارة مكة. ويمحض ببيتز المصادر البيزنطية ثقتة الكاملة، ويتخذ غلور تاريخ بروكوبوس المعادي للحرب من أي إشارة إلى تجارة قريش، على أنه دليل على عدم قيام هذه التجارة أصلاً. ولا يكتفي بذلك بل يمحضي إلى القول: «من وجهة نظر الاستخبارات البيزنطية العسكرية والتجارية، لم تكن مكة موجودة سنة ٥٦٠ م. وبدلاً من أن يمدّ ببيتز ذلك نقصاً في تاريخ

(١) Crona: ibid., p. 9

(٢) Crona: ibid., p. 95

بروكوبيوس، وهو نقص بلام المؤرخ البيزنطي فيه كثيراً في الواقع، نراه يكاد يفتخر بهذا النقص إذ يقول إنه يبدو مطلقاً إطلافاً مدهشاً على المسائل العربية في منتصف القرن [الميلادي] السادس^(١).

وتبدي كرون اغتباطاً بنفي فلها وزن قيام حج إلى مكة، على أساس أن الحج كله تقريباً، حتى في الإسلام، يحدث في خارج المدينة. وتقول في هذه الحجة إنها «مسألة يصعب رفضها»^(٢). وهذا أمر مفهوم. وليس من دافع إلى رفضها، ولا حتى مناقشتها، طالما أنها تؤيد مقالة كرون برأي من باحث ذي صيت ومكانة. ولكن كرون تسمى مع ذلك إلى تعزيز حجتها لنفي أي دور لمكة. فتصف شعائر الحج ولا تغفل منها إلا الطواف بالبيت والتلبية، أي الأساس والمنتهى. ثم تضيف أن «الزيارات» إلى مكة ربما أضيفت إلى هذه الشعائر بعد الإسلام^(٣). وهذا نموذج لما يستطيع أن يذهب إليه التوضيب المنطقي والتوليف الموثق في إثبات عكس ما هو ثابت، حين يصرّ الباحث سلفاً على فكرة يبحث لها عن أدلة تصاغ في سياق منطقي يبدو مقنعاً. إن نفي كرون للطواف والتليات حول الكعبة قبل الإسلام لا يجعل لها جفناً يرفّ طالما أن الفارسي المعادي قد لا يكون مطلقاً على كتاب الاصنام لابن الكلبي. وهذا الكتاب على أية حال هو من المصادر الإسلامية التي لا ترى لها كرون أي قيمة، فلا تأتي على ذكرها إلا إذا تناقضت رواياتها، فتكون تلك فرصة لا تُعوّض للقفز عليها من أجل إثبات كل تناقضاتها ورفضها جميعاً. ففي تفسيرها لسورة قريش تصيب عصفورين بحجر: الأول هو إثبات تناقض المصادر الإسلامية وتأكيد عدم جداتها جميعاً بنقطة الباحث، والثاني هو رفض التفسير القائل إن رحلة الشتاء والصيف هي تجارة قرشية دولية طالما أن كل التفسيرات في المصادر الإسلامية غير موثوق بها. ولذا تجمع كرون في أسطر مضغوطة جميع التفسيرات المختلفة التي عثرت عليها في المصادر الإسلامية لسورة قريش. فهي تعني مرة رحلة

(١) Peters: The Commerce.... pp. 9, 10

(٢) Crone: op. cit., pp. 173

(٣) Crone: ibid., pp. 174, 185

التجارة القرشية إلى الشام، ومرة إلى الشام واليمن، ومرة إلى الشام والحبشة، ومرة جميع هذه الرحلات معاً، ومرة إلى العراق أيضاً. وتعني سورة قريش في مواضع أخرى مصيف المكيين في الطائف، أو تعني «الزيارات» الشعائرية إلى مكة. والسورة في تفسيره، هي إشادة ببدء قريش تجارتها، وفي تفسير آخر هي إشادة بمتابعتها هذه التجارة. وهي لدى البعض تشير إلى حاجة قريش للغذاء المستورد ولدى البعض الآخر تلميح إلى المجاعة في مكة، أو ربما إلى عادة المكيين الانتحار جوعاً قبل الإبلاف. والسورة قد تشير إلى عقود قريش مع بعض القبائل، أو قد تشير إلى حرمة القرشيين، أو إلى حرمة مكة نفسها، أو إلى حاجتها إلى الدفاع، أو إلى أمنها بعد هزيمة الأحباش، أو إلى نجاة قريش من داء البرص، أو إلى احتكار قريش الخلافة... وتضيف كرون بعد كل هذا «أن المفسرين لم يملكوا تفسيراً للسورة أفضل مما نملك اليوم»^(١). إن هذا الضغط النفسي على الفارسي، بحشر جميع الروايات المتناقضة معاً في بضعة أسطر كفيل أن يلقى في قلب الفارسي غير المطلع بالأس من المصادر الإسلامية، حيال «فوضى» التفسيرات هذه. لكن الفارسي المدقق يعلم أن كرون بعملها هذا تتجنب متعمدة نقد المصادر، حتى لا تضطر إلى القول إن بعضها جيد وبعضها الآخر فاسد، وبذا يفتح لها القول إنها جميعاً فاسدة.

وتمضي كرون خطوة أخرى في تفسيرها الخاص للتاريخ العربي، فتقول إن الجنود العرب في القادسية قبل لهم: «إذا بُشِمَ في القتال... فستكون لكم أموالهم ونساؤهم وأولادهم وبلادهم». وتهكم مرة أخرى، لأن التهكم أسلوب إقناع في بحثها التاريخي، بأن «الله قلماً كان أوضح نطقاً، إذ قال للعرب إنه يحق لهم أن يتزعموا نساء الآخرين وأولادهم وأرضهم، بل إنه واجبه أن يفعلوا ذلك... وبذا رفع إله محمد روح القتال والجشع القبلي إلى مرتبة الفضائل الدينية العليا»^(٢). ولا شك في أن هذا القول غير لطيف في حق المسلمين. لكن عيه الأكبر أنه قول غير صحيح علمياً أيضاً، إذ أن كرون بذلك تفترض أن

(١) Crone: ibid., pp. 209, 210

(٢) Crone: ibid., p. 245

القبائل العربية قبل الإسلام لم تكن تغزو وتسي، وأنها انتظرت الإسلام ليحتمها على ذلك. وهذا الافتراض لا يستحق مناقشة. لقد كان الغزو والسي أسلوب عيش القبائل قبل الإسلام، فما الذي تبدل حتى خرجت هذه القبائل حاملة عقيدتها إلى العالم. إن هذا التبدل هو العامل الجديد الذي ترفض كرون رؤيته. وهي إذ تقول إن ما فعله الرسول في القرن السابع كان يمكن أن يفعله في أي قرن، على أساس أنه كان يكفيه تحليل الغزو وجعله سنة ذهنية، إنما تتجاهل اتصال التاريخ العربي بما يحيط به من حوادث، نتج عنها لا يلقى بأي باحث تاريخي محترم. ولا مفر من الاشتباه في أنها كانت تحتفن مشاعر بغضه أخذت تنفس عنها مداورة أحياناً ومواجهة أحياناً أخرى. فقالت في حديثها على غزو الرسول لقافلة قرشية تحمل فضة إلى الشام: «سرق النبي فضتهم»^(١). وفي موضع آخر وصفت المسلمين بأنهم: «وكر لصوم»^(٢). وهذان الوصفان مفيدان، لأنهما يساعدان كرون على التنفيس عن مشاعرها حيال الإسلام، ويظهران قوة تأثير عواطفها الشخصية في إفساد تحليلها التاريخي إفساداً تاماً ينزع عنه أية قيمة مرجعية.

إن إحصاء الأخطاء أو التحليلات المضللة في كتاب كرون أمر عسير، لكثرتها ووفرته، ولقيام بعضها على بعض في كثير من الأحيان. ففي موضع مثلاً نسوق القاريء إلى مسألة تبدو فيها محاولة استغفاله واضحة وضحاً تاماً، إذ تنفي أن مكة قد صدرت الذهب المستخرج من المناجم المكية وغيرها في الجزيرة العربية، وتؤكد أن هذا الذهب لم يكن للتصدير، بل بديلاً من المال^(٣). واعتمدت كرون على خفلة القاريء لتمرير هذه الحقبة. فالنقد الذهبي أنفع للتجارة الدولية من السلع الذهبية، لأن التجارة الدولية تحتاج إلى رأس مال، قال بيزنيز إن مكة كانت تنظر إليه^(٤).

(١) Crone: ibid., p. 91

(٢) Crone: ibid., p. 165

(٣) Crone: ibid., pp. 93, 94

(٤) Peters: op. cit., p. 6

أما بيزنيز فإنه يستخدم الأسلوب نفسه وإن كانت النية المبيتة عنده أقل وضوحاً منها عند كرون. فيقول في بعض كتابه: «إن سياسة بيزنطة حيال التجارة الدولية كانت تقضي طبعاً إلغاء الوسيط. تماماً، لا إلغائه المكوس فقط بل للسيطرة على التجارة أيضاً. ففي الماضي كانت السلطات الرومانية مشغولة بالمعجز في ميزان تجارتها: إذ كان مقداره كبير من الذهب يخرج من الإمبراطورية لقاء البضاعة الفاخرة. وليس ثمة أسباب كافية للاعتقاد بأن الحال كان مختلفاً في القرن السادس. وكانت الإمبراطورية البيزنطية مستعدة لكل اتصال من وسطاء آسيا الوسطى، الصغد والترك وغيرهم، ممن بعثوا وفوداً إلى القسطنطينية سنة ٥٦٨ م. للتفاوض في شأن تجارة الحرير، على حساب الساسانيين بالطبع»^(١). وقد غفل بيزنيز عن ملاحظة أن الصغد والترك كانوا هم أيضاً وسطاء في هذه التجارة. ولذا لم يكن سمي بيزنطة إلى التعامل معهم سعيّاً إلى إلغاء الوساطة، بل إلى انتزاعها وانتزاع فوائدها المالية من أيدي عدو بيزنطة الأول: الفرس. وهذا يعني أن بيزنطة التي كانت تفضل إلغاء الوسطاء قطعاً، فلم يتيسر لها ذلك، كانت مستعدة لقبول الوساطة التجارية المكية، طالما أن هذه الوساطة ليست في قبضة الفرس. وقد سبقت الإشارة في باب حروب الفجار إلى حاجة مكة إلى إثبات حيادها واستقلال تجارتها عن حكم الفرس، مما يسهل مهمتها التجارية في أسواق بيزنطة الشامية.

ولكن إذا كانت تحليلات كرون ومتابعها مضللة، فإن الاسترسال في تعداد مواضع الخطأ والتفصيل في كتاب كرون، قد لا يساعد القاريء في الخروج بصورة واضحة تجتبه مزلق الغموض. فإذا أجملنا لا يمكن حصر أخطاء كرون في ثلاثة هي الكبرى:

أولاً: وقعت كرون في الخطأ الذي اتهمت به الآخرين معكوساً. فاتهمت لامنس ومونتغمري وات وغيرهما، بأنهم وثقوا بالمصادر الإسلامية العربية وأخذوها على علاتها، بعد استبعاد العناصر المعجائية منها. فقيماً أظهرت بشغف

(١) Peters: ibid., pp. 7, 8

عالم وتلذذ واضح تناقض الروايات الإسلامية في عدد من المسائل، ومنها الإيلاف ورحلة الشتاء والصيف ومعنى قوله: «أَطْفَنَهُمْ مَنْ جُوعَ وَأَمَنَهُمْ مَنْ خَوْفٍ» (قرش: ٤)، فإنها خطت الخطوة الأولى في نقد النص ونقد المصادر وأحجبت متعمدة عن أن تخطو الخطوة التالية. فإذا قلنا إن روايات المصادر متناقضة، فليس حتماً أن جميع الروايات خاطئة، ولا يؤتق بها جملة. فكان عليها في الخطوة التالية أن تحلل مختلف الروايات والنصوص لتحاول القول إن هذا النص غير مقبول، وإن هذا بعيد الاحتمال، وإن ذاك مقبول، وإن هذا مرجح، وإن هذا موثوق به مضمون الصحة. فإذا كان تناقض أي روايتين حجة عليهما معاً، فإن في إمكان أي مؤرخ فاسد الرواية أن يلقي أعظم التواريخ. وفيما يمكن للبعض أن يخطئه حين يمحض المصادر ثقة بلا تدقيق، فإن كرون أعطت متعمدة في الإحجام عن قبول أي نص، حتى يتسنى لها فيما بعد إصدار أي رأي أو نفي أي قول، دون كثير عناء. وقد أبدت كرون دأباً على التدقيق، لكنها صرفته كله في التشكيك في المصادر، ولم توفّر شيئاً منه للخروج بالروايات الصحيحة. ولذا نستطيع الادعاء أنها بيّنت نية، ولم تخطئه في ذلك خطأ عفوياً.

ثانياً: أكدت كرون من أول كتابها إلى آخره أن أسباب النهوض المكي في مرحلة الإيلاف قبل الإسلام، قد فُشِرت تفسيرات خاطئة. فمرة نُسب نهوض مكة إلى ازدهار تجارتها الدولية، ونُسب مرة أخرى إلى مكانة مكة الدينية والسياسية بين العرب، وأوحت كرون للفارسي أن هذه الأسباب ليست هي الأسباب الحقيقية، فمحض الفارسي صفحة إثر صفحة ينتظر الساعة التي يظهر فيها التفسير الصحيح، في رأي كرون، نهوض مكة. لكن جميع التفسيرات تهاوت مثل قصور الورق، ووصل الفارسي إلى خاتمة الكتاب، فلم يجد التفسير. ليس من تجارة في مكة، وليس من حرم يحجّ إليه العرب في مكة، بل إن مكة ليست في الحجاز، بل كانت قبل الإسلام قرية من خليج العقب. فما هو تفسير نهوض مكة إذن، وكيف أمكن لهذه المدينة الصحراوية أن تصل إلى المكانة التي أدركتها قبل ظهور الإسلام في ميزان السياسة الدولية. إن كرون لا توجب بشيء.

وتكتفي بإلغاء كل التفسيرات واحداً واحداً، فتحدث بذلك شبهة مضاعفة في أنها غير رغبة في التفسير، بل رغبة في إلغاء كل التفسيرات، على نحو مرعب.

ثالثاً: أعطت كرون خطأ منطقياً يتعلق بفلسفة التاريخ، فحللت بعض الحقب لتبّت أن مكة لم تكن لها تجارة دولية، وهذا صحيح في بعض الحقب وغير صحيح في بعضها الآخر. فإذا كانت القوافل في زمن ما تمرّ بسلام عبر بادية الشام فتنقل بضاعة الفرات الآتية بالسفن من الهند، إلى مدينة تدمر، لتسلمها بيوتات التجارة الرومانية، فإنه يتعدّر فهم الحاجة إلى تجارة قوافل مكة. وإذا كانت قوافل أخرى تستطيع نقل الحرير في الطرق الآسيوية، عبر بر الاناضول إلى القسطنطينية، فلماذا يتعّن علينا أن نصقّ أن التجار فضلوا اتخاذ طريق أطول نحو الجنوب بحراً ليمروا في مكة؟ وإذا كانت سفن رومة أو بيزنطة تستطيع أن تبحر بسلام عبر البحر الأحمر لتنقل التجارة الآتية من سيلان في المحيط الهندي، فأي منطق يقضي عوضاً عن ذلك استخدام القوافل الصحراوية؟ إن هذا منطق سليم طبعاً. لكنه لم يكن ممكناً في جميع الحقب. وتعميم القول بعدم الحاجة إلى التجارة المكية في كل عصر وزمان يتم عن تجاهل للظروف المتبدلة. هذه الظروف المتبدلة جعلت مكانة تدمر تنقص بسبب ثورتها على رومة وزوال الحكم القوي الذي كان يقود تجارتها الدولية وينظمها. وطريق الفرات عبر بادية الشام إلى المتوسط اندثرت شيئاً فشيئاً واستعاض عنها بطريق أخرى حين كانت تلمّ بها الحروب البيزنطية الساسانية، أو القتال اللخمي الفساني. وكانت طرق القوافل الآسيوية تُغفر لأسباب شبيهة. أما البحر الأحمر فكانت حصته من التجارة الدولية تزداد وتنقص حسب الظروف السياسية والعسكرية على ضفتيه، لكن الملاحه فيه قلّما كانت مأمونة العواقب في أي حال، حسبما يقول حوراني وغيره بسبب الرياح والقرصنة^(١)، وبسبب كثرة المرجان في شماله^(٢)، ولم يكن كل أباطرة رومة راغبين أو قادرين مثل

(١) Hourani: op. cit., pp. 20, 21

(٢) Hourani: ibid., p. 5

- ابن الكلبي، هشام بن محمد بن السائب أبو المنذر (ت: ٢٠٦ هـ / ٨٢١ م.
على الأكثر)
- كتاب الأصنام، تحقيق أحمد زكي، المكتبة العربية (مصورة عن نسخة
دار الكتب، القاهرة، ١٩٢٤).
- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي بن أحمد الأنصاري الإفريقي المصري
(ت: ٧١١ هـ / ١٣١١ - ١٣١٢ م.)
- لسان العرب، طبعة صادر، بيروت.
- ابن هشام، أبو محمد عبد الملك (ت: ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م. على الأكثر)
- سيرة النبي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر للطباعة
والنشر (مصورة عن الطبعة المصرية، ١٩٣٧).
- الأزرقي، محمد بن عبد الله بن أحمد (ت: ٢٢٢ هـ / ٨٣٧ م.)
- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ف. فستفلد، غوتنغن، ١٨٥٨،
أعادت طبعه مكتبة خياط، بيروت.
- الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد بن أحمد القرشي (ت:
٣٥٦ هـ / ٩٦٧ م.)
- الأغاني، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٦٣.
- الأندلسي، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم (ت: ٤٥٦ هـ /
١٠٦٤ م.)
- كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة المثنى، بغداد، بلا
تاريخ.
- الأندلسي، علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد (ت: ٦٨٥ هـ /
١٢٨٦ - ١٢٨٧ م.)
- نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، تحقيق نصرت عبد الرحمن،
مكتبة الأقصى، عمان، ١٩٨٢.

- البغدادى، محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي (ت: ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ -
٨٦٠ م.)
- المحجّر، تحقيق أيلزه ليختن شتير، المكتب التجاري للطباعة والنشر
والتوزيع، بيروت، ١٩٤٣ (مصورة عن طبعة حيدر آباد، ١٩٤٢).
- المنقّق، تحقيق خورشيد أحمد فارق، دائرة المعارف العثمانية، حيدر
آباد، الهند، ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م.
- البغدادى، أبو علي اسماعيل بن القاسم القالي (ت: ٣٥٦ هـ / ٩٦٧ م.)
- الأمالي، دار الأفاق الجديدة، مصورة عن دار الكتب المصرية، بلا
تاريخ.
- البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت: ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م.)
- معجم ما استعجم، طبعة السقا، لجنة الترجمة والتأليف والنشر،
القاهرة، ١٩٤٥.
- البلاذري، أحمد بن يحيى بن جعفر بن داود (ت: ٣٠٢ هـ / ٨٩٢ م. على
الأرجح).
- أنساب الأشراف، الجزء الأول، تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف
بمصر، ١٩٥٩.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر الكناني الفقيمي البصري (ت: ٢٥٥ هـ /
٨٦٨ - ٨٦٩ م.)
- كتاب البلدان، مطبعة الحكومة، بغداد، ١٩٧٠، مستلة من مجلة كلية
الآداب.
- الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت: ٦٢٦ هـ /
١٢٢٨ م.)
- معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧.
- الرازي، محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التيمي البكري فخر
الدين (ت: ٦٠٦ هـ / ١٢١٠ م.)

- التفسير الكبير، الجزء الأول، المطبعة البهية المصرية بميدان الأزهر بمصر، بلا تاريخ.

- الزبيري، المصعب بن عبدالله (ت: ٢٣٥ هـ / ٨٥١ م. على الأكثر) - نسب قریش، تحقيق: إ. ليفي برونسفال، دار المعارف للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٥٣.

- السهيلي، عبد الرحمن بن الخطيب أبو القاسم (ت: ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م.) - الروض الأنف، تحقيق عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب الحديثة، بلا تاريخ.

- الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد (ت: ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م.) - الملل والنحل، مكتبة المثنى، بغداد، بلا تاريخ.

- الطبرسي، الفضل بن الحسن بن الفضل (ت: ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م.) - مجمع البيان في تفسير القرآن، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦١.

- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير (ت: ٣١٠ هـ / ٩٢٣ م.) - تاريخ الرسل والملوك، دار الكتب المصرية، القاهرة، بلا تاريخ.

- جامع البيان في تفسير القرآن، بولاق، القاهرة، ١٣٢٩ هـ.

- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل (ت بعد: ٤٠٠ هـ / ١٠١٠ م.) - الأوائل، تحقيق محمد المصري ووليد قصاب.

- غيبن، إدوارد (ت: ١٧٩٤ م.) - اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، تعريب محمد علي أبو ريدة وآخرين، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر. وهو تعريب

لكتاب: The Decline and Fall of the Roman Empire.

- المرزوقي، أحمد بن محمد بن الحسن الأصفهاني (ت: ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م.)

- الأزمنة والأمكنة، حيدر آباد الدكن، ١٣٣٢ هـ.

- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت: ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م.)

- مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق شارل بلا، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٦٦.

- المقرئ، تقي الدين أحمد بن علي (ت: ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م.) - إمتاع الأسماع، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤١.

- النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود (ت: ٧١٠ هـ / ١٣١٠ م.)

- تفسير النسفي أو مدارك التنزيل وحقائق التأويل، دار إحياء الكتب العربية بمصر، بلا محقق ولا تاريخ.

- النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي (ت: بعد ٨٥٠ هـ / بعد ١٤٤٦ م.)

- غرائب القرآن ورغائب الفرقان، بولاق، القاهرة، ١٣٢٩ هـ.

- الهمداني، أبو الفضل صالح بن أحمد بن محمد (ت: ٣٧٤ هـ / ٩٨٤ م.) - كتاب الإكليل، الجزء الأول، تحقيق محمد بن علي الحوالي، مطبعة

السنة المحمدية، القاهرة، ١٩٦٣ م. الجزء الثامن، حرره نبيه أمين فارس، برنستون، ١٩٤٠. الكتاب العاشر، تحقيق محب الدين الخطيب،

المطبعة السلفية ومكتبها، القاهرة، ١٣٦٨ هـ.

- كتاب البلدان، مطبعة بريل، ليدن، ١٣٠٢ هـ.

٢ - المراجع العربية والمعرية - الأسد، ناصر الدين: مقدمة لدراسة القبائل العربية في الخليج قبل

الإسلام: هجراتها وعلاقتها بالقبائل الأخرى بالجزيرة العربية، دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى إحسان عباس، تحرير وداد القاضي، الجامعة الأميركية في بيروت، ١٩٨١.

- أمين أحمد: فجر الإسلام، دار الكتاب العربي، الطبعة العاشرة، بيروت، ١٩٦٩.

- الأفغاني، سعيد: أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٩٣٧.

- أوليري، ديلاسي: علوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب، تعريب وهيب كامل، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٢.

- أوليري، ديلاسي: الفكر العربي ومكانه في التاريخ، تعريب تمام حسان، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦١.

- بيضون، إبراهيم: الأنصار والرسول، معهد الإنماء العربي، بيروت، ١٩٨٩.

بيضون، إبراهيم: الإيلاف والسلطة في مكة قبل الإسلام، دراسات، السنة الثانية عشرة، العدد ١٨، كلية التربية، الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٨٥.
بيضون، إبراهيم: الحجاز والدولة الإسلامية: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٣.

- حمّور، عرفان محمد: أسواق العرب، دار الشورى، بيروت، ١٩٧٩.

- حميد الله، محمد: مجموعة الوثائق السياسية للمعهد النبوي والخلافة الراشدة، الطبعة الثانية، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٦.

- الدّيس، يوسف: من تاريخ سورية الدنيوي والديني، بلا ناشر ولا مصدر ولا تاريخ، مصوّرة عن طبعة بيروت الأصلية.

- درادكة، صالح: إيلاف قریش، ملاحظات حول عوامل السيادة المكية قبل الإسلام، دراسات تاريخية، العددان ١٧ و١٨، لجنة كتابة تاريخ العرب، جامعة دمشق، آب - تشرين الثاني / أغسطس - نوفمبر، ١٩٨٤.

- الدوري، عبد العزيز: مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، دار الطليعة، الطبعة الرابعة، بيروت، ١٩٨٢.

- رستم، أسد: عصر أوغسطس قيصر وخلفائه، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٦٥.

- السيد، رضوان: جدليات العقل والنقل والتجربة التاريخية للأمة في الفكر السياسي العربي الإسلامي، مجلة الفكر العربي، العدد ١٥، أيار وحزيران / مايو ويونيو، ١٩٨٠.

- الشريف، أحمد إبراهيم: مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول، الطبعة الثانية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٥.

- شيخو، لويس: شعراء النصرانية في الجاهلية، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٨٢.
مصوّرة عن الطبعة الأولى لمطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين، بيروت، ١٩٢٦.

- الصلوي، إبراهيم محمد: قصة أصحاب الأخدود، أطروحة غير منشورة، الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٧٩.

- ضو، بطرس: تاريخ الموارد، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٧٧.

- علي، جواد: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت - دار النهضة، بغداد، ١٩٧٦.

- العلي، صالح أحمد: محاضرات في تاريخ العرب، مكتبة المثني، بغداد، ١٩٦٨.

- فازيليف، أ.أ.: العرب والروم، تعريب محمد عبد الهادي شعيرة،

- Cambridge Ancient History, Cambridge University Press, 1951.
- CASSON, Lionel: *Ships and Seamen in the Ancient World*, Princeton University Press, Princeton, 1971.
- CHARLESWORTH, M.P.: *Trade Routes and Commerce of the Roman Empire*, Cambridge University Press, 1924.
- CLOWES, G.S. Laird: *Sailing Ships, their History and Development*, Ministry of Education, London, 5th.ed., 1932, reprinted 1959.
- CONRAD, Lawrence I.: *Abraha and Muhammad: Some Observations Apropos of Chronology and Literary TO POI in the Early Arabic Historical Tradition*, B.S.O.A.S., vol.50 (1987), pp. 225 - 240.
- CRONE, Patricia: *Meccan Trade and the Rise of Islam*, Princeton University Press, 1987.
- CULVER, Henry B.: *The Book of Old Ships*, Garden City Publishing Company, New York, 1935.
- DARREL, Haug Davis: *The Earth and Man*, Mac Millan New York, 1943.
- DE PLANHOL, Xavier: *Les Fondements Géographiques de l'Histoire de l'Islam*, Flammarion, Paris, 1968.
- DEVREESE, Robert: *Arabes-Perces et Arabes-Romains, Lakhmides et Ghassanides*, Revue Biblique, II (1942), pp. 263 - 307.
- DIODORUS SICULUS: Translated by C.H. Oldfather, the Loeb Classical Library. London and Cambridge, 1935.
- DONNER, Fred McGraw: *The Bakr b. Wa'il Tribes and Politics in North-eastern Arabia on the Eve of Islam*, Studia Islamica, Ex fasciculo LI, (1980), G.P. Maisonneuve-Larose, Paris.
- _____ *The Formation of the Islamic State*, Journal of the American Oriental Society, 106.2 (1986), pp. 283 - 296.
- _____ *Mecca's Food Supplies and Muhammad's Boycott*, Journal of the Economic and Social History of the Orient, vol.xx, part III, pp. 249 - 266.
- _____ *Muhammad's Political Consolidation in Arabia up to the Conquest of Mecca*, The Muslim World, vol. LXIX, No 4 (1979), pp. 229 - 247.
- DOSTAL, Walter: *The Evolution of Beduin Life*, Studi Semitici, II (1959), pp. 11 - 34.

- وزارة المعارف العمومية، القاهرة، بلا تاريخ.
- فرانكفورت، ه. (وآخرون): ما قبل الفلسفة، تعريب جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٨٠.
- فيلهاوزن، يوليوس: تاريخ الدول العربية، تعريب محمد عبد الهادي أبو ريدة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٨.
- مؤنس، حسين: أطلس تاريخ الإسلام، دار الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٨٧.
- ولفستون، إسرائيل: تاريخ اللغات السامية، مطبعة الاعتماد، القاهرة، ١٩٢٩.

٣ - المصادر والمراجع الأجنبية:

- ABERCROMBIE, Thomas J.: *Arabia's Frankincense Trail*, National Geographic, vol. 168, Nr.4, Oct. 1985, pp. 474 - 513.
- AHMAD, Nafis: *The Arabs' Knowledge of Ceylon*, Islamic Culture, vol. 19 (1945), pp. 223 - 241.
- ALI, Abdul: *The Arabs as Seafarers*, Islamic Culture, vol. 54 (1980), Nr. 4, pp. 211 - 222.
- AMIT, M.: *Athens and the Sea, a Study in Athenian Sea Power*, Latomus, Bruxelles, 1965.
- ANANI, Ahmad: *Gulf Relations with the West: an Historical Survey (Part I)*, Islamic Culture, vol.60 (1986), Oct., pp. 53 - 82.
- BOWERSOCK, G.W.: *A Report on Arabia Provincia*, Journal of Roman Studies, 61 (1971), pp. 219 - 242.
- _____ *Syria under Vespasian*, Journal of Roman Studies, 63 (1973), pp. 133 - 140.
- BRADFORD, Ernie: *The Year of Thermopylae*, Mac Millan London Limited, 1980.
- BURN, A.R.: *Peria and the Greeks*, Stanford University Press, Stanford, California, 1984.

- GRAF, David F.: *The Saracens and the Defense of the Arabian Frontier*, Bulletin of American Schools of Oriental Studies, 229 (1978), pp. 1 - 26.
- GRUNDY, G.B.: *The Great Persian War and its Preliminaries*, A.M.S. Press, New York, 1969.
- HAJI HASSAN, Abdullah Alwi: *The Arabian Commercial Background in pre-Islamic Times*, Islamic Culture, vol. 61 (1987), Nr.2, pp. 70 - 83.
- HAMIDULLAH, Muhammad: *Intercalation in the Qur'an and the Hadith*, Islamic Culture, vol. 17 (1943), pp. 327 - 330.
- *Al-Ilaf, ou les rapports économique-diplomatiques de la Mècque pré-islamique*, Mélanges Louis Maissigot II, (1957), pp. 293 - 311.
- *The Naaf, the Hijrah Calendar and the Need of Preparing a New Concordance for the Hijrah and Gregorian Eras*, Journal of the Pakistan Historical Society, 16 (1968), pp. 1 - 18.
- *The Concordance of the Hijrah and Christian Eras for the Life-Time of the Prophet*, Journal of the Pakistan Historical Society, 16 (1968), pp. 213 - 219.
- *Les voyages du Prophète avant l'Islam*, B.E.O., XXIX, (1979), pp. 221 - 230.
- HARTMAN, Martin: *Qumrān*, Zeitschrift für Assyriologie, XXVII (1912), ss. 43 - 49.
- HAWTING, G.R.: *The Disappearance and Rediscovery of Zamzam and the Well of the Ka'ba*, B.S.O.A.S., vol. 43 (1980), pp. 44 - 54.
- HENNINGER, Joseph: *La société bédouine ancienne*, Studi Semitici, II (1959), pp. 69 - 93.
- HERODOTUS: *The Histories*, translated by Aubrey de Sélincourt, The Penguin Classics, Edinburgh, 1963.
- HÖFNER, Maria: *Die Beduinen in der Vorislamischen Arabischen Inschriften*, Studi Semitici, II (1959), ss. 53 - 68.
- HOURANI, George Fadio: *Arab Seafaring in the Indian Ocean in Ancient and Early Medieval Times*, Princeton University Press, 1951.
- HUSEIN, Raef T.A.: *The Early Arabian Trade and Marketing*, Islamic Quarterly, vol.30 (1986), pp. 109 - 117.

- *Encyclopédie de l'Islam*, Nouvelle Edition, Brill, Leiden-Maisonneuve et Larose, Paris, 1986:
 - Abrahā, BEESTON, A.F.L. (Ṭabarī; Ibn Hishām, Aghānī;... Procope: De bello persico...).
 - Hāshim b. 'Abd Manīf, MONTGOMERY-WATT, W. (Ibn Hishām; F. Wüstenfeld, Chroniken der Stadt Mekka, Leipzig 1858 - 61).
 - Huma, MONTGOMERY-WATT, W. (Ibn Hishām; Ya'qūbī; Azraqī; Ibn Ḥabīb: Muḥabbar; J. Wellhausen: Reste Arabischen Heidentums...).
 - Ilāf, REDACTION (Ibn Ḥabīb: Muḥabbar; Ibn Hishām: Sirā; Ya'qūbī; Ibn Sa'd; Ṭabarī; Mas'ūdī...).
 - Ilāh, MACDONALD, D.B. (al-Riḍā: Maḥḥab al-ghayb; al-Bayḍawī; al-Zamakhsharī...).
- FAHD, Toufic: *Le Panthéon de l'Arabie Centrale à la veille de l'Hégire*, Librairie Orientale Paul Geuthner, Paris, 1968.
- FIEY, Jean Maurice: *Diocèses syriens orientaux du Golfe Persique, Mémorial Mgr Gabriel Khouri-Sarkis*, Louvain, 1969, pp. 177 - 219.
- *Book Review of Christianity among the Arabs in Pre-Islamic Times*, by J. Spencer Trimingham, Theological Review, The Near East School of Theology, II/2, Beirut, 1979, pp. 45 - 49.
- *Book Review of L'Orient Chrétien à la veille de l'Islam*, by Edmond Rabbath, Theological Review, III/2, Beirut, 1980.
- *The Last Byzantine Campaign into Persia and its Influence on the Attitude of the Local Populations towards the Muslim Conquerors 7-11 A.D.* - الملتزم الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، ص ١٦ - ٢٢ / مايو، ١٩٨٥.
- GABRIELI, Francesco: *A Short History of the Arabs*, Robert Hale, London, 1965.
- GAWLIKOWSKI, Michel: *Le Commerce de Palmyre sur terre et sur eau, L'Arabie et ses mers bordières, I*, sous la direction de Jean-François Salles, GS-Maison de L'orient, yon 1988, pp. 163 - 172.
- GERMANUS, A.K. Julius: *Legacy of Ancient Arabia*, Islamic Culture, vol. 37 (1963), pp. 261 - 269.
- GIBB, Hamilton A.R.: *Pre-Islamic Monotheism in Arabia*, Harvard Theological Review, vol.55 (1962), pp. 269 - 280.

- MAC ADAM, Henry Innes: *Cicero's Reference to Beatra*, reprinted from *Classical Philology*, vol. 78, No 2, April 1983, pp. 131 - 136.
- MILLAR, Fergus: *Paul of Samosata, Zenobia and Aurelian: The Church, Local Culture and Political Allegiance, in Third Century Syria*, *Journal of Roman Studies*, 61 (1971), pp. 1 - 17.
- MILLER, J. Innes: *The Spice Trade of the Roman Empire*, Oxford University Press, 1969.
- MONTGOMERY-WATT, W.: *Muhammad at Mecca*, Oxford University Press, 1953.
- *Economic and Social Aspects of the Origin of Islam*, *Islamic Quarterly*, I (1954), pp. 90 - 103.
- *Muhammad at Medina*, Oxford Clarendon Press, 1956.
- MUBARAC, Y.: *Les Noms, Titres et Attributs de Dieu dans le Coran et leurs Correspondants en Epigraphie Sud-Sémitique*, *Le Muséon*, 68 (1955), pp. 93 - 135, 325 - 368.
- NADAVI, Sayyed Sulaiman: *Arab Navigation*, *Islamic Culture*, vol. 16 (1942), pp. 72 - 86.
- NOBIRON, Rev. Bro. Louis: *Notes on the Arab Calendar Before Islam* (Translation of Caussin de Perceval: «Memoire sur le Calendrier Arabe avant l'Islamisme», in: *Journal Asiatique*, Avril 1843), *Islamic Culture*, vol. 21 (1947), pp. 135 - 153.
- PARR, P.J.: *Exploration archéologique du Hedjaz et de Madian*, *Revue Biblique*, 76 (1969), pp. 390 - 393.
- *PERIPLUS OF THE ERYTHRAEAN SEA*, translated by Wilfred H. Schoff, Longmans, Green and Co., New York, 1912.
- PETERS, F.E.: *The Commerce of Mecca Before Islam*, in: *A Way Prepared, Essays on Islamic Culture in Honor of Richard Bayly Winder*, Edited by Farhad Kazemi and R.D. McChesney, New York University Press, New York and London, 1988.
- PFLAUM, H.G.: *La Fortification de la ville d'Adraha d'Arabie (259 - 268 à 274 - 275) d'après des inscriptions récemment découvertes*, *Syria* 29 (1952), pp. 307 - 330.

- JONES, A.H.M.: *The Cities of the Eastern Roman Provinces*, Oxford University Press, 1971.
- KENYON, Kathleen M.: *Some Aspects of the Impact of Rome on Palestine*, *Journal of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland*, 1970 (2), pp. 181 - 191.
- KIRKBRIDE, Diana: *Le temple nabatéen de Ramm, son évolution architecturale*, *Revue Biblique*, 67 (1970), pp. 65 - 92.
- KISTER, M.J.: *The Campaign of Huluban, a New Light on the Expedition of Abraha*, *Le Muséon*, 78 (1965), pp. 425 - 436.
- *Al-Hira, Some notes on its relations with Arabia*, *Arabica*, XV (1968), pp. 143 - 169.
- *Maqam Ibrahim, a Stone with an Inscription*, *Le Muséon* 84 (1971), pp. 477 - 491.
- *«Rajab is the Month of God...» A Study in the Persistence of an Early Tradition*, *Israel Oriental Studies*, I (1971), pp. 191 - 223.
- *Some Reports Concerning Mecca from Jahiliyya to Islam*, *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, XV (1972), pp. 61 - 93.
- KREHL, Ludolf: *Über die Religion der Vorislamischen Araber*, Oriental Press, Amsterdam, 1972 (Neudruck der Ausgabe Leipzig 1863).
- KREMKOW, F.: *The Annual Fairs of the Pagan Arabs*, *Islamic Culture*, XXI (1947), pp. 111 - 113.
- LAMMENS, Henri: *Les Grandes Fortunes à la Mecque au Siècle de l'Hégire*, *Egypte Contemporaine*, VIII (1917), pp. 17 - 30.
- *L'Arabie Occidentale avant l'Hégire*, Imprimerie Catholique, Beyrouth, 1928.
- LANDSTRÖM, Björn: *Sailing Ships*, George Allen and Unwin, London, 1969.
- LEWIS, Bernard: *The Middle East and the West*, Harper and Row, New York, 1966.
- LEOWE, Michael: *Spices and Silk: Aspects of World Trade in the First Seven Centuries of the Christian Era*, *Journal of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland*, 1971(2), pp. 166 - 179.

- SANLAVILLE, Paul: Des Mers au Milieu du Désert, Mer Rouge et Golfe Arabe-Persique, dans *L'Arabie et ses Mers Bordières*, I, sous la direction de Jean-François Salles, GS Maison de l'Orient, Lyon, 1988; pp. 9 - 26.
- SERJEANT, R.B.: *Haram and Hawtah, the Sacred Kadiwa in Arabia*, Mélanges Taha Hussein, 1962, pp. 41 - 58.
- SEYRIG, Henry: Les inscriptions de Bostra, Syria, 22 (1941 a), pp. 44 - 48.
- _____ Inscriptions grecques de l'Agave de Palmyre, Syria 22 (1941 b), pp. 223 - 270.
- _____ Antiquités Syriennes - Postes romains sur la route de Médine, Syria 22 (1941 c), pp. 218 - 223.
- _____ Sur trois inscriptions du Hadjran, Syria 34 (1957), pp. 259 - 261.
- SHAHID, Irfan: The Arabs in the Peace Treaty of 641, Arabica III (1956), pp. 181 - 213.
- _____ Ghassan and Byzantium: A New terminus a quo, Der Islam, XXXIII (1958), pp. 232 - 255.
- _____ The Last Days of Saffa, Arabica, V (mai, 1958, 2), pp. 145 - 158.
- _____ Byzantine-Arabica: The Conference of Ramla, A.D. 834, Journal of Near Eastern Studies, XXXIII (1964), pp. 115 - 131.
- _____ The Martyrs of Najran, New Documents, Société des Bollandistes, Bruxelles, 1971.
- _____ Byzantium in South Arabia, Dumbarton Oaks Papers XXXIII, 1979, Dumbarton Oaks Center for Byzantine Studies, Washington.
- _____ Philological Observations on the Namara Inscription, Journal of Semitic Studies, vol. 24, No1, 1979, pp. 33 - 42.
- _____ Two Qur'anic Suras: Al Fih and Quraya, Studia Arabica et Islamica, Festschrift for Ihsan Abbas, edited by Wadad al Qadi, American University of Beirut, 1981, pp. 429 - 436.
- _____ Byzantium and the Arabs in the Fourth Century, Dumbarton Oaks, Washington, 1984.
- _____ Byzantium and the Arabs in the Fifth Century, Dumbarton Oaks, Washington, 1989.

- PLINY: *Natural History*, translated by H. Rackham, London and Cambridge, 1969.
- POTTS, Daniel T.: *Trans-Arabian Routes of the Pre-Islamic Period*, dans *L'Arabie et ses Mers Bordières*, I, sous la direction de Jean-François Salles, GS-Maison de l'Orient, Lyon, 1988, pp. 127 - 162.
- PRINS, A.H.J.: *Sailing from Lams, Assen*, 1965.
- PROCOPIUS: *History of the Wars*, translated by H.B. Dewing, Cambridge and London, 1979.
- RABBATH, Edmond: *L'Orient Chrétien à la veille de l'Islam*, Publications de l'Université Libanaise, Beyrouth, 1980.
- _____ Mahomet, Prophète arabe et fondateur d'état, Publications de l'Université Libanaise, Beyrouth, 1981.
- RODINSON, Maxime: *Mohammed*, Penguin Books, Suffolk, Great Britain, 1977.
- RONCAGLIA, Martiniano: *Histoire de l'Eglise Copte*, Dar Al-Kalima, Liban, 1971.
- ROUGE Jean: *La Navigation en Mer Erythrée dans l'Antiquité*, dans *L'Arabie et ses Mers Bordières*, I, sous la direction de Jean-François Salles, GS-Maison de l'Orient, Lyon, 1983, pp. 59 - 74.
- ROWTON, M.: *Enclosed Nomadism*, Journal of the Economic and Social History of the Orient, vol. XVII (1974), part 1, pp. 1 - 30.
- RYCKMANS, G.: *Un fragment de jarre avec caractères minéens à Tell el-Khelefeh*, Revue Biblique, 48 (1939), pp. 247 - 249.
- _____ *Graffites Thamoudéens de la région de Cadès*, Revue Biblique, 48 (1939), pp. 242 - 247.
- RYCKMANS, Jacques: *Inscription de Muraighan (RY 506)*, Le Muséon, 66 (1953), pp. 330 - 342.
- SALIBI, Kamal S.: *Hadramut: A Name with a Story*, Studia Arabica et Islamica, Festschrift for Ihsan Abbas, edited by Wadad al Qadi, American University of Beirut, 1981, pp. 393 - 397.
- SALLES, Jean-François: *La Circumnavigation de l'Arabie dans l'Antiquité Classique*, dans *L'Arabie et ses Mers Bordières*, I, sous la direction de Jean-François Salles, GS Maison de l'Orient, Lyon, 1988; pp. 75 - 102.

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٣	المقدمة
	الجزء الأول
١٩	الفصل الأول: سورة قمرش
١٩	أ- المعنى اللغوي
٢١	ب- المعنى التاريخي
٢٤	ج- الفيل وقمرش
٢٦	د- فائدة وحدة السورتين
٢٩	هـ- سورة الفيل
٣٣	الفصل الثاني: الغرب وتجارة الشرق
٣٣	أولاً: العرب بين الشرق والغرب
٣٣	أ- الصراع المستمر
٣٦	ب- فوائد البدو وخطرهم
٣٩	ج- ضرورة التجارة الشرقية
٤٢	د- طرق التجارة البرية
٤٦	ثانياً: رومة وتجارة الشرق
٤٦	أ- الثمن الاقتصادي والسياسي
٤٨	ب- الإسكندر والمياه الدافئة
٥١	ج- سياسة رومة قبل الميلاد
٥٥	د- سياسة رومة في القرن الأول

- SIMON, R.: L'Inscription RY 506 et la préhistoire de la Mècque, Acta Orientalia Academiae Scientiarum Hungaricae, XX (1967), pp. 325 - 337.

_____ Hume et Ilaf, ou Commerce sans Guerre (Sur la Genèse et le Caractère du Commerce de la Mècque), Acta Orientalia Academiae Scientiarum Hungaricae, XXIII (2) (1970), pp. 205 - 232.

_____ Sur l'institution de la Mu'alla: Entre le tribalisme et l'Umma, Acta Orientalia Academiae Scientiarum Hungaricae, XXVII (3), (1973), pp. 333 - 343.

- SMITH, Sidney: Events in Arabia in the 6th Century A.D., B.S.O.A.S., XVI (1954), pp. 425 - 468.

- SOMOGYI, Joseph: The Part of Islam in Oriental Trade, Islamic Culture, vol. 30 (1956), pp. 179 - 189.

- STRABO: The Geography, translated by Horace Leonard Jones, the Loeb Classical Library, London and New York, 1930.

- SUBHI, J. Labib: Die Islamische Expansion und das Piratenwesen im Indischen Ozean, Der Islam, Band 58, Heft 1, ss. 147 - 167.

- TRIMINGHAM, John Spencer: Islam in Ethiopia, Frank Cass, London, 1976.

_____ Christianity among the Arabs in Pre-Islamic Times, Longman, London and New York, Librairie du Liban, 1979.

- VAN DEN BRANDEN, Albert: Histoire de Thamoud, Publications de l'Université Libanaise, 2e éd., Beyrouth, 1966.

- VILLIERS, Alan: Monsoon Seas, the Story of the Indian Ocean, McGraw-Hill, New York, 1952.

- VON GRÜNEBAUM, G.E.: The Nature of the Arab Unity before Islam, Arabica X (1963), pp. 5 - 25.

- VON WISSMANN, Hermann: Himsyr Ancient History, Le Muséon, (1964) (3 - 4), pp. 429 - 499.

- WILL, Ernst: Marchands et chefs de caravanes à Palmyre, Syria, 34 (1957), pp. 262 - 277.

- WINNETT, F.V.: Allah before Islam, The Moslem World, XXVIII (1938), Kraus Reprint Co., New York, 1968.

٥٧	هـ - الحدود الشرقية أيام السلم
٦٠	و - نموذجان: تدمير والأنباط
٦٣	ز - تريبانوس يضم مملكة الأنباط
٦٥	ح - ما بعد تريبانوس
٦٨	ثالثاً: عصر تدمير
٦٨	أ - الصعود إلى القوة
٧١	ب - تنظيم القواغل التدمرية
٧٣	ج - العقيدة الدينية والمستقلة
٧٧	د - السلوك السياسي الاستقلالي
٨٢	رابعاً: ما بعد تدمير
٨٢	أ - البحث عن سياسة حدود
٨٥	ب - سياسة القرن الرابع
٨٧	ج - القرن الرابع على جانبي الفرات
٩١	د - القرن الرابع في اليمن
٩٣	هـ - القرن الخامس في اليمن
٩٥	و - القرن الخامس في فلسطين
٩٩	الفصل الثالث: الأحوال الدولية في القرن السادس
٩٩	أولاً: الحرب في صحراء الشام وجوارها
٩٩	أ - سياسة الحدود في القرن السادس
١٠٢	ب - ظهور بني فُسان
١٠٥	ج - حروب الوكلاء العرب
١٠٧	د - عصر المنذر بن النعمان
١٠٩	هـ - معاهدة السلام «الأبدى»
١١٢	و - أزمة الوكلاء العرب
١١٥	ز - حروب نهاية القرن

١١٨	ثانياً: الصراع في جنوب الجزيرة العربية
١١٨	أ - الحبشة واليمن في التاريخ
١٢١	ب - مسيحيو بيزنطة ويهود فارس
١٢٣	ج - دخول الصخرانية اليمن
١٢٧	د - بداية الصراع في القرن السادس
١٣٠	هـ - الغزو الحبشي الأول لليمن
١٣٣	و - عزل ذي نواس
١٣٥	ز - الغزو الحبشي الثاني لليمن
١٣٨	ح - استيلاء أبرهة على الحكم
١٤١	ط - ولاء أبرهة لبيزنطة
١٤٤	ي - ثورة سيف بن ذي يزن
١٤٧	ك - حكم الفرس لليمن
١٥٠	ثالثاً: الصراع داخل الجزيرة العربية
١٥٠	أ - الصخرانية في الجزيرة العربية
١٥٣	ب - اليهود على طريق القواغل
١٥٨	ج - نفوذ الفرس في جزيرة العرب
١٦٠	د - ذرائع حملة أبرهة على مكة
١٦٤	هـ - أسباب الحملة الحفيفة
١٦٧	و - عام الفيل
١٧٢	ز - من قاتل أبرهة ومن ناصره؟
١٧٦	ح - مكة وبيزنطة
١٧٩	ط - عثمان بن الحويرث
	الجزء الثاني
١٨٥	مقدمة الجزء الثاني
١٨٧	الفصل الرابع: تجارة الإبل وطرقه وتنظيمه

أولاً: عوامل ظهور مكة	١٨٧
أ- وادٍ غير ذي زرع	١٨٧
ب- مكة والتجارة	١٩٠
ج- أسباب التحول إلى غرب الجزيرة	١٩٣
د- انهيار التجارة اليمنية	١٩٦
هـ- أسباب تفوق مكة	١٩٨
ثانياً: إيلاف قريش	٢٠١
أ- من التجارة المحلية	٢٠١
ب- الرواية الإسلامية والشكوك	٢٠٥
ج- إلى التجارة الدولية	٢٠٧
د- متى قام الإيلاف؟	٢١٠
هـ- أطراف الإيلاف الأربعة	٢١٤
و- أحلاف قريش القبيلة	٢١٩
ز- إيلاف القبائل العربية	٢٢٣
ح- الرفادة والسفابة	٢٢٦
ط- تجارة وتدين	٢٢٨
ثالثاً: التجارة والطرق	٢٣١
أ- البضائع ومصادرها	٢٣١
ب- الحرير والذهب والفضة	٢٣٧
ج- اللبان والفرصة التاريخية	٢٤٠
د- الطيوب والتوابل	٢٤٣
هـ- رحلة الشتاء والصيف	٢٤٦
و- مكة تتاجر	٢٤٩
ز- المال والصيرفة	٢٥٤
ح- الإبل وطرق الصحراء	٢٥٧
خريطة المشرق العربي السياسية قبل الإسلام	٢٦٠

خريطة القبائل العربية في الجزيرة العربية قبل الإسلام	٢٦١
خريطة الأحلاف القبلية في الجزيرة العربية قبل الإسلام	٢٦٤
ط- هل سافر العرب بحراً؟	٢٦٦
خريطة طرق التجارة في الجزيرة العربية قبل الإسلام	٢٦٨
ي- متى الإبحار إلى الهند؟	٢٧٣
خريطة الأصنام في الجزيرة العربية قبل الإسلام	٢٧٦
ك- سرعة الرحلة إلى الهند	٢٧٩
خريطة الطرق البحرية إلى الهند قبل الإسلام	٢٨١
الفصل الخامس: الإيلاف ومؤسساته	٢٨٥
أولاً: الوظائف المكنة	٢٨٥
أ- نصي المؤسس	٢٨٥
ب- علاقة نصي بالتجارة	٢٨٩
ج- السياسة والحرب	٢٩٢
د- لغز الأحابيش	٢٩٤
هـ- إطعام الحجاج والتجار	٢٩٦
ثانياً: العقائد السياسية والدينية	٢٩٩
أ- الخمس وحرمة مكة	٢٩٩
ب- أهل الجلة والطلس	٣٠٣
ج- الأشهر الحرم	٣٠٧
د- حروب الفجار	٣١٠
هـ- انتصار مكة على الحيرة	٣١٥
و- الحلف الشخصي والقبلي	٣١٩
ز- المطيبون والأحلاف	٣٢١
ح- حلف الفضول	٣٢٦
ثالثاً: النسيء	٣٣٠